المؤلفات الكاملة

م

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

الطبعة الثانية

زاد المسير

دروس في شرح وبيان المواعظ البليغة التي ألقاها رسول الله (ص)
على مسمع الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري

تقرير: كريم السبحاني
ترجمة: عباس نور الدين

زاد المسير

ثمن قراءة الكتاب ذكر الصلاة على محمد وال محمد وعجل فرجهم 10 مرات بنية تعجيل الفرج

زاد المسير

دروس في شرح وبيان المواعظ البليغة التي ألقاها رسول الله (ص) على مسمع الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

تدوين وتحقيق: السيد كريم السبحاني

ترجمة: السيد عباس نور الدين

الطبعة الثانية

ISBN 978-614-440-153-8

[٢٠١٩م - ١٤٤١هـ]

العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم:

علي بزي

إخراج فني:

ابراهيم شحوري

طباعة

0096 13 336218
info@dboukart.com

الفهرس

مقدّمة

إنّ مذهب التحرّر وحقيقة الحرّية لا يتحقّقان إلّا بالعبوديّة للحقّ جلّ وعلا، بل ولا يمكن نيلهما أو البحث عنهما إلّا فيها: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[١].

إنّ الذين أقاموا في ظلال الهداية، وشقّوا سبيلهم نحو حريم الولاية، وصلوا في نهاية المطاف إلى وصال المحبوب، فنالوا شرف اللقاء بحضرته. فإذا أشرقت شمس الهداية من مشرق الرسالة على عين القلب، جلتها فكشفت عن جوهرة التوحيد، وفطرة العشق الإلهيّ في قلب الإنسان. إنّ قدح العشق لا يؤخذ إلّا من يد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وكأس الكوثر لا يُحتسى إلّا من أنامل المعصوم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فهلمّوا لكي نجلي قلوبنا بزمزم الهداية المتدفّق للنبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ونغسل أرواحنا بمعين الكلام النبويّ الفيّاض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢].

هذا الأثر هو مجموعة دروس في الأخلاق لآية الله الأستاذ الشيخ مصباح اليزديّ (دام عزّه) ألقاها في حوزة قم العلميّة، وقد تمّ تحقيقها وتدوينها بقلم السيّد كريم السبحانيّ.

موضوع هذه السلسلة من الدروس يدور حول الحديث المعروف بـ «حديث أبي ذرّ» الذي أسدى إليه نبيّ الإسلام العظيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مواعظ جامعة ونصائح

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ١١.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٢٤.

مفيدة من الممكن أن يستفيد منها الجميع.

نسأل الله العليّ القدير أن يجعل من طباعة ونشر هذا الأثر خطوة بنّاءة على طريق نشر الثقافة والمعارف الإسلاميّة، وأن تنال قبول أهل الرأي، ورضى وليّ العصر وصاحب الزمان، بإذن الله تعالى.

قم/ مؤسّسة الإمام الخمينيّ (قده)
للتعليم والبحوث
قسم النشر

الدرس الأول
كيفية العبودية وطريق الفلاح

❖ العبادة ونيل حضور الحقّ
❖ عبادة الله وسيلة التكامل والترقّي
❖ مراحل العبودية
أ . معرفة الله
ب . الإيمان بالنبيّ والاعتراف برسالته
ج . محبة أهل بيت النبيّ
❖ تشبيه أهل البيت بسفينة نوح وباب حطة بني إسرائيل

«عن أبي الأسود قال: قدمت الربذة فدخلت على أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه فحدثني أبو ذر، قال: دخلت ذات يوم في صدر نهاره على رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجده فلم أرَ في المسجد أحدًا من الناس إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي إلى جانبه جالس فاغتنمت خلوة المسجد فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أوصني بوصية ينفعني الله بها، فقال: نعم وأكرم بك يا أبا ذر إنّك منّا أهل البيت وإنّي موصيك بوصية فاحفظها فإنها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنّك إن حفظتها كان لك بها كفلان.

يا أبا ذر اعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنّه يراك، واعلم أنّ أوّل عبادة الله المعرفة به، فهو الأوّل قبل كلّ شيء فلا شيء قبله، والفرد فلا ثاني له، والباقي لا إلى غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء وهو الله اللطيف الخبير وهو على كل شيء قدير، ثم الإيمان بي والإقرار بأن الله تعالى أرسلني إلى كافة الناس بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا، ثمّ حبّ أهل بيتي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

واعلم يا أبا ذر أنّ الله عزّ وجلّ جعل أهل بيتي في أمّتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن رغب عنها غرق، ومثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله كان آمنًا»[١].

تعتبر هذه الرواية التي جعلناها محور بحثنا من جملة المواعظ الجامعة وعظيمة

---

(١) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٧٤، الصفحتان ٧٤ و٧٥. وأيضًا: الشيخ الطبرسي، **مكارم الأخلاق**، الصفحة ٤٥٩. والشيخ الطوسي، **الأمالي**، الصفحة ٥٢٥. والسيد محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، الجزء ٤، الصفحة ٢٢٧.

الفائدة التي ألقاها النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ على مسمع أحد أصحابه الأجلّاء المعروف بأبي ذرّ. ومتن هذه الرواية مذكورٌ مع اختلافات يسيرة في الكتب القيّمة كـ **مكارم الأخلاق** و**الأمالي** للشيخ الطوسي و**مجموعة ورّام** وفي **بحار الأنوار**. ونحن بتوفيق الله تعالى سننقلها من كتاب البحار ونحاول قدر الإمكان أن نقوم بشرح وتوضيح بعض جوانبها.

نجد بدايةً أنّ أبا الأسود الدؤلي ينقل عن أبي ذر أنّه كان يحاول أن يستفيد ويغتنم محضر رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ طالبًا منه الوصية والنصيحة، ثمّ يجيبه رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بقوله: «**نَعَم وأكرِم بك يا أبا ذر إنّك منّا أهل البيت**»[١].

ولفظ «أفعِلْ به» يأتي في اللغة العربية بصيغة التعجّب ويُستعمل في المورد الذي يكون الإنسان فيه متعجّبًا، مثلًا، من حسن أو جمال شخصٍ ما فيقول: «أجمِل بك» أي ما أجملك. وبقوله «أكرِم بك» يعني أيّ كرامةٍ أنت عليها أو ما أكرمك! وإطلاق هذا اللفظ من جانب النبيّ يدلّ على مقام عظيم ومنزلة رفيعة لهذا الصحابيّ الجليل عند رسول الله. بالإضافة إلى أنّ النبيّ في تأكيده على البيان السابق عدَّ أبا ذر من بيته (كما ذكر ذلك بشأن سلمان حين قال: سلمان منّا أهل البيت). ثمّ يضيف فيقول إنّ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال لأبي ذرّ واعظًا: «**وإنّي موصيك بوصيةٍ فاحفظها [وصية] جامعة لطرق الخير وسُبُله إنّك إن حفظتها كان لك بها كِفلان**». والوصية هنا تأتي بمعنى الموعظة والنصيحة لا بمعنى الوصية التي تكون حين الموت، كما أنّ معنى «الطريق» قريب من معنى «السبيل»، ولكن كلمة «الطريق» تدلّ على الطريق الواسع والأساسي، و«السبيل» تأتي بمعنى الطريق الفرعي.

ويمكن أن يكون المراد من «الكفلان» أحد معنيين: الأوّل بمعنى الرحمة

---

(١) ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته: الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله ﴿رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه. قال بعض العلماء: الكرم كالحرية إلا أنّ الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة. والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة كمن ينفق مالًا في تجهيز جيش في سبيل الله. (الراغب الأصفهاني، **مفردات في غريب القرآن** (دفتر نشر الكتاب، الطبعة ٢، ١٤٠٤هـ)، الصفحتان ٤٢٨ و٤٢٩).

المضاعفة حيث ورد ذلك في القرآن الكريم بنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[١]. وعلى هذا، يكون معنى حديث النبيّ: إذا عملت بنصيحتي ستنال خيرًا مضاعفًا. أمّا المعنى الثاني والاحتمال الثاني، هو أن يكون «الكفلان» بمعنى الدنيا والآخرة، فيصبح معنى الجملة: «إذا عملت بما أقول لك ستنال سعادة الدنيا والآخرة».

العبادة ونيل حضور الحقّ

«**يا أبا ذر اعبد الله كأنّك تراه فإن كنت لا تراه فإنّه يراك**» وهذا القسم من الحديث إذا لم يكن متواترًا فعلى الأقلّ هو مستفيض. وقد رُوي بعدّة طرق عن النبيّ. وغالبًا بواسطة أبي ذر وبعباراتٍ مختلفة. وقد ورد بهذا المعنى في حديثٍ آخر قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه**»[٢]. ولعلّ أفضل نصيحةٍ كانت لأبي ذر، الذي قضى سنواتٍ طويلة على طريق العبودية وأراد الوصول إلى السعادة والاستفادة من تعاليم النبيّ، هي أن يتعلّم منهج الاستفادة من العبادة ويثبّت قدميه على الطريق الذي يحقق أفضل استفادة من عبادته وهو حضور القلب أثناء العبادة.

إنّ طريق اكتساب حضور القلب والتمرّن عليه حتّى بلوغ مقام حضور الحقّ هو باختصار: أن يدرك الإنسان أنّه دومًا في محضر الله ليأنس به. فإذا تحقّق للإنسان هذا الأنس بالله لن يتعب أو يملّ أبدًا من مخاطبته والاستماع إليه، لأن العاشق كلّما كان مع معشوقه وتحدّث معه ازداد عطشًا. إنّ ما يحدث لنا أثناء القيام بالعبادات، من أنّنا نتعب بسرعة، ونصلّي على عجل ونذهب لمتابعة أعمالنا، وإذا أطلنا الصلاة، لا أنّنا لا نشعر بأيّ لذة فحسب، بل نشعر وكأنّنا داخل قفص، كلّ ذلك لأنّنا لم ندرك إلى من نتوجّه ومع من نتحدّث! من الممكن أن نتعرّف بالعلم الحصولي على مقام العبودية والمقام الرفيع للإله وندرك عظمته، ولكن هذه المفاهيم الذهنيّة لا تؤثّر في قلوبنا ولا تبعث على الارتباط الحقيقيّ بالله. فالذي

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٨.

(٢) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة ١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٣، الصفحة ١٧٩٩. أيضًا: **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الباب ٥٢، الصفحة ١٤٢.

يحقّق مثل هذا الارتباط الواقعيّ هو حضور القلب أثناء العبادة. تلك العبادات التي نوفّق لأدائها لا تكون سوى مسقطة للتكليف ولا نحقّق الفائدة التي ينبغي منها، لأن عباداتنا فاقدةٌ للروح ونؤديها بدون حضور القلب. فالاشتغال بالأمور الدنيوية مانعٌ من أنس القلب بالله وحضور القلب، وهذه مشكلةٌ وقعنا فيها.

يجري السؤال دومًا عمّا ينبغي فعله لأجل تحصيل حضور القلب في الصلاة. والجواب أنّ ذلك يتطلب تمرينًا ورياضةً. ففي البداية، على الإنسان أن يختلي بنفسه ويفكّر بهذه القضيّة وهي أنّ الله تعالى يراه. بعض أساتذة الأخلاق كانوا يوصون بضرورة الاستفادة من هذا التمرين من جهاتٍ تخيُّلية: بمعنى أنّه إذا جلستم في غرفةٍ أو في محل خلوةٍ افترضوا أن شخصًا ما يراقبكم بطريقةٍ مخفية وأنتم لا ترونه. هل أنّ سلوككم في حال وجود من يراقبكم، وفي حال عدم وجود من يراقبكم هو نفسه؟ خصوصًا إذا لم يكن هذا الشخص شخصًا عاديًا بل له منزلة وتنظرون إليه نظرة تعظيم، وترون أنّ مصيركم بيده. تميلون لأن تكونوا عزيزين عنده، وأن يحبّكم. فهل يمكنكم في مثل هذه الحال أن تغفلوا عنه بشكلٍ كامل وأن تشتغلوا بأمرٍ آخر؟

فإذا سعى الإنسان من خلال التمرين إلى تجسيد هذه القضية أمامه وهي أنّه في محضر الله وأن الله ينظر إليه، وإذا لم يكن يرى الله فإنّ الله يراه، فإنّه شيئًا فشيئًا سيتحقّق له حضور القلب في عبادته وستكتسب تلك العبادة روحًا. ولن تكون هذه العبادة من أجل إسقاط التكليف فحسب، بل ستؤدي إلى الرقيّ والتكامل المعنوي، وتحقق حالة القرب من الله. ولا شكّ أنّ قول أمير المؤمنين شاهدٌ على هذا المطلب حيث يقول: «**اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم**»[1]. لهذا، ينبغي لأولئك، الذين لم يتدرّبوا على تحصيل حضور القلب في الصلاة، أن يخصّصوا، في كلّ يوم وليلة، جزءًا من وقتهم لهذا الأمر، حيث يختلون بأنفسهم ويتوجّهون إلى هذه النكتة وهي أنّ الله يراهم. ولا شك أبدًا أنّ الإنسان هو دومًا في محضر الله وأنّ الله يراه، كما أشار القرآن المجيد في العديد من الموارد إلى هذه الحقيقة، ومن جملة ما يقول تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.[2]

(١) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٤، الحكمة ٣٢٤، الصفحة ٧٧.

(٢) سورة **غافر**، الآية ١٩.

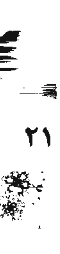

يُنقل عن أحد الطلبة أنّه وقف عند رأس أستاذه وهو في آخر لحظات حياته ليلتمس منه النصيحة لآخر مرّة، فتمتم الأستاذ جاهدًا وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلماته القصار: «**أيّها النّاس اتّقوا الله الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم**»[١].

في المقطع الأوّل من هذا الحديث، ذكر النبيّ العبادة كمفتاح لسعادة الإنسان، ثمّ في المقاطع اللاحقة قام ببيان مراحل عبادة الله. بالإضافة إلى ذلك، فإنّه قد أوصى في المقطع الأوّل بكيفيّة العبادة، وبأنّ العبادة ينبغي أن تكون ذات روح، وروحها هو حضور القلب، وفي الحقيقة، لم يوصِ بأصل العبادة والعبودية توصية مباشرة، فكما يبدو أنّ هذا الأمر مسلَّم به.

عبادة الله وسيلة التكامل والترقّي

من الجدير أن يُقال إنّ جوهرة الإنسانية مستكنّة في العبودية لله، وهذا الإنسان من دون العبادة لا يمتاز عن سائر الحيوانات سوى بامتيازات تكوينية من دون أن يؤدّي حقّها. فالذي يعرض عن عبادة الله يكون في الحقيقة قد سدّ طريق الكمال الإنساني على نفسه، لأنّ الوصول إلى الكمال الإنساني ليس ميسّرًا إلّا من هذا الطريق.

فلو نظرنا إلى نمط حياة العظماء سنرى أنّ من الأصول التي لا تنفكّ عن حياتهم أبدًا هي العبودية لله. أولئك الذين تشرّفوا بمقام «كليم الله» و«خليل الله» و«حبيب الله»، إنّما تحقّق لهم ذلك فقط من خلال هذا المسير والطريق وجادة الاختبارات الصعبة. حتى إنّنا سوف لا نجد شخصًا واحدًا قد تحقّق بالكمالات الاختياريّة الإنسانيّة من دون العبوديّة لله. بالإضافة إلى ما ذُكر، فإنّ نيل هذه المقامات كمقام «الرضا» و«اليقين» وغيرها ينبغي البحث عنه في العبودية لله. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٢]، ثمّ يقول تعالى بشأن مقام الرضا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الحكمة ٢٠٣، الصفحة ٤٦.

(٢) سورة **الحجر**، الآية ٩٩.

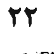

ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾[١].

لقد كانت رسالة جميع الأنبياء مختصرةً في إرشاد الناس إلى العبودية والأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة الطاغوت: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٢].

ومن المسائل التي أكّد عليها القرآن هي أنّ كلّ الوجود شاء أم أبى مشغولٌ بالثناء على الله وعبادته: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٣].

إلّا أنّ هذه العبودية هي أمرٌ تكويني، وليس لها دخلٌ في كمال الإنسان. بيد أنّ الذي يؤثّر في هذا الكمال هو العبودية الاختيارية، وإلّا لكان ينبغي للجبل والحجر أن يصلا إلى الكمال النهائي بمثل هذه العبودية التكوينية الموجودة فيهما. إنّ أهمية وقيمة العبادة والعبودية هي بحيث أنّ الله تعالى جعلها هدفًا نهائيًا لخلق الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٤].

بالإضافة إلى ما ذُكر، فإنّ حسّ العبادة هو أمرٌ فطريٌ في الإنسان. وإنّ الاحتياج إلى العبادة مودعٌ في فطرة كلّ إنسان، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من خلال مطالعة تاريخ الأديان والشعوب، حيث لا نجد مجتمعًا لم يولِ العناية والاهتمام للعبادة والعبودية بطريقةٍ أو بأخرى.

مراحل العبودية

أ. معرفة الله

يبيّن النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ مراحل العبادة قائلًا: «**واعلم أنّ أوّل عبادة الله المعرفة به، فهو الأوّل قبل كلّ شيء فلا شيء قبله، والفرد فلا ثاني له، والباقي لا إلى غاية، فاطر السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيف الخبير، وهو على كل شيء قدير**».

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٣٠.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

(٣) سورة **الجمعة**، الآية ١.

(٤) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

في هذا المقطع، ذُكرت المرحلة الأولى للعبادة وهي معرفة الله. ولا شكّ بأنّ هذه المعرفة ذات مراحل كثيرة ولكنّ الشيء الضروريّ منها في العبادة وفي العبوديّة هو المعرفة الإجماليّة: أن يعرف الإنسان أنّ له ربًّا، وقد خلقه وخلق العالم. فإذا لم تحصل هذه المرحلة من المعرفة لا يصل الدور إلى عبادة الله. فهذه المرحلة من المعرفة مقدّمةٌ على العبادة. ولا شكّ بأنّ الإنسان يصل في نهاية سيره التكامليّ إلى أعلى مراحل المعرفة، التي هي من اختصاصات أولياء الله، ونحن لا نقدر على إدراكها بحقيقتها. ولكنّنا نعلم إجمالًا أنّ تلك المعرفة لها قيمةٌ عالية جدًّا يصل إليها أولياء الله في نهاية سيرهم، وهي آخر مراحل العبادة.

فإذا أدرك الإنسان أوّل مرحلةٍ في العبادة وأدرك أنّ الله موجود، ينبغي له أن يفكر في صفاته وآثاره سبحانه، حتى ترسّخ تلك المعرفة في قلبه وتثبت ولا تقف عند حدّ المعرفة الذهنية، بل تتبدّل إلى معرفة حاضرة وحيّة تؤثّر في سلوكه؛ هذه المرحلة من المعرفة المصاحبة بالتفكّر تسمّى بالمعرفة المتوسّطة.

وللمعرفة المتوسّطة مراتب عديدة ومجال واسع ويمكن للإنسان من خلال التفكّر والتأمّل في الآيات الإلهية وأيضًا من خلال العبادة العمليّة أن يصل إلى مراتبها. وممّا قيل، يتّضح أنّ التأمّل في صفات الله وآثار صنعه والسعي للترقّي في معرفته يُعدّ أمرًا عباديًّا تحت اختيار الإنسان، وبطوله تحصل المعرفة التي تُعدّ من جملة مقدّمات العبادة. كما أنّ التفكر في الآيات الإلهيّة مقدمةٌ قريبةٌ للمعرفة والدرس والمطالعة في الكتب من جملة المقدمات البعيدة لتحصيل معرفة الله.

ب . الإيمان بالنبيّ والاعتراف برسالته

«**ثمّ الإيمان بي والإقرار بأنّ الله تعالى أرسلني إلى كافّة الناس بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا**».

تحتاج الصفات التي ذُكرت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه في الروايات والقرآن الكريم إلى توضيح وتفسير. ونحن إذا جعلنا إيماننا برسالة النبيّ قويًّا وكاملًا، فإنّنا لن نقع في معظم الشبهات التي تحيق بنا.

إنّ افتقاد المعرفة الكافية بالنبيّ والإيمان به بالنسبة للكثير من المسلمين الذين هم ضعاف الإيمان يؤدّي إلى الوقوع في الشبهات. وعلى أثر تلك الشبهات

ينحرفون عن المسير الصحيح حتى ينجرّ الأمر في النهاية . لا سمح الله . إلى الكفر لأنّهم لم يؤمنوا بأنّ كلّ ما يقوله النبيّ صحيحٌ.

يقول بعض ضعاف الإيمان: إنّ الأحكام التي جاء بها النبيّ ليست قابلة للتنفيذ في زماننا، وإن تلك الأحكام والتعاليم كانت لأجل هداية وتنظيم أوضاع مجتمع الجزيرة العربية في عصر النبيّ، ونحن في هذا العصر لم نعد بحاجة إلى مثل تلك الأحكام. هؤلاء، إنّما ينطقون بهذا الكلام لأنّهم لم يؤمنوا برسول الله، ولو أنّهم آمنوا بما قاله النبيّ بأنّه مرسل من قبل الله إلى كافّة الناس لما حصروا رسالته بحدٍ أو زمانٍ. وفي الواقع، ينبغي أن نقول: إنّ جميع الانحرافات والبدع التي أُلصقت بالدين إنّما كانت بسبب ضعف الإيمان برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبما جاء به.

ج . محبّة أهل بيت النبيّ

«**ثم حبّ أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا**». يمكننا أن نقول مباشرةً: إنّ عظمة معرفة أهل البيت وإدراك علوّ شأنهم ومحبتهم هي بحيث أنّ الإمام الخميني (قده) قد بدأ وصيته السياسية – الإلهية بهذا الحديث: «**إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي**». ولعلّ هذا الأمر كان بالنسبة لكلّ العالم أمرًا عجيبًا أن يفتخر قائد الثورة في وصيّته بأنّه تابعٌ لآل النبيّ. نحن لا نعلم أيُّ سرٍّ قد أودع في هذه المحبة وفي هذه المعرفة، ولعلّنا نعدُّ ذلك أمرًا بسيطًا ونتصوّر أنّ أهل البيت بما أنّهم أولاد وأقرباء النبيّ فينبغي أن نحبّهم! ولو كان الأمر كذلك، لما عُدّوا عِدلًا للقرآن والثقل الموازي له. وليس التأكيد على محبة أهل البيت من جهة أنّهم أقرباء النبيّ، فإنّه كان لديه عدّة زوجات ولم يوصِ بشأنهن مثلما أوصى بأهل بيته. وإنّما كان تأكيده ووصيته بهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأنّهم مطهّرون من قبل الله تعالى من كلّ رجسٍ.

تشبيه أهل البيت بسفينة نوح وباب حطّة بني إسرائيل

«واعلم يا أبا ذر أنّ الله تعالى جعل أهل بيته في أمّتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن رغب عنها غرق، ومثل باب حطّة [في بني إسرائيل] من دخله كان آمنًا».

إنّ تأكيد النبيّ على محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وتشبيههم بسفينة النجاة وباب

حطّة بني إسرائيل ليس موضوعًا عاطفيًا، حتّى يتصوّر البعض أنّ محبّة النبيّ وتعلّقه الغريزيّ بأولاده وأقاربه، هو الذي جعله يوصي دومًا بمحبتهم وصحبتهم، بل إنّ هذه الوصايا هي أبعد من تلك العلاقة والمحبّة الغريزية، فمن جهة أنّ أهل البيت يُعتبرون سفينة نجاة الأمّة، فإنّه يُعتقد بأنّ كلّ ضال ومتحيّر في وادي الحيرة، إذا ركبها فإنّه ينجو من الغرق في البحر المتلاطم للانحراف والضلالة. فأمّة النبيّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بركوبها سفينة نجاته، قد نجت من العذاب الإلهيّ، بخلاف أولئك الذين عصوا وتمردوا، ومنهم ابنه، فقد هلكوا وانتقلوا إلى دار البوار.

في بداية الدعوة الإسلامية، وحيث لم تكن بوادر التفرقة والاختلاف داخل الأمة الإسلامية ظاهرة، نجد أنّ النبيّ يوصي أبا ذر بأنّ أهل بيته هم كسفينة نوح؛ فإذا لم يرتبط المرء بهم، ولم يقتدِ بهم، فإنّه سيهلك كقوم نوح. وفي الواقع، إنّ هذا تذكير وتحذير للمسلمين الذين كانوا يعيشون في ظلّ الانحرافات والعصبيات والنفاق الذي تزامن مع وفاة النبيّ، حيث إنّ مجموعة من الانتهازيين والمنافقين تسلّطوا على الناس. فهناك لا يكون سوى أهل بيت النبيّ وعلى رأسهم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ممّن يمكن أن يأخذ بيد الأمّة الإسلاميّة ويعبر بها متاهات أخطار الضلالة والضياع والانحراف. وفي المقابل، أولئك الذين تمرّدوا على هذه الوصية ولم يتّبعوا أهل البيت انحرفوا وضلّوا.

ثمّ نجد النبيّ يشبّه أهل بيته بباب حطّة إسرائيل [هذان التشبيهان (التشبيه بسفينة نوح وبباب حطّة) كثيرًا ما وردا في الروايات المنقولة بطرق الشيعة والسنة عن النبيّ الأكرم، وقد بلغت حدّ التواتر].

فحين حلّ الغضب الإلهيّ على بني إسرائيل بسبب ظلمهم وعصيانهم وتاهوا أربعين سنة في الصحراء ثمّ تابوا وأنابوا فتح الله تعالى عليهم مرّةً أخرى باب اللطف والتوبة (الذي سُمّي بحطّة) والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. كلّ من يدخل باب حطّة فإنّ ذنوبه ستُغفر بالإضافة إلى استعادته للعزّة والسيادة. ويقصد النبيّ بذكر هذا التمثيل توضيح هذا الأمر أنّه كما أنّ مؤمني

(١) سورة **البقرة**، الآية ٥٨.

بني إسرائيل قد ضمنوا سعادة الدنيا والآخرة بدخولهم باب حطّة والتوبة، فإنّ المسلمين لو دخلوا باب معارف وعلوم أهل البيت واتّبعوهم وسلكوا طريقهم فإنّهم سيضمنون سعادتهم في الدنيا والآخرة.

تعني كلمة حطّة في اللغة الإزالة والوضع. وكان بنو إسرائيل يريدون من الله تعالى بهذه الكلمة المغفرة وحطّ ذنوبهم، وقد جعلها الله تعالى وسيلة ليغفر لهم. أمّا أولئك الذين لم يؤمنوا بالله فقد اتّخذوا كلام الله سخريًّا. وكما جاء في بعض الروايات كانوا يقولون «حنطة» بدل «حطّة»، والله تعالى بفسقهم وعصيانهم أنزل عليهم عذابه بعد أن رفضوا التوبة والمغفرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[١].

وقد عرَّف النبيّ أهل بيته بأنّهم باب حطّة، الذي من دخله نجا من عذاب الآخرة ونال سعادة الدارين. ولكن الناس لم يصدّقوه واختاروا آخرين مكان أهل البيت، ولم يروا الفرق بين علي عَلَيهِ السَّلَامُ وغيره، وظنّوا أنّه كما كان علي صهر النبيّ، فعثمان أيضًا صهره، والنبيّ بدوره كان صهر الخليفة الأول!

والنصحية الأخرى لهذا المقطع هي أنّ أولى مراتب العبادة تتضمّن الأمور القلبية والأعمال الباطنية فلا يمكن لأي شخص أن ينال الفائدة من العبادة إلّا إذا كان يمتلك المعرفة والإيمان بالله والنبيّ ومحبًّا لأهل بيته. فالعبادة لا تنحصر في الأمور الظاهريّة والسلوك الخارجيّ بل إنّ أصل وجوهر العبادة توجد في تلك الدوافع الباطنيّة، وإنّ كلّ أنواع العبوديّة تنبع من القلب.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٥٩.

الدرس الثاني
ضرورة الاستفادة الصحيحة من نعم الله

- ❖ الصحة والفراغ نعمتان مجهولتان
- ❖ الشباب مرحلة النشاط والحيوية
- ❖ ضرورة معرفة قدر الصحة والتمكّن
- ❖ الحياة الدنيا فرصة الاختيار والرشد والتعالي

«يا أبا ذَرّ، اِحْفَظْ ما أوصيكَ بِهِ تَكُنْ سَعيدًا في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ. يا أبا ذَرّ، نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَةُ وَالْفَراغُ.

يا أبا ذَرّ، اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْس: شَبابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ».

«يا أبا ذر احفظ ما أوصيك به.....»

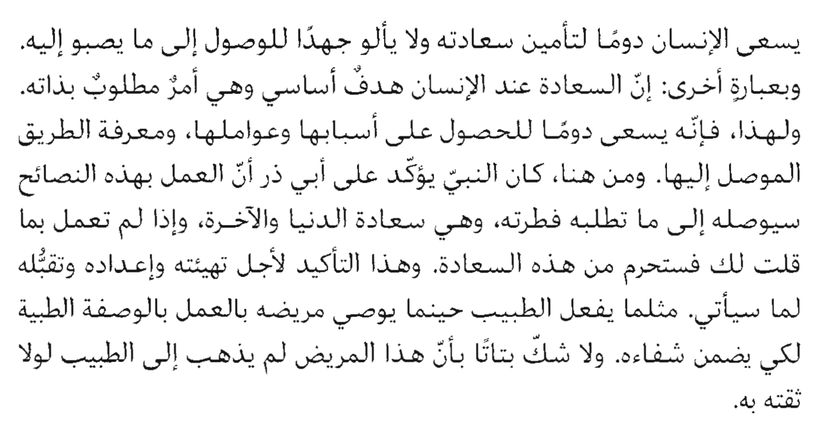

يسعى الإنسان دومًا لتأمين سعادته ولا يألو جهدًا للوصول إلى ما يصبو إليه. وبعبارةٍ أخرى: إنّ السعادة عند الإنسان هدفٌ أساسي وهي أمرٌ مطلوبٌ بذاته. ولهذا، فإنّه يسعى دومًا للحصول على أسبابها وعواملها، ومعرفة الطريق الموصل إليها. ومن هنا، كان النبيّ يؤكّد على أبي ذر أنّ العمل بهذه النصائح سيوصله إلى ما تطلبه فطرته، وهي سعادة الدنيا والآخرة، وإذا لم تعمل بما قلت لك فستحرم من هذه السعادة. وهذا التأكيد لأجل تهيئته وإعداده وتقبُّله لما سيأتي. مثلما يفعل الطبيب حينما يوصي مريضه بالعمل بالوصفة الطبية لكي يضمن شفاءه. ولا شكّ بتاتًا بأنّ هذا المريض لم يذهب إلى الطبيب لولا ثقته به.

وبعد ذلك التأكيد، يقول النبيّ: «**يا أبا ذر نعمتان مغبونٌ فيهم كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**».

الصحة والفراغ نعمتان مجهولتان

الصحة والفراغ نعمتان عظيمتان من الله تعالى، لكنّ أكثر الناس لا يقدّرونهما حقّ

قدرهما ويهدرونهما بسهولة. لهذا، كان النبيّ يوصي أبا ذر بمعرفة قدر هاتين النعمتين، وألّا يكون مثل أكثر الناس. لقد منّ الله تعالى علينا بنعم عظيمةٍ لا تُحصى والبشر يضيّعونها دون مبالاة، ولعلّ ذلك من جهة أنّهم لم يتعبوا في تحصيلها. ليس أنّهم لا يؤدّون حقّها فحسب، بل يستخدمونها في طريق المعصية وبالصورة التي لا تعود عليهم بأي نفعٍ بل تؤدي إلى ضررهم.

والصحة من تلك النعم القيّمة التي لا يلتفت إليها الإنسان السليم، حتّى إذا أدركه المرض عرف قيمة الصحة، كالسمكة إذا أُخرجت من الماء. نقل لي أحد الأصدقاء منذ مدّة حدثًا مرًّا وقع له حين كان يخطب من على المنبر، فجأةً انقطع صوته، وكلّما كان يضغط على نفسه لكي يخرج صوته لم يوفّق، فاضطرّ لأن ينزل من على المنبر ويُنقل إلى المستشفى، وبحمد الله وبلطف عنايته تعالى شُفي بعد مدّة.

يندر أن يفكّر الإنسان بمثل هذه النعم المحيطة به، كالقدرة على الكلام؛ ويندر أن يشكر تلك النعمة! فلو فكّر لحظة في أهميتها وكيف يمكن أن يُسلب مثلًا نعمة الصوت أو قدرة التكلم، ولو اتّفق له. لا سمح الله. فربما يكون في تلك الحال مستعدًا لأن يدفع كلّ ما يملك من أجل استعادة تلك النعمة.

فلنفكر ولو للحظة بصحتنا وكم هي عظيمة هذه النعمة، حيث إنّنا متنعّمين بالصحة والسلامة من آلاف الأمراض التي تهدد أجسامنا، فنحن لسنا مبتلين بواحدة منها، أو نتمتّع في كلّ لحظةٍ بثروةٍ عظيمة، إلّا أنّ هذه السلامة ليست ثابتة ودائميّة، ويمكن أن نخسرها في أيّ لحظة.

ونظير هذا الكلام ما ورد عن النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في حديثٍ آخر: **«نعمتان مكفورتان الأمن والعافية»**[1].

والفراغ هو النعمة الثانية التي أشار إليها النبيّ وهي بمعنى الاستقرار وعدم الابتلاء. فالإنسان يواجه في حياته أوضاعًا وأحوالًا عديدة. وفي بعض الأوقات، ينعم بالفراغ وهدوء البال، فيستطيع أن يفكّر بنفسه ويكتشف خبايا وجوده، وربّما

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٨، الباب ١، الصفحة ١٧٠.

يكون في صدد إزالة انحرافاته الأخلاقيّة والنفسيّة فيتغلّب عليها. يتفكّر في مصيره ويتوجّه إلى العبادة في خلواته أو يطالع براحة بال. ما يجعل الاستقرار الجسميّ والروحيّ حاكمًا على كلّ وجوده، وهذا الاستقرار هو فرصةً ذهبيةً تأتيه حتّى يستفيد من الفرص أفضل استفادة، ويجعل كلّ اللحظات في خدمة تكامله. وفي المقابل، من الممكن لهذا الإنسان أن يدخل في دوّامة من المشاغل والشواغل يُسلب فيها هذا الاستقرار والفراغ بحيث يتحسّر على لحظة فراغٍ واحدة ولكن ماذا يفعل وقد انقطع الأمر به. ومن أجل الاستفادة المثلى من الفرص، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب فانتهزوا فرص الخير»**[١].

قد تنشأ المشاكل أحيانًا من التورّط في المسائل العائلية وتحمُّل مسؤولية العيال وربما تكون من جهة الأعمال والمسؤوليات الاجتماعية. وقد تؤدّي هذه المشاكل إلى انهماك جميع القوى الروحيّة والجسميّة للإنسان وتسلبه فرصة التفكير بنفسه ولو للحظة.

لقد ابتُلي الكثير من المسؤولين بعد الثّورة بهذا الوضع حتى إنّهم لم يجدوا فرصةً لمتابعة قضاياهم الشخصية. في المقابل، يوجد طائفة من الناس لا يهمُّها سوى اللهو والترفيه ولا تعرف كيف تستفيد من أوقاتها الثمينة. فهل أقوم الآن بحلّ الكلمات المتقاطعة؟ أو أقضي ليلتي هذه بمشاهدة البرامج التلفزيونيّة أو المباراة الرياضيّة أو ألعب الشطرنج؟ مثل هذا الذي امتلك ثروةً عظيمة وهو يسعى لإحراقها بالتدريج متفرّجًا عليها، لا بل يتلذّذ بذلك المشهد. ولو شاهدنا مثل هذا الشخص لقلنا عنه إنه مجنون، غافلين عن أن كثيرًا منا مبتلون بمثل هذا الجنون: يضيعون عمرهم الذي لا يعوَّض بكل ثروات الدنيا ويحرقون رأس مال عمرهم الذي لا تساويه ثروات العالَم بنيران الهوس.

وفي الواقع، ينبغي أن نعبّر عن هذا الإنسان بأنّه مغبون لأنّ المغبون هو الذي يبيع بضاعته القيّمة مقابل متاعٍ لا قيمة له أو بثمنٍ بخس. ولا يوجد أي بضاعةٍ يمكن أن تكون مقابل العمر، فلا يضاهي ذلك العمر إلّا الجنّة. فطالما أنّك في فراغ، اعرف قدر ذلك وقم بالعمل الذي يكون أفضل الأعمال وأكثرها فائدةً.

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٣٩٨.

الشباب مرحلة النشاط والحيوية

«يا أبا ذر اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك...».

إنّ مرحلة الشباب المحدودة والمتلازمة مع النشاط والحيوية هي أفضل مراحل عمر الإنسان ولها حسابها الخاص. هذا، وإن كانت الحياة والعمر كلّه نعمةٌ كبرى، لكنّ مرحلة الشباب نعمةٌ مضاعفة. لهذا، بدأ النبيّ بذكر هذه المرحلة، ثمّ ختم كلامه بذكر أهمية أصل الحياة. هذا مع أنّ فرصة الحياة تشمل مرحلة الشباب، ولكن بما أنّ مرحلة الشباب لها أهمية خاصّة عند النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقد أشار إليها في البداية. كان إمامنا الراحل (قده) يكرّر: «**أيها الشباب اعرفوا قدر مرحلة الشباب**». فنعمة الشباب أغلى نعمةٍ حيث يمكن للإنسان بالاستفادة الصحيحة منها أن ينال الكمال والرفعة، الشيء الذي يقلّ احتمال الوصول إليه في مرحلة الشيخوخة. من هنا، نجد التصريح بهذه الحقيقة في كلمات الأئمّة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. يذكر الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذا الشأن: «**من قرأ القرآن وهو شابٌّ مؤمنٌ اختلط القرآن بلحمه ودمه**»[١].

إنّ مرحلة الشباب مرحلة الليونة والمرونة وتقبُّل الحقّ. ففي هذه المرحلة، يمكن للإنسان أن يبني نفسه ويخلّصها من العادات السيئة. وكذلك:

- أن يقع تحت تأثير كلام الحقّ أكثر من المراحل الأخرى.
- يتمتّع ببدنٍ سليم يؤدّي به مسؤولياته الاجتماعيّة.
- وبواسطة قوّة الجسم والروح يؤدّي وظائفه العباديّة على أكمل وجه.
- يتمتّع بقدرةٍ عالية لرفع ودفع الرذائل الأخلاقيّة.
- يمكنه بالاستفادة من جسمه وروحه أن يبلغ المراحل العلميّة العليا.
- يمكنه أن ينال عزمًا قويًّا وإرادةً حديديّة.
- يمكنه أن يفكّر لساعات دون الإحساس بالتعب.
- يمكنه أن يوصل عاداته وملكاته الفاضلة إلى أعلى الدرجات.

وعلى العكس، فإنّ مرحلة الشيخوخة هي مرحلة الضعف والهزال وثَبات

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٣٠٥.

الشخصيّة وصعوبة التغيير وعدم القدرة على تبديل الروحيّات، وبكلامٍ واحد هي مرحلة تسلّط الضعف على الجسم والروح.

وقد عُبّر في القرآن المجيد عن مرحلة الشيخوخة في ثلاثة موارد: بـ«الشيب» و«الشيبة»، وفي أربعة موارد بـ «الشيخ» و«الشيوخ»، وفي معظم هذه الموارد صُرّح وأشير إلى الضعف الطبيعيّ للإنسان. ففي قصّة النبيّ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[١].

وبشأن ما جاء حول مراحل حياة الإنسان يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[٢].

وفي سائر التعابير، أشير بشكلٍ أو بآخر إلى العجز والضعف الملازم لمرحلة الشيخوخة. فمرحلة الشباب إذًا، تمثّل تلك الفرصة الثمينة لأجل التخلّص من الرذائل الأخلاقيّة، حيث يُعدّ هذا الأمر في مرحلة الشيخوخة صعبًا جدًّا. ولكن للأسف، فإنّ الناس لا يصدّقون ذلك بدون الإحساس به وتجربته. أي إنّهم إذا لم يبلغوا الشيخوخة لا يشعرون بألمها. ومهما قيل لهم عن صعوباتها ومشاكلها فإنّهم لا يدركون واقعيّتها وحقيقتها. لقد شاهدنا بعض الشخصيّات الفذّة ممّن وصلوا إلى درجاتٍ عالية من الكمال ولكن بقيت فيهم بعض نقاط الضعف الأخلاقيّة من مرحلة الشباب حيث إنّهم لم يقدروا على تشخيصها في هذه المرحلة، ولم ينهضوا لإزالتها ورفعها فبقيت نقطة الضعف تلك، كمرضٍ مزمنٍ لا يمكن علاجه.

ضرورة معرفة قدر الصحة والتمكّن

«وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك».

لو كنت قادرًا على إدارة معيشتك وجعل عيشك بسيطًا بعيدًا عن الكماليّات من دون أن يجعلك الفقر الماليّ تابعًا للآخرين، فقدّر هذه النعمة قبل أن تُبتلى بالفقر – لا سمح الله – فحينها تصبح محتاجًا إلى الآخرين وينجرّ الأمر إلى التبعيّة لهم.

---

(١) سورة **مريم**، الآية ٤.

(٢) سورة **الروم**، الآية ٥٤.

لو كنت تملك إمكانات بسيطة، وتستطيع أن تمضي هذا العمر بقناعة، فانهض لطلب العلم، واعتبر ذلك مغنمًا واحذر ذلك اليوم الذي تضطر فيه إلى ترك العلم لأجل تأمين معيشتك والعمل في أمورٍ أخرى. إذا كنت تقدر على العيش بزهدٍ في أيّامك هذه، فاغتنم هذه الفرصة وقدّر ما لديك من دون أن تنظر إلى النقائص والحاجات، بل فكّر بما تملك، وقدّره. هذه المرحلة من الاستغناء تُعدّ فرصةً لمساعدة الآخرين، فخذ بيد المحتاجين قبل أن تخسر هذه الفرصة وتقع في الفقر والعوز. من الضروري الالتفات إلى هذه النكتة وهي أنّ الفقر والاحتياج المذلّ لا يلائم كرامة الإنسان وهو أمرٌ مذموم. والله تعالى لا يرضى لعبده الذلّ بل يريد له العزّة، فعليك أن تسعى قدر الإمكان لتخفّف من احتياجك للآخرين وأن تتعلّم طرق مواجهة الاحتياج من قبيل القناعة والعزّة والابتعاد عن الترف والإسراف وليكون العمل على أساس ذلك.

«وفراغك قبل شغلك»

لقد بحثنا سابقًا في معنى هذه الجملة، ولكن من اللازم أن نذكّر بهذه النقطة وهي أنّ النبيّ لا يقصد أن نخرج من تحمُّل المسؤولية ونرفض الوظائف الاجتماعيّة ونعدَّ البطالة أمرًا جيّدًا، فهذا استنتاجٌ خاطئ. بل من المحتمل أن يكون مقصوده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هو أن نعرف قدر هذه الفرص التي نتمكّن فيها من الاختيار بحريّة ومن دون أن تُفرض علينا الأمور، ومن قبل أن نُجبر على تحمّل المسؤوليات التي لا نريدها أو هي غير راجحةٍ أو التي تسلبنا قدرة الاختيار واتّخاذ القرار الصائب، بل علينا أن نستفيد من هذه الفرص لاختيار الأصلح.

الحياة الدنيا فرصة الاختيار والرشد والتعالي

«وحياتك قبل موتك»

إنّ نعمة الحياة نعمةٌ عامّة وواسعة، والتي تمّ ذكرها بعد سائر النّعم. هذا مع الواقع أنّ النعم الأخرى ترتبط بنعمة الحياة. ولو لم تكن الحياة لما كان هناك مجالٌ للنعم الأخرى؛ فهي أصل وأساس النعم.

ونقصد بذلك نعمة الحياة الدنيا التي منَّ الله بها على عباده. فبعد الموت، وإن كان الإنسان يستفيد من نعمة الحياة الأخروية ولكنّه يسلب القدرة على العمل

والاختيار واتّخاذ القرار الحر. وهناك قد يتحسّر على حياته السابقة وعلى إضاعة الفرص وعلى سوء اختياره ويتمنّى لو أنّه يُعاد إلى الحياة مجدّدًا!! لكن ما نفع هذا التمنّي؟!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

كان بعض العظماء يوصي أن تتصوّروا عند النوم أنّه يمكن أن لا يكون هناك استيقاظ بعد هذا النوم، فقد يأتي ملك الموت وأنتم في هذه الحال ويقبض أرواحكم، فالله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[2].

فالرّوح أثناء النوم تفارق البدن بنحوٍ ما، وإذا جاء أجل الإنسان تنقطع كليًا عن البدن. لهذا، فإنّ الله تعالى في تتمة الآية يقول: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾.

في الواقع، يكون الإنسان أثناء نومه قد طوى نصف مسيرة الموت. فلهذا، كانوا يوصون أنّه تخيّلوا أثناء النوم أنّ الروح لن تعود إلى الجسد مجدّدًا بعد انفصالها عنه، ثمّ إذا حصلت لكم اليقظة بعد النوم اشكروا الله بأنه أعاد أرواحكم إلى أبدانكم مرّةً أخرى، وأنّه قد أحياكم مرةً أخرى بعد موتكم. وبعبارةٍ أخرى، افترضوا أنّكم ذهبتم إلى عالم البرزخ وقد ظهرت أعمالكم السيّئة وحصلت المساءلة والمؤاخذة، ثمّ طلبتم هناك من ملائكة الله أن يعيدوكم إلى الدنيا، وقد سمحوا لكم بذلك، والآن وقد رجعتم إلى الدنيا وحصلتم على فرصة العمل مرّةً أخرى ماذا ستفعلون؟ وكيف ستكونون؟ اعرفوا قدر هذه الفرصة مجدّدًا واغتنموها، لأنّه سيأتي ذلك الزمان الذي يتحسّر فيه الإنسان على قول «لا إله إلّا الله»، وكما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**من قصّر في العمل ابتُلي بالهمّ ولا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب**»[3].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ٤٢.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٣٠.

الدرس الثالث

الاستفادة الصحيحة من فرصة الحياة

استغلال الفرص في وقتها واجتناب الآمال الطوال

- مراحل التساهل
- ترك الدنيا والتفاسير الخاطئة
- ترك الدنيا وإعطاء الأصالة للآخرة
- أداء الوظائف في وقتها
- فكرة الموت نهاية الآمال الطويلة
- الدور التوسّطي للدنيا

«يا أبا ذَرٍّ، إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ بِأَمَلِكَ، فَإِنَّكَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِمَا بَعْدَهُ فَإِنْ يَكُنْ غَدٌ لَكَ فَكُنْ فِي الْغَدِ كَمَا كُنْتَ فِي الْيَوْمِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَدٌ لَكَ لَمْ تَنْدَمْ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي الْيَوْمِ.

يا أبا ذَرٍّ، كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لا يَسْتَكْمِلُهُ وَمُنْتَظِرٍ غَدًا لا يَبْلُغُهُ.

يا أبا ذَرٍّ، لَوْ نَظَرْتَ إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ لَأَبْغَضْتَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ.

يا أبا ذَرٍّ، كُنْ كَأَنَّكَ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ أَوْ كَعَابِرِ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ.

يا أبا ذَرٍّ، إذا أَصْبَحْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ لِأَنَّكَ لا تَدْرِي مَا اسْمُكَ».

استغلال الفرص في وقتها واجتناب الآمال الطوال

«يا أبا ذر إيّاك والتسويف بأملك...».

وهذا الكلام يكمل الكلام السابق لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي يؤكّد على اغتنام الفرص وعدم إهدار أيام العمر.

إذ يعدُّ التسويف من الآفات التي تحول دون أداء أعمال الخير والصلاح، ولهذا فقد تعرّض للذمّ في الروايات والأحاديث الشريفة. والتسويف يعني تأخير الأعمال على أمل إنجازها لاحقًا. وقد نجد لهذه الحالة أسبابًا عديدة ولكنّ السبب الأساسيّ - كما ذُكر في هذا المقطع - هو الآمال والأمانيُّ التي تسيطر على الإنسان.

فالإنسان الذي لا يؤدّي عمل اليوم الذي ينبغي أن يقوم به إنّما يكون على أمل أنّه سيعيش إلى الغد حيث تسنح له فرصة القيام به. وحين يأتي اليوم التالي يصبح مؤمّلًا باليوم الآخر. وهكذا، تمرّ الأشهر والسنوات وهو يؤخّر العمل المطلوب. لذلك كان رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ينصح قائلًا: إذا أردت أن تتخلّص من هذه الحالة في باطنك تصوَّر أنّك لن تُعطى الفرصةَ لتعيش أكثر من هذه الساعة التي أنت فيها.

ومفهوم التسويف مثل غيره من المفاهيم الأخلاقية الأخرى - سواء الفضائل أم الرذائل - يُعدّ من المفاهيم التشكيكيّة ذات الدرجات والمراتب. هذه المفاهيم التشكيكيّة تتفاوت بين مختلف الأفراد من المؤمن وغير المؤمن بل حتى فيما يتعلّق بمراتب الإيمان والمؤمنين. ففي بعض مراتبها يكون واجبًا عاديًّا، وفي البعض الآخر يكون واجبًا مؤكّدًا، وبعضها مستحبّ عادي وبعضها مستحبّ مؤكّد. حتّى كأنّ لبعض مراتبها من الدقّة ما لا يمكن تصوّره بالنسبة للأفراد العاديين.

مراحل التساهل

أوّل مراحل التسويف: طلب الراحة والكسل فيما يتعلّق بأعمال الدنيا التي يؤخّرها الإنسان المسوّف. ومثل هذا الخُلق السيّئ ليس له ارتباطٌ بالاعتقادات. فكما أنّ المؤمن قد يكون مبتلىً به، كذلك الكافر. فنجد من الكفّار من يتساهلون ويكسلون في أمور دنياهم.

وهذا الخلق الذي يؤدّي إلى تأجيل الأعمال وتأخيرها يُعدّ صفةً سيئةً بالنسبة للمؤمن والكافر على حدٍّ سواء. ولا شكّ أنّه بالنسبة للمؤمن ذو قبح خاص، بل يزداد قبحًا من حيث إنّه إذا اعتاد على تأجيل وتأخير مثل هذه الأعمال العادية أو الدنيويّة فإنّ ذلك سيسري شيئًا فشيئًا إلى باقي الأمور ليتحوّل بعد ذلك إلى ملكة راسخة فيه وينجرّ إلى الأمور الدينيّة ويؤدّي إلى ترك الوظائف الدينيّة والمسؤوليّات الشرعيّة.

وإذا كان من وصيّة في ضرورة مواجهة مثل هذا الخلق والعادة السيّئة، فذلك لأنّ الإنسان إذا اعتاد على التساهل والاستهتار في أموره الدنيويّة، فإنّ ذلك سيكون فيه مثل طبع أو ملكة نفسانيّة تجرّه إلى التساهل والتسامح في أموره الأخروية أيضًا.

المرحلة الثانية من التسويف: التساهل في أداء الوظائف والواجبات والتي يمكن تقسيمها بحسب الأقسام الثلاثة للواجبات إلى ثلاثة أقسام أيضًا:

١. التساهل والتسامح في أداء الواجبات التي لها متّسع من الوقت (لأدائها)، كالصلوات الخمس اليوميّة التي وقتها متّسع. فالبعض يتسامح في أداء هذه الصلوات في وقتها ويؤخّرها دومًا ويؤدّيها في اللحظة الأخيرة. هذه المسامحة أو هذا التساهل وإن لم يكن حرامًا ولكنّه معدود من الأمور السيّئة.

٢. التساهل في أداء الواجبات الفوريّة (وإن لم تكن فورية محضة) بمعنى أنّه إذا تركها أوّل الوقت أو في أوّل فرصة فعليه الإسراع والتدارك في الفرصة الثانية، وهكذا بالنسبة للأوقات اللاحقة كوجوب التوبة الذي يُعدّ واجبًا في أوّل فرصة، وتأخيره حرامًا، وإذا أخّره فإنّ وجوبه وفوريّته لا يسقطان.

٣. التساهل والتسامح في أداء الواجبات المضيّقة كالصوم الذي له وقت محدّد ومحدود. بعض الناس يعبرون وقت الأداء ويقولون سنؤدّي ذلك قضاءً فيما بعد. هذه المعصية إذا صدرت من مثل هذا الشخص، وإن لم تكن بمستوى ذلك الذي لا يعزم على القضاء أبدًا، ولكنّها عملٌ حرامٌ.

ترك الدنيا والتفاسير الخاطئة

النقطة التي يجدر ذكرها هنا هي أنّ الكثير من الآيات والروايات قد ذكرت مسائل يمكن أن نجد لها تفاسير مختلفة وأحيانًا متضادّة ممّا يتطلّب تخصّصًا وتفقّهًا خاصًّا في الدين، حيث إنّ احتمال وقوع الخطأ وإمكان استنباط المفاهيم غير الصحيحة فيها كبيرٌ. وكنموذج على ذلك تلك الآيات والروايات التي وردت بشأن الدنيا وذمّها ومدحها أو مدح الوحدة والعزلة التي أدّت إلى استنباط مفاهيم وتصوّرات مختلفة وأحيانًا متضادّة بشأنها.

ومن جملة تلك التفاسير ذلك التفسير الصوفيّ الذي يغضُّ النظر عن الأبعاد المختلفة للدين الإسلاميّ ومعارفه وتعاليمه القطعيّة: حيث يدعو الإنسان إلى ترك هذه الدنيا والاكتفاء بالعبادة بعيدًا عن المجتمع، والاكتفاء بالاستئناس بالحيوانات. هذا، في حين أنّ مثل هذا الاستنباط يقف في الموقع المضاد من الآيات والروايات والمباني القطعيّة للدين.

فلو كان الانزواء والاعتزال وترك الدنيا هو الأصل والأساس، فماذا عن تلك التكاليف الاجتماعيّة كالإنفاق ومواجهة الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي لتثبيت أركان الحكومة الإسلاميّة التي عُدّت من الضرورات القطعيّة للإسلام! فأين ينبغي أن تتحقّق مثل هذه الحكومة؟ وهل يمكن أداء مثل هذه الوظائف في الخلوة والوحدة؟!

لهذا، فإنّ استنباط أيّ قضيّة دينيّة يستلزم التفقّه في مجموع المعارف الدينيّة والتوجّه إلى كافّة الأبعاد والجوانب الكامنة فيها.

وفي الجواب عن هذا الاستنباط السيئ، ينبغي أن نقول: إنّه لو كان طلب الدنيا كهدفٍ وغايةٍ للحياة، فإنّه يُعدّ مذمومًا. أمّا إذا كانت الدنيا وسيلةً للوصول إلى الكمال الأخرويّ، فإنّها لن تكون مذمومةً وإنّما ستصبح ممدوحةً. وفي جعل الدنيا وسيلةً بحدّ ذاتها هناك مراتب، يُعدّ بعضها ضروريًّا وبعضها يقع في عداد الكمالات. والحدّ الضروريّ فيها هو أن لا تكون الاستفادة من لذائذ الدنيا والاهتمام بالأمور الماديّة مؤدّية لترك الواجبات أو ارتكاب المحرّمات. فالدنيا الحرام هي التي تؤدّي إلى ارتكاب الحرام أو ترك الواجب. وإذا رسخ هذا الخُلُق السيّئ الخبيث وصارت الدنيا غايةً للإنسان فلا بدّ من المجاهدة لأجل اقتلاعه.

وفي الإسلام، فإنّ الإنسان النموذجيّ هو الذي لا يعطي أمور الدنيا أي أصالةٍ ولا يؤدّي أي عملٍ دنيوي. ولو كان مباحًا لأجل الوصول إلى اللذات والمشتهيات الماديّة. كما أنّ أصحاب البصيرة من أهل الكياسة يصلون إلى هذه المرحلة التي هي أعلى مراحل الإنسانيّة، فنجدهم يعملون لتكون جميع أعمالهم وسلوكيّاتهم بل حتى أنفاسهم الصادرة من صدروهم عبادةً. وتكون جميع أعمالهم وتصرّفاتهم الجسمانيّة من قبيل الأكل والرياضة وحتّى اللذات الجنسيّة الحلال مقدّمة للأمور الأخرويّة. ومن هذه الجهة، تُعدّ عبادةً واجبةً أو مستحبةً.

ترك الدنيا وإعطاء الأصالة للآخرة

هذا، وإنّ إعطاء الأصالة للأمور الماديّة والدنيويّة أو سلبها منها يتميّز من عدّة جهات بالدقّة والتعقيد الخاصّ. ولا يمكن تشخيص ملاكه في الكلام الظاهر فهو أمر يرتبط بالنيّة الباطنيّة للأفراد: وكمثال على ذلك، إذا أكل المرء من أجل اللذة فقد أعطى

الأصالة للماديّات، ولو كان منكرًا لذلك بلسانه. ولو كانت نيّته من الالتذاذ بطعم الغذاء أن يؤدّي شكر الله فقد أعطى الأصالة للآخرة، لأنّ هدفه أضحى أداءَ حقّ الشكر لله تعالى. ومن هذه الجهة، نجد أنّ الله تعالى قد ذكر في القرآن المجيد بعد تعداد مجموعةٍ من النعم أنّ الشكر هو الهدف من إنزال هذه النعم. فالهدف إذن هو الشكر، ولا يتحقّق هذا الهدف إلّا عندما تُصبَغ جميع الأعمال الماديّة بالصبغة الإلهيّة.

إذا لم يكن أكثر الناس ملتفتين إلى البعد المعنويّ في سلوكهم وغاصوا إلى هذا الحدّ في اللذائذ الماديّة ولم يعد في حياتهم سوى الماديّات واللذات الماديّة فلا يبقى بمقدورهم أن يتّخذوا هدفًا آخرًا أو يتوجّهوا إليه. ولا شكّ بأنّ الوصول إلى المراحل المعنويّة وإعطاء الأصالة للأمور الأخرويّة يحتاج إلى مربٍّ؛ لأنّه من المحتمل جدًّا أن يخرج السالك عن حدّ الاعتدال وينجرّ إلى الإفراط أو التفريط.

أولئك الذين يريدون أن يسلكوا طريق التكامل وتهذيب النفس، يجب أن يثبتوا في أذهانهم جهة إضعاف الجوانب الدنيويّة والتقليل من المشتهيات الماديّة وترجيح وإعلاء اللذات الأخرويّة. ولأجل غضّ النظر عن اللذات الدنيويّة، ينبغي أن يلقّنوا أنفسهم أنّ هذه اللذات لا تساوي شيئًا مقابل اللذات الأخرويّة. ومن هنا، كان النبيّ الأكرم والأئمّة المعصومون عَلَيهِمُ السَّلَامُ يسعون دومًا من خلال تعاليمهم إلى حثّ الناس على ترجيح الآخرة على الدنيا من دون تشجيعهم على ترك الدنيا والإعراض عنها كليًّا. فإذا عدّ الإنسان هذه الدنيا مقدّمةً للآخرة فإنّه لن يكون طالبًا للدنيا بل يُعدّ طالبًا للآخرة. وما أكثر أن تكون الاستفادة من المباحات بحدّ ذاتها مقدّمةً لترك الحرام. وعندها، تُعدّ عبادةً من هذه الجهة. هذا، بالإضافة إلى أنّ الاستفادة من المباحات يؤدّي أحيانًا إلى الرشد والاستعداد لأداء الوظائف والمهمّات الأعلى.

يقول الإمام موسى بن جعفر عَلَيهِ السَّلَامُ بشأن تقسيم ساعات اليوم: «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات»[1].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٣٢١.

وكما ذكرنا سابقًا، كان النبيّ بقوله: «**إياك والتسويف**» يشير إلى هذه الواقعيّة وهي أنّ العامل الأساس في نشوء التسويف هو تلك الآمال العريضة للإنسان وأمله في تحصيل تلك اللذات، أي أن يكون في سعي دائم للوصول إلى اللذات الدنيويّة ممّا يؤدّي إلى تأخير وتأجيل أداء الوظائف الدينيّة. وبعبارةٍ أخرى، يكون الأمر دائرًا بين أن يستغلَّ الفرصة في تحصيل اللذات الدنيويّة والماديّة وبين أن يكون بصدد تحصيل النتائج الأخرويّة. وحيث إنّ الدنيا بالنسبة له أمر نقديّ غير مؤجّل، فإنّه يقدّمها في البداية، ويكون في الواقع مؤمنًا بهذه الدنيا أكثر من إيمانه بالآخرة. فيرجّح اللذات الحاصلة الآن على تلك اللذات التي يمكن أن يحصل عليها في الآخرة. والعجب من أنّ أكثرنا مبتلًى بدرجةٍ من الشرك حيث إنّنا لم نؤمن بعلوّ الآخرة على الدنيا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[١].

لو أدّى الإنسان عملًا لغير الله حتّى لو كان لأجل الوصول إلى الثواب الأخرويّ فقد أشرك. وفي التوحيد الخالص، لا ينبغي أن نجعل أحدًا سوى الله هدفًا، حتى الخوف من جهنّم والشوق إلى الجنّة لا ينبغي أن يكون هدفًا، كما قال الإمام علي: «**إلهي ما عبدتك خوفًا من عقابك ولا طمعًا في ثوابك ولكن وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك**»[٢].

تهدّد الآمال الطويلة البعيدة سعادة الإنسان، ولهذا فإنّ أكثر ما كان يخاف منه الإمام علي عَلَيهِالسَّلَام هو أن يُبتلى الناس بمثل هذه الآمال الطوال فيفتدون مسؤوليّاتهم الإلهيّة من أجل ميولهم وأهوائهم: «**وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتّباع الهوى وطول الأمل**»[٣].

أداء الوظائف في وقتها

ويكمل النبيّ وصيّته بشأن اجتناب التسويف قائلًا: «**وإنّك بيومك ولست بما بعده...**».

فالنبيّ هنا يوصي أبا ذر أن لا يؤجّل عمل اليوم إلى الغد، لأنّه لا يمكن للإنسان أن يطمئن بمجيء الغد. ولو فرضنا الاطمئنان بمجيئه، فإنّ لليوم الآتي أيضًا

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤١، الصفحة ١٤.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ٢٨، الصفحة ٧٢.

وظائف أخرى. فلو قمت اليوم بواجبك ولم يأتِ الغد، لن تندم. أمّا إذا أخّرت واجبك، ولم يأتِ هذا الغد الذي كنت آملًا بأداء واجبك فيه، فإنّك ستحمل معك الحسرة والندامة إلى العالم الآخر. لهذا، عليك أن تفكّر بهذه اللحظة وتغتنم هذا النفَس وتجتنب التسويف وتأخير الأعمال انطلاقًا من الأمل في أن يأتي اليوم التالي. وفي مطالعاتك وتحقيقاتك لا تقل إنّ الوقت كثير وسوف أطالع غدًا لأنّ للغد أيضًا مسؤوليات: «**فإن يكن غدٌ لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرّطت في اليوم**».

من الممكن لمن يؤدّي وظائفه اليوميّة أن يشعر بالندم لأنّه لم يوفّق لأكثر منها، ولكن بالتوجّه إلى محدوديّة قدرة الإنسان من جهة، وإلى أنّه قد أدّى وظيفته بحسب هذه القدرة من جهة أخرى، فلن يندم إطلاقًا.

ثمّ يقول النبيّ مكمّلًا ما سبق ومؤكّدًا على عدم جواز انتظار الغد: «**يا أبا ذر كم من مستقبل يومًا لا يستكمله ومنتظر غدًا لا يبلغه**».

انظروا كيف يُعدُّ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في كلماته المربّية ذهنَ المخاطب لكي يستفيد أفضل استفادة من لحظات عمره. ففي البداية، يحمله على أن يفكّر في مدى إمكانيّة الأمل بالمستقبل حتّى يهيّئ له العمل. فإذا لم تكن مطمئنًا بمجيء الغد، فلماذا تؤخّر الأعمال. فأوّل الظهر هو وقت صلاة الظهر فمن أين لك أن تطمئن بأنّك ستعيش ساعةً أخرى، حتّى يحقّ لك تأخير صلاتك؟ فمن البديهي أنّك لو صلّيتها في أوّل الوقت فلن تندم فيما بعد. هذا، بالإضافة إلى أنّ لك أعمالًا أخرى يجب أن تقوم بها في الأوقات الآتية.

فكرة الموت نهاية الآمال الطويلة

«**يا أبا ذر لو نظرت إلى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره**».

إنّ أفضل طريقٍ لمواجهة الآمال وخدعها هو أن يفكّر الإنسان في قضيّة موته وأن يعلم أنّ الأجل هو نهاية الآمال الطويلة، وأنّه ينقل هذا الإنسان يائسًا إلى العالم الآخر، ويقول أمير المؤمنين: «**ومن استشعر الشغف بها ملأتْ ضميره أشجانًا لهن رقصٌ**

على سويداء قلبه: همٌّ يشغله، وغمٌّ يحزنه، كذلك حتى يؤخذ بكظمه فيُلقى بالفضاء»[١].

ويقول علي عَلَيهِالسَّلَامُ في مكانٍ آخر أيضًا: «**...ومن عِبَرِها أنّ المرء يُشرف على أمله فيقطعه حضور أجله، فلا أمل يدرك ولا مؤمَّلٌ يترك**»[٢].

الدور التوسّطي للدنيا

ثمّ يضيف النبيّ: «**يا أبا ذر كن كأنّك في الدنيا غريب أو كعابر سبيل وعدَّ نفسك من أصحاب القبور**».

ويوصيه النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ أن يكون الإنسان كالغريب الذي يدخل مدينةً ليس له فيها صديقٌ أو قريب!! فكيف سيعيش هناك؟ وهل سيتمكّن من أن يكون سعيدًا متنعّمًا في مثل هذه المدينة التي لا أنيس له فيها ولا صاحب؟!

ووطن المؤمن آخرته، وهو كالمسافر العابر في هذه الدنيا، فلن يكون بصدد مدّ بساطها للتنعّم والتوطّن فيها. هكذا يوصينا النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ أن نتعامل مع الدنيا كعابري سبيل، لا مجال أمامنا للتوقّف.

من الممكن أن يؤدّي الجمود على ظاهر مثل هذه الكلمات والجمل إلى استنباطٍ خاطئٍ يحمل الإنسان على التفكير بالانزواء وترك الاهتمام بتأمين المسكن وبناء أسرةٍ والابتعاد عن النعم والمواهب الدنيويّة والاكتفاء بعالم الآخرة باعتباره المنزل الأبدي للإنسان! ولا شكّ بأنّ مثل هذا التصوّر لا ينسجم مع مباني الإسلام. فما أكثر ما يكون اختيار الصديق والرفيق وبناء الأسرة وتأمين المال وتهيئة المسكن وغيرها دائرًا حول محور الآخرة ولا يكون لحبّ الدنيا فيه دور، بل يحثّ المشتغل بها على التوجّه إلى الآخرة وإطاعة أمر الله. فمع السير في الدنيا والاستفادة من إمكاناتها ولذائذها، يمكن للإنسان أن يتّجه نحو كمالات الآخرة وقرب الحقّ تعالى.

وفي الواقع، إنّ الذي جعل الآخرة هدفه فقد جعل الدنيا وسيلةً لها. وإذا فرضنا أنّ هذا الإنسان لا يقدر على مثل هذا النظر إلى الدنيا واتّخاذها وسيلةً

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٣٦٧، الصفحة ٨٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، الخطبة ١١٤، الصفحة ٢٢٥.

صِرفة للآخرة، فليكن على الأقلّ كعابرٍ يجد فيها محطةً لتجديد قواه ويتّخذها استراحةً مؤقتة. فإذا كانت الدنيا بالنسبة لهذا الإنسان ذات أصالة ولا يمكنه أن يغضّ النظر عنها بشكلٍ كامل، فعلى الأقلّ فليستفد منها لأجل تجديد قواه وتأمين حاجاته بحدّ الضرورة والحاجة كما أوصى الإمام الكاظم عَلَيهِ‌السَّلَامُ أن نخصّص ساعة من ساعاتنا في اللذة الحلال.

وقوله «**وعدَّ نفسك من أصحاب القبور**» هو أفضل تعبيرٍ استخدمه النبيّ، ولكن يمكن أن يُستنبط منه مفهومٌ خاطئ أيضًا. فحين يقول: عُدَّ نفسك من جملة الموتى، فظاهره أنّ مثل هؤلاء لا يستفيدون حتى من ضروريات النعم كالأكل والشرب، وعليك أن تكون أيضًا كذلك!! في حين أنّ مطلوب النبيّ من هذا الكلام هو أن نتوجّه إلى مقرّنا الأبديّ وموطننا الأصليّ، ولا نتّخذ الدنيا العابرة بدلًا عنها.

فحين تكون الحياة الدنيا معبرًا للآخرة وجسرًا للوصول إلى العالم الباقي، فليكن توجّهك إلى هذا المقصد الأصلي والمنزل الأبدي، وأن يكون سعيك لإعداد نفسك لأجل ذلك اليوم وتهيئة الزاد الكافي له، فلا تكون هناك من أصحاب الندامة والحسرة. فمقصود النبيّ ليس ترك الأمور الدنيوية تركًا كاملًا والإعراض عن التفكير في تأمين المعاش وتهيئة وسائل الراحة لمستقبلك ومستقبل أبنائك.

ولهذه الاستنباطات الخاطئة من الآيات والروايات سابقةٌ طويلة بين المسلمين. حيث نجد أنّ هذا الأمر قد حصل في زمن النبيّ حين نزلت تلك الآية حول جهنّم والعذاب، فترك بعض الأصحاب بيوتهم ونساءهم وطعامهم ولباسهم وانشغلوا بالعبادات؛ حتى وصل الخبر إلى النبيّ فاستدعاهم وأحضرهم، وقال لهم: لماذا تفعلون ذلك؟ فإنّني نبيّكم وأنا آتي النساء وآكل الطعام، وعليكم أن تقتدوا وتتأسّوا بي ولا تتركوا عيالكم وبيوتكم.

وبالالتفات إلى المطالب السابقة، ينبغي أن نذكر بأنّه قد يكون هناك من يعيش في الدنيا مع وفرة الإمكانات بين يديه، لكنّه لا يكون دنيويًّا. وهكذا، يمكننا أن نجعل جميع الأمور الماديّة وسيلةً في سيرنا نحو الحقّ تعالى. كذلك ينبغي الالتفات إلى أنّه حين يأتي الحديث عن ذمّ الدنيا فلا يعني ذلك ذمّ المواهب الطبيعيّة والماديّة لأنّها جميعًا خلق الله وآياته، بل المذموم هو كيفيّة نظر الإنسان إلى هذه الأمور ونيّته فيما يرتبط بالدنيا ونعمها وجعلها هدفًا أساسيًّا له، وإغفال

دورها التوسّطيّ وكونها وسيلة. فما هو مذموم في الواقع هو استفادة الإنسان الخاطئة من الوسائل الماديّة. يقول الإمام علي عَلَيْهِالسَّلَامُ في وصف النبيّ: «**فأعرض عنها [الدنيا] بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه**»[1].

«**يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدِّث نفسك بالصباح**».

وهذا المقطع تأكيدٌ على المطالب السابقة في أنّه لا يمكن الاطمئنان إلى مجيء الغد.

«**وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك لأنّك لا تدري ما اسمك**».

وفي هذا المقطع، يوصي النبيّ بالاستفادة من الفرص واغتنام اليوم حيث لا تعلم هل ستبقى على قيد الحياة إلى الغد؟ كذلك عليك أن تستغلّ نعمة الصحّة قبل المرض.

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الخطبة ١٠٩، الصفحة ٢١٥.

الدرس الرابع
وصية النبيّ للاستفادة المناسبة من الإمكانات المتاحة

- ❖ دور التفكّر في الموت وعواقب المعصية
- ❖ لزوم معرفة أهمية العمر
- ❖ أداء الواجبات في وقتها وعدم إشغال البال بما لم يأتِ

«يا أبا ذَرّ، إيّاكَ أنْ تُدرِكَكَ الصَّرعَةُ عِنْدَ العَثْرَةِ، فَلا تُقالُ العَثْرَةَ وَلا تَمَكَّنُ مِنَ الرَّجْعَةِ وَلا يَحْمَدُكَ مَنْ خَلَّفْتَ بِما تَرَكْتَ وَلا يَعْذِرُكَ مَنْ تَقْدِمُ عَلَيْهِ بِما اشْتَغَلْتَ بِهِ».

يا أبا ذَرّ، ما رَأَيْتُ كَالنّارِ نامَ هارِبُها وَلا مِثْلَ الجَنَّةِ نامَ طالِبُها.

يا أبا ذَرّ، كُنْ عَلى عُمْرِكَ أشَحَّ عَلى دِرْهَمِكَ وَدِينارِكَ.

يا أبا ذَرّ، هَلْ يَنْتَظِرُ أحَدُكُمْ إلّا غِنىً مُطْغِيًا أوْ فَقْرًا مُنْسِيًا أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أوْ هِرَمًا مُقْعِدًا أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أوْ الدَّجّالَ، فَإنَّهُ شَرُّ غايِبٍ أوْ السّاعَةَ تُنْتَظَرُ وَالسّاعَةَ أدْهى وَأمَرُّ».

مرّ سابقًا قسمٌ من مواعظ النبيّ لأبي ذر حيث توقّفنا عند بعض النقاط التي تؤكّد على تقوية الإيمان واغتنام الفرص وتقدير أيام العمر والنعم الإلهية. والآن نبيّن نفس تلك المطالب بعباراتٍ أخر، حتى يتحقق المزيد من التأثير في قلوب المؤمنين. حين يعتقد الإنسان بالله والقيامة والقيم الإلهية، فإنّه يتوجّه نحو جناب الحقّ تعالى لملاقاته بوجهٍ أبيض وليلقى منه العناية يوم القيامة، ولكنّ هذا الأمر يرتبط بأن يقدّر الإنسان نعمة العمر ويعرف كيف يصرفه حتى يصل إلى الهدف الذي هو السعادة الأبديّة. ثمّ يحذّر النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من أن يُبتلى المرء بالغفلة والمعصية والانحراف، فمن الممكن في هذه الحالة أن يدركه الأجل فيقع في الخيبة والندامة عند انتقاله إلى الدار الباقية.

دور التفكر في الموت وعواقب المعصية

«يا أبا ذر إيّاك أن تُدركك الصرعةُ عند العثرة، فلا تقال العثرة ولا تمكن من الرجعة».

إنّ النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يبيّن بعض المفاهيم الأخلاقية بعباراتٍ مختلفة. والهدف من تكرار هذه المفاهيم الأخلاقية هو إحداث المزيد من الأثر في قلوب المؤمنين. مثلما يحصل بالمرور سريعًا على آيات القرآن المباركة حيث نجد هذا التكرار حاصلًا في العديد من الموارد، وحتّى في بعض الأحيان نفس الألفاظ تتكرّر مثل الآية المباركة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة **الرحمن**، حيث تكرّرت إحدى وثلاثين مرّة. هذا، وإذا كان لكلّ آية متكرّرة مغزًى خاصّ، لكنّ دور التكرار في إيجاد المزيد من الأثر في القلوب لا يمكن إنكاره. وفي الأعمال اليومية، يكون للتكرار دورٌ كبير في تغيير السلوك وإيجاد العادات والملكات الحسنة.

رُوي أنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حين نزلت الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]، يجيئ إلى باب علي ثمانية أشهر يقول: الصلاة! يرحمكم الله، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

(وفي الحد الأدنى لو كان النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يأتي إلي بيت علي كل يوم مرةً فهذا يعني أنّ هذا العمل تكرّر حوالي ٢٤٠ مرّة، ولكن يبدو أنّه كان خمس مرات يوميًّا) وحاصل كلام النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّ الإنسان إذا لم يعلم أي عملٍ يوصله إلى السعادة، وأي عملٍ يوصله إلى الشقاء، فإنّه في النتيجة سيُبتلى بالمعصية والمذلّة؛ وإذا أدركه الموت حين ارتكاب المعصية سيكون قد خسر خسرانًا مبينًا، لأنّ جوهر العمر والحياة وأصل النعم الإلهية تزول بسبب المعصية التي لا يتبعها شيئًا سوى الحسرة. لذلك كان النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول: عليك أن تخاف من الأجل إذا داهمك أثناء المعصية وجاءت الملائكة لقبض روحك، فهناك لن يكون لديك فرصة لجبران الخسارة وسوف تبقى تلك المعصية في سجلّك أبد الدهر لأنّه لن يُسمح لك بالرجوع إلى الحياة الدنيا وفي هذا المجال يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[3].

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٣٢.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٤، الصفحة ٢٤١.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

فلو فكّر الإنسان في هذا الأمر حين ارتكاب المعصية وهو أنّه يمكن أن يدركه الموت في تلك الحالة لما همّ بها. مثلما أنّ الإنسان إذا تاجر وحصل على الكثير من الربح وترك ذلك لمن خلفه من بعده من الورثة، فكم يفكّر هؤلاء بحاله وينفعونه؟ وكم يمدحونه ويترحمّون عليه؟ وحتّى لو مدحوه فإنّه لن ينتفع بمدحهم. من جانبٍ آخر، فإنّه سيكون قد ورد على الله تعالى مع كلّ عثراته ونقائصه، فأيّ عذرٍ سيكون له أمام الله؟ وهل سيرحمه الله ويغفر له؟ هذا الذي كان يعلم بأنّه يقوم بعملٍ حرامٍ مخالفٍ لله والحجّة تامّة عليه، فأيّ عذرٍ سيكون له بين يدي الله حين يؤمر به إلى النار!

«يا أبا ذر ما رأيت كالنار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها».

لزوم معرفة أهمية العمر

«يا أبا ذر كن على عمرك أشحَّ منك على درهمك ودينارك».

لو كسب شخصٌ مالًا بعد كدحٍ وجدٍّ كبير، فهل سيضع هذا المال بين أيدي آخرين بسهولة؟ فالذي حصل على هذا المال بجهدٍ بالغ لا يسمح في حفظه لأنّه يعلم قيمته. وفي نفس الوقت، من الممكن أن يصرف ساعات عمره في طريق الباطل من دون أن يشعر بأي خسارة. بعبارةٍ أخرى، من الممكن أن نحرص في صرف مالنا، ولكن لا نحرص في صرف أعمارنا، مع أنّ قيمة المال لا يمكن أن تساوي قيمة العمر. فالذي يشعر أنّ حياته في خطر يكون مستعدًّا لصرف الكثير من المال لأجل البقاء حيًّا.

افرضوا أنّ جميع مناجم الذهب والفضة وآبار النفط قد وُضعت بيد شخصٍ علم أنّه لكي يبقى حيًّا عليه دفع كل ماله، فهل يبخل بهذا المال؟ فالإنسان إنّما يريد كل هذه الإمكانات الدنيوية لأجل الاستفادة منها وتسخيرها، فإذا لم يبقَ حيًّا ماذا ستعني له كل هذه الأمور؟

لهذا، فإنّ أهمية عمره أكبر من كل ثروات العالم. فلماذا إذًا يصرف هذه الثروات النفيسة بسهولة؟ ثمّ لا يكتفي بذلك بل يفعل ذلك مقابل العذاب الأبدي؟ فإذا لم يكن إهدار الدرهم عملًا عقلائيًّا، فهل يكون إهدار العمر في طريق الهوس والأهواء العابرة أمرٌ عقلائي؟!

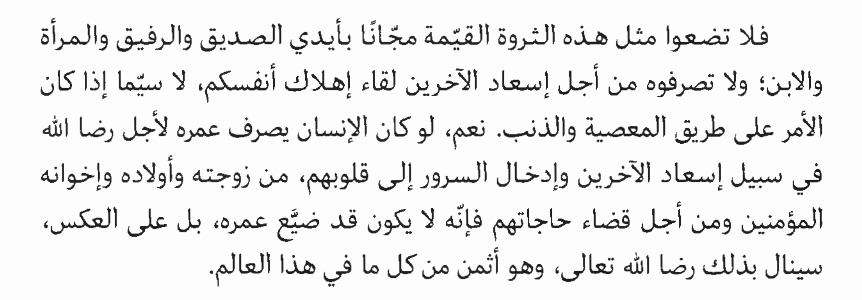
فلا تضعوا مثل هذه الثروة القيّمة مجّانًا بأيدي الصديق والرفيق والمرأة والابن؛ ولا تصرفوه من أجل إسعاد الآخرين لقاء إهلاك أنفسكم، لا سيّما إذا كان الأمر على طريق المعصية والذنب. نعم، لو كان الإنسان يصرف عمره لأجل رضا الله في سبيل إسعاد الآخرين وإدخال السرور إلى قلوبهم، من زوجته وأولاده وإخوانه المؤمنين ومن أجل قضاء حاجاتهم فإنّه لا يكون قد ضيَّع عمره، بل على العكس، سينال بذلك رضا الله تعالى، وهو أثمن من كل ما في هذا العالم.

أداء الواجبات في وقتها وعدم إشغال البال بما لم يأتِ

«يا أبا ذر هل ينتظر أحدكم إلّا غنىً مطغيًا، أو فقرًا منسيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُقعدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجّال فإنّه شر غائبٍ، أو الساعة تنتظر والساعة أدهى وأمرّ».

في هذا الكلام تأكيدٌ آخر على ضرورة اغتنام الفرص لأداء الوظائف والواجبات. فإذا لم يستفد الإنسان من الطاقة الموجودة والفرص الموضوعة بين يديه لأجل القيام بوظيفته فأيّ فرصةٍ ينتظر لأجل أداء وظيفته؟ وهذه الكلمات تحذّر أولئك الذين يُطلب منهم القيام بوظائفهم فيعتذرون قائلين: الوقت كثير، وسوف نقوم بذلك فيما بعد.

فإذا كنت تكسل عن القيام بالعمل وتؤخّره أو تنشغل بالملاهي، أو – لا سمح الله – بالمعاصي فأيَّ يوم تنتظر لتتمكّن من القيام بوظائفك وجبران ما فاتك؟ وحين تقع في الفقر والعوز ستبقى بانتظار ارتفاع هذا البلاء لتكون ثريًّا أو متمكّنًا. ولعلك إذا أصبحت ثريًّا وغير محتاج ستعرض عليك الأمور التي يحسن عندها الفقر والعوز وتصبح من الطاغين، لأنّ الإنسان إذا استغنى يطغى كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]، أم أنّك تنتظر في وقت غناك أن تزول عنك تلك الانشغالات التي تربطك بالمال والثروة ليأتي وقت الفقر والعوز فتؤدّي عملك؟! وأنت تتصوّر أنّه بزوال الثروة ترتفع عنك تلك البلاءات وتصبح حياتك أقلّ انشغالًا فتجد الفرص المناسبة للقيام بالوظيفة! تلك أمانيهم، فما أكثر ما يكون الفقر موجبًا لنسيان الأهداف والكمالات، ويشغلك بحيث أنّك تنسى أي شيءٍ

---

(١) سورة **العلق**، الآيتان ٦ و٧.

يتعلّق بالكمالات والروحانيات.

وحين تكون صحيحًا معافًا تتصوّر أنّ الإنسان حين يكون مريضًا يزداد توجّهه إلى ذكر الله!! ولكنّ الأمر ليس كذلك على الدوام، فليس كل من ابتُلي بالمرض يكون اشتغاله بذكر الله والدعاء والتوسّل أكثر، لأنّ المرض قد يتسلّط على الإنسان بحيث ينسيه العبادة والتوجّه.

أو تقول وأنت شابٌ فلتمرَّ أيام الشهوة وعنفوان الشباب حتى تتفرغ في شيخوختك للعبادة، وأنت غافل عن أنّ الشيخوخة مشغلة، تسلب القدرة البدنية فتمنعك من القيام بوظائفك.

فأيّ وقتٍ تنتظر للقيام بواجباتك؟ هل حين يحين الموت أو حين يأتي الدجال المفتن! وكلمة «الدجال» في اللغة تعني الشيء المطليّ بالذهب، كما أنّها تُطلق على الكذاب. وكما أنّ طلي الذهب لا يحوّل الشيء المطليَّ إلى ذهبٍ واقعيّ، فكذلك الكذاب، فإنّه يكون في الظاهر جذابًا ويخدع الآخرين بكذبه وتزويره. وقد ورد في الروايات أنّ معنى «الدجّال» الشرير والمفتتن.

على كلّ حال، إن ما يريده النبيّ من كلمة الدجّال لا بدّ وأن يكون أحد معنيين:

١. ذلك الشخص الذي يظهر في آخر الزمان ويؤدّي إلى وقوع الناس في الفتن والضلالة.

٢. أو لا يكون المقصود منه ذلك الشخص المعيّن، بل كلّ خادع مضلّ: أولئك الذين يكونون في الظاهر صالحين ويخدعون الناس من خلال التزوير والغش ويجذبونهم إليهم، أو أولئك الذين يلبسون الحقّ بالباطل ويضعون لباس الباطل على الحقّ، ممّا يؤدّي إلى انحراف الناس. فالدجّال يقوم بخلط الحقّ والباطل حيث لا يمكن تفكيكهما. لهذا، فإنّ النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ يؤكّد على أنّه ما دمت مدركًا ومفرّقًا بين الحقّ والباطل وتعلم الحقّ، فاغتنم هذه الفرصة واعمل بالحقّ وبلوازمه والتزم بعوارضه لأنّه سيأتي ذلك اليوم الذي تضلّ وينسدُّ أمامك طريق الهداية. وهو أسوأ ما ينتظر الإنسان، والأسوأ منه والأدهى ما يحدث يوم القيامة. فالنبيّ هنا يحذِّر من

الأخطار المقبلة ويجسّمها أمامنا ويطرح هذا الاحتمال حيث يمكن أن تكون المشاكل الآتية أكثر من المشاكل الفعليّة ومن اللازم إذًا أن يغتنم الإنسان فرصة يومه ولا يؤجّله إلى الغد وما بعده.

- ❖ عاقبة عدم العمل بالعلم وعاقبة استغلاله للوصول إلى المنزلة الاجتماعية
- ❖ عاقبة كسب العلم لأجل خداع الناس
- ❖ الاعتراف بالجهل من صفات العلماء الإلهيين
- ❖ أكبر حسرات العالم يوم القيامة
- ❖ تقسيم العلماء في كلام الإمام علي عليه السلام

«يا أبا ذر إن شرَّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة عالمٌ لا ينتفع بعلمه، ومن طلب علمًا ليصرف به وجوهَ الناس إليه لم يجد ريح الجنة.

يا أبا ذر من ابتغى العلمَ ليَخدع به الناسَ لم يجد ريح الجنة.

يا أبا ذر إذا سُئلتَ عن علمٍ لا تعلمه فقل لا أعلمه تَنجُ من تبعته، ولا تُفتِ الناس بما لا علم لك تَنجُ من عذابِ الله يوم القيامة.

يا أبا ذر يطلع قومٌ من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النارَ، وقد دخلنا الجنة بتأديبكم وتعليمكم؟! فيقولون: إنا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله».

عاقبة عدم العمل بالعلم وعاقبة استغلاله للوصول إلى المنزلة الاجتماعية

في هذا القسم، يخاطب النبيّ العلماء ويحثُّهم على أن يعملوا بعلمهم ويبيّن لهم آثار عدم العمل بالعلم.

هذا، وإن كان كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ واضحًا ولا يحتاج إلى تفسير، إلّا أنّ إضفاء المزيد من الوضوح على المطالب المذكورة يساعد على تثبيته في القلوب أكثر. ولهذا، نشير إلى بعض الروايات التي تؤيّد مضمون كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المقطع. ولكن قبل ذلك نذكر أنّ الإسلام لا يعفي الإنسان العاقل من المسؤولية، وإن كان ميزان وحدود المسؤوليات متفاوتًا. فالإنسان الجاهل والإنسان العالم مشتركان في المسؤولية، وإن كانت مسؤولية العالم أكبر من مسؤولية الجاهل. لهذا، بما أنّ الجاهل يتحمّل المسؤولية فهو مُكلّفٌ بتعلّم التكاليف الإلهية والمسائل الدينية التي تكون مورد الحاجة، وعدم العلم بالمسائل الدينية لا يوجب سقوط التكليف. ولهذا، كان الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول إذا تلى قوله تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾:

«إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنت عالمًا؟ فإن قال نعم، قال: أفلا عملتَ بما علمت؟ فإن قال: كنتُ جاهلًا، قال: أفلا تعلَّمت حتى تعمل...»

يكمن الاختلاف الأساسي بين العالم والجاهل في أنّ الحجة الإلهية تامّة على العالم ولا يُقبل منه أيُّ عذرٍ في ترك المسؤولية والوظيفة ويتمُّ التشدُّد معه أكثر. ولهذا، قال الإمام الصادق: «**يُغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يُغفر للعالم ذنبٌ واحد**»[1].

وبناءً عليه، لا ينبغي أن يُتوهم أنّ الأولى هو أن نصرف النظر عن تحصيل العلم حتى لا يُتشدد علينا في التكليف، فنكون أسوأ حالًا من الجاهلين، لأنّ الذي يترك تحصيل العلم وامتلاك الوعي مسؤولٌ ولا يُعفى من المسؤولية بترك تحصيل العلم. ثمّ، لماذا لا نكون من أولئك العلماء الذين يعملون بعلمهم: أولئك الذين يتحسر الآخرون في الدنيا على نيل مقامهم ويغبطونهم في الآخرة على ما أعدّ الله لهم.

فقد ورد في مجامعنا الروائية أبواب متعدّدة، وبعناوين مختلفة، حول فضيلة تحصيل العلم، وممّا ورد في بعضها أنّه يستغفر لطالب العلم كل من في السموات والأرض حتى الطيور ووحوش الصحاري وأسماك البحار.

وعلي أيّ حال، فإنّ النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يبين في هذا المقطع أنّ العالم الذي لا يعمل بعلمه سيكون أسوأ حالًا من الجميع يوم القيامة، ولن يشم رائحة الجنة. وقد يتّجه الإنسان نحو تحصيل العلم وتكون نيته في البداية لخدمة الدين وأداء الوظائف، ثمّ تعرض عليه أثناء الطريق تلك الموانع التي تمنعه من الوصول إلى الهدف! بعض الناس لا يمتلكون تلك النية الإلهية أثناء الاشتغال في تحصيل العلم، فهؤلاء بالإضافة إلى عدم إخلاصهم في طلب العلم، يضيفون تلك النوايا السيئة: كالسعي لجلب توجه الناس وجذبهم، وتحصيل المنزلة في قلوبهم وكسب الشهرة والمقام بينهم. ومن الطبيعيّ أنّ مثل هؤلاء يتّجهون منذ البداية نحو الانحراف والسقوط وتكون عاقبتهم الوقوع في مستنقع الذلة والخيبة، ولن يشمّوا يوم القيامة من رائحة الجنة شيئًا.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ١٩٣.

لعلّ الذي يطلب العلوم الدنيوية لكسب المقام والموقعية أو تحصيل الرزق يقع مورد الذم والتوبيخ، أمّا الذي يطلب العلوم الإلهية، التي جُعلت وسيلة للسعادة الأخروية، من أجل هذه الدنيا فيصبح مذمومًا مدحورًا؛ فمثل هذا الشخص في الواقع قد جعل شأن الدنيا ومنزلتها أعلى من الدين؛ وبعبارةٍ أخرى، إنّه ذاك الذي يعطي الأصالة للدنيا على حساب الدين. ومثل هذا التفكر ناشئٌ من عدم الاعتقاد بالمباني والقيم الدينية ولن يعقبه سوى البعد عن الله، كما قال النبيّ: **«من ازداد في العلم رشدًا فلم يزدد في الدنيا زهدًا لم يزدد من الله إلّا بعدًا»**[١].

عاقبة كسب العلم لأجل خداع الناس

«يا أبا ذر من ابتغى العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنة».

هناك من لا يتوقّف في طلبه للعلم عند حدود كسب الشهرة والمقام، بل يتعدّى ذلك إلى خداع الناس واستغلالهم وإضلالهم بعلمه. وفي هذا القسم من الرواية، أشير إلى أهمية العمل بالعلم وتصحيح النية: حيث ينبغي على الإنسان أن ينظر في نفسه ويعرف نيته الحقيقية من وراء طلب العلم، ولا يسمح بنشوء النوايا الشيطانية في قلبه. ولا ينبغي أن يسعى إلى طلب العلم من أجل تحصيل العناوين والاعتبارات كحجّة الإسلام وآية الله أو الفيلسوف والمفسّر طمعًا في الحصول على احترام الناس وإعجابهم.

أولئك الذين يتحمّلون تعب تحصيل العلم لأجل الشهرة، قد يتوهّمون في أنفسهم أنّهم إذا ازدادوا شهرة بين الناس أصبحوا أعزّ عند الله تعالى، وهو واضح البطلان. فهل كل من كان مشهورًا بين الناس فقد عمل بوظيفته وأدّى ما عليه حتى صار عند الله عزيزًا ونال فيض تلك السعادة؟

إنّ مثل هذا، وإن كان بين الناس مشهورًا، لكنّه عند الله أكثر حياءً وخجلًا من الجميع، لأنّ ملاك قيمة الإنسان هو العمل والتقوى. فالملاك هو أن يكون الإنسان عزيزًا عند الله، لا عند الناس.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٣٧.

الاعتراف بالجهل من صفات العلماء الإلهيّين

فيما رُوي عن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «**من تعلّم علمًا ممّا يُبتغى به وجه الله عزّ وجل، لا يتعلّمه إلّا ليُصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[١].

«**يا أبا ذر إذا سئلت عن علمٍ لا تعلمه فقل: لا أعلمه تنجُ من تبعته ولا تُفتِ بما لا علم لك به تَنجُ من عذاب الله يوم القيامة**»[٢].

إحدى الآفات الكبرى التي قد يُبتلى بها الشخص العالم هي الخجل من الاعتراف بجهله إذا لم يكن يعلم. فهذا الاعتراف أمرٌ سهلٌ بالنسبة للأشخاص العاديّين، أمّا إذا كان الإنسان معروفًا بين الناس ومشهورًا بالعلم، فإنّه قد يخشى كثيرًا من أن يقول «لا أعلم». وإذا سُئل عن شيء ولم يعلمه يصعب عليه كثيرًا أن يمرَّ على السؤال من دون أن يدلي برأيه!! خوفًا من أن يقول الناس عنه: «أيُّ عالمٍ أنت إذا لم تكن تعرف هذه المسألة»!

فأين الصعوبة وأين المشكلة في أن نقول للناس: إننا لا نعلم. وهل أوجب الله على الجميع أن يعرفوا كلّ شيء!

ليس سوى الله من يعلم كلّ شيء. وعلم الآخرين ليس سوى قطرة في بحر علمه، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٣].

كان المرحوم العلامة الطباطبائي يعقد تلك الجلسات ليالي الخميس والجمعة ويحضرها العديد من تلامذته حيث يطرح فيها الأبحاث الفلسفية والمعرفية، وإذا كان لدينا من سؤال كنا نطرحه عليه أحيانًا قبل بدء الجلسات، وفي بعض الأحيان في الطريق. في إحدى الليالي، كان لديّ سؤالٌ فلسفيّ، وكان الأستاذ في طريقه إلى الدرس فعرضته عليه، فقال لي: «لا أعلم»، ثمّ طرحت عليه سؤالًا ثانيًا، فقال لي بمنتهى البساطة: «لا أعلم»، ثمّ تأمّل قليلًا وقال: انظر! ربّما يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بهذه الطريقة. ثمّ أجابني ببيانٍ قويٍّ وقاطع. في تلك الليلة، قال لي:

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٣٨.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٧٤، الصفحة ٧٦.

(٣) سورة **الإسراء**، الآية ٨٥.

يجب علينا أن نقارن مجهولاتنا بمعلومات الحقّ تعالى، وفي هذه الحال سوف نرى أنّا لا نعلم شيئًا، وأنّ مجهولاتنا مثل علم الله في اللامتناهي.

هذا هو منهج الذين تربّوا في مدرسة الأنبياء والأولياء، أولئك الذين إذا لم يكونوا على يقينٍ من شيء أجابوا بـ «لا أعلم». وقد كان أستاذنا قادرًا على أن يجيبنا أحيانًا بطريقةٍ تزيد من اطمئناننا، لكنّه إذا لم يكن متيقنًا، فإنّه كان متقيدًا بأن يقول «لا أعلم». وفي الواقع، كان هذا السلوك نابعًا من مجاهدة النفس وإفنائها.

هذا هو نهج أولئك الذين صرفوا ستين أو سبعين سنة من عمرهم المبارك على طريق التزكية والتعلم والتعليم. ونحن إذا تعلمنا أربع كلماتٍ ومصطلحات ثمّ ذهبنا إلى منطقتنا وسُئلنا عن مسألة فسيكون صعبًا علينا أن نقول بأنّنا لا نعلم!! يجب علينا أن نتمرّن ونعوّد أنفسنا على أنّنا إذا لم نكن نعلم أن نقول بسهولة لا نعلم، وإذا كنا نظن بشيء نقول يُحتمل كذا وكذا، وبهذه الطريقة ننجي أنفسنا من عذابات الآخرة.

أكبر حسرات العالم يوم القيامة

«يا أبا ذر يطلع قومٌ من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار فيقولون ما أدخلكم النار، وقد دخلنا الجنة بتأديبكم وتعليمكم؟! فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله».

إحدى مواقف القيامة التي بُيِّنت في القرآن هي حين يشرف أهل الجنة على أهل النار ويرونهم ويتحدّثون معهم. كأنّ الجنة في مكانٍ رفيع، وجهنّم في مكانٍ سافلٍ، فيشرف أهل الجنة عليهم. وتعبير القرآن أنّه في بعض الأحيان قد يخاطب أهل الجنة أهل النار، وفي بعض الأحيان، يكون الأمر بالعكس: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

فكما جاء في هذه الرواية، إنّ أهل الجنة يخاطبون طائفة من أهل النار: إنّنا بفضل تعليمكم وهدايتكم وبركة تربيتكم دخلنا إلى الجنة. فما الذي حصل حتى

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٤٤.

ابتُليتم بالعذاب الأليم ودخلتم النار؟ فيجيب هؤلاء بكامل الحسرة والندامة: لم نكن نعمل بما نقول، لقد دعوناكم إلى القيام بالأعمال الحسنة ولكنّنا لم نعمل بها. دعوناكم للقيام بالمستحبات ولكنّنا لم نعمل بالمستحبات. هديناكم للابتعاد عن المعصية والغيبة ولكنّنا تلوّثنا بالغيبة والمعصية. لقد سمعتم مقالاتنا وعملتم بها فوصلتم إلى ذلك المنزل الرفيع، أمّا نحن فلم نعمل بعلمنا حتى ابتُلينا بهذا المصير المشؤوم وسقطنا في هاوية هذا العذاب الأليم.

هذه الذلّة والحسرة هي عاقبة الذين لا يعملون بعلمهم. ومن المسلَّم أنّ هذه الحسرة بالنسبة لهؤلاء أشدّ عذابًا من النيران. ذلك لأنّ العذاب الروحي أشدّ من العذاب الجسماني وأكثر لهيبًا. وإنّ الألم الناجم عن شماتة الأعداء أشدّ من ألم الإحراق.

من المؤلم أن يشعر الإنسان أنّ الآخرين قد دخلوا الجنّة بسبب هدايته، أمّا هو فاستحقّ عذاب جهنّم، مع أنّه كان يستطيع أن يبلغ بواسطة علومه أعلى درجات الجنة؛ وها هو يرى أتباعه على الأرائك متّكئين وإليه ينظرون! فهم في الجنّة فرحون بنعمة الله، وهو في جهنم قد باء بسخط الله. ولو لم يكن من عذابٍ آخر غير الحرمان من تلك النعم التي وصل إليها أتباعه، لكان كافيًا.

وبالالتفات إلى النكات التي ذُكرت في هذا الحديث الشريف، فإنّ علينا بدايةً أن نصحّح نيّاتنا وأن نسعى في طلب العلم في سبيل الله من أجل القيام بالوظائف؛ وأن نعمل منذ البداية بما نقول، حتى تصبح هذه الخاصية فينا ملكةً راسخةً، حتى إذا اكتسبنا المزيد من العلم قدرنا على العمل به. فلو بنينا أمرنا منذ البداية على التساهل والاستهتار، وتركنا وظائفنا واحدةً تلو الأخرى، فإنّنا نقوّي ملكة العصيان في أنفسنا، لتصبح عندئذ مجاهدة النفس أمرًا في غاية الصعوبة.

تقسيم العلماء في كلام الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفي تقسيم طوائف العلماء يقول أمير المؤمنين: «**العلماء رجلان: رجلٌ عالمٌ آخذٌ بعلمه فهذا ناجٍ، ورجلٌ تاركٌ لعلمه فهذا هالكٌ، وإنّ أهل النار ليتأذّون من ريح العالم التارك لعلمه. وإنّ أشدّ أهل النار ندامةً وحسرةً رجلٌ دعا عبدًا إلى الله سبحانه فاستجاب له وقبل**

منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة وأدخل الدّاعيَ النارَ بتركه علمَهُ»[١].

وفي الحديث القدسي يخاطب الحق تعالى نبيه الأوّاب داوود: «**إنّ أهون ما أنا صانعٌ بعالم غير عامل بعلمه أشدّ من سبعين عقوبة أن أُخرج من قلبه حلاوة ذكري...**»[٢].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٤.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٣٢.

الدرس السادس
عظمة وسعة الحقوق والنعم الإلهية وضرورة الاهتمام بالتكاليف

- ❖ عظمة الحقوق الإلهية وعدم إمكانيّة إحصاء نعمه
- ❖ قِصر مدة العمر وبقاء الأعمال الصالحة والسيئة للإنسان
  - أ . تجسّم الأعمال الدنيوية للإنسان يوم القيامة
  - ب . مفاجأة الموت عامل اليقظة والانتباه
- ❖ تقدير رزق الإنسان
- ❖ التوحيد الأفعالي ومنشأ الخير هو الله

«يا أبا ذر إنّ حقوق الله جل ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنّ نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أمسوا وأصبحوا تائبين.

يا أبا ذر إنكم في ممر الليل والنهار في آجالٍ منقوصة وأعمالٍ محفوظة والموت يأتي بغتةً، ومن يزرع خيرًا يوشك أن يحصد خيرًا ومن يزرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكلّ زارعٍ مثلما زرع.

يا أبا ذر لا يسبق بطيءٌ بحظه ولا يدرك حريصٌ ما لم يقدَّر له، ومن أعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا فالله وقاه».

عظمة الحقوق الإلهية وعدم تناهي نعمه تعالى

«يا أبا ذر إنّ حقوق الله جلّ ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنّ نعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أمسوا وأصبحوا تائبين».

في هذا القسم من الحديث، يدور البحث حول إيجاد حسّ المسؤولية والاهتمام بأداء الوظائف والتكاليف. فإذا فهم الإنسان أنّ عليه أن يفني عمره بالطريقة الصحيحة، وعلم أنّ الاستفادة المثلى من العمر والوقت والفراغ ينبغي أن تكون بالعلم، يأتي دور الحديث عن ضرورة إيجاد الدافع للسعي والعمل، وما الذي ينبغي أن تكون عليه الدوافع وكيف تنشأ.

ولأجل إيجاد الدافع ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ لله تعالى على عباده حقوقًا، ومن هذه الجهة يكون على الإنسان مسؤوليّات تجاه ربّه. فالإنسان

يدرك بعقله وفطرته أنّه لو كان لأحدٍ عليه حق فإنّ عليه أن يؤدي إليه ذلك الحقّ. وكلّ عاقلٍ يعلم أنّ لله تعالى أعلى وأكبر الحقوق على الإنسان.

إذا كان الإنسان ملتفتًا إلى أنّ جميع النعم المحيطة به ـ من أصل الحياة إلى سائر النعم المادية والمعنوية ـ هي تفضُّل ومنّة من الله تعالى، فلن ينسى وظيفة وواجب العبودية، وسوف يعلم أنّ عليه شكر وليِّ نعمته وتقديره. إنّ هذا الأمر من أكبر الدوافع التي تحرِّك الإنسان نحو القيام بالوظائف.

ولهذا، بدأ النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مع هذا المقطع، بالإشارة إلى حقوق الله على الناس مؤكّدًا على أنّ الإنسان لا يمكن أن يخرج مرّة واحدة عن عهدة مسؤولية شكر نعم الله وأداء حقوقه.

حين يدرك الإنسان أنّه لو قضى كلّ عمره للقيام بالوظائف وأداء الحقوق الإلهيّة وشكر نعم الله، فإنّه لن يوفّق لذلك، فيجب عليه أن يرى نفسه دائمًا مدينًا حتى لو لم يرتكب ذنبًا واحدًا. إنّ حقّ الله سيبقى في عنقه وعليه أن يؤدّيه. وحذار من أن يخدعنا الشيطان فيُخيّل لنا أنّ لنا على الله دينًا!

فلو وُفِّق أحدنا بفضل لطف الله وعنايته لاجتناب جميع الذنوب، ثمّ أصابه العُجب وفرح بأنّه لم يرتكب أي ذنب يكون قد ابتُلي بالغفلة ومرض العجب. لهذا، يجب الالتفات والتوجه الدائم إلى أنّ الإنسان لا يمكنه أبدًا أن يخرج من مسؤولية أداء حقوق الله وشكر نعمه، كما يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[١]. ولو فرضنا أنّ الإنسان يقدر على تعداد نعم الله، فإنّه لن يقدر على أداء حقّ واحدةٍ من هذه النعم، حتى لو كان شكر تلك النعمة يكفي فيه قول «الحمد لله»، فإنّه لا يكون قد أدى ذلك الحقّ وارتفعت عنه تلك المسؤولية، لأنّه بقول الحمد لله قد أدرك توفيقًا آخر ونعمةً ثانية من الله تعالى حيث وفّقه إلى الشكر. وهذا التوفيق يقتضي أن يقول مرّة أُخرى «الحمد لله»، فإنّه لن يؤدي حقّ شكرٍ واحدٍ فكيف يمكن إذًا أن يخرج من مسؤولية جميع النعم التي تعجز الخلائق عن تعدادها؟!

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٨.

إنّ الالتفات إلى أنّ النعم الإلهية لا تُعد ولا تُحصى، وأنّ حق الله تعالى على الإنسان كبيرٌ جدًّا، يؤدّي إلى الإحساس بالذل والتواضع في الأعماق، ويبقي الشعور بالمسؤولية حيًّا، وإن لم يرتكب ذنبًا واحدًا.

فإذا لم يكن الإنسان قادرًا على شكر النّعم الإلهية وأداء الحقوق، فإنّ أهم عملٍ يمكن أن يقوم به هو الحفاظ على حالة التوبة والإنابة والخضوع والاعتراف بالمعصية والتقصير في أداء الوظائف. وهذا بحدّ ذاته يجنِّب الإنسان الوقوع في الغرور والخُيلاء، لأنّ الإنسان إذا انحرف عن المسير الصحيح سوف يُبتلى بطلب الدنيا والراحة والكسل، وإذا هُدي إلى الصراط المستقيم ووُفّق لأداء الوظائف يمكن أن يُبتلى بالغرور والعجب فيقيس نفسه بالآخرين، ويقول في سريرته: انظر إلى هؤلاء الناس لا يقدّرون نعم الله وقد تلوّثوا بالمعاصي، ولكنّني وُفّقت للقيام بالوظائف وتقدير نعم الله!!

ففي الوقت الذي يجب أن نكون فيه من أهل العمل وأداء المسؤوليات، لا ينبغي لنا أن نغفل عن مرض الغرور. فهذا أكبر درسٍ تربويٍّ نستفيده من كلمات أهل البيت.

وفي هذا الكلام، يحذّر النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بالإضافة إلى الحثّ على العمل والسعي وأداء الوظيفة وإدراك ثقل الحقوق الإلهية، من الابتلاء بالغرور والعجب.

قِصر مدة العمر وبقاء الأعمال الحسنة والسيئة للإنسان

«**يا أبا ذر إنكم في ممرِّ الليل والنهار في آجالٍ منقوصة وأعمالٍ محفوظة، والموت يأتي بغتةً، ومن يَزرع خيرًا يوشك أن يحصد خيرًا، ومن يزرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارعٍ مثلما زرع**».

من جملة الأمور التي تحث الإنسان على السعي والعمل وتوجد في نفسه الدافع للعطاء وتحمُّل المسؤوليات التفاتُه إلى هذه النكتة: وهي أنّ العمر في حالة انقضاء، وسواء شئنا أم أبينا، فمع كل نفسٍ نتنفّسه ينقص من عمرنا، ولا يمكننا أن نوقف عجلة الزمان ونرجع تلك الثواني والساعات. كما قال أمير المؤمنين: «**نفَس**

المرء خُطاه إلى أجله»[١].

فينبغي الالتفات دومًا إلى هذا الرأسمال حتى لا يذهب هباءً، فهو في حالة سير دائم نحو النقص والتآكل، إلى حين الأجل وليس له من مفر. كما قال إمام المتقين عليّ: «**فما ينجو من الموت من خافه ولا يُعطى البقاءَ من أحبَّه**»[٢].

والطريق الوحيد لاجتناب ضياع العمر هدرًا وخسارة الرأسمال الأصلي هو القيام بتجارة رابحة! وأي تجارة أربح من أن يشتري الإنسان بعمره تلك الجنة الباقية ويعمرها، فهي البضاعة الوحيدة التي تعوّض عمر الإنسان كما قال علي:»**ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟ إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها**»[٣].

فما أخسر أولئك الذين اشتروا برأس مال عمرهم عذابَ الله!

ولعلّ أولئك الذين يصرفون عمرهم في طريق الباطل، يتصوّرون أنّه مع مرور العمر وانقضائه تزول أعمالهم أيضًا، كم هو من خيالٍ باطل!

وإن كانت هذه النشأة نشأة العبور، وتلك النشأة نشأة القيامة والبقاء، لكنّ أعمال الإنسان تبقى ولا تفنى؛ لأنّ الأعمال ترتبط بروح الإنسان وبالله تعالى. فنحن وإن كنا نعيش في هذه النشأة التي تتجّه نحو الفناء والزوال، لكنّنا مرتبطون بنشأة البقاء التي نستودع فيها أعمالنا فتبقى محفوظة عند الله تعالى.

أ. تجسُّم أعمال الإنسان الدنيويّة يوم القيامة

من الأصول الثابتة المرتبطة بيوم القيامة ما يعبّر عنه بحفظ الأعمال وتجسّمها، والتي أشار الحقّ تعالى إليها في كتابه العزيز حيث قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٧٤، الصفحة ١٤.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١، الخطبة ٣٨، الصفحة ٩٠.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، الحكمة ٤٥٦، الصفحة ١٠٥.

(٤) سورة **الكهف**، الآية ٤٩.

ويقول عزّ من قائل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[١].

ب. مفاجأة الموت عامل اليقظة والانتباه

لا أحد يعلم إلى أي أمد سيعيش، ومتى يحين أجله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٢].

وهذا الأمر يُعدّ من جملة الألطاف الإلهية حيث لا يقدر الإنسان معرفة وتحديد وقت انتقاله من هذا العالم، فلو علم أجله لابتُلي بالمزيد من الغفلة والغرور.

ولا شك أنّ هناك من بلغ مرتبة روحيّة عالية، بحيث يكون علمهم بموتهم أو عدمه سيّان، لأنّهم شُغلوا بأمرٍ آخر ولا يهمّهم سوى القيام بحقّ العبودية وأداء التكليف، فلا غروَ أن يطلعهم الله على آجالهم. أمّا بالنسبة لنا نحن، فإنّ هذه المعرفة ستؤدّي بنا إلى المزيد من التسويف وتأخير الأعمال، وهو أمرٌ بعيدٌ عن الحكمة. فالحكمة الإلهية اقتضت أن نبقى قلقين أنّه يمكن في اللحظة التي تلي يأتي أجلنا، وبهذه الطريقة يمكننا أن نستفيد من عمرنا بنحوٍ أفضل.

وفي قوله «**ومن يزرع خيرًا...**» شبّه الدنيا بالمزرعة التي تنتظر وضع البذور فيها، سواءٌ كانت تلك البذور أعمالًا صالحة أو أعمالًا سيّئة.

تقدير رزق الإنسان

«**يا أبا ذر لا يسبق بطيءٌ بحظه، ولا يدرك حريصٌ ما لم يقدَّر له**».

يواجه الإنسان في حياته آفتين مهمّتين: إحداهما أن تجبره متطلّبات حياته على السعي لتأمين المعاش، ممّا يمنعه في النتيجة من القيام بوظائفه الإلهية؛ والأخرى أن يُبتلى بالغرور والعجب حين يكون في مقام أداء الوظائف الإلهية. هذا

---

(١) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ و٨.

(٢) سورة **لقمان**، الآية ٣٤.

الغرور الذي يمكن تشبيهه بالنار التي تحرق كل شيء فلا تبقي له من عمل صالح ينتفع به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون. ولهذا لا بدّ من البحث عن مخرجٍ للحؤول دون حصول هاتين الآفتين.

يتصوّر البعض أنّ القيام بالوظائف الإلهية والاجتماعية يحدث خللًا في أمور معاشهم وإدارة حياتهم؛ ويتخيّلون أيضًا أنّ السعي في الدنيا أمرٌ ضروريّ لا يمكن اجتنابه، وهذا ما يمنع من القيام بالوظائف الإلهية والدينية. فهذه الأعذار والمبررات ليست إلا وساوس الشيطان. وما يحول دون هذه الوساوس أن نتوجّه إلى هذه الفكرة، وهي أنّ الله تعالى قد عيّن لكلّ واحدٍ منّا رزقًا محدّدًا، وأنّ هذا الإنسان مهما سعى لن ينال أكثر مما قُدّر له.

ومن بين التعاليم المذكورة في الكتاب والسنة والتي يُعدّ الالتفات إليها أمرًا ضروريًّا بالنسبة للإنسان هي قضية تقدير الرزق. ونحن هنا لن ندخل في بيان مفهوم تقدير الرزق، ووجوب تحصيله أم لا، بل نشير مباشرةً إلى تلك المعارف الدينية التي أولت أهمية خاصّة لهذه المسألة.

فقد أشار الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في موارد متعدّدة من **نهج البلاغة** إلى موضوع تقدير الرزق، وقد ذكر في هذه الروايات أيضًا أنّ الذي يبطئ في تحصيل رزقه، لن يكون رزقه من نصيب الآخرين. وإذا حرص أحدٌ على جمع الأموال وسعى للازدياد والاستكثار فلن يصل إلى أكثر ممّا قُدِّر له. فمثل هذه المعرفة مع استحضارها تحول دون وساوس الشيطان.

حين يسعى الشيطان لمنع الإنسان من القيام بوظائفه الإلهية ثمّ يوسوس له أثناء القيام بالوظيفة أو الوظائف قائلًا: «عليك أن تسعى لتأمين معاشك ورزقك». فعلى هذا الإنسان أن يلقم الشيطان حجرًا ويقول له: «اسكت! إنّ رزقي مقدّر ولن يكون من نصيب الآخرين». ولا شك بأن هذا الاعتقاد لا يحصل إلا حين يطمئن الإنسان إلى أنّ تقدير الرزق بيد الله تعالى.

وما يُقال بأنّ تقدير الرزق إذا كان بيد الله فعلى الإنسان أن يتوقّف عن السعي لتحصيله، لأنّ الله تعالى يوصل الرزق إليه أينما كان! فقد بحثنا وأشرنا في محله أنّ على الإنسان أن يسعى لتأمين حاجاته وأنّ الله تعالى يكره الإنسان الكسول. فكلامنا هنا في تقدير الرزق هو لأولئك الذين ينخدعون بإلقاءات ووساوس الشيطان

ويتخيلون أنّهم إذا قاموا بالوظائف الإلهية فإنّهم سوف يموتون ويموت عيالهم من الجوع. إنّ الله تعالى أجلُّ من أن يترك ذاك الذي يعيش العبودية له جائعًا.

التوحيد الأفعالي وأنّ منشأ الخير هو الله

«ومن أعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا فالله وقاه».

النكتة الأخرى التي يلزم ذكرها هي أنّنا إذا كنا بصدد أداء الوظائف الإلهية واجتناب المعاصي والقيام بالعبادات فلا ينبغي أن نتخيل أنّنا أصبحنا لائقين لهذا المقام، فإنّ كل خيرٍ نقوم به إنّما يرجع إلى الله. فهو الذي يوفّق لأداء الصالحات واجتناب المعاصي.

وكل ما كان من خيرات العالم تكوينًا، ويصل إلينا سواءٌ بالسعي أو بغيره، فهو من الله، والله تعالى هو الذي يدفع عنا كل بلاء. وأساس هذا الاعتقاد والإيمان يتجلّى في الاعتقاد بالتوحيد الأفعالي حيث يرى الإنسان جميع المحاسن والأعمال الحسنة من الله، وهو الذي يدفع كل بلاءٍ وشر. ولبحث التوحيد الأفعالي أهمية كبيرة ويمكن القول إنّ كل ما يرتبط بالقضاء والقدر وأمثالهما هو مقدمة لاعتقاد الإنسان بالتوحيد الأفعالي.

وتكمن أهمية الالتفات إلى التوحيد الأفعالي في أمورٍ عديدة منها أنّه يقضي على الغرور والعجب والتكبّر في باطن الإنسان ومثل هذا التوجّه هو علاج لأكثر الرذائل الأخلاقية من قبيل الكسل والحسد والذلة. وبالتوجّه إلى التوحيد الأفعالي لا تزول أرضية الحسد في الإنسان فحسب، بل لا يبقى أي أرضيةٍ لنشوء التكبّر والذلة، ذلك لأنّ الإنسان حين يرتبط بالله تعالى لن يرى في نفسه الذلة والحقارة. وكذلك هذا الإنسان الذي يرى عظمة الحق لن يرى لنفسه كبرًا، لأنّه يرى كل شيءٍ من الله، والذي يؤمن أنّ كل قدرة من الله ولا يقدر أحد على فعل شيء إلا بإذن الله فلن يخاف من أحد. وحين يدرك أنّ الله منشأ جميع الخيرات ولا يصل أي خيرٍ إلى أحدٍ من دون إذنه، فإنّ قلبه لن يتعلّق بغير الله ولن يأمل سواه.

الدرس السابع
يقظة المؤمن ووعيه

- ❖ مجالسة الأتقياء والفقهاء واختلاف المعصية بنظر المؤمن والكافر
- ❖ ضرورة اختيار الرفيق المناسب واستعظام المعصية
- ❖ خطر العالم المتهتّك والجاهل الفاقد للوعي
- ❖ الالتفات إلى المعصية واستعظامها ناتج عن لطف الله وعنايته
- ❖ ضرورة الالتفات إلى عظمة من نعصي أثناء ارتكاب المعصية لا إلى صغر المعصية

«يا أبا ذر المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة. إنّ المؤمن ليرى ذنبه كأنّه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرى ذنبه كأنّه ذبابٌ مرّ على أنفه.

يا أبا ذر إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيرًا جعل ذنوبه بين عينيه ممثّلة والإثم عليه ثقيلًا وبيلًا، وإذا أراد بعبدٍ شرًا أنساه ذنوبه.

يا أبا ذر لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت.

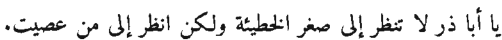

يا أبا ذر إن نفس المؤمن أشد ارتكاضًا من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه».

مجالسة الأتقياء والفقهاء واختلاف المعصية بنظر المؤمن والكافر

«يا أبا ذر المتقّون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة. إنّ المؤمن ليرى ذنبه كأنّه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرى ذنبه كأنّه ذبابٌ مرّ على أنفه».

مرّ في البيانات السابقة كيف أنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يلفت نظر الإنسان إلى موقعه الحسّاس وأهمية حياته وقيمة لحظات عمره، وقد حذّره من الكسل واللامبالاة والعزلة، وأكّد على ضرورة النظر إلى قضايا الحياة بمسؤولية. كما تمّ التأكيد على ضرورة اغتنام الفرص وعدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد. والآن يدور الحديث حول الاستفادة المثلى من العمر والخطوة الأولى في السير إلى الله.

من المسلّم أنّ أول خطوةٍ في معرفة قدر العمر والسير إلى الله هو اجتناب المعصية، لأنّ الإنسان المتلوّث بالمعاصي لا يصل إلى أي مقام، وإنّ قيمة عمر الإنسان تبقى محفوظةً ما دام نقيًّا من المعاصي.

ونسمع الإمام السجاد عَلَيْهِالسَّلَامُ في دعاء المكارم وهو يقول: «**اللهم صلّ على**

محمد وآل محمد... وعمّرني ما كان عمري بذلةً في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ»[1].

لهذا، فإنّ المعصية مهما كانت صغيرة يمكن أن تؤدّي إلى الهلاك، ولو كان هذا العاصي كثير العبادة. إنّ الذي يرتكب المعاصي إلى جانب عباداته، مَثَله كمن ثقب محفظته وهو يملؤها بالأموال والمجوهرات، أو كالذي جمع حصاده ثمّ أضرم فيه النيران أو ألقى فيه شرارة من لهب، ذلك لأنّ المعاصي تشبه النار التي تحرق حصاد أعمالنا، لهذا فإنّ الخطوة الأولى هي أن نتعرّف على المعاصي وأن نبتعد عنها، وإذا ارتكبنا معصيةً علينا أن نسارع إلى التوبة، وليس لنا سوى الاستمداد من رحمة الله تعالى والتوسّل بأوليائه لننال توفيق اجتناب المعاصي في المرات المقبلة.

ضرورة اختيار الرفيق المناسب واستعظام المعصية

بحسب بيان النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فإنّ الإنسان الذي يتحرّك في مسير الكمال، يكون شديد الاحتياج إلى أمرين: الأول: الرفيق المناسب، والثاني: استعظام المعصية والابتعاد عنها. ولعلّ الجمع بين هذين الشرطين يعود إلى أنّ اختيار الرفيق الصالح يكون مقدمةً لاستعظام المعصية واجتنابها في نهاية الأمر. ومصاحبة الصديق السيّئ تكون مقدّمةً للوقوع في المعاصي والمسارعة إليها، ذلك لأنّ الرفيق الصالح يمكن أن يكون منبعًا للكثير من الخيرات والبركات، كما أنّ الرفيق السيّئ مسبّبٌ للكثير من الانحرافات والمفاسد.

يقوم الصديق الصالح بتكبير المعصية في عين صاحبه، بحيث إذا ارتكب أي معصية فإنّ ذلك يجعله خجلًا ونادمًا. وفي المقابل، فإنّ صديق السوء يصغِّر المعاصي في أعيننا ويقللها إلى الدرجة التي لا يبقى فينا أي شعور بالخجل حين الهم بها أو ارتكابها.

وقد بيَّن النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في هذا المقطع معيارين لاختيار الرفيق:

١. التقوى.

٢. معرفة الحلال والحرام، وبعبارةٍ أخرى معرفة الدين.

---

(١) **الصحيفة السجادية**، من دعائه في مكارم الأخلاق.

إنّ معاشرة الصديق الفاقد للتقوى ومعاينة ارتكابه للذنوب تقلّل من شأن المعصية في نظر الإنسان، فيتبعه ذلك هلاكًا وخسرانًا مبينًا. كما نُقل عن بعض أهل النار في القرآن الكريم: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[١].

ومثلما يكون الإنسان الفاقد للتقوى غير لائق للصداقة، كذلك تكون إقامة علاقة الصداقة مع الجاهل بعيدة عن الصواب، لأنّه إذا أراد القيام بعملٍ صالح وقع بسبب جهله في الخطأ والانحراف. وكما أنّ المعرفة والتقوى جناحان للتكامل والتعالي في مسير الحقّ، فهما معياران قيّمان لاختيار الصديق والرفيق. ومن هنا كان النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في وصيته لأبي ذر يؤكّد على التقوى والفقاهة كمعيارين لاختيار الصديق. ولا شك بأنّ هاتين الصفتين ينبغي أن تجتمعا في مثل هذا الإنسان، لأنّ الذي يريد أن يؤدّي وظائفه ويكون متّقيًا، لو لم يكن عارفًا متفقّها بدينه، فإنّه مهما كان مقدّسًا طاهرًا سيسقط في خدع شياطين الإنس والجنّ.

خطر العالم المتهتّك والجاهل الفاقد للوعي

وفي روايةٍ معروفةٍ، يقول النبيّ الأكرم: «**قَصم ظهري عالمٌ متهتّك، وجاهلٌ متنسّك**»[٢].

كان إمامنا الخميني (**قده**) يقول إنّ المتظاهرين بالقداسة يهتمّون بأداء وظائفهم العبادية، ولكنّهم قد نسوا وظيفتهم الأساسية التي هي تحصيل العلم والمعرفة الصحيحة؛ فهم يسيرون بهذه السلائق المنحرفة والجهالة ويصرّون عليها ويتعصبون لها، وضرر هذه الطائفة على الإسلام أكثر من خطر الفاسقين. فهذه الطائفة بالإضافة إلى أنّها لا تصل إلى أي مقام، فإنّها لا تدع الآخرين يتقدّمون. وبتعبير الإمام الصادق: «**من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح**»[٣].

كما أنّ العالم المتهتّك الذي لا يعمل بعلمه يخدع الناس الذين يحترمونه

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٢٨ و٢٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الرواية ٢٥، الصفحة ١١١.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢٠٨.

لعلمه، ويورد ضربةً قويةً على الدين، ومثل هذه الضربة أو الطعنة لا تصيب الدين من قبل الجاهلين. من هنا، نلاحظ، أنّه حيثما مُدحت «التقوى»، يكون المقصود التقوى المصاحَبة بالعلم، وإذا انفصل هذان عن بعضهما بعضًا، لا أنّهما لن يكونا مفيدين فحسب، بل سيكونان مضرّين أيضًا. وفي المقابل، حين يتم مدح الفقاهة والعلم، يكون المقصود العلم المصاحَب بالعمل، لأن الذي لديه معرفة بالدين ولا يعمل بعلمه هو قاطع طريق.

يقول الله تعالى في خطابه للنبيّ داوود: **«لا تجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا بالدنيا فيصُدَّك عن طريق محبّتي، فإنّ أولئك قُطّاع طريق عباديَ المريدين. إنّ أدنى ما أنا صانعٌ بِهِم أن أنزعَ حلاوةَ مناجاتي عن قلوبهم»**[١].

العالم التارك لعلمه والطالب للدنيا يشبه ذلك اللص الذي يسطو على القوافل، وبسبب علمه يقدر أكثر من غيره على خداع الناس، ومن البديهي أنّ مثل هذا العالم لن يكون مفيدًا وناصرًا للدين. لذلك، ينبغي أن نبقى ملتفتين لكي لا ننخدع بأمثال هؤلاء.

لهذا، فإنّ التقوى والفقاهة تؤثّران تأثيرًا إيجابيًّا إذا اجتمعا، وهما طريقان إلى سعادة الفرد والمجتمع. إنّ المجالسة والعشرة تكون صحيحة إذا رَفعت من مستوى ودرجة روح التقوى والعبودية لله وطاعة أوامره، وكان مبدؤها من نقطة معرفة الدين. فإنّ مجالسة هذه الطائفة من العلماء تزيد من فضيلة الإنسان وكماله.

إنّ الفقيه في الاصطلاح الشائع اليوم يُطلق على العالم الذي يمتلك قدرة استنباط الأحكام الشرعية وإرجاع الفروع إلى الأصول. أمّا الفقيه باصطلاح القرآن والروايات هو الذي يكون عارفًا بالدين، بما يشمل المسائل الفرعية والاعتقادية والأخلاقية. بل إنّ مجالسة العالم بالمسائل الاعتقادية والأخلاقية أكثر فائدة.

يقول النبيّ الأكرم: إذا عزمت على السفر واخترت الرفيق المناسب فالتفت أن لا تتلوث بالمعاصي، لأنّك إذا تلوثت بالمعاصي، فإنّ حركتك وسيرك سيكونان بلا فائدة، ولن يؤتيا عباداتك وسعيك ثمارَهما.

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٠٩٩.

لا يرتكب الإنسان المعاصي من دون أي سبب، فلا بد وأن يكون هناك لذّة وحلاوة وجاذبية معيّنة دفعته نحو تلك المعصية. هذه الجاذبية وإن كانت خيالية محضة أو ناشئة من وساوس الشيطان وفاقدة للواقعية، لكنّها على أي حال سبب اندفاع الإنسان نحو المعصية. وكل الحديث هنا فيما ينبغي أن يفعله الإنسان حتى يُوفّق لاجتناب المعصية ويتمكّن من مقاومتها.

أفضل طريقٍ لاجتناب المعاصي هو أن يدرك الإنسان خطر المعصية وكبرها. فليدرك الأضرار والمخاطر التي تجلبها له هذه اللذة الفانية، والآثار السيّئة والمستديمة للذنوب على حياته الأخروية والدنيوية.

ويمتاز المؤمن في أنه يمتلك نظرة خاصّة إلى المعصية وهذه النظرة هي التي تمنعه من ارتكابها. فالمؤمن يرى المعصية كصخرة ثقيلة توشك أن تسقط على رأسه. فإذا عصى وعثر خاف من عواقبها. ولهذه النظرة تأثيرٌ ظاهر على فكره بحيث تجعل ضميره حيًّا دائمًا، فإذا صدرت منه أي معصيةٍ والعياذ بالله، يسارع إلى التوبة والاستغفار، مثل ذاك الذي يرى صخرةً كبيرةً فوق رأسه وهو لا يأمن لحظة من عدم سقوطها. فهذا الذي يجعل روح الإنسان قلقة وخائفة من الوقوع في الجناية والمعصية، تسارع إلى الملامة والندامة حتى تسلبه النومَ والطمأنينة.

وفي المقابل، فإنّ الكافر الذي تلوّثت فطرته بصدأ المعاصي لا يشعر إزاءها بأي انزعاج. بل تكون المعصية بنظره كذبابةٍ تمرّ على أنفه. (والكافر لا ينحصر بمن ينكر وجود الله ويوم القيامة بل يشمل كل من ينكر إحدى ضرورات الدين أيضًا).

فضلًا عن الروايات والآيات، فقد ثبت في المباحث النفسيّة أنّ تكرار العمل القبيح يؤدّي إلى زوال قبحه بنظر مرتكبه حتى يظهر في النهاية أمامه بصورة عملٍ لذيذ، فلا يشعر بعد ذلك إزاءه بأيّ خجل، وهذا هو عين المعصية. فإذا تكرّرت المعصية يزول قبحها بالتدريج وبتبعه لا يبقى أيّ إحساسٍ بالخجل.

وهنا، يمكن بيان معيارٍ آخر وهو أنّ كل من يريد أن يعرف إذا ما اقترب من حدود الإيمان أكثر أو من حدود الكفر، فلينظر إلى ردّ فعله تجاه المعصية. فإذا وجد أنّ المعصية لا تهمّه ولم يعتنِ أو يقلق حيال ذلك، فليعلم أنّه يسير نحو الكفر، لأنّ الندم على المعصية يحكي عن وجود روح الإيمان في النادم، أمّا عدم الاعتناء بها فإنّه يشير إلى وجود روح الكفر. إنّ مقتضى الإيمان أنّه إذا غلبت على الإنسان

الشهوة والغضب وارتكب ذنبًا يندم مباشرةً ويخاف ممّا قام به. فإذا لم يكن فينا مثل هذا الإحساس فلنخف من العاقبة، لأنّنا نمشي قُدُمًا نحو حتفنا على الطريق الخطر.

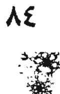

الالتفات إلى المعصية واستعظامها ناتج عن لطف الله وعنايته

«يا أبا ذر إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيرًا جعل ذنوبه بين عينيه ممثّلةً، والإثم عليه ثقيلًا وبيلًا، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا أنساه ذنوبَه».

إنّ الله تعالى لطيفٌ وودودٌ بجميع خلقه، ولو لم يحبّهم لما خلقهم. ولكنّ لطف الله بأوليائه له خصوصيةٌ ويتميّز بعناية خاصّة. فلو ارتكب أحد هؤلاء ذنبًا بسبب غفلةٍ، فإنّ الله تعالى لأجل تنبيهه وإيقاظه يجسّم المعصية أمامه، ذلك لأنّ أوّل خطوةٍ نحو السقوط والاستغراق في المعاصي هو نسيانها ونسيان عقوبتها.

وبالالتفات إلى أنّ الله تعالى يولي بعض عباده عنايةً خاصّة ولا يتركهم وشأنهم، وفي المقابل يكل البعض إلى أنفسهم ولا ينظر إليهم بهذا النظر، فيمكن لكل إنسانٍ أن يعلم إذا كان مورد هذا اللطف والعناية الإلهية الخاصة. فإذا لم يكن ممّن ينسى ذنوبه الفائتة بل يراها ثقيلة وبيلة، فليعلم أنّه ما زال موردًا لعناية الله، ولكنّه إذا كان قد نسيها واستخفّ بها فليعلم أنّه قد خرج من تحت هذه العناية. ومن الواضح أن تذكُّر المعصية يكون نافعًا إذا كان مانعًا من الاستمرار في المعصية، أمّا إذا كان مجرّد تذكّرٍ ولا يؤدّي إلى استعظامها واستثقالها فإنّه لن يكون ممّن يخاف من ارتكابها.

ويقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**أنا الذي أمهلتني فما ارعويت، وسترت علي فما استحييت، وعملت بالمعاصي فتعدّيت، وأسقطتني من عينك فما باليت...**».

فإذا أراد الله بأحدٍ خيرًا يجسّم معاصيه أمامه دومًا حتى يراها ثقيلةً كالجبال. أمّا إذا لم ينظر إليه نظر عنايةٍ خاصّة وأراد به شرًّا يكله إلى نفسه؛ فيكون فيما بعد مستخفًّا بالمعاصي لا يهتم لما يفعل.

ولا شك بأنّ الله تعالى لا يبتدر عبده أو يبتدئه بالطرد أو يُنزل به الشرّ، بل إنّ ذلك يحصل بعد أن يغوص هذا العبد في لجّة المعاصي والسيّئات ويصرّ عليها.

العزيز عند الله هو الذي يسعى للتقرّب إليه في مقام العبودية، والمسترذل عند الله هو الذي يبتعد عنه وينساه، فإذا نسي الله، وكله الله تعالى إلى نفسه؛ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

ضرورة الالتفات إلى عظمة من نعصي أثناء ارتكاب المعصية

«يا أبا ذر لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت».

يمكن أن ننظر إلى المعاصي من زوايا ثلاث:

١. النظر إلى نفس المعصية من حيث صغرها وكبرها.

٢. النظر إلى المعصية من جهة الفاعل والمرتكب.

٣. النظر إلى المعصية من جهة من عصينا.

وقد قُسّمت المعاصي في الكتاب والسنّة إلى الصغيرة والكبيرة، حيث أنّ لكلّ واحدةٍ حكمًا خاصًّا وعقوبة مختصّة بها. وفي مجال ذكر صحيفة الأعمال وعرضها، يقول الله تعالى في كتابه الكريم عن أولئك: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(٢).

ولعلّ الاختلاف الأساسي بين هاتين الطائفتين هو أنّ الله توعّد بالعذاب على المعاصي الكبيرة بخلاف المعاصي الصغيرة. كما أنّه لم يجعل حدًّا يجب إجراؤه على العاصي بالنسبة للمعاصي الصغيرة، بينما جعل لمجموعة من الكبائر حدًّا مشخّصًا.

من الجدير القول إنّه من الممكن أن يرتكب الإنسان عملًا يعدّه أو يراه صغيرًا وقابلًا للعفو، ولكنّه يغفل أوّلًا عن أنّ تكراره واستصغاره يُعدّ معصيةً كبيرة، وأنّ الاستمرار عليه سيجرّئه على التمرّد والعصيان. وثانيًا، فإنّه ينسى من الذي قد عصاه، ومن الذي خالف نهيه.

وهذا القسم من الرواية متوجّهٌ إلى الأمر الثاني، ويحثّنا على عدم النظر إلى

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ١٩.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٤٩.

صغر المعصية، بل على الالتفات إلى مقام من عصينا ومن خالفنا. فأحيانًا يكون الأمر بحدّ ذاته صغيرًا، ولكنّه إذا ارتبط بشخصٍ عظيمٍ يصبح كبيرًا.

تصوّروا أنّكم في محضر إمام معصوم، ثمّ أمركم بأمرٍ صغيرٍ كإحضار كوبٍ من الماء ولكنّكم تصوّرتم هذا الأمر بسيطًا جدًّا وامتنعتم عن إطاعته! فهل يُعدّ هذا التصوّر عقلائيًّا؟ وهل هذا ما يقتضيه الأدب؟! وهل هذه المخالفة مقبولة؟ لا أحد يقبل ذلك، فبالرغم من صغر المأمور به يعتبر الآمر عظيمًا جدًّا، وكلّ أمر مهما صغُر، فإنّه يعظُم بلحاظ الآمر. والآن فلنطبّق نفس هذا المثال على ذات الحقّ المقدّسة، رغم أنّ مخالفة الحقّ لا تُقارَن بمخالفة الإمام، الذي هو أحد مخلوقيه. فقبح المخالفة ينبغي أن يُقاس بميزان عظمة الآمر والناهي.

مثل هذا التصوّر عن المعصية، يمكن أن يكون عاملًا قويًّا في مواجهة الشيطان وسلب أي عذرٍ ومبرّر من النفس الأمّارة. وأحيانًا قد يكون هناك شخص بمثابة صديق للإنسان، ويكون لديه طلب منه، فمن الممكن أن يرفض طلبه ويقول له: لا يحقّ لك أن تأمرني. ولكن حين يكون الآمر هو الأب أو الأم أو الأستاذ، تصبح المخالفة قبيحة جدًّا. فكيف إذا كان الأمر صادرًا من جانب أحد المراجع أو حتّى من الإمام المعصوم أو من الله تعالى مباشرةً؟! فكلّما كان مقام الآمر أو الناهي أعلى وأعظم فإنّ مخالفته تكون أقبح وأشد في المؤاخذة.

حين يوسوس الشيطان للإنسان: نظرة واحدة إلى غير المحرم ليست بشيءٍ يُذكر، أو أنّ الاستماع إلى الموسيقى الحرام لمدّة دقيقة ليست بالأمر العظيم، فعليه أن يلتفت إلى من يعصي. وهنا يقول النبيّ لأبي ذر: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، بل انظر إلى من تعصي».

«يا أبا ذر إن نفس المؤمن أشدُّ ارتكاضًا من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه».

وقد أتى النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِه هنا بمثالٍ محسوس لأجل بيان رد فعل المؤمن تجاه المعصية. فلو أوقعنا عصفورًا في فخٍ نُصب له، فإنّه سيضطرب ويتحرّك إلى درجة لا يقرّ له معها أيّ قرار حتى يتخلص من الفخ الذي وقع فيه أو يهلك دونه. وإنّ رد فعل المؤمن تجاه المعصية يكون مثل هذا الطائر، فإنّه إذا شعر أنّه وقع في فخ الشيطان يضطرب اضطرابًا عجيبًا، بحيث يملأ القلق كيانه ويسلبه الهدوءَ والراحة

ولذّة الطعام والنوم حتى يخلص منه.

نحن لسنا معصومين، بل إنّنا دومًا في معرض الخطأ والنسيان، وليس متوقّعًا منّا أن لا نرتكب أي خطأ بتاتًا. ومن الممكن أحيانًا أن نقع في فخّ الشيطان (بالطبع، إنّ عدم كوننا معصومين لا يعني أنّه يجب أن نرتكب المعصية، لأنّه من الممكن للإنسان أن يكون غير معصوم ولا يرتكب أي معصية، ولكنّه يختلف عن المعصوم بكون العصمة عند المعصوم مَلكةٌ تمنعه من ارتكاب المعصية؛ وكذلك يمكن للناس العاديّين، رغم عدم امتلاكهم لملكة العصمة، ألا يُبتلوا بالمعاصي). على أي حال، فإنّنا لو ابتُلينا بمعصية أحيانًا، فإنّ إيماننا يقتضي أن نبقى في قلقٍ وسعيٍ دائمين للنجاة منها من خلال التوبة والإنابة والتضرّع والبكاء.

الدرس الثامن

تطابق القول والعمل وحفظ اللسان

- ❖ نتائج توافق القول والعمل وعدمه
- ❖ دور المعصية في الحرمان من الرزق
- ❖ المعصية في سلسلة العلل
- ❖ حفظ اللسان واجتناب اللغو

«يا أبا ذر من وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظّه، ومن خالف قوله فعله فإنّما يوبّخ نفسه.

يا أبا ذر إنّ الرجل ليُحرم رزقَه بالذنب يصيبه.

يا أبا ذر دع ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن ورقك».

نتائج توافق القول والعمل وعدمه

«يا أبا ذر من وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظّه، ومن خالف قوله فعله فإنّما يوبِّخ نفسه».

أغلب الناس أثناء الحديث، يأتون على ذكر الأعمال الحسنة وأنّه يجب أن يقوموا بهذه الأعمال، وكم هي مهمّة وقيّمة وكم لها من تأثير على تكامل الإنسان؛ ولكن في مقام العمل، فإنّ سلوكهم لا يوافق أقوالهم. والقلّة القليلة من الناس يتطابق قولهم مع فعلهم دائمًا.

فلو اعتبرنا أنّ توافق القول مع العمل مرتبط بدرجات الإيمان، لتبيّن لنا أنّ أولئك الذين كمُل إيمانهم، هم الأصدق، وهم الذين تتطابق أقوالهم مع أفعالهم أكثر؛ إنّ سلوكهم حقًّا يصدّق قولهم.

•

وفي تفسير الآية الشريفة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]، يقول العلّامة الطّباطبائي في تفسير الميزان: ««الصدق» هو صفة جامعة لجميع الفضائل الموجودة في العلم والعمل، لأنّ الصدق خُلُقٌ يتلازم مع جميع القيم والفضائل الأخلاقيّة، من قبيل العفّة والشجاعة والحكمة والعدالة، وذلك لأنّه لا يمكن فصل الإنسان عن اعتقاده وقوله وعمله. صدق الإنسان يعني أن تكون عقيدته وفعله وقوله متطابقين مع بعضهم بعضًا. والإنسان مفطورٌ على قبول الحق والخضوع الباطني أمامه، وإن أظهر خلافه. ولكن إذا أقرّ بالحقّ وكان صادقًا في إقراره، يقول ما يعتقد، ويعمل بما يقول، ويكون بهذه الصورة قد خلُص إيمانه، وتمّت أخلاقه وعمله الصالح»[2].

فهو يقول: إنّ الله تعالى يسمّي البعض «صدّيق» . التي هي صيغة مبالغة . فذلك من جهة أنّ سلوك الصدّيقين يصدّق كلامهم». والشخص الذي يطابق قوله اعتقاده فهو أيضًا صادق، أما الصدّيق فهو في مرتبة أعلى ويُطلق على الشخص الذي لا يكون قوله موافقًا لاعتقاده فحسب، بل يكون موافقًا لعمله أيضًا، وذلك في جميع الحالات.

يقول النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هنا: إنّ الذي يطابق عمله قوله يصل إلى السعادة. ولو سعى مثل هذا الإنسان ليكون قوله وفعله واعتقاده متطابقين، لنال مقام الصدّيقين. وفي المقابل، فإنّ الذي لا يعمل بما يقول، يكون منافقًا وكاذبًا، كما أنّ القرآن المجيد يعتبر المنافقين، الذين كانوا يشهدون بألسنتهم على رسالة النبيّ، لكنّهم لم يعتقدوا بقلوبهم، كاذبين، ويقول: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

وكون المنافقين كاذبين فذلك لأنّهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[4].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٧٧.

(٢) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٤٣٠.

(٣) سورة **المنافقون**، الآية ١.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٧.

فالنبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول: إنّ الذي لا يعمل بما يقول فلا يلومنّ إلّا نفسه. لأن كلامه يبيّن أنّه يعلم الحقّ وتكليفه، وفي النتيجة تكون الحجّة قد تمّت عليه. ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الشخص الذي يعرف الحقّ، سينصح الآخرين به، ولكنّه يقصّر في عمله هو، فهو وحده الذي ينبغي أن يكون مورد اللوم.

إنّ هذا الحديث النبويّ موجّهٌ بالدرجة الأولى إلى الوعّاظ والخطباء، الذين ينبغي أن يكونوا هم أنفسهم ملتزمين بأقوالهم، وأن يكون عملهم انعكاسًا لاعتقاداتهم وكلامهم. إنّ الله يوبّخ في القرآن الكريم هذه الطائفة، حيث يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١).

(النسيان لا بمعنى عدم التذكّر، بل بمعنى أن لا يعمل المرء بما يقول. فقد يكون ذاكرًا لكلامه، لكنّه لا يعمل بذلك). فحين يعظ الآخرين بكل شفقة، ويقول لهم قوموا بهذا العمل واتركوا ذاك، فكيف ينسى نفسه! فهل أنّ قلبه يتألم ويحترق لأجل الآخرين أكثر من نفسه؟ هل أنّه يحبّ الآخرين أكثر من نفسه؟ فمثل هذا الشيء لا يمكن تصديقه. يقول الإمام علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**الله الله في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم**»(٢).

فهو عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ يقصدكم أنتم الذين تحبّون أنفسكم أكثر من الآخرين، وإذا كنتم تحبّون الآخرين فذلك لأنّهم يخدمونكم، ولأنّهم يوفّرون لكم اللذّة والرفاه والسعادة، ولأنّكم تأنسون بصحبتهم ومحادثتهم وجلوسكم وقيامكم معهم؛ فأنتم الأصل وتريدون الآخرين لأنفسكم. فكيف توصون الآخرين بكل حرقة وتنسون أنفسكم ولا تتحرّقون على أنفسكم ولا تعملون بما تقولون؟

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٤.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٥٧، الصفحة ٥٢.

(٣) سورة **الصف**، الآيات ٢ و٣.

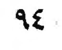
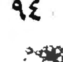

دور المعصية في الحرمان من الرزق

ثمّ يذكر النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في تتمّة حديثه أمرًا حول تأثير المعصية في الحرمان من الرزق: «**يا أبا ذر إن الرجل لَيُحْرَم رزقَه بالذنب يصيبه**».

وهذا بيانٌ آخر لأجل الالتفات إلى الآثار السيّئة للمعصية في هذه الدنيا، وإلى ذلك الحرمان الذي ينشأ من ارتكابها.

ونجد أنّ الروايات والمواعظ تتفاوت بتفاوت مستويات المعرفة، فالذي نال مقام المحبّة يُقال له: أيّ عاشقٍ أنت الذي تخالف معشوقك؟ فإنّ العاشق يسعى دومًا لمعرفة ما يريده معشوقه منه حتّى يقوم به، وأي شيء يسيء إليه حتى يجتنبه. فكيف يمكن للمحبوب أن يقول للمحب بوضوح: قم بهذا العمل، واترك ذاك العمل، ومن ثمّ يخالفه! فبالنسبة للذين نالوا نصيبًا من محبة الله وأوليائه، فإنّ هذا أفضل أسلوب يحبسهم عن المعاصي.

وعلى الذين هم من محبّي أهل البيت أن يعلموا أنّ المعصية مبغوضةٌ عند أهل البيت، وأنّ أكثر ما يكرهه الأئمّة الأطهار هو المعصية. فالمعصية مثل الجثّة المتعفّنة. أولئك الذين لديهم بصيرة باطنية، ولديهم ذلك الحسّ الباطنيّ القويّ، يميّزون رائحة هذا التعفّن من بعيد. والآن إذا جئنا إلى محّب أهل البيت الذي يريد أن يتقرّب إليهم، كيف له أن يلوّث نفسه بالشيء الذي يؤدّي إلى نفورهم؟ إذا أراد أحدنا أن يذهب للقاء حبيبه، فإنّه يتخلّص من الرائحة السيّئة في بدنه وفمه، وينظف نفسه حتّى لا يؤذي حبيبه. هكذا هي المعصية، فإنّها تعفّن وتلوّث وجودنا. فإن كنّا نحب أهل البيت وأردنا أن نرتبط بهم فعلينا أن نطهّر أرواحنا من هذه الأرجاس، حتّى يرغبوا بالارتباط بنا. إنّ طريق التقوى هو الذي بعث إحساس المحبّة في أولئك الذين نالوا محبة الله وأهل بيت النبيّ.

لا يخفى أنّ أولئك الذين أدّوا وظائفهم وواجباتهم وتركوا المحرّمات قد أدركوا حظًّا من محبّة الله، ولكن هذه المحبّة تتفاوت بحسب درجات المعرفة: ففي البعض، تكون محبةً شديدة، وفي البعض الآخر متوسطة، وفي البعض ضعيفة. وقد تصل المحبّة أحيانًا إلى درجة أنّ العاشق يكون مستعدًّا للتخلّي عن كلّ شيء، حتّى لو كان الجنّة، في سبيل وصال المعشوق، بحيث يقول: «**فهبني يا إلهي**

وسيّدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك»[١]، ونقرأ في مناجاة المحبّين، من «المناجاة الخمسة عشر»: «**إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلًا**».

إذا لم يصل البعض إلى هذه الدرجة من المحبّة حيث يكون عشق الله والأئمّة المعصومين مانعًا لهم من ارتكاب المعصية، فيجب إخافتهم من عواقب وآثار المعصية. ومنها تلك العذابات والحرمان من السّعادة والجنّة، وحصول الآثار المشؤومة في الدنيا والآخرة.

فالذي يدفع الإنسان إلى القيام بأيّ عملٍ أو يمنعه من ارتكابه هو خوفه ورجاؤه: أن يدرك منفعةً أو يجتنب ضررًا. فأفضل وأقرب الطرق لهداية البشر يكون بلفت نظرهم إلى الآثار المشؤومة للمعصية في الدنيا والآخرة. فإذا كان إيمان البعض بالآخرة ضعيفًا، يكون أفضل طريق لمنعهم من المعصية هو ذكر آثارها الدنيوية، وهو الأسلوب الذي اعتمده النبيّ في هذا القسم؛ لأنّ البعض يرون الآخرة بعيدةً رغم أنّها في التصوّر الإسلامي قريبة ومحيطة كما يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٢].

ومن جملة الأضرار الدنيويّة للمعصية هو الحرمان من الرزق. ومن مصاديق الرزق اليومي الطعام واللباس. وفي العديد من الروايات نجد أنّ الله تعالى قد عيّن لكلّ دابّة رزقًا. وهذا التقدير يكون في بعض الأحيان حتميًّا وفي أحيانٍ أخرى معلّقًا؛ أي إنّه يزيد وينقص بحسب الأعمال. فبعض أعمال الخير تؤدّي إلى زيادة الرزق، وبعض أعمال الشرّ تكون سببًا لنقصانه.

لو كنّا نعلم أنّ الرزق المقدّر لنا ـ والذي نحصل عليه أحيانًا من خلال السعي، وأحيانًا أخرى من دون سعي ـ يُؤخذ منّا بسبب المعصية لقلّلنا من ارتكاب المعاصي.

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.

(٢) سورة **المعارج**، الآيتان ٦ و٧.

المعصية في سلسلة العلل

تؤدّي المعصية إلى تغيير المعادلات وتجعل الأسباب الظاهرية بلا أثر. ويريد القرآن الكريم إفهامنا أنّ هناك أسبابًا أخرى، غير الأسباب الظاهرية، نحن لا ندرك ارتباطها بمعلولاتها ومسبّباتها. فيقول القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[١].

فهذا العالم في الواقع يحكمه نظام العلّة والمعلول ولا يمكن أن تكون أيّ ظاهرةٍ من دون علةٍ وسبب. ومن جانبٍ آخر، لا يمكن أن ننسب المصائب إلى الله المتعال الذي هو خيرٌ محض. إنّه الإنسان الذي سبَّب لنفسه مثل هذه المصائب.

وفي موضعٍ آخر يقول الحق تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

تبيّن الآيات القرآنية هذه الواقعيّة، حيث أنّ الكثير من المصائب والحرمان ينشأ من المعاصي، كما أنّ أعمال الخير والتقوى تؤدّي إلى استدرار البركات والنعم: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٣].

ويمكن في بعض المواد إدراك العلاقة بين المعصية والمصيبة التي تنشأ عنها، مثلما يحصل أن تتسبّب المعاصي أحيانًا ببعض الأمراض، ولكن هذه الرابطة ليست محسوسة في جميع الموارد: فأحيانًا تترتّب الآثار على المعصية من دون أن يتمكّن الإنسان من إدراك العلاقة بينها وبين تلك المعصية، وربّما يعدّ طعامًا، ثمّ أثناء تناوله، يسقط فيه شيءٌ قذر يلوّثه فيمتنع الإنسان عن تناوله فتكون عندئذٍ هي العاقبة. ويمكن أن نوسّع هذا الرزق ليشمل، بالإضافة إلى المأكولات، الأشياء الأخرى، لأنّ جميع النّعم أرزاقٌ كالبيت والسيارة وغيرها ممّا يستفيد منه الإنسان. فالحرمان من بركات هذه الأمور يعود إلى ارتكاب المعصية.

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٣٠.

(٢) سورة **النور**، الآية ٦٣.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ٩٦.

وكذلك ينبغي أن نوسّع موضوع الرزق ليشمل الأرزاق المعنويّة، لأنّ كل ما يؤدّي إلى تكامل الروح يُعدّ من الرزق كالعلم والإيمان والتوفيق للعبادة.

فقد يؤدّي ارتكاب المعصية إلى حرمان الإنسان من أداء بعض العبادات: وقد ورد في بعض الرّوايات أنّ الإنسان قد يُحرم على أثر المعصية من صلاة الليل، وإن سعى لذلك واستعدّ وهيّأ نفسه للقيام. فإمّا أن يستيقظ ويقوم من منامه، لكنّ التّعب والكسل يمنعانه، أو أنّه لا يقوم من الأساس. فسلب توفيق العبادة من جملة العقوبات على ارتكاب المعاصي.

على كلّ حال، إنّ الالتفات إلى النتائج المشؤومة للمعصية يُعدّ من العوامل التي تمنع الإنسان من ارتكابها: فإذا فكّر وعلِم أنّ المعصية تجعل مساعيه المعيشيّة والاقتصادية غير مثمرة وأنّه سيُحرم من رزقه، فإنّه سيفكّر ألف مرّة قبل أن يهمّ بها.

فيما يتعلّق بالرابطة بين الحرمان والمصائب بالمعاصي، يُرى من بعض العظماء أنّهم حين تحلّ بهم مصيبة يفكّرون بأخطائهم التي أدّت إلى وقوع هذه المصيبة. ويُنقل أنّ أحد أساتذة الأخلاق الكبار حين كان يسير في أزقّة طهران صدمه أحد الحيوانات المتوقّفة في الزقاق، فاستوقفه ذلك، وبدأ يفكّر في السبب الذي أدّى إلى مثل هذه الأذية التي تعرّض لها من هذا الحيوان.

حفظ اللسان واجتناب اللغو

«**يا أبا ذر دع ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن ورقك**».

ما ذُكر في هذا القسم يتمّم الكلام السابق في اجتناب المعصية. فالذي يريد اجتناب المعاصي يجب أن يجعل لها حريمًا كما قيل: «**ومَن يَحُمْ حول الحمى أوشك أن يوقَع فيه**».

فالذي يتحرّك قريبًا من الهاوية عليه أن يخاف من السقوط فيها، والذي يريد أن يجتنب المعاصي يجب أن يجتنب مقدّماتها وأن يترك بعض المباحات لئلا يقع في المعصية. وكمثالٍ، نقول إذا أراد اجتناب النظر الحرام، فعليه اجتناب بعض النظر إلى ما يحل له. فإذا أراد أن يبتعد عن الموسيقى الحرام فليبتعد عن

بعض الموسيقى المحلّلة. وإذا أراد ألّا يقع في الغيبة والكذب، فليجتنب الكلام الذي يحتمل فيه الكذب والغيبة. ولا شك بأنّه يصعب على الإنسان اجتناب جميع المباحات التي يمكن أن تجرّه إلى المعصية، وخصوصًا إذا كان الإنسان في أوّل الطريق، أمّا أولئك الذين يبحثون عن الارتقاء في مراتب تكامل النفس، عليهم طي هذه المرحلة. شاؤوا أم أبوا.

ويوصي النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبا ذر بالابتعاد عن اللغو والعبث، كما اعتبر القرآن المفلحين هم الذين يبتعدون عن اللغو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[١].

فالذي يريد الفوز والفلاح عليه أن يجتنب ما لا يكون مفيدًا لحاله. فإذا كان بعض الكلام خاليًا من الفائدة لا يتلفّظ به حتى لو كان مباحًا، بل ويصرف قوّته في الأعمال المفيدة والمثمرة.

والوصية الأخرى للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هي أن يجتنب الإنسان كلّ كلام لا يفيد.

فعلى الإنسان أن يكون حسّاسًا تجاه لسانه، ويسعى قدر الإمكان أن يجتنب الكلام المباح، فلعلّ كلمةً واحدةً تصدر منه تكون سببًا في حصول نتائج سيّئة في الدنيا والآخرة. وذلك التأكيد الكبير في الرّوايات على ضرورة حفظ اللسان وترك فضول الكلام إنّما هو لأجل أنّ الإنسان لا يتمكّن في بعض الأحيان من السيطرة على لسانه، فيقع في الكذب والغيبة والاستهزاء بالآخرين وغيرها من آفات اللسان الأخرى. لهذا، كان بعض الأولياء يهتمّ كثيرًا في أن يبقى ساكتًا قدر الإمكان.

ويؤكّد النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ على ضرورة حفظ اللسان مثلما يُحفظ المال والذهب. كيف تحافظ على أموالك؟ ألا تضعها في صندوق محكم الإقفال وفي مكانٍ آمن، كذلك لسانك الذي هو أهم وأخطر من مالك. والله تعالى قد جعل للسانك حصنًا وحافظًا من أسنانك ثمّ شفتيك، كل ذلك لأجل محاصرة لسانك. فابذل سعيك لئلا يفلت منك، وأبعده قدر الإمكان عن التلفّظ بأي كلام ليس فيه فائدة، لأنّه بذلك يصرف جهدك وطاقتك عبثًا، ثمّ يؤدّي بك شيئًا فشيئًا إلى

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ ـ ٣.

الشبهات والمكروهات وينجر الأمر في النهاية إلى المحرّمات والكبائر: فما هي المسافة التي تفصل بين الحديث عن الآخرين واغتيابهم؟

فلا يوجد من مسافة تُذكر بين الكلام المباح والغيبة التي تُعدّ معصية كبيرة قيل بشأنها إنّها أشدّ من سبعين زنية مع المحارم في الكعبة! ونجد أنفسنا نقلّص هذه المسافة أكثر فأكثر لنبتلى بتلك الموبقة الكبيرة.

الدرس التاسع
قيمة الصلاة وأهميتها واختلاف درجات أهل الجنة

- ❖ تبويب بعض مواعظ النبيّ (ص)
- ❖ مقام العابدين ومقيمي الليل
- ❖ تفاوت أهل الجنة في الاستفادة من مقاماتها
- ❖ حبّ النبيّ (ص) الشديد للصلاة
- ❖ الصلاة مفتاح السعادة والتوفيق
- ❖ إدراك حلاوة العبادة سرّ المداومة عليها

«يا أبا ذر، إنّ الله جلّ ثناؤه لا يدخل قومًا الجنّة فيعطيهم حتى يملّوا، وفوقهم قومٌ في الدرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون: ربّنا إخواننا كنّا معهم في الدنيا فبما فضّلتهم علينا؟ فيُقال: هيهات هيهات، فإنّهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمأون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون.

يا أبا ذر، جعل الله جلّ ثناؤه قرةَ عيني في الصلاة، وحبَّب إليَّ الصلاة كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء. وإنّ الجائع إذا أكل شبع، وإنّ الظمآن إذا شرِب رُوي، وأنا لا أشبع من الصلاة.

يا أبا ذر، أيُّما رجلٍ تطوَّع في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة كان له حقًّا واجبًا بيتٌ في الجنة.

يا أبا ذر، ما دمت في الصلاة فإنّك تقرع باب الملك الجبّار، ومن يكثر قرع باب الملك يُفتح له.

يا أبا ذر، ما من مؤمنٍ يقوم مصليًا إلا تناثر عليه البر ما بينه وبين العرش، ووكّل به ملكٌ ينادي: يا ابن آدم لو تعلم ما لك في الصلاة ومن تناجي ما انفتلت».

تبويب بعض مواعظ النبيّ (ص)

يمكننا أن نقسّم المواعظ التي رويناها عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل:

يتعلّق بإيقاظ الإنسان وإزالة الغفلة، ذلك لأنّ الإنسان بطبيعته الحيوانية يندفع أكثر نحو الأمور الدنيوية لأجل إشباع غرائزه وميوله الحيوانية، ممّا يؤدّي إلى نسيان المبدأ

والمعاد والغفلة عنه.

هذا، وإذا كان البعض منذ البداية ملتفتين إلى الهدف والغاية التي خُلقوا لأجلها، فأكثر الناس غافلون عن هذا الهدف: لا يعلمون لأيّ شيءٍ خُلقوا، وإلى أين يسيرون، وماذا ينبغي أن يفعلوا؛ لهذا، يجب إيقاظهم وبعث الشعور بالمسؤولية فيهم. وكان القسم الأول من مواعظ النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من أجل إزالة هذه الغفلة وتوجيه الإنسان إلى مسؤولياته وإلى ذلك الرأسمال الكبير الذي وضع في فطرته والذي ينبغي أن يستفيد منه.

القسم الثاني:

بعد توعية الناس إلى الهدف وضرورة اختيار الطريق الموصل إلى الهدف، يطرح أهمية تحصيل العلم والوعي. من هنا، تمّت الإشارة في القسم الثاني إلى طلب العلم ومسؤوليات العلماء الإلهيين. كذلك طُرحت العلوم الأساسية والأكثر أهميةً، تلك العلوم التي تعرّفنا إلى هدف الخلقة وطريق الوصول إليه وهي تلك المعارف الإلهية.

القسم الثالث:

وفي هذا القسم طُرحت ضرورة العمل والعلم والتكاليف، وأُشير الى أنّ العمل يتحقّق في جهتين: الجهة الأولى، في الأنشطة الإيجابية، أي ما ينبغي أن نقوم به وما هو واجبٌ. والجهة الثانية، الأنشطة السلبية أي ما لا ينبغي وهو المحرّم الذي ينبغي اجتنابه. النقطة الأساسية في هذا القسم هي ضرورة الالتفات إلى خطورة المعصية وآثار التلوّث بها. وبعد هذه الأقسام الثلاثة نأتي إلى القسم الرابع من حديث النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ومواعظه.

القسم الرابع:

لا ينبغي أن يكتفي الإنسان بأداء الواجبات وترك المعاصي ويتصوّر أنّه لم يعد أمامه من عملٍ أو وظيفةٍ أخرى.

هذا وإن كان طيُّ هذه المرحلة مهمًّا جدًّا ولكنّه هو الخطوة الأولى نحو الوصول إلى الهدف. ومن البديهي أنّه من دون اجتناب المعاصي وأداء الواجبات .

وبكلام جامع . من دون هذه الخطوة الأولى، لا يمكن للإنسان أن يتقدّم؛ ولكن هذه المرحلَة تُعدّ طريقًا قصيرًا بالنسبة إلى المراحل الأخرى، ولا يزال يبقى أمام الإنسان مسيرٌ طويلٌ. لهذا، يجب حثّ الإنسان على مزيدٍ من السعي والعمل وإيجاد الدافع فيه لكي لا يكتفي بأداء الواجبات وترك المحرّمات.

مقام العابدين ومقيمي الليل

«يا أبا ذر، إنّ الله جلّ ثناؤه لَيُدخل قومًا الجنةَ فيعطيهم حتّى يملّوا وفوقهم قومٌ في الدرجات العلى فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون: ربّنا إخواننا كنّا معهم في الدنيا، فبما فضّلتهم علينا؟ فيُقال: هيهات هيهات، فإنّهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويظمأون حين تروون ويقومون حين تنامون ويشخصون حين تخفضون...».

يجسّم النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بهذه الكلمات إحدى ساحات يوم القيامة؛ تلك الساحة التي يدخل منها من أدّى الواجبات وترك المحرّمات إلى الجنّة. فهو ليس في مقام الحديث عن جهنّم ودركاتها، فهو قد نجا من خطر جهنّم وأصبح في الجنّة، لكنّها جنّة أصحاب الهمم الضعيفة الذين اكتفوا بالدرجات الدنيا منها، ولم يكن لديهم همّة طي المقامات الأعلى ونيل الدرجات الأسمى. من هنا، يجسّم له هذا الأمر فيُقال له: إنّك قد دخلت الجنة بأداء الواجبات، ولكن هناك من هو أعلى منك في الجنّة، وعليك أن تسعى لنيل مقامه.

إنّ الله تعالى يُدخل الكثير من الناس إلى الجنّة ويرزقهم من النّعم ما لا تُعدّ ولا يُحصى، حتّى يتنعّموا فيها طويلًا. (وتعبير النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو أنّهم يُرزقون هذه النّعم حتى يملّوا. ولا شك أنّ هذا تعبيرٌ عُرفيٌ وإلّا فإنّه لا تعب في الجنّة كما يقول الله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1]، فالمقصود من هذا الكلام هو أنّهم يُعطون من النّعم بمقدار ما يطلبون).

ينظر أصحاب الجنان إلى إخوانهم الذين وصلوا إلى المقامات الأعلى، ويتعجّبون ثمّ يتساءلون: ربّنا هؤلاء كانوا من إخواننا، وكنّا في الدنيا معًا، ونصلّي في

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٣٥.

صفٍّ واحدٍ، ونجاهد في جبهةٍ واحدة، فما الذي حصل حتّى نالوا المقام الأعلى وأصبحوا أفضل منّا؟

فيُجاب هؤلاء: إنّكم تختلفون عنهم كثيرًا، حين كنتم تشبعون كانوا يجوعون، وحين كنتم تروون، كانوا هم يظمأون، ويؤدّون الصوم المستحب. وحين كنتم منشغلين بالاستفادة من النّعم والأطعمة الحلال كانوا يصومون. هذا وإن كنتم لم ترتكبوا المعاصي، ولكنّهم كانوا في الصيف الحارّ يفرغون بطونهم من الطعام والشراب. أنتم اكتفيتم بالأعمال الواجبة ثمّ استرحتم، أمّا هم فلم يذهبوا إلى النوم بل اشتغلوا بالعبادة والتضرّع والابتهال، وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ * وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[١].

تفاوت أهل الجنة في الاستفادة من مقاماتها

وفي هذا الكلام، يذكّر النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ بدرجات ومقامات الجنة. وقد صرّحت الآيات والعديد من الروايات، كما أنّه لجهنّم دركاتٌ، فللجنّة أيضًا درجات ومقامات. وأسفل وأدنى مراتبها مختصٌّ بأولئك الذين أدّوا واجباتهم! وأعلى درجات الجنّة هو مقام الرضوان الذي يختصّ بالأولياء والمخلَصين.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٢].

وفي مورد قوله تعالى ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾، يذكر المرحوم العلّامة الطباطبائي في تفسيره: «الرضا والرضوان الإلهيّين هما أعلى وأسمى من جميع نعم الجنّة، ومن هذه الجهة فقد استُخدمت كلمة «رضوان» بصيغة النكرة، أي لا يُتصوّر له حدّ، أو لأنّ الرضا والرضوان الإلهيّين، وإن كانا قليلين فإنّهما أعظم من جميع النّعم، لا من جهة أنّ تلك النعم ناشئة من رضا الله ـ رغم أنّ الحقيقة هي هذه ـ بل من جهة أنّ حقيقة العبودية لله التي دعا إليها القرآن، هي العبوديّة الناشئة من محبّة

(١) سورة **الذاريات**، الآيات ١٧ و١٨.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧٢.

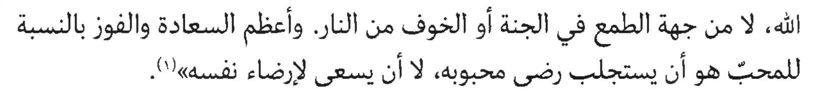

الله، لا من جهة الطمع في الجنة أو الخوف من النار. وأعظم السعادة والفوز بالنسبة للمحبّ هو أن يستجلب رضى محبوبه، لا أن يسعى لإرضاء نفسه»[١].

والعبودية التي تكون ناشئةً من المحبّة والعشق. كما ورد في بعض الروايات . هي أفضل عبودية، وتختص بالأحرار والصالحين. لهذا، يمكن أن ندّعي أنّ أعلى درجات مقامات الجنّة وهي الرضوان تختص بالصّالحين والأحرار، الذين عبدوا الله مخلصين له الدّين. ويقول الله تعالى بشأن اختلاف المراتب والدرجات يوم القيامة: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٢].

وتشير هذه الآية إلى أنّ اختلاف درجات الناس مرهون بسعيهم وعملهم. فلا يتساوى من كان عمله قليلًا مع ذاك الذي عمله كثير. هذا، بالإضافة إلى أنّه لا يمكن مقارنة اختلاف درجات ومراتب الآخرة مع اختلاف مراتب الدنيا، من ناحية الاستفادة من إمكاناتها، وذلك لأنّ الآخرة أوسع بدرجات من الدنيا إلى الحدّ الذي لا يمكن تصوّره.

إنّ سبب العلوّ في الدنيا يعود إلى التفاوت في الاستفادة من مالها وثرواتها وجاهها ومقاماتها، ولا شك بأنّ جميع هذه الأمور محدودة، أمّا سبب العلوّ في الآخرة واختلاف درجاتها، يرجع إلى مدى استفادة الناس من الإيمان والإخلاص، والتي هي من حالات قلب الإنسان، والتي من دون شك لا تقاس بالامتيازات الدنيوية[٣].

وكما مرّت الإشارة إليه، فإنّ هذا المقطع من كلام النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يلفت أنظارنا إلى هذه النكتة وهي أن لا نكتفي بأداء الواجبات وترك المحرّمات. ولا شك بأنّ من رضي بالدرجات الدنيا للجنّة، يمكنه أن يكتفي بهذا الحدّ، ولكن سيأتي ذلك اليوم الذي ينظر فيه إلى إخوانه وأصدقائه وهم يتنعّمون في المراتب الأعلى، يومها سيتجرّع الحسرة. ونحن أيضًا حتّى نتحقّق بتلك المراتب العالية، علينا أن نقلّل من أوقات الترفيه والاستراحة، ونزيد من أوقات العبادة.

---

(١) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٩، الصفحة ٣٣٩.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢١.

(٣) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحة ٤٦.

ومن الضروريّ أن نشير إلى أنّ الاستراحة بمقدار الضرورة أمرٌ مطلوب وأحيانًا تصبح واجبةً، وما أكثر ما تكون مقدّمةً لأداء التكليف الواجب، بحيث إنّ المرء إذا لم يسترح فإنّه سيكسل في الصلاة والعبادة ويفقد النشاط اللازم، أو إذا لم يأخذ قسطًا من الراحة فإنّه لن يفهم الدرس في وقته. فالحديث هنا حول الراحة الزائدة عن الحدّ، فإذا لم تكن موجبة لدخول جهنّم، فإنّها في الحد الأدنى تجعل الإنسان متخلّفًا عن الآخرين.

حبّ النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الشديد للصلاة

وفي تتمّة الرواية، يبيّن النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّ الصلاة أفضل الأعمال وأفضل ما يمكن أن يقوم به الإنسان في أوقات الفراغ:

«**يا أبا ذر جعل الله جل ثناؤه قرّة عيني في الصلاة، وحبّب إليّ الصلاة كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، وإنّ الجائع إذا أكل شبع، وإنّ الظمآن إذا شرب روى، وأنا لا أشبع من الصلاة**».

ذاك الذي يريد أن يستفيد من مواعظ النبيّ ويتّخذه أُسوة من الأجدر له أن ينظر إلى سيرة النبيّ وسلوكه. لهذا، كان النبيّ يعرّف نفسه كأسوةٍ عملية، وهذه أفضل الطّرق التربوية لأولئك الذين يعشقون النبيّ ويحبّونه ويريدون أن يسلكوا سبيله. وقد جاء في بعض الروايات: «**أحبّ من دنياكم الطيب والنساء، وقرّة عيني في الصلاة**».

وأما قوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**الصلاة قرّة عيني**» هو أفضل تعبيرٍ يُستخدم للإشارة إلى المحبوب، فمن أحبّ شخصًا يقول إنّه نور عينه أو قرّة عينه.

ويحكي القرآن الكريم عن أمّ موسى كيف أنّه عَلَيْهِالسَّلَامُ كان قرّة عينها: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ * إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ...﴾[١].

---

(١) سورة **طه**، الآيات ٣٨ ـ ٤٠.

ولقد صوّرت الشاعرة «برفين اعتصامي» هذه القصّة من خلال الشعر، ونحن نذكر بعض الأبيات من شعرها هنا:

أم موسى حين ألقت موسى   في النيل بوحي ربٍّ جليل

نظرت إلى الساحل متحسّرةً   وقالت آه لطفلٍ صغيرٍ بريء

إن لم ينلك لطف الإله   فكيف يكون السفر في قارب بلا قبطان

يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هنا إنّ الصلاة قرّة عيني! ولأنّنا قد نعجز عن إدراك المعنى الكامن في هذا المقطع، فإنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُفهمنا إيّاه بمزيدٍ من التوضيح. فنحن نحتاج إلى الطعام وإلى الشراب وإذا لم نأكل يفتك بنا الجوع، وإنّ أكثر ما نحتاجه في حياتنا هو الغذاء، وحين نعطش أو نجوع فإنّ تعلّقنا بالطعام والشراب يصبح فائقًا إلى درجة لن نفضّل عليهما أيَّ شيء. فيقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إنّ حبّي للصلاة مثل حبّ الإنسان الجائع والعطشان للطعام والشراب، مع اختلافٍ أساسيّ، وهو أنّ الإنسان يشبع بعد الطعام، ويرتوي بعد الشراب، أمّا أنا فلا أشبع من الصلاة. وبهذا البيان تتّضح أهمية الصلاة وكيف أن الإنسان بعد أداء الواجبات إذا وجد فرصةً وفراغًا فإنّ أفضل ما يقوم به من المستحبات هو الصلاة. هكذا كانت سيرة النبيّ والأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ولا بأس بأن نشير ها هنا من أجل توضيح المطلب أكثر إلى عدّة روايات:

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كان علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إذا هاله شيء فزع إلى الصلاة ثمّ تلا هذه الآية: واستعينوا بالصبر والصلاة**».[١]

وعن الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**ما أُصيب أمير المؤمنين** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بمصيبةٍ إلّا صلّى في ذلك اليوم ألف ركعة وتصدّق على ستين مسكينًا وصام ثلاثة أيام**»[٢].

وقد ورد في **بحار الأنوار** بشأن عبادة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ واهتمامه بالصلاة: «**ولقد قام** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورّمت قدماه واصفرّ**

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٤٨٠.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤١، الصفحة ١٣٢.

وجهه»[1].

«يا أبا ذر أيّما رجلٍ تطوّع في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة كان له حقًّا واجبًا بيتٌ في الجنة».

الصلاة مفتاح السعادة والتوفيق

«يا أبا ذر ما دُمت في الصّلاة فإنّك تقرع باب الملك الجبّار، ومن يُكثر قرعَ باب الملك يُفتح له».

وهذا بيانٌ آخر لحثّ الإنسان على الصّلاة. إنّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يبيّن أنّ من يصلّي فإنّه يقرع باب الحقّ تعالى. ومن كان له عند الله حاجة، فعليه أن يطرق بابه، وليست الصلاة ها هنا إلّا بمنزلة الوفادة على بيت الله، ولا يمكن أن يطرق الإنسان بيت الله مرارًا وتكرارًا ويلحّ عليه، ولا يُفتح له الباب.

فإذا كنتم تريدون أن تكونوا مورد عناية الحقّ وأن يُفتح أمامكم باب رحمته وإجابته فاقرعوا بابه كثيرًا وأكثروا من الصلاة. ومن الممكن في البداية أن لا يُفتح هذا الباب أمام الإنسان بسبب تلوّثه أو لحكمةٍ إلهيّة، ولكنّه سيُفتح في النهاية.

ولا شك بأنّ أبواب الرّحمة الإلهيّة مفتّحةٌ دومًا أمام البشر، لأنّه لا ينبغي أو لا يصح أن يكون الناس في حالة الدّعاء والطلب، ثمّ تكون أبواب الرّحمة مغلقةٌ في وجوههم.

فأبواب رحمة الله مغلقةٌ أمام المستكبرين، لأنّهم باختيارهم قد سدّوا أبواب رحمة الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

والجدير بالذّكر أنّ ما جاء في بعض الآيات والروايات من أنّ للسماء بابًا، أو ما ورد في هذه الرواية من أنّه ما دام الإنسان في حال الصلاة فإنّه يقرع باب الله، فذلك من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، لنتمكّن من فهم المسائل المعنوية والقضايا الغيبية. والحقيقة أنّه لا يوجد أيُّ مانعٍ أو حجاب بين الحقّ تعالى وعباده،

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١٧، الصفحة ٢٨٧.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٤٠.

وإنّما هي أعمال الإنسان السيّئة التي تمنعه من التوجّه إلى الله. وفي الواقع، فإنّ المعصية هي التي تحرم الإنسان من الفيوضات الإلهيّة. فمفتاح باب رحمة الله وما يزيل هذا الحجاب هو العبادة وأفضل العبادات هي الصلاة.

وفي تتمّة الحديث، يصف النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بعض المواهب التي ينالها المصلّي فيقول: «**يا أبا ذر ما من مؤمنٍ يقوم مصليًا إلّا تناثر عليه البرُّ ما بينه وبين العرش، ووكّل به ملكٌ ينادي: يا ابن آدم لو تعلم ما لك في الصلاة ومن تناجي ما انفتلت**».

(التناثر يُطلق على سقوط أوراق الأشجار أو كلّ شيء يسقط بكثرة من الأعلى).

يبيّن النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّ الذي يقف للصلاة تشمله الرّحمة الإلهيّة من رأسه إلى العرش. ولا شك بأنّ الذي يتعلّق قلبه بهذا المقام سيطيل صلاته. وأعلى من ذلك أنّ الله تعالى يأمر ملكًا ينادي المصلّي دومًا: يا ابن آدم لو كنت تعلم من تناجي ومن تخاطب لما تركت صلاتك أو تعبت منها، فالتفتْ إلى من وقفت بين يديه وبمن تتّصل، حتى إذا عرفت عظمته عظّمت صلاتك. لو كنت تعلم ما ستجنيه من الصلاة وأيّ فضيلةٍ وأيّ ثواب ينتظرك لما قمت عنها.

إدراك حلاوة العبادة سرُّ المداومة عليها

لأجل الاستمرار والمداومة على العبادة من المهم أن يذوق الإنسان لذّتها ويشعر بفائدتها. فما لم يكن العمل الذي يقوم به الإنسان لذيذًا بالنسبة له يتعب منه بسرعة. إنّ حلاوة العبادة تؤدّي إلى ازدياد تعلّق الإنسان بها، وهذه اللذة والحلاوة لا تتحقّق إلا بترك المعاصي. وتؤدّي المعصية إلى سلب لذّة العبادة من ذائقة الإنسان. لهذا، كان أئمتنا المعصومون عَلَيْهِمُالسَّلَامُ يبتهلون إلى الله ويسألونه أن يرزقهم لذّة العبادة وحلاوتها.

من الممكن أن نعدّ للمريض ألذّ الأطعمة، ولكنّه لن يلتذ بها بسبب مرضه. أمّا الإنسان السليم والجائع فإنّه قد يلتذ من كسرة خبزٍ. لهذا، من المهم أن نحيي في أنفسنا الشعور بالاحتياج والالتذاذ بالعبادة. وقد أشير في الجمل السابقة إلى أنّ النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، كان يقول إنّه يحب الصلاة أكثر ممّا يحب الإنسان الجائع الطعام والشراب، ذلك لأنّ الجائع أو العطشان يشبع بعد أن يأكل ويشرب بينما هو لا

يشبع من الصلاة.

ويقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ مبيّنًا حلاوة العبادة في ذائقة سالكي طريق العبودية: «**وإنّك لو وجدتَ حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعةً واحدةً ولو قُطِعتَ إربًا إربًا**»(١).

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**وطلبتُ حلاوة العبادة فوجدتُها في ترك المعصية**»(٢).

(١) الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (لبنان- بيروت: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الجزء ١١، الباب ١٧، الصفحة ٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١٢، الباب ١٠١، الصفحة ١٧٣.

الدرس العاشر
روّاد الجنّة ومنزلة بعض التكاليف ودرجات الجنة

- روّاد الجنة
- الفطرة والبحث عن الكمال
- فضيلة بعض الأعمال
  ١. مقام الصلاة
  ٢. مقام الصوم
  ٣. مقام الجهاد
- اختلاف المؤمنين من حيث التمتّع بدرجات الجنة

«يا أبا ذر، طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة يحملونها فيسبقون الناس إلى الجنّة، ألا وهم السّابقون إلى المساجد بالأسحار وغير الأسحار.

يا أبا ذر، الصّلاة عماد الدّين واللسان أكبر، والصدقة تمحو الخطيئة واللسان أكبر، والصوم جُنّة من النّار واللسان أكبر، والجهاد نباهةٌ واللسان أكبر.

يا أبا ذر، الدرجة في الجنّة كما بين السماء والأرض، وإنّ العبد ليرفع بصره فيلمع له نورٌ يكاد يخطف بصره فيفزع لذلك فيقول: ما هذا؟ فيُقال: هذا نور أخيك فيقول: أخي فلان؟ كنّا نعمل جميعًا في الدنيا وقد فُضّل عليَّ هكذا! فيُقال: إنّه أفضل منك عملًا، ثمّ يُجعل في قلبه الرضا حتى يرضى».

روّاد الجنة

وبشأن روّاد الجنّة والسّعادة يقول النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**يا أبا ذر، طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة يحملونها فيسبقون الناس إلى الجنّة، ألا وهم السابقون إلى المساجد بالأسحار وغير الأسحار**».

إنّ كل الناس، وفي كلّ الأعمار، يسعون لسبق الآخرين. ولا شك بأنّ هذه المسابقة والمنافسة إذا كانت في أمور الدنيا فهي مذمومة، إلا أنّ التسابق والتنافس بشأن بالآخرة ليس خارجًا عن الذم فحسب، بل يدلّ على رشد الإنسان وسعيه الصادق للسعادة. وحيث إنّ سعادة الإنسان تكون في القرب من الله تعالى والفوز في الآخرة، فإذا تسابق المؤمنون في هذا المجال، لن يكون ذلك ناشئًا من حبّ الظهور، بل لنيل تلك السعادة. وفي العديد من الموارد، نجد أنّ القرآن الكريم يؤكد على هذا الأمر، منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ

﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[١].

في الواقع، إنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى نداء الفطرة الإنسانية، لأنّ فطرة البشر تائقة للكمال، وتوقها هو أن تكون أكمل من الآخرين.

الفطرة والبحث عن الكمال

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإنسان طالبٌ للكمال النهائي، وذلك إنّما يتحقّق في قرب الله. من هذه الجهة، ولأجل الوصول إلى ذلك الهدف، فإنّه يسعى للاستفادة من جميع الوسائل المتاحة. إنّ الكمالات المحدودة ليست مطلبًا نهائيًّا للإنسان، لأنها تفقد رونقها إذا ما قورنت بالكمال الأعلى، هذا أوّلا؛ وثانيًا حين ينالها الإنسان فإنّه يشبع منها. ولهذا، قيل إنّ الوصال مدفن العشق، أي إنّ الإنسان لا يمكنه أن يكون عاشقًا للحسن والكمال المحدود، بل إنّه عاشقٌ للكمال المطلق بالفطرة وطالبٌ لله. فما يريده الإنسان من أعماقه هو الله، ولو رُفعت حجب الخطأ من أمام ناظريه لأدرك معشوقه كما كان عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يعبده شوقًا. ولهذا، نجد أنّ الله تعالى يذكر في كتابه العزيز: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٢].

وتقديم قوله «بذكر الله» يدلّ على الحصر. فلا يطمئن القلب سوى بذكر الله، ولا يخرجه من الاضطراب والقلق سوى هذا الذّكر. ولو تصوَّر أحُد أنّ المال والثروة والجاه والمقام يمكن أن يمنحوه الطمأنينة، فقد وقع في خطإٍ فادح. ولا شك أنّ القرآن لا ينهى عن تحصيل هذه الأمور، ولكنّه يقول: إنّ هذه الأمور لن تمنحكم السعادة والطمأنينة[٣].

وهكذا، فإنّ الإنسان طالبٌ للكمال المطلق، ولأجل الوصول إليه فإنّه يستفيد من كل العوامل والوسائل المتاحة، ومن ضمن هذه العوامل التي توصله إلى الكمال المطلق مناجاة الله وإحياء المساجد.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٣.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.

(٣) الشهيد مطهري، **الإنسان الكامل**، الصفحات ٩٤ - ٩٦ (النسخة الفارسيّة).

ففي كلام النبيّ الأكرم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، طوبى لأولئك الذين يحملون اللواء ويتقدّمون الناس يوم القيامة، فهم الذين يقودون غيرهم إلى الجنّة، ويتبعهم الآخرون، هؤلاء هم الذين يسارعون إلى المسجد في الأسحار وغيرها. (وذكر الأسحار مقدّمة من جهة أنّها أفضل أوقات العبادة).

ولأجل تقريب الأمر إلى الأذهان، يمكن أن نستعين بهذا المثال، حيث إنّ إحدى خصائص روح الإنسان ومميّزاتها أنّها إذا رأت الآخرين يتقدّمون ويسعون في طريق الخير والصلاح فإنّها تتشجّع وتندفع بحماسٍ أكبر. وفي الواقع، فإنّ قانون المثل الأعلى والأسوة والقدوة في علم النفس يعُدّ من أفضل وسائل التربية لما للقدوة والمثل من أثر بالغ في النفوس وفي سلوك الإنسان وتصرّفاته.

فلو تقدّم أحدٌ ما على صعيد القيام بالأعمال الحسنة وسبق غيره، فإنّه سيكون محطّ الأنظار، ويشجّع الآخرين على اللحاق به واتّباعه. كما أنّ لهذا الأمر (يعني القدوة الحسنة) أثرًا كبيرًا على الشباب والأحداث. فكلّما تكامل البشر زادت رغبتهم في أن يكونوا قدوةً للآخرين. ثمّ إنّ هذا الشعور يزداد قوّةً من خلال عمل الخير والتطبيق. وفي النتيجة، يتم تحريض الآخرين وحثّهم عليه.

ومن الطبيعيّ أنّ الإنسان إذا قام بعملٍ ما، في محفلٍ من الناس، فإنّ الآخرين سيشعرون براحة كبيرة في اتّباعه: وكمثالٍ على ذلك، لو قام مجموعة من الأشخاص في أحد المدارس، بالإسراع إلى المسجد حين صلاة الظهر، فإنّ عملهم هذا سيشجّع الآخرين على الذهاب إلى المسجد. أمّا إذا لم يكن هناك مجموعة من الأشخاص تتقدّم الآخرين، فإنّه سيحل وقت الصلاة، حيث ينبغي أن يكونوا في المسجد، ولكن إمّا أنّهم لا يلتفتون للأمر، أو أنّه لا يكون لديهم الهمّة للذهاب. وهذا يدل على تلك الحقيقة الروحية والنفسية المتعلّقة بالقدوة والمثل الأعلى.

إذا أراد الإنسان أن لا يقع في الرياء، فأدّى عمله خفاءً وسرًّا، فلا شك أنّ عمله هذا ممدوحٌ وحسنٌ. ولكن إذا قام بالعمل الصالح علانيةً لأجل تشجيع الآخرين على القيام به، فإنّ عمله لا يوصف بالحُسن فحسب، بل سيكون له قيمة عالية أيضًا. فهو لا يعمل رياءً أو حبًّا بالظهور، بل كلّ سعيه هو لأجل تشجيع الناس وحثّهم على القيام بالأعمال الحسنة.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[١].

يقول البعض: إنّ الإنفاق في السرّ والخفاء هو من أجل الابتعاد عن الرّياء، والإنفاق العلنيّ هو من أجل حثّ الآخرين وتشجيعهم، ففي كلّ منهما جهة حسنة. فعمل ذاك الذي يصلّي خفاءً من أجل أن يبتعد عن الرياء هو عملٌ حسن، وكذلك عمل ذاك الذي يؤدّي صلاته في المسجد من أجل تشجيع الآخرين. علاوة على ذلك، فإنّ الشخص المخلص والبعيد عن الرياء، الذي يسبق الآخرين في الذهاب إلى المسجد، ويؤدّي ذلك إلى تشجيعهم على الذهاب، فإنّ ثوابه سيكون مضاعفًا، وسيكون يوم القيامة صاحب اللواء ويتقدّم الآخرين، لأنّه بعمله هذا قد فتح الباب أمام الآخرين ليرتادوا المسجد.

كان المرحوم آية الله العظمى المرعشي النجفي، رضوان الله تعالى عليه، متقيّدًا بالذهاب كل يوم وقت السحر، وقبل الأذان، إلى الحرم الشريف: كنّا في بداية دراستنا الحوزويّة نقطن في المدرسة، كنّا نوفّق أحيانًا للذّهاب إلى الحرم وقت السحر. وأحيانًا كان الثلج يتساقط، ولكن كنّا نرى بكامل الدهشة، كيف أنّ آية الله المرعشي النجفي، وقبل فتح باب الحرم، كان يضع عباءته على رأسه، ويجلس خلف الباب. كانت هذه الميزة من ضمن الخصائص البارزة والعظيمة لهذا السيد الجليل. كم يمكن لمثل هذا العمل أن يحثّ الآخرين؟ فحين كان يرى الطلّاب مرجع تقليد، ومن قبل فتح باب الحرم، يقف وراء الباب منتظرًا فتحه، كانوا يتشجّعون للحضور في الحرم وقت السحر.

وحيث مرّت الإشارة إلى أهميّة تقدّم الآخرين في الذهاب إلى المسجد، فمن المناسب أن نذكر في هذا المجال روايتين شريفتين:

فعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّ للمساجد أوتادًا، الملائكة جلساؤهم، إذا غابوا افتقدوهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم**»[٢].

وفي رواية أخرى يقول صلى الله عليه وآله: «**الجلوس في المسجد لانتظار الصلاة عبادة.**

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ٢٢.

(٢) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٣٥٨.

وقال: من كان القرآن حديثه، والمسجد بيته، بنى الله له بيتًا في الجنة»[١].

فضيلة بعض الأعمال

ثم يكمل النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وصيّته لأبي ذر فيقول: «**يا أبا ذر، الصلاة عِماد الدين واللسان أكبر، والصدقة تمحو الخطيئة واللسان أكبر، والصوم جُنّة من النار واللسان أكبر، والجهاد نباهةٌ واللسان أكبر**».

١ـ مقام الصلاة:

قول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إنّ الصلاة عمود الدين يعني ذلك أنّ الدين من دونها ينهار، أمّا أذكارها فهي أهم وأعظم من سائر الأعمال، ذلك لأنّ أذكار الصلاة هي تجلّي حقيقة العبودية والخضوع للحقّ تعالى. كما إنّه بالأذكار يُعرف مقام الحقّ ورحمته، التي وسعت كلّ شيء.

وهذا القول يعود إلى دورها الأساسي في تشكيل شخصية الإنسان المعنوية والدينية. وفي الواقع إنّ الصلاة هي التي تجسّم إيمان الإنسان وتكمل هويّته المعنوية. ومن هنا، نجد أنّ الآيات الكريمة والروايات الشريفة للمعصومين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أولت الصلاة أهميةً فائقة.

وفي حديثٍ عن النبيّ يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْفَرَائِضِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ،... وَأَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَحَّتْ لَهُ الصَّلَاةُ صَحَّتْ لَهُ مَا سِوَاهَا، وَإِنْ رُدَّتْ رُدَّتْ مَا سِوَاهَا**»[٢].

وحول مقام الساجد يقول الإمام علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**لو يعلم المصلّي ما يغشاه من جلال الله ما سرّه أن يرفع رأسه من السجود**»[٣].

ويحدثنا النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عن دور الصلاة في طهارة النفس وتصفية الباطن

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٠، الحديث ٣٧، الصفحة ٢٠.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ١٠، الصفحة ١١٠.

وتنقية الروح من الأرجاس والعيوب، فيقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**لو كان على باب دار أحدكم نهرٌ فاغتسل في كلّ يومٍ منه خمس مرّاتٍ، هل كان يبقى على جسده من الدرن شيءٌ؟ إنّما مَثل الصلاة كمثل النهر الذي ينقي الدرن كلّما صلّى صلاةً كان كفّارة لذنوبه، إلّا ذنب أخرجه من الإيمان مقيم عليه**»[١].

٢ـ مقام الصوم:

ويصوّر النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الصوم كدرعٍ يقي نار جهنّم، لأنّه وسيلة تعالي الإنسان ورشده وسدٌّ منيع مقابل الشيطان.

إنّ للإنسان نفسًا أمّارة تجرّه دومًا نحو الانحطاط والتّسافل وتضييع شخصيته الروحية والمعنوية. ولهذا، كان الإمام علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، يقول: «**ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: اتّباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة**»[٢].

ولأنّ الله تعالى لطيفٌ بعباده وودودٌ، فقد هيّأ لهم ما يخرجهم من الظلمات ويوصلهم إلى ساحة عزّه المقدسة، ويصلح ما فعلوه بأنفسهم من الظلم والبعد. ومن هذه الوسائل: الصوم الذي يطهّر النفس ويزيل عنها آثار الأعمال القبيحة ويمدّها بالقوة لتتحمّل المصاعب وتصبر عن المعصية. وبغضّ النظر عن أهمية الصوم ودوره في التزكية، أشير في بعض الروايات إلى خاصّية الصوم في بعض الأيام والأشهر من جهة حصول الثواب، ومنها صوم شهر شعبان ورجب، الذي كان أولياء الدين وكبار العلماء يداومون عليه.

٣ـ مقام الجهاد:

إنّ الجهاد في سبيل الله أساس العزّ والرفعة، وله الدور الحيويّ في الحفاظ على الدين والمجتمع. فلو لم يكن الجهاد لما بقي للدين وتعاليمه عينٌ ولا أثر. ذلك لأنّ أهل الدنيا والنفعيّين لا يتورّعون عن محاربة الدّين والقضاء عليه لأجل الوصول إلى

---

(١) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ١٥.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٠، الصفحة ١٦٣.

مطامعهم ومآربهم. فجهاد أولياء الدين صان الدين من مكائد هؤلاء ومؤامراتهم. وما زلنا إلى يومنا هذا نتنعّم بنعمة ذلك الجهاد. ولهذا، فإنّ وجوه المجاهدين في سبيل الله ستبقى مشرقةً، ولهم اللطف والعناية الإلهية الخاصّة بسبب ما قدّموه من تضحياتٍ.

ولهذا، فإنّ الله تعالى يقول بشأنهم: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾[١].

وما يؤكد عليه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ها هنا، هو أنّ ما يفعله اللسان لا يقدر عليه سائر الأعضاء والقوى. فإنّ عمل اللسان أعلى من الصلاة والصوم والجهاد، لأنّ ما يظهره اللسان بصورة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، سيكون أعظم من الجهاد .كما جاء في الحديث أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم من الجهاد . أو بصورة تعليم الآخرين وتربيتهم لأنّ هداية الجاهلين إلى الحقّ أعظم من الجهاد. كما أنّه يفهمنا أنّ العمل المستحب لا ينحصر في القيام بالعبادات الطويلة، بل إنّ العمل المستحب الخفيف يمكن أن يتحقّق حين يصدر من اللسان، من دون أن يصرف الإنسان جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلًا. لهذا، يجب معرفة منزلة اللسان وحفظه من الآفات والأرجاس حتى لا تُحبط أعمال الإنسان.

اختلاف المؤمنين في التمتّع بدرجات الجنّة

وحول اختلاف درجات الجنة، يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر الدرجة في الجنّة كما بين السماء والأرض. وإنّ العبد ليرفع بصره فيلمع له نورٌ يكاد يخطف بصره فيفزع لذلك فيقول: ما هذا؟ فيُقال: هذا نور أخيك. فيقول: أخي فلان؟ كنا نعمل جميعًا في الدنيا وقد فُضّل عليّ هكذا! فيُقال إنّه أفضل منك عملًا. ثمّ يُجعل في قلبه الرضا حتى يرضى**».

والملفت هنا أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لا يقول لهذا المؤمن أنّ عمل أخيك أكثر، بل

---

(١) سورة *النساء*، الآية ٩٥.

أفضل، أي إنّ ما يكون سببًا لنظر الحقّ تعالى وقبوله هو كيفيّة العمل في العبادة والصّلاة وأمثالها. من الطبيعيّ أنّ الإنسان هناك، إذا نظر إلى أصدقائه وإخوانه ورآهم قد تفوّقوا عليه سيُصاب بالحسرة. فلو تخلّف الإنسان في الدنيا عن غيره، يمكنه أن يجبر تأخّره، ولكن التأخّر في الآخرة لا يمكن جبرانه وتداركه. لهذا، فإنّ عذاب الآخرة وحسرتها أمرٌ من كلّ شيء. ولكن مع وجود الباعث على الحسرة عند أهل الجنّة، فإنّ الله تعالى لا يدعهم يُصابون بهذه الحسرة وهذا سرٌّ خفي، وبيانه بالنسبة لنا أمرٌ صعبٌ.

والآن قد يُطرح هذا السؤال حول عدم تحسّر أهل الجنّة حين يرون إخوانهم أفضل منهم؟ وفي الجواب، قد نمثّل ذلك بما نُقل عن النبيّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إنجيل برنابا حيث يقول: «**في هذا العالم، القصير لا يرغب أبدًا أن يلبس لباس الطويل، كما أنّ الطويل لا يرغب أبدًا بلباس القصير**». ويمكن أن نستفيد من هذا المثل أنّ كل واحد في الجنة يكون راضيًا بما أعطي، ولا يوجد في نفسه انتظارٌ أو توقّعٌ لغير ذلك. فإنّ ما وصل إليه من مقامٍ يراه متناسبًا مع نفسه. وحين ينظر إلى البعض كالأنبياء وهم في مقامهم السنيّ يرى ذلك المقام متناسبًا معهم ويراه كاللباس الطويل والفضفاض عليه.

وأهل الجنّة ينجون ويتخلّصون من الأرجاس والأدناس قبل الموت وفي عالم البرزخ، ويصلون إلى الكمال اللائق بهم. ومن هنا، يصل كلّ واحدٍ إلى الخلعة المناسبة له، ويلقي الحقّ تعالى في قلبه الرّضا بذلك ويطمئن قلبه.

الدرس الحادي عشر
أهمية الخوف والحزن ودورهما |١|

- ❖ الخوف والحزن واجتناب المعصية
- ❖ الخوف وتكامل الإنسان المعنوي
- ❖ اختلاف الخوف والحزن
- ❖ مفهوم الخوف من الله
- ❖ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر
- ❖ التفكّر في جهنّم سبب خوف المؤمن وحزنه

«يا أبا ذر، الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، وما أصبح فيها مؤمنٌ إلا حزينًا، فكيف لا يحزن وقد أوعده الله جلّ ثناؤه أنّه وارد جهنّم ولم يعده أنّه صادرٌ عنها، وليلقينّ أمراضًا ومصيباتٍ وأمورًا تغيظه، وليُظلمنّ فلا يُنتصر، يبتغي ثوابًا من الله تعالى، فما يزال فيها حزينًا حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضي إلى الراحة والكرامة. يا أبا ذر، ما عبد الله على مثل طول الحزن».

يتعلّق هذا المقطع من كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه بالخوف والحزن. ويبدو أنّ ارتباط هذا المقطع بما سبق يرجع إلى أنّ الإنسان إذا كان بصدد جعل عمره على طريق العبادة والعبودية التي هي التكامل الحقيقي، فإنّه سوف يسعى للحصول على الأدوات والوسائل التي تمكّنه من تحقيق ذلك التحرّك التكاملي بأفضل صورة.

ولكي ينال الإنسان هذا العزم والإرادة فينبغي أن يحقّق في نفسه مجموعةً من المقدّمات والمبادئ الخاصّة، (ففي نفس الإنسان تصوّراتٌ وتصديقاتٌ وحالاتٌ نفسانيّة كالأحاسيس والعواطف تهيّئ أرضية الإرادة). فإذا تهيّأت المقدّمات وتمّت الاستفادة منها استفادة صحيحة، تتأمّن الأرضية اللازمة للحركة التكاملية.

وكم يرغب الإنسان في أشياء، إلّا أنّ مجرّد الرّغبة لا تبعث فيه الإرادة بالضرورة! ولكن أحيانًا تحصل له حالات، تدفعه على التحرّك والعزم. ففي الواقع، إنّ مثل هذه الحالات في حال توفّرها تُعدّ فرصةً ثمينةً.

الخوف والحزن واجتناب المعصية

من جملة الحالات النفسانيّة التي تدفع الإنسان إلى التحرّك وتوجد في نفسه دافعًا

قويًّا لاجتناب المعاصي، هو الخوف والحزن. فهذان الأمران يقدّمان المساعدة اللازمة للإنسان للعودة إلى نفسه، واغتنام الوقت واجتناب العبث واللغو. بالطبع، ليس كلّ خوف وحزن ممدوح، ويدفع الإنسان إلى العمل والنشاط. فالحزن الذي يؤدّي إلى ابتلاء الإنسان بالكآبة ويدفعه إلى ترك كلّ شيء، ولا يكون لديه رغبة لا في العبادة ولا في العمل، هو حزنٌ مرفوضٌ ومذموم، وكذلك هو الحزن الذي يقطع رجاء الإنسان ويجعله يائسًا، حتى من نفسه.

إنّ بعض حالات الخوف والحزن لا أنّها لا تدفع الإنسان للسّير إلى الله فحسب، بل تصبح عائقًا ومانعًا حقيقيًّا أمامه، مثل الحزن أو الخوف الذي ينشأ من التعلّق بالدنيا: كأن يخسر مقدارًا من المال، ويصبح بعدها في حالٍ دائم من الحزن والغمّ متحسّرًا على فقدان ذلك المال، حتّى أثناء الصّلاة فإنّه يفكّر بتلك الخسارة؛ أو أنّه يخاف من خسارة ماله وفقدان موقعيته الاجتماعية: يخاف من أن يُحرم من منصبه أو مقامه. ومثل هذه المخاوف والأحزان تصبح مانعة من السير إلى الله.

بالطبع، هناك حالات يكون الحزن فيها على الأمور الدنيوية مرتبطًا بالله، كالعذاب الذي يحلّ بالإنسان في الدنيا، فيخاف أن يُعدّ ذلك عذابًا إلهيًّا. ولا شك أنّ هذا الخوف يكون باعثًا على التحرّك، أو أن يحزن على زوال نعمةٍ، فيوقظه هذا الأمر على أنّه لا يمكن تعليق القلب بالدنيا. فمن الممكن إذًا، أن يكون الخوف من فقدان النّعم الدنيوية أو من حلول المصائب سببًا غير مباشر لدفع الإنسان على التحرّك باتّجاه التكامل الأخروي والمعنوي.

ويحدّثنا الله تعالى في آيتين من كتابه العزيز عمّا جرى على أنبيائه المرسلين من البلاءات والشدائد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾[1].

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٩٤.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٤٢.

فما ينزله الحقّ تعالى على عباده من المصائب والبلاءات إنّما هو من جهة لطفه بهم، لعلّهم يستيقظون ويتنبّهون من غفلتهم، ويستعدّوا أكثر لقبول الحقّ. فما دام الإنسان في سكر اللذّة والفرح ونشوة الانتصار، لن يكون لديه الاستعداد لقبول الحقّ والتوجّه إلى الحياة الآخرة.

الخوف وتكامل الإنسان المعنوي

ذكرنا أنّ الخوف من الأمور الأخرويّة يؤدّي إلى تكامل الإنسان ورفعته. ويقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[١].

وعن عليّ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أنّه قال مذكّرًا بالتقوى ودورها في صيانة الإنسان ومنعه من ارتكاب المحرّمات وتحقّق الخوف: «**عباد الله إنّ تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتّى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم**»[٢].

ومن كلام له عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يبيّن فيه أنّ الخوف من الله علامة حسن الظنّ به: «**وإنّ أحسن الناس ظنًّا بالله أشدُّهم خوفًا لله**»[٣].

اختلاف الخوف والحزن

ينشأ الحزن حين يُسلب الإنسان نعمة، أو تحل به خسارة، وهنا يشعر بألم في باطنه. ومن الطبيعيّ، أنّ هذه الحالة ترتبط بأمرٍ حدث في الماضي، كأن يقوم الإنسان بعملٍ قبيحٍ تستتبعه آثارٌ سيّئة، مثل أن يتفوّه بكلامٍ سيّئ يؤدّي إلى فضيحته وخذلانه، فيصبح حزينًا متألّمًا في باطنه، أو أن يمتلك رأس مال يمكنه استثماره بطريقة مربحةٍ، وبدلًا من ذلك يخسره بكامله. على كلّ حال، فإنّ الإنسان يُصاب بالحزن والغم حين يضيّع الفرص، وتُسلب منه النّعم أو تنزل به المصائب.

أمّا الخوف فيكون من الأمور والظروف التي يمكن أن تحدث في المستقبل:

---

(١) سورة **النازعات**، الآيتان ٤٠ و٤١.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١١٤، الصفحة ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٣، الرسالة ٢٧، الصفحة ٢٩.

كأن يخاف من نزول مصيبةٍ أو عذاب، أو أن يُسلب نعمةً ما في المستقبل. وفي الواقع، فإنّ الحزن والخوف صفتان نفسانيتان متشابهتان، إلا أنّ متعلّقهما أمران مختلفان: أحدهما يرتبط بالماضي والآخر بالمستقبل.

وحيث إنّ المخاطر في هذا العالم لا تنتهي بل تحيط بالإنسان، فإنّ وجود الخوف في الإنسان هو أمرٌ طبيعيٌ، لأنّ الإنسان كائنٌ عرضة للآفات، فيمكن لصحّته وحياته واستقراره وأمنه أن يتعرّضوا للخطر في كلّ آن.

يختلف المؤمن عن غيره في أنّه لا ينظر نظرة استقلاليّة إلى الأسباب العادية، بل يرى كلّ شيء من الله. لهذا، فهو يخاف الله. أمّا غير المؤمن الذي لا يرى الأمور بيده تعالى، فإنّه ينظر إليها مستقلّةً بأسبابها ومسبّباتها. بالطبع، مثلما أنّ المؤمن يخاف من الله ـ لأنّ الأسباب بيده تعالى ـ فإنّه لا يرجو إلّا الله، وذلك لأنّه ينظر إلى كل ما سوى الله على أنّه واسطة، وقد ورد في حديثٍ: «**ومن خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء**»[١].

فحين يدرك المؤمن أنّ أصول جميع الأسباب ترجع إلى الله، وأنّ تدبير كل ما يجري في العالم بيده، فإنّه لا يعود يرى لأي شيء استقلالًا حتّى يخافه، لذا فهو لا يخاف إلّا الله. ولأنّه يعتمد على الله تعالى ولا يخاف أحَدا سواه، فإنّ إيمانه يزداد كلّ يوم، وتكون النتيجة أنّ الله تعالى يمدّه بالقوّة التي تجعله لا يخاف أحدًا سواه، ويجعل الآخرين خاضعين له ويخافونه؛ فهو لا يهادن الباطل أبدًا، ويقوم بكل ما يراه تكليفًا. وأمّا الذي لا يخاف الله، فإنّ الناس لا يخشونه؛ ولهذا، فإنّه يهادنهم ويمالئهم لأجل الحفاظ على موقعيّته، ويسعى دومًا لجعل الآخرين راضين عنه.

الإنسان بطبيعته حين يستغرق في أفراح الدنيا وينشغل بنفسه، ينسى ربّه ويغفل عن الأمور المعنوية. لهذا، فقد ذمّ الله تعالى في كتابه العزيز هذه الحالة من الفرح: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٢].

وعن الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذمّ الفرح الناشئ من إقبال النعم الدنيوية: «**ما**

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٦، الحديث ١١٤، الصفحة ٤٠٦.

(٢) سورة **هود**، الآية ١٠.

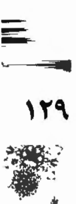

بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تُحرَمونه»[١].

وفي مقابل هذا الفرح والسرور، هناك الحزن من الماضي والخوف من الآتي اللذان يجعلان الإنسان مستعدًّا للطاعة والعبادة وأداء حقّ العبودية لله. ولهذا، نرى هذا المدح لهاتين الروحيّتين والحالتين النفسانيّتين. كذلك يُعلم من مضمون بعض الروايات التي أشارت إليهما أنّ الإنسان لو كان حزينًا في جمعٍ من الناس، فإنّ الله تعالى سيرحم هذا الجمع بسببه.

وفي الأساس، فإنّ أولئك الذين استفادوا من هداية ودعوة الأنبياء والأولياء، إنّما كان ذلك بسبب وجود الخوف من الله في قلوبهم: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾[٢].

أولئك الذين لا يخافون الله لن تؤثّر دعوة الأنبياء فيهم ولن تنفعهم تربية الأنبياء، كما قال الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٣].

مفهوم الخوف من الله

فأن يخاف الإنسان من الشّيء الذي يهدّده ويضرّه هو أمرٌ معقول، ولكن ما معنى أن يخاف من الله الرحمن الذي لا يريد بعباده سوءًا؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بشكلٍ إجمالي: إنّ خوف الإنسان في الحقيقة هو من ذلك الخطر أو الضّرر الذي يحلّ به، وبعرضه يكون الخوف ممّا يسبّب له ذلك الضرر. فحين يخاف الإنسان من عدوّه، فإنّه في الواقع يخاف من أذاه وضرره، ويكون خوفه من هذا العدوّ بالعرض.

وفي البعد الماديّ، حين يدرك الإنسان أنّ تدبير العالم وأسبابه بيد الله، فإنّ خوفه من الله يكون خوفًا من البلاءات الدنيوية، لأنّه يعلم أنّه إذا حلّ عليه غضب الله، فإنّ الطبيعة والأسباب المادية التي هي جنود الله تعالى ستغضب عليه،

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١١٣، الصفحة ٢٢٢.

(٢) سورة **فاطر**، الآية ١٨.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٦.

فيواجه بالنتيجة تلك الزلازل والسيول وسائر البلاءات الأرضية والسماوية.

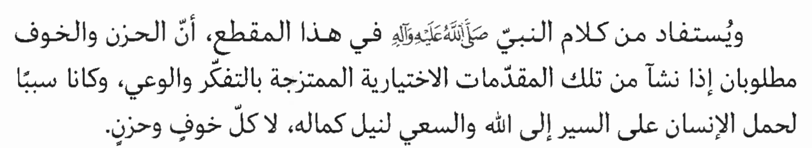

ويُستفاد من كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المقطع، أنّ الحزن والخوف مطلوبان إذا نشآ من تلك المقدّمات الاختيارية الممتزجة بالتفكّر والوعي، وكانا سببًا لحمل الإنسان على السير إلى الله والسعي لنيل كماله، لا كلّ خوفٍ وحزنٍ.

فالغم والألم الباطنيّان اللذان يدفعا الإنسان إلى التقوقع، ويمنعانه من العمل والعطاء ليسا بالأمر المطلوب. فما أن يهم بالمطالعة حتى ينشغل بنفسه، وإذا أراد أن يصلّي تمنعه الآلام الناشئة من الأمور الدنيوية من تحصيل التوجّه. فمثل هذا الحزن والغم يشبهان قاطع الطريق.

والبعض يعتريهم الخوف إلى درجة حصول الاضطراب الشديد بمجرّد احتمال وجود خطرٍ محدقٍ ويفقدون السكينة والاستقرار، حتى لو كان ذلك الاحتمال ضعيفًا. فمثل هذا الخوف لا قيمة له. إنّ الخوف والحزن مطلوبان إذا ارتبطا بالحركة المعنويّة للإنسان ارتباطًا إيجابيًّا. وبهذه البيانات، يتّضح ارتباط الخوف والحزن بالطاعة وأداء حقّ العبودية ودورهما في وصول الإنسان إلى الكمال والسعادة إذا أحسن الاستفادة منهما.

الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر

ولأجل تحصيل الأرضية المناسبة لهذا الخوف والحزن المطلوبين، وجعلهما موجّهين للإنسان، يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **«يا أبا ذر، الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر وما أصبح فيها مؤمن إلّا حزينًا»**.

فإذا تولّد هذا الشعور في المؤمن بأنّه في سجنٍ، فإنّه لن يتوقّع نيل السعادة فيه أو تحصيل اللذة الحقيقية. وإذا استفاد من أيٍّ من نعم الدنيا، فذلك لأجل تحصيل القوّة للسير إلى الله.

فبعد الاستفادة من كلّ نعمة، والوصول إلى كلّ لذة، يؤدّي حقّ الشكر لله. وفي المقابل، فإنّ الدنيا جنّة الكافر، لأنّه ما دام فيها يسعى جهده للرفاهية واللذة. وإذا نال شيئًا من لذّاتها فإنّ ذلك سيكون منحصرًا في أيّامها، وسوف يعقبه العذاب الإلهيّ. وإذا نال ذلك بعمله القبيح فإنّه سوف يُبتلى يوم القيامة بالعذاب

الإلهيّ. وإنّ عذاب الله وغضبه لشديدٌ إلى درجةٍ أنّ جميع مصاعب ومصائب الدنيا تكون بالنسبة إليه جنّة.

هناك حادثة معروفة جرت بين ذلك اليهوديّ الفقير المريض وبين الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين رآه يضع على بدنه الشريف لباسًا فاخرًا ويركب حصانه الفاره، حيث قال له ذلك اليهودي: إنّ جدّك قال إنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، فهل هذه الدنيا مع كل ما لك فيها من الأبهة والفخر جنّة أم هي سجني أنا الفقير والمريض؟

فأجابه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أن لو علمت أيّ عذابٍ أعدّه الله لك، ستدرك أنّ هذه الدنيا مع كلّ ما أصبت فيها من بلاءٍ هي جنّة بالنسبة لك. وفي المقابل، لو علمت ما أعدّ الله لنا في جنّته لأدركت أنّ هذه الدنيا بكل ما فيها هي بالنسبة لنا سجنٌ.

فإذا كانت الدنيا سجن المؤمن، من الطبيعي أن يكون فيها حزينًا، لأنّ السجن لا يكون مكان فرحٍ. وينبغي أن نذكر أنّ مدح الحزن في هذه الرواية ليس بمعنى أنّ كل حزنٍ أمرٌ ممدوحٌ وأن على الإنسان أن يسعى ليكون حزينًا دومًا. فمثل هذا الاستنباط لا عموم له. ومن المسلّم أنّ كل نكتةٍ تُذكر في مثل هذه المواعظ تكون مقيّدةً ومحدودةً في إطارٍ خاص، ونحن إذا أردنا أن نستفيد منها الاستفادة المطلوبة ينبغي أن نفهمها على ضوء باقي الروايات والأحاديث والآيات الشريفة.

التفكّر في جهنّم سبب خوف المؤمن وحزنه

ويبين النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سبب حزن المؤمن فيقول: «**فكيف لا يحزن وقد أوعده الله جلّ ثناؤه أنّه وارد جهنّم ولم يعده أنه صادرٌ عنها!**»

ومن الأسباب التي تؤدّي إلى حزن الإنسان، ولا سيّما المؤمن، هو أنّ الله تعالى قد توعّد بشكلٍ قاطع أنّه سيورد جميع البشر جهنّم، وقد ذكر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هذا الأمر كسبب لنشوء الحزن. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1].

---

(١) سورة **مريم**، الآية ٧١.

فالمؤمن على يقين بما جاء في القرآن من أنّه سيرد جهنّم حتمًا، ولم يضمن له أحد الخروج منها. نعم أولئك الذين تحيط بهم العناية واللطف الإلهيّين، ويوفّقون للعمل وفق إرادة الله، سيخرجون من جهنّم، إلا أنّ المؤمن لا يعلم إذا كان سيكون من هذه الطائفة أم لا، فمجرّد تصوّر هذه الفكرة يكون كافيًا لأن ينتابه الحزن. إنّه لا يعلم أيّ مصيرٍ سيواجه، ولهذا فإنّ الفرح والسّرور لا معنى لهما عنده، ومثل هذا التفكّر والتألّم الباطنيّ سيوقظه من الغفلة.

هذا الشكّ والاضطراب يحمل الإنسان على القيام لله، وترك نشوة الفرح، وعلى التفكّر في العاقبة. ولا شك أنّ في الدنيا أسبابًا وعوامل أخرى تتسبّب بالحزن للإنسان كالابتلاء بالمرض والمصائب، أو أن يقع ظلمٌ بحقّ إنسانٍ ما، فلا يستطيع إحقاق الحقّ. يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المجال: «**وليلقينّ أمراضًا ومصيباتٍ وأمورًا تغيظه، وليُظلمنّ فلا يُنتصر يبتغي ثوابًا من الله تعالى**».

هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى الحزن، ولكن هناك أحزانًا تنشأ من بعض العوامل، وهي غير مطلوبة ولا تؤثّر تأثيرًا إيجابيًّا في بناء النفس وتكاملها. فحزن المؤمن الذي ينشأ من فكرة الدخول إلى جهنّم، واحتمال أن لا يخرج منها هو حزنٌ مطلوبٌ وبنّاء. ثمّ يبين النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حال المؤمن: «**فما يزال فيها حزينًا حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة**».

وكما ذكرنا، فإنّ المؤمن ما دام في الدنيا فإنّه يواجه الأزمات والآلام فيُصاب بالحزن والغم. وكذلك إذا فكّر بعاقبته وتذكّر تقصيره، فإنّه يحزن. فإذا خرج من هذه الدنيا التي أحاطت به بكل بلاءٍ وحزن إلى العالم الباقي وإلى جوار الحقّ ينتهي حزنه وغمّه وقد يملؤه السرور والسعادة.

«**يا أبا ذر ما عبد الله على مثل طول الحزن**».

فالعبد الذي يخاف الله دومًا ويصبر على كلّ الآلام في سبيله، يكون أكثر عباد الله رسوخًا وأثبتهم قدمًا في مقام العبودية.

ومن الطبيعي أنّ الإنسان إذا كان خائفًا من العاقبة وحزينًا من أفعاله فإنّه سيتضرّع أكثر ويبكي ويلجأ إلى الله، فيطهر ويصفو باطنه، ويزول منه صدأ المعاصي. كما أنّه باليقظة والانتباه يصبح أكثر لياقةً لعبادة الحقّ، ويتحقّق لديه

الإخلاص، الذي هو شرط قبول العبادة بصورةٍ أفضل. لهذا، فإنّ الحزن بذاته عبادةٌ، لأنّه يوجّه العبد إلى مقام العبودية وإلى عظمة الله ويحمله أيضًا على عبادته تعالى بإخلاص.

وحيث وصل الكلام إلى هذا المقام من المناسب أن نذكر عدّة روايات ترتبط بأحوال المؤمن ومقاماته حين الموت ولقاء الله تعالى.

فقد ورد أنّ المؤمن حين الموت يُخاطب من قبل ملكين فيقولان له: «**يا ولي الله لا تحزن ولا تخشَ، وأبشر واستبشر، ليس هذا لك ولا أنت له، إنّما أراد الله تعالى أن يُريَك من أي شيءٍ نجّاك ويذيقك برد عفوه، قد أَغلق هذا الباب عنك ولا تدخل النار أبدًا**»[١].

وعن الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**حدّثني أخي وحبيبي رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ **قال: من سرّه أن يلقى الله عزّ وجل وهو مقبلٌ عليه غير معرضٍ عنه، فليتوالّك يا عليُّ؛ ومن سرّه أن يلقى الله عزّ وجل وهو راضٍ عنه فليتوالَ ابنك الحسن** عَلَيهِ السَّلَامُ**، ومن أحبّ أن يلقى الله ولا خوفٌ عليه فليتوالَ ابنك الحسين** عَلَيهِ السَّلَامُ»[٢].

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨، الحديث ٢٠٥، الصفحة ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢٧، الحديث ٨٠، الصفحتان ١٠٧ و ١٠٨.

الدرس الثاني عشر
أهمية الخوف والحزن ودورهما
|٢|

❖ العلم النافع
❖ الأمن والطمأنينة في الجنة حاصل الخوف في الدنيا
❖ غفران الذنوب ثمرة الخوف من الله
❖ ذمّ الاتّكال على الأعمال الحسنة
❖ دور الالتفات إلى المعصية وتذكّرها في البعد عن الشيطان
❖ تحقيق في ماهية الحزن والخوف ومعنى الخوف من الله

١. الخوف من عذاب الله في جهنّم
٢. الخوف من فقدان نعم الجنّة
٣. الخوف من الحرمان من لقاء الله وقربه

❖ حصول الحالات المتضادة والمتفاوتة في زمانٍ واحد

«يا أَبا ذَرٍّ، مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ ما لا يُبْكيهِ لَحَقيقٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُوتِيَ عِلْمًا ما لا يَنْفَعُهُ، لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَعَتَ الْعُلَماءَ فَقالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

يا أَبا ذَرٍّ، مَنِ اسْتَطاعَ أَنْ يَبْكِيَ فَلْيَبْكِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُشْعِرْ قَلْبَهُ الْحُزْنَ وَلْيَتَباكَ، إِنَّ الْقَلْبَ الْقاسِيَ بَعيدٌ مِنَ اللهِ تَعالى وَلٰكِنْ لا تَشْعُرُونَ.

يا أَبا ذَرٍّ، يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: لا أَجْمَعُ عَلى عَبْدٍ خَوْفَيْنِ وَلا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِذا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَإِذا خافَنِي فِي الدُّنْيا آمَنْتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ. يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيُعْرَضُ عَلَيْهِ ذُنُوبُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَيَقُولُ: أَما إِنِّي كُنْتُ مُشْفِقًا، فَيُغْفَرُ لَهُ.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَتَّكِلُ عَلَيْها وَيَعْمَلُ الْمُحَقَّراتِ حَتّى يَأْتِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانُ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَيَفْرَقُ مِنْها فَيَأْتِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيامَةِ.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: يَكُونُ ذٰلِكَ الذَّنْبُ نَصْبَ عَيْنَيْهِ تائِبًا مِنْهُ فارًّا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

إنّ أعظم النعم التي منّ الله تعالى بها علينا هي نعمة الإسلام وولاية أهل البيت عَلَيْهِ‌السَّلَامُ. فقد وصل إلينا في ظلّ هداية وتعاليم أهل البيت الأطهار، ذخائر عظيمة من المواعظ والعلوم، بفضل جهود وتضحيات العلماء الكبار، على مدى القرون الأربعة عشر. وأقلّ شكرٍ يمكن أن نؤدّيه مقابل هذه النعمة العظيمة هو أن نقوم بالمطالعة والتحقيق في هذه الذخائر القيّمة ونستفيد منها ونطّلع عليها. ففي ظلّ

ولاية أهل البيت وبياناتهم، نهتدي من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والوعي كما نقرأ في الزيارة الجامعة: «**بموالاتكم علّمنا الله معالم ديننا وأصلح ما كان فسد من دنيانا**»[1].

إنّ مواعظ النبيّ النورانية لأبي ذر هي نموذجٌ واضحٌ من هدايتهم، وحريٌّ بنا أن نستفيد من هذه النصائح والمواعظ لننال سعادة الدنيا والآخرة، لأنّ الإسلام وتعاليمه هي أفضل وصفة تؤمّن سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، وجميع حاجاته المادية والمعنوية.

العلم النافع

«**يا أَبا ذَرٍّ؛ مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ ما لا يُبْكيهِ لَحَقيقٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُوتِيَ عِلْمًا ما لا يَنْفَعُهُ، لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَعَتَ الْعُلَماءَ فَقالَ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾».

إنّ الإسلام مدرسةٌ جامعةٌ كاملةٌ تدعو الإنسان إلى الكمال في ظلّ تربية جميع أبعاده الأخلاقية والاجتماعية وغيرها. فالإنسان إنّما يصل إلى الكمال حين تتكامل فيه جميع هذه الأبعاد والجوانب العلمية والأخلاقية.

وقد أولى الإسلام المسائل والقضايا الأخلاقيّة والمعنويّة المقدار نفسه الذي اهتمّ به بالعلم والتخصّص والفقه والاجتهاد. والإنسان الكامل هو الذي تتكامل فيه الجوانب العلميّة والفقهيّة إلى جانب الأبعاد الأخلاقية.

للأسف، إنّ اهتمامنا بالمسائل العلميّة أحيانًا يمنعنا من الاهتمام بالمسائل الأخلاقيّة التي لا تقل قيمة عنها. كما أنّه قد يحدث أن يولي الإنسان اهتمامًا بالمسائل الاجتماعية ويغفل عن القضايا المعنوية والأخلاقية. فيستغرق الإنسان في هذه المسائل الاجتماعية والأعمال التنفيذية بحيث لا يجد متّسعًا من الوقت لينهض من أجل عمارة باطنه وتأمين احتياجاته الأخلاقية. ولأجل أن لا نقع في الغرور

---

(١) **مفاتيح الجنان**، الزيارة الجامعة الكبيرة.

والغفلة، ينبغي أن نتوجّه من حينٍ لآخر إلى القضايا الأخلاقية والمعنوية.

ويعتمد هذا القسم من الرواية على هذا الأمر، وهو أنّ الله تعالى إذا أفاض علينا علمًا ما، فإنّه يريد منّا أن نراعي إلى جانبه القيم الأخلاقية أيضًا. فإذا حصرنا اهتمامنا بالقضايا العلميّة نغفل عن ذواتنا ونُبتلى بالانحرافات الأخلاقية من قبيل الغفلة والغرور.

وقد ذكر القرآن الكريم مجموعةً من القيم التي يتم تناسيها، وللأسف، في مجتمعنا. هذا وإن كان البعض يهتم بها، ولكن هذا الاهتمام لم يصل ليكون اهتمامًا عامًّا من قبل جميع الشرائح الاجتماعية، رغم أنّ القرآن يعدّ هذه الصفات والخصائص من مميّزات العباد الصّالحين والعلماء. ومن جملة هذه الصّفات والخصائص، الخوف من الله وحالة الإنابة والتضرّع.

لعلّ التّأكيد على خاصّية الحزن والتواضع هو لأجل إيجاد الاعتدال في شخصية المؤمن، لا سيّما العالِم. ذلك لأنّ للعلم والمعرفة منزلةً سامية، وهما يقعا، بعد التقوى، على رأس القيم الإنسانية. ومن الطّبيعيّ، أنّ امتلاك العلم يؤدّي إلى تمتّع صاحبه بالاحترام والمكانة الاجتماعيّة، ممّا يؤدّي إلى إيجاد الغرور والتكبّر، وبالطبع يواجه العالم خطر التلوّث بهما.

وقد أوصت شريعة الإسلام المطهّرة بالخضوع والخشوع والبكاء والإنابة لأجل الحؤول دون حصول الغرور في شخصية العالِم، ولأجل إيجاد التوازن فيه؛ بحيث أنّه مهما ارتفع في سلّم المناصب الاجتماعية فإنّه يستشعر الضعة والانكسار في نفسه أكثر. وهذا ما كان يطلبه الإمام السجّاد عَلَيهِالسَّلَامُ من الله تعالى: «**اللهم صلّ على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلى حططتني عند نفسي مثلها، ولا تُحدث لي عزًّا ظاهرًا إلّا أحدثت لي ذلّةً باطنةً عند نفسي بقدرها**»[١].

وبالالتفات إلى ما ذُكر، فإنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ يقول لأبي ذر: إذا أُعطيت علمًا ولم يزدك في الخشوع والخضوع ولم ينشئ في نفسك حالة البكاء، فاعلم أنّ هذا العلم لن يكون نافعًا ومفيدًا. فالعلم النافع هو الذي يزيد الإنسان خضوعًا بين يدي الله. كما وصف الله تعالى علماءه في كتابه: إذا تُليت عليهم آيات الله فإنّهم

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء مكارم الاخلاق.

يخرّون للأذقان ويتضرّعون إليه. وهذه أمارة خضوع الإنسان أمام الله تعالى، فإنّ هذا البكاء وإن كان سلوكًا ظاهريًّا، لكنّه ينبع من تغيّر القلب والباطن. فما لم يحزن القلب ولم يخشع الإنسان لله لن تظهر فيه حالة البكاء.

وفي تتّمة حديث النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول: «**يا أبا ذر من استطاع أن يبكي فليبكِ، ومن لم يستطع فليُشعر قلبه الحزن وليتباكَ، إنّ القلب القاسي بعيدٌ من الله تعالى ولكن لا تشعرون**».

وكما بيّنا سابقًا، فإنّ البكاء المطروح في الروايات، ومنها هذه الرواية، هو البكاء من الحرمان من السعادة الأخروية ومن التلوّث بالمعاصي، أو هو البكاء من الحرمان المعنويّ ومن عدم لقاء إمام العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، والأهم منه هو البكاء بسبب الحرمان من لقاء الله.

إنّ المحبين والعاشقين لله والعارفين بالولاية الإلهية يبكون خوفًا من الحرمان من لقاء الله، كما كان عليّ عَلَيْهِالسَّلَامُ يبكي في دعاء كميل: «**فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي، صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك**».

ولو لم يتيسّر للإنسان حالة البكاء فعلى الأقل عليه أن يقوم بتلقين نفسه تلك الأمور المحزنة، أو أن يتفكّر في حرمانه المعنويّ، أو في المعاصي التي ارتكبها، فيحزن قلبه من ذلك. وإذا لم يحزن قلبه فعلى الأقل فليتباكَ. فإذا لم يكن الحزن من نصيب الإنسان وبقي يعيش نشوة الغرور فإنّه سيبتعد عن رحمة الله.

ولا نقول هنا إنّ كل من يبكي فهو قريبٌ من الله، لأنّه من الممكن للمنافقين أحيانًا أن يجعلوا أنفسهم في حالاتٍ من التأثّر من خلال التمرين، فيسرع إليهم الحزن والبكاء. وفي المقابل، أيضًا لا يصح أن يُقال إنّ كل من لم يحزن ولم يبكِ فقلبه قاسٍ وبعيد عن الله.

الأمن والطمأنينة في الجنّة حاصل الخوف في الدنيا

«يا أبا ذر يقول الله تبارك وتعالى: «لا أجمع على عبد خوفين ولا أجمع له أمنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة»».

إذا خاف العبد في الدنيا من العذاب الإلهيّ، فإنّه لن يُصاب بالخوف من

عذاب جهنّم يوم القيامة (إنّ الخوف من الله يعني الخوف من عذابه والذي ينشأ بسبب تقصير العبد في أداء تكاليفه الإلهية). فالذي يخاف في الدنيا سوف يأمن في الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

وحيث إنّ الجنة هي محل التنعّم والاستفادة من النّعم الإلهية، وأهلها في أمنٍ وأمانٍ، لا يصيبهم أيُّ فزعٍ أو حزنٍ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾(٢).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

وخلافًا للإنسان الذي يخاف الله، فإنّ الذي يعيش في الدنيا شعور الأمن ولا يُصاب بأيّ اضطرابٍ أو قلقٍ ولا يخاف من الله، فإنّه يوم القيامة سيُبتلى بهذا الخوف ويشمله العذاب ويحيق به من كلّ جانب.

إنّ الأمن من مكر الله يبعث على ارتكاب المعاصي ويسهّل طريقها، لأنّ الإنسان إذا رأى نفسه حرًّا فيما يفعل ولم يشعر بأيّ خوفٍ أو حذرٍ، لا يبالي بارتكاب المعصية. ومن الطبيعيّ، أنّ الشعور بالأمن في الدنيا . الذي يؤدّي إلى الانحراف والمعصية . يتبعه الخوف والعذاب الأخرويّ. ويقول الله تعالى في هذا المجال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٤).

وفي هذا المجال، يبيّن حديث النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أن الإنسان يمكنه أن يقوم بما ينشئ في نفسه حالة الخوف من الله. فإذا فهم أنّ هذا الخوف مطلوبٌ وموجبٌ للنجاة والسعادة، يأتي هذا السؤال فيما يتعلّق بإمكانية تحقيق هذه الحالة. والجواب يكمن في تأمين وإعداد المقدّمات والتوجّه إلى بعض القضايا: قد يعلم الإنسان أشياء، ولكن لأجل أنّه لا يؤمن بها ولا يلتفت إليها فإنّ علمه هذا يخفت

---

(١) سورة **النازعات**، الآيتان ٤٠ و٤١.

(٢) سورة **النمل**، الآية ٨٩.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١١٢.

(٤) سورة **النازعات**، الآيتان ٣٧ و٣٨.

ويؤدّي إلى الغفلة، وبالنتيجة لا يؤثّر هذا العلم والاعتقاد أثره. ولكن إذا توجّه هذا الإنسان إلى عوامل إيجاد الخوف وسعى لتركيز توجّهه إليها والاهتمام بها، فإنّ هذا الخوف يزداد ويؤثّر في سلوكه.

والنقطة الأخرى هي أنّ الإنسان يمكنه أن يصل إلى تلك المرحلة التي يجمع فيها بين المخاوف والأفراح. الإنسان الضعيف لا يمكنه أن يكون حزينًا ومسرورًا في الوقت نفسه. فإمّا أن يحزن وإمّا أن يفرح. ولكن حين تقوى النفس وتتكامل، من الممكن أن يكون الإنسان مسرورًا وحزينًا في آنٍ واحد. ثمّ إنّه على أثر التكامل يصل لتلك المرحلة التي يجمع فيها بين أنواع الأفراح والأحزان، كما كان يحصل مع أولياء الله تعالى. أولئك الذين وصلوا إلى ذلك المقام جمعوا في الوقت نفسه تلك الخصائص والحالات المختلفة وتمكّنوا من أن يوجدوا في آنٍ واحد آثار ولوازم تلك الحالات المختلفة.

غفران الذنوب ثمرة الخوف من الله

وفيما يتعلّق بثمرة الخوف من الله يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر إنّ العبد ليُعرض عليه ذنوبه فيقول: أمَا إنّي كنت مشفقًا، فيُغفر له**».

وإلى الآن نكون قد تحدَّثنا عن أهمية الخوف من الله ودوره في إعانة الإنسان في سيره إلى الله. وفي هذه الفقرة، يشير النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى بعض فوائد الخوف من الله ليوجِد في أنفسنا دوافع إيجاد الخوف أو تقويته. فيقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إنّ إحدى فوائد الخوف من الله هو غفران الذنوب. لا يخلو إنسان أثناء ارتكاب المعصية من إحدى حالتين:

١. إمّا أن يكون أثناء ارتكاب المعصية غير خائف ويعيش حالة الطمأنينة الروحية ويلتذ بتلك المعصية من دون وجلٍ واضطراب. وهذه الحالة تؤدّي إلى الرغبة بالمعصية، وبالإصرار عليها، وينجرّ الأمر في النهاية إلى العاقبة السيّئة.

٢. وإمّا أن يكون أثناء ارتكاب المعصية خائفًا من الله وحذرًا من العاقبة والمصير. يخاف أن يموت ولا يوفقَ للتوبة. ومثل هذا الخوف عند ارتكاب المعصية يؤدّي إلى ضعف الالتذاذ بها. وفي النّهاية، تحصل حالة التوبة ويتبعها المغفرة.

من الطبيعي أنّ الإنسان سوف يُحاسب يوم القيامة على الذنب، فإذا لم يكن قد تدارك هذا الذنب وجبره، أو لم يكن حتّى قد تاب منه ـ لأنّه لو تاب لغُفر له ـ فإنّه سيُساق إلى جهنّم.

أمّا إذا كان الإنسان في الدنيا خائفًا ويقول: يا ربّي لقد كنت أخاف العاقبة حين ارتكبت هذه المعصية، ستكون النتيجة أن يُغفر له. فلو كان الإنسان ممّن يخاف الله عند المعصية فمن المؤمّل أن يُغفر له يوم القيامة.

إنّ الخوف من الله يؤدّي إلى ضعف حالة العصيان، كما أنّه يوقظ الإنسان وينبّهه، وهو عاملٌ مهمٌّ في إيجاد الحذر من الانحراف والزلل والوقوع في الغفلة. من هنا، نجد الآيات الشريفة حافلة بمدح الذين يخشون الله ويخافونه وتعدهم بالثواب الجزيل والرحمة الواسعة.

ويمكننا أن نستنتج من نظرةٍ كلّيّة إلى الآيات الشريفة أنّ تفاوت مراتب الخوف مرتبطٌ باختلاف مراحل المعرفة عند الناس. فالصالحون كالأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم في أعلى درجات الخوف من الله، ومن سواهم في درجةٍ أدنى.

ويبيّن القرآن الكريم أنّ متعلّق الخوف أمران:

١. الخوف من مقام الإله.

٢. الخوف من عذاب الله.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة **إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1].

ففي هذه الآية، ذُكر الخوف من الله والخوف من العذاب الإلهيّ أيضًا. وأعلى درجات ومراحل الخوف هو الخوف من المقام الإلهيّ.

وفي تفسير الميزان يقول العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه): «والخوف من الله تعالى ربّما كان خوفًا من عقابه تعالى على الكفر به ومعصيته، ولازمه أن تكون

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ١٤.

عبادة من يعبده خوفًا بهذا المعنى يُراد بها التخلّص من العقاب لا لوجه الله محضًا وهي «عبادة العبيد»، يعبدون مواليهم خوفًا من السياسة. كما أنّ عبادة من يعبده طمعًا في الثواب غايتها الفوز بما تشتهيه النفس من دون وجهه الكريم وهي «عبادة التجّار»، كما في الروايات وقد تقدّم شطرٌ منها.

والخوف المذكور في الآية ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**﴾[١] ظاهره غير هذا الخوف، فإنّ هذا خوف من العقاب وهو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل، أو الخوف من مقامه تعالى من عبده، فهو تأثّر ممّن ليس له إلّا الصغار والحقارة تجاه ساحة العظمة والكبرياء وظهور أثر المذلّة والهوان والاندكاك قِبَال العزّة والجبروت المطلقين»[٢].

ذمّ الاتّكال على الأعمال الحسنة

وفي ذمّ الاتّكال على الأعمال الحسنة المؤدّية إلى المعصية يقول النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**يا أبا ذر إن الرجل ليعمل الحسنة فيتّكل عليها، ويعمل المحقّرات حتى يأتي الله وهو عليه غضبان، وإنّ الرجل ليعمل السيّئة فيفرق منها فيأتي الله عز وجل آمنًا يوم القيامة**».

لا يصحّ تحديد ملاك قبول الأعمال وعدمه على أساس المعايير الظاهرية، بل إنّ القبول وعدمه يرتبطان بمجموعة من الشروط التي قد لا يتمكّن الإنسان من إحصائها والإحاطة بها جميعًا. لهذا، لا يمكن لأي شخصٍ أن يطمئن إلى أنّ أعماله ستُقبل. هذا وإنّ الاطمئنان والركون إلى قبول الأعمال يؤدّي إلى إيجاد الغرور في النفس بحيث يدفعه ذلك إلى ارتكاب المعاصي الصغيرة بحجّة أنّ هذه الصغائر ليست شيئًا أمام أعماله الحسنة. وهو غافلٌ عن أنّ اتّكاله على قبول أعماله الحسنة لا يرجع إلى ركنٍ وثيق، فقد تُرفض أعماله أو تُحبط. ثمّ إنّ عدم الاعتناء والالتفات إلى ارتكاب الصّغائر والإصرار عليها هو من المعاصي الكبيرة. فمن أحسّ بالأمن والطمأنينة بسبب ما قام به من أعمالٍ صالحة أو من خلال الاتّكال على أعماله، واستحقر المعصية ولم يعدّها شيئًا، فإنّ الله تعالى سيحلل عليه غضبه.

---

(١) سورة **الرحمن**، الآية ٤٦.

(٢) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٩، الصفحة ١١٢.

ومقابل هذه الفئة، من يخاف الله حين يرتكب المعصية ويبقى قلقًا. فلعلّ هؤلاء ستشملهم الرّحمة الإلهية وينجون من عذاب الله بسبب هذا الخوف والقلق، وإن لم يكونوا من أصحاب الهمم العالية وأصحاب الأعمال الصالحة الكثيرة. (وما بيّنه النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو تفسيرٌ لقوله: **لا أجمع على عبدٍ خوفين**).

ومقصود النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو توجيه أبي ذر إلى أهمية الحالات القلبية وإلى أهمية الخوف من المعصية وتأثيره، بحيث لو ابتُلي الإنسان بالمعاصي فإنّ إشفاقه القلبي واضطرابه وقلقه سيؤدّي إلى غفران ذنبه. وفي المقابل، إذا كان كثير العبادة، ولكنّه لا يهتم بما يصدر منه من معاصٍ، فإنّه باستخفافه بالمعصية وعدم التفاته إلى من يعصي سينال الغضب الإلهيّ. فلهذا، لا يجوز استصغار أي معصية مهما كانت، وينبغي أن نسعى دومًا إلى الحفاظ على حالة الخوف والخشية من الله في أنفسنا.

دور الالتفات إلى المعصية وتذكّرها في البعد عن الشيطان

والأهم ممّا مر، ما ذكره النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الجمل اللاحقة: «**يا أبا ذر، إنّ العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنّة. فقلت: وكيف ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: يكون ذلك الذنب نصب عينيه تائبًا منه فارًّا إلى الله عزّ وجل حتّى يدخل الجنة**».

فمثل هذا الاضطراب والقلق والخوف الذي يعقب ارتكاب أيّ معصيةٍ يبعث على التوبة والفرار من مصائد الشيطان. ويؤدّي ذلك إلى النجاة من الغفلة وسيطرة الأهواء النفسانية فلا يعصي بعدها، ويفوز بالجنّة. ولعلّه لو لم تصدر منه تلك المعصية لما حصلت له هذه الأحوال.

وبالطبع، فإنّ السبب القريب للتوجّه إلى الله والاستعاذة من الشيطان هو هذه التوبة والخوف من الله تعالى، والمعصية هي ما يمكن أن نعبّر عنه بالسبب البعيد ولكنّها على كل الأحوال سببٌ.

فإنّ بيان النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هذا هو من أجل ترغيب الإنسان بهذه المسألة وهي أن يوجد في نفسه الشعور النفسيّ بالخوف من الله. فالخوف الحاصل بعد ارتكاب المعصية يؤدّي إلى غفران الذنوب ودخول الجنّة، وهو ليس بالشيء

بالقليل، ولكن ينبغي بذل الجهد لتحقيق ذلك.

تحقيقٌ في ماهية الحزن والخوف ومعنى الخوف من الله

وإلى هذا الحدّ، كان بحثنا مرتبطًا بالخوف والحزن المذكور في هذه الرواية، والآن جاء دور طرح بعض الأسئلة والإجابة عنها، وإن لم تكن هذه الأسئلة مرتبطة بشكلٍ مباشر بهذا البحث:

من بين هذه الأسئلة ما يتعلّق بقيمة حالتي الخوف والحزن، وهل هما من الأمور الجيّدة أم السيّئة، فإذا كانت أمرًا حسنًا لماذا وصف الله تعالى أوليائه بقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]؟ وإذا كانت أمرًا سيّئًا فلماذا يرغّب النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بهاتين الخصلتين ويذكرهما على أنّهما موجبتان للمغفرة والنجاة؟

وفي الجواب يجب أن نقول: إنّ الخوف والحزن بحّد ذاتهما، ومن دون الالتفات إلى متعلّقهما، ليسا بالأمر المطلوب ولا المذموم، فلا يمكن أن نقول بشكلٍ عام إنّهما أمرٌ حسنٌ أو أمرٌ سيّئ، بل يجب أن ننظر فيما يخاف الإنسان منه، وممّا يحزن عليه. فالخوف من الله وعذابه أمرٌ مطلوبٌ لأنّه يبعث الإنسان على المزيد من العبادة والطاعة واجتناب المعاصي، وفي النتيجة يساعده على القيام بوظائفه بشكلٍ أفضل ليكون سالكًا طريق السعادة ويصير من أصحاب الجنّة. وفي المقابل، فإنّ الخوف من جهة الدنيا غير مطلوبٍ لأنّ أصل التوجّه إلى الدنيا غير مطلوب، فكيف إذا كان الخوف بسببها.

والسؤال الآخر يتعلّق بمعنى الخوف من الله.

وفي الجواب ينبغي أن نقول: إنّ الخوف من الله يرجع إلى الخوف من النفس والأعمال التي يرتكبها الإنسان، وإلّا فإنّ الله تعالى منبع الرأفة والرحمة. والخوف من الله تعالى من جهة أنّه «شديد العقاب»، هو خوف من ألّا يتجاوز عمّا يفعله الإنسان ويحاسبه على كل شيء.

النكتة الأخرى التي ينبغي ذكرها هنا، هي أنّه يمكن بتقسيمٍ كلّيّ، ذكر ثلاث

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١١٢.

مراتب للخوف من الله:

١ـ الخوف من عذاب الله في جهنّم:

وهي رتبة عامّة الناس. ففي أكثر الناس يكون الخوف من جهنّم والعذاب الإلهيّ باعثين على أداء التكاليف والبعد عن المعاصي. ويجدر القول هنا إنّ هذه المرتبة بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا في المراحل الأولى للتكامل تكون كبيرة الفائدة. وهذا الخوف إذا كان مؤثرًا في البعد عن المعصية يؤدّي إلى تحصيل السعادة والنجاة من العذاب الإلهي.

٢ـ الخوف من فقدان نعم الجنة:

والبعض الآخر لا يرتكبون المعاصي خوفًا من أن يُحرموا من نعم الجنّة، فيؤدّون وظائفهم من هذه الجهة، ومثل هذا الطمع يحملهم على طاعة الله والبعد عن الشيطان. وهذه المرتبة أعلى من المرتبة السابقة.

٣ـ الخوف من الحرمان من لقاء الله وقربه:

وهو الخوف من أن يُحرم الإنسان من لطف الله وعنايته. ولا شك بأنّ هذه المرتبة أعلى من المرتبتين السابقتين. وهي مختصّة بالمقرّبين والذين علت هممهم فارتفعوا فوق طلب الثواب والخوف من العقاب الأخرويين، فإنّ ما يدركونه ويسعون لأجله أعلى وأعظم. ولأجل اتّضاح هذه المرتبة وتقريبها إلى الأذهان ينبغي أن نذكر هذا المثال:

فلنفرض أنّنا دُعينا من قبل سماحة الإمام القائد، وتقرّر أن نكون في ضيافته. من الممكن أن يكون البعض قلقًا من أن يصل متأخّرًا فيُحرم من الطعام. وقد يقول البعض: إنّ اليوم هو يوم عيد ومن المفترض أن يقدّم سماحة القائد الجوائز والهدايا. فيكون خوفهم من أنّهم لو تأخّروا سيُحرمون من العطايا والجوائز. فهمّة هذه الطائفة أعلى من الطائفة الأولى، فبالنسبة لهم لا يهمّهم إذا بقوا جائعين، ولكن ما يهمّهم هو الحصول على الجوائز من يد مقام القائد المعظّم.

أمّا الطائفة الثالثة، فما يهمّهم ويعتبرونه قيّمًا هو زيارة حضرته نفسها، فقط

ولا غير. فأن يرمقهم مقام القيادة المعظّم بنظرة، ويبتسم معبّرًا عن رضاه وفرحه بقدومهم، فهذا بحدّ ذاته هو ذات قيمة عالية جدًّا بالنسبة لهم، ولا يهمّهم أي شيء آخر، حصلوا على هديّة أم لم يحصلوا.

ومثل هذه المراتب الموجودة في محبة الأفراد لبعضهم البعض. على أساس اختلاف هممهم ومعرفتهم. يمكن أن نطبّقها، بلا تشبيه، على موضوع الخوف من الله تعالى. وفي حديثٍ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكر فيه هذه المراتب الثلاث فيما يتعلّق بعبادة الله وأداء حقّ العبودية له: «**العباد ثلاثة: قومٌ عبدوا الله عز وجل خوفًا فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلبًا للثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقومٌ عبدوا الله حبًّا له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[١].

إنّ من يخاف الله قد يخافه أحيانًا بسبب وجود جهنّم والعذاب الأبديّ بحيث إنّه لو رفع عنه عذابها لم يشعر بأي خوفٍ أو قلق. لا شك أنّ هذه المرتبة إذا قيست بالكفر والجحود فهي ذات قيمةٍ عالية. فنتيجة الإيمان بالله هو الإيمان بيوم القيامة والإيمان بأنّ الله تعالى سيعذّب العُصاة فيها. ولكن همّة من وصل إلى هذه المرتبة دانية مثل العبيد الذين يعملون خوفًا من عقوبة أسيادهم.

ويكون خوف البعض من الله خشية أن يُحرموا من نِعم الجنّة، فحتّى لو لم يكن ثمّة عذاب فهم خائفون من أن يُحرموا هذه النعم. وفي مقابل، هاتين الطائفتين هناك طائفةٌ يخافونه حتى لو لم يكن من جنّةٍ أو نار، ويخافون أن لا يشملهم الله بلطفه وعنايته. وفي القرآن الكريم، ذُكر هذا الأمر من ضمن العذابات الإلهية الكبرى التي تحيط بالكافرين: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٢].

فالذي يعلم معنى ذلك يرى في عدم عناية الله أشدّ العذاب. فالذي يذهب بعد مدّة إلى حبيبه أو أبيه أو أستاذه ويواجَه بعدم الاعتناء واللامبالاة يكون هذا الأمر بالنسبة له أشدَّ وأصعب من أي عقاب.

وهنا، يُطرح هذا السؤال: لماذا كان أئمّتنا المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخافون من

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٣٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.

الله؟ فهم معصومون وبيدهم الجنة والشفاعة بل جهنم أيضًا في قبضتهم، فلماذا يخافون الله وكيف ينسجم هذا الخوف مع مقام العصمة؟

والجواب الإجمالي هو أنّ العصمة تعني ترك المعصية واجتناب الحرام، ولا يحتّم ذلك أن يكون الرضوان الإلهيّ نصيبهم. فالذي لا يعصي لا يدخل جهنّم، ولكنّه يخاف من ألّا يكون مورد محبة الله، ويخاف أن يُحرم من عنايته ورضوانه، وذلك أشد عذابًا بالنسبة له.

والجواب الحقيقي والتفصيلي على هذا السؤال ليس بحدود فهمنا واستيعابنا، لأننّا لا نقدر على الإحاطة بمقام أهل البيت عَلَيْهِ‌السَّلَامُ حتّى نعلم أيّ روحيّة كانت لديهم، وماذا كانوا يفعلون، وكيف كانت حالاتهم (مع الله). نعم، بالالتفات إلى مجموع الشواهد الموجودة بين أيدينا ومقارنتها بحالاتنا، يمكن أن نفهم إجمالًا رشحةً من حالاتهم وبحدود فهمنا، ولكن مع ذلك تبقى حقيقة الأمر مجهولة لدينا.

حصول الحالات المتضادّة والمتفاوتة في زمانٍ واحد

وبالالتفات إلى ما مرّ، يمكن أن نستنتج أنّ روح الإنسان إذا كملت يمكن لها أن تجمع تلك الحالات المتضادّة من قبيل اللذة والألم في آن.

أمّا سعتنا نحن فمحدودة ولا يمكننا أن نجمع عدّة حالات بصورة كاملة في زمانٍ واحد. لهذا، قد يجتمع كلٌّ من الغم والسرور في أنفسنا بحدّهما المتوسّط.

أمّا إذا تكامل الإنسان، فإنّه يقدر على أن يجمع في نفسه عدّة مناشئ وعدّة عوامل واثنين أو عدّة حالات متضادّة في حدّها الكامل. ينشأ كلٌّ من الخوف والرجاء في نفس الإنسان نتيجة عوامل خاصّة بها. ولو أخذنا جميع هذه العوامل بعين الاعتبار، فمن الممكن لهذه العوامل أن تنتج حالة جديدة نتيجة تفاعلها مع بعضها بعضًا. أمّا إذا نظرنا إلى كلّ عامل على حدة، من جهة أنّه منشأ حالة خاصّة، فإنّ نتيجته ستكون تلك الحالة فقط. كمثالٍ على ذلك، لو توجّهنا إلى منشأ الخوف فإنّ الخوف سيظهر في النفس، ولو توجّهنا إلى منشأ الأمن، فإنّ حالة الأمن والطمأنينة ستظهر فيها. أمّا أصحاب النفوس القوية والمسلّطون على حالاتهم

الروحية، فحين يقلقون بشأن العذاب الإلهي أو يفكّرون باحتمال أن يُحرموا من رضوان الله، فإنّ عيونهم تمتلئ بالدمع، وفي اللحظة نفسها يتوجّهون إلى فضل الله ورحمته ومغفرته، فتنتابهم حالة من السّرور والفرح. فمثل هؤلاء من السهل عليهم أن يتوجّهوا إلى الخوف والأمن في آن، وأن تنتابهما تينك الحالتين.

وبالالتفات إلى هذه المطالب، يمكن أن نتكهّن ما كان يحصل للنبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأن يتحصّل معرفة ضئيلة لدينا بهذا الشأن. يمكن أن يلوح لنا شيء من مقام «جمع الجمع» لديهم: كيف يمكن لنفوسهم القوية أن تكون مظهرًا لجميع الأسماء والصفات الإلهية في آن: فيتوجّهون إلى رحمة الله وينتابهم السرور والفرح والرجاء، ومن ثمّ ينظرون من جانبٍ آخر إلى عذاب الله وعقابه الأليم فيُصابون بحالة من الخوف والاضطراب. غاية الأمر أنّ ظهور تلك الحقائق في الأبدان، وحيث إنّ الأبدان لا تقدر على إظهار كِلتا الحالتين ظهورًا كاملًا، فإنّ الحالة التي لها جهة الغلبة على الأخرى هي التي ستظهر وتتجلّى أكثر: فإذا غلب الخوف جرى الدمع، وإذا غلب السرور والرجاء تبسّم الفم. ولا شك بأنّ تجلي هذه الحالات يكون بيدهم.

أمّا فيما يتعلّق بخوف المعصومين من عذاب الله، رغم عصمتهم وعدم ارتكابهم لأيّ ذنبٍ، بالإضافة إلى أنّ الله تعالى جعل الجنة والنار في قبضتهم، فلماذا إذًا يخافون من وعيده؟ وما هو الذي يدفعهم لهذا الخوف؟ فقد أجبنا فيما مرّ والآن نقدّم جوابًا آخر.

إنّ مجموع القدرات والحالات الموجودة في الإنسان يجب أن تكون مظهر العبودية لله، كما أنّه ينبغي أن تُصرف في سبيله. إنّ وجود الإنسان مزيجٌ من العناصر والحالات المادية والمعنوية. ففي جبلّته عُجن الخوف والألم والأمن والرجاء والسرور واللذة. وقد أعطى الله تعالى هذه الحالات الروحية للإنسان لكي يستخدمها في سيره إليه. فلينبغي أن يضحك ويفرح لله. أي يجب أن يكون فرحه مرتبطًا بالله، بحيث لا يفرح إلّا إذا صار مورد لطف الله وعنايته، وهكذا تكون لذّته أيضًا. وقد جاء في بعض الروايات أنّ الشيعة هم ضيوف النبيّ وأهل بيته في الجنة ويتناولون طعامهم من مائدتهم. ولكن هل أنّ هذه اللذة الحاصلة للمعصومين من التنعّم في الجنة مساوية للذّاتنا؟ وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ

طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[1].

فهل أنّ اللذة الحاصلة للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من أكل هذا اللحم تساوي اللذة التي تحصل لنا؟ لا شك بأنّ هاتين اللذتين تختلفان اختلافًا كبيرًا. وكذلك جهة الالتذاذ. فالنبيّ يلتذ من جهة أنّه صار مورد نعمة الله. فعلى كل حال، إنّ مرتبة الالتذاذ ترتبط بمستوى المعرفة ودرجة العشق الإلهيّ الكامن في قلب الإنسان.

ويمكننا أن نجري هذه المقارنة في مجال خوف النبيّ وأهل البيت صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ مع خوف الآخرين: فهم عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ وإن كانوا يخافون من نار جهنّم إلّا أنّ خوفهم هو من جهة أنّها علامة على غضب الله. فهم يرونها علامةٌ على عدم محبة الله. فغضبه تعالى وفراقه وبُعده أمر لا يمكن تحمّله بالنسبة لهم، ومن هنا يكون خوفهم شديدًا.

---

(١) سورة الواقعة، الآية ٢١.

الدرس الثالث عشر

حقارة الدنيا وصغرها، وأهمية التوجّه إلى الآخرة

- اختلاف نظر وسلوك الإنسان العاقل مع العاجز
- الأمانة والخشوع
  - أ . دور الأمانة
  - ب . دور الخشوع
- حقارة الدنيا وصغرها في عين الله

«يا أَبا ذَرّ، اَلْكَيِّس مَنْ أَدَّبَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعاجِزُ مَنِ اتَّبَعَ نَفْسَهُ وَهَواها وَتَمَنىّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمانِيَّ.

يا أَبا ذَرّ، إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هذِهِ الْأُمَّةِ الْأَمانَةُ وَالْخُشُوعُ حَتّى لا يَكادُ يُرى خاشِعٌ.

يا أَبا ذَرّ، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ الدُّنْيا كانَتْ تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَة أَوْ ذُباب ما سَقَى الْكافِرَ مِنْها شَرْبَةً مِنْ ماء».

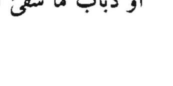

اختلاف نظر وسلوك الإنسان العاقل مع العاجز

كان الحديث فيما سبق حول ارتكاب الذنوب ثمّ الخوف من عاقبتها، حيث إنّ الله تعالى يغفر لمثل هذا الإنسان الذي تغمّه ذنوبه وتقضّ عليه مضجعه. ومن الممكن أن يُتوهّم أنّ كل من ارتكب ذنبًا ثمّ تاب منه سوف يُغفر له، ما يؤدّي إلى الإمعان في الزّلل والانحراف، ذلك لأنّ العاصي سوف يكون مؤمّلًا بمغفرة الله بعد كل معصية. وحتى يزول هذا الظن الخاطئ يقول النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إن الكيّس والعاقل هو الذي يكون في حالةٍ دائمةٍ من التفكّر في الاستفادة من عمره والقيام بالمزيد من العمل الصالح. فهذا الإنسان يدوس دومًا على أهوائه ولا يتّبع كل ما تمليه عليه نفسه لكي لا يقع في النهاية في حجاب الغفلة.

«يا أبا ذر الكيّس من أدّب نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتّبع نفسه وهواها وتمنى على الله عز وجل الأماني».

للإنسان عقلٌ وهوى، قد يتغلّب العقل على أهواء النفس تارةً وقد تغلبه

أهواؤه تارة أخرى. وفي هذا المقطع، ذُكرت الحالتان: قد تضعف النفس فلا تسيطر الأهواء والأماني على عقل الإنسان. وهذا فيما يرتبط بالإنسان الكيّس الذي يسلك طريق تهذيب النفس ويفكر دومًا بالحياة الأبدية بعد الموت.

وفي المقابل، قد تغلب النفس وأهواؤها عقل الإنسان فيقف مقابلها عاجزًا لا يقدر على مقاومة شهواتها ومتطلباتها الحيوانية. وهذا التفسير مبني على متن الحديث في نُسخة كتاب **بحار الأنوار** حيث ورد بالعبارات التالية «من دان نفسه» وهو يعني أن الكيس من كانت نفسه ضعيفة. أما في النسخ الأخرى فقد ورد «من أدّب نفسه» ولعل التعبير الثاني أفضل فيكون معنى الجملة أن الكيّس هو الذي ينهض لتأديب نفسه وهو تعبيرٌ آخر عن تهذيبها وتكميلها وعدم اتباع أهوائها ومتطلباتها السافلة.

فهذا الإنسان قادرٌ على التفكّر العقلاني والنظر إلى هذا العالم المادّي المحدود ليطّلع بعد ذلك على الأفق اللامتناهي للأبدية ويتحرّر من التفكير والنّظر المحدود، ويجعل أعماله لأجل ذلك اليوم الباقي وهو يوم القيامة. وفي الإسلام، فإنّ مثل هذا التفكر هو تفكّرٌ عاقل، وصاحبه يكون كيّسًا لأنّه يفكّر بالمقصد ويتطلّع إلى العالم اللامتناهي للآخرة بدلًا من أن يحصر نفسه بهذا العالم المحدود للدنيا. والكيّس هو الذي إذا قاس لذّات الدنيا العابرة بنعم الآخرة الخالدة، يرجّح الثانية.

أمّا قاصرو النظر، فإنّهم لا يفكّرون إلّا باللذات العابرة والآمال الفانية ويرجّحونها على اللذات الأخرويّة الباقية. وقد جعل عنان عقله بيد أهوائه النفسانية وجعل نفسه تحت سيطرة البطن والشهوة، كما قال مولى المتّقين علي عليه السّلام: «**كم من عقلٍ أسير تحت هوًى أمير**»[1]. مثل هذا الإنسان، يتّبع أهواء نفسه ثمّ يتمنّى أن يُحشر في الجنّة مع أولياء الله!

الأمانة والخشوع

بحثنا سابقًا حول خاصّيتي الخوف والحزن، والآن نتبع ذلك بالحديث عن حالة الخشوع المتعلّقة بالإنسان التي تُعدّ أمرًا حسنًا ومطلوبًا. ولكن بما أنّ

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٢١١، الصفحة ٤٨.

بعض الكمالات والحالات المعنويّة من الممكن أن تُنتزع من الإنسان يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر إنّ أوّل شيءٍ يُرفع من هذه الأمّة الأمانة والخشوع حتى لا يكاد يُرى خاشع**».

في هذا المقطع، يشير النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى هاتين الصفتين الأخلاقيتين الرّفيعتين. إحداهما الأمانة، وهي صفة أخلاقية اجتماعية ولها دورٌ أساسيّ في تثبيت العلاقات الاجتماعية السليمة، ومن دونها لا يمكن أن يتشكّل مجتمع سالم، لأنّ أساس الروابط الاجتماعية قائمٌ على الثقة المتبادلة. وفي هذا المقطع، ينبّه النبيّ أبا ذر بأنّ الصفات الحسنة سوف تُرفع من بعدي من هذه الأمّة، وأوّل ما يُرفع منها صفتان عظيمتان هما الأمانة والخشوع.

لقد كانت أمّة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كمجتمعٍ خضع للتربية النبويّة تتميّز على سائر الأمم بخاصّيتين عظيمتين:

الميزة الأولى ترتبط بالعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية. والميزة الثانية ترتبط بالأحوال والخلقيات والبناء الشخصيّ الفرديّ فيها. فهذه الأمّة، كانت متميّزةً على صعيد أفرادها من حيث الرّوحانيّة والمعنويّة، وكذلك من الناحية الاجتماعية. وقد تحقّقت هذه الصّفات على أثر التربية الممتدّة عبر الزّمان من قِبل الله تبارك وتعالى وبواسطة النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

كانت الأمّة الإسلامية كبستانٍ وقع بيد بستانيٍّ كفوء كرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وفي هذا البستان زُرعت الأشجار المثمرة الطيّبة. فحين تحلّ الآفات بهذا البستان، ستظهر آثارها بوضوح، ومع مرور الزّمن سوف يؤدّي ذلك إلى خرابها وزوالها.

هذه الأمّة التي تربّت على يد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يكن لها نظيرٌ بلحاظ الخصائص الفرديّة والاجتماعيّة، وقد ضربتها الآفة بعد رحيل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبدأ اخضرارها يذبل وعمارتها تخرب. وأوّل الآفات التي ضربت روح هذه الأمّة الإسلاميّة هي قسوة القلب وفقدان الخشوع ورقّة القلب، إلى أن وصل الأمر إلى عدم الخضوع مقابل الحقّ وعدم التأثّر بالأمور الإيجابية والقيم الطيّبة. ضربت قسوة القلب كلّ واحدٍ منهم بحيث لم يعد الحقّ مؤثّرًا في قلوبهم وجفّت عيونهم وجمُدت، حين زالت الرقّة من القلوب.

والآفة الثانية كانت في ميدان العلاقات الاجتماعية. فقد أضحت الأمانة ضعيفة وانعدمت الثّقة وشاعت الخيانة، وهذا ناقوس خطر في أيّ مجتمع، فإنّ شيوع هاتين الآفتين على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ في أي مجتمعٍ يؤدّي إلى زواله وسقوطه.

ولا تنحصر هذه القيم بالإسلام أو تختص بالمسلمين، فقبل ظهور الإسلام وبعثة النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى النّاس وإيمانهم به كان الجميع يفهمون ويُدركون أهميّة الأمانة ويعلمون سوء عاقبة الخيانة.

أ. دور الأمانة

إنّ أكبر العوامل التي أدّت إلى نجاح النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بين العرب بل بين العالمين هو ما عُرف عنه بالأمانة. لقد كان هذا الإنسان العظيم معروفًا قبل الرسالة بالأمانة، وكان الناس يصفونه بمحمّد الأمين. ولقد كان لمثل هذه الخاصّيّة أكبر الأثر في توجّه الناس إليه، ذلك لأنّ الأمانة تستلزم الصدق أيضًا: فالذي يخون الناس في أموالهم، لا يمكن أن يكون صادقًا. وقد قبل الكثير من الناس ما دعاهم إليه النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وصدّقوه على ذلك، لأنّهم علموا منه الصدق.

وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ قيمة الأمانة ممّا يدركه العقل مستقلًّا، فلو لم يكن من بعثةٍ ودعوةٍ إلهيّة، لكان كلّ إنسانٍ قادرًا على إدراك ذلك بمفرده، لكنّ الإسلام قد أيّد حكم العقل وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1].

فالأمانة من ضروريّات الحياة، ولو لم تُراعَ وتُحترم في حياة الناس لاختلّ النظام وحلّت الفوضى وانعدمت الثقة، لأنّ أساس كيان الحياة الاجتماعية قائمٌ على الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع. والأمانة في القول تستلزم الصدق، والأمانة في الفعل تستلزم القيام بالعمل الصحيح. وقيمة ذلك مستفادة من المستقلّات العقلية ولا تحتاج إلى الاستدلال والتعبّد. وكل ما ورد من توصيات في الإسلام بشأن ذلك له جهة إرشادية. فما يُدركه العقل مستقلًّا يؤيّده الشرع ويوصي به. ولا تنحصر الأمانة

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٨.

في حفظ الأموال الخاصّة للآخرين، بل إنّ الحفاظ على الأموال العامّة وبيت المال من أهم مصاديق الأمانة: الشوارع والأراضي والمياه والأشجار وجميع الأشياء التي هي من حقوق المجتمع الإسلامي داخلةٌ تحت موضوع الأمانة. بل إنّ حفظ الأموال العامّة أشدّ لزومًا وضرورةً، لأنّ الذي يخون ولا يؤدّي أمانة شخصٍ ما يكون قد أساء وأضرّ شخصًا واحدًا، أمّا الذي يخون أموال بيت المال والأموال العامّة فقد خان جميع المسلمين. ذلك السّائق الذي يقود السيّارة التابعة للحكومة، لو لم يكن دقيقًا في عمله وكان مفرطًا فقد خان كلّ شعبه. كما أنّ استخدام الوسائل العامّة في الأمور الشخصية يُعدّ خيانةً لبيت المال.

وفي القرآن المجيد، عُرّف المجتمع الإسلاميّ على أنّه أمينٌ ووفيّ لعهوده: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾(١).

وفي موضع آخر، يأمرنا الله تعالى بأن نؤدّي الأمانات إلى أصحابها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾(٢).

والتأكيد على الأمانة ينبع من موقعها بحيث إنّها لو رُفعت من المجتمع لشاعت الخيانة وضاعت الحقوق وانفصمت العروة الجامعة للروابط والعلاقات وتداعت الأسس والقواعد التي يقوم عليها المجتمع، وكان ذلك بداية نسيان الصّفات والخصائص الأخلاقية والإنسانية الأخرى.

ب . دور الخشوع

لو كان الخشوع منتشرًا بين الناس وكان الخضوع للحق أمرًا شائعًا، لما كان الناس غير مبالين تجاه ما يحدث في المجتمع وما يجري عليه من حوادث، بل يحملهم ذلك على تحمّل المسؤولية، ولحملوا دعوة الأنبياء وتعاليمهم على رؤوسهم فإذا بشّروهم بشيءٍ فرحوا وإذا حذّروهم من شيءٍ خافوا ووجلوا. إذا نظروا إلى شخصٍ يُظلم سيتألّمون وتنهمر دموعهم من عيونهم، وإذا شاهدوا شخصًا يؤدّي حقّه فرحوا وسُرّوا. هؤلاء الذين يتّصفون برقّة القلب والخشوع مقابل الحقّ ويسلّمون له قد

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٨.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٥٨.

فتحوا صدورهم لقبول ما يرد عليهم منه.

وفي المقابل، فإنّ أصحاب القلوب القاسية هم فاقدو الشعور والإحساس والمسؤولية بالنسبة إلى الحقائق التي تُعرض عليهم والحوادث التي تحصل أمامهم، ذلك لأنّ قلوبهم ليست مستعدّة وهم لا يتقبّلون دعوات الأنبياء وتعاليمهم ولا يخضعون للحقّ. كل ما يهمّهم هو أنفسهم ولا يفكّرون إلا بمتطلّباتهم الحيوانية.

ويعرّفنا القرآن الكريم على طائفتين من أهل الكتاب: الطائفة الأولى هم اليهود الذين كانوا أشدّ الناس عداوةً للإسلام والمؤمنين: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾[١].

إنّ الماء يخرج من الحجر، أمّا اليهود فقد كانت قلوبهم قاسية إلى درجةٍ لا تهتز ليجري القليل من الدمع من مآقيها، وكانوا أشدّ الناس عداوة للمؤمنين.

ومقابل هذه الطائفة يذكر القرآن طائفةً أخرى من أهل الكتاب ممّن كانوا ذوي مودّة للمؤمنين: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

ثمّ يتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٣].

فمثل هذه الرقّة والليونة كانت تحملهم على الإيمان، لأنّ قلوبهم كانت متعطّشة للحقائق. وفي المقابل، كان اليهود أصحاب القلوب القاسية رافضين للإيمان. لهذا، نجد أنّ الكثير من المسيحيّين طوال التاريخ قد أسلموا وأضحوا من المؤمنين الأطهار والخُلّص فيما كان قلّة من اليهود يقبلون على الايمان.

ويشير النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ها هنا إلى أنّه سيأتي يومٌ لن تجد إنسانًا خاشعًا بل سيتحوّل الخضوع والخشوع إلى شيءٍ فاقد للمعنى.

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٨٢.

(٣) سورة **المائدة**، الآية ٨٣.

هناك من كان يدّعي العلم والمعرفة بالإسلام ويقول إنّ الإسلام لا يرضى للإنسان الذلّة حتى لو كان ذلك مقابل الحقّ تعالى! فإنّ رقة القلب والبكاء والخضوع سيكون عند هؤلاء ضدّ القيم! هذا في حين أنّ القرآن قد وصف المؤمنين بالخشوع. وقد اتّهموا أحد العلماء بأنّه انحرف عن الحقّ لأنّه كان يبكي حين تُتلى عليه آياتٌ من القرآن الكريم. وكانوا يتصوّرون أنّ الإنسان ينبغي أن يبكي في العزاء فقط، أمّا البكاء أثناء تلاوة القرآن أو الاستماع إليه فهو بدعة عندهم. وقد صار هذا العمل منبوذًا ومجهولًا إلى درجةٍ أنّه لو شوهد إنسان على مثل هذه الحالة لاتُّهم بالانحراف والبدعة.

الخشوع عبارةٌ عن نوع من الإحساس الممتزج بالذلّة والتواضع وهو من حالات القلب، وتظهر آثاره وانعكاساته على الأعضاء والجوارح. يقول الراغب الإصفهاني: إنّ الخشوع يعني الشعور بالضعف والذلّة، وأكثر استعمالاته في موارد ظهوره في الأعضاء والجوارح.

وكمثال على ذلك، نجد أنّ القرآن الكريم قد استعمل الخشوع في هذه الموارد:

١. في التكلم: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[١].

٢. في العيون: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾[٢].

٣. في الوجه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾[٣].

٤. في السجود: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٤].

٥. في الدعاء والصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٠٨.
(٢) سورة **القمر**، الآية ٧.
(٣) سورة **الغاشية**، الآية ٢.
(٤) سورة **الإسراء**، الآية ١٠٩.
(٥) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١ و٢.

٦. في القلب: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾(١).

والبحث حول هذه الموارد مفصّلًا يحتاج إلى مجالٍ أوسع.

فقد اتّضح لدينا بالإجمال أنّ الخاشع هو من ظهرت آثار العبودية والتواضع والحياء في سلوكه، من دون الشعور بالغرور والتكبر؛ فمثل هذا العبد الذليل يقضي على أصل العجب والتكبر في نفسه، ذلك لأنّ العجب والتكبّر يمنعان الإنسان من التواضع والخشوع لله. وممّا لا شكّ فيه أنّ الشيطان هو المصداق الأبرز للمتكبّرين والمتعالين يقول تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ * إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾(٢).

وفي تفسير هذه الآية، يقول الإمام عليّ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «**اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعدوّ الله إمام المتعصّبين، وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية وادّرع لباس التعزز وخلع قناع التذلل**»(٣).

ثمّ يكمل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قائلًا: «**فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سِنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة، عن كبر ساعةٍ واحدة! فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا! ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشرًا بأمرٍ أخرج منها ملكًا. إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحدٍ من خلقه هوادةٌ في إباحة حمىً حرّمه على العالمين**».

ومن اللازم أن نذكر أنّ منشأ وسبب فقدان الخشوع وظهور قسوة القلب وخيانة الأمانة هو حبّ الدنيا. إنّ حبَّ الدنيا يسلب الإنسان توفيق الخضوع والخشوع والبكاء والتضرّع. وبتبع حبّ الدنيا، يقع الإنسان في المشتبهات، ثمّ يُبتلى بعد ذلك بالمحرّمات، والإصرار على الكبائر. لهذا، فإنّ ما ينبغي فعله من أجل الحفاظ على حالة الخشوع هو صرف القلب عن التعلّق بالدنيا وإخراجها من

(١) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

(٢) سورة **الحجر**، الآيتان ٣٠ و٣١.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء٢، الخطبة ١٩٢، الصفحة ١٣٨.

الذهن كغاية، واجتناب المحرّمات والمشتبهات.

فإذا كنّا نرى أنّ القيم والكمالات تضحمل شيئًا فشيئًا من المجتمع وأنّ المفاسد الاجتماعيّة في ازدياد، فينبغي أن نبحث عن سبب ذلك في التوجّه إلى المادّيّات، ومثل هذا التوجّه والتعلّق يُعدّ أرضية لكلّ معصية. حين يرتكب هذا الإنسان معصيةً لا يحزن، ولكنّه إذا خسر شيئًا من أمور الدنيا، كأن يفقد مالًا ما، نجده شديد الحزن. كما أنّه يخاف أيضًا من دفع الضرائب الواجبة، كلّ ذلك بسبب تعلّق قلبه بالدنيا. أمّا إذا تعلّق الإنسان بالآخرة وجعلها هدفًا لحياته، فإنّه يستفيد من كلّ شيء من أجل الآخرة. فإذا كان من أصحاب المال، فإنّه يوظّف ماله في خدمة آخرته؛ وإذا كان فقيرًا فإنّه يستعين بالصبر والتسليم من أجل هدفه الأخرويّ. فإذا كان يملك المال، فإنّه ينفق في سبيل الله، وإذا لم يكن يملك مالًا فإنّه يسعى لإعانة الآخرين بطرق أخرى.

أمّا إذا اشتدّت علاقة الإنسان بالدنيا فإنّه يسعى بكلّ ما أمكنه للتمتّع بالمباحات، وإذا لم يجد مطلوبه فيها أو قصُرت هذه المباحات عن إمتاعه، فإنّه ينتقل إلى الشبهات ويسعى قدر الإمكان لتبرير ذلك من خلال فتاوى المراجع: فاليوم يبرّر هذا النوع من الربا، وغدًا يقع في ذلك الحرام القطعيّ واليقينيّ، ويصل به الأمر إلى عدم الخوف من ارتكاب أي معصية، مهما كانت كبيرة، ومن الطبيعيّ لمثل هذا الشخص أن يصبح قاسي القلب وأن تُسلب منه حالة الخشوع. حين يتواجد حبّ الدنيا في قلب الإنسان، فإنّه يدفعه إلى الخيانة واستغلال الناس. إذًا، إنّ العامل وراء قسوة القلب هو المعصية والتوجّه إلى المادّيّات واللذائذ الحيوانية. وإذا أردنا أن نُعالج هذا المرض ينبغي أن نقتلع جذوره، وأن نبحث عن السبب الذي أدّى إلى ذبول هذه الشجرة وعن السمّ الذي وُضع لها وأدّى إلى ذبولها. فلكي تبقى شجرة وجود الإنسان مصونة من الآفات، ينبغي أن نغذّيها بكل ما هو مناسب لها، فنبعدها عن اتّباع الميول الشهوانية والحيوانية، لأنّ نتيجة ذلك ليست إلا قسوة القلب.

ولأجل اقتلاع قسوة القلب والمعصية، ينبغي أن يتعرّف الإنسان على الآفات. وحيث إنّ منشأ جميع الآفات التي تؤدّي إلى ابتعاد الإنسان عن الحقّ تعالى وعن عالم المعنويّات هو الدنيا، نجد أنّ الله تعالى بيّن في كتابه العزيز، وبعباراتٍ مختلفة، خطورة ذلك وحذّرنا منه.

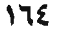

قد نجد في خطبةٍ واحدةٍ من خطب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ المذكورة في نهج البلاغة ذمًّا متكرّرًا لهذه الدنيا. وكان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يخوّف أصحابه دومًا من الدنيا، لأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم أنّ رأس جميع المصائب هو حبّ الدنيا. فما دام حبّ الدنيا في القلب لن يُوفّق الإنسان إلى نيل أي فضيلة أو كمالٍ.

ومن الممكن أن يقوم الإنسان بمجاهدة نفسه لسنوات وينال مجموعة من الكمالات ولكنّه بعد ذلك يضع سمًّا زُعافًا فيقضي عليها جميعًا، فلهذا نجد القرآن الكريم والنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ينبّهون الناس في العديد من المواطن إلى ضرورة اجتناب هذه الدنيا. ولا شك بأنّ التخويف من الدنيا لا يعني ترك واجتناب العلم والصناعة، وإنّما يعني عدم التعلّق القلبيّ بزخارفها واتّباع شهواتها. وبكلامٍ واحد إنّ التخويف من الدنيا إنما يكون لأجل عدم إعطائها الموقعية الأصيلة، بل اعتبارها وسيلة ومعبرًا إلى الآخرة.

ففي هذه الحال، تُصبغ جميع الأنشطة الإنسانية، ومن جملتها تلك المساعي، لتأمين المال والثّروة بالصّبغة الأخرويّة، ذلك لأنّ طلب الآخرة وطلب الدنيا مرتبطان بالدّافع والهدف الموجود عند الإنسان. فلو كان دافع الرّجل للزواج هو لمجرّد إرضاء شهواته، فهو طلب الدنيا. فمثل هذا لا يُفكّر سوى بإرضاء شهواته الحيوانية، وبالنسبة له لا يوجد فرق بين أن يتم ذلك عن طريق الحلال أو الحرام. ولكنّ الإنسان قد يندفع إلى الزّواج إطاعةً لأمر الرّبّ لأنّ الله أمره أن يبني أسرة. ولولا ذلك لما أقدم عليه حتّى لو كان يحقّق له الكثير من اللذّة، فمثل هذا الرجل لا يقدم على شيء إلّا امتثالًا لأمر الله، حتّى لو كانت آلاف الصعاب تحيط به.

إذا كنتم ترون البلدان الغربيّة في عصرنا الحالي تعاني من تفكّك الأسرة فذلك لشيوع ثقافة اللذّة الصرفة فيها. ومن هنا، فقد باتوا يرون أنّ تحصيل اللذات الجنسيّة من خلال الحرام أفضل من الزواج الحلال، وذلك لكي لا يتقيّدون بقيود الحياة العائلية ومسؤوليّاتها، فحين يرون أنّ للزواج مستلزمات تفرض عليهم تحمُّل الصّعاب والمشاكل يتركونه دفعةً واحدة.

وليس الأمر كذلك في المجتمع الإسلاميّ الأصيل. فما دامت القيم الإسلامية حاكمةً يتحمّل أبناء المجتمع الإسلاميّ مشاكل الحياة العائليّة، وذلك لأنّ الله تعالى يريد ذلك. ولا شك بأنّ الله تعالى وبلطفه قد مزج مثل هذا الأمر باللذّة. ففي

الزواج وإنجاب الأولاد لذائذ فطريّة وطبيعيّة، ولكنّه أيضًا محاطٌ بالصعاب. فلو تمتّع الإنسان بلذّات الدّنيا في سبيل الله فإنّ عمله هذا سيكون أمرًا مطلوبًا بل سيكون سلوكًا نحو الآخرة وليس طلبًا للدنيا. إنّ طلب الدنيا إنّما يكون حين تصبح لذّاتها هي الأصل.

حقارة الدنيا وصغرها في عين الله

ثمّ يذكّر النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبا ذر بشأن فناء الدنيا وذمّها: «**يا أبا ذر والذي نفس محمد بيده لو أنّ الدنيا كانت تعدل عند الله جناح بعوضة أو ذبابٍ ما سقى الكافر منها شربةً من ماء**».

إنّ حبّ الدنيا بلاءٌ يكاد يشملنا جميعًا. ولو لم نكن اليوم مبتلين به، فمن المحتمل أن يحصل هذا الابتلاء في المستقبل. لهذا، يجدر بنا أن نُعطي المزيد من التوجّه إلى كلام النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ونسعى للاستفادة منه على طريق تربية أنفسنا. قد يكون معيار القيمة عندنا هو اللذات الحيوانيّة، وبتبع ذلك فإنّ كل ما يُعجبنا أكثر يزداد قيمة عندنا، ويصبح مطلوبًا أكثر. ولكنّ الإسلام يعرّفنا على معيار آخر للقيمة، وهو تطابق الشيء مع إرادة الله. فإنّ الشيء يكتسب القيمة الحقيقية إذا كان ذا قيمة عند الله.

ويُقسم النبيّ بأنّ هذه الدنيا مع كل ما فيها من زخارف وبهارج والتي تهلك النفوس من أجل الوصول إليها وتُهدر الأعمار من أجل نيلها، لو كانت تساوي عند الله جَناح بعوضةٍ لما سقى الله الكافر منها شربةً من ماء. لو كانت هذه المحيطات والبحار ذات قيمة عند الله لما جعل الكافر يسيطر عليها ويتنعّم بها بل كانت حكرًا على أوليائه. (ولا شك بأنّ المقصود من الكافر هنا هو المعاند وعدوّ الدّين والذي لا يرضخ للحقّ، وليس ذلك الكافر المستضعف). فحين ترون الكافر والمسلم يتنعّمان معًا في الدنيا، فهذا دليل على أنّ الدنيا ليس لها قيمة ذاتية بل هي وسيلة اختبار.

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ﴾[١].

---

(١) سورة **التغابن**، الآية ١٥.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[١].

وفيما يتعلق بفناء الدنيا وبقاء ما عند الله يقول تعالى في آية أخرى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾[٢].

يتصوّر الإنسان أنّ لنعم الدنيا قيمة وكلّما ازداد تنعّمه بها ازدادت قيمتها. ولهذا، فإنّ الله تعالى يبيّن لنا خطأ هذا التصوّر بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾[٣].

والحقيقة أنّ الدنيا وسيلة اختبار وامتحان، فسواء تنعّم الإنسان بمالها أو حُرم منه يكون داخل الامتحان الإلهيّ. فلا التنعّم بالدنيا علامة العلوّ والكرامة، ولا الفقر والحرمان دليل المذلّة. وحيث إنّ الدنيا عند الله فاقدةٌ للقيمة فإنّ الله لا يحرم الكافر منها؛ وفي المقابل، فإنّ الجنة ونعمها هي القيمة الواقعية، ولهذا يُحرم الكافر منها: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٤].

فالقيمة كلّها للجنّة ونعمها ولا يليق بالكافرين أن يتنعّموا بها. وهذه القيمة الأصيلة في الواقع أُعدّت لأولياء الله خاصّة، ولا قيمة للدّنيا. فليتنعّم الكفّار بها وليكونوا بذلك أكثر من غيرهم وأشدّ سيطرةً على ثرواتها، فكلّما ازداد تنعّمهم بها زيد من عذابهم. وسوف يكون كل ما يستخدمونه مزيدًا في طغيانهم وانحرافهم عن مسير الحقّ.

والملفت هنا أنّ النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يستخدم القسَم عند بيان حقارة وضعة الدنيا في عين الله. فمن المعروف أنّ التصديق بهذا الأمر يُعدّ مطلبًا صعبًا بالنسبة للناس العاديّين: فكيف تكون هذه الدنيا مع كل ما فيها وبكلّ ثرواتها وإمكاناتها

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٩٦.

(٣) سورة **الفجر**، الآيتان ١٥ و١٦.

(٤) سورة **الأعراف**، الآية ٥٠.

ولذائذها بدرجة قيمة جناح البعوضة بل أقل!

وهذا التّساؤل لا يحكي إلّا عن قلّة اطّلاعنا على الحقائق وضعف بصيرتنا. لقد جعلنا الاهتمام بالمادّيات أساس الحياة وأعطينا الأصالة للدنيا، غافلين عن أنّ الدنيا لا قيمة لها عند الله وليست إلا وسيلة. فالقيمة الحقيقية إنّما هي لتلك الحسنات التي تؤدّي إلى سعادة الإنسان ونيل الرضوان. إنّ القيمة الواقعية تكمن في ذلك الشيء الذي يحقّق قرب الإنسان من الله، وهو الهدف الذي خُلق هذا الإنسان من أجله، وأُمر أن يستفيد من كلّ الوسائل المتاحة للوصول إليه.

الدرس الرابع عشر

مدح طلب الآخرة والزهد والبصيرة في الدين وذمّ طلب الدنيا

- ❖ ذم طلب الدنيا وبيان عظمة الإيمان
- ❖ ضرورة حبّ الآخرة
- ❖ خيرة الله تعالى لعبده

«يا أَبا ذَرّ، الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ وَمَلْعُونٌ ما فيها إلّا ما ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ وَما مِنْ شَيْء أَبْغَضَ إِلى اللهِ تَعالى مِنَ الدُّنْيا، خَلَقَها ثُمَّ عَرَضَها فَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْها وَلا يَنْظُرُ إِلَيْها حَتّى تَقُومَ السّاعَةُ وَما مِنْ شَيْء أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الإِيمانِ بِهِ وَتَرْكِ ما أَمَرَ بِتَرْكِهِ.

يا أَبا ذَرّ، إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى أَوْحى إِلى أَخي عيسى: يا عيسى، لا تُحِبَّ الدُّنْيا فَإِنّي لَسْتُ أُحِبُّها وَأَحِبَّ الآخِرَةَ فَإِنَّما هِيَ دارُ المَعادِ.

يا أَبا ذَرّ، إِنَّ جِبْرِئِيلَ أَتاني بِخَزائِنِ الدُّنْيا عَلى بَغْلَة شَهْباءَ فَقالَ لي: يا مُحَمَّدُ هذِهِ خَزائِنُ الدُّنْيا وَلا يَنْقُصُكَ مِنْ حَظِّكَ عِنْدَ رَبِّكَ. فَقُلْتُ حَبيبي جِبْرِئيلَ لا حاجَةَ لي فيها إِذا شَبِعْتُ شَكَرْتُ رَبّي وَإِذا جُعْتُ سَأَلْتُهُ.

يا أَبا ذَرّ، إِذا أَرادَ اللهُ عَزَّ وَجَل بِعَبْد خَيْرًا فَقَّهَهُ في الدّينِ وَزَهَّدَهُ في الدُّنْيا وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ».

تتعلّق الأجزاء التالية من هذا الحديث بذمّ الدنيا الذي مرّ قسمٌ من الحديث عنه سابقًا وبقي هذا القسم الآخر.

ذكرنا سابقًا أنّ ذمّ الدنيا لا يعني أن يتوقّف الإنسان عن السعي والعمل ضمن المجالات المختلفة للحياة الاجتماعية، وكذلك لا يعني أن يترك اكتساب المال والثّروة، بل المذموم منها هو تعلّق القلب بزينتها وجعلها هدفًا وغايةً في الحياة. وفي الواقع، فإنّ النيّة والدافع هما اللذان يوجّهان أعمال الإنسان ويكونان سببًا لإعطاء القيمة الواقعيّة لأي عملٍ يقوم به، بحيث يتّصف على أساسها بالقبح أو الحسن.

وبحسب ما ورد في الآيات الشريفة والروايات، فإنّ الإنسان يتحرّك ضمن مسيرٍ من الدنيا إلى الآخرة، وكذلك تكون الدنيا مزرعة الآخرة. فلهذا، يجب عليه أن

يعمل في الدنيا وأن يسعى فيها. فإذا كان سعيه وأنشطته الدنيويّة لله، فإنّه يصل إلى السعادة. وإذا لم تكن لله، بل كانت لذّاتها غايته، فإنّه سينجر إلى المعصية التي هي طريق جهنّم وبئس المصير.

ذمّ طلب الدنيا وبيان عظمة الإيمان

لقد سعى أولياء الله لتحذير المؤمنين من الدنيا والسعي لتحصيل لذائذها، كالممرِّض الذي يسهر على المريض ليدفع عنه كل ما يضرّه، وبعباراتٍ وبياناتٍ مختلفة حتى يتجلّى الوجه البشع لهذه الدنيا وينفر منها المؤمن. ومن جملة تلك البيانات ما نقرأه ها هنا في وصية النبيّ لأبي ذر: «**يا أبا ذر الدنيا ملعونةٌ وملعونٌ ما فيها إلا ما ابتُغي به وجه الله**».

ومن الواضح عند التأمّل في معنى هذا الحديث أنّ اللعن ليس متوجّهًا إلى نعم الدّنيا كالأرض والأشجار والسّماء، لأنّ كل ما يمكن أن يكون وسيلةً لتحصيل رضا الله لا يكون ملعونًا بل يكون مطلوبًا. فاللعن متوجّهٌ إلى كونها هدفًا وإلى جعلها أمرًا أصيلا. إنّ الله تعالى قد خلق الدنيا وما فيها لأجل أن يتقرّب الإنسان بها إليه، وقد جعلها سبحانه مسخّرة للإنسان لكي يستعين بها في هذا المسير. فإذا اختار هذا الإنسان دنياه كوسيلة للوصول إلى الله، فسوف تشمله رحمة الله. فهو قد اختار الهدف المطلوب وتحرّك نحوه. والإنسان العاقل لا يغفل أبدًا عن هدفه ويبقى نظره متوجّهًا إليه وإلى ما يوصله ويقرّبه منه. أمّا في غير هذه الحالة، ترتفع عنه الرّحمة لأنّه نسي الهدف الحقيقيّ من خلقه وخلق هذا العالم، واستبدل مسير السعادة بطريق الشقاء والخسران.

يُذكر أنّ أحد أصحاب الأئمّة عَلَيْهِ السَّلَامُ شكا إلى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ذات يوم انغماسه في تحصيل المعاش والعمل في الدنيا، فسأله الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: وما يحزنك؟ فقال ذلك الرجل: لأنّني أزداد ثراءً وأخاف أن أُصبح أسير هذه الدنيا. فأجابه الإمام: ولماذا تسعى لتحصيل وكسب هذا المال؟ فأجاب الرجل: لئلّا أكون وعيالي عالة على الآخرين، وأتمكن من مساعدة إخواني المؤمنين. فيجيبه الإمام: إن هذا هو طلب الآخرة وليس بطلب للدنيا، فلا خوف عليك من هذه الجهة. فالذي ينبغي أن يخاف هو من جعل لذّات الدنيا وشهواتها غايته.

«وما من شيءٍ أبغض إلى الله تعالى من الدنيا خلقها ثمّ عرضها فلم ينظر إليها ولا ينظر إليها حتّى تقوم الساعة».

وقد تعرّض أهل الله، لا سيّما إمامنا الراحل، في كلماتهم وكتبهم الأخلاقية لهذا المعنى وأكّدوا عليه كثيرًا. (وهو تعبيرٌ رائع ولأهلِ المعرفة كافٍ، لكي لا يرغبوا بهذه الدنيا في أيّ وقت من حياتهم).

ولا شك بأنّ الله تعالى يحب جميع خلقه من حيث إنّهم آثار أسمائه وصفاته، وحيث إنّ الدنيا ونعمها مظاهر هذه الصفات والأسماء، فإنّه تعالى سيشملها بعنايته إلى يوم القيامة. وحين يُقال بأنّ الله لا ينظر إلى الدنيا، فذلك من جهة النظر إليها على أنّها مستقلّة عنه وعلى أنّها الأصل. فهنا يأتي هذا السؤال: إنّ عناية الله ومحبّته بماذا تتعلّق في هذا الدنيا؟ وفي بيان هذه النكتة، يقول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: **«وما من شيء أحب إلى الله عزّ وجل من الإيمان به وترك ما أمر بتركه»**[١].

إنّ أحب شيء عند الله هو الإيمان الذي يأتي في الدرجة الأولى، والتقوى في الدرجة الثانية، التي يقف على رأسها ترك المعاصي والمحرّمات. ويُستفاد من هذه الرواية أنّ ترك المعاصي أولى من أداء الواجبات؛ هذا وإن أمكن القول بأنّ أداء الواجبات يُعدّ من مراتب الإيمان، لأنّ الإيمان يشمل الأعمال القلبية والأعمال الظاهرية التي يؤدّيها الإنسان بأعضائه وجوارحه.

فإذا صار ما في هذه الدنيا وسيلة إلى الإيمان واجتناب المعاصي يكون عند الله محبوبًا. لهذا، أمر الحقّ تعالى بالعديد من أمور الدنيا، حيث يمكن للإنسان بواسطتها أن ينال درجة التقوى والعمل الصالح وقرب الحقّ:

يروي الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عن النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: **«تسعة أعشار الرزق في التجارة»**[٢].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **«من تزوّج فقد أحرز نصف دينه**

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٠.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٦١، الصفحة ١١٨.

فليتقِ الله في النصف الباقي»[١].

أو ما ورد عنه عَلَيهِ السَّلَامُ: «**ما بُني في الإسلام بناء أحبّ إلى الله عزّ وجل وأعزّ من التزويج»**[٢].

ولا شكّ بأنّ هذه الأمور من الدنيا. ولكن بما أنّها أضحت وسيلة للعبادة ولأداء حقّ العبودية وترك المعصية، فقد صارت عند الله عزيزةً.

ضرورة حبّ الآخرة

«يا أبا ذر إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى أخي عيسى: يا عيسى لا تحبّ الدنيا فإنّي لست أحبّها، وأَحبَّ الآخرة فإنّما هي دار المعاد».

وفي هذا الكلام المنقول عن النبيّ عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ، يذكر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أنّ الله تعالى قد أوحى إليه أنّه لا يحب الدنيا فلا تحبّها. ومن الطبيعي أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ هو عدوّ الدنيا لأنّ معيار العداوة عند المعصومين تجاه أي شيءٍ أو شخصٍ هو بغض الله له وعداوته. ومن الطبيعيّ أنّ أفضل أسوة للمؤمنين وأتباع الحقّ في التعامل مع الدنيا هم الأنبياء والمعصومون وسيرتهم العملية.

ويصف الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ تعامل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ مع الدنيا بقوله: «**قد حقّر الدنيا وصغّرها... فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتّخذ منها رياشًا أو يرجو فيها مقامًا»**[٣].

هذا في حين أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ كان يمكنه أن يستفيد ويستخدم جميع النعم المادية وكما ذكر صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أنّ كل كنوز الدنيا قد قُدّمت له ولكنّه لم يقبل بها: **«يا أبا ذر؛ إنّ جبرائيل أتاني بخزائن الدنيا على بغلةٍ شهباء فقال لي: يا محمد هذه خزائن الدنيا ولا ينقصك من حظّك عند ربك».**

ولعلّ قول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ بأنّ جبرائيل قد جاءه على بغلةٍ حاملًا خزائن

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١٠٠، الحديث ١٤، الصفحة ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١٠٠، الحديث ٤٠، الصفحة ٢٢٢.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١٠٩، الصفحة ٢١٤.

الدنيا كناية عن أنّ هذه الدنيا تجمع اللذّة والألم والخير والشر، فلا يوجد أحد ليس في حياته سوى الألم أو ليس في حياته إلّا اللذة. فهذان الأمران يجتمعان في الجميع. وفي الواقع، فإنّ كل ألم يتضمّن لذّة، وفي جنب كل لذّة هناك ألم. وهما وسيلتان لاختبار الإنسان: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ (١)

والنقطة الأخرى أنّ جبرائيل يخبر النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه إذا أراد أن يستفيد من كلّ هذه الخزائن فلن ينقص من آخرته شيء. فمن آفات اللذائذ المادية أنّه كلّما استُفيد منها ازداد احتمال حصول المزيد من الخسارة على مستوى التنعّم الأخروي. ولكن هذا الأمر ليس واردًا بشأن أولياء الله والأنبياء. لهذا، كان جبرائيل يؤكّد للنبيّ أنّه لن يخسر أي شيءٍ من نصيبه الأخرويّ فيما لو استفاد من جميع خزائن الدنيا.

وهنا، يجيب النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ جبرائيل قائلًا: «**حبيبي جبرائيل لا حاجة لي فيها إذا شبعت شكرت ربّي وإذا جعت سألته**».

وإنّ أفضل حالة للمؤمن هي أن يستفيد من نعم الله ويؤدّي حقّ شكرها من جانب، ثمّ يشعر بالفقر والاحتياج إلى الله من جانبٍ آخر. ولا يتوقّف عن رفع يد الحاجة إليه سبحانه، ذلك لأنّ الإنسان موجودٌ ذو بعدين. فمن جانبٍ يحتاج إلى نعم الله وأداء شكرها . وهذا التوجّه إلى النعمة وشكرها طريق سعادته . ومن جانبٍ آخر، فإنّه يشعر بالفقر والاحتياج دومًا ممّا يجنّبه الوقوع في الغرور والغفلة. وبهذه الطريقة، لن يرى نفسه أفضل من الآخرين. لهذا، كان النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول إنّه لو أُعطي جميع ثروات الدنيا لما كان هذا الحصول ذا فائدةٍ بالنسبة له. فإنّ ما أحتاج إليه هو أن تبقى عيني ناظرةً إلى يد الله وأطلب النعمة منه وأؤدي شكرها.

خيرة الله تعالى لعبده

ثمّ يقول صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**يا أبا ذر إذا أراد الله عزّ وجل بعبدٍ خيرًا فقّهه في الدين وزهّده في الدنيا وبصّره بعيوب نفسه**».

فيُعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبده خيرًا يعطيه ثلاثة أمور:

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥.

١. معرفة الدين.

٢. الزهد في الدنيا والإعراض عن لذائذها.

٣. معرفة عيوب نفسه.

(وفي مقابل هذه السّمات الثلاث فإنّ أسوأ ما يقع فيه الإنسان هو الجهل بالدين وطلب الدنيا والرضا عن الذات وتتبّع عيوب الآخرين).

وبالالتفات إلى ما مرّ من مسائل وما سيأتي لاحقًا، نركّز الآن على قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «زهّده في الدنيا». ذلك لأنّ بحثنا الآن يدور حول موقع الدنيا ومنزلتها. فإذا شعر الإنسان في قلبه أنّه غير راغبٍ بالدنيا، وإنّما يسعى فيها بمقدار الكفاف وتأمين حاجاته الأساسية وأداء ما كُلّف به في الحياة، فليعلم أنّ الله تعالى أراد به خيرًا. وهذا بالطبع على أساس أحد المعاني، لأنّ الله تعالى يريد الخير للجميع. ولكن بناءً على إرادته التشريعيّة فقد أوجب سلسلةً من التكاليف على الجميع وحذّرهم من الوقوع في المحرّمات. فإذا اختار إنسانٌ ما الطريق الصحيح. هذا وإن كانت مقدّمات هذا الاختيار حاصلة بتوفيقٍ من الله. وقرّر أن يسلك طريق العبودية ويتعلّق بما يحبّه الله ويحبّ من أحبّ الله ويسلك سبيل الله فإنّ الإرادة التكوينية الخاصّة لله اقتضت أن يُوفّق هذا الإنسان: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[١].

وفي المقابل، فإنّ الله تعالى ليس له عداوةٌ خاصّة مع أحد أو. والعياذ بالله. يُدخل أحدًا النار من دون سبب. فالذي يختار السوء ويسلك سبيل الكفر والعصيان تشمله تلك الإرادة التكوينيّة الإلهيّة بشمول الذلّ وسلب التوفيق: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[٢].

فمن أراد الله تعالى به خيرًا، وفّقه لنيل ثلاثة أشياء: منها توفيق تحصيل العلم. وفي المقابل، إذا أراد بأحدٍ شرًّا حرمه من العلم. كما جاء في روايةٍ عن الإمام علي

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ١٩.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ١٨.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إذا أرذل الله عبدًا حظر عليه العلم**»[١].

إنّنا نشكر الله على أنّه وفّقنا من بين الكثير من عباده لمعرفة دينه. ويجب أن نعلم قدر هذا الفخر الكبير الذي أضحى من نصيبنا. فبسببه توفّرت لنا أرضية الاهتداء إلى الكمال. وممّا ورد في الأحاديث عنهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الكمال كلّ الكمال التفقّه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة**»[٢].

ومن هذه التّوفيقات الإلهيّة، عدم الرّغبة في الدّنيا والزّهد فيها وخفوت بريقها في القلب وعدم الوقوع في هوس زخارفها. وممّا يؤسف له أنّ مثل هذه الميزة ليست منتشرةً بيننا، فقد تعلّقت قلوبنا بلذّات الدّنيا. فلو كان الإنسان الذي حصل على تلك الحياة اللائقة طالبًا للزيادة ويسعى للسيّارة الفارهة واللباس الفاخر والأثاث كان ممّن يريد الدنيا وحرم من نِعم الجنة: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا**﴾[٣].

وقد ورد في تفسير هذه الآية روايةٌ تبيّن أنّ الإنسان حتّى لو رأى أنّ كعب حذائه أفضل من كعب حذاء أخيه لكان ممّن يطلب العلوّ والرفعة أو من المتكبّرين[٤]. لهذا، يجب أن يسعى الإنسان للتخلّص من التعلّق بالدنيا إلى هذا الحدّ. فالقلب ينبغي أن يتوجّه إلى الله وإلى الحياة الآخرة لا إلى الحذاء والسيّارة والأثاث. ذلك لأنّ القلب محل نزول نور الله: «**قلب المؤمن عرش الرحمان**»[٥].

فبالمقدار الذي ينحرف فيه القلب عن الله وينشغل بالدنيا، يبتعد صاحبه عن الكمالات المعنوية والأخروية ويُحرم منها. ومن كلام لعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في علاقة أنبياء الله بالدنيا: «**وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **كَافٍ لَكَ فِي الأُسْوَةِ وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.**

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٦٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الحديث ٥، الصفحة ١٧٢.

(٣) سورة **القصص**، الآية ٨٣.

(٤) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ٨٥.

(٥) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٥، الصفحة ٣٩.

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ **حَيْثُ يَقُولُ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] وَالله مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا يَأْكُلُهُ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.**

وإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ ويَقُولُ لِجُلَسَائِهِ أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.**

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ وَخَادِمُهُ يَدَاه»**[2].

فهل كان الله تعالى يكره أولياءه ليحرمهم لذائذ الدنيا؟! أم أنّ كل هذه الصعاب والآلام التي واجهوها في الدنيا أعدّها لهم لتكون وسيلة تكاملهم! وعلى امتداد محبة الله لهم!

ومن الضروري أن نؤكّد على ضرورة عدم الوقوع في الاستنباطات الخاطئة من هذه الروايات، كأن نقول إنّ علينا ترك العمل واختيار الانزواء والعزلة وترك تحمّل المسؤوليات وعدم السعي لكسب الحلال أو نُصرة الإسلام والمسلمين! لأنّ الحديث يدور حول تعلّق القلب بالدنيا وحول وجود حبّها في النفوس.

فلو وُضعت كل كنوز وثروات العالم بيد إنسانٍ وتنعّم بكل لذّاتها، ولم يكن قلبه متعلّقًا بالدنيا، فلن يُصاب بأي مكروه. مثلما كان سُليمان النبيّ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، الذي أُعطي كل ثروات العالم وذلك الملك العظيم في نبوّته، لم ينل ذلك من مقام ولايته شيئًا، لأنّ قلبه لم يتعلّق بالدنيا مقدار مثقال حبّة خردل. فلقد كان يأكل خبز الشعير ويستخدم كل ما أوتي من ثروةٍ وقدرة لأجل إعزاز دين الله. فحين كان يفتح البلدان أو يهدّد بالحروب، إنّما كان ذلك لبسط الحكومة الإلهية واقتلاع جذور الشرك من العالم، ولم يكن بداعي تحصيل لذّات الدنيا.

إنّ تواتر الروايات المتعلّقة بالزّهد الذي كان يعيشه أئمّتنا المعصومون

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٢٤.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٦٠، الصفحتان ٢٢٦ و٢٢٧.

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لا يُبقي في النفوس أيَّ شك أنّهم كانوا يعانون شجوبة العيش ولم يكونوا يطلبون الدنيا ولذّاتها. لقد كان نهجهم تحذير الناس من التعلّق بالدنيا، كانت عيشتهم عيشة أفقر الناس وكان شعارهم في الحياة الزهد. ومن خصائصهم العظيمة عبادة الله والقيام في السحر والمناجاة والدعاء والبكاء؛ وقد اعترف بذلك كلّ قريبٍ وبعيد من الشيعة والسنة، وأدركوا هذه الحقائق ودوّنوها.

وفي التربية، كان منهجهم يقوم على تحذير الناس من الدنيا واقتلاع جذور التعلّق القلبيّ بلذّاتها الماديّة، رغم أنّهم كانوا يوصون دائمًا بالعمل والسعي وكسب الحلال لكي لا يكونوا عيلة على غيرهم؛ وليس هذا إلا جمعًا بين الدنيا ورضا الله وإرادته ممّا لا يتيسّر للناس العاديين. وقد ظهرت تلك التصوّرات الخاطئة، منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، والتي انطلقت من الفهم الخاطئ لتلك الروايات التي تذمّ الدنيا أو الروايات التي تمدح العمل والسعي: فحين يرون ذمّ الدنيا يتصوّرون أنّه لا ينبغي أن نقوم بأي شيء فيها، وكأنّه ينبغي أن نعيش في كهفٍ ونصنع من أوراق الشجر ألبستنا! وإذا نظروا إلى تلك الروايات التي تمدح السعي والعمل كانوا يتصوّرون أنّ على الإنسان أن يفعل أيَّ شيء من أجل بطنه!

أمّا أتباع مدرسة أهل البيت فيعلمون أنّ العمل والسعي والاستفادة من نِعم الدنيا لا يتنافى مع طلب الآخرة، ويعلمون أنّ حبّ الدنيا يتنافى مع طلب الآخرة، ولا يمكن الجمع بينهما. فالإنسان لا يمكن أن يجمع في قلبه حبّ الله وحبّ الشيء الذي يبغضه الله. أمّا الدنيا التي تكون وسيلةً لنيل الآخرة وكسب رضا الله تعالى فليست مبغوضةً.

ولأجل معرفة الميزان الذي يمكننا استخدامه لتحديد مدى حبّ الدنيا والانقطاع عنها، لا يمكننا أن نجعل العمل الظاهري ملاكًا، بل الملاك كّل الملاك هو في النية والدافع الباطني. ولا شك أنّ النية قد تظهر أحيانًا في العمل كمثل الذي يدّعي أنّه قطع تعلّقه بالدنيا ولكنّه يسعى بكلّ جهده لتحصيلها ولا يجتنب حرامها. ومن المسلّم أنّ نيّة هذا الإنسان تتعلّق بطلب الدنيا. فالحل لا يأتي بالادّعاء بل بمعرفة ما في باطننا وما في نوايانا. وقد رأينا بعض الصوفية ينشدون الأشعار التي تذمّ الدنيا وتظهر عدم مبالاتهم بها، ثمّ وجدناهم في العمل لا ينفقون درهمًا واحدًا.

الدرس الخامس عشر

الحكمة والبصيرة وزاويةٌ من السيرة العملية للنبيّ (ص)

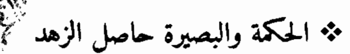

❖ الحكمة والبصيرة حاصل الزهد
❖ علامات أزهد الناس
❖ الأماني الطويلة وترك الوظيفة علامة ضعف التقوى والتوكل
❖ زاوية من السيرة العملية للنبيّ (ص)

«يا أَبا ذَرٍّ، ما زَهَدَ عَبْدٌ فِي الدُّنْيا إِلّا أَثْبَتَ اللهُ الْحِكْمَةَ في قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِها لِسانَهُ وَيُبَصِّرُهُ عُيُوبَ الدُّنْيا وَداءَها وَدَواءَها وَأَخْرَجَهُ مِنْها سالِمًا إِلى دارِ السَّلامِ.

يا أَبا ذَرٍّ، إِذا رَأَيْتَ أَخاكَ قَدْ زَهَدَ فِي الدُّنْيا فَاسْتَمِعْ مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ. فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَزْهَدُ النّاسِ؟ قالَ: مَنْ لَمْ يَنْسَ الْمَقابِرَ وَالْبِلى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيا وَآثَرَ ما يَبْقى عَلى ما يَفْنى وَلَمْ يَعُدَّ غَدًا مِنْ أَيّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتى.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَمْ يُوحِ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ الْمالَ وَلكِنْ أَوْحى إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنِّي أَلْبَسُ الْغَلِيظَ وَأَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ وَأَلْعَقُ أَصابِعِي وَأَرْكَبُ الْحِمارَ بِغَيْرِ سَرْجٍ وَأُرْدِفُ خَلْفِي، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

يبيّن النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وبأساليب مختلفة عيوب الدنيا ويذمّ طلبها. ويذكّر في المقابل بمزايا الزهد في الدنيا والإعراض عنها. وهذه البيانات المتعدّدة بأساليبها المختلفة التي صدرت عن النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ متضمّنة لتلك المسائل التربويّة في المجال الخاصّ، وإنّما صدرت مخاطبةً الاستعدادات والأذهان المختلفة وهو عملٌ شبيهٌ بالمعجزة. لقد بيّن تلك المطالب المتنوّعة وفي القوالب التربويّة والأخلاقية المختلفة ليستفيد كلّ واحدٍ منها بحسب ذهنيّته الخاصّة ويختار له ما يناسب روحه ويؤثّر فيها. وأحد الأساليب التي اختارها النبيّ هو مدح الزّهد والحثّ عليه وذكر آثاره القيّمة التي تحصل نتيجة للزّهد في الدنيا.

الحكمة والبصيرة حاصل الزهد

«يا أَبا ذَرٍّ؛ ما زَهَدَ عَبْدٌ فِي الدُّنْيا إلّا أَثْبَتَ الله الْحِكْمَةَ في قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِها لِسانَهُ وَيُبَصِّرُهُ عُيوُبَ الدُّنْيا وَداءَها وَدَواءَها وَأَخْرَجَهُ مِنْها سالِمًا إلى دارِ السَّلامِ».

يؤكّد النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في هذا المقطع على أنّ الزهد والإعراض عن الدنيا يجعلان قلب الإنسان مستعدًّا لاستقبال الحكمة وإدراك الحقائق. فالذين تعلّقت قلوبهم بالدنيا لا يمكنهم إدراك حقائق العالم. ذلك لأنّ حبّ الشيء يُعمي ويُصم. وحبّ الدنيا يؤدّي إلى غفلة الإنسان عمّا وراءها ووراء زخارفها. وفي المقابل، فإنّ الذين أعرضوا عن هذه الدنيا يُدركون الحقائق ويُشرفون على العالم فيمكنهم فيما بعد على ضوء مقابلة الدنيا بالآخرة أن يختاروا بنحوٍ الأفضل. ثمّ إنّ الزهد يعني عدم الرغبة بالشيء كما ورد بشأن إخوة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ﴾[1].

الزهد في الدنيا يعني عدم الرغبة بها، وإن كان هذا الإنسان صاحب ثروة وإمكانيات إلّا أنّه يفكّر دومًا في طرق إنفاقها في سبيل الله، من دون أن يكون مهتمًّا بجمعها. فمثله مثل سليمان النبيّ، الذي بلغ ما بلغ من السلطان والثروة، ولكن كانت له تلك الحالة التي اقتنع فيها من الدنيا بخبز الشعير.

وفي بيان معنى قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**أثبت الله الحكمة في قلبه**» من اللازم أن نذكر عدّة نقاط:

١. هناك علاقة وثيقة بين الزهد في الدنيا ونيل المعارف الإلهية. فلا يمكننا أن نجد إنسانًا قد تعلّق قلبه بالدنيا مع بقاء روحه عابقة بالمعارف الإلهية.

٢. إنّ الحكمة التي هي حاصل الزهد في الدنيا تمنح معارف الإنسان وعلومه ثباتًا، وتحول دون حصول التزلزل الاعتقاديّ، ومن الممكن مثلًا أن ينال الإنسان معرفةً ما أو يدرك حقيقةً، ولكن هذه المعرفة تكون متزلزلةً وغير ثابتة لأنّه لم يصل فيها إلى اليقين، ولم ترسخ في قلبه. وفي المباني العقائديّة، فإنّ ثبات المعارف بالإضافة إلى أصل العقيدة له أهميّته

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٢٠.

الخاصّة. ولهذا، فإنّ الاعتقادات الموسميّة أو المؤقّتة ليس لها تلك القيمة، بل قد يكون لها دورٌ سلبيّ، ونلاحظ في ذلك ذمّ مثل هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[١].

٣. حين تثبت الحكمة، فإنّها لا تنحصر في إطار القلب، بل تظهر آثارها في اللسان والعمل والسلوك. فمن ثبتت الحكمة في قلبه يصبح حديثه حكيمًا، وتلك الجوهرة التي أضحت في قلبه تجري ينبوعًا على لسانه: فيترك الفضول من الكلام واللغو ويكون واعظًا مرشدًا لغيره كلقمان الحكيم الناطق بالحكمة اللائقة والعظيمة.

أجل، إنّ اللسان مِعبر القلب، وبعبارةٍ أخرى: إنّ حالات القلب الإنساني تظهر من خلال مجرى لسانه. ولا ينحصر الأمر باللسان، بل يعم سائر الأعمال والتصرّفات.

والأثر الآخر للزّهد في الدنيا هو أن تنكشف عيوبها للزاهد فيها. فإذا تحرّر الإنسان من التعلّق القلبيّ بالدنيا، أبصر عيوبها ونقائصها وضِعتها، ولا يُنتظر من أهل الدنيا أن يروا ويشاهدوا عيوب محبوبهم ومعشوقهم (الذي هو هذه الدنيا) ذلك لأنّ التعلّق القلبيّ بها يعمي الإنسان عن رؤية تلك العيوب ويُصمّ أذنيه عن استماع نقائصها. بل على العكس من ذلك، سوف يرى هؤلاء قبحها جمالًا ويرون تصرّفاتهم السيّئة فيها جميلة. كلّ ذلك على أثر التعلّق المفرط بها. ونلاحظ ذلك في الكتاب المجيد كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[٢]؛ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[٣]؛ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[٤].

وهذه التعابير المختلفة تحكي عن هذه الحقيقة: وهي أنّ التعلّق بالدنيا يؤدّي إلى أن تبدو هذه الدنيا وتلك التصرّفات الدنيوية بنظر أهلها جميلةً، وكلّما ازداد هذا التعلّق، أصحبت الدنيا، وحتّى عيوبها، أكثر جمالًا في نظره، وذلك لأنّ العاشق لا يرى قبائح معشوقه وعيوبه، ومن المسلّم أن مثل هذا الإنسان لا يرى

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

(٢) سورة **النمل**، الآية ٤.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ١٨.

(٤) سورة **النمل**، الآية ٢٤.

سوى الظاهر الخدّاع للدنيا وهو عاجزٌ عن فهم باطنها والنظر إلى ضعتها وحقارتها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

وفي المقابل، فالذين أدركوا الواقع وأعرضوا عن الدنيا يرون حقيقة محاسنها ومساوئها. وهذه الطائفة، خلافًا لأهل الدنيا الذين لا يرون من هذه الحية الرقطاء سوى مظهرها الجميل وليونتها، يعلمون بخطرها وما فيها من سمّ: «**مثل الدنيا كمثل الحية ليّن مسّها والسمّ الناقع في جوفها يهوي إليها الغرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل**»(٢).

أجل، إنّ بصيرة وذكاء أهل الله يحولان دون انخداعهم بهذا الظاهر. ومثل هذه الرّؤية العميقة التي حازوا عليها هي المائز الأكبر بينهم وبين أهل الظاهر الذين لا يرون سوى عالم المادة. يقول الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إنّ أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجِلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم**»(٣).

ثمّ يضيف النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر إذا رأيت أخاك قد زهد في الدنيا فاستمع منه فإنّه يُلقّى الحكمة**».

وفي هذا الكلام الذي يؤكد على العلاقة الموجودة بين الزهد والحكمة في القلب، يتبيّن أنّ من زهد في الدنيا فقد أدرك الحكمة. وإذا تكلّم تكلم بحكمة، لأنّ من انقطع عن الدنيا خرج الكلام من قلبه ليستقرّ في القلوب. فالزاهد يثبت بعمله أنّه معتقدٌ بما يقول. ومن المتوقّع عندئذ أن يكون مثل هذا الشخص في كلامه حكيمًا.

وفي المقابل، إنّ من استغرق في الدنيا ولذّاتها، لن يكون له نصيبٌ من الحكمة والمعرفة، وسوف تعمي أرجاسُ الدنيا عينيه عن رؤية الحقائق، ولا يكون في حديثه فائدةٌ أو شيءٌ من الحكمة.

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٧.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، كلامه ١١٩، الصفحة ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، كلامه ٤٣٢، الصفحة ١٠١.

علامات أزهد الناس

ثمّ يصل الأمر إلى أبي ذر وقد تعلّق بالزاهدين وانجذب إليهم، فيسأل النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ عن علامات أزهدهم لكي يؤسّس تلك العلاقة القويّة معهم. ويكون جواب النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ له بذكر خمس علاماتٍ لأزهد الناس:

١. «من لم ينسَ المقابر والبلى»

وهذه الخاصيّة الأولى تدلّ على ارتباط الإنسان بعالم القبر والفناء.

فأهل الدنيا هم في طلبٍ دائم لها ولمظاهرها ولعمارتها ويتحسّرون من كلّ ما لم يكن بيدهم. أمّا الذي أعرض عنها فإنّه يفكّر دومًا بالقبور والخراب الحاصل في الدنيا، ذلك لأنّها علائم الفناء والزوال. فالزاهد لا ينسى القبور والبلى والأماكن التي أضحت خرابًا. ولا يعني ذلك بالطّبع أن يعيش هذا الإنسان بين المقابر، ولكن المقصود أنّ هذا الإنسان يزور القبور من حينٍ إلى آخر ويعتبر منها.

إنّ أهل الدنيا إذا مرّوا قرب المقابر عبروا بسرعة وخافوا من ذكر الموت والقبر، لكي لا يتكدّر صفو عيشهم. فإذا ذُكر الموت أمامهم انزعجوا وعدّوا ذلك أمرًا خاطئًا. وعلى العكس من ذلك، نرى الذين سلكوا طريق الآخرة يتذكّرون الموت دومًا ولا ينسونه.

٢. «وترك فضل زينة الدنيا»

والخاصية الثانية لأزهد الناس هي ترك ما فضُل من زينة الدنيا.

إنّ من المسلّم احتياج الإنسان إلى بعض إمكانات الدنيا ممّا له دخلٌ في استمرار حياته ومعيشته كاللباس والمسكن والغذاء والزينة. وقد يكون لهذه الأمور دورٌ في تكامله. ولهذا، فإنّ الشريعة المقدّسة لم تمنع عن تلك الأمور بل رغّبت بها أيضًا: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[١].

فالمطلوب هو الاستفادة ممّا هو ضروريٌ من إمكانات الدنيا وزينتها وغضّ النظر عن كل زينةٍ زائدةٍ لا يحتاج إليها كل عاقل، بل إعطاءها إلى من يحتاجها.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٣٢.

فإذا لم يقنع الإنسان بذلك لم يبقَ من حدٍّ أو ضابطةٍ، وصار أكبر همّه تحصيل المزيد من لذائذها وزينتها. ولن يتوقّف عند حدّ تغيير الأثاث وورق الجدران والستائر وشراء سيارة حديثة فارهة، لأنّ طبيعة الإنسان إذا أُطلقت في طلب أنواع المشتهيات لن تشبع ولن تعرف حدًّا.

ومسلّم أيضًا أنّ مثل هذا الشّخص ليس زاهدًا؛ فالزاهد هو الذي يكتفي بالضرورة من الدنيا. فما يريده من المسكن هو ما يأويه ويستر عورته، ولا شغل له بالدّور والقصور. ولو كان بحاجة إلى سيارة فإنّه يكتفي بما يؤمّن له تحرّكاته من دون النّظر إلى طراز السيّارات وفخامتها.

وفي هذه الجملة، يؤكّد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على ترك الزينة الزائدة، فإنّ الاستفادة من الزينة من ضرورات الحياة ولوازمها سواءٌ على المستوى الفرديّ أو العائليّ. وليست الاستفادة من الزينة اللازمة مذمومة بل هناك توصية بها كتزيّن الرجل لزوجته أو المرأة لزوجها واللباس النظيف وتجميل المظهر والتعطّر وأمثال ذلك. وفي الأساس، إنّ منزلة الإنسان المؤمن تقتضي أن يكون مجتنبًا لملوثات الظاهر والباطن والروائح الكريهة التي تؤدّي إلى نفور الآخرين منه.

بالتالي، فقد أكّد الإسلام على ضرورة نظافة اللباس والبدن والاهتمام بالمظهر. هناك توصيات كثيرة بأنّ على الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المسجد أو إلى جماعة أن يتطيّب بالعطر، وأن يتجنّب كل رائحةٍ كريهة تزعج الآخرين. وكذلك، تلك التوصياتُ المؤكّدة على التعطّر أثناء الصلاة، وأنّ ركعتين يؤدّيهما بعطرٍ لهما ثواب سبعين ركعة.

ففي الكلام تأكيدٌ على ترك الزينة الإضافية التي ليس فيها أي حكمة عقلائية أو إعانة على تكامل الإنسان. هذه الزينة التي لا تدلّ إلّا على الإكثار من متع الدنيا ولذّاتها.

وممّا جاء في مكارم الأخلاق في ذكر صفات النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**إنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ فِي الْمِرْآةِ وَيُرَجِّلُ جُمَّتَهُ وَيَتَمَشَّطُ وَرُبَّما نَظَرَ فِي الْماءِ وَسَوَّى جُمَّتَهُ، فيهِ ولَقَدْ كَانَ يَتَجَمَّلُ لِأَصْحابِهِ فَضْلًا عَلى تَجَمُّلِهِ لِأَهْلِهِ**، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **إِنَّ الله يُحِبُ مِنْ عَبْدِهِ إذا خَرَجَ إلى**

إخْوانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ»[١].

٣. «وآثر ما يبقى على ما يفنى»

والخاصية الثالثة لأزهد الناس هي أنّه يقدِّم الباقي على الفانّي والزائل.

فإذا دار الأمر بين اللذات العابرة الفانية واللذات الدائمة الباقية، فإنّه يغضّ النظر عن اللذات الفانية ويرجّح اللذات الخالدة.

كما أنّه يرجّح تحمّل المشاق والمشاكل الناجمة عن أداء التكليف على الراحة والدعة في الدنيا، لأنّ عينه البصيرة قد نفذت أفق العالم وشاهدت المقصد وعلمت أنّ الدّنيا ليست سوى جسر للعبور: ﴿**وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[٢]

٤. «ولم يعدّ غدًا من أيّامه»

٥. «وعدّ نفسه من الموتى»

والخاصية الرابعة والخامسة لأزهد الناس هي أنّه لا يعدّ الغد من عمره بل يرى نفسه ميّتًا.

يجب أن يكون الإنسان مهتمًّا بوظيفته وتكليفه، ولا يُقصِّر في سعيه وعمله. ومن كان كذلك ينفر من الراحة والدعة واللهو لأنّها لا تنسجم مع سعيه وهدفه. وأهل الدنيا في سعيٍ حثيثٍ لتحصيل وسائل اللهو والراحة، فإذا جاء وقت العمل والسعي، مثل الدرس والبحث والمطالعة وأمثالها من الأمور الضروريّة، فإنّ طبيعته وروحيّته الطالبة للراحة تمنعه من النشاط وتطلب منه إيكال الأعمال إلى الغد، وهو غير مستعدّ لإحداث أي خلل في سعيه للراحة.

وفي الواقع، إنّ التسويف وإيكال الأعمال إلى الغد، إنّما ينشأ من هذه الأماني الطويلة والأمل بأنّه سيعيش إلى ما بعد الغد. وهذا ما يدفعه لتأخير أداء ما عليه من تكاليف يومية.

من الطبيعي أنّ نيل تلك الأماني الطويلة يتطلب عمرًا مديدًا، ولهذا فإنّ أهل

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ٢٤٩.

(٢) سورة **الأعلى**، الآية ١٧.

الدنيا يريدون العيش المديد. ومثل هذه الأمنية تؤدّي إلى التسويف والتأجيل. وحين يقلق ويخاف من عدم نيل مبتغاه يعيش القلق والاضطراب.

أمّا الإنسان الزاهد المعرض عن الدنيا، فإنّه يؤدّي ما عليه اليوم. ولا يرى أنّ الغد سيكون من عمره! فعلى أيّ أساس يكل ما عليه إلى اليوم التالي؟ فهو غير معتدٍّ أو مطمئنٍ بما سيأتي. أمّا إذا كان هناك من غدٍ يأتي، فسوف يكون له وظيفة أخرى.

الأماني الطويلة وترك الوظيفة علامة ضعف التقوى والتوكّل

وكما أشرنا سابقًا، فإنّ الكثير يعيشون الأماني الطويلة ويتوقّعون أن يعمّروا في هذه الدنيا طويلًا، فيعملون لذلك الغد ويحيط بهم القلق من الآتي.

يقلقون من أنّهم إذا لم يلتحقوا بالجامعة فلن يجدوا عملًا مناسبًا في المستقبل. يقلقون ممّا سيأتي عليهم في عيشهم المستقبلي. كل ذلك القلق ناشئٌ من عدم وجود روح التقوى والتوكّل! فمن توكّل على الله ونظر إلى لطفه وعنايته به لا يقلقه الغد، لأنّ ربّه مالك كلّ شيء. هذا بالإضافة إلى أنّنا نسأل من أقلقه الغد: من أين لك أن تعلم بأنّ الغد آتٍ!

يحكم الإسلام وتدلّنا المعرفة الدينية على أنّ على الإنسان السعي لأداء ما عليه، ولا ينبغي أن يغتمّ من الآتي. فلا يعلم هل سيعيش إلى ساعةٍ أخرى أم لا. ولا شك بأنّ القلق على الحرمان من الدنيا ولذّاتها الآتية هو المذموم. أمّا إذا عمل بما يجب عليه في يومه، ثمّ خطّط لما سيأتي من أعمالٍ ووظائف، فإنّه يكون قد قام بعملٍ حسن. لا بل إنّ هذا التخطيط يُعدّ من التكاليف اليومية.

هذا وإن كان لكلّ تكليف ووظيفة وقته الخاصّ، وسيتعلّق به الوجوب في ذلك الوقت، فصلاة اليوم واجبةٌ عليه ولا يجب عليه أداء الصلوات الآتية في الغد. فإذا بقي إلى الغد تجب عليه في وقتها. كذلك بقية الوظائف والتكاليف، فلكلّ واحدٍ منها ظرفه الزمانيّ الخاصّ، يتحقّق الوجوب فيه. ولهذا، لا يعرض على الزاهد القلق من الغد ووظائفه وتكاليفه، ولا يهمّه في أي دنيا يكون، ولكن قلقه من الغد الحتميّ ليوم الآخرة، لأنّه لا مفرَّ من ذلك الموقف! هذا، وإن كان الفرار من العاقبة بالنسبة للبعض مفرحًا.

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[١].

ثمّ يوصي النبيّ الأكرم أبا ذر بما يتعلّق بجمع المال قائلا: «**يا أبا ذر؛ إنّ الله تبارك وتعالى لم يوحِ إليّ أن أجمع المال، ولكن أوحى إليّ أن:** ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ *

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[٢].

فلو كان جمع المال وكنز الثروة مطلوبًا وسببًا للكمال والسعادة لأوصى الحقّ تعالى نبيّه به. لكنّ الله لم يوصِ بذلك، بل أوصى بالتسبيح والعبادة والتضرّع إليه حتّى آخر العمر.

ولا شك بأنّ للعبادة والعبودية مظاهر متعدّدة: فأحيانًا تكون العبادة متمثّلة بتلك العبادات الفردية وقيام الليالي، وأداء الواجبات والمستحبّات المعروفة. وأحيانًا أخرى، تكون بالقيام بالأعمال الاجتماعية وتحصيل العلم والتدريس والتبليغ ونشر الثقافة الإسلامية، وما اقتضته المسؤولية الشرعية.

زاوية من السيرة العملية للنبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ

والذين يؤمنون بأنّ النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ هو أفضل أسوة وقدوة لهم، يجب أن يسعوا إلى تطبيق سلوكهم بسلوكه والتشبّه به مهما استطاعوا. ولهذا، بيّن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ لأمثال هؤلاء في المقطع الأخير جانبًا من سيرته العملية:

«**يا أبا ذر إنّي ألبس الغليظ وأجلس على الأرض وألعق أصابعي وأركب الحمار من دون سرجٍ وأردف خلفي فمن رغب عن سنّتي فليس مني**».

وكان النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ يمتلك تلك القدرة في التصرّف التكوينيّ بحيث جُعلت الدنيا كلّها بيده، وقد حدّد ميزانًا للاستفادة من الإمكانات المادية وذلك على أساس تأمين الحاجات الأساسية.

وقد مرّ معنا أنّه قد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ إنّ جبرائيل قد أتاه وجعل كل كنوز الأرض

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ١٨.

(٢) سورة **الحجر**، الآيتان ٩٨ و٩٩.

بيده، ولكنّه امتنع عن ذلك. وفي هذا المقطع يبيّن لنا قناعته وبساطة عيشه وسلوكه الاجتماعيّ: وحيث أنّ نمط حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وهو أفضل مخلوقٍ في الوجود وهو حامل الوحي . قد لفت أنظار المسلمين وغير المسلمين، فقد كانت جميع أحواله وحتى جزئيات حياته وسلوكه الاجتماعيّ تُلاحظ بدقّة من قِبل أصحابه. ولهذا، نُقل الكثير من جزئيات سلوكه على لسان أهل بيته وأصحابه والتابعين وغيرهم. هذا، بالإضافة إلى أنه قد بيّن بنفسه في العديد من الموارد طريقة عيشه كما نلاحظ في هذا المقطع لكي يتّخذ أصحابه وأتباعه من سلوكه أسوة لهم.

فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول إنّه يلبس اللباس الخشن ويجتنب ذلك اللباس الناعم. ويجلس على الأرض، ولم يجلس على الأثاث الفاخر. وكان مقيّدًا بأن يأكل بيده ويلعق أصابعه بعد الطعام، ويركب الحمار العاري بل يُركِب معه غيره. وفي هذا البيان، يظهر تواضع النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وذروة عبوديته. وما أعجب هذا التواضع في بيئةٍ كانت تتشدّق بالتفرعن والتكبّر والوجاهة، فخالفها إلى حدّ أنّه كان يركب الحمار العاري بل يُردف معه غيره أيضًا!

وفي المقابل، نحن الذين ندّعي أنّنا أتباعه نفكّر دومًا في ارتداء أفضل اللباس والحصول على ألذّ الأطعمة، والوصول إلى مستوى تلك الحياة المريحة والهانئة. نريد أن نحصل على السيارات الحديثة والفارهة ونستفيد من كلّ زينةٍ وكماليات ممكنة.

وينبغي أن نقول إنّه لا يُتوقّع في زماننا هذا أن يكون نمط عيش الناس مشابهًا تمامًا لنمط عيش النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لأنّ مستوى المعيشة والأوضاع الاقتصادية تختلف بين زمنٍ وآخر، ومع تقدّم العلم والتكنولوجيا تحقّق الكثير من التقدّم على مستوى نمط العيش ووسائله. فما ينبغي رعايته هو تلك القوانين والأصول الثابتة للإسلام، وينبغي رعاية شأن كل فردٍ في طريقة عيشه بما يقتضيه ذلك الزمان والابتعاد عن حياة البذخ والسرف والترف.

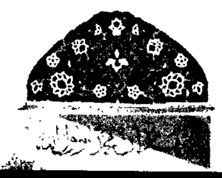

الدرس السادس عشر

خطر حبّ المال والمقام ومدح القناعة وبساطة العيش

❖ الدنيا: هدف أم وسيلة؟

❖ الدنيا المذمومة

❖ المؤمن الفقير خفيف يوم القيامة

❖ مدح القناعة وبساطة العيش وذمّ الازدياد

❖ مدح الانقطاع عن الدنيا والإعراض عنها

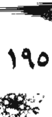

«يا أَبا ذَرٍّ، حُبُّ الْمالِ وَالشَّرَفِ أَذْهَبُ لِدينِ الرَّجُلِ مِنْ ذِئْبَيْنِ ضارِيَيْنِ في زَرْبِ الْغَنَمِ فَأَغارا فيها حَتّى أَصْبَحا فَماذا أَبْقَيا مِنْها. قالَ، قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، الْخائِفُونَ الْخاضِعُونَ الْمُتَواضِعُونَ الذّاكِرُونَ اللهَ كَثيرًا أَهُمْ يَسْبِقُونَ النّاسَ إِلَى الْجَنَّةِ؟

فَقالَ: لا، وَلكِنْ فُقَراءُ الْمُسْلِمينَ فَإِنَّهُمْ يَتَخَطَّوْنَ رِقابَ النّاسِ، فَيَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ كَما أَنْتُمْ حَتّى تُحاسَبُوا، فَيَقُولُونَ بِمَ نُحاسَبُ فَوَاللهِ ما مَلَكْنا فَنَجُودَ وَنَعْدِلَ وَلا أُفيضَ عَلَيْنا فَنَقْبِضَ وَنَبْسُطَ وَلكِنّا عَبَدْنا رَبَّنا حَتّى دَعانا فَأَجَبْنا.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ الدُّنْيا مَشْغَلَةٌ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدانِ وَإِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى سائِلُنا عَمّا نَعِمْنا في حَلالِهِ فَكَيْفَ بِما نَعِمْنا في حَرامِهِ.

يا أَبا ذَرٍّ، إِنّي قَدْ دَعَوْتُ اللهَ جَلَّ ثَناؤُهُ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَ مَنْ يُحِبُّني الْكِفافَ وَأَنْ يُعْطِيَ مَنْ يُبْغِضُني كَثْرَةَ الْمالِ وَالْوَلَدِ.

يا أَبا ذَرٍّ، طُوبى لِلزّاهِدينَ في الدُّنْيا، الرّاغِبينَ فِي الْآخِرَةِ، الَّذينَ اتَّخَذُوا أَرْضَ اللهِ بِساطًا وَتُرابَها فِراشًا وَماءَها طيبًا وَاتَّخَذُوا كِتابَ اللهِ شِعارًا وَدُعاءَهُ دِثارًا يَقْرِضُونَ الدُّنْيا قَرْضًا.

يا أَبا ذَرٍّ، حَرْثُ الْآخِرَةِ الْعَمَلُ الصّالِحُ وَحَرْثُ الدُّنْيا الْمالُ وَالْبَنُونَ».

الدنيا: هدفٌ أم وسيلة؟

بناءً على أسس الرؤية القرآنية، إنّ الدنيا إذا لم تكن موجودة فلا وجود للآخرة أيضًا. فنحن نبني الحياة الآخرة بأعمالنا وسلوكنا في الدنيا، كما ورد في بعض الروايات أنّ «**الدنيا مزرعة الآخرة**». فإذا لم تكن الدنيا، لن يدخل أحد من البشر جنّة الخلد،

لأنّ نِعم الجنة ليست إلّا ثواب أعمال الدنيا. تلك الكرامات والفضائل والمقامات الأخروية هي حاصل مساعي وأعمال الإنسان في الدنيا. وعليه، فإنّ للدنيا قيمة كبيرة. وبالالتفات إلى هذه الحقيقة، يبرز السؤال حول هذا الذمّ والتقبيح المنتشر في الروايات بشأن الدنيا التي لها مثل هذه القيمة المذكورة.

وفي الجواب ينبغي أن نقول: إذا نظرنا إلى الحياة الدنيا كمخلوق من مخلوقات الحكيم فلا عيب فيها. وفي الأصل، فإنّ نظام الحياة الدنيا هو أفضل نظام متصوَّر، وهو في غاية الإتقان والجمال. لهذا، ينبغي أن نبحث عن هذا الإشكال من الأساس في مكانٍ آخر. وإذا دقّقنا قليلًا في الآيات والروايات لوجدنا أنّ العيب والإشكال يتعلّق بكيفية تعلّق الإنسان وكيفية تعامله مع الدنيا. فإنّ هذا النحو من التعامل مع الدنيا هو الذي يحدّد مصير الإنسان ومستقبله: إذا كان نافعًا أم مضرًّا، ذا قيمة أم لا، حسنًا أم سيّئًا. واذا استثنينا أفعال البشر وسلوكهم فأيّ عيب أو إشكال يمكن أن نوجّهه إلى هذه الدنيا؟ اللهمّ إلّا في بعض الموارد النادرة التي تظهر فيها تلك الشرور والنقائص على أثر التزاحم الحتميّ للكائنات والموجودات! هذا بالإضافة إلى أنّ هذه الشرور والنقائص ليست بشيء إذا قورنت بالخيرات والكمالات الوافرة للدنيا.

وهكذا، يتّضح أنّ الذم والإشكال يتوجّه إلى كيفية نظرة الإنسان وعلاقته بالدنيا. تلك العلاقة التي تتشكّل على أساس إعطاء الأصالة للدنيا والرؤيا المادية: رؤية أولئك الذين لا يرون وراء الحياة الدنيا من حياة أخرى. وليس هذا الزعم الباطل وهذه الرؤية المحدودة إلّا خطأ كبير، يستتبع أخطاءً لا حدّ لها على مستوى الأعمال والسلوك الإنساني.

لهذا، ينبغي أن نصحّح نظرتنا إلى الدنيا ونعلم أنّ حياة الإنسان لا تنحصر فيها، بل هناك حياة أخرى خالدة وراء هذه الحياة. وإذا عدّ الإنسان هذه الدنيا معبرًا وممرًّا، وليست مقصدًا نهائيًّا وهدفًا، فمن الطبيعيّ أن يسعى لتأمين وتهيئة مجموعة من الوسائل كالمال اللازم وغيره من الأمور الضرورية للوصول إلى الكمال المطلوب. ففي هذه الحالة، تصبح الأطعمة والألبسة والمسكن والسيارة والمال والرئاسة مقدّمة ووسيلة وليست هدفًا أساسيًّا. أمّا إذا عدّها هدفًا نهائيًّا ولم ينظر إليها كمقدّمة ووسيلة، فإنّها تمنعه من الوصول إلى الكمال الإنساني والهدف

النهائيّ الذي خُلق لأجله. وبهذه الطريقة تصبح كل هذه الأمور مذمومةً.

الدنيا المذمومة

وبالالتفات إلى ما ذُكر، يقول النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وهو يذمّ حبّ المال والجاه: «**يا أبا ذر؛ حبّ المال والشرف أذهب لدين الرجل من ذئبين ضاريين في ذرب الغنم فأغارا فيها حتى أصبحا، فماذا أبقيا منها!**».

ولأجل تخويف أمّته وتحذيرهم من خطر حبّ الدنيا والتعلّق بجاهها ومالها شبّه النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هذه الأمور بذئبين ضاريين أغارا على قطيعٍ من الغنم في حظيرةٍ، وبقيا فيها حتى الصباح. فمن الطبيعيّ أنّ الذئب إذا هجم على قطيع غنمٍ لا يقنع بواحدةٍ منها، بل يستمر في قتلها حتى ينهيها ويبدأ بالتهامها كلّها. فإذا أغارَ ذئبان ضاريان على قطيع غنمٍ هل سيبقيا شيئًا منها!

وإنّ خطر حبّ الدنيا وحبّ الرئاسة على دين الإنسان والقيم الأخلاقية أعظم من خطر هجوم الذئبين الضاريين على قطيع غنم. لأنّ حبّ الدنيا والرئاسة يذهبان بهوية الإنسان المعنوية ويقضيان على دينه بالكامل، أي ما يمنحه شخصيته وحياته الواقعية.

(ومضمون هذا الكلام مستفيضٌ بل متواترٌ في رواياتنا وقد نقل بعباراتٍ مختلفة. حتى أنّ الكليني قد عقد في **أصول الكافي** بابًا خاصًّا لذمّ حبّ المال والرئاسة).

وهذا الكلام ليس جزافًا، بل هو حقيقةٌ في قالب التحذير يتوجّه إلى المسلمين. هذه الواقعية التي تؤيّدها التجربة التاريخية أيضًا. ومن صدر الإسلام وإلى اليوم، نجد أنّ أصل جميع الخيانات التي ارتُكبت بحقّ الإسلام كانت من حبّ المال والرئاسة، لأنّ ضرر الذي شُغف بمال الدنيا ورئاستها هو أعظم على الدين من أيّ عدوٍّ آخر. إنّ تغيير مسيرة خلافة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ واغتصابها واستمرار الحكومات الظالمة والباطلة وكل الضربات التي أُنزلت بجسم الإسلام إنّما نشأت من حبّ المال والرئاسة. فمع التوجّه إلى خطر حبّ المال والجاه على الدين يجب أن نكون يقظين، وما دمنا شبابًا ولم ترسخ فينا هاتان الخصلتان فينبغي أن

نواجههما، ولا نسمح لهما بأن يتجذّرا في قلوبنا. فإذا حصلنا على المال فليكن ذلك بحدود ما نحتاجه، ثمّ ننفق ما بقي منه على الفقراء والأقارب والإخوان. ولنسعَ لأن ننفق ذلك المال الذي تعلّقت قلوبنا به في سبيل الله تعالى، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

(ولا شك بأنّ الإنسان إذا أنفق ممّا يحب فإنّه يحول دون رسوخ محبة المال في القلب).

ويمكن أن نبيّن شبيه ما ذكرنا في مجال مواجهة رذيلة حبّ الرئاسة حيث أنّ الإنسان إذا وصل إلى رئاسةٍ ما، أو عُيّن في منصبٍ، فليسعَ لئلا يُدخل إلى قلبه ذلك الشعور بالعلوّ والسلطة والترؤس على الآخرين. بل ليكن خادمًا مجهولًا ويبتعد عن طلب الشهرة والمنزلة في قلوب الناس والحصول على الامتيازات والعناوين البرّاقة. ولا شك بأنّ خطر طلب الرئاسة ليس مطروحًا بالنسبة لمن لم ينل شيئًا من الدنيا، لكنّه خطرٌ واقعيّ يتوجّه إلى أولئك الذين مُهّدت لهم الأرضية للوصول إلى المقامات والرئاسات، وهو خطر يحيط بهم ويهدّد دينهم.

المؤمن الفقير خفيفٌ يوم القيامة

وبعد أن بيّن النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ خطر حبّ المال والرّئاسة يسأله أبو ذر قائلًا: «**يا رسول الله، الخائفون الخاضعون المتواضعون الذاكرون الله كثيرًا أهم يسبقون الناس إلى الجنة؟**».

بعد أن اطّلع أبو ذر على إشراف طُلّاب المال والرئاسة على الهلاك، تصوّر أنّ الخائفين من الله والمتواضعين هم السابقون إلى الجنة، لهذا سأل النبيّ عنهم. فرد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قوله وأجابه: «**ولكن فقراء المسلمين فإنّهم يتخطّون رقاب الناس فيقول لهم خزنة الجنة: كما أنتم حتى تُحاسبوا، فيقولون: بَم نحاسب فوالله ما ملكنا فنجود ونعدل، ولا أُفيض علينا فنقبض ونبسط، ولكنّا عبدنا ربّنا حتى دعانا فأجبنا**».

والعجيب في الأمر، أنّ النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لم يذكر الخاضعين والمتواضعين

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

والذاكرين الله في مقدّمة أهل الجنة، رغم هذا المدح والثناء الرفيع في التعاليم الدينية لهذه القيم كالخضوع والخشوع وإحياء ذكر الله، بل قال إنّ السّابقين هم أولئك الذين حفظوا دينهم في حال الفقر والعوز ولم يتراجعوا عن السّعي والجهاد وتحصيل العلم. فهؤلاء يتخطّون رقاب الناس ويسرعون إلى الجنّة وكأنّهم يحلّقون، وإذا قيل لهم توقّفوا عندكم حتى تُحاسبوا يقولون: نحن لم ندرك سلطةً أو مقامًا حتى نُجري العدالة أو نظلم الناس، ولم يكن لنا من المال ما ننفقه أو نبخل به، بل كل ما قدرنا عليه هو العبادة وأداء حقّ العبودية وعدم التقصير فيهما.

أجل لم يكن لهؤلاء من ثروةٍ حتى يُجيبوا عن المساءلة حول الإسراف والتبذير أو التقصير في إعانة الآخرين وأداء حقوقهم، لهذا فإنّ حسابهم على أعمالهم لا يطول، فلو أنّهم كانوا من أصحاب الأموال وحتّى لو أنفقوها في سبيل الله، فإنّ حسابهم سيطول.

وبالالتفات إلى الذمّ المتوجّه إلى الدنيا والأخطار التي تحدق بدين الإنسان من ناحية حبّ المال والمنصب، فإنّ حديث الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عزاءٌ لأولئك الفقراء المساكين في الدّنيا ولأولئك الذين ينهضون لأداء تكليفهم كطلب العلم والجهاد ومواجهة الأعداء من دون أن يكون لهم من مال الدنيا شيءٌ يُذكر.

صحيحٌ أنّ الإنسان إذا كان يملك مالًا يمكن أن ينفقه على الآخرين وفي خدمة هذا الدّين ونشره، ولكن الذي ينهض لطلب العلم أو يتواجد في جبهات القتال والجهاد فيمنعه ذلك من جمع المال والثروة وإنفاقها في سبيل الله سيبلغ مقامًا ومنزلةً أعلى من ذاك الذي أنفق ماله في سبيل الله، لأنّ الغنيّ يكسب ويستفيد من ماله ولكن طالب العلم والمجاهد في سبيل الله ينفق من وجوده وراحته في سبيل الله. فلا شك بأنّ القيم التي تحرّك هذا المجاهد أعلى ممّا يناله الآخرون.

فحين يعود المجاهد من القتال والجهاد بعد انتهاء المعارك خالي الوفاض، ويرى أولئك الذين لم يشمّوا رائحة الحرب والجبهة، قد حصلوا على ثرواتٍ طائلة وبنوا العمارات والقصور، وأمّنوا كل وسائل الراحة والعيش الهنيء، فمن الممكن أن يوسوس له الشيطان قائلًا: «أنت الذي ذهبت إلى الجبهة وتخلّيت عن مال الدنيا انظر إلى أين وصل غيرك! لقد ذهبت إلى الجهاد وحاربت وجُرحت، أو أصبحت معاقًا وخسرت كل فرص بلوغ المناصب!». وما أكثر ما تؤثّر مثل هذه الوساوس الشيطانيّة على ضعاف الإيمان وتبعث فيهم الندم على ما فعلوه.

كذلك يوسوس الشّيطان لأولئك الذين تفرّغوا لتحصيل العلوم الحوزوية ويصوِّر لهم خطأهم قائلًا: «انظر إلى أولئك الذين ذهبوا إلى الجامعة وبعد تخرّجهم حصلوا على مناصب مهمّة، وبتبع ذلك جمعوا تلك الثروات!! أمّا أنت، ذلك الطالب فبعد ثلاثين سنة من الدراسة لا زلت عاجزًا عن تأمين قوت يومك!».

فمثل هذه الوساوس تحيق دومًا بالمؤمنين الذين خلت أيديهم من الدنيا، لهذا كان النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِهِ يعزّي أمثال هؤلاء بكلامه المسكّن للخواطر والمهدّئ للقلوب، قائلًا لهم إذا كنتم لم تبلغوا ما بلغه الآخرون من تحصيل المال والجاه لكنّكم نلتم من الكمالات والقيم ما عجزوا عنه وحُرموا ممّا سيكون من نصيبكم يوم القيامة، ويتحسّرون على ما لم يبلغوا.

وفي تتمّة كلامه يقول صَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِهِ: **«يا أبا ذر إنّ الدنيا مشغلة للقلوب والأبدان، وإنّ الله تبارك وتعالى سائلُنا عما نعّمنا في حلاله فكيف بما نعّمنا في حرامه»**.

ولا شك بأنّ من يسعى لكسب المال سوف يستهلك من جسمه وروحه. وكل من دخل في مجال الأعمال يدرك هذه الحقيقة جيدًا. فإنّ تلك الصعاب والأزمات التي تحيط بالمشاغل والأعمال كثيرةٌ إلى درجة قد تسلبه راحة البال بالكامل وتوقعه في همٍّ دائمٍ جرّاءَ ما يجري في الأسواق من معاملات وضغوطات وأزمات.

فمن المعروف أنّ من يسعى لتحصيل المال ينبغي أن يكدح، سواء كان ذلك عن طريق الحلال أو الحرام، لأنّ المال لا يأتي بسهولة. وحين يغوص الإنسان في هذه الأعمال قد لا يجد فرصةً أو لحظةً واحدةً للعبادة والتفكّر، وتقلّ فرصه للخلوة بالحقّ والسعي للآخرة والانقطاع والمناجاة. فمن استقرّ حبّ الدنيا في أعماق قلبه سيجعل عبادته وسيلة لنيل الدنيا، ولن يهنأ له بال من صباح ومساء حتى يكسب المزيد. وإذا قام من منامه ليلًا للصّلاة فإنّه يصلّي لأجل أن يزيد في رزقه وماله. فأيّ همّة أحط وأيّ فضيحةٍ أكبر من أن يكون ذكر هذا الإنسان وعبادته لله لأجل البطن ومال الدنيا! تلك العبادة التي شُرّعت كوسيلةٍ لنيل الجنة وما هو أعلى وهو الرضوان الإلهيّ، أضحت وسيلة للمزيد من الطعام والمال والأثاث والسيارة.

وفي المقابل، فإنّ القلب الذي تحرّر من علائق الدنيا، فإن أقبلت عليه الدنيا أم أدبرت عنه، الأمر سيّان بالنسبة له، لا فرق لديه بين رمادها وتبرها وذهبها. فإذا لم نكن قد شاهدنا أمثال هؤلاء في حياتنا فلنعلم أنّهم موجودون. هناك من التّجار

من يتساوى عنده وعاء القمامة مع صندوق المال، ولا قيمة عندهم إلّا لذلك المال الذي يُنفق في سبيل الله. ولعلّ من لم يعرف أمثال هؤلاء لا يصدّق بوجودهم ولكنّني رأيتهم بأمّ العين:

منذ أربعين سنة تقريبًا، كنت قد ذهبت إلى سوق طهران لأشتري سماور (وهو جهازٌ لإعداد الشاي) وأرجع به إلى مدينة قم. وهناك، تعرّفت إلى تاجرٍ جذبني إلى درجةٍ أنّني بقيت عنده حتّى المغيب وأنا أستمع إلى نصائحه، وبين كل نصيحة وموعظةٍ كانت الدموع تترقرق في عينيه وتجري على خدّيه. وسألني فيما سألني عن أوّل كتابٍ درسته في الحوزة، فقلت: إنّه كتاب شرح الأمثلة. فقال: أيّ شيءٍ كُتب في مقدّمته؟ قلت له: «أوّل العلم معرفة الجبّار...» فقال فهل تعلّمت أوّل العلم؟ واستمرّ في حديثه والدموع تجري من عينيه كالمطر. وفي هذه الأثناء، كان العمّال في متجره يبيعون ويقبضون الأموال بوفرة ثمّ يحوّلونها إليه فيضعها في الصندوق من دون أيّ اهتمام.

وحين حلّ وقت صلاة الظهر قام دامع العين وذهب إلى المسجد وذهبت معه وبعد الصّلاة والغداء رجعت إلى متجره وبقيت عنده حتّى المغيب وأنا أستفيض من محضره.

أجل، إذا لم يتعلّق القلب بالدنيا فإنّ أكداس المال لن يكون لها أي قيمة بالنسبة له. فالقلب سيكون في مكانٍ آخر.

أمّا إذا سيطر حبّ الدّنيا على قلب الإنسان وقام للصلاة فإنّ حواسّه ستكون متوجّهة إلى مكانٍ آخر وستكون صلاته للمآرب الدنيوية. حين يسيطر حبّ المقام على قلب الإنسان، فإنّه حتى لو درس العرفان وتعرّف على السّير والسلوك العرفانيّ سيبقى فكره مشغولًا بالوصول إلى ما لم يصل إليه غيره، وذلك من أجل تحصيل الامتيازات والتفوّق عليهم؛ فمثل هذا الشخص لا يهتم بالعبودية. إنّه يشبه المرتاضين الهنود الذين يسعون للوصول إلى تلك القدرات الخارقة من خلال الرياضة والمجاهدة ممّا لم يصل إليه غيره.

أمّا من تربّى في مدرسة الإسلام الأصيل فإنّه لا يفكر إلّا بالعبودية. فالإسلام يريد ذلك الإنسان الذي يجاهد في سبيل الله ويسعى إليه حتى لو كان يعمل في التّجارة وتأمين المعاش، مثلما كان عليٌّ عَلَيهِ السَّلَامُ يعمل بكدحٍ في زراعة النخيل وتربيتها وحفر الآبار ثمّ يوقفها في سبيل الله.

لهذا، ينبغي أن نسعى للتقليل من تعلّق قلوبنا بالدنيا. ولا شك بأنّ الإنسان العادي كلّما وضعنا بيده المزيد من النعم المادية ازداد تعلّق قلبه بالدنيا، لأنّ هذه النعم إذا كثُرت عليه حلي طعمها في فمه وزادت من شوقه إلى الدنيا.

لهذا، فإنّ أولئك الذين يشتغلون في الأعمال الدنيوية يقع على عاتقهم مسؤولية ثقيلة، لأنّهم سوف يُسألون يوم القيامة عن كلّ درهمٍ من أموالهم، سواء حصلوا عليه عن طريق الحرام أو الحلال.

وخلافًا لهؤلاء، فإنّ أولياء الله إذا كثُرت الإمكانات المادية في أيديهم، لا يحدث في قلوبهم مقدار ذرّة من الميل إلى الدنيا، لأنّ قلوبهم متوجّهة الى مقام آخر. ولا شك بأنّ أمثال هؤلاء هم قلّة قليلة. فطوال التاريخ لم يوجد أمثال سليمانَ النبيّ إلا القليل ممّن حصلوا على الثروات والإمكانات العظيمة، ورضوا بأكل خبز الشعير.

فإذا أصغينا إلى كلام النبيّ الأكرم، كان الأفضل لنا ألّا نفكّر بالمال والثروة، بل نسعى للخلاص من هذه الدنيا، ونستعين بالعبادة والعبودية لله لتطهير باطننا من أرجاس الدنيا، مثلما كان أبو ذر حين وصفه الإمام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ: «**كان لي فيما مضى أخٌ في الله وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه**»[١].

مدح القناعة وبساطة العيش وذمّ الازدياد

ثمّ يكمل النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حديثه قائلًا: «**يا أبا ذر إني قد دعوت الله جلّ ثناؤه أن يجعل رزق من يحبّني الكفاف، وأن يعطي من يبغضني كثرة المال والولد**».

ومثلما مرّت الإشارة، فإنّ وجود النعم الوفيرة بالنسبة لأكثر الناس، يُعدّ من أسباب زيادة تعلّق قلوبهم بالدنيا. ولهذا، فإنّ مصلحتهم تقتضي ألّا يكون في أيديهم هذه الإمكانات الكثيرة، لكي لا يقعوا في أسر الدنيا، بل ليكتفوا بحدّ الكفاف ممّا يحتاجون إليه.

لهذا، كان النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ومن شدّة شفقته وعنايته بمحبّيه يسأل الله أن يرزقهم بمقدار الكفاف لكي لا يقعوا في الإسراف والتبذير. وبالمقابل، كان يدعوا

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، كلامه ٢٨٩، الصفحة ٦٩.

على أعدائه أن يزيدهم مالًا وولدًا. وفي الواقع، فإنّ زيادة مال أعداء الله من السنن الإلهية ويدخل ضمن قانون الاستدراج! أي إنّ الله تعالى يزيد الكفّار من نعمه المادية والدنيوية حتى يقعوا في غرور الدنيا، فيزيد في كفرهم وعصيانهم. وفي النتيجة، يزيد في عذابهم وعقابهم الأخرويّ الأليم. هذا بالإضافة إلى أنّ هذه الأمور تزيدهم حزنًا وغصّة في الدنيا.

وبالنسبة لأعداء الله وأعداء أوليائه، لا يوجد عقوبة في الدنيا أشد من الإملاء لهم، بزيادة زخارف الدنيا من حولهم، وسلب التوفيق منهم وزيادة خذلانهم وانحرافهم وكفرهم. وفي هذا المجال، يقول الحق تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

وفي آية أخرى، يقول عزّ من قائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٢].

ولكي لا يمدّ المؤمن عينه إلى مال الدنيا وجاهها ولا يقع في حسراتها وخدعها فإنّ الله تعالى يأمره قائلًا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وحين سئل أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عن معنى الخير قال: «**ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكنّ الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله. ولا خير في الدنيا إلّا لرجلين: رجلٌ أذنب ذنوبًا فهو يتداركها بالتوبة، ورجلٌ يسارع في الخيرات**»[٤].

مدح الانقطاع عن الدنيا والإعراض عنها

ثمّ يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة الذين اتّخذوا أرض الله بساطًا وترابها فراشًا وماءها طيبًا، واتّخذوا كتاب الله شعارًا ودعاءه**

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٨.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٥٥.

(٣) سورة **الحجر**، الآية ١٥.

(٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٩٤، الصفحة ٢١.

دثارًا يقرضون الدنيا قرضًا».

فطوبى لأولئك الذين لا يرغبون بالدنيا وهمّهم آخرتهم، لأنّهم اطّلعوا على حقيقة الدنيا ويعلمون أين يكمن الكمال الواقعيّ. فهؤلاء مستعدّون لأن يجلسوا على الأرض، ويجعلوا التراب فراشهم، من دون أن يهمّهم. ففراش الأرض عندهم كالفراش الفاخر. وفي المقابل، نحن الذين تعلّقت قلوبنا بالدنيا لسنا مستعدّين للجلوس على الأرض، بل نخجل من أن يرانا الناس كذلك.

لهذا، علينا أن نوجد هذه الروحيّة في أنفسنا، حتى تكون الأرض والفراش الناعم عندنا متساويين. فلو اقتضى التكليف يومًا أن نجلس بكل تواضعٍ بجانب الفقراء وعلى الأرض القفر، وأن نواسيهم فلا نتردّد أبدًا أو نخجل من ذلك.

لا يهتم الزهّاد بأن يضعوا العطور النفيسة، بل لو لم يكن سوى الماء الجاري لاغتسلوا وعطّروا أنفسهم به. فتعلّقهم بالله قويٌّ إلى درجة إذا قرأوا القرآن شعروا بأنّ الله يكلّمهم، وإذا دعوا كانوا كأنّهم يخاطبون الله! فهم في الناس، يعيشون بينهم، ولكن قلوبهم في محلٍّ آخر. لا يأخذون من الدنيا إلّا ما يعينهم عليها، وكأنّهم يطوونها طيّ السجلّ للكتب. وحيث إنّ الدنيا زائلةٌ فانيةٌ، فإنّ قلوبهم تعلّقت بالحقّ تعالى وما هو باق.

وقد تكرّر بأنّ هذه التعاليم التربويّة لا تعني أن نترك نعم الله بشكلٍ مطلق، ولا تعني أنّ أولئك الذين حصلوا على نعم الدنيا هم أناسٌ سيّئون. بل تريد هذه التعاليم أن تقلّل من تعلّقنا بالدنيا لنعرف مسؤولياتنا فيها. فإذا كان تكليفنا أن نرتدي اللباس الجيّد ونركب السيّارة، فإنّنا نقوم بذلك لأنّ الله يريده. أمّا إذا سعينا لهذه الدنيا سعيها ونحن بها راغبون، فقد سلكنا طريقًا خطرًا، وسوف ننجرُّ شئنا أم أبينا إلى تلك الأعمال التي لا ترضي الله. ذلك، لأنّ إرادة الله لا تجتمع مع هوى القلب. فطريق القلب وهوى النفس يفترق عن طريق عبادة الله ولا يمكن لهذين الطريقين أن يلتقيا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1].

فهذه التعاليم تهدف إلى تقليل تعلّقنا بالدنيا. ترغّبنا بأن نجالس الأرض فلا

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

نهتم بالفراش والأثاث الفاخر والحياة المرفهة، ولا يعني ذلك أن نوقع أنفسنا في المشقّات ونرفض نعم الله. ويُذكر أنّ أحد المتصوّفة سأل الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ ذات يوم قائلًا: لماذا تلبس هذا اللباس الناعم، ألست ابن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ‌السَّلَامُ؟ فأجابه الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أنّ الناس كانوا في زمان علي عَلَيْهِ‌السَّلَامُ على فقرٍ وجوعٍ، لهذا كان على إمام المسلمين أن يعيش مثل أقل واحدٍ فيهم حتى لا يستوحش الناس من فقرهم ومسكنتهم. أما الآن فحيث وسع العيش وازدادت النعم فالصالحون أحرى بأن يستفيدوا من الدنيا من غيرهم.

فإذا اقتضت الظروف أن يقوم المسلمون بالصناعات المتطوّرة، الأمر الذي سيؤدّي إلى تغيير نمط حياتهم، وذلك انطلاقًا من ضرورة الحفاظ على عزّة المسلمين مقابل الكافرين فعليهم القيام بذلك.

هذا، بالإضافة إلى أنّ المسلمين إذا لم يكونوا يسعون للرقيّ والتطوّر في الصناعات والفنون التي يحتاجها المجتمع المتمدّن والمتطوّر، فإنّ أيديهم سوف تمتد إلى الكفّار، مما يستتبع ذلّتهم وخذلانهم.

فمن الناحية الاجتماعية، لو أراد المجتمع الإسلامي أن يكتفي بالحدّ الأدنى لاكتفى بالصنائع اليدوية واستخدم الوسائل البدائية للمواصلات وحصّن نفسه بالأسلحة القديمة. وعليه، سيكون هذا المجتمع الإسلامي مجتمعًا بسيطًا وقانعًا لا يهتم بالإبداع والتطوير. فإنّه لا شك سوف يقع تحت سيطرة الكفار ويصبح مجتمعًا ذليلًا ومتخلّفًا ومحتاجًا. والله تعالى لا يرضى للمجتمع الإلهيّ أن يصبح أسيرًا للكفّار ومحتاجًا إليهم ذلك لأنّ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[١].

ولأنّ العزّة تنحصر بالله ورسوله والمؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

فمع الالتفات إلى أنّ التخلّف الصناعي يجلب الاستعمار والغزو الثقافي، فإنّ السعي من أجل الإبداع والتطور داخل المجتمع الإسلامي يُعد تكليفًا إلهيًّا لا يجوز غضّ النظر عنه بأي شكل.

ونجد في هذا المجال التوصيات الكثيرة من قبل الرسول وأهل بيته من أجل

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤١.

(٢) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

تعلّم العلوم والفنون، ممّا يشهد على صحّة ذلك.

وفي قول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: **«اطلبوا العلم ولو بالصين»**[1] دلالة على أنّ على المسلمين أن يسعوا بأي شكلٍ لتأمين احتياجات المجتمع الإسلامي من العلوم. ثم ينهي النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قوله في هذا المقطع قائلًا: «**يا أبا ذر حرث الآخرة العمل الصالح وحرث الدنيا المال والبنون**».

لو كان الإنسان طالبًا للآخرة لسعى لها سعيها بالعمل الصالح ولو كان طالبًا للدنيا لكان سعيه نحو المال والولد.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٧٧.

الدرس السابع عشر

آثار البكاء للآخرة، وسعة قلب المؤمن

- ❖ آثار البكاء للآخرة
- ❖ سعة قلب المؤمن وعلاماته
- ❖ رعاية التقوى والفرار من الرياء والنفاق
- ❖ النية ودورها في تقيم العمل

«يا أَبا ذَرّ، إنَّ رَبّي أَخْبَرَني، فَقالَ: وَعِزَّتي وَجَلالي ما أَدْرَكَ الْعابِدُونَ دَرَكَ الْبُكاءِ عِنْدي وَإِنّي لأَبْني لَهُمْ فِي الرَّفيقِ الأَعْلى قَصْرًا لا يُشارِكَهُمْ فيهِ أَحَدٌ. قالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ أَيّ الْمُؤْمِنينَ أَكْيَسُ؟ قالَ: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدادًا.

يا أَبا ذَرّ، إذا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَحَ الْقَلْبُ وَاسْتَوْسَعَ. قُلْتُ: فَما عَلامَةُ ذلِكَ؟ بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ اللهِ، قالَ: الإِنابَةُ إِلى دارِ الْخُلُودِ وَالتَّجافي عَنْ دارِ الْغُرُورِ، وَالاْسْتِعْدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ.

يا أَبا ذَرّ، اتَّقِ اللهَ وَلا تُرِ النّاسَ أَنَّكَ تَخْشَى اللهَ فَيُكْرِمُوكَ وَقَلْبُكَ فاجِرٌ.

يا أَبا ذَرّ،لِيَكُنْ لَكَ في كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ حَتّى في النَّوْمِ وَالأَكْلِ».

عمدة ما مرّ من مواعظ النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يدور حول محاور ثلاثة:

١. الحذر من حبّ الدنيا والتعلّق بها.

٢. الحث على ذكر الله.

٣. الخضوع والخشوع والبكاء من خيفة الله.

وفي هذا المقطع من الحديث، يجدّد النبيّ التأكيد على أهمية البكاء خوفًا من الله أو البكاء من الشوق إلى لقائه. ويبيّن أهمية التوجّه إلى الآخرة والانقطاع عن الدنيا، وسلامة الباطن والحذر من الرياء.

«يا أَبا ذَرٍّ؛ إنَّ رَبّي أَخْبَرَني، فَقالَ: وَعِزَّتي وَجَلالي ما أَدْرَكَ الْعابِدُونَ دَرَكَ الْبُكاءِ عِنْدي وَإنّي لأَبْني لَهُمْ فِي الرَّفيقِ الأَعْلى قَصْرًا لا يُشارِكَهُمْ فِيهِ أَحَدٌ».

ومثلما مرّت الإشارة سابقًا، فإنّ البكاء الذي يوصي به النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو البكاء من خيفة الله أو البكاء شوقًا للوصول إلى لقاء الله، هذا وإن كان كلٌّ من البكائين مطلوبًا ولهما تأثيرٌ حيويّ في توجيه الإنسان إلى الله ويقظته، ولكنّ البكاء شوقًا إلى الوصول ولقاء الله أعلى وأرفع. ويتطلّب معرفةً عميقةً لا يصل إليها أي إنسان، بل هي معرفة مختصّة بثلّة قليلة، منهم المعصومون عَلَيْهِمُالسَّلَامُ.

وبالنظر إلى أنّ أولياء الله والمعصومين عاشقون لله ولا يوجد في قلوبهم أيّ هم غير الوصول إلى المعشوق، ولا يؤلمهم إلا فراقه والبعد عنه؛ وبالنظر إلى الأدعية الواردة عن الأئمة الأطهار عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، ندرك شيئًا من أنينهم الناشئ من ألم الفراق، والحرقة من شوق الوصال بالمعشوق.

فما ورد من أدعيةٍ عن الإمام علي والإمام السجّاد عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ يمثّل نموذجًا من الحبّ الشديد الكامن في قلوب أهل بيت العصمة والطهارة. وبالالتفات إلى هذه الأدعية، يظهر لنا زاويةٌ من معرفتهم السامية وعرفانهم الخالص. تلك المعرفة التي أدّت بهؤلاء الأطهار الذين هم أسوة البشرية جمعاء أن لا يغفلوا لحظةً واحدةً عن حضور الربّ المتعال. وحيث إنّه أعلى وأجلّ من كلّ شيء، وأنّ كل شيء بيد قدرته، وهم مدركون تمامًا لذلك، فلم يعشقوا سواه. وهذا العشق الباطنيّ لم يُبقِ لهم لحظةَ سكونٍ وقرار. إنّ مناجاتهم وأدعيتهم تحكي عن ذروة هذا العشق: فهذا علي عَلَيْهِالسَّلَامُ في دعائه المعروف بدعاء كميل يفصح عن شوقه للوصول إلى لقاء محبوبه ويكشف عن أنّ الصبر على فراقه أشدّ من الصبر على عذابه، ويخاطب ربّه قائلًا: **«فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك»**.

وفي مقام بيان اضطرابه فيما لو فُصل عن معبوده، يصرخ قائلًا: **«فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقًا لئن تركتني ناطقًا لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين»**.

أمّا الإمام السجّاد عَلَيْهِالسَّلَامُ، ففي دعائه المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي

يقول: «**فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري فمن يكون أسوأ حالًا منّي إن أنا نُقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهّده لرقدتي، ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي؛ وما لي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت**».

ولكي يبيّن لنا النبيّ دور البكاء المؤثّر في تطهير الباطن من الرذائل والعيوب الأخلاقية، يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إنّ فضيلة البكاء وثوابه لا يوجد مثله من ثواب، والباكون يصلون إلى ذلك المقام الذي يرون فيه كل من سواهم من العباد عاجزين عن إدراكه. ويسأل أبو ذر عن أكيس الناس فيجيبه النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قائلًا: «**أكثرهم للموت ذكرًا وأحسنهم له استعدادًا**»[١].

فمن سلك طريقًا ـ إذا كان كيّسًا وواعيًا، فإنّه لا يغفل أبدًا عن هدفه، ولا يفتر في السعي للوصول إلى مقصده بأسرع ما يمكن. أمّا الذي يسلك مسيرًا وهو غافلٌ عن الهدف سيبقى حيرانًا تائهًا، ولن يصل إلى مقصده أو يسلم.

فمن عرف مقصده الأصليّ وعلم أنّ الدنيا ليست إلّا وسيلةً للوصول إلى الآخرة لا ينخدع بالإغراءات المادية، بل سيبقى يتذكّر الموت ويستعد له. حتّى إذا أدركه الموت، أسرع إلى الله بيدٍ مليئةٍ بالزاد النافع. أمّا أولئك الذين أضاعوا الهدف فلم يستعدّوا ويعدّوا العدّة لآخرتهم، سيلاقون ربّهم من دون زادٍ، وهناك مسيرٌ طويل مهول في انتظارهم.

سعة قلب المؤمن وعلاماته

وفي تتمّة كلامه يقول النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يا أبا ذر إذا دخل النور القلب انفسح القلب واستوسع».

فالقلوب في البداية تكون مظلمةً ثمّ يفيض الربّ المتعال عليها بنوره فتتلقى القلوب المستعدّة ذلك النور. فإذا استقرّ ذلك النور في القلب تزداد سعته ويتّسع. ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس نقول إنّه يشبه قربة الماء الفارغة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٢، الصفحة ٣١١.

واليابسة، إذا صببنا فيها الماء اتّسعت. أو مثل البالون الذي كلّما نفخنا فيه اتّسع. فالقلب يتّسع بالنور الإلهيّ وتزداد سعته. وليس المقصود من القلب ذلك العضو الصنوبريّ الموجود داخل الصدر، بل ما له تلك الماهية المعنوية، وما يكون محلًّا للإيمان والإدراك.

لعل المقصود من كلام النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّ الإكثار من ذكر الموت والاستعداد له يضيء مصباح روح الإنسان، ويبقيه مشتعلًا. وعلى أثر ذكر الموت تتنوّر روح الإنسان فلا تدع فطرته الصافية لتتلوّث بالمعاصي. وعلى أثر ذلك النور، تتّسع روح الإنسان كما عبّر النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وتزداد. وهو الذي يكون بمعنى عبور آفاق الدنيا المحدودة، والتوجّه إلى العالم الأبديّ اللامتناهي.

وحيث إنّ إدراك مثل هذه الحالة بالنسبة لأبي ذر غير محسوس. لأنّ هذا الأمر ليس ممّا يمكن إدراكه بالحواس. يسأل النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن علامات اتّساع القلب فيجيبه النبيّ الأكرم ببيان ثلاث علامات:

١. الإنابة إلى دار الخلود وهو بمعنى الميل والشوق إلى الآخرة.

ممّا يعني أنّ المنيب هو الإنسان الذي يقطع نظره عن الدنيا الفانية الزائلة ويتوجّه إلى عالم الآخرة الباقية. وقد ذكر الراغب الأصفهاني في بيان معنى الإنابة إلى الله تعالى أنّها: «الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل»[1].

٢. والتجافي عن دار الغرور هي العلامة الثانية لاتّساع القلب بمعنى الابتعاد عن الدنيا الفانية.

فحين يتوجّه المؤمن إلى عالم الآخرة الأبديّ، ويضيق صدره بعالم الدنيا الماديّ، فإنّه يبعد نفسه عن الدنيا ويتجافى عنها. فالتجافي عن الدنيا تصفية لباطنه من التعلّق بها والترفّع عنها، كما يُقال للمصلّي الذي يرتفع من جلسته بعد السجود بأنّه في حالة التجافي.

ودار الغرور من الأسماء التي ذُكرت للدنيا في القرآن الكريم وفي الروايات

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات في غريب القرآن** (دفتر نشر الكتاب، الطبعة ٢، ١٤٠٤هـ)، الصفحة ٥٠٨.

الشريفة. فالغرور من الخداع والتلوُّن. وبما أنّ زخارف الدنيا وزينتها تخدع الإنسان وتجذبه وتغريه سُمّيت بدار الغرور.

وفي بيان حقيقة خداع الدنيا، ذكر العظماء أمثال العلاّمة الطباطبائي (رحمه الله) أنّ فطرة الإنسان تبحث عن ضالّتها بشكلٍ دائم، وتسعى للوصول إليها، فهدفها الأصليّ هو الوصول إلى القرب الإلهيّ، وبعبارةٍ أخرى الوصول إلى الكمال المطلق، وإن لم يكن شاعرًا ملتفتًا، بل يتحرّك من أعماقه نحو الكمال المطلق، ولكنّه يضل أحيانًا وينسى هذا الهدف الأصلي ويجعل الدنيا هدفه فيقع تحت خداع زخارفها ويظن أنّها ضالّته فيرى الدنيا مطلوبه الحقيقيّ وهدفه النهائيّ.

وتكون النتيجة أنّه بعد عمرٍ من السعي والكدح يصل إلى الدنيا، ويدرك أنّها لم تكن ما يريده بفطرته، وأنّها ليست ممّا يؤمن له حاجاته المعنوية. لهذا، يمكن تشبيه الدنيا بما يُعطى للأطفال لإسكاتهم وعدم وجود الأم فإذا جاعوا وأرادوا الرضاعة أُعطوا تلك القطعة ووُضعت في أفواههم، وهم لا يعلمون أنّهم يمصّون شيئًا غير ثدي الأم، إلى أن يكتشفوا في النهاية أنّه خالٍ من الحليب ولا يُسمن من جوع.

أجل إنّ الدنيا ليست سوى سراب. والمطلوب الواقعيّ للإنسان هو ماء حياة تنبع من عين القرب من الله فتروي فطرته. هذه الدنيا وإن كانت تُظهر نفسها على أنها المطلوب الواقعي. سواءٌ كان تظاهرها بقوالب المسكن والسيارة أم غيرها من اللذائذ والمغريات. لكنّها ليست سوى وسيلة مع كل ما فيها وما احتوته من اللذّات والمتع والنعم. كل ذلك ليس سوى وسيلة للوصول إلى الكمال المطلق ورضا الله، وليس هدفًا أو مطلوبًا بذاته.

فنستنتج أنّ الذي كان قلبه ظلمانيًّا ولم يتنوّر بنور الإيمان، سوف يُخدع بهذه الدنيا ومظاهرها ويختارها كمقصدٍ نهائيّ ومطلوبٍ بالذات. وأمّا الذي تنوَّر بنور الله وأزال الغفلة والكدورة عن وجه قلبه واطّلع على الحقيقة الناصعة، فإنّه لن يخطئ ولن يشتبه عليه الأمر، فقلبه لن يتعلّق إلا بالآخرة. ولا يتعلّق بهذه الدنيا ولو للحظةٍ واحدة، لأنّه يعلم أنّ الدنيا ليست محل ومهوى القلوب الصافية.

٣. «والاستعداد للموت قبل نزوله»، وهو العلامة الثالثة.

فحين يُعرض الإنسان عن الدنيا ويتوجّه إلى الآخرة، فإنّ عليه أن يكون مستعدًّا دومًا للالتحاق بالدار الباقية، والوصول إلى الهدف المطلوب، لأنّه يعلم أنّه لم يُخلق

لهذه الدنيا، وأنّ الدنيا ليست سوى جسرٍ للعبور إلى الحياة الباقية فإنّه سينتظر بشوقٍ بالغ وصول تلك اللحظة التي يفرّ فيها ويلتحق بالقرب الإلهيّ، وسيسعى من دون صبرٍ من أجل عبور هذا الجسر حتّى يصل إلى المقصد النهائيّ. وهذه الحالة التي يفقد فيها الإنسان صبره ويسارع للوصول إلى المقصد، ممّا يحدث في الحياة الدنيا أيضًا. فعندما يركب الإنسان سيارته مسافرًا إلى مقصده، فإنّ فكره يكون مشغولًا طوال الطريق في هذا المقصد والوصول إليه في أسرع وقتٍ ممكن، فحين تسبق سيّارته باقي السيّارات، يفرح لأنّه سيصل قبل غيره. وهذا الأمر، وإن كان مجرّد هوس طفولي، ولكن له منشأ فطريّ. فحين يعلم أنّ المقصد في مكانٍ آخر وأنّ هذا الطريق والمسير ليس موصلًا، فإنّه يتحرّك بسرعة لتغيير وجهته لكي يعود إلى الطريق سريعًا، وهذا السعي للوصول إلى المقصد أمرٌ عقلائيّ.

فهذا العبد الذي تنوّر قلبه بنور الله وفتحت عيناه على الحقائق يعلم أنّ المقصد هو جوار الحقّ وقرب الله، وأنّ الدنيا ليست سوى وسيلة. لهذا، فإنّه يجعل هذه الوسيلة في خدمة الوصول إلى المقصد، وبسبب شوقه للّقاء بالمعشوق لا ينثني حتى ينسى هذه الدنيا كليًا.

رعاية التقوى والفرار من الرّياء والنفاق

ثمّ يحذر النبيّ الأكرم أبا ذر من الرّياء والعجب فيقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **«يا أبا ذر اتّقِ الله ولا تُرِ الناس أنّك تخشى الله وقلبك فاجر»**.

وحقيقة الرياء هي أن يتظاهر الإنسان بما هو أفضل ممّا في باطنه، ويكون ما يظهره خلافًا للباطن أي:

ظاهره كأبي ذرٍ وسلمان وباطنه مثل أبي سفيان[1]

ويُصطلح على الرياء في الروايات بالشرك الخفي، ممّا يُعدّ المرائي مشركًا.

ومن جملة الألطاف الإلهيّة العظمى ستر عيوب الإنسان وذلك لأنّ الله تعالى

---

(١) أصل الشعر باللغة الفارسية كالآتي:

ظاهرش چون بوذر وسلمان بود   باطنش همچون أبو سفيان بود

ستّار العيوب، والستّار اسمٌ من أسمائه. ولو أفشى سبحانه أو أظهر تعالى قبائح الناس وأطلعهم على عيوب بعضهم بعضًا، لما أمكن أن يعيش أحد مع أحد. لهذا، فإنّ ستر الله من النعم الكبرى التي يجب علينا شكرها. وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**لو تكاشفتم ما تدافنتم**»[1].

ومثلما أنّ الله تعالى يضع ستارًا على ذنوب المؤمن، فإنّه لا يجوّز للآخرين إظهار عيوب هذا المؤمن أيضًا. فإنّ الله تعالى لا يخزي عبده المؤمن ولا يسمح للمؤمن أن يُخزي نفسه. ولهذا، لا يحقّ للمؤمن أن يطلع الآخرين على ذنوبه. وقد ورد في حديثٍ أنّ الله تعالى لا يجيز للمؤمن أن يُذلّ نفسه. ولا شك أنّه لا يوجد ذلّة أشدّ من ارتكاب الذنوب أو الفسق. فإذا ارتكب المؤمن ذنبًا ستر عليه، ولم يجوّز له أن يكشف ستره، ولا يفوته فرصة التوبة.

ولا شك بأنّ هذا ليس قانونًا عامًّا، لأنّ الله تعالى قد يفشي بعض ذنوب عباده ويكشف الستر عن بعض أسرارهم لأجل تنبيههم بمقتضى حكمته؛ فمثل هذا الإفشاء يكون وسيلةً لتربيتهم. فحين لا يرتدع الإنسان من التحذيرات المستمرّة والتنبيهات المتكرّرة، قد يكون أفضل طريق لتربيته وإيقاظه هو بإهدار شيء من ماء وجهه، حتّى يمتنع عن الاستمرار بالفساد. وهذا الأمر من الأمور التكوينيّة المرتبطة بالله وتدبيره وتربيته، ولا يستلزم جواز ذلك لكلّ أحد بحجّة تربية الغير، فيهرق ماء وجوههم أو يفضحهم!!

لهذا، ففي الإسلام لا يحقّ لأحد أن يُهرق ماء وجهه أو يفضح الآخرين. فإنّ حفظ وستر عيوب النفس أو غير المسؤولية تقع على عاتق الجميع. وقد تكون عقوبة إفشاء الذنب أشدّ من نفس ذلك الذّنب، وإفشاء هذه الذنوب من المصاديق البارزة لإشاعة الفساد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]

وفي مقابل إفشاء الذنوب، تأتي المراءاة والتظاهر اللذان يُعدّان من الأمور القبيحة أيضًا. وذلك أن يسعى الإنسان لإظهار نفسه أفضل ممّا هو في الواقع.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٣٨٣.

(٢) سورة **النور**، الآية ١٩.

فيتظاهر مثلًا بأنّه من أهل التقوى، رُغم أنّه من الفُسّاق وأهل المعاصي، ويتظاهر بالإيمان والخوف من الله والابتهال والتضرّع لكي ينال المزيد من احترام الناس من حوله. وينقل شدّاد بن أوس وعبادة بن الصامت أنّ النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال بعد تلاوة قوله الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]: **«من صلّى صلاةً يرائي بها فقد أشرك؛ ومن صام صومًا يرائي به فقد أشرك»**[2].

النية ودورها في تقييم العمل

«يا أبا ذر ليكن لك في كلّ شيءٍ نية حتى في النوم والأكل».

هذا المطلب فائق الأهمية من الناحية التربوية، بالإضافة إلى أنّه مبنيّ على أصلٍ تربويّ وعلميٍّ مهم يتطلّب بحثه مجالًا أوسع. فقيمة كل عمل يؤدّيه الإنسان، حتى العبادة والعبودية لله، ترتبط بنيّته، ولهذا لا يتساوى عملٍ واحد إذا صدر من نيّتين مختلفتين. ذاك الذي يُدعى إلى بيت صديقه ويلبّي دعوته يكون قد قام بعملٍ حسن ولكنّه إذا قصد القربة في تلبية هذه الدّعوة واستجاب لتلك الدعوة لأنّ الله يحب ذلك فإنّ عمله يُعد عبادةً ويترتّب عليه الأجر والثواب.

أو إذا كان صائمًا صومًا مستحبًّا ودعاه صديقه ليفطر عنده، فإذا أفطر طالبًا رضا الله، يصبح عمله هذا عبادة وعليه الثواب الجزيل. أمّا إذا استجاب لتلك الدعوة لأنّ نوعية الطعام أعجبته، وهو يحب ذلك النوع من الطعام، فلا ثواب له، لأنّه لم يجب تلك الدعوة لوجه الله. فنجد أنّ هذا الأكل بذاته إذا كان لله له ثوابٌ ودورٌ مهم في كمال الإنسان وتعاليه؛ لهذا يجب على الإنسان أن يلتفت دومًا إلى أنّه يستطيع أن يصبغ جميع أعماله اليوميّة من النوم والنظر وحتى المزاح وغيرها من الأعمال الحسنة كالصلاة والصوم بصبغة العبادة، وهذا إنّما يكون في حال جعلها لله وعلى طريق العبودية والطاعة.

بعض الأعاظم كان يدأب دومًا على التأمّل قليلًا قبل القيام بأي عملٍ لكي

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ١١٠.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٩، الصفحة ٢٨٣.

يصحّح نيّته ويقصد القربى ويجعل ذلك العمل لله؛ وإذا سُئل فإنّه لا يجيب بسرعة بل يتوقّف قليلًا حتى يحوّل جوابه إلى عملٍ يمتزج بالنية والتوجّه القلبيّ، ثمّ يجيب بعدها قربةً إلى الله. فهذه المسألة تبيّن أن المؤمن يمكن أن يكون كيّسًا إلى درجةٍ لا يترك لحظةً من عمره إلّا ويجعلها في سبيل الله ولأجل رضاه. ولهذا يمكن أن نقصد القربى في جميع الأعمال حتّى الشهواني منها، ويكون لنا فيها النيّة الصحيحة، بالإضافة إلى التذاذ الإنسان بها فتمتزج بالعبادة، وننال منها اللذة الدنيوية واللذة الأخروية.

ففي مثل هذه الموارد، يمكن الجمع بين الدنيا والآخرة. وفي موارد أخرى، لا يمكن حصول هذا الجمع بالطبع. وذلك حين يحصل تضاد في الأعمال كالواجب والحرام مثلًا. أمّا إذا أدّى الإنسان عملًا مباحًا بالقصد الإلهيّ فإنّه ينال اللذة الدنيوية ويزيد من قواه البدنية ونشاطه وينال أيضًا ثوابًا وأجرًا أخرويًّا. ولا شك بأنّ لقصد القربة والنيّة الإلهيّة مراتب، منها أن يعزم الإنسان بعمله ذلك على ترك المعصية وترك مخالفة الحقّ تعالى.

وينقل المرحوم العلّامة الطباطبائي أنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ حين كان يقوم في ليله للصّلاة فإنّه كان يغتسل بالماء البارد لأجل تنشيط جسمه والاستعداد للعبادة.

ومن الطبيعي أنّ شخصًا كعليّ يجاهد من الصباح إلى المساء في الحرّ، أو يعمل في الزراعة طوال النّهار ثمّ يصلّي ألف ركعةٍ سوف يتعب، ولا يكون لديه النشاط الكافي للتهجّد في منتصف الليل. لهذا، فإنّ الاغتسال بالماء البارد كان يزيده نشاطًا وقوّةً.

الدرس الثامن عشر

تعظيم جلال الربّ

- ❖ موقع ذكر الله في القرآن والروايات
- ❖ كمية الذكر وكيفيته
- ❖ ارتباط الذكر اللفظي بالقلبي
- ❖ فائدتان للذكر اللفظي

«يا أَبا ذَرّ، لِيَعْظُمْ جَلالُ اللهِ فِي صَدْرِكَ فَلا تَذْكُرُهُ كَما يَذْكُرُهُ الْجاهِلُ عِنْدَ الْكَلْبِ «اَللّهُمَّ اخْزِهِ» وَعِنْدَ الْخِنْزِيرِ «اَللّهُمَ اخْزِهِ»».

موقع ذكر الله في القرآن والرّوايات

يدور موضوع الحديث في هذا المقطع حول ذكر الله وتعظيم جلاله. فقد أولى القرآن الكريم والروايات الشريفة أهميةً فائقةً لذكر الله، وتعرّض للعديد من الموضوعات التي تدور حوله كالحثّ على ذكر الله، والفوائد الدنيوية والأخروية للذكر، وكمية الذكر وكيفيّته ومكان الذكر وزمانه، وذكر ذلك مفصّلًا في الروايات. وهناك الكثير ممّا ذُكر ونُقل عن لسان أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعلماء الدين في مجال الذكر اللفظيّ والقلبيّ وأهمية كلٍّ منهما وعلاقتهما، وما هو الذّكر الأشرف: أهو الذكر في الخلوات أم الذكر في الملأ والعلانية؟ وفي حديثٍ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ما اجتمع قومٌ في مجلسٍ لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلّا كان ذلك المجلس حسرةً عليهم يوم القيامة**»[1].

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ ذكرنا من ذكر الله**»[2].

وبالنظر إلى أهميّة الذّكر والتوجّه إلى الحق تعالى، يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كلّما قمت من مجلسك فاقرأ هذه الآيات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٢، الصفحة ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه.

﴿يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[١].

لهذا، يجب أن يبقى ذكر الله على لساننا وفي قلوبنا. فإنّ هذا الذكر لا يتعلّق بمكانٍ خاص أو زمانٍ أو مجلسٍ محدّد. وقد جاء في حديثٍ قدسيّ أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**إلهي إنّه يأتي عليّ مجالس أعزّك وأجلّك أن أذكرك فيها**». فقال: «**إنّ ذكري حسنٌ على كل حال**»[٢].

وكل هذا التأكيد وهذه الوصايا بذكر الله تعود لدوره في إبعاد الإنسان عن الرذائل والعيوب الأخلاقية وإيصاله إلى السعادة والفلاح. ذلك لأنّ الإنسان الذي يذكر الله دومًا ويرى نفسه في محضر الحقّ يمتنع عن القيام بأمورٍ تخالف رضاه، ويمنع نفسه من الطغيان والعصيان.

إن جميع البلايا والخطايا التي تصدر من النفس الأمّارة والشيطان إنّما تصدر بسبب الغفلة عن ذكر الحقّ، وعن تذكّر عذابه وعقابه. هذا بالإضافة إلى أنّ الغفلة عن الحقّ تكدّر القلب، فتكون النتيجة أن يتسلّط الشيطان والهوى على الإنسان. وفي المقابل، فإنّ تذكّر حضور الحقّ يضفي على القلب صفاءً ويؤدّي إلى تصفية الروح وتخليصها من الرّذائل ويحرّر الإنسان من قيود أسر النفس الأمّارة. وفي تلك الحال، يصبح القلب موطن تجلّي المحبوب، وتُطوى صفحات حبّ الدنيا الذي يكون منشأ جميع الانحرافات ورأس كلّ الخطايا.

رُوي عن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «**واعلموا أنّ خير أعمالكم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه فإنّه أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني**»[٣].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن الله عز وجل يقول: من شُغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي من سألني**»[٤].

ورُوي أنّ الله تعالى خاطب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يَا عِيسَى اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ**

---

(١) سورة **الصافات**، الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٧.

(٣) ابن فهد الحلّي، **عدة الداعي**، تصحيح: أحمد الموحدي القمي (قم: مكتبة وجداني، لا تاريخ)، الصفحة ٢٣٨.

(٤) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٠١.

فِي نَفْسِي، وَاذْكُرْنِي فِي مَلَئِكَ أَذْكُرْكَ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَإِ الْآدَمِيِّينَ؛ يَا عِيسَى أَلِنْ لِي قَلْبَكَ وَأَكْثِرْ ذِكْرِي فِي الْخَلَوَاتِ وَاعْلَمْ أَنَّ سُرُورِي أَنْ تُبَصْبِصَ إِلَيَّ وَكُنْ فِي ذَلِكَ حَيًّا وَلَا تَكُنْ مَيِّتًا»(١).

فهذا التأكيد الوارد في القرآن على ذكر الله يصل إلى حدّ اعتبار الذكر هدفًا للصلاة مع العلم أنّ الإسلام قد أولى الصلاة منزلةً رفيعةً وعدّها عمود الدين: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾(٢).

وحيث إنّ الهدف أهم من الوسيلة: فيُستفاد من هذه الآية الشريفة أنّ ذكر الله أهم من الصلاة. ففي الواقع، إنّ الصلاة هي وسيلة ذكر الله تعالى. وفي الحقيقة، إنّ ما يبينه القرآن من مفهوم وحقيقة للذكر يجعل الصلاة مع أهميّتها وعظمتها وسيلةً وأداةً لتحقيقه. فالكلام هو في هذه الصلاة التي تحتوي على تلك الأذكار وبعض الآيات القرآنية والأعمال والحركات الخاصّة، كيف أضحت وسيلةً لذكر الله تعالى؟

وفي توضيح هذه المسألة يجب أن نقول: إنّ الصلاة بهذه الهيئة والحركات والسكنات والأذكار التي تتضمنّها لا تُعدّ ذكرًا بل إنّ الذكر حالة قلبيةٌ وتوجّهٌ باطنيّ وتعلّقٌ لقلب الإنسان بذات الباري تعالى. لهذا، فإنّ الإنسان يصلّي لكي يحقّق في نفسه ذلك التوجّه القلبيّ والارتباط الباطنيّ مع الحقّ تعالى. وعليه، فإنّ الصلاة بذاتها ليست سوى وسيلة، أمّا الهدف فهو ذلك التوجّه والارتباط القلبيّ الذي لا شك أنّه أشرف من نفس الصلاة.

كمية الذكر وكيفيّته

ومن المسائل التي طُرحت في القرآن والروايات ما يتعلّق بكمية الذكر وكيفيته. ففي القرآن، هناك بعض الآيات التي تؤكّد على كمية الذّكر والإكثار منه كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾(٣).

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٥٠٢.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآية ٤١.

ففي هذه الآية تأكيدٌ على الإكثار من الذكر.

وفي بعض الروايات، ورد أنّ لكلّ شيء حدًّا معيّنًا حتّى الصلاة، فمنها ما هو واجب على كلّ مكلّفٍ بالغٍ، كالصلوات اليومية بعدد ركعاتها المحدّدة، أو النوافل المعروفة فيصلّي الإنسان ضعف الصلوات الواجبة كلّ يوم، أو أنّ الإنسان إذا بلغ واستطاع وحصّل المُكنة فعليه أن يحجّ مرة في عمره، وأمثال ذلك كثير في الشرع. وهكذا، عيّن لكلّ شيء حدّ، إلا ذكر الله فلا حدّ له. فمهما أكثر الإنسان من ذكر الله فإنّه يبقى قليلًا.

وفي مقابل الطائفة الأولى من الآيات والروايات، هناك آياتٌ ورواياتٌ عديدة أشارت إلى كيفيّة الذكر ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[١].

وفي هذه الآية نلاحظ أنّ الذكر لم يُعبّر عنه بالكثرة، فلم يقل تعالى «أو أكثر ذكرًا» بل قال «اذكروا الله بصورةٍ أشد». فالكم والإكثار ليس مطروحًا هنا، بل المضاعفة والشدّة. وهذا الأمر لا علاقة له بالذّكر اللفظيّ واللسانيّ. وليس المقصود أن تتشدّد مثلًا في قول «لا إله إلا الله»، بل إنّ هذه الشدّة والمضاعفة ترتبط بالتذكّر والتوجّه القلبيّ.

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية الشريفة: «كانت رسوم العرب في الجاهلية أنّهم بعد انتهاء أعمال الحج يجلسون في مِنى ويبدأون بمدح وذكر آبائهم من خلال الأشعار والخطب، ولكنّ الإسلام جاء وأبطل هذا الرسم وأبدله بذكر الله تعالى. وفي هذه الآية، وُصف الذكر بالشدّة ممّا يعني أنّ الذكر كما أنّه يقبل الزيادة من ناحية الكمية كذلك يقبل الشدّة من ناحية الكيفيّة. هذا بالإضافة إلى أنّ الذكر في الحقيقة ليس هو اللفظ بل هو أمرٌ قلبيٌ يتحقّق بحضور القلب، أمّا اللفظ فيكون مبيّنًا له»[٢].

وما أكثر ما نقع في هذا الاشتباه فنعتبر أنّ الذكر ينحصر بالذكر اللفظيّ، وحين تتم التوصية بذكر الله فإنّنا نتصوّر أنّ المقصود هو أن نقول الحمد لله أو التسبيحات

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٠.

(٢) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ٢، الصفحة ٨١.

الأربعة وغيرها. هذا في حين أنّ جميع هذه الألفاظ إنّما هي حاكيةٌ عن الذكر. وفي الواقع، فإنّ الذكر الذي يؤكّد عليه أو يوصى به هو تذكّر الحقّ وتوجّه القلب إليه. ممّا يعني أنّ على الإنسان أثناء القيام بوظائفه وتكاليفه أن يكون ذاكرًا لله لكي يؤدّي عمله بذكر الله، ويصل إلى محضره، أو أن يتذكّر الحقّ إذا همّ بمعصية، لكي يكون ذكره تعالى سببًا لتجنّبها.

وارتباط الذكر اللفظي بالذكر القلبيّ، أو ارتباط اللفظ بالمعنى، يشبه ارتباط قشر الفاكهة بلبّها. فإنّ الذكر اللفظيّ يكون بمثابة اللباس والقشر بالنسبة للذكر القلبيّ، والذكر القلبيّ هو اللب والمضمون. فالأذكار اللفظية تكون مقدّمة للأذكار القلبية الباطنية. ولا شك أنّه من الضروريّ الاهتمام بها. وبهذا اللحاظ، حدّدت الروايات مقدار الأذكار ومواردها، كما ورد بشأن تعقيبات الصلاة، وأمثالها.

ارتباط الذكر اللفظيّ بالقلبيّ

ومن المناسب هنا أن نبيّن بمزيدٍ من التوضيح ارتباط الذّكر اللفظيّ بالتوجّه القلبيّ، ونبيّن أيضًا لماذا تمّ التأكيد إلى هذا الحدّ على الذكر، إلى درجة أنّه جُعل هدفًا للصلاة. وفي الأصل فما هو دور الذكر في حياة الإنسان وسعادته وتكامله؟ فهل أنّ أولئك الذين لا يذكرون الله ولا يتوجّهون إليه بقلوبهم، سوف يقعون في الخسران، أو تحلّ بهم المصائب؟

حين نتكلّم، ونتلفّظ بكلمات، فإنّنا قبل ذلك نتصوّر المعاني في باطننا، ويكون قصدنا من التكلّم هو إلقاء المعاني وتفهيمها للآخرين. ففي العادة، يكون التكلّم لأجل بيان مقصودنا للآخرين، هذا وإن كان المراد من اللفظ والتكلّم في بعض الأحيان غير ذلك كبعض القضايا النفسية الخاصّة، أو كما في حالة تلقين النفس.

فممّا يوصي به بعض علماء النفس في مجال العلاج النفسي: ممارسة التلقين، الذي له مجموعة من الألفاظ والآداب الخاصّة لكي يكون مؤثّرًا. مثل التأكيد على أن يكون التلقين في مكانٍ خالٍ وأن يُرفع الصوت ويكرّر الكلام حتى يؤثّر في الروح، ومثل هذه الموارد تُعدّ استثناءً. فالأغلب أنّ الإنسان إذا تكلّم، يتصوّر قبل تلفّظه بالكلمات المعنى في ذهنه، ثمّ يلقيه على الآخرين من خلال الألفاظ.

والإنسان العاقل لا يتكلّم أبدًا من دون الالتفات إلى المعنى والمفهوم، ذلك لأنّ لكلّ لفظ حكايةً عن معنى.

فأثناء التلفّظ بالأذكار، كالتسبيحات الأربعة، نتصوّر في البداية بعض المعاني ونجعل هذه الألفاظ مبيّنةً وحاكيةً عنها، ولا يكون المقصود هنا أن نفهّم الله أو الملائكة أو غيرهم هذه المعاني لأنّنا لا نقصد بذلك مخاطبتهم، بل نريد أن نجعل تلك المعاني مؤثرةً في أرواحنا فيكون الأثر حاصلًا من المعنى، وليس اللفظ إلا أداةً ووسيلة.

حين نقول «الله أكبر» ونعدّ هذا الذكر عملًا مقدّسًا، فإنّ هدفنا هو جعل معناه مؤثرًا في روح الإنسان وسعادته، ذلك لأنّ هذه الألفاظ والحروف: ألف، لام، كاف، إذا جُرّدت من المعنى لا تكون سوى أصوات تخرج من الفم ولا تنتج أثرًا. لهذا، فإنّ الذاكر ينبغي أن يتوجّه إلى المعنى ويقوم بتذكّره.

ونخلص إلى هذه النتيجة وهي أنّ قبل مرتبة الذّكر اللفظيّ، هناك مرتبةٌ نازلةٌ من ذكر الحقّ وتذكّره. وبعد هذا الذكر، هناك مرتبةٌ أعلى منبثقة منها أيضًا. فحين يذكر الإنسان يكون قبل ذلك متوجّهًا إلى الله (فلو كان غافلًا عن الله مطلقًا لما نهض إلى ذكره) وإن كان هذا التوجّه ضعيفًا، فإنّه قبل أن يذكر الله بلسانه يكون متوجّهًا إليه بنحوٍ ما، ثمّ يأتي بذكرٍ يحكي عن ذكر الله تعالى. فالمسلَّم أنّه قبل هذا الذكر، هناك مرتبةٌ موجودةٌ فينا تتعلّق بذكر الله.

فائدتان للذّكر اللفظيّ

أوّل فائدةٍ وهدفٍ للذّكر اللفظيّ هي أن نقوّي تلك المرتبة الضعيفة من ذكر الله، لكي يتمركز توجّه الإنسان إلى الله. ففي البداية، هناك توجّهٌ مبهمٌ إلى الله أو توجهٌ مشتّت وبالذكر اللفظي وخصوصًا الصلاة، يقوى ذلك التوجّه ويتمركز ويتّجه نحو الحقّ. فهذا هدفٌ أو فائدةٌ يمكن تصويرها لأجل الذّكر اللفظيّ.

والفائدة الأخرى للذّكر اللفظيّ أنّه إذا لم يقوَ ذلك التوجّه الضعيف فينا، فعلى الأقل يبقى ويستمر، فلا يزول. فإنّ أحوال الإنسان وتوجّهاته، ومنها ذكر الله، دائمًا في معرض التغيير والتحوّل والزّوال. لهذا، فلأجل الإبقاء والاستمرار على ذلك التوجّه القلبيّ، يجب أن نستعين بالذّكر اللفظيّ لكي لا ننسى ذكر الله. وهكذا،

يمكننا أن نتعرّف على فائدتين وهدفين للذكر وإن كان الهدف الأوّل أفضل وأعلى.

وقد لا يكون للذّكر اللفظي أي فائدةٍ، وذلك إذا كان الذكر مجرّد عادةٍ اعتادها الإنسان أو لقلقة لسان، دون أي توجّهٍ إلى المعنى فيه، وهذا يشبه سائر العادات اللسانية والعملية الموجودة عند البشر التي يؤدّونها من دون أي توجّهٍ إلى ما اعتادوا عليه. فالبعض يسبّحون بشكلٍ دائم من دون أن يعرفوا أو يلتفتوا إلى تسبيحهم وفائدته أو الاستفادة منه. كما أنّ البعض من عادتهم أن يلعبوا بلحيتهم أو شاربهم من دون أي توجّهٍ أو التفات، وهذا ما يحدث أيضًا عند الأطفال على مستوى عادات التلفّظ أو التكلّم كأن يجري على ألسنتهم بعض الكلمات من دون أن يعرفوا معناها.

فبالنسبة لمعظمنا، تتحوّل قراءة بعض الأدعية والأذكار إلى عادةٍ جافّة من دون أن يكون لدينا أيّ توجّهٍ إلى مضامينها. ولهذا، فإنّها تفقد التأثير المطلوب، ولا توجد أي تغييرٍ يذكر فينا. فمن الممكن مثلًا أن نشرع بعملٍ نكون فيه في البداية بحالة توجّهٍ ونجري على ألسنتنا أحد الأذكار، كما إذا سمعنا مثلًا من روايةٍ أنّ لتسبيحات فاطمة الزهراء عليها السلام ذلك الأجر والثواب، فنتلفّظ بتلك التسبيحات متوجّهين إلى ذلك الأجر المذكور، ولكن بعد مدّةٍ، وشيئًا فشيئًا، يضعف توجّهنا حتى نصل إلى مرحلةٍ لا تكون هذه الألفاظ الجارية على ألسنتنا سوى عادةٍ اعتدنا عليها، من دون أن يكون فينا أيّ توجّهٍ. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الألفاظ كـ «الله أكبر» و«لا إله إلا الله» حتّى لو خلت من أي توجّهٍ، هي أفضل من تلك الكلمات العبثية واللغوية والقبيحة، ولكنّها في الوقت نفسه إذا خلت من التوجّه تكون فاقدةً للأثر الروحيّ المطلوب في الإنسان.

لقد كنّا نشاهد أشخاصًا رغم عدم اعتقادهم وإيمانهم بالله يذكرون الله من باب العادة وذلك بعد أن صار الأمر عندهم نوعًا من التقاليد. ففي السابق، كنا نشاهد بعض الشيوعيّين في بلدنا ممّن لا يعتقدون بالدين أو بالمعنويات أو بوجود الله تعالى، لكنّهم طبق الرسوم والعادات الجارية إذا أرادوا أن يودّعوا بعضهم فإنّهم يقولون من باب الاحترام «حفظك الله» من دون أن يتوجّهوا إلى معنى ما يقولون. وهذا أيضًا ما يحدث لنا نحن المسلمين حيث إنّنا نذكر الله من باب الرسوم والعادات من دون التوجّه إلى المعاني والمضامين الموجودة في ألفاظها.

إنّ كلمة الله كانت معهودةً بين عرب الجاهلية وبين أولئك الذين كانوا حديثي

العهد بالإسلام، وكانت هذه الكلمة المقدّسة شائعة بينهم. وحين كان أحدهم يمرّ قرب كلبٍ أو خنزيرٍ فإنّه كان يقول متنفّرًا: «اللهم اخزه» من دون أن يكون ملتفتًا إلى الله أو ذكره. فقد كانت هذه عادة جارية ولم تكن هذه الألفاظ حاكيةً عن الاعتقاد القلبيّ أو مترجمةً للتوجّه الباطنيّ إلى الله. ومن المسلّم أنّ هذه الألفاظ تكون فاقدةً لأي أثرٍ في الإنسان ولا يمكن عدّها من باب ذكر الله.

وفي هذا الحديث، يوصي النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبا ذر بأن يتوجّه إلى عظمة وجلال الحقّ قبل أن يبدأ بذكره تعالى. فعليك أن تتذكّر أنّ الله خالق العالم كلّه وأنّ كل شيء بيده وتحت قدرته وكما أنّ لله تعالى من العظمة والجلال ما لا يتناهى، فإنّ لأسمائه أيضًا جلالًا وعظمة غير متناهية. لهذا، عليك أن تذكره بالتوجّه والتّعظيم. وإنّما يتحقّق ذلك إذا كانت روحك وكان قلبك مدركًا لعظمة الحقّ المتعال، لكي تذكر اسمه بكامل الخشوع والخضوع، ولا تكن كالجاهل الذي يذكر اسم الله من دون التوجّه بل بحسب العادة والتقليد.

فالذكر المطلوب هو الذكر الذي يؤثّر في روح الإنسان وباطنه. هو الذكر الذي يحقّق اطمئنان القلب، وهو الهدف من الصلاة. هو الذّكر الذي يؤدّي إلى علوّ الروح والعروج المعنويّ للإنسان، ويؤدّي إلى تجاوز تلك التصوّرات والأفكار المادية الفارغة، والتوجّه إلى عالم الآخرة الباقي والنعم اللامتناهية للحقّ. هو الذكر الذي يؤدّي إلى تثبيت علاقة الإنسان بربّه وذلك من خلال التوجّه إلى المعنى والمضمون والتوجّه إلى حضور الحقّ تعالى. وذلك هو الذّكر الذي وصفه الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

وفي الختام، من المناسب أن نذكر ما ورد في كلام أمير المؤمنين علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في وصف بعض أصحاب النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**لقد رأيت أصحاب محمدٍ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ **فما أرى أحدًا يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثًا غُبرًا وقد باتوا سجّدًا وقيامًا يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم**»[2].

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ٩٧، الصفحة ١٨٩.

الدرس التاسع عشر

عظمة مقام الربّ في نظر الملائكة

❖ الدور المحرّك للرّجاء والخوف

❖ ماهية الخوف والخشية

❖ فائدة الخوف الإلهي وموقعه

❖ مقام الخوف عند أولياء الله وأولياء الدين

❖ الكمال الإنساني والإحساس بالحقارة والذلّة أمام الحق

❖ الخوف الإلهيّ واجتناب المعاصي والشهرة وحبّ الجاه

❖ دور النظر إلى مقام خوف أحباب الله والملائكة

«يا أَبا ذَرٍّ، إِنَّ لِلّٰهِ مَلائِكَةً قِيامًا مِنْ خيفَتِهِ ما رَفَعُوا رُؤُسَهُمْ حَتّى يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الْآخِرَةُ فَيَقُولُونَ جَميعًا: سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ ما عَبَدْناكَ كَما يَنْبَغي لَكَ أَنْ تُعْبَدَ».

تحدّثنا في السابق عن ذكر الله وقلنا إنّ الذكر ينبغي أن يصدر من قلبٍ خاشعٍ متوجّهٍ خاضع، وأن لا يكون مجرّد عادةٍ أو لقلقة لسان. والحديث الآن فيما يمكن أن يؤثّر في إيجاد التوجّه والحضور في قلب الإنسان أثناء الذكر. لهذا، نجد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِه يطرح نقطتين مؤثّرتين بشكلٍ كبيرٍ في إيجاد التوجّه إلى الله وإدراك حضوره أثناء الذكر.

الدور المحرّك للرجاء والخوف

إنّ الدافع الموجود عند الإنسان من وراء الأعمال الاختيارية، وبشكلٍ طبيعيّ، هو ما يرجوه من تحصيل النفع أو ما يخافه من وقوع الضّرر. وممّا لا شك فيه أنّ دائرة النفع والضّرر واسعةٌ جدًّا، تكون بالنسبة للبعض منحصرةً في إطار المنافع والمصالح الدنيوية المادية، وبالنسبة للبعض الآخر تتّسع لتشمل المنافع المتعلّقة بالآخرة من الثواب والنعم.

وفي المقابل، يكون الضّرر الماديّ والدنيويّ أقصى ما يخافه البعض، بينما يكون بالنسبة للبعض شاملًا للضرر والعذاب الأخروي.

والأفضل من هاتين الطائفتين طائفة أولياء الله، الذين وجدوا المصلحة والمنفعة في نيل مقام الحضور الإلهيّ والاستفادة والالتذاذ من رضوان الحقّ، ورأوا أنّ الضّرر الواقعيّ هو في الحرمان من تلك السعادة والكمال. فخوفهم هو من

أن يُحرموا من لقاء الله. وممّا لا شك فيه أنّ هذا الخوف أشدّ من خوف الآخرين المتعلّق بالضّرر الدنيويّ أو الأخرويّ. وبالطبع، فإنّ حقيقة هذا الأمر تبقى بالنسبة لأمثالنا مجهولةً وعن أفهامنا بعيدةً. ونحن إنّما نصل إلى هذا المعنى ونؤمن به حين نظر ونتأمّل بشكلٍ إجماليّ في الآيات والروايات التي تُخبرنا عن وجود مثل هذا الخوف. ونسأل الله تعالى أن يوفّقنا لإدراك هذا المعنى ببركة التأمّل في الكلمات النورانية لأهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ.

وعلى كلّ حال، فإنّ الخوف الإلهيّ أو الخوف من الضّرر الذي قد يحدث بفعل الإنسان، ويكون الله قادرًا على دفعه، يبعث في الإنسان ذلك التوجّه العميق إلى الربّ، كما أنّ الشوق إلى الثواب والعطاء الإلهيّ أو الشوق إلى لقاء الله يبعث في الإنسان المزيد من التوجّه.

هذا وإن كان الخوف بالنسبة لأكثر الناس هو الدافع الأكبر في حملهم على السعي، وله الدور الأكبر في إخراجهم من الغفلة والالتفات إلى ما يحيق بهم من خطرٍ وضرر.

كلّ واحدٍ منّا يمكنه أن يختبر نفسه إذا سمع خبرًا مهولًا يحمل معه الأخطار الكبيرة والضّرر الكثير. فهل يضاعف سعيه واندفاعه لدفع ذلك الضّرر عن نفسه؟ أم أنّه يضاعف من جهده وكدّه في حال رجاء الثواب والمنفعة؟!

فبالنسبة لنا إنّ السعي لأجل دفع الضّرر أهمُّ من جلب المنفعة. ولعلّ هذا الأمر هو الذي كان سببًا في تأكيد القرآن الكريم على الإنذار أكثر من التبشير وتعريف الأنبياء بأنّهم منذرون. وفي بعض الآيات عرّف الأنبياء بأنّهم مبشّرون ومنذرون كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

ويندر أن نجد موضعًا يُشار فيه إلى أنّهم «مجرّد مبشّرين». أمّا الإنذار فقد ذُكر كثيرًا بشأنهم كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[2].

والتركيز على إنذار الأنبياء يعود إلى أنّ الأثر الأكبر يتحقّق من خلال إنذارهم

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

(٢) سورة **الملك**، الآية ٨.

وتحذيرهم للناس، ممّا لا نجده في التبشير بالعاقبة الحسنة للأعمال.

إنّ الخوف الإلهيّ يُعدّ من الحالات التي تحمل معها الكثير من الفوائد على الإنسان وخصوصًا إذا صار ملكةً راسخةً فيه. ومثلما ذكرنا، فإنّ من جملة فوائده وآثاره هو ذلك الذكر والتوجّه العميق إلى الله. هذا وإن لم يكن المقام هنا مقام الدخول في المباحث العلمية، ولكن من أجل المزيد من فهم الرّوايات التي وردت بشأن الخوف من الله ومن أجل إيجاد التأثير الأعمق من الخوف الإلهيّ في القلب والرّوح نشير إلى بعض هذه المباحث.

ماهية الخوف والخشية

من جملة المباحث المطروحة ها هنا ما يتعلّق بحقيقة الخوف والعوامل التي تؤثّر في إيجاده، والآثار التي تستتبعه. وهل أنّ الخوف يختلف عن الخشية؟ وقد يكون لمثل هذه الأبحاث جهةٌ لفظية لغوية تطغى على ما عداها من الجهات، ومع أهميتها فمن المناسب مطالعة مجموعة من الآيات والروايات الواردة في هذا المجال من أجل الاطّلاع على حقيقة الخوف والخشية واختلافهما.

فبالتوجّه إلى موارد استعمال الخوف والخشية في الروايات والآيات لا نجد بينهما اختلافًا كبيرًا وفي بعض الموارد نجد أنّ أحدهما استُعمل محلّ الآخر.

حين يُدرك الإنسان عظمة الله ويشعر بها فإنّ إحساسًا من الذلّة والحقارة والخضوع والخشوع ينبعث من أعماقه. وهذه الحالة النفسية التي هي عبارةٌ عن رد فعلٍ طبيعيٍّ ممّا أودعه الله في أصل خلقة البشر. وفي العادة يتم التعبير عن هذه الحالة بالخشية. وفي الواقع، يُستعمل الخوف مكان الخشية أيضًا. وحين يُدرك الإنسان عظمة شيءٍ ما، فإنّه يشعر بالانكسار والمهابة في نفسه، حتى لو لم يتوجّه إليه أي خطرٍ منه، وكأن وجوده قد اندكّ.

ويحدث الخوف أحيانًا بسبب ما يشعر به الإنسان من توجّه الخطر إليه. وفي أغلب الأحيان، تُستعمل كلمة الخوف في مثل هذه الموارد. ولا شك بأنّ استعمال كلمة الخوف من الله يكون بمعنى الخوف من عقابه وجزائه إزاء الأعمال السيّئة للإنسان.

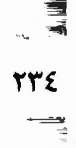

أمّا ما يحدث في نفوس أولياء الله: أولئك الذين وصلوا إلى مقامات العبودية السامية، فإنّ خوفهم يكون أحيانًا ناشئًا من التوجّه إلى عظمة الله، وفي بعض الحالات يكون بسبب التوجه إلى احتمال حصول الحرمان من حضور الله ولقائه، ذلك لأنّ لقاء الله ونيل مقام الحضور عندهم لا يُعدّ أمرًا حتميًا وقطعيًا، فمن الممكن أن يزول عنهم أو أن لا يتحقّق من الأساس بالنسبة لهم.

لهذا، فإنّ الالتفات إلى هذا الأمر يؤدّي إلى حصول حالة الخوف عند أولياء الله، ذلك لأنّ شرف لقاء الله والدخول إلى محضر عظمته يُعدّ أكبر كمالٍ وأعلى سعادةٍ وأمنيةٍ لذلك الإنسان العارف. وإنّ أكبر لذّةٍ تكمن في نيل شرف الحضور عند الله. ولو تقدّمنا خطوةً لأدركنا جيّدًا كيف أن رضا الله يحمل أجمل اللذات بالنسبة لنا.

فالمحبّ الذي يشعر بلطف محبوبه ورضاه، يخاف أن يُحرم من هذا الرضا والمحبة. فمثل هذا الأمر يمثّل سببًا أساسيًّا لأشدّ أنواع الخوف والقلق بالنسبة لشخصٍ سلك طريق المحبة. والمرتبة الأدنى من ذلك مرتبة الخوف من العقاب الإلهيّ والعذاب الأخرويّ الذي نجد أنّ أغلب الآيات القرآنية والروايات في هذا المجال ناظرة إليه. ومثل هذه المرحلة تُعدّ بالنسبة لنا مرحلةً وسطى على طريق الوصول إلى المراحل الأعلى. فنحن الذين لم نصل إلى المراحل العالية للمعرفة الإلهية، تكون هذه الحالة المتوسّطة من الخوف الإلهيّ سببًا لإعراضنا عن الدنيا ولذّاتها، وعاملًا يجنّبنا المعاصي ويبعدنا عن الأرجاس والأدناس الدنيوية. وليس بالأمر البسيط أن يكون في داخل الإنسان عاملٌ يصدّه عن التعلّق بالدنيا والمعاصي.

بالنسبة لأهل الهمم السافلة، فإنّ الخوف من الله يكون بمعنى الخوف من بلاءات الدنيا ومشاكلها، كخوفهم من أن يبتليهم الله بالأمراض أو يسلبهم جاه الدنيا وعزّها فيسقطون من أعين الناس. أو يكون خوفهم من أن يفقدوا أعزّتهم. فالخوف من الابتلاء بالمصائب والآلام يُعدّ مرتبةً من الخوف الإلهيّ لأنّها لا تتحقّق إلّا بإذن الله. وهذا الخوف مطلوبٌ في الجملة، ولعلّ أكثر ما نراه في إنذار الأنبياء ناظرٌ إلى هذا القسم من الخوف الإلهي.

فائدة الخوف الإلهيّ وموقعه

والحديث دائرٌ حول أهمية الخوف الإلهيّ وفائدته. فما هي القيمة الموجودة في الخوف الإلهيّ؟ وما هي الفائدة منه، حتى جاءت التوصيات والتأكيدات بضرورة أن يسعى الإنسان لتحصيل الخوف، ومعرفة سبيله؟

والحقّ أنّ أكثر الناس لم يطّلعوا على فائدة الخوف وإيجابيّاته. هذا، وإن كانوا يعلمون أنّ هناك الكثير من الآيات القرآنية قد نزلت بشأن الخوف الإلهيّ ومدحت من يخاف الله، ولكنّهم لا يعلمون ما هي الفائدة المستبطنة في هذا الخوف من الله والمصلحة التي تنبع منه!

فحين يأتي الحديث عن أنبياء الله وعظماء الدّين، و يتم ذكر حالاتهم في الخوف من الله، ينظر الناس بتعجّبٍ إلى هذه الحالات، ويتساءلون عن سرّ هذا المستوى من الخوف وذلك البكاء الشديد الذي تحرق فيه دموع العين خدود الوجه!

فقد رُوي عن حالات النبيّ يحيى عَلَيهِ السَّلَامُ . الذي عُرف بالخوّاف من بين الأنبياء . أنّه كان يبكي خوفًا من الله إلى درجةٍ أنّ دموعه كانت تحرق وجنتيه، حتى صنعت له أمّه شيئًا تضعه على وجهه لكي تخفف من آثار دموعه الملتهبة. فحين يسمع بعضنا عن هذه القصص يتعجّب ويتساءل عن سرّ هذا البكاء من قِبل نبيٍّ من أنبياء الله! فلو التقينا بمثل هذا الإنسان فإنّنا إن لم نصفه بالجنون نقول عنه بأنّه غير طبيعي!

فلو تدبّرنا معتبرين في آيات القرآن المجيد لأدركنا أنّ الخوف قد عُدّ شرطًا للاستفادة من تعاليم الأنبياء ووصاياهم للوصول إلى السعادة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾[1].

ففي هذه الآية، يلفت المولى سبحانه نظر نبيّه إلى توجيه دعوته وهدايته

---

(١) سورة **يس**، الآية ١١.

نحو أصحاب القلوب التي تخشى الله. تلك القلوب التي لم تتكدّر فطرتها بكدورة المعاصي فيطغى عليها الرين ويطفئها. هذه الطائفة هي التي تستجيب لدعوة النبيّ وتربيته، لا الذي لا يخاف الله ويحذره، بل يمعن في معصيته من دون خوفٍ أو قلق أو اضطراب بال. ومثل هذا سيبقى قلبه متكدّرًا ويصير أقسى من الحجر، ولن يبقى فيه أي منفذ إلى النور. وفي آيةٍ أخرى، يقول الحق تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

ومن المسلَّم أنّ الخوف يكون مقابلًا للرّجاء والأمل. والله تعالى يذكر من خاف مقام ربّه ولا يقول من رجا مقام ربّه! ممّا يدل على أنّ الخوف الإلهيّ يضع في الإنسان حالة الحذر والحد من جموح هوى النفس، ويتقدّم به على طريق الهداية. ولا نجد للرجاء برحمة الله مثل هذا التأثير.

وفي آية أخرى، نجد أن الله تعالى، بعد أن يبيّن المقام الشامخ لأهل الإيمان والعمل الصالح، يخصّ الذين يخافونه بالجنّة ونعيمها: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾(٢).

وفي آية أخرى، عدّ الخوف والخشية والتواضع والخشوع لله من الخصائص البارزة للعلماء الإلهيين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٣).

وفي موضعٍ آخر، فإنّ الله تعالى ينهى المسلمين عن الخوف من الظالمين ويأمرهم بالخوف منه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٤).

ثمّ يقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة **النازعات**، الآيتان ٤٠ و٤١.

(٢) سورة **البينة**، الآية ٨.

(٣) سورة **فاطر**، الآية ٢٨.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ١٥٠.

(٥) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٥.

مقام الخوف عند أولياء الله وأولياء الدين

وبالنظر إلى الدور المهم للخوف الإلهيّ والتّأكيد عليه، نجد أنّ أولياء الله كانوا السبّاقين للمحافظة على هذه الحالة في أنفسهم. وحين نطالع أحوال النبيّ الأكرم والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نتعرّف إلى أمور عجيبة. ولو كنّا أمام رواية أو روايتين في هذا المجال لكان يحقّ لنا أن نشكّ في حصول مثل هذه الأحوال، ولكنّنا نجد من الروايات العددَ الكبير، ممّا يبلغ حدّ التواتر ويقطع كلّ شكٍ.

فإنّنا بمجرّد أن نذكر شخصية علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يتداعى إلى أذهاننا مباشرةً أحوال بكائه ومناجاته. حتّى لكأنّنا لا نستطيع أن نتصوّر الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ من دون خوفه وخشيته من الله، وهكذا الأمر بالنسبة للإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ. إنّ أدعيةً كدعاء أبي حمزة الثمالي وغيره من المناجاة هي دلائل بارزةٌ، تحكي عن هذا الخوف الذي لا نظير له.

وقد جاء في إحدى الروايات أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كان يقف للوضوء كان يصفرّ لونه ويهتزّ كل وجوده وتعتريه حالةٌ من الخشية تملأ كيانه. كذلك ما ورد بشأن الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إذا دخل المسجد، يتغيّر لونه ويصفرّ وجهه ويرتجف بدنه حين يريد أن يكبّر للصلاة. ومثل هذه الحالات مع الله تعالى ذُكرت بشأن سائر المعصومين وبشأن السيدة فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ.

فهذا الاهتمام الفائق بإحياء حالة الخوف الإلهيّ في الباطن، والتوصية والتأكيد عليه، وظهور هذه الأحوال في سلوك أولياء الدين. كل ذلك بسبب الدور البارز والمهم للخوف في بناء وتكامل وتعالي الإنسان ووصوله إلى طريق الهداية والعبودية.

ولا شك بأنّ الأمر يرتبط بمراتب الخوف، وعلى أساسه تكون الآثار والفوائد متفاوتةً. حين نقوم بدراسة ومراقبة حالاتنا نعلم أنّ هناك حدًّا معيّنًا من الخوف الإلهيّ في باطننا، وعليه تترتّب مجموعة خاصّة من الفوائد. ولكنّنا حين نطالع أحوال أولئك الذين بلغوا من المعرفة شأنًا عظيمًا، وسبقونا في هذا العرفان، ووصلوا إلى كماله، ندرك أنّ خوفهم من الله هو على نحوٍ آخر، وأنّ آثاره وفوائده أيضًا على صورةٍ أخرى.

ولا شك بأنّ الحديث عن مقام الخوف الإلهيّ وتبعاته وآثاره أمرٌ صعبٌ ولأجل أن يتّضح هذا المطلب بنحوٍ ما، أجد من اللازم أن أذكر هذه المسألة. فإنّ الإنسان إذا أدرك عظمةً ما تعتريه حالةٌ يشعر معها باندكاك وجوده، وكأنّه قد أضاع نفسه، ولم يعد يرى لها أثرًا. وبعبارةٍ أخرى، إنّ الإنسان إذا شعر بعظمةٍ ما فإنّه يتصاغر أمامها ويذوب كالثلج حين يتّصل به شعاع الشمس. فهذا الذوبان ونسيان النفس هو أثرٌ لحالةٍ تحدث بسبب إدراك عظمة الله.

وبالالتفات إلى ما مرّ من أبحاثٍ ومطالبَ في هذا المجال، فقد ورد في الكتب الأخلاقية والعرفانيّة أنّ الإنسان حين يصل إلى الكمال، فإنّه إذا نظر إلى عظمة الربّ المتعال والتي لا حدّ لها ولا نهاية يشعر في أعماقه بمنتهى الذلّ والتصاغر والحقارة. ويعبّر العرفاء عن هذه المرحلة بمقام الفناء: ففيها لا يبقى الإنسان مدركًا لنفسه. وحين يفقد نفسه ويرى ربّه ويدرك عظمته، فإنّه يتقرّب إليه أكثر، ويدرك بصورةٍ أفضل عمق هذه الرابطة مع الله.

وبعبارة أهل هذا الفنّ، يدرك أنّه لا وجود لشيء سوى هذا التعلّق.

هذا الكلام وإن كان جذّابًا وممتعًا، ولكن الحقيقة تقول إنّ من وصل إلى هذا المقام هم عدّةٌ قليلةٌ جدًّا من الناس، أمّا نحن فلا زال أمامنا مسافةٌ طويلةٌ. ولا ينبغي أن نظن أنّنا بمجرّد أن نتعلّم مجموعةً من المصطلحات نحلّ هذه العقدة الشائكة. فإنّ مشكلتنا تُحلّ فقط من خلال إدراك الحقائق. وهذا ما لا يتحقّق إلّا في ظلّ العبودية والطاعة لله واتّباع سيرة أهل بيت العصمة والطهارة.

فيجب أن نسعى للسير على طريقهم ونقتبس من حالاتهم وخوفهم وخشيتهم ونلقّن قلوبنا ما اقتبسناه، لنتقرّب أكثر إلى ربّنا المتعال، بحسب ما يكون فينا من استعداد ولياقة. فإنّ الالتفات إلى تلك المقامات السامية والاعتراف بوجودها في الحقيقة مفيدٌ جدًّا بشرط أن لا نغتر ولا نتخيّل أنّنا وصلنا إلى تلك المقامات.

الكمال الإنساني والإحساس بالحقارة والذلّة أمام الحقّ

فكمال الإنسان إذًا في أن يذوب مقابل الحقّ ويفنى ولا يرى لنفسه استقلالًا، بل يراها عين التعلّق والاحتياج إلى الله، وكلّما رأى نفسه أشدَّ احتياجًا وأشدَّ حقارةً فسوف يقترب من الله أكثر.

إنّ طريق الوصول إلى هذا الكمال يكون حين ندرك عظمة الله ونشعر في مقابل ذلك بالذلّ والحقارة في أنفسنا. وبالنسبة لأولئك الذين يطلبون الكمال والمعرفة والمقامات الشامخة للعبودية، فإنّ هذا الطريق هو الأمثل.

وبالنسبة لنا، إذا كنّا نظنّ أنّ الخوف حالة غير مطلوبة، نتعجّب حين نسمع عن حالات خوف أولياء الله والتذاذهم بذلك. بحيث إنّهم لو خسروا هذه الأحوال لسعوا مرّةً أخرى لتحصيلها وتثبيتها في نفوسهم. فإنّ هذا الخوف والخشية أمرٌ مطلوبٌ ولذيذٌ عندهم إلى الدرجة التي لا يتحمّلون زوالها لحظةً واحدةً!

وحيث إنّنا لم نصل إلى هذه المرحلة، لن نقدر على إدراك هذا الأمر بصورةٍ تامّة، فكيف ببيانه! ولكن ما سمعناه وعرفناه من سيرة وأحوال أولياء الله هو أنّهم كانوا أهل العشق الشديد، وكانوا يلتذّون بالآلام التي تعرض عليهم في سبيل المحبوب. فللبكاء من فراقه لذّة خاصّة. هذا مع أنّ منشأ البكاء أمرٌ مزعج ومحزن، ولكن بما أنّه لأجل المحبوب فهو باعثٌ على اللذة.

ونحن لهذا الأمر نقول إنّ الخوف الإلهيّ أمرٌ مطلوبٌ وبنّاءٌ عند أولياء الله، ولهذا، فإنّهم لا يبخسون حقّ هذه الحالة التي يعيشون فيها هذا الفناء والذوبان مقابل عظمة الله وتعتريهم أحوال الخشية والخوف منه. فإنّهم على الأقل يعلمون أنّ مثل هذه الأمور هي مقدّمة الوصول إلى اللذة اللامتناهية الباقية التي لا يوجد بعدها لذّة.

لهذا، كان أهل الله وأولياء الدّين يولون أهميةً فائقة لمقام الخوف الإلهيّ لأنّ ذلك يُعدّ أفضل عاملٍ لأجل الحؤول والوقوف أمام جموح النفس وهواها وشعورها بالاستقلال والعجب. كما أنّ هذه الحالة بالنسبة لهم تُعدّ أفضل وسيلةٍ للوصول إلى مقام الفناء.

وفي هذا المجال، من المناسب أن نذكر مسألةً وهي أنّ بعض الناس حين يتعلّمون بعض المصطلحات العرفانيّة مثل مقام المحو والفناء في الله يتصوّرون أنّهم أصبحوا من العرفاء وقد بلغوا مرتبةً ما! فنقول لهؤلاء إنّه من المناسب أن تتفحصوا أنفسكم وتختبروها: هل للخوف والخشية من الله في قلوبكم أثر أم لا؟ وهل كان في حياتكم ليلة واحدة لم تناموا فيها إلى الصباح من خيفة الله؟ وهل حدث لكم أنّ دموع عيونكم قد شقّقت خدودكم من البكاء؟

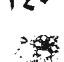

فما أسهل أن يدّعي الإنسان أنّه واصلٌ وأنّه بعد ذلك لا يحتاج إلى السير والسلوك والعبادة! ولكنّنا حين ندقّق قد نجد أنّه لم ينل ذرةً من حالات أولياء الله تعالى. فهل تظهر آثار تلك الأحوال فينا؟

إنّ مجرّد تعلّم بعض المصطلحات، كمجرّد الادّعاء لا يجعلنا من العرفاء.

هذا الطريق بعيد المسافة ومليءٌ بالمخاطر، وبقول ذلك الرجل المتألّه الكبير المرحوم آية الله الشيخ محمد تقي الآملي: إنّ سلوك هذا الطّريق يشبه نقل الجبال برموش العين!

لو أراد أحدٌ أن يسلك طريق المعرفة يجب عليه أن يتحمّل المصاعب وينهض للرياضات وإحياء الليالي، وأن يسلك الطريق كما سلكه أهله. عليه أن ينظر في أحوال أولياء الله كالإمام علي والإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ ويتعلّم منهم كيفية سلوك هذا الطريق.

الخوف الإلهيّ واجتناب المعاصي والشهرة وحبّ الجاه

وبناءً على ما مرّ، فإنّ آثار الخوف الإلهيّ بالنسبة لأولئك الذين وصلوا إلى تلك المقامات المعنويّة الشامخة تُختصر بالفناء في الله. أمّا بالنسبة لعامّة الناس، فإنّ أكبر أثر للخوف الإلهيّ هو اجتناب المعصية. حين يرتكب الإنسان معصيةً، فإنّ ذلك يكون لأجل تحصيل المنفعة أو إدراك نعمة أو نيل لذّة سواء كانت تلك اللذّة واقعية أو خيالية، وسواء كانت من شهوات البطن والفرج أم من شهوات الشهرة والجاه.

فما يمكن أن يردع الإنسان عن مثل هذه الدوافع الباطلة التي تؤدّي إلى المعصية والانحراف والسقوط في شراك الشيطان هو الخوف من الله، بأن يلتفت إلى العواقب والآثار السيّئة للمعصية وما يستتبع ذلك من الحرمان الأبديّ من النعم الخالدة في الآخرة والسقوط في هاوية العذاب الدائم.

وممّا جاء في بعض الأحاديث أنّ القلب إذا سيطرت عليه خيفة الله يخرج منه حبّ الشّرف والرّئاسة. فالذي يخاف من الله لا يمكن أن يكون طالبًا للجاه والمنصب ولا يسعى لنيل المنزلة في قلوب الناس والشهرة بينهم. إنّ حبّ الجاه من أكبر الآفات التي تصيب الإنسان، وقد ورد في بعض الروايات أنّ أعظم آفة

بالنسبة للمؤمنين هي حبّ المال والشرف. وحبّ الشرف يعني هنا طلب الجاه والرّئاسة. فالشيء الذي يمكن أن يعالج حبّ الجاه، الذي هو آخر صفة سيّئةٍ تخرج من قلوبِ الصدّيقين، هو الخوف من الله تعالى.

فمن المسلّم أنّ من أدرك عظمة الله، واطّلع على حقيقة ذلّته وفقره أمام الله، وعلم العواقب السيّئة للمعصية في الدنيا والآخرة سيزول من قلبه هوس الشهرة وحبّ الجاه والمقام. فأكبر أثر للخوف الإلهيّ فينا سيكون اجتناب أرجاس المعاصي. ولا شك بأنّ أولئك الذين كمُلت معرفتهم تزداد محبّة الله في قلوبهم وتستولي عليه.

دور النظر إلى مقام خوف أحباب الله والملائكة

وحيث وصل الكلام إلى الخوف الإلهيّ وفوائده وأهميّته، يأتي السؤال المتعلّق بتحصيل الخوف والبرنامج الذي يحقّق هذه الحالة السامية فينا؟

فمن بين أفضل الطّرق للوصول إلى هذه المرحلة، هو النظر إلى مقام وحالات خوف أولئك الذين كان لهم الحظوة عند الله. ولا شك بأنّ الالتفات إلى أحوالهم وخوفهم اللامحدود من الله تعالى هو أفضل مشوّق لنا لكسب مقام الخوف الإلهيّ. وهذا هو الأسلوب الذي اعتمده النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا الحديث.

ومن المعلوم أنّ من أعزّ العباد إلى الله ملائكته. وحين يصف الحقّ تعالى هؤلاء العباد في كتابه العزيز يقول عزّ من قائل: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[1].

وبالالتفات إلى ما ذُكر من أنّ معرفة عظمة الله والتوجّه إليها يؤدّي إلى حدوث حالة الخوف والخشية من الله، فإنّنا نجد النموذج البارز من هذه المعرفة في الملائكة المقرّبين. كما بين لنا النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذه الرواية حال طائفةٍ منهم بحيث إنّهم يرون أنفسهم في محضر الله في عين الصغار والحقارة، يخافونه ويخشونه، وهم منذ بدء خلقهم إلى يوم القيامة. والتي يمكن أن تبلغ آلاف آلاف

(١) سورة **الرعد**، الآية ١٣.

السنين . واقفون مطأطئي الرؤوس. ولعلّ ذلك من شدّة خوفهم من القهر الإلهيّ واضطرابهم، أو من توجّههم إلى العظمة الإلهيّة المطلقة. التي لا يملكون عندها الجرأة على رفع رؤوسهم[١].

فإذا كنّا نرى الملائكة الذين تطهّروا من كلّ لوثٍ ورجسٍ على هذه الحالة من الخوف أمام الله تعالى، مهطعين ومطأطئي الرؤوس أمام عظمته، ويرتجفون من الشّعور بالتقصير في عبوديّتهم لله، ولا يقدرون على رفع رؤوسهم إلى يوم القيامة، أليس من الجدير بنا نحن المبتلين بالذنوب والمعاصي وأسرى أهواء النفس وشراك الشيطان أن نخجل ولا نرفع رؤوسنا حياءً!!

هذا المثال البارز والحالة التي كانت تعتري الملائكة بين يدي الله تعالى، قد نجدها في أنفسنا: حين نقف أمام شخصيةٍ عظيمة نشعر بالهيبة ولا نقدر على التكلّم ونطأطئ رؤوسنا. أولئك الذين أدركوا عظمة شخصية الإمام وكانت لهم معرفة به عن قرب، حين كانوا يقفون بين يديه، كانوا يذوبون أمامه من فرط جاذبيّته، وشدّة عظمته وهيبته. كانوا يجدون أنفسهم أمام طودٍ عظيم من المعرفة والهيبة، ويشعرون بأنّهم ذرّات متناهية الصغر أو لا شيء. فهذا مقام أو عظمة عبدٍ من عباد الله!

ولله تعالى ملائكةٌ لا يعرف كنه مقامهم ولا يدرك عظمتهم إلا القليل من الأنبياء العظام والأولياء الكرام. فقد ورد أنّ جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تجلّى عدّة مراتٍ فقط بصورته الأصلية أمام النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وعند تجلّيه وظهوره كان النبيّ يشاهد نوره قد ملأ مشرق العالم ومغربه.

عَنْ أَبي جَعْفَر عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ: **كانَ بَيْنا رَسُولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **جالِسًا وَعِنْدَهُ جِبْرَئِيلُ إذْ حانَتْ مِنْ جِبْرَئيلِ نَظْرَةٌ قِبَلَ السَّماءِ فَانْتُقِعَ لَوْنُهُ حَتّى صارَ كَأَنَّهُ كُرْكُمٌ، ثُمَّ لاذَ بِرَسُولِ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **فَنَظَرَ رَسُولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **إلى حَيْثُ نَظَرَ جِبْرَئِيل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فَإذا شَيءٌ قَدْ مَلَأَ**

---

(١) وكما هو معلوم في المعارف الدينية فإنه ينفخ في الصور مرتان؛ الأولى عندما يموت جميع الخلق والثانية عندما تقوم القيامة الكبرى ويبعث من في القبور وهذه الرواية تدل على أن الملائكة لا تموت بالنفخة الأولى ولعلهم لا يموتون بتاتا ولو نسب الموت لهم فذلك بمعنى آخر غير ما نعهده.

بَيْنَ الْخافِقَيْنِ مُقْبِلًا حَتّى كان كقاب الْأَرض»[١].

ولا شك بأنّ مقام النبيّ ونورانيته أعلى من مقام ونورانية جبرائيل، ولكن حيث إنّ المقام الواقعيّ لجبرائيل قد تجلّى على المقام البشري والإنساني للنبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فقد ظهرت هذه العظمة.

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٦، الصفحة ٢٥٠.

الدرس العشرون
وصف النبيّ (ص) للجنة والنار

- ❖ التفكر في عظمة المخلوقات
- ❖ عظمة القيامة التي لا توصف
- ❖ ذكر وصف من عذابات جهنم
- ❖ رد فعل الإنسان والملائكة قبال شهيق جهنم وزفيرها
- ❖ المنزل الأعلى للمؤمنين والصالحين

«يا أَبا ذَرٍّ، وَلَوْ كانَ لِرَجُلٍ عَمَلُ سَبْعينَ نَبِيًّا لاَسْتَقَلَّ عَمَلَهُ مِنْ شِدَّةِ ما يَرى يَوْمَئِذٍ. وَلَوْ أَنَّ دَلْوًا صُبَّ مِنْ غِسْلينٍ في مَطْلَعِ الشَّمْسِ لَغَلَتْ مِنْهُ جَماجِمُ مِنْ مَغْرِبِها. وَلَوْ زَفَرَتْ جَهَنَّمُ زَفْرَةً لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلّا خَرَّ جاثِيًا عَلى رُكْبَتَيْهِ، يَقُولُ: رَبِّ نَفْسي نَفْسي، حَتّى يَنْسى إِبْراهيمُ إِسْحاقَ، يَقُولُ: يا رَبِّ أَنا خَليلُكَ إِبْراهيمُ فَلا تَنْسَني.

يا أَبا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِساءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ مِنْ سَماءِ الدُّنْيا في لَيْلَةٍ ظَلْماءَ لأَضاءَتْ لَها الأَرْضُ أَفْضَلَ مِمّا يُضيئُها الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوَجَدَ ريحَ نَشْرِها جَميعُ أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ أَنَّ ثَوْبًا مِنْ ثِيابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ نُشِرَ الْيَوْمَ في الدُّنْيا لَصَعِقَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَما حَمَلَتْهُ أَبْصارُهُمْ».

هناك طرقٌ مختلفة للوصول إلى مقام الخوف الإلهيّ، ومنها مطالعة أحوال الخائفين من أهل الخيفة والخشية من الله. فإنّنا بمعرفتهم نتمكّن من اتّخاذهم أفضل قدوةٍ على طريق الوصول إلى هذه الحالة السامية. ومن هؤلاء، ذُكر الملائكة في هذا المقام كأفضل عباد الله وقد تحدّثنا عن ذلك في الدرس السابق.

التفكّر في عظمة المخلوقات

والطريق الآخر للوصول إلى مقام الخوف الإلهيّ هو التفكّر في عظمة مخلوقات الله. فممّا لا شك فيه أنّ الإنسان إذا اطّلع على عظمة وإتقان وإحكام المخلوقات سيدرك عظمة وحكمة الله اللامتناهية، وسيدرك حقيقة عجزه واحتياجه إلى الله، وفي هذه الحالة، فإنّه يتحرّك أكثر من السابق باتّجاه الوصول إلى الكمال والرفعة الحقيقية، مفارقًا طاعة الشيطان واتّباع هوى النفس. هذا، بالإضافة إلى أنّ معرفة

الله وعظمته وقدرته اللامتناهية تُحقّق الخوف والحذر من مخالفته ومعصيته.

وبالنظر إلى دور معرفة عظمة المخلوقات في هداية الإنسان إلى معرفة عظمة الخالق، نجد في النصوص الدينية، من الروايات والآيات الشريفة، أنّ الله تعالى وأولياء الدّين أولوا اهتمامًا كبيرًا لبيان عظمة مخلوقات الله. وقد فُصل في بيان دقائق وإتقان وتنوّع هذه المخلوقات، وذلك لأجل حمل الإنسان على التفكّر في نفسه وفي هذه المخلوقات. سواء كانت كائناتٍ متناهية في الصغر، أم أفلاكًا لا يقدر الإنسان على معرفة نهايتها.

وهذا الإمام عليّ عَلَيهِالسَّلَامُ في كلامه النورانيّ يعدّ التفكّر في القدرة المطلقة للحقّ ونعمه التي لا تُحصى وسيلةً لهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم وإلى مقام الخوف من الله تعالى: «**ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق. ولكن القلوب عليلةٌ والبصائر مدخولةٌ. ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر**»[١].

ثمّ يكمل عَلَيهِالسَّلَامُ قائلًا: «**انظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيأتها لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفِكر كيف دبّت على أرضها وصُبّت على رزقها، تنقل الحبة إلى جُحرها وتعدُّها في مستقرِّها، تجمْع في حرّها لبردها وفي وردها لصدرها مكفولٌ برزقها مرزوقةٌ بوفقها لا يغفلها المنّان ولا يحرمها الديّان ولو في الصفاء اليابس والحجر الجامس**».

وفي روايةٍ مفصّلةٍ عن الإمام الصادق عَلَيهِالسَّلَامُ أنّ زينب العطّارة جاءت إلى بيت النبيّ الأكرم صَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ وسألته عن عظمة الله تعالى فأجابها النبيّ صَلَّىاللهُعَلَيهِوَآلِهِ وهو يقارن بين العوالم والسّموات السّبع والمجرّات ويبيّن صغر كلّ واحدٍ بالنسبة إلى الآخر وممّا قاله: «**إنّ هذه الأرض بمن فيها ومن عليها عند التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قيٍّ [...] والسماء الدنيا ومن فيها ومن عليها عند التي فوقها كحلقة في فلاة قيٍّ**»[٢].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٨٥، الصفحة ١١٦.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٧، الصفحات ٨٣ - ٨٥.

وهذه النسبة موجودة حين نقارن بين أيّ عالم والعالم الأعلى منه، حتّى نصل إلى السماء السابعة والتي هي لا شيء إذا قورنت بالعرش والكرسي!

وبسبب التأثير الكبير للتفكّر في سعة العالم وعظمته على معرفة صغر ولا شيئية الإنسان تجاه عظمة الخالق ونظام الخلقة، أوصى علماء الأخلاق وأهل الله بالنظر إلى البوادي الفسيحة والسهول والأراضي المترامية قبل القيام للصلاة ولتحصيل التوجُّه إلى ذات الحقّ. فهناك ستُدرك مدى صغرك وحقارتك مقابل نظام الخلقة العظيم.

ومن الطبيعي حين يكون الإنسان في مكانٍ ضيّقٍ ومحدود فإنّ تصوّره عن العالم يُحدّ بهذا المكان. ولكنّه حين يجول في الأماكن الواسعة والجبال والبحار، فسوف يتغيّر تصوّره عن العالم. وهذا الأمر مرتبطٌ بعظمة الأرض فكيف إذا أخذنا هذه السماء وقارنّاها بالسماء الأولى ثمّ قارنّا السّماء الأولى ببقية السموات!

والمعلومات التي تقدّمها لنا اليوم تلك الوسائل الحديثة من المراصد العظيمة حول الكواكب والنجوم والمجرّات تساعدنا كثيرًا على التفكّر في عظمة نظام العالم.

من الطبيعيّ لو فكّر الإنسان قبل العبادة في عظمة الخلقة لأدرك صغر نفسه بصورةٍ أفضل، وبهذه الطريقة يقترب من الله أكثر، لأنّ الطريق المستقيم والقريب للوصول إلى الله هو الشعور بالصغر والحقارة والذلّة أمامه.

عظمة القيامة التي لا توصف

ولا شك أنّ عالم الآخرة. ومنه الجنّة والنار. من أعظم ما خلق الله، وحيث إنّ تصوّره وإدراكه بالكامل غير ميسّر لنا. وما نستفيده ممّا ورد في الآيات والروايات أنّه كما نعجز عن إدراك عظمة الله فإنّنا عاجزون عن إدراك عظمة القيامة وأهوالها، ولا يمكننا أن نتصوّرها. ولكنّ التوجّه والنّظر إلى ما وصفته الآيات الشريفة والروايات عن القيامة يعيننا على تحصيل شيء من التصوّر والإدراك لموقعنا مقابل عظمة القيامة والجنّة والنار، وهي آيات تدلّ على عظمة الربِّ المتعال.

فممّا ورد بشأن الخوف والهلع الذي يسيطر على الجميع يوم القيامة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

إنّ أهوال يوم القيامة تصل إلى درجةٍ يذهل الإنسان عن نفسه بحيث يفقد القدرة على السيطرة عليها. والتعبير بذهول الأم عن ولدها الذي هو أعزّ ما لديها وهو في فترة الرضاعة، حيث يحتاج إلى أمّه أشدّ الاحتياج، إنّما يحكي عن هذه الأهوال والمخاوف. ولو تأمّل الإنسان في مفهوم ومضمون هذه الآيات لأدرك كم تحمل هذه المواقف من أهوال. وحينها سيفكّر مجدّدًا في سلوكه وتصرّفاته، حتّى يوجد ذلك في نفسه تحوّلًا، ويبعده عن قطّاع طريق الهداية والسعادة.

ومع الأسف، فإنّنا قليلًا ما نفكّر في مثل هذه المضامين وهذه الآيات، ونكتفي بمجرّد القراءة والتجويد وتحسين الصوت، ونتوقّف عن التفكّر في المعاني وإدراك عظمتها.

وبالالتفات إلى ما ذُكر، فإنّنا نقف عاجزين عن إدراك ماهيّة وعظمة الآخرة والجنّة والنار، ونكتفي بتلك التصوّرات الساذجة عن هذه المواقف، فنشبّهها بما لدينا بهذه الدنيا. فلو ذُكر لنا شيءٌ عن جهنّم ونيرانها لتصوّرنا ذلك كما نتصوّر نيران الدنيا وإحراقها. مثلما يحدث لو أنّنا وضعنا يدنا على شيءٍ محرق. أو أنّنا إذا ذُكّرنا بنعم ولذائذ الجنة نتصوّرها في حدود النعم واللذات التي عرفناها في الدنيا وتذوّقناها من دون أن نتصوّر شيئًا آخر.

إنّ محدودية تفكير الإنسان تجعله مقيّدًا بوضع كل ما يسمعه أو يتصوّره في إطار ما عرفه، فيقارنه به ليخرج بتصوّرٍ عنه. فإذا لم يجد له شبيهًا بما عرفه في الدنيا لم يقدر على تصوّره.

وبسبب هذه المحدودية في فهم وإدراك نشاط ذهن الإنسان، كان من الضروريّ بيان صفات وخصائص عالم الآخرة من خلال وضعها في القوالب التي اعتاد عليها الإنسان في الدنيا، وتشبيهها بها. هذا، وإن كانت حقائق تلك الخصائص غير قابلةٍ للإدراك من الأساس. ولهذا، فمن الممكن أن تكون تلك الخصائص قد تنزّلت ملايين المرّات حتى تتوافق مع مستوى إدراك وفهم الإنسان

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٢.

الدنيويّ، فيكون لها نوع من التأثير، لأنّها لو عدّت ذلك وخرجت عن هذا الأفق، لما كان لها أي تأثير،كل ذلك لبعدها عن الأفهام والأذهان.

وبالنظر إلى ما ذُكر، فقد كان تأكيد القرآن والروايات على وضع تلك العظمة المتعلّقة بالجنّة والنّار ونعمها وعذاباتها في قالب النماذج التي اعتاد الناس عليها. وهذا ما اعتمده النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بشأن عظمة الجنة والنار.

ذكر وصفٍ من عذابات جهنّم

ويصف النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نموذجًا من عذابات جهنّم لأبي ذر، بحيث أنّه لو وُضع شيءٌ قليلٌ منها في الدنيا لأدّى ذلك إلى حدوث آثارٍ فظيعةٍ لا يمكن تحمّلها. ثمّ يذكر له نموذجًا من نعم الجنّة ممّا لا يمكن للإنسان الدنيويّ تحمّلها. وكل ذلك لأجل هدايتنا نحن المتعلّقين بهذه الدنيا وزخارفها لكي نقارن بين الدنيا وعالم الآخرة وندرك حقارة الدنيا وصغرها. هذا وإن كان عالم الآخرة مع ما فيه غير قابلٍ للوصف إلا أنّه آية من آيات الله تعالى. وكل ذلك كان بمشيئة الربّ المتعال الذي ألبسه لباس الوجود. فكيف بخالقه وكيف بعظمة موجده.

يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر ولو كان لرجلٍ عمل سبعين نبيًّا لاستقلّ عمله من شدّة ما يرى يومئذٍ**».

نحن الذين ليس لنا عبادة وعمل مؤمن عادي فكيف بعبادة وأعمال الأنبياء، وكيف إذا كان الأمر بمقدار عمل وعبادة سبعين نبيًا. فإذا فرضنا على سبيل المحال أنّنا حصلنا على مثل هذه القابلية واللياقة بحيث يكون عملنا مساويًا لعمل سبعين نبيًا، فحين ننظر يوم القيامة إلى بهاء وعظمة ذلك اليوم، فإنّنا لن نعدَّ ما لدينا يساوي ذرّة. فذلك اليوم المهول والمذهل لا يمكن أن ينفع معه عمل سبعين نبيًا إذا لم تدركنا عناية الرحمن وفضله اللامتناهي! لهذا، ينبغي دومًا أن نتطلّع إلى عناية الله ورحمته ونطلب منه بتضرّع وابتهال ومن أعماق قلوبنا أن يشملنا بهذه الرحمة التي وسعت كلّ شيء. فلا نتكّل على أعمالنا لأنّ هذه الأعمال لا توصلنا إلى شيء.

ثمّ يكمل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قوله: «**ولو أنّ دلوًا صُبّ من غسلين في مطلع الشمس لغلت منه جماجمُ من مغربها**».

لقد ذكر القرآن الكريم طعام أهل جهنّم ومن ضمنها الغسلين: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[1].

وغسلين الذي ذُكر هنا كشرابٍ للجهنميّين هو ذلك الماء القذر الذي يبقى من غُسالة اللباس وجلي الأوعية. والواقع أنّ غسلين هو قذارة وأرجاس الأعمال السيّئة للإنسان. وعفونته تكمن في بقاء تبعاتها وآثارها السيّئة. وهنا يُقال إنّه لو أرقنا دلوًا منه في شرق العالم لاحترقت جماجم من يعيش في مغربه وهي كما تعلمون مسافة آلاف الكيلومترات.

وما نتصوّره عن غليان جمجمة الإنسان لا يتجاوز حدّ «أنّ نارًا ملتهبةً محرقةً إذا وُضعت أمام وجه الإنسان، فإنّها تحرق جمجمته وتحوّلها إلى رفات. لكنّ هذه النار إذا بعُدت عن وجهه لعشرة أمتارٍ أو ما يزيد قليلًا لن تبقى مؤثرة!».

ولكن ما يجري يوم القيامة على أهل جهنّم أنّهم يعطشون إلى درجةٍ يضطرّون معها لشرب ذلك الماء المحرق الذي يجعل الجماجم تغلي على بعد آلاف الكيلومترات. إنّ نار جهنّم وعذاب القبر والقيامة لا يمكن مقارنته بعذاب الدنيا ونيرانها. إنّ نار الدنيا باردةٌ ومضمحلّة وتُحرق الأسطح، وإذا قورنت بنار جهنّم فيمكن تحمّلها، لكنّ نار جهنّم نار خالصةٌ لها شعور وإدراك أيضًا. لهذا، لا يمكن لأيّ نارٍ في الدنيا أن تحرق الروح ولكنّ نار جهنّم تحرق الأرواح والقلوب وتذيبها كما تذيب الأجسام. ولا شك أنّ نار جهنّم وعذابها ليسا سوى انعكاس أعمال الإنسان السيّئة في الدنيا.

رد فعل الإنسان والملائكة قبال شهيق جهنم وزفيرها

ثمّ يبيّن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في تتمّة كلامه حول شدّة لهيب جهنّم: «**ولو زفرت جهنّم زفرة لم يبقَ ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل إلا خرّ جاثيًا على ركبتيه يقول: ربّي نفسي نفسي حتى ينسى إبراهيم إسحاق يقول: يا ربّي أنا خليلك إبراهيم فلا تنسني**».

---

(١) سورة **الحاقة**، الآيتان ٣٥ و٣٦.

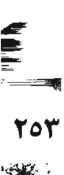

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[١].

ويقول العلامة الطباطبائي (رحمه الله) في تفسيره لهذه الآية: «وقال في الكشاف: الزفير إخراج النفس والشهيق عكسه، انتهى. والمراد أنّهم يردّون أنفاسهم إلى صدورهم ثمّ يخرجونها فيمدّونها برفع الصوت بالبكاء والأنين من شدّة حرّ النار وعظم الكربة والمصيبة كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه»[٢]. وبناءً على هذا التفسير، كما أنّ للإنسان شهيقًا وزفيرًا فلجهنّم شهيقٌ وزفير. فهي بالزفير تطلق لهيبها وحرارة نيرانها بحيث تحيط بجميع أهلها، وبشهيقها تسحبهم إليها.

يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لو أنّ جهنّم زفرت، فإنّ جميع الناس حتى الأنبياء العظام والملائكة المقرّبين يرتعدون ويرتمون على الأرض وينسى كل شخصٍ ما سواه، يطلب النجاة لنفسه. فلا يقدرون على الحراك ولا يحصل لهم السكون بل يرتمون على ركب المذلّة والعجز ويرفعون أيديهم إلى رحمة الله اللامتناهية يطلبون النجاة منه. حتّى إنّ إبراهيم ينسى ولده إسحاق الذي هو أعزّ ما عنده ويقول: يا ربّي إنّني أنا خليلك فلا تنسني ونجّني من هذا الحدث المهول. فهذا نموذجٌ من عذاب الله يوم القيامة الذي لو ظهر في الدنيا لأذهل كلّ الخلائق وأوقعهم في رعبٍ كبير.

ولأجل المزيد من التعرّف إلى جهنّم وعذابها الأليم من المناسب أن نذكر حديثًا مفصّلًا عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**بينما رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **ذات يوم قاعد إذ نزل جبرئيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **وهو كئيبٌ حزين متغيّر اللون. فقال له رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ**: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: يا محمّد وكيف لا أكون كذلك وإنّما وضعت منافيخ جهنّم اليوم. فقال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ**: وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل؟ قال: إنّ الله تبارك وتعالى أمر بالنار فأُوقد عليها ألف عام حتى احمرّت. ثمّ أمر بها فأُوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت. ثمّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت وهي سوداء مظلمة. فلو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعًا وُضعت على الدنيا، لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنّ قطرة من الزقّوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهل الدنيا من نتنها.**

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٠٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١١، الصفحة ٢٢.

قال فبكى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ **وبكى جبرئيل** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ **فبعث الله إليهما ملكًا، فقال: إنّ ربكما يقرئكما السلام ويقول لكما: إنّي قد أمّنتكما من أن تذنبا ذنبًا أعذّبكما عليه»**(١).

المنزل الأعلى للمؤمنين والصالحين

ولا شك أنّ الجنة ونعمها من جملة أعظم المخلوقات وهي نصيب أولئك الذين سلكوا طريق العبودية والطاعة ونالوا بإيمانهم وعملهم الصالح لياقة الوصول إلى أعلى مراحل الإنسانية وأدركوا ملكوت الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ... وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢).

وفي آية أخرى، يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٣).

والواقع أنّ الإنسان بعمله الصالح يعدّ جنته ونعمها لنفسه. لهذا، فإنّه بالمقدار الذي يسعى على طريق العبودية والطاعة وبالرياضة والمواجهة والمجاهدة مع أهواء نفسه يزيل موانع الكمال ويدرك المزيد من النعم. فهذه حقيقة ندركها بوضوح في الروايات وآيات القرآن الكريم. ويُنقل عن الإمام الصادق عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ أنّ النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ قال: «**لمّا أُسري بي إلى السّماء دخلت الجنّة فرأيت فيها ملائكةً يبنون لَبِنةً من ذهبٍ ولبنة من فضة، وربما أمسكوا، فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ فقالوا: حتى تجيئنا النفقة، فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، فإذا قال بنينا وإذا أمسك أمسكنا**»(٤).

وعن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ في وصف الجنّة وتعريفها يقول: «**يا أبا ذر لو أنّ امرأةً**

---

(١) الفتال النيسابوري، **روضة الواعظين**، تقديم: السيد محمّد مهدي السيد حسن الخرسان (قم: منشورات الشريف الرضي، لا تاريخ)، الصفحتان ٥٠٦ و٥٠٧.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ٧٢.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨، الصفحة ١٢٣.

من نساء أهل الجنة اطّلعت من سماء الدنيا في ليلةٍ ظلماء لأضاءت لها الأرض أفضل مما يضيئها القمر ليلة البدر ولوجد ريح نشرها جميع أهل الأرض. ولو أنّ ثوبًا من ثياب أهل الجنة نُشر اليوم في الدنيا لصُعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم».

ويُستفاد من هذا المقطع في كلام النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّ جميع قوى الإنسان ومن جملتها بصره تزداد قوّة يوم القيامة وفي الجنة أيضًا فتكون أقوى بكثير من قواه وبصره في الدنيا. فالناس في الدنيا ضعفاء وأذهانهم قاصرة وتحمُّلهم قليلٌ. بحيث إنّه لو ظهر ثوب من ثياب الجنة في الدنيا لما قدرت أبصارهم على تحمّل النظر إليه، بل لصعقوا من جرّاء ذلك. هذا في حين أنّ ارتداء أهل الجنّة لهذا الثوب أو نظرهم إليه يكون أمرًا عاديًا بالنسبة لهم.

وفي الواقع، إنّ القوى الإنسانية في الجنّة تصبح عاليةً جدًا ومنها قوّة النظر والإدراك. فجميع الكائنات في الدنيا، ومنها الإنسان، لها شعورٌ وإدراك ويكون لهم في الآخرة شعورٌ وإدراك، بحيث يمكن أن نقول إنّه يتضاعف ملايين المرّات. وهناك سيكون لكلّ شيءٍ حياة، بل في الواقع إنّ الحياة الحقيقية لا وجود لها إلّا هناك. وفي ظلّها يكون لكلّ شيء وجودٌ علميّ وشعوريّ وحتّى كلاميّ نطقيّ. لهذا، فإنّ كلّ شيءٍ ينطق هناك حتى الشجر والحصى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

من الطبيعي حين يكون لكلّ شيء حياة حتى الشجر والحجر، فمن المسلّم أنّ للناس هناك حياة من نوع آخر بحيث تنطق معها كلّ أعضائهم. لهذا، حين نسمع عن نطق أعضاء وجوارح أهل النار في النار وشهادتها عليهم وهم يتساءلون: لِمَ شهدتُم علينا؟ فإنّ تلك الأعضاء تجيب قائلةً: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

وما ذُكر في هذا القسم من الرواية بشأن عذاب أهل جهنّم ونعم أهل الجنّة لا يمكن قياسه بالمقاييس الدنيوية. فكيف يمكن أن نتصوّر سائلًا وهو الغسلين العفن والشديد الخطورة والمحرق الذي إذا أهرقنا منه سطلًا واحدًا في مشرق العالم لأحرق مغربه! ولكي لا نقع في ظن وشبهة عدم تحقق هذا الشيء، فإنّ الله

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **فصلت**، الآية ٢١.

تعالى قد أودع بعض القوى والطاقة الكامنة والمختصرة، كالطاقة النووية، في بعض العناصر كاليورانيوم بحيث إنّه لو تحرّر منه مقدارٌ من الطاقة، لأدّى ذلك إلى حدوث انفجارٍ كبيرٍ يحصل منه خرابٌ كثير يدمّر بلدًا بأكمله! وهذا شيءٌ يسير من الطّاقة الموجودة في عناصر ومواد هذا العالم. فإذا كان هناك عالمٌ فيه من العناصر التي تكون طاقتها أعلى من ذلك بملايين المرّات فكيف يمكن أن يكون أثر ذلك وهل يمكننا أن نتصوّر عظمته.

وما ذُكر كان لأجل أن ندرك موقعنا ونعرف قدرنا ونعلم أنّنا لم نُخلق لهذه الدنيا المحدودة التي لنا فيها بعض الشعور والإدراك المحدود. فالدنيا التي تكون لذّاتها محدودة يكون إدراكنا وشعورنا فيها محدودًا أيضًا. وعلينا أن نعلم أن كل ما في هذه الدنيا هو بمنزلة المقدّمة للآخرة، وهو خافت اللون وباهت النور قياسًا بما في ألوان وأنوار الآخرة. إنّ لذّات هذه الدنيا التي نتذوّقها لا يمكن مقارنتها بلذّات الآخرة. كما أنّ بلاءات ومصائب الدنيا التي تحلّ بنا لا تساوي شيئًا أمام عذابات الآخرة.

ولا شك بأنّ مقارنة عذاب الدنيا بعذاب الآخرة وكذلك مقارنة نعمها بنعم ولذّات الآخرة وبيان الاختلاف الكبير بينهما، يؤدّي إلى أن يدرك كلّ شخص بحسب استعداده واستيعابه قلّته وحقارة وصغر نفسه وصغر هذا العالم مقابل عالم الآخرة الذي هو أيضًا لا شيء مقابل خالقه.

والنتيجة الأخرى لمثل هذه المقارنة هو النجاة من التكبّر والعجب وحصول التواضع والذلّة أمام الحقّ تعالى. وعندها لو حصلنا في هذه الدنيا على أيّ نعمة لن نعجب بأنفسنا. وإذا حُرمنا فيها من نعمة ما، لن تكون أملنا الوحيد الذي فقدناه، لأنّ جميع نعم الدنيا لا تساوي تفّاحة واحدة من فاكهة الجنة. لهذا، فإنّ هذا العالم وهذه الدنيا ليسا محطّ الآمال ومهبط القلوب. فيجب أن ندرك عظمة القيامة وعظمة خالقها من خلال تعاليم الأنبياء والأولياء. ومن خلال معرفة قدرنا نسعى للخلاص من الغرور والعجب والتكبر.

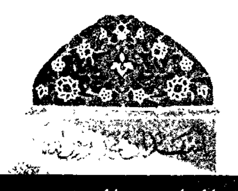

الدرس الواحد والعشرون

أهميّة التفكر وضرورة رعاية العوامل المزيلة للغفلة

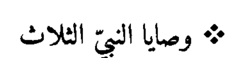

- وصايا النبيّ الثلاث
  - أ . خفض الصوت عند الجنائز
  - ب . خفض الصوت أثناء الحرب
  - ج . خفض الصوت أثناء قراءة القرآن
- عاقبة إغفال عوامل اليقظة
- ذم الكسل والضحك من غير سبب
- دور التفكّر في العبادة

«يا أَبا ذَرّ، اخْفِضْ صَوْتَكَ عِنْدَ الْجَنائِزِ وَعِنْدَ الْقِتالِ وَعِنْدَ الْقُرآنِ.

يا أَبا ذَرّ، إذا تَبِعْتَ جَنازَةً فَلْيَكُنْ عَقْلُكَ فيها مَشْغُولًا بِالتَّفَكُّرِ وَالْخُشُوعِ وَاعْلَمْ أَنَّكَ لاحِقٌ بِهِ.

يا أَبا ذَرّ، اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إذا فَسَدَ فَالْمِلْحُ دَواؤُه وَإذا فَسَدَ الْمِلْحُ فَلَيْسَ لَهُ دَواءٌ وَاعْلَمْ أَنَّ فيكُمْ خُلْقَيْنِ: الضِّحْكَ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَالْكَسَلَ مِنْ غَيْرِ سَهْوٍ.

يا أَبا ذَرّ، رَكْعَتانِ مُقْتَصِدَتانِ في تَفَكُّرٍ خَيْرٌ مِنْ قِيامِ لَيْلَةٍ وَالْقَلْبُ ساهٍ».

كان بحثنا في السابق يدور حول الخوف والخشية والأسباب التي تؤدّي إلى انبعاثهما في النفس. وقد ذكرنا أنّ من جملة العوامل التي تنشئ حالة الخوف من الله في الإنسان: التوجّه إلى عظمة يوم القيامة وشدّة عذاب جهنّم وعظمة الجنّة وسعة نعمها. وارتباط هذه الفقرات من حديث النبيّ صلى الله عليه وآله بالمقاطع السابقة يرجع إلى أنّ الأحوال القلبية والباطنية كالخوف والخشية والشوق والرجاء والمحبّة والأنس كلّها تنشأ فيما إذا كان الإنسان متوجّهًا وقلبه يقظًا. أمّا إذا كان غافلًا أو كان توجّهه ضعيفًا، فإنّ هذه الأحوال لن تتحقّق في النفس من الأساس، أو أنّها ستكون في حالةٍ ضعيفةٍ وباهتة.

حين يُبتلى الإنسان بالغفلة أو قسوة القلب ويلتفت إلى وجود مثل هذه الرذيلة الأخلاقية، فإنّه إذا أراد الخروج من هذه الحالة السيّئة، فعليه أن يأخذ بالأسباب والعوامل التي منها ما ينشأ من باطن الإنسان، ومنها ما يُعدّ من العوامل الخارجية: مثل وقوع حادثةٍ في الخارج: كأن يسمع شيئًا ما أو تتحقّق بعض الظروف التي تؤدّي إلى تنبّهه ويقظته وخروجه من حالة الغفلة.

ولا شك في أنّ هذا التأثير يُعدّ من جملة التوفيقات الإلهيّة وينبغي اغتنام فرصها وتقديرها وشكر الباري تعالى عليها، لكي تزداد مثل هذه الألطاف والتوفيقات من جانب الحقّ تعالى؛ فإذا لم يغتنم مثل هذه الفرص وإذا لم يقدّر نعمتها، فإنّ قلبه يزداد قسوةً وتزداد فيه حالة الغفلة. وفي هذا المجال يقول النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر اخفض صوتك عند الجنائز وعند القتال وعند القرآن**».

فالنبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المقطع يظهر ثلاث وصايا أخلاقية وتربوية وأمنية:

الوصايا الثلاث للنبيّ

أـ خفض الصوت عند الجنائز

إنّه من الجدير جدًّا أن يتكلّم الإنسان بصوتٍ منخفض وأن لا يرفع صوته. فهذا الأدب هو الذي كان لقمان الحكيم يوصي ابنه به: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[1].

وصحيح أنّ خفض الصوت في الموارد العادية أمرٌ مطلوب، ولكن بعض الموارد تقتضي أن يكون الصوت أخفض من الحدّ المتعارف والعادي وقد يكون السكوت هو المطلوب. كأن يكون الإنسان في حالة التفكّر ويريد أن يركّز على حادثةٍ أو واقعةٍ ما بحيث لا يشغله عنها شيء. ومن الطّبيعيّ أنّ من جملة الموارد التي ينبغي أن يشتغل الإنسان بالتفكّر فيها والاعتبار: ما يحصل أثناء الحضور في تشييع الجنائز حيث ينبغي للإنسان أن يتوجّه إلى حقيقة الموت الذي لا بدّ منه.

من هنا، عليه في مثل هذه الحال أن يجتنب الحديث في أمور الدنيا ويركّز توجّهه نحو مصير الإنسان الذي حُملت جنازته على الأكف ليأخذ العبرة من ذلك. وإنّه لمن المؤسف أن لا يكون لدينا مثل هذا التوجّه إلى هذا الأمر بل قد لا نراعي أثناء تشييع الجنازة بعض الآداب المهمّة ولا نسعى لأخذ العبر منها. هذا، في حين أنّ هناك توصيات مؤكّدة بلزوم رعاية السكوت والهدوء والوقار والطمأنينة والحركة الهادئة أثناء تشييع الجنائز والتركيز الفكريّ والذهنيّ نحوها. لهذا، كان النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول: «**يا أبا ذر إذا تبعت جنازةً فليكن عقلك فيها مشغولًا بالتفكر والخشوع**

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ١٩.

واعلم أنك لاحقٌ به».

إنّ من جملة الأمور التي يمكن أن تخرج الإنسان من حالة الغفلة هي مشاهدة جنازة المؤمن الذي قد خرج من الدنيا بعد عمرٍ من السعي والتنعّم بمتاع هذه الدنيا وأدرك أجله. وها هي جنازته تُحمل إلى المقبرة. فمن المسلّم أنّ مشاهدة مثل هذا الموقف المحزن يخرج الإنسان من حالة الغفلة، ذلك لأنّ توجّهه نحو الدنيا وزخارفها ومشاغلها يؤدّي إلى الغفلة. أمّا الذي يوجّه الإنسان إلى الآخرة، فإنّه يبعث فيه حالة اليقظة والبعد عن الغفلة. بالتالي، فإنّ أفضل وسيلةٍ لليقظة والبعد عن الغفلة هي أن ينظر الإنسان ويعاين ذلك الشخص الذي قد أدرك أجله بعد عمرٍ من السعي وقد انتقل إلى عالم الآخرة. هذا، وإن كنّا جميعًا نعلم أنّ الموت لا مفرّ منه وأنّه قد كُتب على الجميع، ولكن مشاهدة من يخرج من هذه الدنيا له أثرٌ أكبر من مجرّد العلم.

ينبغي اغتنام تلك الفرصة من حضور تشييع جنازة المؤمن من أجل إصلاح النفس وإزالة الأهواء النفسانية وتربية النفس والابتعاد عن تشتّت الفكر والحواس وتمركز الذهن في التفكّر بالنفس وعاقبتها ومصيرها. كما ينبغي التفكّر بهذا الطريق الذي سنطويه عاجلًا أم آجلًا. فهل أنّ هذه الحياة الدنيا المحدودة تستحق أن نسعى من أجلها بلا ضوابط؟ ينبغي أن نفكّر إذا كنّا قد عملنا وسعينا بشكل يتناسب مع الآخرة أم لا.

إنّ التفكّر في الموت كما أكّدت عليه الروايات من أكثر العوامل تأثيرًا في الابتعاد عن الشيطان والسير على الصراط المستقيم. كأن يفكّر الإنسان بأنّه قد لا يعيش أكثر من ساعة. فمن منّا يمكنه القطع بأنّه سيبقى حيًا ولو إلى فترة قصيرة. ففي مقابل تلك الأماني والآمال الطويلة التي تؤدّي إلى الغفلة والقسوة، يُعدّ التوجّه والتفكّر في الموت عاملًا مهمًّا في اليقظة والانتباه. وما أكثر ما يؤدّي هذا التفكّر إلى تغيير أسلوب حياة الإنسان ومشيه ومصيره.

من الطبيعيّ أنّ الإنسان إذا فكّر في عاقبته ورأى نفسه مقهورًا أمام عظمة الله، فستنبعث من أعماقه حالة الذلّة والخشوع وستظهر آثار تلك الحالات فيه. مثلما يحدث إذا قام المؤمن للصلاة ونظر إلى عظمة الله حيث يسيطر عليه الخضوع ويعتريه الخشوع. وهذا الأمر قد تمّ التّأكيد عليه بحيث عُدّ من أبرز صفات المؤمن

التي تؤدّي إلى فلاحه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[١].

(وفي المقابل، فإنّ الذين لا ينظرون إلى عظمة الله ولا يفكّرون في مضامين الصّلاة لن يكون لهم نصيبٌ من الخشوع والخضوع).

كما ذكرنا، فإنّ موطن الخشوع هو القلب وتتجلّى آثاره في الأعضاء والجوارح كالعين. ولكن قد يُنسب الخشوع إلى بعض أعضاء البدن الأخرى أيضًا كما ذكر الحقّ تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٢].

وفي آيةٍ أخرى، يقول تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[٣].

وبناءً على ما ذُكر، فإنّ المشاركة في تشييع الجنازة والتوجّه إلى عاقبة الميّت المحمول في التابوت، وكذلك التوجّه إلى ساحات يوم القيامة وتصوّر أحوالها في الحدّ الذي يعلمه الإنسان، يؤدّي إلى خضوعه وخشوعه وابتعاده عن الغفلة. أمّا إذا لم يحصل للإنسان أيّ انتباه وبقي على حالة اللامبالاة أثناء هذا التشييع . وكأن شيئًا لم يكن . بل انشغل فكره بأمور الدنيا والحديث عن شؤونها فلن يحدث في نفسه أي تحوّل.

إنّ البعض حين يعلمون بوفاة إنسانٍ قد يبدأون بالتفكير في مصالحهم والاستفادة من موته: فإذا كان أستاذًا فهم يفكّرون بأن يدرّسوا طلابه أو يأخذوا موقعه. وإذا كان مسؤولًا أو رئيسًا فهم يفرحون لأنّهم سيحصلون على موقعيّته ومنصبه. إذا مات طبيبٌ ما يفكّر الأطبّاء الآخرون بأن يحلّوا محلّه. ما أعجب هذا الأمر وإنّه لمخجل! ذلك الحدث الذي ينبغي أن يزيد من توجّه الإنسان إلى الآخرة والعاقبة أضحى سببًا للمزيد من الغوص في الدنيا! إنّه المجال الذي ينبغي أن يتّعظ به الإنسان ويصبح سببًا في يقظته بحيث يبتعد عن الأوهام والاعتباريات، لكنّ البعض يبتلى فيه بالغفلة والقسوة ويزداد ابتلاؤه بالأوهام والاعتباريات بحيث تهزّ هذه المواقف الإنسان وتوقظه بل وتزيده قسوة. من هنا، ينبّه النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبا

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة **طه**، ١٠٨.

(٣) سورة **القلم**، الآية ٤٣.

ذر إلى أنّ من جملة الموارد التي تؤدّي إلى إيجاد حالة الخوف والخشية والخضوع والخشوع في الإنسان هو الحضور في تشييع الجنازة بشرط أن يكون الإنسان متوجّهًا ويركّز حواسه ويجتنب الضجيج وتشتّت الأفكار، ويحصر تفكيره بنفسه ويخفض صوته علّه يستمر بالتفكّر، ذلك لأنّ رفع الصوت في الحديث، بل الحديث نفسه يشغل قلب الإنسان ويمنعه من التوجّه وتحصيل حضور القلب.

في أحد الأيام، سأل أحد الأفاضل في طهران أستاذنا المرحوم العلامة الطباطبائي (رحمه الله): ماذا أفعل لكي تحصل لي حالة حضور القلب في الصلاة؟ فأجابه العلامة قائلًا: قلّل من الكلام. ولعلّنا نتعجّب ونقول ما هو تأثير الكلام في منع الإنسان من حضور القلب أثناء الصلاة! (وقد صادف أنّ ذلك الشخص كان كثير الكلام!). من المسلّم أنّ الكلام يستهلك القوى الذهنية والروحية والنفسية للإنسان. وخاصّةً إذا كان الكلام رسميًا كالموعظة والخطابة والتدريس. فحين يستمع جمعٌ من الناس إلى حديث إنسانٍ، فإنّه يبذل غاية جهده لكي لا يقع في الخطأ، فيصبح كل تركيزه من هذه الجهة على كلامه، ويمنعه ذلك من التوجّه إلى نفسه. من هنا، فإنّ قلّة الكلام وأيضًا خفض الصوت أثناء الحديث يؤدّيان إلى أن يتوجّه الإنسان أكثر إلى نفسه ويبتعد عن تشتّت الأفكار.

وقد ورد في حديثٍ حول سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله إذا حضر جنازةً: «**كان النبيّ إذا تبع جنازةً غلبته كآبة وأكثر حديث النفس وأقلّ الكلام**»[1].

ب ـ خفض الصوت أثناء القتال

ونظرًا لأهميّة ساحات القتال وسريّة المعلومات العسكرية أثناء الحرب والقتال، فقد أكّد النبيّ على خفض الصوت أثناء القتال.

إنّ للحرب مقتضيات. وخاصّة أثناء التخطيط للعمليات وتحصيل المعلومات عن المواقع العسكرية. تقتضي رعاية منتهى الاحتياط والدقّة في حفظ الأسرار العسكرية وإخفاء مواقع القوّات الصديقة عن أعين العدوّ. وكم يحدث أن يؤدّي رفع الصوت وإحداث الحركات غير المناسبة إلى اطّلاع العدوّ على خطّة العمليات: ممّا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٨، الصفحة ٢٦٦.

يؤدّي إلى وقوع خسائر فادحة في الأرواح وتهديد العمليات من أساسها وإفشال الخطّة.

وقد لمس مقاتلونا هذه الواقعيّة طوال سنوات الحرب عن قرب: في بعض الأحيان، كانت الظروف حسّاسة وشديدة الخطورة وإنّ أي تحرّك كان له تأثيرٌ كبير على العمليات حتى مجرّد صوت ارتطام الأحذية بالأرض. ففي الواقع، تتم الاستفادة من قاعدة المباغتة في تنفيذ الخطط العسكرية.

والنقطة الأخرى التي يمكن استنباطها من وصية النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هي أنّ حساسية وأهمية الحرب والعمليات العسكرية توجب أن تستفيد القوات من كامل قدراتها وطاقتها من أجل تحقيق الأهداف العسكرية. من هنا، يجب الامتناع عن كل ما يؤدي إلى تشتيت القوى وإهدار الطاقات، وذلك بالسكوت والهدوء وتركيز الحواس لأجل تحصيل القوة والثبات في مواجهة العدو والابتعاد عن كل ما يشتت هذه الطاقات أثناء العمليات. وبالتوجه إلى هذا الأمر المهم، كان الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوصي ابنه محمّد بن الحنفية في حرب الجمل بهذه القواعد العسكرية حيث يقول: «**تزول الجبال ولا تزُل، عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تِد في الأرض قدمك، ارمِ ببصرك أقصى القوم وغضّ بصرك واعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه**»[١].

ج ـ خفض الصوت أثناء قراءة القرآن

إذا وُفّق الإنسان للحضور في مجالس قراءة القرآن. سواء كان هدفه ودافعه الاستفادة من القرآن أو لأجل أمرٍ آخر كالمشاركة في مجلس العزاء ومجالس الفاتحة. فينبغي أن يغتنم هذه الفرصة القيّمة، ويتدبّر في آيات القرآن ويتوجّه إلى مفاهيمها. بل ربما تكون تلاوة القرآن صادرةً من الإذاعة، ومع ذلك، ينبغي أن يراعي حالة الصمت والإصغاء للتدبّر والغوص في معاني الآيات، لكي يستفيد من مفاهيم هذه المعجزة الخالدة والملهمة والهادية: في سبيل بناء النفس والتحلّي بفضائل الأخلاق بعد إزالة الرذائل عنها وتحصيل الملكات الفاضلة كالخضوع والخشوع، كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، من كلام له ١١، الصفحة ٤٤.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[١].

وبالالتفات إلى هذا التأثير العميق للقرآن، إذا لم يتوجّه الإنسان أثناء قراءة القرآن إلى مفاهيم الآيات، ولم يكن لتلاوة القرآن أيّ امتياز عنده مع الأصوات والأحاديث الأخرى كان ذلك سببًا للمزيد من الغفلة وقسوة القلب.

وبالنظر إلى أهمية وضرورة رعاية حرمة القرآن وضرورة تعظيمه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

ومن الطبيعي أنّ الالتفات إلى أنّ القرآن وسيلةٌ لهداية البشر وإيجاد التحوّل والتغيّر الباطنيّ فيهم، ووسيلة تحقّق التوجّه إلى الله. فهم إذا لم ينصتوا إلى تلاوة القرآن ولم يجدوا في ذلك أي اختلاف مع الكلام والحديث الصادر من الآخرين ولم يسعوا للاستفادة من مواعظه وحكمه، فإنّهم بذلك يكونون قد ارتكبوا عملًا قبيحًا وكفروا بنعمة الله. من هنا، فإنّهم بالإضافة إلى تضييع هذه الفرصة القيمة: قد زادوا من قسوة قلوبهم، وأضاعوا ذلك الاستعداد النسبيّ والمحدود الذي كان موجودًا فيهم من أجل الظفر بالهداية.

فمن أجل الاستفادة من القرآن، يجب أن نركّز حواسنا أثناء تلاوته وأن نصغي إلى قراءته وكأنّ آياته تُتلى بلسان النبيّ المبارك صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ. ففي هذه الحالة، سيؤثّر القرآن فينا، وتتحقّق الاستفادة المطلوبة منه.

يُعدّ الاستماع إلى القرآن والتوجّه إليه في المجالس القرآنية، مثل مجالس العزاء والفاتحة سنّة حسنة حيث تمّت التوصية بها كثيرًا. وللأسف، فإنّنا لا نراعي هذه السنّة الحسنة. ففي مجالس العزاء والفاتحة، ننشغل مع بعضنا بالحديث. وكم يحدث أن ترتفع الأصوات. ومن المسلّم أنّ من يكون ذهنه وفكره مشغولًا بالحديث والاستماع إلى أحاديث الآخرين، لن يتمكّن من التوجّه إلى قراءة القرآن. من هنا، نجد السنّة يتقدّمون علينا في هذا المجال لأنّهم يقيمون مجالس خاصّة لقراءة القرآن ويهتمّون كثيرًا للاستماع إلى تلاوته وقراءته، أمّا من جانبٍ آخر، فإنّ مشاركة بعضهم في تلك المجالس إنّما تكون لأجل مشاهدة التفنّن في قرّاء القرآن

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٤.

وتشجيعهم من خلال قول: «الله، الله». وبلا تشبيه، كأنّ هناك جوقة موسيقيّة تعزف لأحد المطربين الذين يصفّق الجمهور لهم.

وفي الواقع، فإنّ اهتمامهم يتركّز على الألفاظ والأصوات، وليس هناك من اهتمام يذكّر بالمحتوى وتأثيره العميق وأخذ العبر منه.

وللأسف، فنحن قليلًا ما نقيم مثل تلك المجالس المخصّصة للاستماع والإنصات إلى القرآن. إنّ مجالسنا العامّة التي يُقرأ فيها القرآن هي تلك المجالس الخاصّة بالوفيّات. وفي هذه المجالس، يكون قارئ القرآن مشغولًا بتلاوته، والآخرون مشغولين بالحديث مع بعضهم بعضًا! وفي بعض الأحيان، يرفعون صوت المذياع أو مكبّر الصوت إلى درجة يخرقون فيها آذان كل مستمع بحيث لا تبقى أي رغبة عند أي أحدٍ في الاستماع إلى تلاوة القرآن!! هذا، في حين أنّ علينا مراعاة جميع الجهات وأن نجعل مستوى صوت المكبّر متناسبًا مع الحاضرين في المجلس من دون إيذائهم أو إزعاج من هم خارج المجلس. يجب أن نضيف إلى ما ذكرنا بأنّ هذين النّوعين من التقاليد المنتشرة غير صحيحين وغير مناسبين: الأسلوب الذي نعتمده نحن ويقلّ فيه إقامة مجالس القرآن والتوجّه إلى قراءته، وكذلك أسلوب السنّة الذين يكتفون بمجالس الأصوات والألحان وأنواع التلاوات من دون الاهتمام بمفاهيمه ومضامينه. ويجب إقامة المجالس العامّة والواسعة التي يُقرأ فيها القرآن بأصواتٍ عذبة وتلاوةٍ جيدة ويُترك فيها المجال أيضًا لتبيين المفاهيم والمضامين القرآنية لتحقيق عملية التدبّر وأخذ العبر من القرآن. إذًا، ينبغي أن تُتلى آيات القرآن بخشوعٍ وحزن بحيث تؤدّي إلى خشوع المستمعين وخضوعهم وكذلك تؤدّي إلى إيقاظهم وإرجاعهم إلى أنفسهم. وهذه هي المسألة التي أشار إليها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾[1].

عاقبة إغفال عوامل اليقظة

وفي تتمة حديثه، يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **«يا أبا ذر اعلم أنّ كلّ شيء إذا فسد فالملح دواؤه فإذا فسد الملح فليس له دواء»**.

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٨٣.

ولعلّ ارتباط هذه الجملة بالمطالب السابقة من جهة أنّ ابتلاءاتنا كلّها تنشأ من الغفلة وطلب الدنيا والاهتمام بالأمور المادية وهو ما يؤدّي إلى فساد القلب. فإذا أردنا معالجة هذه الأمراض والابتلاءات، فإنّه يوجد أسبابٌ وعللٌ تؤدّي إلى اليقظة والانتباه والتوجّه إلى العاقبة، ومن جملتها الحضور في تشييع الجنائز والتفكّر في الموت. فحين ينظر الإنسان إلى جنازةٍ محمولة لأحد الأشخاص قد حزم أمتعته وسافر إلى الديار الباقية فإنّه يتصوّر موته متمثّلًا أمام عينيه ويغوص في تفكّرٍ عميق. ومثل هذا التغيّر الباطنيّ يؤدّي إلى خجله ويوجد فيه حالة من الخشوع والخضوع أمام الحقّ ويحيي هذه الحالات في نفسه. وقد يشعر بحالةٍ من الخوف إزاء ما ينتظره من عواقب أثناء هذا التفكّر.

ويوصي الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أحد أصحابه المعروف بأبي صالح للاعتبار من موت الآخرين ويقول: «**يا أبا صالح إذا أنت حملت جنازةً فكن كأنّك أنت المحمول، وكأنّك سألت ربّك الرجوع إلى الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف. ثمّ قال: عجب لقومٍ حُبس أوّلهم عن آخرهم ثمّ نودي فيهم الرحيل وهم يلعبون**»[١].

وبالتوجّه إلى ما ذُكر، فإنّ عاملًا يشبه الملح في الطعام، بحيث يحول دون فساد القلب ويُعد دواءً لمعالجة الأمراض والآلام المعنوية في الإنسان، فإذا فسد فأي شيء يمكن أن يصلح القلب بعد ذلك ويعالجه! إنّ الحضور والمشاركة في تشييع الجنائز والذي ينبغي أن يحمل الإنسان على التفكّر العميق بالموت وذكره لو أدّى إلى المزيد من التعلّق بالدنيا وجاهها أو لم يقتصر على عدم الاعتبار بل كان سببًا للمزيد من المعصية: كأن ينشغل هذا المشارك بالغيبة للآخرين والتعرّض لهم فعندها يصبح مثل الملح الفاسد الذي لا يصلحه شيء. وبالتالي، سيُبتلى صاحبه بالشقاء وقسوة القلب، ولن تكون تلك المواقف الموقظة سببًا لإيجاد التحوّل في نفسه، ولن يعالج أيّ دواء أمراضه الباطنية. ولا شك أنّ قراءة القرآن شفاءٌ لتلك الأمراض المعنوية للإنسان كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٢٩.

(٢) سورة **يونس**، الآية ٥٧.

فالقرآن هو الشافي، والتوجّه إلى مفاهيمه يضع تحت تصرّف الإنسان حقائق قيّمة، فإذا أصبح وسيلة للحصول على الدنيا والظفر بالشهرة فإنّ قراءته لا تقتصر على كونها غير شافية بل تغدو سببًا لزيادة أمراضنا الروحية ودافعة لاهتمام أكبر بالدنيا وباعثة على الابتعاد عن الله وحقيقة القرآن.

ذمّ الكسل والضحك بدون سبب

وفي ذمّ الكسل والضحك من دون سبب، يقول النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**واعلم أنّ فيكم خلقين الضحك من غير عجب والكسل من غير سهو**».

وينبّه النبيّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ المؤمنين إلى وجود صفتين مذمومتين فيهم، تبعثان على المزيد من الغفلة وإضعاف حالتي الخوف والخشية. وينبغي أن ينهض المؤمنون لمعالجة هاتين الصفتين السيّئتين.. وإحداهما: الضحك بلا سبب. فقد يواجه الإنسان موقفًا عجيبًا ومضحكًا ومن الطبيعيّ في هذه الحالة أن يضحك. هذا، وإن كان حال أولئك الذين يتوجّهون إلى الله أنّهم إذا شاهدوا هذه المواقف المضحكة فإنّهم يكتفون بالابتسام ولا يقهقهون ولا يضحكون بصوتٍ مرتفع. أحد الأكابر حين كان يسمع قصّة مضحكة أو حادثةً عجيبةً، كان يبتسم ولكن توجّهه كان إلى شيءٍ آخر ولم تكن لتلك الأحوال أي أثرٍ عليه.

هذا، وإنّ وقار المؤمن وتوجّهه إلى ما وراء هذا العالم وإلى المحضر الإلهيّ لم يكن ليترك له مجالًا للضحك.. ولكن لو حدث ما يُضحك فلا عيب في أن يضحك. إنّما ينبغي أن يجتنب تلك القهقهة أو الضحك من دون سبب، لأنّ من كان كذلك: بحيث يضحك لأدنى شيء ويقهقه له، فإنّ الغفلة الشديدة ستُلقي بظلّها على قلبه.

ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ في حديث: «**إنّ من الجهل الضحك من غير عجب. قال وكان يقول: لا تُبدين عن واضحةٍ وقد عملت الأعمال الفاضحة ولا يأمن البيات من عمل السيئات**»[1].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٦٤.

وفي هذا الحديث، يصرّح الإمام الصادق قائلًا إنّ من كان في انتظاره ذلك المصير المهول والمستقبل المجهول بسبب أعماله القبيحة بحيث يمكن أن ينزل عليه في أي لحظة، فإنّ ضحكه وقهقهته لا تكون في محلّها!

إنّ من يحقّ له الضحك هو الذي اطمأنّ إلى مصيره ومستقبله. هذا في الوقت الذي نرى أنبياء الله وأولياءه غير مطمئنّين لمثل هذا الأمر ولا يتّكلون إلا على فضل الله ورحمته.

وبشأن أثر الضحك الكثير على القلب، يقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «**كثرة الضحك تميت القلب**». وقال: «**كثرة الضحك تميث الدين كما يميث الماء الملح**»[١].

لهذا، ينبغي الابتعاد عن الضحك من دون سبب يستحسنه العقل. ولا ينبغي أن يخرج اللسان والفم والعين والأذن عن سيطرة الإنسان. فإذا أراد أن يضحك فلينظر هل يوجد سببٌ للضحك؟ وهل حدث ما يوجب الضحك أم لا. لا أن يضحك بأي ذريعة.

ومن الجدير بالذكر أنّ بشاشة الوجه والبسمة الظاهرة هي من الأمور المطلوبة والخصائص القيمة ومن جملة الآداب الاجتماعية التي يختصّ بها المؤمنون في معاشرتهم ومصاحبتهم للآخرين، وإن كانوا في أعماق قلوبهم ممتلئين حزنًا أو خوفًا أو خشيةً. وذلك لكي لا يتسبّبوا في الإيذاء كما جاء في حديثٍ: «**المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه**»[٢].

هذه البشاشة والبسمة المليحة الظاهرة على الوجه هي غير القهقهة والضحك الذي لا يتناسب مع شأن المؤمن. فالمؤمن الذي جعل لحياته هدفًا وهو مؤمن بيوم القيامة، ويعرف ربّه، لا تغيب أعماله وحركاته عن نظره ولا يتحرّك على أساس أهواء نفسه ورغباته الخاصّة.

والخاصية الثانية التي عدّها النبيّ في أمّته من الخصائص السيّئة هي الكسل. فأحيانًا قد ينصرف الإنسان عن أداء وظيفته أو تكليفه سهوًا ونسيانًا: كأن ينسى مثلًا

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٤، الصفحة ٣٠٥.

أداء عبادةً ما وفي هذه الحال لا يكون مذنبًا وآثمًا. أمّا أن يتكاسل في بعض الأحيان مع التفاته إلى ما يجب عليه، فهذا ممّا لا ينسجم مع شخصية المؤمن. فلا يُقبل من المؤمن أن يهمل مسؤولياته مع الالتفات إليها. بحيث إذا سمع الآذان، وحان وقت الصلاة قصّر وأهمل ولم يحضر الجماعة! ومثل هذا الإهمال ليس من شأن المؤمن. ولا فرق في الكسل بين الواجب والمستحب.

في أحد الأيّام، دخلت مع أحد علماء مدينة يزد، وهو المرحوم الحاج الشيخ غلام رضا اليزدي (رحمه الله) ذو شخصية بالغة الجد، إلى المسجد وحين وقع نظره على مجموعةٍ من الأشخاص كانوا ينتظرون مجيء الإمام ولا يصلّون النافلة انزعج وقال: «لعنة الله على الشيطان، أتخافون أن يأخذوكم إلى الجنة! قوموا وصلّوا النافلة». حين يحضر الإنسان في المسجد قبل الصلاة الواجبة فمن المناسب كثيرًا أن يصلّي النافلة وليس من شأن المؤمن أن يغفل عن هذا الأمر المهم. وهذا الأمر ينطبق على غير هذه المسائل أيضًا: فأحيانًا قد يُحرم الإنسان من المطالعة بسبب المرض أو عوامل أخرى، ولكنّه في بعض الأحيان يكون الكسل وطلب الراحة مانعًا من ذلك. وأساسًا، فإنّ الكسل وحبّ الراحة آفة كبرى تمنع الإنسان من تحقيق التكامل والنموّ، ولهذا ينبغي أن نحاربها بشكلٍ دائم ونبعدها عن أنفسنا.

دور التفكّر في العبادة

ثمّ يوصي النبيّ صلى الله عليه وآله قائلًا: «**يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكّرٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ والقلب ساه**».

وبالنظر إلى أهمية التفكّر ودوره الكبير، أشار النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أنّ من يصلّي ركعتين عاديّتين من دون إطالة، وعلى النحو المتعارف، ولكن بتفكّر: فسيكون له من الثواب أكثر من ذلك الذي يقوم ليله في الصلاة حتى يطلع الصباح من دون حضور القلب والتوجه.

ولا شك أنّ هذا المصلّي لو أقام صلاته بسرعةٍ لما أمكنه أن يؤدّي تكليفه بالشكل المطلوب وبالنحو اللائق. كما يُستفاد من الروايات أنّ الاستعجال في الصلاة من دون ترك مجال للتفكّر والتوجّه يشبه نقر الغراب للأرض؛ أي إنّ هذه الصلاة بعجلة لن تكون نافعةً، لأنّه قد صلّاها من دون توجّه، وقد استعجل فيها

إلى درجةٍ منعته من إدراك محضر الله أو من التفكّر في مضامينها ومفاهيمها. فالحديث هنا يشير إلى ركعتين على النحو الطبيعي، ولكن مع التوجّه والحضور القلبيّ. وسيكون ذلك أفضل من تلك الصلوات الطويلة والمكرّرة التي تُقام من دون هذا التوجّه.

وكما قلنا مرارًا، فإنّ السير التكامليّ الإنساني هو سيرٌ علميٌ وشعوريّ: إنّ تقدّم الإنسان وتكامله يكون بزيادة قوّة شعوره وإدراكه ووعيه. وبعبارةٍ أخرى، إنّما يتقدّم الإنسان بقدمي العلم والشعور على طريق القرب الإلهيّ. وإنّ قربه من الله لا يكون بالانتقال المكانيّ وتغيير المحلّ بتحريك جسمه! بل يكون بازدياد شعوره وتوجّهه، وازدياد حالة إدراكه لعظمة الله وصفاته. وكلّما ازداد إدراكه ازداد قربًا من الله. فهذا السير سيرٌ علميٌ يحصل في ظلّ الازدياد في المعرفة. وأوّل مراحل هذه المعرفة: معرفة النفس، التي تحصل على ضوئها معرفة الله تعالى. وفي المقابل، كلّما نقص حظّ الإنسان من المعرفة وتوغّل في الغفلة قلّ نصيبه من الكمال.

والصلاة وسيلة التكامل، وقد شرّعت لكي توجد فينا حالة الإحساس بقرب وحضور الحقّ تعالى والالتفات إلى أنّنا بذلك نزداد قربًا من الله. ولكن إذا لم تكن هذه الصلاة مصحوبةً بالإدراك والتوجّه إلى المقام الإلهيّ، يكون المصلّي مثل ذلك الذي يشتغل بالرياضة وحركات التنشيط، لأنّه لم يستفد من مفاهيمها ومضامينها. نعم، إنّ هذا النوع من الصلاة التي لا يكون فيها هذا التوجّه أفضل من النوم حيث يقضي هذا الإنسان ليله حتى الصباح في غفلةٍ أو لا سمح الله في المعصية. فأن يقوم الإنسان للصلاة ـ وإن لم يكن لهذه الصلاة ذلك الأجر والثواب الكامل، بفعل عدم التوجّه ـ أمرٌ مهم ومناسب، ولكن ينبغي أن يتحقّق في هذه الصلاة توجّه وحضور للقلب، لكي تكون حركته في هذه الحالة متّجهة نحو الحقّ، ومسارعةً إلى المقصد: الذي هو مقام القرب الإلهي.

الدرس الثاني والعشرون

سعة دائرة الحق والباطل

- ❖ الحق والباطل وموارد استعمالهما
- ❖ التجلّي الظاهري للحقّ والباطل
- ❖ الإنسان المختار والامتحان الإلهي
- ❖ الإنسان والميول الباطنية إلى الحقّ والباطل
- ❖ الانجذاب العمومي إلى اللذات الحسيّة والدنيويّة

«يا أَبا ذَرٍّ، أَلْحَقُّ ثَقيلٌ مُرٌّ وَالْباطِلُ خَفيفٌ حُلْوٌ، وَرُبَّ شَهْوَةِ ساعَةٍ تُورِثُ حُزْنًا طَويلًا».

الحقّ والباطل وموادر استعمالهما

أحد المفاهيم العامّة المستخدمة في الثقافة الإسلاميّة والتي لها استعمالات واسعة هو مفهوم الحقّ والباطل. ففي القرآن الكريم، يُستخدم الحقّ والباطل أحيانًا في مجال المعبودات، وفي هذه الصورة يعرف الله تعالى بأنّه المعبود الحقّ ويكون كلّ معبودٍ سواه باطلًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[١].

وقد يُطرح الحقّ والباطل في مجال العقائد والأفكار وأحيانًا في مجال السلوك والأفعال. ومن جملة المواضيع التي يعلّمنا القرآن إيّاها هو أنّ هذا العالم الأرضيّ قد امتزج فيه الحقّ والباطل. ويمكن القول إنّ بناء هذا العالم مركّب من عنصرين هما الحقّ والباطل. فالله أساس الحقّ، والباطل أمرٌ طفيليٌ يتجلّى أو يظهر لنا في ظلّ الحقّ وتحت غطائه. وعلى أساس التعاليم القرآنية، فإنّ هذا الامتزاج بين الحقّ والباطل ليس أمرًا دائميًّا، بل سيأتي ذلك اليوم الذي ينفصل فيه الحقّ انفصالًا كاملًا عن الباطل ويبقى.. أمّا الباطل، فإنّه يزول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٢].

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٦٢.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ١٨.

وفي موطنٍ آخر، يشبّه الله تعالى الباطل بالزبد الذي يظهر على وجه الماء فيقول سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

وفي تشبيه الباطل بالزبد، توجد ملاحظة دقيقة وهي تتّضح بالتوجّه إلى حقيقة الزبد. فإنّ الزبد في الحقيقة عبارة عن تلك الفقاقيع التي تعلو سطح الماء، وتظهر من خلال وجوده.. فحين ينظر الإنسان إلى إناءٍ مليءٍ بزبد الصابون يشاهد تلك الفقاقيع التي تطفو على سطح الماء وتتحرّك. ولو كان هذا الناظر ينظر لأوّل مرّة للفت نظره هذا الزبد وغفل عن الماء الموجود تحته والذي كان سببًا لنشوئه. فقد يتخيّل عندئذٍ أنّ الواقعية هي لتلك الفقاقيع الظاهرة التي تعلو وتنخفض وتتلوّن بألوانٍ مختلفة. هذا في حين أنّ هذه الفقاعات ليس لها واقعية سوى ذلك الماء ولولا الماء لما ظهرت.

فالعالم مركّب من الحقّ والباطل، إلّا أنّ أي باطلٍ كان فهو ليس سوى موجودٌ طفيليّ طارئ على الحقّ.

من الممكن أن يظهر هذا الباطل أو ذاك ظهورًا أكثر من الحقّ، ويكون له الكثير من الزخرف والزبرج والحركة والجولة، بيد أنّ ما جعل في قانون الخلقة هو أن يكون الحقّ كالماء والباطل ليس سوى هذا الزبد الذي يزول. وإنّ ما يبقى ليس سوى الحقّ الذي ينفع الناس.

إنّ الباطل الذي يشبه الزبد إنّما يظهر للحظاتٍ قليلة، وبعد ذلك لا يبقى سوى الحقّ والواقع. ولا شكّ بأنّ هذه اللحظات حين نقيسها بمعاييرنا سنظن أنّها عبارة عن تلك الثواني أو الدقائق، ولكنّها بالنسبة إلى من أحاط بالأزل والأبد فسيكون القرن بل الألف سنة بالنسبة إليه عبارة عن لحظةٍ لا أكثر، لأنّ معياره يختلف عن معيارنا. فما نقيس به الأزمنة والبقاء والثبات في الأشياء يختلف عن المقياس الذي يكون للحقّ. والموجود الذي يتمتّع بالرؤية الكاشفة للحقّ لن يكون

(١) سورة **الرعد**، الآية ١٧.

لطول الأزمنة بالنسبة عنده. سواء كانت لحظات أم ساعات أم سنوات أم قرونًا. أيّ اعتبار. فهو ينظر إلى أبعد ممّا نرى ويشاهد ذلك الأفق الذي هو أكثر علوًّا وأشدّ ثباتًا. وإذا أجرى حساباته بناءً على هذا المعيار والمقياس فلن يكون للباطل في نظره أيّ دوامٍ أو أيّ شيءٍ يُذكر.

التجلّي الظاهري للحق والباطل

ومضمون حديث النبيّ في هذا القسم هو أنّ الحقّ ثقيل ومرٌّ والباطل خفيفٌ وحلو.

وفي توضيح هذه الجملة، ينبغي القول إنّ المؤمن الذي يفكّر بالسعادة الأخرويّة، يجب أن يكون متحرّكًا بمقتضى إيمانه ويسعى من أجل تكامله الروحيّ والمعنويّ ويتجاوز جميع الموانع التي تسدّ طريقه الموصل إلى ذلك الهدف.

ومن الطبيعيّ أنّ المؤمن الذي لا زال في بداية الطريق، سيتوقّع أن يكون كل شيء بالنسبة له سهلًا وعذبًا وحلوًا. فمثل هذا المبتدئ لا يكون مستعدًّا لتحمّل الصّعاب والمرارات. لهذا، من الممكن أن يسقط أمام المشاكل التي تواجهه، ويعدل عن طريق الحقّ، أو أن يبقى قلقًا إذا ما استمرّ عليه ومستاءً ممّا يجري عليه، ويتساءل دومًا عن سبب وجود مثل هذه الصّعاب والمشاكل في طريق الخير والحقّ.

وغالبًا ما تبرز هذه الأسئلة في الذهن: وهي أنّه لماذا يكون الحق ثقيلًا ومرًّا؟ ولماذا يواجه الإنسان في مسير الحقّ مثل تلك المشاكل والصّعاب الشديدة؟ ولماذا يكون الباطل حلوًا وسهلًا؟ لماذا ينبغي أن يتحمّل الإنسان مثل هذه المرارات ويغضّ النظر عن تلك الحلاوات والأفراح؟

ولعلّه يتساءل أيضًا هل أنّ الله (والعياذ بالله) بخيلٌ بحيث لا يجيز لأوليائه وأحبّائه أن يتنعّموا بحلاوات ولذّات هذه الدنيا؟ ولماذا يفرض عليهم تلك الأعمال الصعبة والمجهدة ويضعها على كاهلهم؟! فأيّ مانعٍ يمنع من جعل الحقّ حلوًا بحيث يتّبعه جميع الناس فلا يضلّون عنه؟ حين نقارنُ حياة إنسانٍ مؤمنٍ مع آخرٍ فاسق نجد أنّ على المؤمن أن يتحمّل في حياته الكثير من المشاكل والصّعاب. فإذا أراد أن يؤمّن لقمة خبزٍ حلالٍ فعليه أن يعاني كثيرًا.. وكذلك الأمر في شؤون حياته العائلية ومع زوجته وأولاده وجيرانه، فإنّه يواجه الكثير من الصّعاب. وفي المقابل،

هذا جاره أو قريبه الفاسق المتحلّل يعيش حياةً هنيئةً طيّبةً من دون وجود أي مشكلة! وبنتيجة هذه المقارنة، يبرز هذا السؤال: إذا كان الله يحبّ عبده المؤمن .كما ورد في الكثير من الروايات من مدح الإيمان والمؤمن . فلماذا يوقعه في مثل هذه المشاكل والمرارات؟

هذا هو إذا أراد أن يؤمّن وسائل العيش بكرامة، فعليه أن يتحمّل ويكدح كثيرًا، وحين يريد أن يتزوّج فقد يبحث لسنواتٍ حتى يعثر على زوجٍ مناسب له! وإذا أراد أن يختار شريكة حياته، فإنّه يواجه الكثير من الصعاب والعوائق!! تراه كذلك وفي المقابل، يجد غيره يختار زوجته التي يرغب بها بسرعة. مثل هذه المقارنة موجودةٌ أيضًا بين المجتمعات المؤمنة والكافرة: حين نقارن وضع الشعب المسلم في البوسنة والهرسك مع وضع المجتمعات الأخرى التي تحيط به قد نتساءل أحيانًا عمّا فعله هذا الشعب، لكي يتحمّل تلك الفجائع والمظالم؟ لماذا يعيش الكفّار المجاورون لهم بسعادةٍ وهناء ولكن هذا الشعب في كل لحظةٍ يُداس على حقوقه وثرواته وتُنتهك الأعراض فيه ويتعرّض للهجوم الوحشيٍّ لجماعات الصرب؟

فإذا كان الله نصير المؤمنين، فلماذا لا يمدّهم بالعون؟ هذه الأسئلة قد تُطرح بأشكالٍ مختلفة أمام أعيننا، وكل منّا قد يملك جوابًا عليها بحدود معرفته. ولكن على كلّ حال، يوجد العديد من موارد الإبهام والغموض بالنسبة لأغلبنا أو معظمنا. ولعلّ أولئك الذين وصلوا إلى الدرجات العليا من الإيمان يقولون إنّ كل ما يحدث فهو على أساس المصلحة الإلهيّة.

وفي الإجابة عن هذه الأسئلة، ومنها السؤال الذي يدور حول مرارة الحقّ ولماذا لم يجعله الله حلوًا لكي يتّبعه الجميع فلا يضلّون عنه ولا يسقطون في مهاوي التعاسة والشقاء، نقول أوّلًا إنّ المجال هنا لا يتّسع للدخول في المباحث العلمية وإنّما هدفنا هو أن يكون لهذه المفاهيم نتائج عمليّة وأن يتضح المطلب المطروح هنا. وهذا الأمر إن لم يتّضح بشكلٍ كامل للإنسان فلن يكون له الأثر المطلوب في قلبه وسيبقى للشيطان مجال للوسوسة. ومن خلال طرح الشبهات، يمنع من تحقّق تأثيره المطلوب. أمّا إذا اتّضح الموضوع وارتفع الإبهام المحيط به فلن يبقى أيّ مجالٍ للشيطان لكي يلقي شبهاته ووساوسه.

الإنسان المختار والامتحان الإلهيّ

إنّ حياة الإنسان في هذه الدنيا تقوم على أساس أن يختار بنفسه الطريق الصحيح وبهذا الاختيار الذي يتّخذه بنفسه يطوي مدارج الكمال. وإنّ الخاصّيّة البارزة للإنسان هي أن يكون في حركته وسيره حرًّا مختارًا. لقد خلق الله تعالى بعض الكائنات كالملائكة ليس لديها إلّا توجّه واحد نحو الحقّ، بالرغم من أنّ أعمالهم تصدر عنهم بمحض اختيارهم، ولكن ميولهم لا تكون إلا للحقّ تعالى وعبادته، ولا مجال في حياتهم لأيّ توجّه نحو الباطل. فبالنسبة للملائكة، يكون الحقّ وعبادة الله أمرًا حلوًا ولذيذًا. فنظام الخلقة ليس فيه نقص من حيث تلك الكائنات التي ليس في وجودها سوى توجّهٌ واحد نحو الحقّ والاشتغال بعبادته وحده دون سواه.. لهذا، تعلّقت مشيئة الله بأنّ يخلق موجودًا يكون مقامه أعلى وأرفع من الملائكة. فخلق الإنسان الذي يكون مختارًا مريدًا في سلوك طريق الكمال والحقّ، بالرغم من وجود الميول نحو الباطل والأهواء في نفسه. فمثل هذا المخلوق يُعرض عن المعصية من أجل الله لكي ينال السعادة المطلقة. وإذا داس على أهوائه وسلك طريق السعادة، فمن المسلّم أنّه سيفوق الملائكة في الدرجات، ذلك لأنّه كان يعيش صراع الميول المتضادّة في نفسه، وقد تجاوز عن لذّاته الخاصّة باختياره الحرّ وأدرك روح العبادة وحقّ العبودية لله.

والحاصل: إنّ الإنسان يقف على مفترق طريقين فيما يتعلّق بهذا العالم: أحدهما مسير الحقّ والآخر مسير الباطل. وبالطبع، ينبغي الالتفات إلى أنّ الأمر لا يكون دومًا بهذا الشكل بحيث إذا اختار الإنسان أحد الطّريقين فيتحتّم عليه البقاء على خياره إلى آخر حياته من دون وجود مجال للتراجع والتحوّل!!

وبالالتفات إلى ما ذُكر (وهو أنّ الإنسان موجودٌ مختارٌ وحرٌّ)، يجب أن نذعن بأنّه كما يوجد هذا الاختيار والإرادة في انتخاب أصل الطريق، فإنّه موجود أيضًا في استمراره. لهذا، يكون الإنسان قادرًا على تغيير مسيره ما دام حيًّا، وهو يحتفظ دائمًا بحريّته في مواجهة طريقي الحقّ والباطل. أحدهما طريق الله والآخر طريق الشيطان. الأوّل طريق التكامل، والآخر طريق الانحطاط والسقوط.

والنقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ الدنيا محلّ الاختبار.. ومن الطبيعيّ أنّ الاختبار يكون حين يتعرّض الإنسان للمصاعب وألوان البلاء. فإذا نجح فيها وتحمّلها يخرج ظافرًا من ذلك الاختبار. أمّا إن كان طريق الرقيّ والتكامل

للوهلة الأولى بالنسبة للإنسان حلوًا وكان طريق الباطل والسقوط مرًّا فلا معنى عندئذٍ للامتحان والاختبار. ذلك لأنّ الاختبار إنّما يكون لأجل أن يتجاوز الإنسان ميوله وأهواءه ويعمل لله، وهكذا.. فإذا كان الحقّ على سبيل الفرض أمرًا حلوًا فإنّ الإنسان يُشيح بوجهه عن الباطل المرّ ويُقبل على الحقّ الحلو ليس من أجل الله وانّما تلبيةً لرغبته القلبية.

كذلك لو كان كلّ باطل حلوًا ولا يوجد أي حلاوةٍ وسرورٍ في طريق الحقّ فإنّ الذي يترك الباطل في سبيل الله ويختار طريق الحقّ سيكون محرومًا من جميع الأفراح! فالأمر ليس كذلك بحيث يكون طريق الحقّ خاليًا من أي سرور.

على كلّ حال، إنّ الحقّ ثقيلٌ ومرّ.. والذي يختار الحقّ بوعيٍ تام، فمن الطبيعيّ أن يتحمّل جميع المرارات والصعاب الموجودة في هذا الطريق. ولا شك أيضًا بأنّ التقدير الإلهيّ لا يتساوى بالنسبة للجميع. فإنّ استعداد الجميع لا يكون على نفس المنوال، ولا يكون كلّ واحد منّا قادرًا على تحمّل جميع أنواع البلاء والصعاب. من هنا، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أعدّ لكلّ إنسانٍ امتحانًا أو تقديرًا خاصًا بحسب سعته واستيعابه: بالنسبة للبعض يكون امتحانهم في مرحلة الشباب، والبعض الآخر يؤجّل إلى الشيخوخة، والبعض يُبتلى بالفقر وآخرون بالمرض، والبعض ينزل بهم البلاء من خلال الزوج، وغيرهم على يد الرفيق. فلا يمكن للمؤمن أن يعيش في هذه الحياة من دون أن يواجه أي نوع من المشاكل والصعاب، لأنّه في هذه الحالة لن يتيسّر له سبيل الوصول إلى الكمال.

وحيث إنّ هذه الدنيا محلّ الابتلاء، فإنّ على المؤمن أن يقوّي إيمانه من خلال تحمّل الصعاب ويثبّت استقامته وتقيّده بالأحكام الإلهية ورضاه بتقدير الله. ولا شك بأنّ هذا العمل أمرٌ صعب ولكن بما أنّ هذا الإنسان قد ادّعى الإيمان، فعليه أن يتحمّل كل هذه البلاءات على أساس ادّعائه. أمّا الكافر فليس له مثل هذا الادّعاء ولم يعقد رابطةً بينه وبين الله والحقّ، وهو يريد أن يعيش بهناء في هذه الأيام القليلة للدنيا وليحدث ما يحدث فيما بعد. فحتّى لو قام بعملٍ حسن فإنّ الله سبحانه يثيبه عليه في هذه الدنيا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا

صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١].

بناءً عليه، فإنّ طلّاب الحقّ يجب أن يكونوا مستعدّين لتحمّل المشاكل والصّعاب والرّضا بما يحدث لأنّ هذا هو مقتضى اختيار طريق الحقّ. أمّا الذي ليس لديه قدرة على تحمّل هذه البلاءات فإنّه سيختار حتمًا طريقًا آخر غير هذا الطريق. إنّ التّكامل الروحيّ والمقامات الإنسانيّة العالية لا يمكن أن تتحقّق إلّا من خلال الصبر في الشدائد. وسرّ كون الحقّ مرًّا والباطل حلوًا، هو أنّ طالب الكمال عليه أن يختار الحقّ بحرية وسوف يُختبر بناءً على هذا الاختيار.. ولو لم يكن الأمر كذلك لم يُمتَحن أحدٌ. ومن المسلّم أنّ هذا الاختبار إنّما كان لأجل معرفة مدى اعتقاده وإيمانه وطلبه للحقّ. وأيضًا ليُعرف إلى أيّ حدٍّ يقدّم رضا الله على أهوائه.

لهذا، ينبغي أن تكون التكاليف صعبةً حتى يتكامل هذا الإنسان من خلال التمرين على التقوى والرضا بما يريده الله والصبر على مصاعب الطريق. فلو كانت جميع التكاليف مريحةً وسهلةً لأضحى الكلّ مسلمين ولما تميّز أحدٌ عن أحد. ففي ظلّ الصّعاب والبلاءات والتجاوز عن الأنا وترجيح رضا الله على رضا النفس، يظهر الأشخاص العظماء كسلمان وأمثاله، ويسبقون غيرهم في الوصول إلى أوج الكمال الإنسانيّ وبلوغ أعلى المراتب ونيل الرفعة الإنسانية.

ومن المناسب هنا أن نذكر قصّة أحد العلماء والعرفاء العظام وهو آية الله القمشهاى (رضوان الله تعالى عليه)، لقد كان هذا الرّجل عظيمًا ونزيهًا وقد قام بترجمة القرآن خالصًا لوجه الله، ولم يأخذ مقابل هذه الخدمة العظيمة أي شيء. هذا في حين أنّه لو أخذ أجرًا بعنوان حقّ الترجمة لاستطاع أن يؤمّن لنفسه وعائلته حياةً مرفّهة. ومع أنّه كان أستاذًا جامعيًا، فإنّه كان يذهب إلى الجامعة أحيانًا على تلك الدراجة النارية المخصّصة لحمل الأمتعة. وفي إحدى زياراته إلى مدينة مشهد المقدّسة حين دخل إلى الحرم المقدس للإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع في قلبه أن يسأل الإمام الرضا أن يعطيه مقام الرضا وهكذا قال: «سيدي أنت الرضا وأنا قد جئت إلى بيتك لأطلب من الله أن يمنّ عليّ بمقام الرضا»، وحين خرج من الحرم وفي الطريق إلى منزله صدمته سيارة فجُرح وكُسرت بعض عظامه هنا اجتمع الناس حوله وأمسكوا بذلك السّائق الذي صدمه.. أمّا هو فقد توجّه إلى الناس وقال لا

---

(١) سورة **هود**، الآيتان ١٥ و١٦.

تفعلوا شيئًا لهذا السائق فهذه هديةٌ من الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ!! فلقد سألته مقام الرضا ووصلت إليه.. ولو لم يقع هذا الحادث لما كنت أعلم أنّني وصلت إلى مقام الرضا، فعليّ أن أبقى ثابتًا وأرضى بكلّ ما يريده الله من دون أيّ اضطراب.

الإنسان والميول الباطنية إلى الحقّ والباطل

للإنسان نوعان من الميول إلى جهتين مختلفتين. ويجب أن تتحقّق تلك الفرصة لكي يحدّد في مجال الصراع بين هذين الميلين الباطنيين نحو الحقّ والباطل أنّه إلى أي واحد منهما يكون أكثر ميلًا. وأحيانًا حين يقوم بعملٍ حقٍ قد لا يخالف ميوله ولا يتعارض معها ففي هذه الحال لن يكون القيام بهذا العمل صعبًا. فالمشكلة تكون إذا حصل التعارض بين هذين الميلين وكان كلّ واحدٍ يجذبه نحو نفسه. فالشيطان يأمره بشيء، والله تعالى يأمره بخلافه، النفس تريد شيئًا والله تعالى يريد شيئًا آخر. فهنا، يُمتحن الإنسان حقًا ويُعلم قيمة عمله. وفي هذه الحالة، كلّما ازدادت جاذبية المعصية وقام الإنسان بالدّوس على أهواء نفسه وخالفها يكون ثوابه أكبر، ويصبح لهذه المخالفة مع هوى النفس أثرًا عظيمًا في تكاملها.

إنّ قيمة الشاب الذي يكفّ عن تلك المعصية التي تنسجم مع ميوله وأحاسيسه وغرائزه هي أعلى من ذلك الشيخ العجوز الذي يترك مثل هذه المعصية. فبالنسبة لمثل هذا العجوز، لا يُعد ترك مثل هذه المعصية صعبًا لأنّه لا يرغب فيها كثيرًا. لهذا، يكون ثواب ذلك الشاب أكبر، وفي المقابل لو قام هذا الشيخ بارتكاب تلك المعصية لكانت خطيئته أكبر لأنّه لم يكن يشعر كثيرًا بتلك الميول والضغوط الشديدة. (فما أقبح أن يرتكب العجوز معصية الزنا) فلو كان الشاب لا سمح الله في معرض معصيةٍ كالزنا وتمكّن من التغلّب على غرائزه وشهوته وترك تلك المعصية فإنّ كمالًا عظيمًا سيكون من نصيبه، ذلك لأنّه وُفّق لترك تلك المعصية من خلال جهدٍ كبيرٍ في باطنه وتعلّقٍ شديدٍ بالله والإيمان السامي.. فمن الطبيعي إذًا أن تكون المعصية في هذا العالم حلوةً والحقّ مرًّا حتّى يُمتحن الإنسان ويتحدّد في النهاية من الذي يرجّح إرادة الله ومن الذي يرجّح هوى نفسه.. من الذي يختار الحقّ ومن الذي يختار الباطل.

ومن البديهيّ أنّ شرف وعلوّ الإنسان يكمن في كون تكامله أمرًا اختياريًا، فقد قام لمواجهة نفسه بكامل الإرادة والحرية، واختار أيضًا القيام بالعمل الصالح وترك

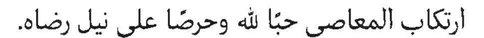

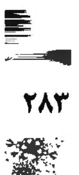

ارتكاب المعاصي حبًا لله وحرصًا على نيل رضاه.

قيل إنّ الحقّ مرٌ والباطل حلو، ولكن مرارة الحقّ وحلاوة الباطل تكون هكذا بالنسبة للإنسان العادي لا بالنسبة للجميع. فعامّة الناس يعيشون حالة التوجّه الدائم نحو إرضاء ميولهم الطبيعية وأهوائهم النفسية وتكون التكاليف التي تحدّ من حركتهم صعبةً ومرّة. وفي المقابل، يكون الباطل بالنسبة لهم سهلًا ومريحًا لأنّهم لا يرون أي صعوبةٍ أو مانع من ارتكابه. فبالنسبة لأمثال هؤلاء من السّهل جدًا التفوّه بالكلام العبثيّ، أمّا إذا أراد أحدهم أن يضبط لسانه ولا يتكلّم إلّا بما هو مطلوبٌ فعليه أن يفكّر عند كل كلمة قبل أن تصدر منه، لكي لا يرتكب النميمة أو الغيبة أو السباب ولا تصدر منه أي سخريةٍ أو إيذاء لأحد. فهكذا يرى أنّه يواجه عند كل كلمة حملًا ثقيلًا لأنّ عليه أن يفكّر بآثار وتبعات كلامه. أمّا إذا أراد أن يتكلّم بما يشاء فليس عليه إلّا أن يفتح فمه ويتركه حرًّا في القول.

وما قيل بأنّ الصّراط أدق من الشعرة وأحدّ من السيف، إنّما يكون بسبب أنّ هذا الإنسان الذي يسلك الصراط، عليه أن يركّز جميع حواسه عند كل خطوة يخطوها وأي طريقٍ يسلكه، ليعرف إلى أين ينتهي وما هي التبعات الناجمة عنه وهل أنّ الله تعالى راضٍ أم لا. فعليه أن يفكّر عند كلّ عملٍ أو تصرفٍ في دافعه. فيراقب لسانه عند كل كلمة ويراقب بصره عند كل مشهد. ومن المسلّم أن مراعاة جميع الجهات أمر صعب وأن القيام بمثل هذه المسؤوليات يحتاج إلى درجة عالية من التحمل. وفي المقابل لو أراد الإنسان أن يعمل وفق أهوائه على أساس الباطل والهوى لكان ذلك أمرًا مريحًا جدًا وسيشعر بذلك في حياته بالراحة والسرور. ولا شك بأن جميع المصاعب بالنسبة لطالب الحق تنحصر في الدنيا أما حين يدخل الجنة فلا ألم ولا صعاب: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[١].

هذه الجنة لا تشبه الدنيا وما يحدث فيها من صعوبات وآلام بأي شكلٍ من الأشكال، ليس هذا فحسب وإنما اهل الجنة لا يدركون ألم الجوع أيضًا بل هم يشعرون بالرغبة الدائمة للطعام والشراب ويلتذّون بهما. وفي المقابل، فإن طبيعة الحياة الدنيا مقرونةٌ بالألم والمشقة، يواجه فيها كل من المؤمن والكافر الشدائد

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٣٥.

والصعاب: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[١].

أما ما هو موجودٌ وحاصل في هذه الحياة الدنيا بالنسبة للكافر والمؤمن، وبالنسبة لأهل الحق وأهل الباطل فهو مختلف: حيث إن أهل الباطل في راحةٍ وهناء نسبيين ويشعرون بحلاوة هذه الدنيا، وفي المقابل تكون هذه الحياة الدنيا مرة في ذائقة أهل الحق. ولا شك بأن المقصود من ذلك لا يعني أن كل هذه الحياة الدنيا ستكون بالنسبة للمؤمن وأهل الحق مرة! وانّما مرارة الدنيا بالنسبة لهؤلاء أمر نسبي. فعند أولياء الله لذّات خاصّة أيضًا. وهؤلاء يلتذون من الطعام والمنام، لكن مصاعب وبلاءات الدنيا بالنسبة لهم أكثر من المشاكل التي يتعرض لها أهل الباطل.

وحيث إن الإنسان يترعرع في حضن الطبيعة وينمو على يديها، فمن الطبيعي إذن أن يشعر بدايةً بحلاوتها ويشعر بلذّاتها. فإن حواسه وذائقته تكون أكثر استعدادًا لتحسس لذاتها الدنيوية والمادية ويطول الوقت حتى تنشأ فيه تلك الذائقة المعنوية. وعليه أن يسلك باختياره مسير الحق والاعتياد على الصلاح وتحمل الصعاب وغض النظر عن اللذائذ المادية حتى يدرك شيئًا فشيئًا في ذائقته حلاوة الحق ويلتذ به. وهذه حقيقة أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾[٢].

فالله تعالى يبين لنا أن هذه الصلاة تكون حملًا ثقيلًا على عامة الناس إلا الذين وصلوا إلى درجة الخشوع. والبعض ينهضون في الصباح الباكر من نومهم وينشغلون بالرياضة ويقومون بالأعمال الشاقّة ولكنهم إذا أرادوا أن يصلوا ركعتين فإنهم يشعرون بثقل كبير فوق ظهورهم! فلا يقومون من نومهم لأجل الصلاة ولكنهم يقومون لأجل الرياضة!! وكم يحدث أن تطول هذه الرياضة لساعةٍ كاملة، فيركضون ويتسلقون الجبال ويقومون ببعض الأعمال المجهدة! كل ذلك لأن ذائقتهم لم تدرك بعد طعم الصلاة. إنهم يشعرون بلذة وفوائد الرياضة، ولأنه قيل لهم إن الرياضة مفيدة للبدن وباعثة على المزيد من النشاط، فإنهم يلتذون بها. وفي المقابل، فإن إيمانهم لا يكون قويًا إلى درجة أن يصدقوا كلام الله وأنبيائه والأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ويثقوا بهم.

---

(١) سورة **البلد**، الآية ٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.

فبالنسبة لأهل الخشوع، وأولئك الذين عرفوا الله وآمنوا به، لن تكون الصلاة حملًا ثقيلًا، بل على العكس من ذلك، ستكون سهلةً ولذيذةً. ذلك لأنهم وصلوا إلى البلوغ المعنوي وها هم مستأنسون في الصلاة مع خالقهم الذي يدبر كل هذا العالم. لا بل تبقى حلاوة الصلاة في ذائقتهم الى الدرجة التي تجعلهم يتمنون ان لا تنتهي الصلاة. فبالنسبة لهؤلاء لا يوجد لذة أعلى من الصلاة والمناجاة، ولهذا كان بعض الأعاظم يقول: لو أدرك سلاطين العالم لذة الصلاة لتركوا ملكهم وسلطتهم وتفرغوا للصلاة! فبالنسبة للأنبياء ولأولياء الله وللذين تربوا في مدرستهم، يكون الحق لذيذًا وحلوًا.. حتى صارت مخالفته عندهم مثل خسارة أعز ما لديهم. وقد أنسوا بهذا الطريق والقيام بأعمال الخير ورغبوا به بحيث أنهم لو تركوا عملًا صالحًا لشعروا أنهم أضاعوا شيئًا ليس من السهل عليهم التخلي عنه. أولئك الذين اعتادوا على قيام السحر فلو لم يقوموا في ليلةٍ ما للمناجاة لشعروا بالأسى والانزعاج.

الانجذاب العمومي إلى اللذات الحسيّة والدنيويّة

بما أن أغلب الناس يتوجهون إلى اللذات الحسية والدنيوية، فإن الحديث فيما ينبغي أن يفعله الإنسان ليكون متحرّكًا في مسيرة التكامل، وقادرًا على مواجهة الغرائز والنزوات المادية واللذائذ الحيوانية في نفسه ويتقدم وهو لا يعبأ بها على طريق الحق.

وفي الجواب ينبغي أن نقول: إن طلب اللذة أمرٌ مغروزٌ في فطرة الإنسان. وإن الدافع عند البشر من وراء القيام بالأعمال المختلفة هو تلك اللذة التي ينالونها. فنحن نؤدي ما يسعدنا وننفر من كل عملٍ يؤدي إلى تعاستنا. ونحن إذا اتبعنا الباطل أحيانًا وارتكبنا بعض الذنوب، فذلك لما نراه فيها من لذة. فطريق التغاضي والإقلاع عن هذه الأمور إنما يكون بالتفكر بعواقبها وآثارها السيّئة التي سنبتلى بها أو أن نفكر بحقيقة اللذة التي سننالها من وراء العمل الصالح. هذا وإن كان تحمل المصاعب التي تنجم عن فعل الخير واتباع الحق أمرًا ثقيلًا، ولكننا لو نظرنا إلى الثواب الموعود عليها والعاقبة الحسنة من ورائها لأضحت سهلةً بالنسبة لنا. وفي الواقع، إن الناس حين يقومون بالأعمال الصعبة والثقيلة في الدنيا فإنهم يقارنون الأشياء على هذا النحو:

العامل الذي يخرج من بيته عند الصباح الباكر ويبدأ بالعمل المجهد ويبقى حتى آخر النهار والعرق يتصبب منه، فإنه يلتذّ بكل هذه الصعاب لأنه يفكر بنتيجة عمله الحسنة. والخبّاز الذي يقف قرب الفرن الملتهب يتحمل تلك الحرارة الشديدة، لأنه سيقبض راتبه آخر النهار ويؤمّن بذلك احتياجاته. فحين يفكر بنتائج عمله وبالأجر الذي سيناله وكيف أنه سيحل بعض مشاكل الحياة ومصاعبها، فإن ذلك يبعث في نفسه لذة من هذه الحياة ويسهل عليه جهد العمل.

وفي الواقع، إن تحمل هذه الصعاب أمرٌ عقلائيٌ. وهكذا حال جميع الناس! فهم حين يقارنون هذه الصعاب مع اللذات الناجمة عنها، فإنهم يقدمون على تلك الأعمال. وإذا نالوا من وراء أعمالهم المزيد من المنفعة والأجر فإنهم يزدادون سعادةً والتذاذًا. وفي الواقع، إن مجرد وجود أجر أو دخل يحصلون عليه مقابل أعمالهم بشكلٍ مباشر، لا يوجد فيه لذة تذكر، بل إن ذلك يعود إلى أن الأجر وسيلة للحصول على اللّذة.. فبالمال يؤمّنون المسكن ووسائل المعاش التي تبعث فيهم اللذة. فالإنسان العاقل يتحمل صعوبة العمل ليدرك من ورائه اللذة الأعلى من تلك الصعوبة.

يبتعد الإنسان العاقل عن استخدام المخدرات واللذات المؤقتة الناتجة عنها، لأنه يفكر بالمفاسد الناجمة عنها في المستقبل. فهو يعلم أن هذه اللحظات القليلة من اللذة والنشوة يعقبها مدة طويلة من التعاسة والآلام. فإذا صدقنا أن المعصية وإن كانت حلوةً ولذيذة لكن لها عواقب سيئة. حتى لو لم تكن هذه العواقب حاصلة في الدنيا فإنها حتمًا ستكون في الآخرة. فإننا سنغضّ النظر عنها كما كان موقفنا من المخدرات، لكي لا نُبتلى بالعذاب الأبدي. وفي هذا المجال، يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**وربّ شهوة ساعة تورث حزنًا طويلًا**»[1].

ومثل هذه اللذات التي تدوم لوقت قصير ويعقبها عذابات طويلةٌ ما أكثرها في أيامنا هذه. في الماضي، لم يكن سوى الخمر الذي يجعل الإنسان غارقًا في السكر ومنتعشًا للحظات ثم يعقبه تلك التبعات المؤلمة والمؤسفة. ولكننا اليوم نشاهد أنواعًا كثيرة من المخدرات تضاف كل يوم إلى هذه السوق. وهذا رفيق

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٦١٠.

السوء يخدع صاحبه ويسوّل له ما يحصل عليه من لذة ونشوةٍ من استخدام مادة الهيروين فيصدقه ويبتلى بالإدمان. في البداية، يشعر هذا الإنسان باللذة، ثم يتناول تلك المادة مرة أخرى حتى يصبح مدمنًا بالكامل ليدخل بعدها في متاهات المجهول. والذنوب الأخرى تكون هكذا أيضًا. فلو فكرنا قبل أن نهمّ بالمعصية في العواقب السيئة التي تنجم عنها لأقلعنا عنها. تحيق الكثير من المعاصي بصاحبها في الدنيا قبل الآخرة. في بعض الأحيان، إن نظرةً واحدةً محرمة تورث حياةً من التعاسة وتؤدي إلى تدمير أسرةٍ بأكملها. فهذه من العواقب الدنيوية لهذه المعصية وسيعقبها في الآخرة الكثير من الآلام والعذابات: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[١].

وفي موضع آخر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ﴾[٢].

وإذا قارنّا لذّة المعصية بعواقبها، فلنبذل جهدنا حتى لا نتلوّث بالمعاصي، وخصوصًا قبل أن تظهر المعصية جاذبيتها ومحاسنها لنا. فإنّ الابتعاد عنها عندئذٍ يكون أسهل بكثير. ذلك لأنّه إذا أثّرت فينا جاذبية المعصية وأدخلتنا في دائرتها، فإنّه سيصعب علينا كثيرًا تجنّبها. كان أحد الأكابر رحمه الله يقول: أيّها الشباب اسألوا ربّكم أن لا تغلي أوعية شهواتكم لأنّه في هذه الحالة يكون إطفاؤها أمرًا صعبًا. فما لم يكن الإنسان تحت تأثير الشهوة أو الغضب يكون مستقرًا ويتمكن من التفكر واتخاذ القرار ومحاسبة النفس؛ فإذا تحركت شهوته يتمكّن من الحيلولة دون تحققها. أمّا إذا لم يكن قد قرر مسبقًا ولم يفكر فإن الشهوة والغضب إذا تحركتا فلن يتركا له مجالًا للتفكر.. فمع لهيب الشهوة ينطفئ مصباح العقل.

وللشيطان غير الشهوة والغضب طرقٌ وقوى أخرى لأجل سوق الإنسان نحو الانحراف. منها تلك العوامل الاجتماعية: ففي المجتمع، يسعى كل شخصٍ بشكلٍ طبيعي إلى أن ينسجم مع الآخرين. فهذا أحد العوامل الروحية والنفسية التي تنشأ في الإنسان في المراحل الأولى من عمره. ولا شك أن هذا العامل كغيره من العوامل الأخرى له آثارٌ سلبية وآثارٌ إيجابية والمطلوب هنا أن نعلم الحد الفاصل بين

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٢٦.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٣٤.

الخير والشر لكي نستفيد من هذا العامل بشكلٍ صحيح ولا نقع في التقليد الأعمى.

فالانسجام مع الآخرين يؤدي في كثيرٍ من الأحيان إلى نجاة الإنسان: وكم حدث أن بعض الشباب انساقوا إلى المسجد نتيجة ميلهم الطبيعي للانسجام مع أصدقائهم الصالحين. وكم قد حدث أن انجرّ الأمر أيضًا في أمثال هؤلاء إلى أن يصبحوا من المجاهدين الأشداء. ففي البداية، لم يكن لهم أي تعلقٍ أو رغبة في المشاركة في الجبهة ولكنهم حين شاهدوا أصدقاءهم وأبناء محلتهم يسارعون إلى جبهات القتال وجدوا أنفسهم ينساقون معهم بشكلٍ طبيعي؛ هذه من الآثار الحسنة لمثل هذا العامل.

وفي المقابل، فإنّ البيئة الفاسدة تجعل مثل هذا العامل سببًا في التوجّه نحو الفساد وخصوصًا في الشباب والأحداث.. لأنّ أمثال هؤلاء يتأثّرون بسرعة من البيئة المحيطة ولا يمتلكون القدرة اللازمة لمقاومة هذا الفساد المهيمن. ولكن هذا العامل يضعف عند الذين عبروا المراحل المتوسطة من عمرهم وتخفّ رغبتهم في التشبه بغيرهم. فالمثل الأعلى عند الشباب إما أن يكون الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع أو أولئك المتميزين أو بعض الشعوب المتطورة في العالم. فحين يشتهر تيارٌ ما داخل المجتمع، فإن الذي يسعى لاتخاذ مثل أعلى لنفسه سيقول في نفسه إن أغلب الناس عقلاء وليسوا مجانين، فعملهم لا بد أن يكون صحيحًا!! وبعد ذلك، يدخل تحت تأثير هذا العامل ويصبح كغيره. لهذا، نجد أن بعض الناس قد انجرّوا إلى الفساد نتيجة هذا العامل وخاصةً إذا كانت أكثرية المجتمع فاسدةً.

الدرس الثالث والعشرون

الفقيه الكامل

وظهور الاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ في السلوك

- ❖ إبراهيم (ع) والاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ
- ❖ الاتّكال على ما سوى الله ناتجٌ من عدم الاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ
- ❖ الشيخ الأنصاري والفرار من فخّ الشيطان
- ❖ التواضع عامل العزّة والرفعة
- ❖ الإمام السجّاد (ع) وإدراك الفقر والنقص الذاتي
- ❖ ثمرة الإيمان الحقيقيّ في كلام النبيّ

«يا أبا ذر لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى الناس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعر ثمّ يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقر حاقرٍ لها.

يا أبا ذر لا تصيب حقيقة الإيمان حتّى ترى الناس كلّهم حمقاء في دينهم عقلاء في دنياهم».

وفي تتمّة مواعظ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأبي ذر، نصل إلى هذا المقطع المتعلّق بالتوحيد الأفعاليّ والذي يحتاج إلى توضيح:

فللاعتقاد بالتوحيد الأفعالي مراتب، أدناها يحقّق نصاب التوحيد في الإسلام بحيث أنّ كل من اعتقد به يصبح موحّدًا وفق الرؤية الإسلاميّة. الاعتقاد بوحدانيّة الله في الذات والصفات والاعتقاد بالتوحيد في «الربوبيّة التكوينيّة، والربوبيّة التشريعيّة»[١] والاعتقاد أيضًا بأنّ الله هو المعبود الأوحد. وما هو أبعد شأوًا من هذه المرحلة مراحل أخر، منها الاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ.

---

(١) التوحيد في الربوبيّة التكوينيّة يعني الاعتقاد بأنّ إدارة وتدبير هذا العالم بيد الله تعالى والاعتقاد بأنّ كلّ ما يجري فيه من حركة الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار والحياة والموت والأرزاق بيده تعالى وهو الذي يحفظ السموات والأرض. وكذلك فإنّ أيّ مخلوقٍ يوجد في هذا العالم الواسع وينمو ويتوالد وكلّ أثرٍ وجوديّ يظهر منه فإنّها جميعًا تحت تدبيره وإدارته، ولا تخرج أيّة ظاهرةٍ عن دائرة ربوبيّته. والربوبيّة التشريعيّة ترتبط بالتدبير الاختياريّ للبشر. فمن بين جميع المخلوقات جعل الله حركات الإنسان وتكامله في ظلّ أفعاله الاختياريّة. إنّ الربوبيّة الإلهيّة تقتضي أن يُعطى الإنسان القدرة على التصرّف في مبادئ الإرادة والاختيار ووسائل العمل، وعلاوة على ذلك فهو يعرّفه على الطريق الصحيح والصراط المستقيم وكذلك الخير والشرّ ويضع له القانون الذي ينظّم حياته الفرديّة والاجتماعيّة.

والتوحيد الأفعالي يعني أن يدرك الإنسان في البداية بالعلم ثمّ في النهاية بالشهود أنّ المؤثّر الحقيقيّ في العالم هو الله تعالى ولا يمكن لأيّ موجودٍ الاستقلال في التأثير (وأمّا ما يتعلّق بانسجام هذا الاعتقاد مع قضيّة الاختيار والتكليف أم لا، فقد طرح في البحوث الكلاميّة والفلسفيّة ولا مجال للتعرّض له ها هنا).

وكما ذكر، فإنّ للاعتقاد بالتوحيد الأفعالي مرحلتين، **المرحلة الأولى:** الاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ من خلال الاستدلال والبرهان والعلم بأنّه لا يستقلّ موجودٌ من الموجودات بالتأثير بنفسه، بل إنّ كلّ كائنٍ هو عين الربط والتعلّق بالعلّة الحقيقيّة والسبب الأوحد وهو «الله». فإنّ جميع التأثيرات والتأثرات والعلل والمعلولات تنبع من ذات الحقّ المقدّسة. هذا وإن كانت هذه المرحلة من الاعتقاد العلميّ بالتوحيد فائقة الأهميّة والقيمة، ولكنّ أهميّتها لا تصل إلى مستوى أهميّة مرحلة شهود التوحيد الأفعاليّ.

المرحلة الثانية: أن يجد ويدرك الإنسان بعد العلم بالتوحيد الأفعاليّ من خلال السير والسلوك والشهود العرفانيّ أنّ المؤثّر الحقيقيّ في العالم ليس إلّا الله، ويؤمن قلبه بذلك. ففي هذه المرحلة، يدرك أنّ ما سوى الله (كلّ بحسب قوّته أو ضعفه) ليس له تأثيرٌ مستقلٌ في مصير الإنسان، وإنّما هي الإرادة الإلهيّة التي تنفذ في كلّ شيء وتظهر في الأسباب والوسائل.

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ

وأفضل نماذج المعتقدين بالتوحيد الأفعاليّ ممّن كان يرى أنّ نظام الأسباب والمسبّبات متعلّقٌ بإرادة الله ومشيئته وما من مؤثّر بالاستقلال إلا الله تعالى، ولم ير ملجأً وملاذًا غيره: هم الأنبياء وأولياء الدين. ونشير ها هنا إلى أبرز أسوةٍ للموحّدين في طريق الدعوة الإلهيّة الذي لم يخف أحدًا إلّا الله وهو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: فلمّا رفض إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستسلام للمشركين وعبدة الأوثان في بابل وقام عند خروجهم بتحطيم الأصنام حتّى إذا رجعوا وفوجئوا ثمّ بحثوا عن المسبّب نهض لمجادلتهم بالاستدلالات القويّة والمحكمة بحيث جعل اعتقاداتهم فاقدةً للأساس وباطلة. فلم يجدوا أيّ خيارٍ لمواجهة مثل هذا المنطق القويّ سوى إلقائه في النار

وإحراقه: 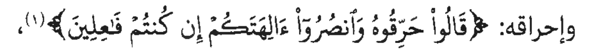 ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾[1]،

فأحضروا كميّةً كبيرةً من الحطب وفي اليوم الموعود ألقوا النبيّ العظيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في النار. وفي تلك الأثناء، لم يكن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ متوجّهًا إلى أحدٍ سوى الله تعالى ويقول الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وفي ذلك اليوم كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يذكر إلّا: «يا أحد [يا أحد يا صمد] يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» وقول: «توكّلت على الله»[2].

لقد كان متوكّلًا على الله بقلبٍ رسخ فيه الإيمان بحيث لا يرى نفسه محتاجًا إلّا إلى الله ولم يرفع يد الاحتياج والسؤال إلى أحِد غيره حتى لو كانت لِمَلَكٍ إلهيٍّ مقرّب:

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **«لما أُلقي إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **في النار تلقّاه جبرائيل في الهواء وهو يهوي فقال يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا»**[3].

وقد نقل هذا الحديث بشأن إبراهيم بطرق الشيعة والسنّة ممّا يدلّ على علوّ مرتبة التوحيد في الروح العظيمة لهذا البطل الإلهيّ. ومثل هذا الاعتقاد وهذه الروحيّة هي التي أدّت إلى أن يكون لائقًا لنيل المدد الغيبيّ: فهناك أمر الله تعالى النار أن تكون بردًا وسلامًا. ويُقال إنّ النار أصبحت باردة إلى درجةٍ أنّ إبراهيم بدأ يرتجف من شدّة البرد حتّى اصطكّت أسنانه، فأمر الله تعالى النار مرة أخرى أن تكون بردًا وسلامًا. وفي هذه المعمعة، هبط جبرائيل وجلس في النار إلى جانب إبراهيم وبدأ يحدثه.

وفيما يُنقل عن الإمام الصادق: «كَانَ قَنْبَرٌ غُلَامُ عَلِيٍّ يُحِبُّ عَلِيًّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حُبًّا شَدِيدًا، فَإِذَا خَرَجَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خَرَجَ عَلَى أَثَرِهِ بِالسَّيْفِ، فَرَآهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: يَا قَنْبَرُ مَا لَكَ؟ فَقَالَ: جِئْتُ لِأَمْشِيَ خَلْفَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: وَيْحَكَ أَمِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ تَحْرُسُنِي أَوْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ: لَا بَلْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ لَا

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٦٨.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٨، الصفحة ٣٧٠.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٢، الصفحة ٥.

يَسْتَطِيعُونَ لِي شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ الله مِنَ السَّمَاءِ، فَارْجِعْ فَرَجَعَ»[1].

الاتّكال على ما سوى الله ناتجٌ من عدم الاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ

وما ذكر هو انعكاس للاعتقاد بالتوحيد الأفعاليّ في الرؤى والسلوك والتصرّفات الإنسانيّة التي يظهر فيها الإنسان حقيقةً أنّه لا يعتمد على ما سوى الله ولا يحسب لغيره حسابًا. هذا الانسان الذي كان قبل الوصول إلى مرحلة شهود التوحيد الأفعاليّ يرى لغير الله تأثيرًا، ويظنّ أنّه بحاجة إلى من عداه، وهو يأمل أن يفعلوا له شيئًا يسدّ احتياجه ويرفع مشكلته. أو أنّه كان في خوفٍ من أن يلحقوا به ضررًا. وهذا في الواقع ليس إلّا الاعتقاد باستقلاليّة الأسباب والمسبّبات في التأثير. وهو الذي يؤدّي أو يحكي عن جانب من الاعتماد عليها. ومن المسلّم أنّ هذه الرؤية لا تنسجم مع التفكر التوحيدي. فهذا الظنّ لا ينسجم مع «بحول الله وقوّته أقوم وأقعد» و«لا حول ولا قوّة إلّا بالله». إنّ المعرفة التوحيديّة تقتضي أن لا يتعلّق قلب الإنسان بغير الله ولا يعتمد على ما سواه. وفي هذا المجال، يقول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: **«يا أبا ذر لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى الناس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعر ثمّ يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقر حاقرٍ لها»**.

والملفت أنّ تعبير النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو أنّه لا يصبح الانسان فقيهًا كاملًا إلّا إذا رأى أنّ اختيار جميع الناس بيد غيرهم، كما يرى الجمال التي يسوقها سيّدها بلجامها وهي لا تملك لنفسها استقلالًا. فاختيار جهة الحركة وتنظيم وتدبير أمورها وشؤونها بيد من أمسك اللجام.

ففي البداية، يظنّ الإنسان أنّ الآخرين مستقلّون في تحرّكاتهم، في شنّ الحروب وتحقيق الانتصارات وإحداث التغييرات. أمّا إذا ارتقت معرفته ووصل إلى المعرفة التوحيديّة، فإنّه يراهم مثل قافلة الجمال التي يسوقها شخصٌ آخر وتمتدّ سلسلة لجامهم حتّى تصل إلى يد الله. وصحيحٌ أنّ في البين أسبابًا ومسبّبات، وأنّ هذه السلسلة الموجودة في حالة من الحركة، لكنّ هذه السلسلة لها رأس محرّك. فهناك في الطرف النهائيّ من يمسك بلجام هذه الأباعر بيده. ولا يعني ذلك البتّة

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٩.

أنّ الناس مجبرون، بل الحديث في كون التأثير المطلق لا ينبع منهم. فليس صحيحًا أن نعتقد بأنّهم أصحاب القرار والممسكون بزمام الأمور في كلّ شيء: فهم تحت نظام آخر وإرادة فوق الإرادة البشريّة تحكم عليهم. فالموحّد هو الذي لم ينس الله ولم يغفل عن يد الله في نظام العالم. وإلّا ففي غير هذه الحالة لا يكون قد أدرك التوحيد. ولا شكّ بأنّ بيان وتوضيح هذه المطالب ليس بالأمر السهل وفي الواقع لا يكون للبيان هنا الدور الأساسيّ لتفهيم وإدراك هذه الحقيقة، بل ينبغي أن نسأل الله تعالى أن يرزقنا توفيق إدراك هذه الحقائق.

(والفقيه في حديث النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ليس بمعنى هذا الفقيه الاصطلاحيّ الذي يُطلق اليوم على المجتهد في استنباط الأحكام الشرعيّة، بل المقصود هو معناه اللغويّ وهو الذي يكون له فهمٌ حقيقي ودقيق فيما يتعلّق بالمعارف الدينيّة).

وبالوصول إلى هذا الحدّ من المعرفة لا ينبغي أيضًا أن نأمن وساوس الشيطان لأنّ الشيطان لا يترك الإنسان أبدًا. بل إنّه يسعى أكثر على وجه الخصوص لانحراف أولئك الذين يتقدّمون على طريق الحقّ والكمال. أمّا أولئك الذين قد أسلموا أنفسهم للشيطان، فإن الشيطان لا يحتاج لبذل أيّ جهد لدفعهم نحو الانحراف وإضلالهم.

الشيخ الأنصاريّ والفرار من فخّ الشيطان

هناك قصّة معروفة عن الشيخ الأنصاريّ (رحمه الله) حيث يُنقل أنّ رجلًا رأى الشيطان في منامه يحمل حبالًا متعدّدة الأحجام والألوان بعضها أخضر والبعض الآخر أحمر وبعضها أصفر وبعضها دقيقٌ وبعضها سميكٌ جدًّا، ومن بين هذه الحبال رأى حبلًا شديد السماكة ولكنّه مقطّع، فسأل الشيطان عن هذه الحبال لأيّ شيء هي؟ أجابه الشيطان في منامه: هذه أفخاخي ومصائدي أعددتها لبني آدم لكي أخدعهم وأجرّهم بها إلى الهاوية! فسأله الرجل عن كلّ حبلٍ من الحبال وكان الشيطان يجيبه عن كلّ حبل، ويقول: هذه المرأة، وهذا البيت، وهذه الحياة الدنيا، وهذا المال، وهذا الجاه. ثمّ سأله أيّ مصيدةٍ أعددت لي؟ فقال له الشيطان أنت لا تحتاج إلى أيّة مصيدةٍ، لأنّك تسعى ورائي بنفسك! إنّما هذه المصائد لأولئك الذين لا يأتون إليّ وأنا أوقعهم بها وأشدّهم إليّ بالقوّة. فسأله: وهذا الحبل المقطّع

لمن؟ فتأوّه الشيطان قائلًا لقد تعبت كثيرًا وأنا أعدّ هذا الحبل للشيخ الأنصاري، ولكنّه ليلة أمس حين وقع في فخّي وأحاط به حبلي قام بتقطيعه قطعةً قطعة! فصرخ الشيطان من شدّة الألم واختفى.

فاستيقظ هذا الشخص من منامه وبقي إلى الصباح منزعجًا وقلقًا ممّا يكون قد حدث. وفي الصباح، ذهب إلى الشيخ الأنصاريّ وذكر له ما رآه في منامه. فبكى الشيخ وقال: ليلة أمس كانت امرأتي قد جاءها المخاض، فقالت لي القابلة ومن معها من الجيران: يجب أن تشرب زوجتك زيتًا. وقالوا لي: اذهب واشتر بعض الزيت بسرعة. ولم يكن معي من المال شيء لأشتري الزيت. إنّما كان هناك «تومانان» من سهم الإمام وضعتهما جانبًا حتّى أعطيهما لمن يستحقّ. فحملت هذا المال لكي أشتري لزوجتي الزيت. وفي تلك الأثناء، فكّرت في نفسي: ألا يمكن أن يكون في تلك الليلة لأحد الطلبة زوجة تريد أن تلد وهو لا يملك المال لشراء الزيت لها؟ فقلت لعلّ هناك في أزقة النجف طالبًا تريد زوجته أن تضع حملها وهو لا يملك أيّ مال لشراء الزيت لها، فرجعت ووضعت المال مكانه وقلت فليكن ما يكون! فقد كان هذا فخًّا نصبه الشيطان لي وهو ينتظر منذ تسعة أشهر أن تأتي هذه الليلة لكي أتصرّف بسهم الإمام بغير حقّ ولكنّ الله وفّقني لتمزيق هذا الفخّ وتقطيعه.

أجل، إنّ الشيطان يصرف كل همّه من أجل إضلال أولئك الذين يسلكون طريق الكمال. فحين يطوي الإنسان مراتب الكمال والمعرفة تنفتح بصيرته ويتّسع قلبه وتتجلّى له مظاهر التوحيد، أو تظهر له تلك المكاشفات، فيرى أو يسمع. وهناك يحضر الشيطان مباشرةً ويوسوس له ويوقعه في الغرور قائلًا له إنّك قد طويت المقامات ووصلت إلى المراتب العالية وأصبحت مختلفًا عن الآخرين. فحين يوفّق الإنسان بسعيه لنيل هذه المرحلة من المعرفة حيث يفهم أنّه لا يستقلّ أيّ مخلوقٍ بالتأثير، ولا ينبغي له أن يخضع لهم من أجل حفنةٍ من الدنانير أو من أجل أن يتوسّطوا له لتمشية بعض الأعمال أو الوصول إلى بعض الاحتياجات. فهناك ومباشرةً يوسوس له الشيطان قائلًا: «أنت مدهش! لقد وصلت بهذه المعرفة إلى المقام السامي! وأصبحت مهمًّا جدًا». وهناك من المتوقّع أن يُبتلى الإنسان بالغرور. ولأجل الحيلولة دون حصول هذا الغرور، فإن النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، بعد أن أوصى أبا ذر بأن يرى الجميع كالأباعر في مقابل الله تعالى. يقول له

مباشرةً، ولكن عليك أن ترى نفسك كالآخرين بل أقلّ! انظر إلى سلسلة الكائنات لترى نفسك حلقةً منها وأنت خاضعٌ كما أنّ غيرك خاضع لتلك القدرة المطلقة فحركات الآخرين وحركتك أنت أيضًا بيد ذلك المحرّك القدير وبقول الشاعر ما ترجمته:

نحن جميعًا أسودٌ ولكن أسود العلَم
والحامل لنا هو الهواء لحظة بلحظة
الهواء حامل لنا وهو أمر غير ظاهر
روحي فدى لذلك الذي هو غير ظاهر

(الأسد المنقوش على العلم يهتزّ باهتزاز العلم بواسطة حركة الريح)

فإذا أضحى الإنسان فقيهًا في الدين فإنّه في البداية حين يقارن الناس بالله لن يرى الناس شيئًا، ثمّ إنّه حين يقارن الناس بنفسه فهو سيرى الجميع أفضل منه. وهذه مسألةٌ عجيبة. حيث يوفّق الله تعالى هذا الإنسان للوصول إلى درجةٍ يرى الناس فيها غير مستقلّين بالفعل، ولا يعطيهم أيّة قيمة من ناحية التأثير في حياته. ومن جانبٍ آخر، فإنّه يراعي الآداب الشرعيّة. ففي الوقت الذي لا يرى للآخرين أيّ دورٍ أو مقام، فإنّه لا يقلّل من تواضعه وأدبه واحترامه لهم. فهو يراعي الآداب الشرعيّة، ويرى نفسه في الواقع أحقر وأصغر من الآخرين.

فمن جانبٍ يرى الناس مقابل الحقّ كالجِمال التي تسير والربّ يمسك بنواصيها: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[1].

ومن جانب آخر، يرى نفسه بينهم كجمل صغير. لا أنّه إذا رآهم كالجمال أحبّ أن يركبها! بل إنّه يرى نفسه أصغر وأذلّ من الآخرين، ويعترف بحقارة نفسه. ولا نشكّ بأنّ مثل هذا النظر أمرٌ صعبٌ ولكنّه أيضًا قابلٌ للتحقّق وله واقعيّة. إذا أدرك الإنسان هذا الأمر ولم يرَ للآخرين تأثيرًا وفي نفس الوقت وقف أمامهم بكمال التواضع فإنّه يتّضح الجواب على الكثير من الأسئلة المتعلّقة بالمعارف الدينيّة. وفي الواقع، بهذا الحديث النبويّ يتّضح حدّ التواضع أيضًا. وبه سوف نعلم أنّ التواضع

(١) سورة **هود**، الآية ٥٦.

لا ينسجم ولا يتساوى مع أن يذلّ نفسه للآخرين بل إنّ التواضع في كلام النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يزيد من رفعة الإنسان وعزّته.

التواضع عامل العزّة والرفعة

وفي روايةٍ عن الحسن بن الجهم عن الإمام الرضا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين سأله عن حدّ التواضع فأجاب: «**قلت: ما حدّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعًا؟ فقال: التواضع درجاتٌ منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزّلها بقلبٍ سليم لا يحبّ أن يأتي إلى أحدٍ إلّا مثل ما يؤتى إليه. إن رأى سيّئةً درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عافٍ عن الناس والله يحبّ المحسنين**»[1].

فمن المسلّم أنّ مثل هذا التواضع لا يؤدّي إلى حقارة الإنسان وضعته بل يزيده رفعةً وعزّةً وحسب قول النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**...وإنّ التواضع يزيد صاحبه رفعةً فتواضعوا يرفعكم الله..**»[2].

ويعتقد بعض علماء النفس أنّ الإنسان إذا رأى نفسه أقلّ من الآخرين من ناحية الأهميّة والقيمة فسوف يبتلى بعقدة الحقارة! وفي النهاية، لن يتمكّن من إقامة علاقات سليمة مع الآخرين، ولن يتمكّن من التواصل معهم بشكلٍ صحيح. بل سيكون خجولًا دائمًا ولا يستطيع أن يتكلّم بطلاقة ويفقد القدرة في الاعتماد على نفسه ويفرّ من الاجتماع بالآخرين وينزوي!

فكيف والحال هذه يمكن الجمع بين التواضع والاعتماد على النفس؟ فمن جانبٍ: علينا أن نتواضع ومن جانبٍ آخر علينا أن نحافظ على سلامة أنفسنا! من جانبٍ ينبغي أن نرى أنفسنا أقلّ من الآخرين ومن جانبٍ آخر، ينبغي أن نحافظ على نشاطنا المعنويّ والنفسيّ.

ويبدو أنّ منشأ الكثير من الأمراض النفسيّة في البشر (بدون أن نغضّ النظر عن دور العائلة والبيئة) هو عدم الاعتقاد بالله وعدم الاعتماد على المنبع العظيم للوحي الإلهيّ: فلو فقد الإنسان هذه النقطة الأساسيّة للاعتماد، فإنه سينجرف في

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٢١.

بحر المشاكل والأزمات النفسيّة وستتعرض روحه لهجمات الآفات والأمراض. أما إذا نظّم جميع أفعاله وانفعالاته على أساس الموازين الإلهيّة، فإنه سينجو من الكثير من الآلام الروحيّة. لهذا، كان التواضع في الروايات مقيدًا بالصبغة الإلهيّة: «**من تواضع لله رفعه الله**»[١]. فلو كان تواضع الإنسان للآخرين لأجل رضا الله فقط، وكان تقيّده بذلك خالصًا لله، فإنّه لن يشعر بأيّة حقارةٍ. فالتواضع المطلوب هو الذي ينشأ من الإخلاص لله. أمّا إذا كان التواضع ناشئًا من الضعف والانكسار والحقارة الذاتيّة، فلن يكون له أيّة قيمة، ولن يترتب عليه أيّ ثواب.

وطبقًا لهذا التحليل، يجب القول إنّ تواضع الإنسان أمام الآخرين إذا كان على أساس العبودية وطاعةً للأوامر الإلهيّة فحسب، فإنّه لن يؤدّي إلى إضعاف النفس بل سيكون عاملًا لافتخار الإنسان. أي إن الإنسان يعدّ التواضع عبادةً لله ويفتخر به. فكما أنّ الانسان المؤمن إذا سجد لله وعفّر جبهته بالتراب له، فإنّ ذلك لا يؤدّي إلى إحساسه بالحقارة والصَغار أمام الآخرين، بل يؤدي إلى افتخاره وعزّته. فكذلك حال التواضع للآخرين إذا كان من أساسه لله ولأجل طاعة الله فإنّه يصبح مفخرة له.

الإمام السجاد (ع) وإدراك النقص والفقر الذاتيّ

وبالالتفات إلى ما ذكر، يمكن أن نفهم أكثر لماذا كان الإمام السجاد عَلَيهِالسَّلَامُ يناجي ربّه مع ما له من مقام العصمة وطهارة النفس كما روي في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**...فمن يكون أسوء حالًا منّي إن أنا نقلت على مثل حالي إلى قبرٍ لم أمهّده لرقدتي..**».

(والإمام المعصوم لا يتحدّث مجاملةً ولا يصدر منه الكلام على سبيل الدعابة والمزاح) فكيف يعقل أن يكون حال الإمام المعصوم أسوأ من حال سائر الناس! إنّ هذا لغزٌ معقّد لا يمكن حلّه إلّا من خلال الاطّلاع على المعارف التوحيديّة.

فحين يفهم الإنسان أنّ جميع الأوعية فارغة وأنّ كلّ ما لديه إنّما كان محض التفضّل من الله فهو حينئذٍ يعلم أنّ كلّ نقصٍ هو منّا ومن فقرنا الوجوديّ. وحين نرتكب المعاصي فإمّا أن يكون ذلك بسبب جهلنا وعدم معرفتنا لمن نعصي ومن نخالف، وإمّا أنّ إرادتنا ضعيفة إلى درجةٍ تستسلم أمام الشهوة والغضب.. فكلّ ذلك يحكي عن ضعفنا ولا يملك الإنسان بذاته إلّا الضعف.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٢٢.

فماذا نملك نحن ممّا لم يكن تفضّلًا وعطاءً من الله؟ فالعلم والفهم والفكر والعبادة وتوفيق العمل وكلّ شيءٍ لدينا هو من الله. وكلّ ذلك قد وصلنا بمحض التوفيق الإلهيّ حتّى إنّ وسائل الحصول عليه كانت أيضًا منه تعالى. فنحن لا نملك سوى هذه الحيثيّات العدميّة (الضعف والنقص) ولو أردنا أن نفصل أنفسنا عن ربنا تعالى لبقينا مجرّد أوعيةٍ خالية. هذا، إذا كان التعبير بالوعاء صحيحًا! فنحن لا نملك من أنفسنا أيّة ثروةٍ أو فهمٍ أو عقلٍ، وليس لدينا سوى الجهل والعجز وقلّة الأدب واعوجاج الفهم وضعف الإرادة: كلّ ذلك يحكي عن نقصنا وضعفنا.

فلو كانت هذه النقائص وهذا الضعف باعثًا على ضلالتنا وسقوطنا فإنّ من كان أضعف وأنقص يمسي احتمال سقوطه أكبر. إنّ كلّ من كان ضعفه ونقصه أكثر من الآخرين، فهذا يعني أن سعته الوجوديّة أكبر: فحين يكون الوعاء أكبر تكون سعته أكثر ولأجل تعبئته يحتاج إلى مؤونةٍ أكثر. حين تصبح السعة الوجوديّة للإنسان أكثر فإنّه يحتاج إلى المزيد من الكمال وهو لا يملك شيئًا من نفسه لنفسه. إذا أخذنا العصفور مثلًا فإنه بالنظر إلى صغره تكون سعته أقلّ وقد أعطاه الله بحسب هذه السعة من البصر والسمع القدرة على الطيران والقدرة على الزقزقة. ولو انتزع الخالق منه هذه الأشياء لأضحى وعاءً خاليًا بحجم العصفور. أما إذا أخذنا الفيل الذي تكون سعته أكبر فإنّ الله تعالى أعطاه بحسب هذه السعة من الأعضاء والجوارح والقدرة، ولو سلبه ذلك لكان وعاءً كبيرًا فارغًا بحجم الفيل!

فهل إنّ سعتنا المعنويّة تتساوى مع الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! من المسلّم أنّ الأمر ليس كذلك. فإنّ سعتنا أقلّ وهي بحدّ فهمنا وشعورنا. لهذا، فإنّنا إذا حوسبنا نحاسب على هذه المحدوديّة، ولن نحاسب كما يحاسَب الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالتكليف المتوجّه إلى النبيّ والإمام لا يمكن أن يكون متوجّهًا إلينا لأنّنا لا نقدر على تحمّله. فسعتنا واستيعابنا محدود جدًّا إذا ما قورن بالإمام المعصوم. لهذا، فإنّ نقصنا وضعفنا أيضًا يكون محدودًا من هذه الجهة. وحين ينظر الإمام إلى نفسه، وبغضّ النظر عمّا حباه الله، فإنّه يشاهد ذلك الضعف اللامتناهي، ذلك لأنه قد حصل من الله تعالى على الوعاء والاستعداد اللامتناهي أيضًا. لهذا، فحين ينظر إلى نفسه يرى ضعفه أكثر بكثير من الآخرين، لأنّ سعته أكبر ولهذا يقول: «فمن يكون أسوأ حالًا منّي».

فهل إذا ارتكب هذا الشاب، الذي بلغ حديثًا ولم يكن له من المعرفة إلّا

القليل، خطأً، يكون هذا الخطأ مثل خطأ ذلك العالم الذي درس لمدّة خمسين سنة واطّلع على علوم الحديث والقرآن؟ لا شكّ بأنّ ذنب العالم أكبر لأنّ استعداده وقابليته أكثر. فهذا الشاب تكون معصيته أقلّ بكثير، لأنّ فهمه واستيعابه أقلّ بكثير. وذلك العالم إذا ارتكب معصيةً فإنّه بلحاظ استعداده وسعته الوجوديّة ستكون معصيته أكبر وعقوبته أشدّ. لهذا، ورد في رواية: «**يُغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يُغفر للعالم ذنبٌ واحد**»[١].

فمعصية الجاهل أقلّ لأنّ فهمه واستيعابه أقلّ. وعلى فرض المحال، لو ارتكب الإمام معصيةً لكانت عقوبته أكثر بآلاف المرّات من عقوبة الإنسان العاديّ لأنّ فهمه وسعته أكثر. فحين ينظر الإمام إلى نفسه يجد أنّ كلّ ما قام به من طاعاتٍ وأعمالٍ صالحة هي محض التفضّل من الله ولم تكن لولا توفيقه تعالى. فلا يبقى منه إلّا الضعف، ولأنّه يرى نفسه أضعف من غيره، فيكون أكثر خجلًا ممّن سواه، وهذا تفسيرٌ لكلام الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لو فتح الإنسان عين قلبه واطّلع على الحقائق أكثر لأدرك كم هو ضعيفٌ أمام الله. ولعلم أنّه لا يحقّ له أن يتفاخر بنفسه وينظر إليها وينخدع بأنانيّتها. فهل كان أكثر من قطرة ماءٍ ثمّ وصل إلى ما وصل إليه؟ وها هو الآن قد تكامل ونما. فهل إنّ ما حصل عليه كان من نفسه حتّى يتفاخر به؟ فحقًّا لو نظرنا إلى أنفسنا لوجدناها أحطّ من غيرها وأدنى. لا أن ننظر إلى أنفسنا ونراها أقلّ بصورة التصنّع. فهذا نفاقٌ: حيث يتظاهر الإنسان ويقول إنّني أقلّ من الآخرين وأحقر، ولكنّه في قلبه وباطنه يرى نفسه أفضل من الآخرين. فينبغي أن يرى الإنسان نفسه أحقر وأقلّ ممّا سواه. ولا يحصل هذا النظر إلّا بالتوفيق الإلهيّ وبنور المعرفة الذي يقذفه الله في قلب الإنسان. نسأل الله أن يمنّ علينا بهذه المعرفة والمعارف التي هي أرقى منها.

ثمرة الإيمان الحقيقيّ في كلام النبيّ

وفي تتمّة حديثه، يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذر لا تصيب حقيقة الإيمان حتّى ترى الناس كلّهم حمقاء في دينهم عقلاء في دنياهم**».

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٩٣.

أي إنّك ستدرك حقيقة الإيمان حين تنظر إلى الناس فتراهم في دنياهم عقلاء يؤدّون تلك الأعمال المختلفة التي تنسجم مع دنياهم ولكنّهم جهلاء فيما يتعلّق بآخرتهم وحمقى. (وفي كلام النبيّ جاء التعبير بـ «كلّهم» أي جميع الناس هكذا. وذلك لأنّ أولئك العقلاء بالنسبة لآخرتهم قلّة قليلة وهم كالكبريت الأحمر من حيث الندرة، لهذا لن يكون لهم وجودٌ إذا ما قورنوا بعامّة الناس الحمقى فيما يتعلّق بالآخرة).

إنّ العاقل هو الذي إذا رأى الأمر يدور بين النافع والأنفع أو المفيد والأكثر فائدة فإنه يختار الأكثر فائدة والأنفع: فنحن لو قارنّا الدنيا بالآخرة لأدركنا أنّ الآخرة أكثر فائدةً من الدنيا بدرجات. فهي بلحاظ المدّة الزمنيّة لا متناهية، بينما العمر الدنيويّ للإنسان لا يتجاوز السبعين أو الثمانين سنة كمعدّل عام. وحتّى لو فرضنا أنّ هذا الإنسان سيعيش ألف سنة فإنّه مع ذلك إذا قارن حياته بالحياة الأخرويّة فسوف لن يجدها شيئًا. وكذلك بلحاظ الكيفيّة فإنّ اللذّات الدنيويّة ينالها الإنسان مع الكثير من الألم والكدح، وتمتزج بالغصص والمصاعب. هذا وإن كنّا قد أنسنا بهذه المصاعب والآلام حتّى قنعنا بهذه اللذّات المحدودة الممتزجة بالألم. فلكي نحصل على الغذاء الحلال ونلتذّ به، كم ينبغي أن نتعب! علينا أن نؤمّن المال وبهذا المال نشتري الطعام. هذا مع أنّنا أثناء مضغ الطعام نتعب. كلّ هذا الألم والتعب حتّى نمضغ ونأكل هذا الطعام لنلتذّ قليلًا! ثمّ بعد ذلك نتعب ونكسل وقد نمرض أحيانًا. أمّا اللذّات الأخرويّة فلا يمكن أن تكون قرينة الألم والتعب. فلا يتعب الإنسان في إعدادها ولا في تناولها ولا بعد تناولها: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

إنّ الآخرة أعلى من الدنيا كمًّا وكيفًا إلى ما لا يتناهى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2].

وبالالتفات إلى هذا العلوّ (الذي لا يمكن أن يُتصوّر) للآخرة على الدنيا، فأيّ عاقلٍ يختار الدنيا على الآخرة، إذا قارن بين الحياتين!! لا شكّ أنّ العقل يقدّم الآخرة ولكنّنا نجد من بين الناس القليل ممّن يقوم بهذه المقارنة ويعمل على

(١) سورة **فاطر**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **الأعلى**، الآية ١٧.

أساسها. كلّ ذلك لأنّ الناس لم يؤمنوا بهذه الحقيقة ولم يصلوا إلى حقيقة الإيمان. أمّا أولئك الذين أدركوا هذه الحقيقة ونالوا حقيقة الإيمان، فإنّهم، بالإضافة إلى ترجيح الآخرة على الدنيا، يعلمون أنّ الناس بالنسبة لدنياهم عقلاء ولكنّهم بالنسبة لآخرتهم حمقى: فإنّهم يميّزون في أمور دنياهم بين النافع وغيره، ويلتفتون إلى مصالحهم الماديّة ولكنّهم غير عالمين أو متوجّهين إلى معرفة الآخرة. فهم غير مؤمنين بوجود الآخرة وبأنّها أعلى من الدنيا.

ولعلّ السرّ في كلام النبيّ هو أن المؤمن إذا وصل إلى هذا الإيمان بأنّ أكثر الناس جهلاء في دينهم فإنّه لن يسعى بعدها لاتّباعهم في طريقة عيشهم وسوف يفصل نفسه عنهم. سيسعى إلى أن يأخذ العبر من مزالق الآخرين فيما يتعلّق بالآخرة ويسلك المسير الواقعي، ومن جهةٍ أخرى فإنّه سيستفيد من تجارب العقلاء في أمور الدنيا. هذا، مع رعاية الضوابط والأحكام الدينيّة.

الدرس الرابع والعشرون

أهميّة المحاسبة؛ وزن الأعمال والحياء من الله

❖ المحاسبة ضرورة حتميّة

❖ المشارطة والمراقبة والمحاسبة

أ . المشارطة

ب . المراقبة

ج . المحاسبة

❖ فائدة محاسبة النفس

❖ الخجل نتيجة لقبح العمل

❖ مفهوم الحياء ودائرته

❖ عوامل إشاعة الآداب والعادات الخاطئة

«يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تُحاسب فهو أهون لحسابك غدًا وزن نفسك قبل أن توزن وتجهّز للعرض الأكبر يوم تُعرض لا تخفى على الله خافية.

يا أبا ذر استحِ من الله فإنّي والذي نفسي بيده لا أزال حين أذهب إلى الغائط متقنّعًا بثوبي أستحي من الملكين اللذين معي».

المحاسبة ضرورة حتمية

يدور هذا المقطع من مواعظ النبيّ صَلَّى‌اللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ حول المحاسبة والحياء الإلهي. وفي الروايات ومنها ما ورد في **نهج البلاغة** تأكيدٌ كبير على محاسبة النفس. وقد عدّ علماء الأخلاق المحاسبة إحدى المراحل الأوّلية للسير والسلوك وتهذيب النفس.

«**يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب فهو أهون لحسابك غدًا**».

وقد تكرّر نفس هذا المضمون في رواياتٍ أخرى منها: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»[١].

غاية الأمر أنّ ما جاء في هذه الرواية إذا قورن بسائر الروايات فإنّه تُلاحظ فيه إضافة نقطةٍ تشير إلى أنّ المحاسبة في الدنيا تهوّن الحساب يوم القيامة.

---

(١) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ١٢، الصفحة ١٥٣.

المحاسبة ضرورة حتميّة

إنّ قاعدة المحاسبة ومراجعة الأعمال أمرٌ ضروريّ، وهو في نفس الوقت من الأمور البديهيّة بالنسبة لفهم عامّة الناس وإدراكهم. فلكلّ إنسان في هذه الحياة محاسبات، وخصوصًا بالنسبة لأولئك الذين يعملون في التجارة ويشتغلون بالمسائل الماليّة والأرباح والخسائر. مثل هؤلاء تكون المحاسبة في غاية الأهميّة بالنسبة لهم.. فمن الطبيعيّ أنّ كلّ تاجرٍ يقوم بالمحاسبة كلّ سنة. وبالإضافة إلى هذه المحاسبة السنويّة، فإنّ له أيضًا محاسبات أخرى كلّ يوم وأسبوع وشهر، لكي تسهل عليه المحاسبة في آخر السنة. فلو لم يقم هذا التاجر بإجراء المحاسبة في كلّ يوم أو أسبوعٍ أو شهرٍ وتراكمت فواتيره وأوراقه الماليّة، فإنّ العمل سيصعب عليه كثيرًا. ولعلّه سيقع بسبب هذا التساهل والغفلة في ورطةٍ كبرى.

والوضع هنا مثل وضع التاجر الذي يقوم بإجراء المحاسبة الدقيقة فلا يترك أيّ قرشٍ أو درهمٍ دون أن يضعه في مكانه المناسب، حيث يجب أيضًا على المؤمن أن يسوّي حساب نفسه مع الله، وأن يجتنب في هذا المجال مكر نفسه ويخشى خدعها ومماطلتها وتبريراتها للحيلولة دون البدء بالمحاسبة الدقيقة حتى لا تستمرّ على منهاج تبرير المعاصي. فيجب أن يكون لديه جوابٌ مقنع مقابل كلّ عملٍ يقوم به ويقوم بمحاسبة نفسه بطريقةٍ لا يضطرّ معها إلى الوقوف في حساب يوم القيامة أمام ملائكة الله.

وفي الأساس، لو تمّت المحاسبة على المعاصي في وقتها ولم يُسمح لها بأن تتراكم وتتعاظم فإنّ النتيجة الطيّبة ستكون لنفع الإنسان وتقليل مشاكله، هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى، لو أخّرنا المحاسبة على المعاصي، فإنّنا سننسى مع الأيام المعاصي التي ارتكبناها، وما هو مقدار الذنوب المتراكمة. هذا، بالإضافة إلى أنّنا إذا لم نكن ملتفتين إلى معاصينا، فلن نبحث عن مخرجٍ من الورطة. بل يزيد حجم هذه المعاصي بحيث لن نصدق ما وصلت إليه: فإذا سُئلنا كم من المعاصي ارتكبنا في حياتنا وكنّا منصفين عندها لقلنا ألف معصية. هذا في حين أنّنا لو قمنا بالمحاسبة الدقيقة، ربما لأدركنا أنّنا ارتكبنا في يوم واحد أو أسبوع أو شهرٍ أكثر من ألف معصية! فحين تتراكم الذنوب والمعاصي فإنّها تشكّل رقمًا كبيرًا فلكيًّا.

نحن غافلون ونتصوّر أنّنا طالما لم نكن من السرّاق والقتلة، فإنّ بقيّة معاصينا

غير مهمّة. ولعلّه إذا قيل لنا إنّكم عصاة! لاعترضنا وقلنا: وأيّة معصيةٍ ارتكبنا؟

إنّ احدى خصائص النفس الإنسانيّة هي النسيان، وخصوصًا نسيان ما يكون في ضررها.

ومن جملة الدراسات النفسيّة المطروحة في علم النفس ما يتعلّق بتذكّر الأخطاء والزلات حيث تؤدّي إلى خجل الإنسان، ولهذا لا يميل أكثر الناس إلى تذكّرها بل يسعون إلى نسيانها. وفي عصرنا الحالي، يعكف علماء النفس على دراسة مجال النسيان والتغاضي عن حوادث الماضي وكيف ينسى الإنسان شيئًا، وما هي العوامل التي تساهم في النسيان أو في التظاهر بالنسيان وأمثال ذلك. وللأسف، فنحن في هذا المجال لم نقم بالدراسات المطلوبة وبقينا متخلّفين عن غيرنا، هذا بالرغم من أهمّية هذه الدراسات ودورها في صلاح ديننا ودنيانا.

فالإنسان لا يريد أن ينسب إلى نفسه ما لا يحبّه. ووفق الأبحاث النفسيّة، فإنّ الإنسان إذا همّ بأيّة جريمة أو جناية، فإنّه يسعى نحو تبرير خطئه. يسعى هذا الإنسان وبسبب الألم الذي ينجم عن القيام بمثل هذا العمل ومن أجل التخلّص من عذاب الوجدان، لإبعاد هذا الخطأ والجرم عن نفسه. وبعبارةٍ أخرى، يريد أن يظهر بصورة غير المقصّر! ويسعى إمّا إلى نسيان هذه المعصية أو يقوم بنسبتها إلى غيره أو إلى البيئة أو إلى هذه الدنيا أو إلى الشيطان أو إلى الظروف الاجتماعيّة أو إلى العوامل الأخرى. وبهذه الطريقة، يستخدم تلك الآليّات الدفاعيّة من أجل الدفاع عن نفسه أو عمله. وإذا قويت مثل هذه الآليّات الدفاعيّة في الإنسان وتمكّن من تبرير أيّة معصية أو جريمة ولم يضع نفسه تحت المحاسبة الدقيقة ولم يحاكم نفسه بصورةٍ عادلة ولم يقم بإدانتها، فإنّ خطر ارتكاب الجنايات العظمى يزداد. ذلك لأنّه بهذه الطريقة قد حرّر نفسه من سياط الملامة والعذاب، ولم يعد يشعر بأيّ ألمٍ باطنيّ أو خوفٍ من عاقبة أعماله السيّئة. ففي هذه الحال، ستكون عقوبة تبرير المعصية وكذا خطرها أشدّ من نفس المعصية.

ولأن الإنسان يحبّ نفسه فإنّه بالإضافة إلى رغبته في أن يكون محترمًا بين الناس يريد أيضًا أن يكون عزيزًا في نفسه، ولا يريد أن يكون حقيرًا فيما بينه وبين نفسه أو يراها ناقصةً معيوبة. إنّه يريد أن يكون كاملًا وعزيزًا في نفسه. ولهذا، فإنّه يبعد أيّ شيء يؤدّي إلى نقصه وانحطاطه عن ساحة خواطره! ذلك لأنّ تذكّر مثل

تلك الأمور يشعره بالحقارة والمهانة، وهو ما يخالف ميوله الطبيعيّة. وبالالتفات إلى هذه النقطة، إذا لم يكن في حياته من العوامل ما يذكّره بنقصه وانحرافاته، فإنّ العاقبة السيّئة في انتظاره، وسوف يواجه الخسران الذي لا يمكن جبرانه. ولهذا الأمر، نجد أنّ الروايات حافلةٌ بالتنبيه إلى أفضل السبل لأجل تحقيق عوامل تذكّر الأعمال السيّئة وكيفيّة تداركها وجبرانها. وقد ذكر علماء الأخلاق انطلاقًا من هذه الروايات في كتبهم **كمعراج السعادة وجامع السعادات وإحياء العلوم** ثلاث مراحل لأولئك الذين يسعون لتهذيب أنفسهم وتزكيتها وللسير والسلوك إلى الله. وهذه المراحل الثلاث هي: المشارطة والمراقبة والمحاسبة.

أ. المشارطة: حين يستيقظ الإنسان من نومه صباحًا، فليلتفت إلى أنّ الله تعالى قد أعطاه رأس مال جديد: فإننا لو لم نستيقظ من نومنا وبقيت روحنا مفارقةً لبدننا، ألم يكن قد حلّ أجلنا وفارقنا الحياة؟

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

فنحن بالنوم نكون قد عبرنا مرحلةً من الموت، وبالموت يتوقّف نشاط الإنسان. فالآن إذا قمنا من النوم مرّة أخرى ومنحنا الحياة من جديد، فقد أعطينا رأس مالٍ جديد وُضع بين أيدينا. فعلينا أن نشكر الله على هذه الحياة الثانية ونخاطب أنفسنا ونقول: أيا نفس لقد حباك الله بهذه النعمة العظيمة ووضع هذه الأمانة في يدك لكي تنالي سعادة الآخرة. فإذا عصيت وزللت تكونين قد أضعت هذه الثروة وسوف تكون عاقبتك الخسران والخيبة. فلنشارط أنفسنا ونأخذ منها عهدًا على ألا تعصي ولا يصدر منها ما يوجب سخط الله. نأخذ منها عهدًا بأن لا تصرف رأسمالها العظيم إلّا في الطريق الذي يؤدّي إلى رضى الله وسعادة الإنسان. ذلك لأنّ رضا الله يستتبع سعادة الإنسان، وما لم يرضَ الله فلن يصل الإنسان إلى أيّة سعادة. فلنشارط أنفسنا بأن لا نقصّر في أداء الواجبات والتكاليف الإلهيّة وأن لا نترك أيّ عمل من أعمال الخير إذا تيسّر لنا.

ومن الأفضل أن تكون هذه المشارطة بعد صلاة الصبح والتعقيبات، وأن يقول

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٢.

الإنسان مخاطبًا نفسه: أيّتها النفس إنّني لا أملك من رأسمال سوى هذه الأيّام القليلة الباقية فإذا خسرتها جعلت رأس مالي الوحيد يذهب أدراج الرياح. أيّتها النفس لقد أعطاني الله الرحمن اليوم مهلة جديدة، ولو كنت من الأموات، فإنّني سأتمنى أن يرجعني الله إلى الدنيا لكي أعدّ الزاد المطلوب. فيا نفس تصوّري أنّك انقطعت من هذه الحياة الدنيا وأنت اليوم تتمنّين الرجوع إلى هذه الدنيا وقد أرجعت إليها. فلا تفعلي اليوم ما يضيّع يومك وفرصتك ذلك لأنّ كلّ نَفَس تتنفّسينه هو جوهرة ثمينة لا بديل عنها يمكن أن تكون سببًا لتأمين ذلك الكنز الأبديّ الخالد الذي يؤمّن لك الحياة الطيّبة الخالدة.

ب . المراقبة: وبعد مرحلة المشارطة، تأتي مرحلة المراقبة وهي أن يثابر الإنسان طوال يومه على التقيّد بكل ما شرطه على نفسه وينتبه في كلّ لحظة حذر الوقوع في المعاصي ويراقب هل أنّه يمشي على الطريق المطلوب أم أنّه يزلّ وينحرف؟ وبعبارة أخرى، إنّ المراقبة هي نفس التقوى، لأنّ التقوى تعني صيانة القيم الإلهيّة وحفظ الأعمال. وقد ورد في حديثٍ أنّ التقوى بالنسبة للإنسان كمن يمشي في ليلٍ حالكٍ في صحراء مليئةٍ بالعقارب والحيّات، فيكون معرّضًا في أيّة لحظةٍ للدغاتها وعضّاتها. فكما أنّ هذا الإنسان سوف يمشي بالاحتياط التامّ والمراقبة الدقيقة لكي لا يتعرّض لأخطار الحيّات والعقارب، فإنّ على الإنسان أيضًا أن يكون مسيره في الحياة بتمام الدقّة والاحتياط لكي ينجو من خطر الشيطان وعذاب جهنّم. فالتقوى تتطلّب أن يكون الإنسان دائم التفكّر في عمله وعاقبة أعماله. وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ رجلًا أتى النبيّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **فقال له: يا رسول الله أوصني. فقال له رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ**: فهل أنت مستوصٍ إن أنا أوصيتك؟ حتّى قال له ذلك ثلاثًا. وفي كلّها يقول له الرجل: نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ**: فإنّي أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإن يكُ رشدًا فامضِه وإن يكُ غيًّا فانته عنه**»[١].

ولا تحصل المراقبة للنفس إلّا بمعرفة الله واليقين بحضوره واطّلاعه على سرائر وبواطن البشر بحيث لا تخفى عليه خافية. ولهذا، فإنّه لا يوجد أيّ عملٍ يعمله

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٨، الصفحة ١٥٠.

الإنسان وهو لا يحتاج فيه إلى المراقبة. ذلك لأنّ العبد إمّا أن يكون في حالة الطاعة والعبوديّة لله أو في حالة المعصية أو في حالة القيام بالعمل المباح: فالمراقبة أثناء الطاعة والعبوديّة لأجل تحصيل الإخلاص ولأداء العمل بتمامه وكماله، ورعاية الأدب والمحافظة على العمل من الآفات. والمراقبة أثناء المعصية لأجل التوبة والندم والإقلاع والخجل والاهتمام بجبران تلك المعصية. ومراقبة العبد في الفعل المباح هي لأجل رعاية الآداب وضرورة النظر إلى المنعم دائمًا عند الاستفادة من النعم وتقديم الشكر عليها والصبر على البلاء.

ج. المحاسبة: والمحاسبة هي المرحلة الثالثة التي يوصي بها علماء الأخلاق في مجال تهذيب النفس. والمحاسبة هي أن يطالع الإنسان في نهاية اليوم سلوكه وأفعاله التي صدرت منه في يومه، ليرى هل أدّى ما عليه من التكاليف والواجبات أم لا؟ فإذا علم بعد التدقيق بأنّه قد أدّى ما عليه وكانت تصرفاته موافقةً لميزان الشرع الأنور فليشكر الله على هذا التوفيق والعناية. ذلك لأنّ كلّ نوع من هذه التوفيقات يكون تفضّلًا من الله، وعليه يجب أن يكون شاكرًا له. كذلك عليه أن يسعى لاستمرار هذه الاستقامة والسير الصحيح في الأيّام الآتية. أمّا إذا قصّر في تكاليفه أو أدّاها ناقصةً أو ابتلي بالانحراف والزلل، فعليه أن يسعى من خلال أداء المستحبّات، وخصوصًا صلاة النافلة، لجبران هذا النقص، وتوبيخ نفسه على ترك هذه التكاليف وارتكاب تلك المعاصي، وعليه أن يستغفر لكي يتجاوز الحقّ تعالى عن معاصيه. كذلك، عليه أن يسعى لأعمال الخير والبرّ لتدارك معاصيه، وفي هذه الحال حين ينام يكون حسابه نظيفًا ولا يبقى عليه أيّة معصيةٍ يؤاخذ عليها. وهذه هي المحاسبة التي كان أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يوصون أصحابهم بها وقد أكّد عليها علماء الأخلاق انطلاقًا من هذه التعاليم.

وبالنظر إلى دور المحاسبة وأهميّتها في تهذيب النفس، يقول الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم فإن عمل حسنًا استزاد الله وإن عمل سيّئًا استغفر الله منه وتاب إليه**»[1].

وعن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنه كان يوصي أصحابه قائلًا: «**ألا أنبّئكم بأكيس الكيّسين وأحمق الحمقاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أكيس الكيّسين من**

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٤٥٣.

حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت، وأحمق الحمقاء من اتّبع نفسه هواه وتمنّى على الله الأمانيّ»[١].

فائدة محاسبة النفس

ومن فوائد محاسبة النفس أن يقوم الإنسان فور اطّلاعه على عثراته بجبرانها، حتّى يزيل كلّ آثارها السيّئة من روحه. أمّا إذا ترك هذه المحاسبة فإنّه لن يلتفت إلى مدى توغّله في المعصية. فإذا سُئلنا: كم من الأعمال الحسنة والسيئة قد فعلتم من الصباح حتّى الليل ومتى وأين صدر منكم الخطأ؟ فإنّنا لن نعرف والحال هذه. أمّا إذا قمنا بمحاسبة أنفسنا، فإنّنا سنستحضر كلّ عملٍ من أعمالنا وسنطّلع على أعمالنا، ونميّز بين الصحيح منها والسيّء، وحجم هذه الأعمال.

حين يغفل الإنسان عن معاصيه، فإنّ هذه المعاصي ستترك أثرًا في روحه، وتكون كلّ معصيةٍ كالنقطة السوداء في قلبه إلى أن يزداد ذلك السواد حتّى يغطّي القلب كلّه ولا يبقي فيه أيّة بقعة من نور. وهذا الأمر قد ورد في بعض الروايات، منها ما روي عن الإمام الصادق عَلَيهِ‌السَّلَامُ: **«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت وإن زاد زادت حتّى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدًا»**[٢].

وفي بعض الأحيان، يكون الإنسان في حالة من الغفلة، حتّى إذا التفت وجد أنّ قلبه قد أحيط بتلك المعاصي، بحيث أنّه لو قارن حاله هذا اليوم بما كان عليه في السنة الماضية لأدرك حجم التغيير الكبير الذي حصل في روحه. هناك من الطلّاب الذين تفرّغوا لتحصيل العلم من يلتفت فجأة إلى درجة السقوط الروحيّ والأخلاقيّ والسلوكيّ في نفسه، فيتساءل فيما بينه وبين نفسه قائلًا: لقد كنت في بداية دراستي أشعر بمعنويّات عالية وصفاء قلبٍ واضح، فما الذي حصل حتّى صارت معنويّاتي ضعيفةً إلى هذا المستوى؟ البعض قد يرجع هذا السقوط والتدنّي إلى عامل الدراسة، فيتصوّر أنّ الدرس هو الذي يؤدّي بالقلب إلى أن يصبح معتمًا. وأمثال هؤلاء لا يريدون أن يصدّقوا أنّ المسألة مسألة ذنوب ومعاصي

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ٦٩ و٧٠.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٧١.

وهي التي أدّت إلى حصول هذه العتمة والسقوط الروحيّ. ومن المسلّم أنّ الدرس يُعدّ من الأعمال الحسنة التي تتمتّع بقيمة عالية، وإن كان لمثل هذه الأعمال الحسنة آفاتٌ وعيوبٌ كثيرة قد تنشأ نتيجة عدم التفات الإنسان وانتباهه.

وليس هذا إلّا نوعًا من أنواع خداع النفس الذي يصيب الطالب الذي يشعر بالملل من الدراسة أو يدرس ولكنّه لا أمل له في الوصول إلى نتيجة نافعة أو لا يرى في دراسته هذه ما ينسجم مع أهوائه النفسانيّة، فيعتبر عندئذٍ أنّ الدرس هو الذي أدّى إلى ما أدّى إليه. فيقول:» إنّ الدرس هو الذي جعل قلوبنا مظلمة. فنحن لم نكن هكذا في بداية الدراسة بل كانت قلوبنا طاهرة»!

وصحيح أنّ هذه القلوب كانت في البداية صافيةً غير معتمة لكن ما أحالها إلى هذه الظلمة ليس هو الدرس، بل هو شيء آخر يجب أن نبحث عنه في الذنوب وعدم الاهتمام في تهذيب النفس وبنائها يعني أنه لم يدرس بالشكل الصحيح.

أجل، إنّ الإنسان حين يترك المحاسبة، فإن الآثار الواقعيّة والتكوينيّة للمعصية لا تزول، فتجعل القلب كدرًا وهو غير ملتفت، كمثل الذي يرتدي لباسًا أبيض ويتعرّض هذا اللباس دومًا لبقع القاذورات وهو لا يلتفت لتلوّث الثوب فلا يعرف أنه أصبح قذرًا، ومن المسلّم أنّ هذا الثوب حين يزداد قذارةً فهو يصل إلى مرحلةٍ لا يمكن تحمّله من قبل من يراه أو يمرّ بقربه، أمّا صاحبه فلا يزال غافلًا عمّا يحدث لأنّه مغمض العينين!

لهذا، فإنّ أكبر مشاكل وأضرار الابتعاد عن محاسبة النفس هو أن تبقى آثار المعاصي في الروح، فتزداد يومًا بعد يوم سوادًا وكدورةً، ويتحوّل قلبه إلى ذلك القلب الظلماني البعيد عن ربّه. هذا وصاحبه لا يدري ما يحدث، بل قد يظنّ نفسه إنسانًا جيّدًا ويتبجّح بصلاح نفسه. هذا، بينما هو يسقط كلّ يوم إلى أن يصل في النهاية إلى قعر الشقاء والخذلان: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

وللعلّامة الطباطبائي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية كلامٌ يقول فيه: «إن الخسران في المكاسب والمساعي المأخوذة لغاية الربح إنّما يتحقق إذا لم يصبّ

(١) سورة **الكهف**، الآيتان ١٠٣ و١٠٤.

الكسب والسعي غرضه أو انتهى إلى نقصٍ في رأس المال أو ضياع السعي، وهو المعبّر عنه في الآية بضلالة السعي كأنّه ضلّ الطريق فانتهى به السير إلى خلاف غرضه.

والإنسان ربما يخسر في كسبه وسعيه لعدم خبرته في العمل أو جهلٍ بالطريق أو لعوامل أخرى اتفاقية، وهو خسران يرجى زواله. فإنّ من المرجوّ أن يتنبّه به صاحبه ثمّ يستأنف العمل فيتدارك ما ضاع منه ويقضي ما فات، لكنه ربما يخسر وهو يظنّ بأنّه يربح ويتضرّر وهو يعتقد أنّه ينتفع. وهذا هو أشدّ الخسران الذي لا رجاء لزواله.

ثمّ إنّ الإنسان في حياته الدنيا لا شأن له إلّا السعي لسعادته ولا ينبغي أن يكون له همّ فيما وراء ذلك. فإن ركب طريق الحقّ، وأصاب الغرض، فهو قد نال حقّ السعادة. وإن أخطأ الطريق ولم يلتفت إلى انحرافه فهو خاسر السعي لكنّه مرجوّ النجاة. وإن أخطأ الطريق وأصاب غير الحقّ وسكن إليه فصار كلّما لاح له لائح من الحقّ ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزينت له ما هو فيه من الاستكبار وعصبيّة الجاهلية، فهو أخسر عملًا وأخيب سعيًا، لأنّه خسران لا يُرجى زواله، ولا مطمع في أن يتبدّل يومًا إلى سعادةً، وهذه هي الملاحظة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾»[١].

وكما قيل سابقًا فإنّ من فوائد محاسبة النفس هو أن يطّلع الإنسان على عثراته، فينهض لإزالة تبعاتها والتخلّص منها. فلا يبقي تلك الآثار التكوينيّة للمعصية في روحه بحيث تؤدّي إلى سقوطه. وقد بيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة بعبارتين متلازمتين؛ بدأ بـ: «**حاسب نفسك قبل أن تحاسب**»، ثمّ قال: «**فهو أهون لحسابك غدًا**».

ذلك لأنّك إذا تصدّيت لحساب أعمالك، فإنّك ستسعى لمعالجة انحرافاتك وجبران زلّاتك ممّا يهوّن عليك حساب يوم القيامة. أمّا إذا لم تنهض لذلك فإنّ معاصيك ستتراكم لتجعل موقفك يوم القيامة صعبًا. ففي الدنيا، لم تكن متوجهًا إلى معاصيك ولم تكن ملتفتًا إلى المدى الذي وصلت إليه في السقوط، أمّا إذا

---

(١) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحتان ٣٩٨ و٣٩٩.

اطّلعت يوم القيامة على صحيفة أعمالك ونظرت إلى العدد الهائل لمعاصيك فإنّك لن تنال سوى الحسرة والندامة وهي أشدّ إيلامًا لنفسك من عذاب جهنّم.

ثمّ يقول النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في تتمّة حديثه: **وزن نفسك قبل أن توزن وتجهّز للعرض الأكبر، يوم تعرض لا تخفى على الله خافية.**

والله تعالى يقول بشأن ميزان يوم القيامة: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[(١)].

إنّ ميزان الأعمال ينبع من اعتقاداتنا. وميزان الأعمال يكون بالمقارنة ومعرفة الزيادة والنقصان فيها. فإذا قمنا بوزن أعمالنا لنرى هل صارت معاصينا أثقل، فإننا سنسعى حينئذٍ لكي نخفّف حملنا. أمّا إذا لم ننهض لوزن أعمالنا ولم نزن بالتحديد معاصينا ولم نطّلع على تأثيرها على أرواحنا، فإنّنا سنأتي إلى ذلك اليوم الذي نرى أنفسنا أمام الميزان الإلهيّ فنخزى وتشملنا الحسرة والندامة. فمن نهض لمحاسبة نفسه ووزن أعماله فإنّه سيكون خفيف الوزن والحمل في ذلك اليوم الذي تعرض فيه جميع الأعمال على الله: ما ظهر منها وما بطن، وذلك لأنّه قد تدارك معاصيه وعالج مشاكله الأخلاقيّة. أمّا ذلك الذي لم يقم بمحاسبة أعماله ووزنها، فإنّه في ذلك اليوم، يوم عرض الأعمال على الله، سيُبتلى بالحسرة من كلّ عمل صدر منه صغيرًا كان أو كبيرًا.

فلأجل أن لا نبتلى بهذه الحسرة والندامة يوم البعث فلنفكّر من الآن ونستحضر أعمالنا أمامنا ونتخيّل أنّ أيام عمرنا قد انقضت. ذلك لأنّه لا يطمئن أحدٌ بأنّه سيعيش إلى الغد. ونتصوّر أنّ أعمالنا سوف تعرض على الله. فانظروا ماذا تقدّمون وأيّ حالٍ أنتم عليها هناك. وحين نجد أئمتنا الأطهار عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ في مناجاتهم يذكرون العرض الأكبر وهو يوم عرض الأعمال على الله فإنّهم يعوذون ويلوذون بجناب الحقّ. فحريّ بنا أيضًا لكي لا نبتلى بهذه الحسرة في ذلك اليوم الشديد العذاب أن نحاسب أنفسنا في كلّ يوم على أعمالنا بحيث أنّه إذا اطّلعنا على تلك الأعمال السيئة، فنحن نتلافى ذلك، لكي تمحى من صحيفة أعمالنا.

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٨.

الخجل نتيجة لقبح العمل

ومن الطبيعيّ أنّ الحديث عن عرض الأعمال على الله ينجرّ إلى موضوع الحياء منه سبحانه وتعالى: فحين يرتكب الإنسان أمرًا سيّئًا أو تصدر منه خيانة ثمّ ينسى فإنّه لا يبالي ولا يحدث في نفسه أيّ تغيير. لهذا، فنحن ضعفاء ولا ندرك الحقائق كما هي ومن أجل ذلك فإنّنا لكي نقترب من الحقيقة وندرك الواقع نضرب هذا المثال بالأمر المحسوس: افرضوا أنّ شخصين كانا صديقين لسنوات واشترطا على أنفسهما أن لا يخون أحدهما الآخر. فإذا قام أحدهما بخيانة صديقه، وكان صديقه غير مطّلع على ذلك أو أنّ هذا الشخص نسي ما فعله، فإنّه حين يلتقي به سيواجهه بشكلٍ طبيعيّ. أمّا إذا اطّلع صديقه على خيانته من خلال صورةٍ أو فيلم ثمّ بعد فترة أظهره أمامه وقال له لقد عاهدتني أن لا تخونني وقد تحدّثت طويلًا عن هذا الأمر، فلماذا قمت بخيانتي؟ فهنا يكون الحياء للخائن أشدّ عذابًا من أيّ شيءٍ آخر. فهذا الذي ارتكب هذه الخيانة ونسي حال خيانته ولم يكن يتصوّر أنّ صديقه مطّلع عليه، لو أراه صديقه صورة الخيانة، فماذا سيكون حاله؟

وقد ذكرنا مثال الصورة والفيلم لعرض الأعمال في الدنيا، أمّا يوم القيامة فإنّ نفس أعمالنا ستكون حاضرةً لا مجرّد صورها. هذا، وإن كان عقلنا لا يقدر على تصوّر كيفيّة حضور وتجسّم الأعمال ولكن بناءً على ما ورد في ديننا وهو راسخ في عقيدتنا، فإنّ تجسّم الأعمال أمر ثابت: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[١].

وفي هذه الآية، نجد أن الله تعالى يبيّن بشكلٍ واضح حضور عين العمل ولا يمكننا أن نفسّر هذه الآية بشكلٍ آخر. هذا، بالإضافة إلى أنّ هناك آيات أخر تبيّن أيضًا تجسّم الأعمال ومنها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[٢].

هذا، وحتّى لو كان عرض الأعمال يوم القيامة من خلال الصور فقط، فإنّ الإنسان لن يقدر على إنكار ذلك أيضًا. فلو بُيّنت له أعماله بعينها أو قدّم له صورٌ عنها وقيل له إنّك في ذلك اليوم وفي تلك الساعة أو في تلك الليلة فعلت كذا

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٤٩.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٣٠.

وكذا، فإنّه سيشعر بخجلٍ وحياءٍ شديدٍ من لقاء الله، يكون بالنسبة له أشدّ عذابًا من أيّ شيءٍ آخر.

ومن أجل أن يتذكّر الإنسان يوم المحشر ويضع نصب عينيه مسألة عرض الأعمال على الله فمن الجدير أن يصوّر لنفسه هذا الموقف ويتصوّر أيضًا الخزي الناجم من المعصية والمخالفة. أو أن يستحضر بعض فضائح الدنيا التي حدثت أمامه أو حدثت له: كأن يكون مثلًا أثناء القيام بعملٍ يخجل منه، وفجأة أطلّ أحد الأطفال ليطّلع على ما يجري!! ولعلّ مثل هذا الأمر يحدث لكلّ واحد منّا، حيث لا يكون ملتفتًا إلى من حوله، فيفعل ما يستقبح، ثمّ يطلع فجأةً على أنّ هناك من ينظر إليه!! ففي مثل هذه الحالة، سيشعر الإنسان بخجلٍ يصل إلى درجة يتمنّى فيها لو أنّه يذوب أو تبتلعه الأرض. فكيف إذا كان هذا الشخص المطّلع عاقلًا وواعيًا؟ بل كيف إذا كان لهذا الشخص حقّ كبير في رقبة الإنسان وكان هذا العمل بالنسبة له خيانةً.

فلا شكّ بأنّ كلّ ما لدينا فهو من الله وأنّ كل عملٍ قبيحٍ يُعدّ خيانةً له. فلو فكّر الإنسان جيدًا لاطّلع على أنّ معصيته تُعدّ خيانةً في محضر صاحب الحقّ. ولأدرك أنّه يعصي من كان وجوده منه وقدرته منه. إنّ أنفاسنا وحديثنا بل كلّ ما لدينا منه تعالى. هو الذي أفاض علينا بكلّ هذه النعم والمقدرة لأجل أن نتكامل على طريقه، ونتقرّب إليه.. فما أقبح أن تُستخدم كلّ تلك النعم في طريق المعصية والبعد عنه وخيانته، إنّه حقًّا لأمر مخجل جدًّا!!

وبالالتفات إلى ما ذكر، فلو خصّص كلّ واحدٍ منا عدّة دقائق في كلّ ليلةٍ لمحاسبة نفسه وتصوّر نفسه أمام الله، الذي بيده كلّ شيء وجسّم أمامه عثراته ومعاصيه، فمن المؤكّد أنّ مثل هذه المحاسبة وذلك التوجه إلى المعصية والعثرة سيؤدّي إلى تخفيف المعصية، حتّى لو لم يكن ذلك سببًا في حصول التوبة النصوح التي تزيل آثار المعصية بشكلٍ كامل. فإنّ مثل هذا الإحساس بالحياء والخجل يخفّف شيئًا ما من ثقل المعصية ويحول دون رسوخ تبعاتها وآثارها.. ولعلّه يكون أيضًا عاملًا يحول دون استسهال ارتكاب المزيد من المعاصي. وهكذا، فإذا تحوّل هذا التوجّه لحضور الله والانتباه إليه إلى ملكةٍ راسخة في النفس، فلن تصدر منه المعاصي بعد ذلك.

مفهوم الحياء ودائرته

بالالتفات إلى ما ذكر حول عرض الأعمال على الله والحياء، يبيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في موضع آخر من كلامه هذه المسألة: «**يا أبا ذر استحِ من الله فإنّي والذي نفسي بيده لا أزالُ حين أذهب إلى الغائط متقنّعًا بثوبي أستحي من الملكين اللذين معي**».

إنّ لحالة الحياء أهميّة فائقة. وللأسف، فهناك العديد من المفاهيم الخاطئة والسيّئة التي ترتبط بها. فعلى أثر تغلغل الثقافة الغربيّة المتعلّقة بالحياء، نشأت مجموعة من المشكلات الفكريّة في مجتمعنا. ولا بأس في هذا المجال أن نقوم ببعض التحقيق والدراسة. هذا، وإن كنّا نرغب في مثل هذه المناسبة بالاكتفاء بذكر المواعظ. ولعلّ هذا المجلس ليس مستعدًّا لطرح مثل هذه الأبحاث، ولكنّني أرى من الضروري أن أشير إلى المبنى الفكريّ الذي تقوم عليه هذه القضيّة.

نحن جميعًا نعلم أنّ الحياء في الثقافة الإسلاميّة من جملة القيم الإيجابية. وفي مقابله، هناك الوقاحة وعدم الحياء الذي يُعدّ مضادًّا لتلك القيم. وفي الماضي، حين كان يُشتم الإنسان كان يقال له يا وقح ألا تخجل! فكان هذا من جملة الإهانات. وإذا أرادوا أن يغلّظوا القول عليه يقولون له إنّك بلا حياء فكانت هذه الكلمة سبابًا شديدًا. هكذا كانت ثقافتنا. لكنّنا نعيش اليوم في ظلّ ثقافةٍ غربيّةٍ في عالم الكفر حيث صار الخجل والحياء عيبًا.

ومن ضمن المسائل التي لها استعمالاتٌ واسعة في يومنا هذا في مجال علم النفس وفي فلسفة الأخلاق والتعليم والتربية مسألة الحياء: فهل ينبغي أن يكون الإنسان على أساس هذه العلوم خجولًا أم لا؟

وحين نقول إنّ ثقافة الغرب تروّج لعدم الحياء خلافًا للثقافة الإسلاميّة فلا يعني أنّ كلّ ما لدينا من مفاهيم حول الحياء والخجل، وفي جميع عاداتنا فيما يتعلّق بذلك صحيح ومقبول؛ لهذا، فإنّ هذه المقولة تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة. ولأجل أن يتّضح المطلب أكثر، نشير إلى جذور الحياء في الإنسان: فعلى أساس الغريزة الفطريّة الموجودة في الإنسان، لو ارتكب إنسان ما عملًا يُعدّ بالنسبة له قبيحًا فإنّ باطنه ينفعل بشكلٍ معيّن، وهذا هو الحياء. ولا شكّ بأنّ ظهور هذا الانفعال النفسيّ والانعكاس الروحيّ يتوقّف على أمرين: أحدهما أن

يكون هذا العمل بالنسبة لصاحبه سيّئًا وثانيهما أن لا تكون فطرته مطموسةً. وذلك لأنّ للإنسان حالات فطريّة كثيرة ولكن حين يدوس على فطرته تصبح هذه الحالات الفطريّة ضعيفةً وشاحبة إلى أن تزول شيئًا فشيئًا بالكامل. فالإحساس بالحياء والخجل أمام الفعل السيّئ أمر فطريّ، ولكنّ معرفة القبيح والسيّئ إمّا أن تحصل من خلال العقل وفي بعض الموارد بواسطة التعليم والتربية وفي موارد أخرى يكون الإنسان تابعًا للبيئة والمحيط الذي يؤمن ويتبنّى مجموعة من القيم الخاصّة به.

ففي البداية، يعلّم الوالدان طفلهما الأمور السيّئة من خلال التلقين. فإذا كان هذا التلقين صحيحًا، فإنّ الطفل إذا ارتكب أمرًا سيّئًا واطّلع على أنّ هناك من رآه، فإنّه، وبناءً على الغريزة الفطريّة الموجودة فيه، سيخجل ويستحي، وقد يتصبّب جراء ذلك عرقًا. فهذا الردّ الانفعاليّ الفطريّ من ذلك الطفل أمر طبيعيّ مقابل العمل القبيح. وكما ذكرنا، فإن الحسن والقبح يُعرفان من خلال التعليم.

عوامل إشاعة الآداب والعادات الخاطئة

بعيدًا عن القيم الأخلاقيّة والإسلاميّة، راجت بيننا مجموعة من الآداب والعادات الناشئة من البيئة والمجتمع، أو بسبب التوجهات القومية، أو غيرها من الظروف العرقيّة والتي كانت سببًا لأن نعتبر بعض الأشياء حسنة وبعضها الآخر قبيحة. فمثل هذه الرؤية لا ترتبط بالشرع بل يمكن أن تكون ضدّه: كأن نعتبر مثلًا أنّه لا ينبغي للولد أن يتكلّم مقابل الكبار. فبمجرّد أن يحاول هذا الطفل التفوّه بكلمة واحدة فنحن نقول له اسكت، هذا قبيحٌ. وبما أنّ هذا الطفل يتعرف على القبح والحسن من خلال الأم والأب والأقارب، فإنّه يتصوّر أنّ مثل هذا العمل قبيحٌ. ولمجرّد أنّه رأى الآخرين يظهرون ردّة فعل سلبيّة تجاه عمله هذا، ويتصرّفون بصورة قاسية، فإنّه يقتنع بقبح هذا العمل. وإذا قام به فإنّه سيشعر بالخجل والحياء. لهذا، فإنّه لن يتجرّأ على أن يتحدث مرّة أخرى أمام الكبار، وإذا كان في الصفّ الدراسي فإنّه سيخجل أيضًا أن يسأل الأستاذ. ومع مرور الأيّام، فإنّ هذه الحالة تصبح فيه ملكةً. وكلّما تقدّم به العمر، فإنّه سيشعر بالخجل. وإذا أراد أن يتكلّم حول أمر ما، كما لو كان مثلًا طالبًا في الحوزة العلميّة في البحث الخارج وأراد أن يطرح إشكالًا ما فإنّ قلبه سيخفق بسرعة ويحمرّ وجهه. ومن المسلّم أنّ الشرع لا يستحسن مثل هذه الحالة من العجز عن الكلام، حين يكون الإنسان بحاجة إلى المعرفة ولديه

سؤال أو يريد أن يبيّن أمرًا حقًّا. ومثل هذا التصوّر الخاطئ موجود أيضًا فيما يتعلّق بحياء المرأة: ففي ثقافتنا يُعدّ الحياء أكبر رأسمال للمرأة. ولكن فيما يرتبط ببعض مصاديق هذا المفهوم القيميّ نجد أن مجتمعنا أخذ جانب الإفراط غير المبرّر أيضًا. فالفتاة العفيفة والمحجّبة تتربّى بطريقة تسلبها القدرة على التفوّه بكلمة واحدة أمام الرجال من غير محارمها ويتمّ إفهامها بأنّ مثل هذا الأمر هو انعكاس الحياء! ففي التعاليم الإسلاميّة، ينبغي أن تكون المرأة قادرة على التكلّم مع الآخرين، ولكن في نفس الوقت من المستحسن جدًّا أن لا تتكلّم حيث لا ينبغي وأن لا ترقّق صوتها بحيث تثير الآخرين. ولكن لا ينبغي أن تعتاد على أن لا يسمع الأجنبيّ (شرعًا) صوتها. وفي الواقع، نحن لم نقدر على التفكيك بين المسائل وجوانبها المختلفة.

لو كان تكلّم المرأة مع الآخرين غير لائقٍ، فكيف كانت تستطيع السيدة الزهراء عَلَيْهَاالسَّلَامُ أن تلقي تلك الخطبة الغرّاء في مسجد المدينة؟ ومتى كانت تستطيع زينب الكبرى أن تلقي تلك الخطبة في مجلس ابن زياد؟ نعم، إنّ الشرع يقول لا ينبغي أن يكون كلام المرأة بحيث يؤدّي بالآخرين إلى الانحراف، ولا ينبغي أن تكون كيفيّة صوتها محرّكة للشهوة. ولكنّ ذلك لا يعني أن لا تكون قادرةٌ على الكلام لأنّ هذا العجز أمر قبيح.

فالإفراط والتفريط الموجود عندنا في بعض المسائل . وخصوصًا في القيم الأخلاقيّة والتربويّة . يترك آثارًا سيّئة في مجتمعنا. وحين يلاحظ الغربيّون هذه الآثار السيّئة للعادات الإفراطيّة ويسعون للتخلّص من تلك الآثار السلبيّة فإنّهم يقعون في الإفراط فيتمّ القضاء على تلك القيم من أساسها: لقد ربّينا أطفالنا بطريقة جعلناهم خجولين بحيث لا يتمكّنون بعدها من أن يتكلّموا بشكلٍ صحيح أمام الكبار. وقد ربّينا فتياتنا بشكلٍ لا يقدرن على التكلّم أمام الرجال، وحين رأى هؤلاء أنّ هذه الأمور غير صحيحة قالوا يجب أن يتحرّر الولد من كلّ قيد، ويجب أن تتحرّر المرأة. ولا ينبغي أن تخجل من أيّ شيء حتى ولو تعرّت أمام الرجال! فمثل هذه التصوّرات الخاطئة عن الحياء والخجل أضحى انعكاسها في الغرب بهذا الشكل حيث أدّى ذلك إلى إزالة جميع القيود والحدود. قال الإمام علي عَلَيْهِالسَّلَامُ: «**لا ترى الجاهل إلّا مفرِطًا أو مفرّطًا**»[١].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٧٠، الصفحة ١٥.

فنحن لم نعرف الإسلام بشكلٍ صحيح، ولم يتمكّن هؤلاء الغربيّون من الاهتداء إلى الطريق الصحيح. فنحن لم نقدر على تطبيق القيم الإسلاميّة كما ينبغي وهم لم يلتفتوا إلى تلك القيم الإلهيّة. وبالطبع، إنّنا لا نتوقّع منهم أيّ شيء صائب. ذلك لأن بنيانهم الفكريّ فاسدٌ من الأساس، وليس معلومًا أنّ لديهم أيّ اعتقاد بالله تعالى. وفي الغرب، فإن أولئك الذين ينتسبون إلى الكنيسة من المسيحيّين المعتقدين، لا يُعلم إذا كانوا معتقدين بالدين وربما يكون تعلّقهم بالدين فقط باللسان والظاهر! والواقع إنّهم لا يميلون إلى القيم الدينيّة. فإذا انكشف الواقع، ربما لم نجد أيّ توجّه حقيقيّ نحو الدين. فلا نتوقع منهم إذًا أيّ شيء. والكلام في أنّنا لماذا لم نعرف حقائق الإسلام ولم نعمل بها بشكلٍ صحيح؟ فما لم نطبّق تلك التعاليم السامية ونستخدمها بشكلٍ لائقٍ وصحيح سوف نبقى عرضة لانتقاد وتوبيخ الآخرين.

وبالالتفات إلى ما ذكر، من الضروريّ أن نحدّد دائرة الحياء: فما هو مفهوم الحياء؟ ومتى ينبغي أن يظهر الحياء؟ ومتى يكون الحياء غير مطلوب بل يكون مذمومًا؟

فمن المسلّم أنّ الخجل ليس أمرًا مطلوبًا في جميع الموارد. وأنّ كلّ ضعفٍ ينشأ من الخجل ليس بالأمر الصحيح. فينبغي تمييز القبيح من الحسن وذلك من خلال الدليل القاطع والشرع. فلماذا نقول للولد إنّ التكلّم أمام الكبار أمر سيّء؟ فهل هذا ما أراده الله تعالى ونبيّه صلى الله عليه وآله؟ هل كانت سيرة الأئمّة الأطهار عليهم السلام على هذا المنوال؟ من المؤكّد أنّ الأمر لم يكن كذلك. أجل، إن الصراخ ورفع الصوت ليس أمرًا محبّذًا للجميع. ومن الطبيعيّ أن يتعلّم الولد تدريجًا وبالتربية الصحيحة كيفيّة التكلّم وعدم رفع الصوت فوق الحدّ الطبيعيّ ولكن لا يعني ذلك أن لا يتكلّم أبدًا.

من قال إنّ على المرأة أن تكون عديمة الجرأة، بحيث لا تقدر على التكلّم أمام الآخرين كما لو وقفت في المحكمة وأرادت أن تثبت حقها أو أرادت في بعض الموارد أن تنهى عن المنكر فإنّها لا تقدر على ذلك؟!

فينبغي أن نتعرّف على الحسن والقبح بناءً على الموازين الإسلاميّة وننظر إلى الإسلام في تحديده لهذه الأمور. وهناك سيكون الحياء والخجل من القبيح الواقعيّ

أمرًا مطلوبًا، لا من مخالفة العادات الرائجة وقيم المجتمع أو القبيلة أو المنطقة الخاصّة. فمثل هذا الحياء سيكون ناشئًا من الآداب والقواعد الاجتماعيّة وليس من القيم الأخلاقيّة المعنويّة. فلو كانت تلك العادات والتقاليد في ظلّ القيم الإسلاميّة لأضحت محترمة ولكنّها تغدو ضدّ القيم حين تكون خلاف الحقّ والقيم الإلهيّة. لهذا، فإننا إذا أردنا أن نتّبع التعاليم الإسلاميّة فيجب أن نعرف أوّلًا ما هو الحسن الواقعيّ وما هو القبيح الواقعيّ لنعرف بعد ذلك متى يكون الخجل أو الحياء مطلوبًا.

وقد قيل إنّه بمعرفته للحسن والقبح، سيشعر الإنسان بناءً على الأمور الفطريّة المودعة فيه بالحياء تلقائيًّا بمجرّد أن يقوم بعملٍ قبيحٍ. وإذا قاوم هذه الميول الفطريّة فإنّ مثل هذه الميول المتعلّقة بالحياء ستضعف وسيحلّ محلّها تلك الملكة المقابلة وهي الوقاحة وترسخ في الإنسان. ولا يختصّ هذا الأمر بالحياء، فإنّ الإنسان إذا قاوم أيّ أمرٍ فطريّ، فإنّ ذلك الميل الفطريّ سيضعف بالتدريج ليصبح عديم الأثر: كما في أولئك الذين يرتكبون المعاصي ولا يبالون بعواقبها: فإنّ ملكة العصيان ستقوى فيهم بالتدريج ليصبحوا بعد ذلك غير مبالين لو ارتكبوا أيّة معصيةٍ في محضر الله ولن يخجلوا أو يشعروا بأيّ حياء. كلّ ذلك لأنّهم قمعوا فطرتهم.

أجل، إنّ عدم محاسبة النفس، والتوغّل في ارتكاب المعاصي بشكلٍ دائم يؤدّي إلى انعدام أثر الفطرة في الإنسان حتّى ينعدم في الإنسان أيّ إحساسٍ بالخوف من ارتكاب أيّ جرم، ويموت فيه ذلك الوجدان الداخليّ. فمن كان يشعر بهذا الحياء من أيّ عملٍ قبيحٍ سيفقد بعد مدّة وعلى أثر ذلك مثل هذا الشعور. ولا شكّ أن هناك عوامل أخرى أيضًا تؤدّي إلى زوال هذا الإحساس، وقد أشير إليها في الروايات الشريفة. ولكنّ العامل الأساسيّ لعدم الحياء هو مواجهة هذه الغريزة الفطريّة وعدم المبالاة بها. وفي المقابل، إذا أراد الإنسان أن يقوّي هذه الغريزة الفطريّة، فعليه أن يراعي بعض المسائل، منها ما ورد في هذه الرواية: حين أوصى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبا ذر بأن يستحي من الله ثمّ قال له: إنّني حين أذهب لقضاء الحاجة فإنّني أغطي وجهي وأستحي من الملكين اللذين يصاحبانني. فمثل هذا السلوك يقوّي هذه الأمور الفطريّة المتعلّقة بالحياء.

وروى أبو سعيد الخدريّ: «**كان رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **أشدّ حياءً من العذراء في**

خدرها وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه»[١].

ومن المعروف أنّ سلمان (رضي الله عنه) كان يقول إنّني لم أنظر إلى عورتي طوال عمري وكان سلمان من المعمّرين، عاش لسنوات طويلة. فمن المؤكّد أن من يمتلك مثل هذا العلوّ الروحيّ لن يزني أبدًا. أمّا لو كان الإنسان عديم الاعتناء ولم يفرّق بين القبيح والحسن فإنّه سيفقد حياءه الفطريّ مع الأيّام ليحلّ محله تلك البواعث نحو المعاصي والقبائح. فمثل هذا كأنه يقف على شفا حفرة وينتظر العواصف لترمي به في قعرها. ولكنّه لو كان منذ البداية ملتفتًا إلى تصرّفاته ويعمل على تقوية تلك العوامل التي تزيد من حيويّة فطرته، وينمّي روحيّة الحياء فيه، لما تلوّث بالمعاصي.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ٢٣٠.

الدرس الخامس والعشرون

طريق الوصول إلى الجنّه وتجلّيات الحياء الإلهيّ

- ذمّ طول الأمل واختلافه مع الرجاء
- الدنيا وسيلة أم هدف؟
- التوجّه إلى الغنيّ المطلق عامل الاستغناء عمّا سوى الله
- ذكر الموت وتجلّيات الحياء الإلهيّ
- النزاهة سيرة أولياء الدين

«يا أبا ذر، أتحبّ أن تدخل الجنّة؟ قلت: نعم، فداك أبي. قال: فاقصر من الأمل واجعل الموت نصب عينيك واستحِ من الله حقّ الحياء. قال: قلت: يا رسول الله كلّنا نستحي من الله. قال ليس ذلك من الحياء ولكنّ الحياء من الله أن لا تنسى المقابر والبِلى، والجوفَ وما وعى، والرأس ومن حوى، ومن أراد كرامة الآخرة فليدعْ زينة الدنيا. فإذا كنت كذلك أصبت ولاية الله».

في القسم السابق، وفي الدرس الرابع والعشرين، قمنا بدراسة قسم من مواعظ النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والتي تمّت التوصية فيه بالحياء من الله. وفي هذا القسم، نجد أن النبيّ يؤكّد مرّةً أخرى، إضافةً إلى الوصايا السابقة، على أهميّة الحياء من الله ويقول لأبي ذر: أتحبّ أن تدخل الجنّة؟ فيستقبل أبو ذر الغفاريّ (رضي الله عنه) ذلك بقلبه.. حينها يحدّد له النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثلاثة شروط أساسيّة للوصول إلى الجنّة ونيل السعادة الأبديّة:

١. فاقصر من الأمل

٢. واجعل الموت أمام عينَيك

٣. واستحِ من الله حقّ الحياء

ذمّ طول واختلافه مع الرجاء

ومن جملة الموضوعات التي تمّ التأكيد عليها في رواياتٍ كثيرة هو فرار المؤمن من طول الأمل وتجنّبه للأماني البعيدة. فبعد الآمال يؤدّي إلى منع الإنسان في النهاية من القيام بالوظائف الإلهيّة والوصول إلى الأهداف المعنويّة. وللوصول إلى تلك

الأمانيّ فهو يترك المعنويّات، ولا يلتفت إلى أوضاعه الحاليّة والفرص التي تحيط به، بل يبقى منتظرًا ذلك الغد الذي لن يأتي، ويضيّع بذلك الفرص القيّمة من يده. ونظرًا إلى ما للأماني البعيدة من دورٍ هدّام في إبعاد الإنسان عن الكمال والتوجّه إلى السعادة الحقيقيّة في الآخرة، نجد أن الشيطان يعتمد على هذه الأمور في إضلال عباد الله. كما نلاحظ كيف توعد الشيطان حين طرده الله من جنابه قائلًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ... ﴾(١).

ولهذا، نجد أنّ أمير المؤمنين عليًّا عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يحذّر من هذه الأمور ويشير إلى مخاطرها وما تؤدّي إليه من وقوع الإنسان في الشبهات ثمّ ارتكاب الذنوب الصغيرة التي تجرّه إلى ارتكاب الذنوب الكبيرة والجرائم العظمى: «أيّها الناس إنّ أخوف ما أخاف عليكم [اثنتان] اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة...»(٢).

ولأجل الاطّلاع على الفارق بين الرجاء وطول الأمل ينبغي أن نوضّح مفهوم طول الأمل، وخصوصًا أنّ الحديث عن الأمل ها هنا يجعل الذهن منصرفًا إلى الأمل المعروف الذي يُعدّ أساسًا لحياة الإنسان وسعيه، سواء فيما يتعلّق بالشؤون المادّية أو المعنويّة. فلو لم يمتلك الإنسان أيّ أملٍ لتحسين وضعه والوصول إلى النتائج الطيّبة لأعماله الصالحة فإنّه لن ينهض للقيام بأيّ عملٍ، سواءٌ كان من أعمال الدنيا أو أعمال الآخرة. وبنصّ القرآن الكريم: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾(٣).

فعلى هذا الأساس، لو لم يكن للإنسان أيّ أمل بنصر الله لوقع دومًا في شراك الغيظ والتزلزل واليأس، ولكانت حياته عبارةً عن أمواج متلاطمة من الاضطراب والقلق، ولما تحرّك خطوةً واحدةً نحو سعادته أو سعادة من يحبّ. ولو فرضنا أنّه لن يرتكب أيّة معصيةٍ، فإنّه على الأقل لن يخطو خطوةً واحدةً إلى الأمام.

---

(١) سورة **النساء**، الآيتان ١١٨ و١١٩.

(٢) خطب الإمام علي عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الخطبة ٤٢، الصفحتان ٩٢ و٩٣.

(٣) سورة **الحج**، الآية ١٥.

فالأمل والرجاء يختلف عن طول الأمل، والرجاء يُعدّ المحرّك الأساسيّ للإنسان. إنّ رجاء الله والثواب الأخروي والأمل بحصول عنايات الحقّ تعالى يُعدّ من الفضائل الأخلاقيّة. وفي هذه الرواية نجد أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يسأل أبا ذر إذا كان يحبّ أن يكون من أهل الجنة: أي «هل لديك أمل في أن تكون من أهل الجنّة»؟ وهذا يدلّ على أنّ الأمل أمر مقبول وصحيح. والشيء الذي هو غير صحيح ومرفوض هو تلك الآمال الطويلة البعيدة والأفكار الخياليّة الدنيويّة. وعليه، لا يكون المؤمن فاقدًا للأمل، بل إنّ ما يفقده هو تلك الآمال المنحطّة والدنيويّة التي لا يسمح لها أن تسيطر عليه. ذلك لأنّ عقله أشرف من أن يفكّر بتلك الأمور الدنيويّة السافلة. لكنّه بكلّ كيانه أمل بالله تعالى وتقرّب إليه سبحانه.

الدنيا وسيلةٌ أم هدف؟

ليست الدنيا مطلوبةً لذاتها، وإنّما هي مطلوبة في مستوى الوسيلة والأداة. أي إنّ الإنسان ينبغي أن يسعى للدنيا ولكن ليس بعنوان أنّها هدفٌ لوجوده. فالمساعي الدنيويّة ينبغي أن تكون وسيلةً لسعادة الآخرة، وإذا لم تكن الآخرة هدفًا فإنّه لا يكون للمساعي الدنيويّة العاديّة أيّ مبرر عقلائيٍ صحيحٍ. فكيف إذا كان هذا الإنسان يعيش الآمال الدنيويّة الطويلة!

إنّ سعي الإنسان في الدنيا ينبغي أن يكون لأداء التكليف. ويجب أن تكون حركته، سواءٌ على صعيد المسائل الفرديّة أو القضايا الاجتماعيّة، لأجل تحصيل رضا الله والسعادة الأخرويّة، وإلّا فإنّ كلّ سعيٍ أو تحرّكٍ يقوم به لا يكون مطلوبًا بحسب التعاليم الإسلامية. وفي حال عدم المطلوبية سيكون الفعل مذمومًا. هذا، كما أنّ تعلّق الأمل بالدنيا ينبغي أن يكون من أجل الآخرة.

فلو أراد الإنسان أن يجعل أعماله ونشاطاته الدنيويّة وسيلةً للآخرة ينبغي أن يلتفت إلى أنّ تلك الأنشطة الدنيويّة التي لها دور في الوصول إلى الآخرة ولا تكون مانعًا من الأمور المعنويّة هي أنشطةٌ محدودة. لهذا، لا ينبغي أن يُشغل فكره وذهنه بالأمور الدنيويّة. ذلك لأنّ وعاء الذهن وقوّة الخيال في الإنسان محدودة: فحين يفكّر في أمرٍ ما فإنّ ذلك يمنعه من التفكّر في غيره من المسائل. فلو لفت انتباهه شيء ما لمنعه ذلك من التوجّه إلى غيره. فلو كان الإنسان مشغول الفكر في الليل

والنهار بأمور الدنيا: من البيت والزوجة والطعام واللباس والأوضاع الاجتماعيّة وبكل ما هو متعلّق بالدنيا لأدّى ذلك إلى انشغال ذهنه بطريقةٍ لا تدع له مجالًا للتفكّر بالآخرة. حتّى إنّ ذلك الانشغال سيستمرّ في منامه أيضًا.

ولو كان من أهل التجارة والاكتساب، فسوف يرى في منامه النقود والشيكات والأوراق الماليّة. وإذا كان بنّاءً، فإنّه سيفكّر دومًا بمعدّات البناء والمشاكل التي ستواجهه في عمله. والذي لم يتزوّج بعد سيرى في منامه أنّه يختار هذه الزوجة أو تلك. وإذا كان متزوّجًا وليس لديه أولاد فإنّه سيحلم بأن يكون لديه أولاد. وبهذه الانشغالات الفكريّة لن يبقى له مجال للتفكّر في شؤون آخرته وحالاته المعنويّة والهدف من وجوده ويكون بذلك طويل الأمل.

إنّ هذه الأمور والمشاغل اليوميّة قد تسيطر على ذهن الإنسان إلى درجة لا تترك له مجالًا للقيام بواجباته الإلهيّة. وحين يفرغ من شؤونه اليوميّة فإنّه سيبدأ بالتفكير بما سيحصل خلال مئة سنة آتية: كيف سيكون أحفاده وأحفاد أحفاده!!؟ وكيف سيكون مستقبل أبنائه؟ وكيف سيختار لهم الأزواج، وكيف سيزوّج بناته؟ ومن المؤكّد أنّ هذه العقليّة والتفكير، وهذا القلب المشغول، لن يتمكّن من التفكّر والاهتمام بالمسائل المعنويّة وشؤون الآخرة والأمراض الروحيّة والمسؤوليّات الاجتماعيّة التي تحقّق رضا الله تعالى.

فألف حسرةٍ على من تحوّلت أموره المعنويّة أيضًا إلى وسائل لتحقيق دنياه! فلا يوجد خسارة أكبر أو خذلان أعظم من هذا! ولا عجب ممّن كان من أهل التجارة والمصالح الدنيويّة وجعل ذلك وسيلةً لتأمين حاجاته الدنيويّة. ولكنّ العجب كلّ العجب من الذي جعل دينه وسيلةً لتأمين دنياه. وكأنّ دينه صار محلًّا للاكتساب والوصول إلى الأهداف الدنيويّة! ومثل هذا الإنسان يتاجر بدينه. وبتعبير الروايات الشريفة: يأكل بدينه. فأيّة خسارةٍ أعظم من أن يجعل الإنسان أمور دينه وسيلةً لتأمين مصالحه الدنيويّة وأهوائه الشخصيّة.

كما ورد عن المعصوم عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «المستأكل بدينه حظّه من دينه ما يأكله»[1].

---

(١) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٧٥، الصفحة ٦٣.

التوجّه إلى الغنيّ المطلق عامل الاستغناء عمّا سوى الله

لو كانت حركة المؤمن على مسير معرفة الله والعمل بالوظائف الإلهيّة، فلن تشغله دنياه بعد ذلك. ذلك لأنّ الله سيتكفّل بها، وسيؤمّن له جميع ما يحتاجه من الأمور الدنيويّة. ولا يعني ذلك أن يبقى الإنسان بلا عمل. بل أن لا يكون مشغول البال بالدنيا: حتّى بالنسبة للتاجر أو المزارع أو الصناعي الذي يقوم بالأعمال المتعلّقة بمهنته، فيما إذا كان هدفه تحصيل رضا الله والعمل بالتكليف، وليس مجرّد تأمين مصالحه الدنيويّة.

طوبى لذلك التاجر الذي جعل الدنيا وسيلةً للآخرة، وبؤسًا لذلك الذي جعل الآخرة وسيلةً لتحصيل الدنيا. فمن المسلّم أنّ عاقبة هذا الشخص هي الخسران وعدم التوفيق وسيبقى قلبه مضطربًا وقلقًا. ذلك لأنّه بالرغم من أنّه يُعدّ نفسه متديّنًا وعارفًا بالدين، إلّا أنّه لم يؤمن بما عرف من القيم الدينيّة والإلهيّة، ولم يجعل عمله متطابقًا مع علمه ولم يؤمن بما يقول.

ومثل هذا الإنسان سيبغضه الله ويمقته، وسيبعِّد عليه السفر، ويجعل وصوله إلى وسائل تحصيل الأهداف الدنيويّة صعبًا. لهذا، نشاهد أمثال هؤلاء فاشلين في حياتهم غير موفّقين. فلا هم ينالون شيئًا من الدنيا، ولا هم ممّن سيحقّق سعادة الآخرة من جهة أخرى.

أما إذا كان المؤمن بصدد تحقيق وتحصيل مراتب الإيمان وتعميق اعتقاده ومعرفته بالله فإنّ الله تعالى سوف يعبّد له الطريق في حياته الدنيا، بحيث يدير له حياته هذه دون أن يحتاج إلى الاهتمام بها أو حمل همّها. كما قال النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله في حديث المعراج إن الله تعالى يقول: «... وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ...»[1].

وسند هذه الرواية معتبرٌ وقد ذكرت في الكتب الروائيّة المهمّة **كالكافي**

---

(١) الكليني، الكافي، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٢، الصفحة ٣٥٢.

الشريف، وذُكر مضمونها أيضًا في رواياتٍ أخرى. وحول العبارات الواردة في هذه الرواية كقوله: كنت سمعه وبصره ويده قدّم العظماء أمثال الشيخ البهائي (رحمه الله) في أربعينه والمرحوم الإمام الخميني (قدس سره) عليه تفسيرات عدّة.

ومن كلام الإمام الخميني (قدس سره): كلّما كان تعلّق القلب إلى غير الحق وتوجه الباطن نحو تعمير المُلك والدنيا أشد كان الفقر والحاجة أكثر. أما الحاجة القلبية والفقر الروحي فواضح جدًا، لأنّ نفس التعلق والتوجه فقر. وأما الحاجة الخارجية التي تؤكد بدورها الفقر القلبي فهي أيضًا أكثر، لأن أحدًا لا يستطيع النهوض بأعماله بنفسه فيحتاج في ذلك إلى غيره والأثرياء وإن ظهروا في مظهر الغني، ولكنّهم بالتمعن يتبين أنّ حاجتهم تتضاعف على قدر تزايد ثرواتهم. فالأثرياء فقراء في مظهر الأغنياء ويحتاجون في زيّ من لا يحتاج.

وكلّما اتجه القلب نحو تدبير الأمور وتعمير الدنيا أكثر وكان تعلقه أشدّ، كان غبار الذل والمسكنة عليه أوفر وظلام الهوان والحاجة أوسع. وعلى العكس، كلما رَكلَ بقدمَيه التعلق بالدنيا ووجّه وجه قلبه إلى الغني المطلق وآمن بالفقر الذاتي للموجودات وعرف بأن أحدًا من الكائنات لا يملك لنفسه شيئًا وأنّ جميع الأقوياء والأعزّاء والسلاطين قد سمعوا بقلوبهم أمام ساحة الحق المقدسة من الهاتف الملكوتي واللسان الغيبي، الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] كلما استغنى الإنسان عن العالمين أكثر وبلغ مستوى استغنائه درجةً لا يرى لمُلك سليمان قيمةً ولا يأبه بخزائن الأرض حين توضع بين يدَيه مفاتيحها، كما ورد في الحديث أنّ جبرائيل قد هبط من قبل الله تعالى بمفاتيح خزائن الأرض لخاتم النبيّين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فتواضع ورفض قبولها وافتخر بفقره، ويقول علي بن أبي طالب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لابن عباس: «وإن دنياكم عندي لأهونُ من ورقة في فم جرادة تقضَمُها»[2]...

نعم، إنّ أهل الحق يعرفون بأنّ التوجه نحو خزائن الدّنيا والمال والجاه والمجالسة مع أهلها يسبب أي نوع من الكدورة والظلام في القلب وكيف يبعث

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ١٥.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ٢٢٤، الصفحة ٢١٨.

على الوهن والفتور في العزيمة ويوجب الفقر والحاجة لدى القلب وفقره ويصرفه عن الانتباه إلى النقطة المركزية الكاملة بصورة مطلقة، ولكن حين أَعطيتَ أيها العزيز القلب إلى أهله والبيت إلى صاحبه وأعرضت عن غيره ولم تدفع البيت إلى الغاصب تجلى فيه صاحبه ومن المعلوم أنّ تجلّي الغني المطلق يدفع إلى الغني المطلق ويغرق القلب في بحر العزة والغنى، فيمتلئ من الغنى وعدم الاحتياج ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وينهض صاحب البيت بإدارة أموره، ولم يترك الإنسان إلى نفسه وإنّما يتدخل ويتصرف في جميع شؤون عبده. بل يصبح هو سمعه وبصره ويده ورجله ... فتوصد باب فقر العبد وفاقته نهائيًا ويستغني عن العالمين ومن المؤكد أنه يرتفع من وراء هذا التجلّي الخوف من جميع الكائنات ويحلّ الخوف من الحق المتعالي محله. وتملأ القلب عظمة الحق وهيبته ولا يرى لغير الحق عظمةً واحتشامًا وتصرفًا ويدرك حقيقة «لا مؤثر في الوجود إلّا الله».[2]

وأبسط تفسيرٍ يمكن أن نذكره لحديث: «... وإنّه ليتقرب إلي...» هو أنّ الله يقول لعبده إنّ ما تقوم به عين عبدي وأذنه سوف أقوم به أنا.. وما تقوم به يده سوف أؤدّيه أنا.

فهذا العبد الذي كان من المفترض أن يهتمّ بشؤون حياته المادّية ويسعى لرفع احتياجاته بنفسه، أضحى مورد عناية الحقّ بحيث أنّ الله تعالى هو الذي يدير حياته وشؤونه دون أن يجعله محتاجًا لأيّ شيء ودون أن يشكّل ذلك أيّ ضغطٍ على ذهنه وعقله. وبمجرّد أن يخرج من بيته تُنجز أعماله بإرادة الله وبأسبابٍ يدبّرها الله ولعلّه يكون ذلك بواسطة عبدٍ من عباد الله. فإذا كان محتاجًا إلى عونٍ فإنّ الله يوصله إليه. وهذا العون الذي يأتي من عالم الغيب، ليس بالضرورة أن يتحقّق بشكلٍ مباشر من عالم الغيب. بل المقصود هو أنّ تدبير جميع الأمور وارتباط جميع الأعمال يكون بيده تعالى فهو الذي ينظّم ويدبّر مثل هذه العوامل والوسائط بحيث تُنجز الأعمال بشكلٍ جيّد، دون أن يشعر صاحبنا بالاحتياج، أو يشغل باله بالتخطيط والتدبير.

---

(١) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

(٢) الإمام الخميني، **الأربعون حديثًا**.

فالمؤمن ليس بحاجةٍ في مساعيه وأعماله إلى وضع الخطط والحيل الشيطانيّة. فحين يؤمن أنّ حاجاته المحدودة مؤمّنة من قبل الله، فلن تشغل فكره تلك الأماني البعيدة ولن يكون طويل الأمل. بل يؤدّي عمله على أساس أنّه يمتثل للتكليف. وعلى العكس، لو كان الإنسان يقتصر في همّه على جمع المال والثروة لكي يزيد من زخارف دنياه يغيّر أثاث بيته بشكلٍ دائم ويريد أن يحصل على أحدث طراز للسيارات وحيث إنّ مثل هذه الأمور تشكّل سلسلةً لا تنتهي، فإنّه لن يقف عند حدّ. وبناءً على ما ذكره الإمام الخمينيّ (قدس سره)، فإنّه لو أُعطي هذه الأرض كلّها فهو لن يقنع، بل سيفكّر بالسيطرة على كوكبٍ آخر!

ذكر الموت وتجلّيات الحياء الإلهي

وبالتوجّه إلى ما ذُكر وما تعرّضنا له سابقًا، فقد ذكر النبيّ ثلاثة شروطٍ للفوز بالجنّة: الشرط الأوّل: هو أن يقصر الإنسان من آماله، ولا يعلّق قلبه بهذه الدنيا ولا يكون مشغول البال بما سيأتي بل يكون همّه آخرته. والشرط الثاني أن يتذكّر الموت دائمًا. وذكر هذا الشرط بعد الشرط الأوّل يبيّن قرب ارتباطهما؛ ذلك لأنّ الإنسان إذا أراد أن يبعد الآمال الطويلة من ساحة فكره، فعليه دومًا أن يفكّر بالموت، لأنّه إذا استحضر الموت فستتجسّم له عاقبة الآمال الدنيويّة وخوائها. لهذا، فإن بين اجتناب الآمال الطويلة والتفكّر بالموت رابطة قريبة. إنّ الأمل والتمنّي لا يكون في اختيار الإنسان بشكلٍ تامّ. فالذي يترعرع في بيئةٍ تسيطر عليها الثقافة المادية، فإنّ كلّ ما يحيط به أو يسمعه سيؤثّر فيه. ويجعل سمعه وبصره متعلّقَين بالدنيا. وسواءٌ شاء أم أبى، فإنّ الآمال الدنيويّة سوف تستقرّ في قلبه. فما العمل إذًا لكي لا نتوجّه إلى زينة الدنيا وزخارفها ولا تترسّخ فينا الآمال الطويلة؟ فبالتوجّه إلى هذا الأمر المهمّ، يوصي النبيّ أبا ذر بضرورة تذكّر الموت دائمًا:

فلو أنّ الواحد منّا كان متوجّهًا بشكل دائم إلى أنّ عاقبة هذه الحياة الدنيا ليس سوى الموت، لعلم أنّ هذه الدنيا لا تستحقّ أن يتعلّق القلب بها. فما يكون له قيمة وينبغي أن يتعلّق القلب به هو الذي لا نهاية له ولا نقصان فيه: وهو تلك الحياة الأخرويّة الطيّبة.

لو كان الإنسان يفكّر دائمًا بالموت، فإنّه لن يُبتلى بطول الأمل والحرص والكثير

من الصفات الرذيلة. فذكر الموت دواء مؤثّر لعلاج الآفات والأمراض المعنويّة والروحانيّة. ومن الطبيعيّ أنّ إيجاد التوجّه إلى الموت سهل جدًّا. فيمكن للإنسان أن يصنع حول نفسه مظاهر التوجّه وذكر الموت. كأن يكتب مثلًا بعض الجمل ويعلّقها في غرفته ومحلّ عمله، وحتّى أنّه يستطيع أن يكتب شيئًا يذكّره بالموت ويضعه على كتابه بحيث كلّما نظر إليه تذكّر الموت.

وفي حديثٍ عن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقول: «أكيس الناس من كان أشدّ ذكرًا للموت»[١].

ومن المسلّم أنّ الإنسان الكيّس الفطن لا يُخدع، وإنّما هو يختار الأفضل بين الدنيا والآخرة. فحين يدرك هذا الإنسان الحكيم أنّ الدنيا زائلة فهو لن يعطيها أيّة قيمة. على أيّ حال، فإنّ التمرّن على ذكر الموت يُعدّ دواءً مؤثّرًا لأجل التخلّص من حبّ الدنيا والابتلاء بآمالها الطويلة.

والشرط الثالث لأجل الفوز بالجنّة والذي أشير إليه في الدرس السابق بشكلٍ آخر هو الحياء من الله. فبعدما يذكّر النبيّ مرّةً أخرى بضرورة الحياء من الله يلتفت أبو ذر إلى أهميّة هذه المسألة وإلى موقعها الخاصّ بعد أن ذكرها النبيّ مرّةً أخرى بفاصلةٍ قليلة. بالتالي، يتساءل في نفسه لماذا يولي النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هذه المسألة مثل هذه الأهميّة ويؤكّد عليها فلا بدّ أنّ هناك أمرًا خاصًّا يدور في بال النبيّ، لهذا يسأله: «يا رسول الله كلّنا نستحيي من الله»، وبما أنّ النبيّ لا يرى هذا الحدّ كافيًا للحياء فإنّه يذكر ثلاثة تجلّيات للحياء من الله: «ليس ذلك الحياء ولكنّ الحياء من الله أن لا تنسى المقابر والبلى».

فأوّل انعكاسٍ للحياء الإلهيّ هو أن لا ينسى الإنسان المقابر والعمارات الخربة. وبالطبع، ليست تلك المقابر المزيّنة التي تشبه القصور ولا تذكّر الإنسان بالآخرة بل تلك القبور المندثرة التي قلّما يهتمّ بها أحد.

وقد ذكرنا سابقًا أنّ ذهن الإنسان محدود. وإذا كان منشغلًا بمجموعة من المسائل فإنّ ذلك يمنعه عن التفكّر بمسائل أخرى، ولا يترك له مجالًا للتأمّل فيها.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ١٣٠.

وإذا أراد الإنسان أن يوجد في نفسه بعض الحالات المطلوبة والانفعالات النفسانيّة اللازمة كالحياء والخوف والشوق الإلهيّ (التي عدّت في منظومة القيم الإسلامية من الأمور العظيمة وأكّد عليها العلماء كثيرًا في التعاليم الأخلاقيّة) فعليه أن يعدّ المقدّمات ويوجد الأرضيّة المناسبة: فإذا أراد الإنسان أن يوجد في نفسه تلك الدرجة من الحياء المطلوب المشار إليها في حديث النبيّ، فإنّه لا بدّ أن يبتعد عن زخارف الدنيا، وأن يستأنس بالمقابر والعمارات الخربة. ولو كان توجّه الإنسان دومًا إلى العمارات الفاخرة والأبنية الفارهة المتنوّعة واعتادت عينه على النظر إلى التزيينات الجديدة والستائر الملوّنة، فإنّ الدنيا ستتجلّى له أكثر. ولو أراد أن يخفّف من التوجّه إلى هذه المظاهر الخدّاعة للدنيا فعليه أن يفكّر بالمقابر وبعاقبة من دُفن فيها! ويذهب إلى الخرابات وينظر إلى هذه الحجارة والحديد وموادّ البناء كيف ستمسي خرابًا وكيف ستكون عاقبتها.

ولا ينبغي أن يشتبه علينا الأمر، لأنّ المقصود ليس هو أن نجعل بيوتنا هكذا ونبنيها كيفما كان بحيث تتهدّم حين ينهمر المطر!! فإنّ تعاليم الإسلام تقتضي أن يتقن الإنسان أيّ عمل يقوم به، حتّى لو كان بيتًا يبنيه لنفسه. فالحديث هو أن لا تسيطر زخارف الدنيا على قلب الإنسان ولا يقع في مصيدة الدنيا، لا أن يؤدّي الأعمال بشكلٍ غير صحيح. الإنسان مكلّف بأن يأخذ عمله على محمل الجدّ، ولكن دون أن يتعلّق قلبه بهذه الدنيا. فحين يرى الإنسان كماليّات الدنيا، فمن الطبيعيّ أن ينجذب قلبه إليها.. وهذه الحالة ليست بالأمر الاختياريّ. حين يرى جيرانه يمتلكون سيّارةً جديدةً ثمّ يستبدلون بها بعد فترة طرازًا أفخم، فإنّه يحدّث نفسه ويقول لماذا فلان يبدّل سيّارته دومًا، ونحن ليس لدينا أيّة سيارة ولو كانت مستعملةً! فإذا اشترى سيّارةً سرعان ما يفكّر بتبديلها إلى سيّارة أفضل وهكذا. فوصيّة النبيّ هي أن يطلّ الإنسان على المقابر والخرابات. ويوصي علماء الأخلاق تلامذتهم أن يذهبوا كلّ يوم إلى المقابر. وعلى الأقل: فليزوروا القبور مرّةً واحدةً في الأسبوع. وهو أمرٌ مستحبّ. فبذلك تحصل لهم حالة من صفاء القلوب وتخلو قليلًا من حبّ الدنيا والتعلّقات الماديّة. وفي الحدّ الأدنى لكي يحقّقوا تعادلًا بين الدنيا والآخرة في نفوسهم.

ولا يتوقّعن إنسانٌ عشق الدنيا وما فيها وملأت قلبه شهواتها أن ينال مقام الخوف من الله، ويُوفّق أيضًا للقيام في أسحاره لله، ويحصل على حالة وجدانيّة

بحيث إذا ذكر الإمام الحسين عليه السلام عنده تنهمر الدموع من عيونه، أو إذا ذُكرت الجنّة ونعمها اشتاق قلبه إليها! فمن الطبيعيّ أن حبّ الدنيا والتوجّه إليها سوف يحلّ محلّ هذه الأمور: فالمكان الملوّث بحبّ الدنيا لن يكون محلًّا تستقرّ فيه محبّة الإمام الحسين والسيدة الزهراء عليهما السلام. وبالطبع فإنّ لهؤلاء الأطهار المعصومين من النورانيّة ما يؤثّر في قلوبنا الميّتة عند ذكرهم. بيد أنّ ذكرهم لكي يحقّق أثره بالشكل المطلوب يتطلّب طهارة القلب من مثل هذا التلوّث.

«والجوف وما وعى»

التجليّ الثاني للحياء الإلهيّ هو أن ينظر الإنسان إلى ما يأكل. فلو كان هذا الإنسان غير مبالٍ بما يصل إلى يدَيه، ولا يتورّع عن أكل لقمة الحرام، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى قساوة قلبه وخروج نور الله منه.. فعلى الإنسان أن ينظر دومًا إلى طعامه ويحتاط من الأطعمة المشبوهة ويجتنب كلّ حرامٍ يؤدي إلى قسوة القلب، وإلى عدم تأثير عبادته أو حصول الخوف من الله والشوق إلى الجنّة ولقاء الله في قلبه. فلأجل ظهور الحياء الإلهيّ من الضروري أن يلتفت كلّ إنسان إلى ما يمكن أن تستوعبه معدته.

ويوصي القرآن المجيد هذا الإنسان أن يلتفت إلى غذائه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ﴾[١].

على الإنسان أن يراعي جميع الجوانب، ويراقب غذاءه من جميع الجهات: أن يكون غذاءً صحّيًا حلالًا نظيفًا. نجد أصحاب الكهف (الذين هم من أفضل عباد الله، وقد نجوا من حكومة الشرك وعبادة الأصنام، وخلّصوا أنفسهم من شراك الكفر في عهد دوقيانوس) كيف كانوا يختارون طعامهم من الحلال الطيّب. فبعد أن يذكر القرآن ما جرى على أصحاب الكهف في الغار واستيقاظهم من نوم مئات السنين وما جرى عليهم، يقول تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[٢].

---

(١) سورة **عبس**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ١٩.

وبالنظر إلى تأثير المال الحرام في انحراف الإنسان وابتعاده عن الحقّ وعصيانه لله تعالى وأوليائه، نجد أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رأى كفر جيش يزيد وإعراضهم عنه قال: «وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمعٍ قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام وطُبع على قلوبكم...»[1].

أجل، إنّ لقمة الحرام تؤدّي إلى قساوة القلب بالدرجة التي يصبح فيها مستعدًّا لتوجيه سيفه نحو سبط النبيّ الأكرم. لهذا، نجد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد عدّ الحياء من الله مرتبطًا باهتمام الإنسان ورعايته لما يأكل.

«**والرأس ومن حوى**»[2]؛ والمقصود هنا العين والأذن واللسان والسيطرة عليها.

الثالث من تجلّيات الحياء الإلهيّ هو أن ينظر الإنسان إلى ما يفكّر فيه وإلى خيالاته وأمانيه. فلو قام بتصفية خيالاته وأخرج الأفكار الباطلة من رأسه وهذّب باطنه لتمكّن من تثبيت أركان الحياء المطلوب في نفسه.

النزاهة: سيرة أولياء الدين

وفي تتمّة كلامه، يقول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «ومن أراد كرامة الآخرة فليدع زينة الدنيا، فإذا كنت كذلك أصبت ولاية الله».

فحين يقطع الإنسان أمله في الدنيا ويصبح غير مبالٍ بها فهو يتحوّل إلى طالب للآخرة ونعمها ويشتاق إلى قرب الله، ويعقبه ذلك العزّة والشرف والكرامة في الآخرة. وفي المقابل، لو عظمت الدنيا في عينه لأضحت الآخرة حقيرةً في نظره. ولا شكّ بأنّ التفكّر بالآخرة والموت وزيارة القبور أمورٌ مؤثّرة، ولكن على الإنسان أن يجدّد النظر في أعماله وسلوكه. ولأجل أن لا يقع الإنسان في فخّ الدنيا، ينبغي أن يضع زينتها وزخارفها جانبًا لكي ينال في هذه الحالة العزّة والكرامة الأخرويّة.

هذا، بالإضافة إلى أنّ هناك مجموعةً من أنواع الزينة تُعدّ من المستحبّات. كلّ ذلك فيما إذا اهتمّ بها الإنسان على أساس استحبابها ومطلوبيّتها الشرعيّة، لا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٥، الصفحة ٨.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٣، وجاء في نسخة أخرى «وما حوى» ولعلّ هذه هي النسخة الصحيحة (**مستدرك الوسائل**، الجزء ٨، الصفحة ٤٦٣).

لأجل طلب الدنيا. وعندها يكون ذلك طلبًا للآخرة. مثلما يقال إنّه يستحبّ للمرأة أن تتزيّن لزوجها وكذلك الزوج لزوجته. ويستحبّ أيضًا أن يكون المؤمن بين إخوانه متعطّرًا ويلبس الثياب النظيفة ويهتمّ بنظافة أسنانه وتمشيط شعره، بل وتزييته وتلميعه. فالمؤمن ينبغي أن يكون نظيفًا إلى درجة يرغب الآخرون بصداقته ويأنسون به. ومن المؤكّد أنّ هذه الأمور إذا أدّيت بقصد القربة فإنّها لن تعدّ زينةً للدنيا بل هي عبادة إلهيّة. فزينة الدنيا إنّما تكون حين يعمل الإنسان بهواه ويتزيّن لأجل لذّاته المنحطّة ولتلبية شهواته الخاصّة، لا لأجل الله والآخرة. كأن يكون جلّ همّه هو أن يرتدي أفخر الثياب ويأكل ألذّ الطعام وأنواعه ويحصل على البيت الفاره. أمّا إذا كانت الزينة لأجل الآخرة وامتثالًا لأمر الله، فإنّها تعدّ مطلوبةً كما عرف عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه كان دائم التعطّر وشديد النظافة.

وقد نقل في كتاب **مكارم الأخلاق** في وصف النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «كان ينظر في المرآة ويُرجِّل جمّته ويتمشّط وربما نظر في الماء وسوّى جمّته فيه ولقد كان يتجمّل لأصحابه فضلًا عن تجمّله لأهله وقال: إنّ الله يحبّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل»[١].

فينبغي أن يكون المؤمن مرتّبًا ذا مظهرٍ مقبول مبتعدًا عن كلّ أنواع القذارات وعمّا يؤدي إلى تنفّر الآخرين منه. وما أسوأ أن يدخل البعض بثيابهم الوسخة إلى المسجد فتتّسخ المساجد بسببهم وتنتشر الروائح الكريهة فيها. هذا في الوقت الذي يهتمّ الفاسقون بتنظيف وترتيب أماكنهم. فمجالس المؤمنين ينبغي أن تكون الأفضل والأنظف والأطيب رائحةً. وعلينا أن نقتدي بسيرة النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ويُذكر أنّ قسمًا مهمًّا من ميزانيّة حياة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كانت تُصرف في التعطّر. ينبغي أن نأخذ من ذلك درسًا ونعلم أن هذا النوع من الزينة والترتيب أمرٌ مطلوبٌ وقد أمر به الشرع المقدّس، ولو قام به الإنسان تقرّبًا لله، لعدّ ذلك عبادةً.. وحكمة ذلك أن يكون المؤمنون مستأنسين ببعضهم، ويسرّون في مجالسهم، ويستفيض كلّ واحد منهم من نور صاحبه.

---

(١) الحر العاملي، **وسائل الشيعة** (قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة ٢، ١٤١٤هـ)، الجزء ٥، الصفحة ١١.

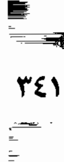

الدرس السادس والعشرون

دور الدعاء الخالص والعمل الصالح

- إشارة إلى مفهوم الدعاء
- تفاوت مراتب الناس في الدعاء والطلب
- أهميّة إظهار الفقر والعجز في محضر الله تعالى
- ضرورة مقارنة الدعاء بالعمل الصالح
- بركات وجود الإنسان الصالح

«يا أبا ذر يكفي من الدعاء مع البرّ ما يكفي الطعام من الملح. يا أبا ذر مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر. يا أبا ذر إنّ الله يصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته والدور حوله ما دام فيهم».

يرتبط هذا القسم من مواعظ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بالدعاء والطلب من الله، وضرورة مقارنة الدعاء بالعمل الصالح، والدور الحيويّ للصالحين في بيوتهم ومجتمعهم. ولا شكّ بأنّ الدعاء والطلب من الله يُعدّ أحد مظاهر العبوديّة وفي هذا المجال ورد الكثير من الآيات والروايات وطرحت الأبحاث المفصّلة أيضًا.

إشارة إلى مفهوم الدعاء

يقول المرحوم الراغب الأصفهاني في الدعاء: «الدعاء كالنداء إلّا أنّ النداء قد يقال بيا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر»[1].

ويقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله): والدعاء في الله سبحانه تكوينيّ وهو إيجاد ما يريده لشيءٍ كأنّه يدعوه إلى ما يريده، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾[2]؛ أي يدعوكم إلى الحياة الأخرويّة فتستجيبون إلى قبولها مع

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات في غريب القرآن** (دفتر نشر الكتاب، الطبعة ٢، ١٤٠٤هـ)، الصفحة ١٦٩، الماده «دعوة».

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٥٢.

حمده والثناء عليه.

وتشريعيّ وهو تكليف الناس بما يريده من دين بلسان آياته. والدعاء من العبد لربّه عطف رحمته وعنايته إلى نفسه بنصب نفسه في مقام العبوديّة والمملوكيّة. ولذا كانت العبادة في الحقيقة دعاءً لأنّ العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكيّة والاتصال بمولاه بالتبعية والذلّة ليعطفه بمولويّته وربوبيّته إلى نفسه وهو الدعاء.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١]، حيث عبّر أوّلًا بالدعاء ثمّ بدّله ثانيًا بالعبادة[٢].

ولا يلتبس الأمر بأنّ المقصود من إجابة دعاء الداعين يعني إعطاءهم كلّ ما يسألون وفي أيّ زمانٍ يريدون. هذا التفسير لاستجابة الدعاء لا ينسجم مع الكثير من التعاليم الدينيّة. فما أكثر ما يطلبه الإنسان الداعي ممّا لا يكون لمصلحته بل يؤدّي إلى ضرره حيث لا يكون مطّلعًا على ما يصلحه.

ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيّته لأبنائه: «ثمّ جعل في يدَيك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته فلا يقنطنّك إبطاء إجابته فإنّ العطيّة على قدر النيّة وربّما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيرًا منه عاجلًا أو آجلًا. أو صُرف عنك لما هو خيرٌ لك فلرُبّ أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله. فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»[٣].

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٦.

(٢) راجع: محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن** (قم: مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة ٢، ١٩٧٣ م)، الجزء ٢، الصفحة ٣٤.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الكتاب ٣١، الصفحة ٤٨.

تفاوت درجات الناس في الدعاء والطلب

وفيما يتعلّق بالدوافع الإنسانيّة في الدعاء والتأكيد الكبير عليه، يمكن إجمال القول فيه بأنّ طريق كمال الإنسان هو العبوديّة لله وإنّ من مظاهر العبوديّة أن يكون الإنسان في احتياجه متوجّهًا إلى الله دون سواه، طالبًا منه وحده رفع احتياجه. والمعروف أنّ الناس يتفاوتون في مراحل العبوديّة ومقاماتها وكذلك يختلفون في احتياجاتهم: فأولئك الذين لديهم الحظّ القليل من المعرفة والإيمان وهم واقفون في بداية طريق التكامل في العبوديّة لله تتمحور احتياجاتهم حول المادّة والدنيا. فإذا سألوا الله شيئًا فإنّهم يطلبون منه رفع احتياجاتهم الطبيعيّة والدنيويّة، كطلب سعة الرزق والولد الصالح والزوج المناسب والمنزل الوسيع وغيرها من أمورهم المعيشيّة.

ولا شكّ بأنّ طلب مثل هذه الاحتياجات الماديّة من الله بالنسبة للمبتدئين في الإيمان الذين لم يدركوا الدرجات الرفيعة من معرفة الله التي تجعلهم يطلبون ما هو أكمل وأرفع يعدّ أمرًا جيّدًا وصحيحًا جدًّا. فطلبهم من الله يدلّ على إيمانهم به واعتقادهم بأنّه الذي يرزقهم ويعتني بهم. ولهذا، فإنّهم لا يرفعون أيديهم بالاحتياج إلى عباد الله. ومن الطبيعيّ أنّهم إذا طلبوا مثل هذه الأمور الماديّة من الله فإنّه تعالى سيؤمّنها لهم. ذلك لأنّ الله تعالى قد قال لنبيّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا موسى سلني كل ما تحتاج إليه حتّى عَلف شاتِك وملح عجينك»[1].

فكمال الإنسان هو في أن يتوجّه إلى الله لرفع احتياجه سواءٌ أكان ماديًّا أم معنويًّا ولا يتوجّه إلى ما سواه ولا يرى غيره تعالى مستقلًّا في التأثير. وإلّا فانّ الله تعالى سيخيّبه فيما لو توجّه إلى غيره. ومن حديث منقول عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الله تبارك وتعالى يقول: وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطَعنّ أمل كلّ مؤمّل غيري باليأس ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس ولأنحينّه من قربي ولأبعدنّه من فضلي، أيؤمّل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقةٌ وبابي مفتوحٌ لمن دعاني...»[2].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٠٣.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٦.

وللأسف، فإنّ أكثر أدعيتنا وطلباتنا ليست حقيقيّةً! أي إنّها ليست طلبًا من الله تعالى، لأنّه هو المؤثّر الحقيقيّ. وما ينبغي هو أن لا يسأل الإنسان سواه عزّ وجلّ. هذا، وإن كان حال الإنسان عند الحاجة أن يذهب إلى من يرفع احتياجه. فإذا كان بحاجة إلى مال فإنّه يمدّ يد الطلب إلى من يعطيه المال أو أنّه يذهب نحو العمل للتجارة والتكسّب، لكنّ المؤمن يتوجّه بداية بقلبه إلى الله ويطلب منه حاجته، ويعمل بتكليفه. وإنّما يتحرّك ويسعى لأنّ الله تعالى قد جعل الأسباب الدنيويّة وسيلةً للحصول على حاجاتنا، لا باعتبارها مستقلّةً في التأثير. وعلى أيّ حال، فبالمقدار الذي يتوجّه الإنسان بقلبه إلى الله ويسأل عند ساحة قدسه رفع احتياجه يزداد كمالًا وإيمانًا وتوجّهًا وتعلّقًا بالله. نحن لا نعلم كم للتوجّه إلى الله من أثرٍ ولا ندرك كم للطلب من الله حتّى في حاجاتنا الماديّة من أثرٍ في تكامل روح الإنسان: ينقل الأستاذ العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله) عن أستاذه المرحوم آية الله الميرزا علي القاضي (رحمه الله) قوله: قد يكون الإنسان غافلًا عن التوجّه إلى الله أحيانًا فيبتليه الله مدّةً ما بالشدائد حتّى يقول مرّةً واحدة يا الله. ذلك لأنّ لهذه الكلمة والتوجّه إلى الله أثرًا كبيرًا على الروح ونورانيّة القلب.

وبالالتفات إلى ما مرّ يتّضح أنّ التوجّه إلى الله له أثرٌ كبير في نورانيّة القلب وتعالي روح الإنسان. ولو لم يشعر الإنسان في بعض الأوقات بالاحتياج، لكنّه توجّه إلى الله تعالى، فإنّه سيحقّق تقدّمًا كبيرًا في طريق الكمال. وبالطبع، فإنّه لن يفهم، ولا يُتوقّع منه أن يفهم، لأنّ هذا العالم محلّ الامتحان. ولو ظهرت في العالم آثار جميع الأشياء بشكلٍ كامل لما حصل له الامتحان. فينبغي أن يخفي الكثير من الأشياء حتّى يتحقّق الامتحان بشكلٍ كامل.

لهذا، لا ينبغي أن ينسى الإنسان ربّه أبدا وينبغي أن يطلب منه كلّ شيء حتّى حاجاته الماديّة. وينبغي أن يعلم أنّ دعاءه حتى لو كان لأموره الماديّة وإقباله على الله هو اعتراف بالعبوديّة من جهته واعترافٌ بربوبيّة الحقّ تعالى. ونفس هذا القدر في مورد السؤال والطلب، ولو كان ماديًّا، سيكون له تأثيرٌ واضحٌ في تكامله الروحيّ. فكيف إذا كان الأمر في مجال تكامله المعرفي والإيماني؟! وعليه أن يدعو الله في أموره المعنويّة كما يدعوه في أموره الماديّة، لأن يوفّقه لعبادته وتحصيل العلم وخدمة الناس والتوفيق لاجتناب المعاصي. والأفضل من ذلك أن يدعو لغيره من أصدقائه وزملائه وجيرانه والمؤمنين والذين لهم حقّ عليه، ومن هؤلاء طبعًا أساتذته ومعلّموه.

والطائفة الأرفع هم أولئك الذين إذا أرادوا الطلب والدعاء شغلهم عن ذلك

تسبيحه والثناء عليه تعالى. وكلّما أرادوا الدعاء شغلهم ذكر صفات الجلال والجمال الإلهيّ فاشتغلوا بمدحه والثناء عليه، وكلّما أوغلوا في الثناء ازدادوا عطشًا. ولهذا، لا يبقى لهم مجال لطلب أيّ شيءٍ. فالعاشق الذي تقع عيناه على جمال معشوقه يذوب فيه، ولا يرى لنفسه وجودًا، فكيف يطلب لنفسه شيئًا. والذين وصلوا إلى هذا المقام من المعرفة يشعرون أيضًا بأنّ الله تعالى يريد أن يرى ظهور آثار العبوديّة على جميع أعضائهم وجوارحهم، بل في كلّ زوايا وجودهم: مثلما أنّ من آثار العبوديّة لله أن يمرّغ الإنسان جبهته في التراب تذلّلًا وخضوعًا لله، وتجري الدموع من عيونهم شوقًا إلى جماله، أو خوفًا من عظمته، فتهتزّ قلوبهم، ثمّ يأتي دور اللسان مع سائر الأعضاء والجوارح التي ينبغي أن تظهر التذلّل والعبوديّة، ومن آثار العبوديّة على اللسان أن يسأل مولاه ما يحتاج.

أهميّة إظهار الفقر والعجز في محضر الله

حين يدرك الإنسان أنّ الله تعالى يريد منه أن يظهر العبوديّة له في كلّ وجوده وبجميع قواه ظاهرةً وباطنةً، ينبغي أن يعلم أنّ عليه أن يظهر بلسانه عجزه ومذلّته ومسألته. وهذه المسألة والطلب علامة ذلّ العبوديّة في محضر الربّ المتعال، وأولئك الذين ذاقوا حلاوته يعلمون كم لهذه المسألة من كرامةٍ وعزّة. أجل، إنّ الذين وصلوا إلى تلك المقامات العالية للمعرفة يشعرون أيضًا بأنّ عليهم أن يدعوا ويجروا آثار العبوديّة على لسانهم. فهذا الإظهار عبادة، وهو مطلوب بذاته.

إنّ الله تعالى يريد من الإنسان أن يظهر فقره واحتياجه بين يدَيه. ومن الطبيعيّ حين تكون جميع أعضاء الإنسان وجوارحه في مسيرة العبوديّة لله تكون جميع أعضائه متناغمةً في إتيان الأعمال الصالحة. ومن جملة آثار العبوديّة هو إظهار العجز والاحتياج الى الله باللسان. وعندها يصل الإنسان إلى النتيجة المطلوبة، ذلك أنّ جميع أعضائه وقواه أضحت تعمل معًا.

فحين يدعو يكون كمن يسأل الله ويطلب من ساحته المقدسة بكامل وجوده. وطبيعيّ أنّ رحمة الله الواسعة ستشمله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٦.

في الدعاء، يطلب الإنسان من ربّه شيئًا، والله يعطيه. أمّا بالنسبة للّذي ذاق طعم المناجاة وحلاوة محبّة الله فإنّ أكبر لذّة عنده هي حين يقول «يا الله» ويسمع في الجواب «لبّيك». أمّا إذا كان قلبه متعلّقًا بالله فقط ولا نظر له إلى غير الله، فإنّه إذا سأل الله أعطاه. فعلى الإنسان أن يطلب جميع احتياجاته من الله، فإذا كان جائعًا يطلب منه تعالى خبزه ويظهر بكلّ وجوده فقره واحتياجه إلى ساحة الغنيّ المطلق ويقول كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[١].

فقد جرى هذا الكلام على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين فرّ من مصر وتوجّه تلقاء مدين ولم يكن معه أيّ طعام يأكله أو مسكنٍ يأوي إليه. وكان يبيت لياليه في البوادي ويفترش الأرض ويأكل من حشيشها. كما وصفه الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... والله ما سأله إلّا خبزًا يأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذُّب لحمه»[٢].

فحين فرّ موسى، على نبينا وآله وعليه السلام، من مصر إلى مدين وجد فيها عدّةً من الناس يسقون من بئرٍ، ووجد عند البئر امرأتين تنتظران دورهما حتّى ينتهي الرجال لكي تسقيا أغنامهما. فاقترب موسى منهما وسألهما لماذا جئتما إلى هنا؟ وحين علم مقصدهما أشفق عليهما وسقى لهما. ثمّ ذهبت المرأتان ولم يمض وقت طويل حتّى رجعت إحداهما وقالت إنّ أبي يطلب منك أن تأتي إليه ليجزيك أجر ما فعلت لنا. وحين قدم موسى على شعيب الذي كان والد المرأتين، زوّجه إحدى بناته. وبذلك صار قادرًا على تأمين معاشه ومعاش أسرته. أجل إنّ الإنسان إذا سأل ربّه من صميم قلبه أن يفيض عليه بعنايته، فلا حاجة له بعد ذلك أن يقرأ الأدعية الطويلة والمفصّلة، ويقضي وقتًا طويلًا فيها. بل يكفي أن يسأله بكلّ وجوده ليستجيب دعاءه. أمّا إذا دعا وقرأ الأدعية الطويلة ولكن من غير توجّه قلبيّ فسوف يبقى دعاؤه بلا أثر. فإذا أضاف العمل الصالح إلى الاستعداد المعنويّ والروحيّ، فإنّ دعاءه سيكون أسرع تأثيرًا.

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٢٤.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٦٠، الصفحة ٥٧.

ضرورة مقارنة الدعاء بالأعمال الصالحة

لعلّ سبب عدم استجابة دعاء الذين يعملون السوء وحرمانهم من توفيق الاستجابة يرجع إلى عدم توجّههم بشكلٍ كامل إلى الله. ذلك لأنّ ارتكابهم للسيّئات يؤدّي إلى تعلّق قلوبهم بما سوى الله. وما أكثر ما يكون هذا المتعلّق مبغوضًا منه تعالى. في هذه الحالة كيف يمكن أن يجد هذا الإنسان طريقًا إلى محضر الله؟! أولئك الذين وفّقوا للتوجّه الخالص والكامل إلى الله هم أهل النزاهة والعمل الصالح بعيدًا عن التلوّث بالمعاصي. لهذا، قال النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «يا أبا ذر يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح».

فكما أن الطعام لا يحتاج إلّا إلى كميّة قليلة من الملح، كذلك الأعمال الصالحة تحتاج إلى هذه النسبة من الدعاء، فالدعاء كالملح بالنسبة إلى حياة الإنسان السعيدة.

فلا يلزم إذًا أن يلحّ في الدعاء. بل إنّه بمجرّد الدعاء والطلب من الله، فإنّ الله تعالى يعطيه سؤله. أمّا الملوّثون بالمعاصي والذين لا يهمّهم خدمة الغير ونفعهم، فإنّهم مهما بالغوا في الدعاء فليس معلومًا أنّ ذلك سيكون لمصلحتهم. ولأجل أن يتّضح هذا الأمر أكثر يقول النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «يا أبا ذر مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر».

فالذي يدعو دون أن يؤدّي ما عليه من تكاليف، فإنّه بالرغم من التفاته إلى أهميّة الدعاء، وصدقه فيه وفي مسألته من الله، ربما لن يستجاب له لأنّه قد ترك الوظائف الأخرى ولم يجعل العبوديّة تسري في سلوكه أو تظهر في أعضائه وقواه. فهذه عبوديّة للنفس والشيطان. ولكنّ هذا الإنسان لا ينبغي أن ييأس من الله لأنّ الله سبحانه أكرم من أن يضيّع أو يطرد من جاء إليه يسأله. ولكنّ وضع مثل هذا الإنسان يختلف كثيرًا عن ذلك الذي يسري حقيقة العبوديّة في جميع أعماله وسلوكه، ويتقدّم على طريق العبوديّة ولا يغفل لحظةً واحدةً عن أداء الوظائف وخدمة الخلق والخالق. فمثل هذَين في الدعاء كمن يريد أن يرمي سهمًا، فالأوّل يرميه بدون وترٍ، ولهذا فإنّ رميته تكون قصيرةً ولا يصيب الهدف، والثاني يرمي مع وتر وسيكون مداه أبعد ويصيب هدفه. مثل الذي يدعو ولا يقرن ذلك بالعمل الصالح مثل ذلك الذي يرمي سهمًا بلا وتر. فمن المؤكّد أنّ سهمه لن يبلغ مداه.

وممّا ذكرنا يتّضح مقام الدعاء ودوره في حياة الإنسان، ويتّضح أيضًا أنّ الدعاء

كالملح إذا أضيف إلى الطعام. ينبغي أن تكون حياة الإنسان عبارةً عن حالة دائمة من العبوديّة في كلّ شيء وأن تكون أعماله عبادةً لله تعالى سواءٌ في شؤونه الفرديّة والشخصيّة أو في ما يتعلّق بعلاقاته الأسريّة ومع جيرانه بل ما يتعلّق بكلّ مجتمعه وبما يرتبط بمخلوقات الله.. فينبغي أن تتجلّى آثار العبوديّة في سلوكه العام وفي هذه الأثناء فإنّه يدعو أيضًا. ذلك لأنّ الدعاء بذاته عبارة عن تجلّي العبودية وظهورها على اللسان. ولا شكّ بأنّ هذا الطلب والتوجّه (الذي هو حقيقة الدعاء) ينبغي أن ينبع من أعماق القلب.

والنقطة الأخرى التي تظهر في كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هي أنّ الإنسان سيكون أسرع وصولًا إلى ما يريده في الدعاء بالعمل الصالح. فحين يدعو يكون كمن يرمي بالقوس والوتر فيصيب هدفه بشكلٍ أسرع. إنّه مثل ذلك الذي يعدّ طعامه ولا يبقى سوى إضافة الملح إليه ليكون جاهزًا للأكل. فأعمال الإنسان الصالحة تحقّق رغباته.

ولا شكّ بأنّ حاجات الناس متفاوتة: فأولئك الذين وصلوا إلى أعلى مراتب العبوديّة تكون حاجاتهم في أعلى المستويات كطلب قرب الحقّ والغنى عن الخلق والهداية إلى سعادة الدنيا والآخرة ودوام النعم. فهؤلاء يؤمنون بأنّ الله وحده هو الذي يؤمّن حاجاتهم دون سواه. أمّا أولئك الذين لم يعبروا المراتب الأوليّة للعبوديّة والمعرفة، فإنّهم مستغرقون في حاجات بطونهم وأمور معيشتهم من اللباس والمسكن وغير ذلك، ولهذا تتمحور طلباتهم حول هذه الأمور. ومن الواضح أنّ الله تعالى سيعطيهم ما يسألون.

وفي الواقع، فإنّ حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يعدّ نوعًا من التشجيع والحثّ على أن ينهض الإنسان لإصلاح نفسه وأداء وظائفه، ففي هذه الحالة، سيصل سريعًا إلى أهدافه ويستجيب الربّ تعالى دعاءه. ولا فرق عندئذ بين أن يكون دعاؤه لنفسه أو لغيره، أو تكون حاجاته دنيويّةً أو معنويّةً وأخرويّةً.

فالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يشجّع الآخرين على أعمال الخير وإن كانت الآثار الواقعيّة والثواب اللائق والحقيقيّ لأعمال الخير ستظهر في الآخرة. لأنّ هذه الدنيا ليست إلّا محلًا للعمل. وأما الثواب الحقيقيّ على الأعمال فسوف يكون في الآخرة: «وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل»[1].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ٤٢، الصفحة ٩٣.

وفي حديثٍ آخر ورد قول علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدنيا مزرعة الآخرة»[١].

فهنا يوضع البذر وفي الآخرة تُنال المحاصيل. ولكنّ الله تعالى قد يُظهر من باب لطفه اللا متناهي بعض آثار الأعمال في هذه الحياة الدنيا ويفيضها على الصالحين، لكي يسارعوا في أعمال الخير وأداء التكاليف. هذا وإن كان أولئك الذين وصلوا إلى أعلى الدرجات من الكمال مستغنين عن هذا التشجيع، كما أنّهم لا يحتاجون إلى ظهور الآثار ليزدادوا يقينًا: «...لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا...»[٢] .

فأولئك الذين لا زالت الحجب والأستار تغطّي أعينهم، يحتاجون إلى التشجيع لكي ينهضوا للقيام بحقيقة وظائف العبوديّة، ويسيروا على طريق الكمال. ومن بين هذه الأمور المشجّعة ما يُظهره الله تعالى من آثار الخير والبركات في هذه الدنيا وينزله على أهلها ويستجيب أدعيتهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾[٣].

بركات وجود الصالحين

وأعلى ممّا ذكر لحدّ الآن، ما ورد في الجملة اللاحقة من حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في بيان آثار العمل الصالح ممّا لا يُتوقّع أو يدخل في مخيّلة الإنسان: «يا أبا ذر إنّ الله يُصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته والدور حوله ما دام فيهم».

إنّ أهل العبوديّة محفوظون من الأخطار في هذا العالم بحفظ الله. وببركة وجودهم فيه يحفظ الله أولادهم وأحفادهم. بل إنّ ذلك يتعدّاهم ليشمل أهل الحيّ أو المنطقة التي يسكنون فيها من كلّ بلد هم فيه. وهكذا يشعّ وجودهم بالبركات المعنويّة والتوفيقات الإلهيّة على من يحيط بهم من الناس، كلّ ذلك بحسب سعتهم الوجوديّة. فالأشعة الوجوديّة للمؤمنين ليست متساويةً. فبعضهم يقتصر في علاقته على الأهل والعيال. وبعضهم قد يتعدّى ذلك إلى الحيّ

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤٠، الصفحة ١٥٣.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ٩٦.

والجيران. والبعض الآخر قد يصل إلى أهل المدينة، بل أهل البلد. وكلّنا يعلم أنّ الإمام الراحل (قدس سره) كان له ارتباطٌ بكلّ الشعب الإيرانيّ بل بجميع المسلمين لا بل بكلّ المستضعفين في العالم. فشعاعه الوجوديّ قد عبر المدينة التي كان يسكن فيها ليتجاوز إيران ويشمل العالم. فببركة هذا الإنسان الصالح شمل الله تعالى بعنايته ملايين البشر.

أجل، فإنّ الله تعالى لا يحفظ الإنسان الصالح بنفسه، أو يباركه ويستجيب دعاءه لنفسه، أو يبعد عنه ألوان البلاء فحسب، بل إنّ خيره وبركات وجوده تشمل الآخرين من الأولاد وأهل المحلّة وأهل البلد ويدفع الله به البلاء عن الجميع.

فهذا الدور العظيم والأثر الكبير للعبد الصالح يلفت النظر إلى أنّ السير في طريق الله كطاعته يمثّل إكسيرًا عظيمًا تعمّ بركاته ما يتعدّى ساحة وجود هذا الإنسان ليشمل الآخرين.

ألا يجدر والحال هذه أن يقوم الإنسان بدلًا من الانشغال بالأعمال التي قد يُرجى منها الأثر ولكن لا يُعلم نتيجتها، وبدل أن يتحمّل المشقّات الدنيويّة الكثيرة على أمل أن يحصل على ثمرتها، فإنّه يتّجه إلى إنفاق أيّام عمره في أداء التكاليف الإلهيّة فيحصل بذلك على حاجاته الدنيويّة وينال نعم الآخرة ويشمل بالبركات الإلهيّة وجوده ووجود عياله وأبنائه ومن يليهم بل وحتى جيرانه وأهل مدينته وبلده!! فهل هناك ما هو أكثر نفعًا من هذا؟!

فهل يصل أهل التجارات والتكسّب إلى كلّ ما يرجونه في الدنيا؟ فأحيانًا يربحون وأحيانًا يخسرون. وحتّى إذا ربحوا فماذا ينالون؟! غاية الأمر أنّهم في هذه الدنيا لبضعة أيامٍ يتنعّمون.

وكما ذُكر، فإنّ دعاء عبدٍ صالحٍ قد يحفظ أهل مدينةٍ من البلاء ويؤدّي إلى نزول البركات عليهم. ولا شكّ أنّه بفضل وجود أولياء الله والصالحين قد دفع الله عنّا الكثير من البلاءات وأفاض علينا بفضل أدعيتهم ما لا يُحصى من التوفيقات. ونحن في معظم الأحيان لا اطّلاع لنا على ذلك. ولربما فعل أبوك خيرًا وبسببه لا زلت إلى اليوم موفّقًا. وهكذا أساتذتنا وكبارنا الذين يدعون لنا، أو جيراننا والمؤمنون الذين يقومون في الليالي ويدعون لنا: فبفضل أدعيتهم ننال التوفيقات ونصان من البلاءات.. فماذا نعلم عن مصدر هذه البركات والنعم، وبفضل أيّ

شخصٍ أبعد الله عنّا تلك البلاءات؟! وهل نعلم شيئًا عن أدعية الليالي الصادرة من عباد الله الصالحين، وأيّة بركاتٍ تترتّب عليها؟

هذا، وقد ذكر الله تعالى في كتابه، وكذلك ما ورد في الروايات، أنّ الله تعالى ببركة الصالحين يتفضّل على من سواهم، فيدفع عنهم البلاء.

ففي قوله تعالى من سورة **البقرة** الآية ٢٥١، نجد شاهدًا على هذا الكلام حيث يؤكّد: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وقد ورد عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في رواية يونس بن ظبيان قوله: «إنّ الله يدفع بمن يصلّي من شيعتنا عمّن لا يصلّي من شيعتنا ولو أجمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وإنّ الله يدفع بمن يصوم منهم عمّن لا يصوم من شيعتنا ولو أجمعوا على ترك الصيام لهلكوا، وإنّ الله يدفع بمن يزكّي من شيعتنا عمّن لا يزكي من شيعتنا منهم ولو أجمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإنّ الله يدفع بمن يحجّ من شيعتنا عمّن لا يحجّ منهم ولو أجمعوا على ترك الحجّ لهلكوا، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ... ﴾ فوالله ما أنزلت إلّا فيكم ولا عنى بها غيركم»[1].

ولو التفتنا إلى دور الصالحين في المجتمع، والبركات التي تنزل على الناس بفضل وجودهم: من نعمٍ ودفع بلاءات، لكان ينبغي أن نعلم أن أعظم الناس وخير المرسلين خاتمهم محمّدً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي له علم الأوّلين والآخرين وقد جمع في صفاته كلّ كمالٍ معنويٍّ وكذلك الأئمّة الأطهار المعصومون عن كلّ خطأ ومعصية يمثّلون منبع جميع البركات الإلهيّة بحيث أنّ من سواهم عيالٌ عليهم. كما ورد في الحديث أنّ الله تعالى يقول: «وعزّتي وجلالي لولاك ما خلقت الأفلاك»[2].

وكذلك أئمّتنا الأطهار الذين بوجودهم يُحفظ العالم، وبهم تنزل البركات، وبهم يُدفع البلاء، لأنّهم حجج الله. ولو خلا العالم من حجة الله لفني عن بكرة أبيه، كما قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نحن أئمّة المسلمين وحجج الله على العالمين...

---

(١) محمّد بن مسعود العياشي، **تفسير العياشي**، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي (طهران: المكتبة العلميّة الإسلاميّة، لا تاريخ)، الجزء ١، الصفحة ١٣٥.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٥، الصفحة ٢٨.

ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها، ثمّ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها ظاهرٍ مشهور أو غائبٍ مستور ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة الله فيها ولولا ذلك لم يُعبد الله. قال سليمان: فقلت للصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب»[١].

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢٣، الصفحتان ٥ و٦.

الدرس السابع والعشرون

مقام ومنزلة العبد الصالح عند الله

- ملاك رفعة وأفضليّة الإنسان
- دور عاملَي الاستقلال والإخلاص

«يا أبا ذر، إنّ ربّك عزّ وجلّ يُباهي الملائكة بثلاثة نفر: رجلٌ في أرض قفر فيؤذّن ثمّ يقيم ثمّ يصلي، فيقول ربّك للملائكة: انظروا إلى عبدي يصلي ولا يراه أحدٌ غيري فينزل سبعون ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم، ورجلٌ قام من الليل فصلّى وحده فسجد ونام وهو ساجدٌ، فيقول تعالى: انظروا إلى عبدي، روحه عندي وجسده ساجدٌ، ورجلٌ في زحفٍ فرّ أصحابه وثبت هو ويقاتل حتّى يُقتل».

والمعنى العام المستفاد من هذا القسم من حديث النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ هو أنّ الله تعالى يباهي الملائكة بثلاث فئات من عباده. أمّا ما يتعلّق بمعنى هذه المباهاة الإلهيّة وكيف تتحقّق فسوف تبقى ملفوفةً ببعض الغموض بالنسبة لنا. وما يُستفاد من هذا القسم: هو أنّ هذه الفئات الثلاث من عباد الله مقامهم أعلى من الملائكة، وقد أراد الله تعالى أن يظهر مقامهم السامي للملائكة.

ملاك رفعة وأفضليّة الإنسان

ولا شكّ أنّ الله تعالى يختصّ الإنسان من بين مخلوقاته بمجموعة من الخصائص والامتيازات التي لا نجدها في سائر الموجودات. فمن بين الموجودات الماديّة منح هذا الإنسان العقل والفهم والوعي حتّى أنّه أكرمه وسخّر له البرّ والبحر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٠.

هـذا، بالإضـافة إلى أنّ الله تعالى خلق الإنسان كموجودٍ مختار: بإرادته يسلك طريق السعادة أو الشقاء. وحباه بالفطرة الإلهيّة التي يمكنه بواسطتها أن يتّجه نحو تحصيل جميع القيم السامية والفضائل والكمالات الإلهيّة، وبها يتبيّن له طريق السعادة. ولكنّ تلك الكرامة التكوينيّة للإنسان لم ترفعه فوق الملائكة، ولم يكن عامل الاختيار والإرادة كذلك.. لأنّه من الممكن أن يسلك بهذا العنصر القيّم (للاختيار والانتخاب) طريق الطغيان والشقاء بدلًا من طريق السعادة والفلاح، وينحرف عن طريق الحقّ ويسقط في الضلالة ليمسي شرّ المخلوقات: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

فما يكون سببًا لعلوّ مقام الإنسان على الملائكة ويؤدّي إلى أفضليّته: هو عمله بأوامر الله وسعيه في طريق التكامل الإنسانيّ والمعنويّ، ووصوله إلى الكمال المطلوب. أي عبوره طريق السعادة بوسيلة فطرته الإلهيّة، ودوسه على أهوائه النفسانيّة، وقيامه بتعديل غرائزه الماديّة والسيطرة عليها. فالإنسان الذي لديه دوافع القوى الماديّة والحيوانيّة التي توجّهه دائمًا إلى الماديّات واللذائذ الحيوانيّة، حين يسيطر على قواه الحيوانيّة ويختار الحقّ عند صراعه مع الباطل، ويعمل على أساس الفطرة سيكون مسجود الملائكة ويصبح مقامه أعلى من مقاماتها. لهذا، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقول في هذا الحديث: «يا أبا ذر إنّ ربّك عزّ وجلّ يباهي الملائكة بثلاثة نفر: رجلٌ في أرض قفرٍ فيؤذّن ثمّ يقيم ثمّ يصلّي، فيقول ربّك للملائكة: انظروا إلى عبدي يصلّي ولا يراه أحدٌ غيري فينزل سبعون ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم».

فالذي يرفع الآذان والإقامة وسط صحراء قاحلةٍ لا ماء فيها ولا كلأ، وحيدًا بعيدًا عن أعين الناس، ثمّ يصلّي ولا يقول في نفسه: بما أنّني وحيدٌ هنا، فلأكتفِ بالواجب من الصلاة دون الآذان والإقامة المستحبّين طالما أنّه ما من أحدٍ ليسمعني. ففي مقام الطاعة والعبوديّة لله قد أدّى صلاته مراعيًا جميع آدابها، ولهذا فإنّ الله تعالى يباهي به الملائكة، ثمّ ينزل سبعون ألف ملكٍ يصلّون خلفه ويستغفرون له.

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٥٥.

والشخص الثاني الذي يباهي الله به ملائكته: «ورجلٌ قام من الليل فصلّى وحده فسجد ونام وهو ساجدٌ، فيقول تعالى: انظروا إلى عبدي، روحه عندي وجسده ساجدٌ».

فالذي يقوم في الليالي من فراشه المريح الدافئ ويقطع نومه الهانئ ليقوم إلى العبادة والمناجاة مع الحقّ تعالى ثمّ يستغرق في مناجاة معبوده ولا يرفع رأسه من السجود إلى أن يسيطر عليه النوم، فإنّ الله تعالى يقول لملائكته انظروا! إنّ عبدي هذا قد قام من نومه المريح بعيدًا عن أعين الناس ليعبدني ويناجيني وها هو ذا يطيل في عبادته حتّى يتعب وينام في سجوده من شدّة التعب. فروحه عندي ولكنّ جسده ساجدٌ. وإنّما قال تعالى «روحه عندي»، لأنّ روح الإنسان أثناء النوم تذهب إليه سبحانه. وهو ما أشير إليه في القرآن المجيد: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...﴾[١].

ففي الرؤية القرآنيّة، يكون المؤمن الواقعيّ هو من ينهض من نومه في منتصف الليل لعبادة الله، ويحرّم على نفسه النوم في ذلك الوقت الخاصّ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾[٢].

أجل، فإنّ إقامة الصلاة بعيدًا عن أعين الناس والسجود طويلًا والخضوع لله تعالى، يؤدّي إلى مباهاة الحقّ تعالى.

الشخص الثالث الذي يباهي الله به ملائكته: «ورجلٌ في زحفٍ فرّ أصحابه وثبت هو ويقاتل حتّى يُقتل».

إنّ الله تعالى يباهي بهذا البطل المجاهد الذي صمد بعد هزيمة أصحابه وفرارهم أمام العدوّ وبقي يقاتل وحده ويواجه الأعداء حتّى الرمق الأخير. هذا مع أنّه كان قادرًا على الفرار كغيره والنجاة بجلده، ولكنّه رجّح أن يستشهد في سبيل الله تعالى. وإنّ الله تعالى يباهي بوجود هذا الذي يقف في مواجهة الأعداء

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٢.

(٢) سورة **السجدة**، الآية ١٦.

وحيدًا فريدًا دون ناصرٍ ويقاوم رغم أنّه لم يكن واجبًا عليه في مثل هذه الحالة: ففي صدر الإسلام كان الحكم في البداية أنّ على كلّ واحدٍ من المسلمين أن يقاوم ويواجه عشرةً من مثله. ثمّ خفّف هذا الحكم وأضحى «رجلًا مقابل رجلَين». ولكن إذا فرّ الجميع وبقي المجاهد وحيدًا، فلا يجب عليه أن يستمرّ في القتال ويصمد في المواجهة. ولا شكّ أنّ الفرار من المعركة في الوقت الذي يمكن فيه مواجهة الأعداء يُعدّ معصيةً كبيرةً. وقد نهى القرآن الكريم بصراحةٍ عن الفرار، وعدّ ذلك سببًا لحلول غضب الله تعالى وأعدّ للفارّين من الزحف جهنّم وبئس المصير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١].

ومن هذا القسم في حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، يمكن استنباط الكثير من الدروس منها: إنّ مباهاة الله تعالى ملائكته ببعض عباده يعني أنّ لهؤلاء العباد خصائص تتمتّع بأهميّةٍ كبيرةٍ عند الله، ولو كان هناك خصائص أخرى تزيد من كمال الإنسان وتقرّبه من الله أكثر، ولها مثل هذه القيمة عند الله، لكان النبيّ قد ذكرها. فحين يريد سبحانه أن يعرّف المقام المنيع لبعض عباده إلى ملائكته ويباهي بهم، فإنّه تعالى يذكر أفضل تلك القيم والكمالات. والآن يجب أن ننظر إلى تلك الفئات الثلاث من عباد الله ذلك الذي يصلّي في الصحراء بعيدًا عن أعين الناس ويراعي في صلاته آدابها ومستحباتها، وذلك الذي يقوم في منتصف الليل من فراشه الوثير للعبادة والمناجاة وذلك الذي يصمد أمام الأعداء وحيدًا ويقاتل حتّى آخر رمقٍ لينال مقام الشهادة لكي نرى أيّة خصائص قد حازوا؟ وما هي القواسم المشتركة بينهم، حتّى صاروا مورد عناية الله تعالى بحيث رفع منزلتهم؟

من المسلّم أنّ للعديد من الأعمال، كإنفاق المال في سبيل الله أو الإيثار بما هو محتاجٌ إليه أو العبادات الأخرى والأعمال الصالحة التي أوصى بها الشرع المقدّس، قيمةٌ خاصّة وهي تؤدّي إلى تحقّق الكمال الإنسانيّ، ولكن ينبغي أن نعرف ما هي الخصوصيّة الجامعة في هذه الفئات الثلاث وما هو العنصر المشترك

---

(١) سورة **الأنفال**، الآيتان ١٥ و١٦.

بينها حتّى حازت على هذه المرتبة من العلوّ والتأكيد؟

إنّ الخصوصيّة أو العنصر المشترك بين هذه الفئات الثلاث هو استقلالهم وتفرّدهم. فإنّ الشخص الأوّل كان يعبد الله وحيدًا بعيدًا عن أعين الناس وكذلك الشخص الثاني فهو ينهض وحده في الليل، وهكذا الثالث الذي وقف وحيدًا مقابل الأعداء.

فالله تعالى لا يباهي بذلك الذي يصلّي في المسجد الجامع مع ما له من الثواب في صلاته. بل يباهي بذلك الذي يصلّي وحيدًا في الصحراء أو يقاتل وحيدًا بعد فرار أصحابه ويحمل على الأعداء دون هوادة. هذا مع أنّه من الممكن أن يكون هناك من قد شارك في عشرات العمليّات العسكريّة، وهو يتميّز بالإقدام والشجاعة الكبيرة وقد حقّق الكثير من الانتصارات والمفاخر. ومع ذلك، فإنّ التركيز هنا على ذلك الذي بقي وحيدًا، وهو لا يتهاون في أداء تكليفه.

دور عاملَي الاستقلال والإخلاص

أ. عامل الاستقلال

يؤدّي عاملا الاستقلال (عدم التأثّر بالآخرين) والإخلاص إلى الحصول على هذه المنزلة الرفيعة، الكامنة في هذا الإقدام المنفرد لهؤلاء الأشخاص الثلاثة.

وفي بيان العامل الأوّل أي الاستقلال ينبغي أن نقول: إنّ أغلب الناس يقعون تحت تأثير تلقينات وتصرّفات الآخرين. فمن مميّزات الطبيعة الإنسانيّة أنّ الإنسان حين ينظر إلى غيره ويرى الذين حوله يتحرّكون في مسيرٍ ما أو يتصرّفون بطريقةٍ ما فهو يفعل مثلهم ويمشي وفق طريقتهم. وكأنّ هذا البعد يصبح عاملًا محرّكًا لهذا الإنسان لاختيار مسيره وحركته: فحين يرى مجموعةً من الناس تسلك طريق الخير والصلاح فإنّه يتبعهم. ولا شكّ بأنّ هذه التبعيّة والتأثّر تحكي عن ضعف في هذا الإنسان. وقد جعل الله تعالى هذا العامل في البشر لكي يختار الضعفاء من الناس الطريق الصحيح باتباع الصالحين. هذا وإن كان في الأمر جانب سلبيّ حيث يكون هؤلاء عرضةً للتأثّر بالأجواء المنحرفة أيضًا. وما أكثر ما تؤدّي التبعيّة للغير إلى وقوع الإنسان في الضلالة وسلوك طريق الباطل. ثمّ مع تغيّر الظروف والأوضاع، نراه

يتلوّن بلونٍ آخر ولكي لا يُفتضح يتّخذ صبغة الجماعة. والله تعالى يقول في كتابه في مقام ذمّ هؤلاء التابعين الضعفاء الذين يتحرّكون وراء أهل الباطل بدون تفكّرٍ وتأمّلٍ ويعطون غيرهم زمام قيادهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[١].

ولا شك بأنّ على الجاهل بالأحكام الإلهيّة والوظائف الشرعيّة أن يسأل العالم سواءٌ كان جهله بحكم الله أو بنفس موضوع الحكم (وهذا هو التقليد للفقيه والعالم بالدين). ولا شكّ بأنّ مثل هذا الشخص الذي يتعرّف على أحكام الله بالتقليد لا يتساوى مع ذلك الذي يجتهد لاستنباط الأحكام الإلهيّة من مصادرها. ذلك لأنّ معرفة المجتهد والعالم استقلالية، ومعرفة الجاهل تحصل بالتقليد. وبين هاتَين المعرفتَين تفاوت كبير، ولا شكّ بأنّ المعرفة الاستقلاليّة أعلى وأكمل.

كذلك فيما يتعلّق بالموضوعات وخاصّةً الموضوعات الاجتماعيّة، فإنّ أكثر الناس ليس لديهم اطلاعٌ كافٍ عليها. لهذا، فإنّهم مضطرّون للرجوع إلى العالم المحيط بها واتباعه. وهذه التبعيّة إذا لم تكن خارجةً عن مسير الحقّ فإنّها لا تكون مذمومةً ومرفوضةً. أمّا ذاك الذي أضحى عالمًا يحمل بيده مشعل الهداية، ويضيئ الطريق لآخرين، فإنّ له المقام والمنزلة الأعلى.

وإذا تجاوزنا مرحلة المعرفة الاستقلاليّة، فإنّ هناك ما هو أهمّ وأولى، وهو الاستقلال في مرحلة اتّخاذ القرار والعمل: فأحيانًا يتعرّف الإنسان على الموضوع باجتهاده أو من خلال التقليد، ولكن ليس معلومًا إذا كان سيعمل بما علم إذا كان وحده. أجل، إذا كان بين جماعةٍ من الناس، وخاصّةً إذا كان عددهم كبيرًا، فإنّه يقدم ويعمل وربما بكلّ حماس. ولكنّه حين يكون وحيدًا فهو يضعف ويتكاسل. وفي هذا المجال، يوجد العديد من النماذج التي نشاهدها في حياتنا اليوميّة: فإذا كان هناك مدرسة علميّة يسكنها الطلبة، ثمّ أقيمت فيها مراسم دعاء كميل في ليالي الجمعة المباركة، فإنّ البعض، إذا شاهد الجميع يسارعون إلى الحضور والدعاء، فسيرغب بالمشاركة ويقبل عليها. أمّا إذا حان وقت العطلة الدراسية، وسافر الجميع إلى قراهم، فنحن نجده يستصعب كثيرًا مجرّد قراءة دعاء كميل وحده.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٧٠.

وهكذا فيما يتعلّق بأداء أعمال الخير الأخرى، حين يرى أمثال هؤلاء أنّ غيرهم يقوم بها، فإنّهم يتحفّزون إليها، وحين يبقون وحدهم فإنّهم يجدون آلاف الأعذار للتقاعس والكسل وتضعف فيهم القدرة على اتّخاذ القرار.. نجدهم يبحثون عن أيّ عذرٍ لكي يبرّروا به عدم القيام بتلك الأعمال.. كذلك حين يسدل الليل ستاره، فيرى الضعيف غرف زملائه الطلّاب مضاءةً حتّى وقتٍ متأخر، وهم مشغولون بالدرس والمطالعة، فإنّه يتشجّع ويجد في نفسه القدرة للبقاء إلى آخر الليل في الدراسة. ثمّ إذا عطّلت المدرسة، ولم يبق فيها أحدٌ، فإنّه يملّ بسرعة ويضجر.

وما ذكر ليس إلّا نماذج قليلة، وقد فاتنا الكثير ممّا هو منتشر في سلوكيّاتنا الاجتماعيّة والسياسيّة. إنّ سبب هذا الوهن والتبعيّة للآخرين يرجع إلى ضعف الإرادة والإيمان. فهل أنّ العمل يصبح قيّمًا إذا قام به الآخرون، ثمّ يسقط عن القيمة إذا أعرضوا عنه؟!

فإذا كان لدعاء كميل فضيلة وثواب حقًّا، فينبغي أن نسارع إليه في خلواتنا ولا نقتصر على قراءته فقط حين تُقام مجالسه. فهذا علامة على ضعف الإنسان الذي بمجرّد أن يشاهد غيره يقرأ دعاء كميل أو يشاهد مجالسه الجماعيّة أو يرى الناس يتحرّكون نحو صلاة الجمعة، فإنّه يتحفّز لذلك. فمثل هذه الخصوصيّة لن تكون سببًا لمباهاة الإنسان. إنّ العمل يصبح سببًا للمباهاة، حين يؤدّيه الإنسان وحده، ولا يشاركه فيه أحد، ويعمل بما يراه تكليفه دون أن ينتظر غيره ليقوم به أو يشاركه.

فحين أعلم أنّ الله أمرني بعملٍ ما، فعليّ أن أسارع إلى أدائه دون أن أبالي بوجود من يقوم به أو عدمه، لأنّ عدم مشاركتهم أو قيامهم به لا يسقطه عن اعتباره وقيمته. وفي هذه الحال، يكون الإنسان صاحب إرادة قويّة، وبهذا الإيمان القويّ يؤمن بتكليفه. لهذا، فإنّه يتّخذ قراره بصورةٍ مستقلّة عن غيره، وذلك حين يريد أن يقوم بعمله سواء وجد الآخرين من حوله أم لا. ومن المسلّم أنّ الاستقلال في اتّخاذ القرار له أهميّةٌ فائقة حيث إنّ هذا الشخص في قراره لا ينتظر غيره ليرى أيّ طريقٍ سيختارون، حتّى يختاره هو أيضًا. فمن كان صاحب إرادةٍ وإيمانٍ قويّين، إذا عرف تكليفه وأدرك أنّه يحقّق رضا الله، فإنّه يقوم به ولا ينتظر الآخرين.

وهذا جابر بن يزيد الجعفي أحد أصحاب سرّ الأئمّة عليهم السلام الذي ينقل عن الإمام الباقر عليه السلام الكثير من الروايات. والكثير من الروايات التي سمعها جابر من

الإمام كانت تُعدّ من الأسرار ولم يكن جابر مجازًا بنقلها للآخرين. ولأنّه لم يكن قادرًا على نقل تلك المعارف العميقة لعطاشى المعرفة فقد صار صدره ضيّقًا حتّى جاء إلى الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له: «جعلت فداك إنّك قد حملتني وقرًا عظيمًا بما حدّثتني به من سرّكم الذي لا أحدّث به أحدًا فربما جاش في صدري حتّى يأخذني منه شبه الجنون، قال يا جابر فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبال فاحفر حفيرةً ودل رأسك فيها ثمّ قل حدّثني محمد بن علي بكذا وكذا»[١].

وبعدها صار جابر يذهب إلى البئر ويحدّث بما سمعه من الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ حتّى يسهل عليه الأمر. ومن جملة الروايات القيّمة التي نقلها جابر عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الرواية التي يقول فيها: «... واعلم بأنّك لا تكون لنا وليًّا حتّى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنّك رجل سوء لم يحزنك ذلك ولو قالوا: إنّك رجل صالح لم يسرّك ذلك ولكن اعرض نفسك على ما في كتاب الله فإن كنت سالكًا سبيله، زاهدًا في تزهيده، راغبًا في ترغيبه، خائفًا من تخويفه فاثبت وأبشر فإنّه لا يضرّك ما قيل فيك ...»[٢] .

فالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يأمر جابرًا بالاعتماد والتوكّل على الله، بحيث إذا مُدح أو ذُمّ من قبل الناس فإنّه لا يؤثّر فيه ذلك ولا يوجد فيه حالةً من الفرح والسرور، ولا يغيّر من سلوكه، بل يعرض سلوكه على كتاب الله. فإذا رأى سلوكه مطابقًا لما أمر الله فإنّه يفرح ويشكر ربّه عليه، وإذا رآه يخالف القرآن فإنّه يحزن، لأنّ الله لن يكون راضيًا عنه.. فالملاك في الفرح والسخط هو «أوامر الله وكتاب الله» لا رضا الناس ولا سخطهم.

فإذا كان الإنسان في مقام اتّخاذ القرار، يمتلك الكفاءة العلميّة الكافية فإنّه لتشخيص التكليف ينبغي أن يكون مستقلًّا غير تابعٍ للآخرين. فليفكّر بعقله الذي وهبه الله إيّاه ثمّ يبحث في القرآن والروايات لتعيين تكليفه دون أن يكترث لما يقوله الآخرون. ثمّ ليعمل به حين يحين وقته، دون أن ينتظر مشاركة الآخرين أو مساعدتهم. بل حتّى لو كان في مواجهة الأعداء، وتُرك وحيدًا (ولو لم تكن المقاومة حينئذٍ واجبةً) ثمّ وجد أن مقاومته وقتاله سيكون سببًا للمزيد من رضا الله، فإنّه

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٩، الحديث ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٧٥، الصفحتان ١٦٢ و١٦٣، الحديث ١.

لن يتوانى عن الهجوم على الأعداء هجمة رجل واحد، ولو علم أنّه سيكون شهيدًا. ومن المؤكّد أنّ لمثل هذه الفتوّة والثبات قيمة عظمى، حين يبقى المرء ثابتًا على مبادئه ودفاعه ونصرته للحقّ، سعيًا نحو تحقيق الأهداف.. فوحدته هذه واستقلاله من بين الناس، يكون سببًا لمباهاة الله ملائكته. وفي هذا المجال، يقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها ...»[1].

فالعامل الأوّل هو أنّ الله تعالى يحبّ للمؤمن أن يكون مستقلًّا في تشخيص تكليفه ومعرفته، ويحبّه أن يكون كذلك في مجال التطبيق والعمل، دون أن ينتظر شيئًا من الآخرين، ودون أن يكون نظره متوجّهًا إلى أن يكون مثل الآخرين. وممّا ذكر لا ينبغي أن يُتوهّم أنّ على الإنسان أن يكون وحده دائمًا ويتحرّك خلاف الآخرين بحيث إذا رآهم يقومون بشيء فإنّه يفعل ضدّه ونقيضه!! فهذه النفسيّة من الصفات الذميمة والسلوكيّات المبغوضة التي تدلّ على حماقة صاحبها. فالحديث يدور حول مقام اتّخاذ القرار وتحديد الوظيفة والعمل بها دون انتظار التشجيع من أحد أو مشاركته أو توافقه معه. فإذا شخّص تكليفه، ثمّ رأى الآخرين يقومون به معه فهذا أمرٌ جيّدٌ جدًّا.

ولا ينبغي أن يكون الإنسان عند تشخيص التكليف ممّن إذا أدرك خطأه، فإنّه يصرّ عليه .. فإنّ هذا من الأخلاق الذميمة. بل عليه أن يكون في أخلاقه وتعامله وتفكيره صاحب تفكّر دائم وأن يجدّد التفكّر فيما يقوم به بحيث لو علم أنّه أخطأ فإنّه يعترف بذلك بمنتهى المسؤوليّة، ولا يصرّ على رأيه أو فعله. فالمؤمن هو الذي يقوم بما يعلم أنّه حقّ.

ب. عامل الإخلاص

والعامل الثاني الذي كان سببًا لهذه المباهاة هو الإخلاص. فالذي يصلّي في البوادي القفر وحيدًا لن يكون في عمله هذا شائبة من رياء. فما من أحدٍ حوله حتّى ينظر إليه أو ينقل ما يراه للآخرين. وهكذا من الطبيعيّ أنّ الإخلاص في هذا العمل

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الكتاب ٤٥، الصفحة ٧٣.

سيكون أعلى وأشدّ ممّا لو كان هناك جماعةٌ تطّلع عليه.

فلو كان الإنسان يصلّي في محضر جمعٍ ويسعى لمراعاة كافّة آداب الصلاة، لكان ذلك مرتعًا للشيطان ووساوسه. لأنّ الشيطان ماكرٌ، ومهما كان الإنسان قد بنى نفسه، فقد يتغلّب عليه!! وحين يكون في محضر الناس ويقيم الصلاة، فقد يظهر في قلبه الرياء، ويرغب بأن ينظر الآخرون إلى عمله أو يسمعوا صوته. أمّا حين يكون في الصحراء وحيدًا ثمّ يرفع الآذان والإقامة بنفسه، ويصلّي وحده فمن غير المتوقّع أبدًا أن يشوب عمله الرياء. أو ذاك الذي يقوم في وسط الليالي بعيدًا عن أنظار الناس، ويتعبّد لله ويسجد له سجودًا طويلًا حتّى يغلبه النوم من شدّة التعب! فليس ممكنًا أن يرائي، لأنّه لا يوجد أيّ إنسان حوله ليطّلع على عمله.

وذاك الذي بقي في ميدان المعركة وحيدًا فريدًا، وهو يواجه العدوّ بشراسة، لا يتوقّع أبدًا أن يرائي فما من عين تنظر إليه في بطولته وبسالته حتّى تخبر عن شجاعته وتحدّث بما رأته من ثباته.. ولا يُتوقّع من العدوّ حتمًا أن ينقل فضائل عدوّه. فقصد الرياء والتظاهر لن يكون موجودًا في نفس هذا الشخص. وبناءً عليه، كانت هذه الخصوصيّة المشتركة التي شاهدناها في هذه الفئات الثلاث، سببًا للمباهاة. وهي غاية الإخلاص التي ظهرت في أعمالهم وطهّرتهم من لوث الرياء والتظاهر.

وكما لاحظنا فإنّ طبيعة عمل هذه الفئات الثلاث يمكن أن تتشابه مع عمل الآخرين بالشكل. فالذي جعل مثل هذا العمل متميّزًا ومتّصفًا بتلك القيمة الجوهريّة التي سبّبت أن يكون مورد مباهاة الله لملائكته هو الإخلاص الذي يدفع صاحبه للقيام بهذا العمل لله وحده. لهذا، نجد أنّ القرآن الكريم والروايات الشريفة قد بيّنت أنّ الإخلاص يؤدّي إلى ارتفاع العمل إلى الله وقبوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1].

وجاء في الحديث الشريف: «ما أخلص عبدٌ لله أربعين صباحًا إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2].

---

(١) سورة **الزمر**، الآيتان ٢ و٣.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ٢٤٢ و٢٤٣.

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١]، يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليس يعني أكثركم عملًا ولكن أصوبكم عملًا وإنّما الإصابة خشية الله تعالى والنيّة الصادقة الحسنة ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ والنيّة أفضل من العمل ...»[٢].

فبالالتفات إلى ما ذكر، من الممكن أن تكون بعض أعمالنا ذات فضيلة ولها ثوابٌ عظيم مثل الصلاة جماعةً والتي جاء بشأنها في الروايات من الثواب ما لا يقدر على إحصائه الملائكة مجتمعين. ولكن لن يكون معلومًا أنّ الإخلاص في مثل هذه الصلاة سيساوي إخلاص المصلّي في الصحراء وحيدًا. وعلى أيّ حال، فإنّ الشيطان يوسوس للإنسان، ولن يدعه ليخلص في عمله. والشاهد على ذلك أنّ الإنسان حين يكون وحيدًا فإنّه يصعب عليه أن يبادر إلى العبادة مع رعاية الآداب والمستحبّات، لأنّ إرادته ودوافعه الباطنيّة لن تكون قويةً. وأمّا إذا شاركه الآخرون، وحصل على دعمٍ خارجيّ، فإنّه يصبح أسرع مبادرةً للعبادة.

---

(١) سورة **الملك**، الآية ٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٥٠.

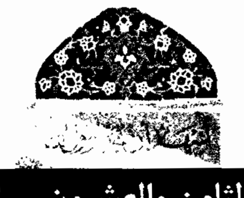

الدرس الثامن والعشرون

عظمة العبادة والعبوديّة وأثرها التكوينيّ

- ❖ شهادة الأرض على أعمال الإنسان
- ❖ كيفيّة ثناء الأرض والموجودات غير العاقلة
- ❖ شعور المخلوقات وإدراكها وتأثّرها
- ❖ سعة حضور نور الأئمة الأطهار
- ❖ عدم خفاء الأعمال على رؤية الشهود
- ❖ الإخلاص في العبوديّة أساس الغبطة والمباهاة
- ❖ الإخلاص عامل علوّ العمل

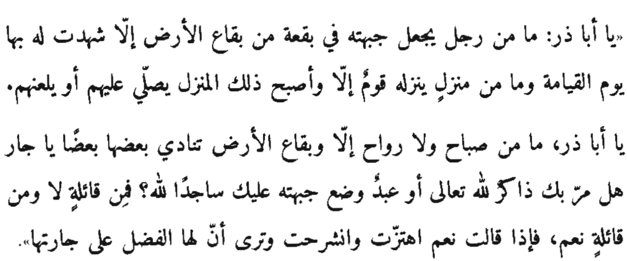

«يا أبا ذر: ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلّا شهدت له بها يوم القيامة وما من منزلٍ ينزله قومٌ إلّا وأصبح ذلك المنزل يصلّي عليهم أو يلعنهم.

يا أبا ذر، ما من صباح ولا رواح إلّا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضًا يا جار هل مرّ بك ذاكرٌ لله تعالى أو عبدٌ وضع جبهته عليك ساجدًا لله؟ فمِن قائلةٍ لا ومن قائلةٍ نعم، فإذا قالت نعم اهتزّت وانشرحت وترى أنّ لها الفضل على جارتها».

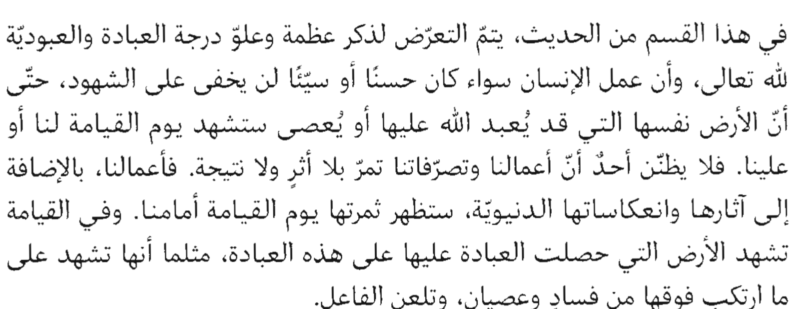

في هذا القسم من الحديث، يتمّ التعرّض لذكر عظمة وعلوّ درجة العبادة والعبوديّة لله تعالى، وأن عمل الإنسان سواء كان حسنًا أو سيّئًا لن يخفى على الشهود، حتّى أنّ الأرض نفسها التي قد يُعبد الله عليها أو يُعصى ستشهد يوم القيامة لنا أو علينا. فلا يظنّن أحدٌ أنّ أعمالنا وتصرّفاتنا تمرّ بلا أثرٍ ولا نتيجة. فأعمالنا، بالإضافة إلى آثارها وانعكاساتها الدنيويّة، ستظهر ثمرتها يوم القيامة أمامنا. وفي القيامة تشهد الأرض التي حصلت العبادة عليها على هذه العبادة، مثلما أنها تشهد على ما ارتكب فوقها من فسادٍ وعصيان، وتلعن الفاعل.

شهادة الأرض على أعمال الإنسان

«يا أبا ذر: ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلّا شهدت له بها يوم القيامة وما من منزلٍ ينزله قومٌ إلّا وأصبح ذلك المنزل يصلّي عليهم أو يلعنهم».

كان بعض الأعاظم يتعمّد أن يصلّي في مختلف زوايا المسجد فيختار كلّ مرة مكانًا خاصًّا يصلّي فيه. أو أنّه إذا دخل إلى أحد البيوت أو الأمكنة، فهو يصلّي ركعتَين عنده، حتّى يزداد عدد الشهود على أعماله الحسنة يوم القيامة. هذا نوعٌ من الكياسة التي يحتاج إليها المؤمن وتحقّق له الكثير من الفوائد.

وبالتوجّه إلى عظمة العبادة ومنزلتها، والتي ذكرت في هذه الرواية ورواياتٍ أخر، فإنّ تعمّدنا أداء العبادة في أماكن مختلفة يحكي عن التسليم والتعبّد بما ورد عن النبيّ والأئمة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين.

وكما شاهدنا، فإنّ هذا الجزء من الرواية والأجزاء الأخرى، يبيّن أنّ الأرض والأشجار وسائر الموجودات غير العاقلة التي نعدّها فاقدةً للإدراك والشعور هي في الواقع مدركة وشاعرة وتطّلع على أعمالنا وتدعو لنا عند القيام بالأعمال الصالحة أو تلعننا إذا قمنا بالعمل السيّء. وبالإضافة إلى كلّ ذلك فإنّها ستشهد علينا أو لنا يوم القيامة.

كيفيّة ثناء الأرض والكائنات غير العاقلة

وفيما يتعلّق بمضمون هذا القسم من الرواية الذي يبيّن شعور وإدراك الأرض والموجودات غير العاقلة، وما ورد في آياتٍ ورواياتٍ أخرى ترتبط بنفس هذا المضمون ذكر العلماء الكبار ثلاث نظريّات:

النظريّة الأولى: عدّ بعضهم هذه التعابير والألفاظ كنايةً لا يُقصد منها المعنى الحقيقيّ. وأوّلوا كلّ موردٍ منها بما يتناسب معه. ولعلّ أكثر المفسّرين اختاروا هذا المنهج في تفسير مثل هذه الآيات والروايات.

النظريّة الثانية: للعرفاء والفلاسفة ذوي المشرب العرفانيّ ولصدر المتألّهين وتلامذته الذين يعتقدون أنّ للموجودات في الواقع إدراكًا وشعورًا، وأنّها تسبّح الله وتخشاه وإن كنّا نحن عن إدراك هذه الواقعيّة عاجزين.

وكما يقول الشاعر واصفًا أحوالها بلسان الحال:

نحن نسمع ونبصر وندرك ولكنّنا معكم أيّها الأجانب صامتون

وقد أخذ هؤلاء المعنى الحقيقيّ لهذه الآيات والروايات وقالوا إنّ للأشجار والأرض والأحجار وغيرها شعورًا وهي تسبّح الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾[١].

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٤٤.

وفي تفسير هذه الآية، يقول العلّامة الطباطبائي: وكيف كان فقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ يثبت لأجزاء العالم المشهود التسبيح وأنّها تسبّح الله وتنزّهه عمّا يقولون من الشريك وينسبون إليه.

والتسبيح تنزيه قولي وكلامي وحقيقة الكلام الكشف عمّا في الضمير بنوع من الإشارة إليه والدلالة عليه غير أنّ الإنسان لمّا لم يجد إلى إرادة كلّ ما يريد الإشارة إليه من طريق التكوين طريقًا التجأ إلى استعمال الألفاظ وهي الأصوات الموضوعة للمعاني، ودلّ بها على ما في ضميره، وجرت على ذلك سنّة التفهيم والتفهّم، وربّما استعان على بعض مقاصده بالإشارة بيده أو رأسه أو غيرهما، وربّما استعان على ذلك بكتابة أو نصب علامة.

وبالجملة، فالذي يكشف به عن معنى مقصود قول وكلام وقيام الشيء بهذا الكشف قول منه وتكليم وإن لم يكن بصوت مقروع ولفظ موضوع، ومن الدليل عليه ما ينسبه القرآن إليه تعالى من الكلام والقول والأمر والوحي ونحو ذلك ممّا فيه معنى الكشف عن المقاصد وليس من قبيل القول والكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات وقد سماه الله سبحانه قولًا وكلامًا.

وعند هذه الموجودات المشهودة من السماء والأرض ومن فيهما ما يكشف كشفًا صريحًا عن وحدانيّة ربّها في ربوبيّته وينزّهه تعالى عن كلّ نقص وشين فهي تسبّح الله سبحانه.

وذلك أنها ليست لها في أنفسها إلّا محض الحاجة وصرف الفاقة إليه في ذاتها وصفاتها وأحوالها. والحاجة أقوى كاشف عما إليه الحاجة لا يستقلّ المحتاج دونه ولا ينفكّ عنه فكلّ من هذه الموجودات يكشف بحاجته في وجوده ونقصه في ذاته عن موجده الغنيّ في وجوده التامّ الكامل في ذاته وبارتباطه بسائر الموجودات التي يستعين بها على تكميل وجوده ورفع نقائصه في ذاته يدلّ على أن موجده هو ربّه المتصرّف في كلّ شيء المدبّر لأمره.

فكلّ واحد من هذه الموجودات يكشف بحاجته ونقصه عن تنزّه ربّه عن الحاجة وبراءته من النقص حتّى أنّ الجاهل المثبت لربّه شركاء من دونه أو الناسب إليه شيئًا من النقص والشين تعالى وتقدّس يبتّ بذلك تنزّهه من الشريك وينسب بذلك إليه البراءة من النقص فإنّ المعنى الذي تصوّر في ضمير هذا الإنسان

واللفظ الذي يلفظه لسانه وجميع ما استخدمته في تأدية هذا المقصود كلّ ذلك أمور موجودة تكشف بحاجتها الموجوديّة عن ربّ واحد لا شريك له ولا نقص فيه[١].

النظريّة الثالثة: إنّ لجميع هذه الموجودات غير هذه الصورة الماديّة المتحقّقة بها في العالم صورةً ملكوتيّةً أيضًا، وإنّ إدراكها وشعورها يرجع إلى تلك الصورة الملكوتيّة الباطنيّة، وهي التي سوف تظهر يوم القيامة وتشهد. فنحن لا ندرك تلك الصورة الملكوتيّة في هذا العالم، ولهذا فإنّنا لا نسمع تسبيح الأشياء ولا نرى آثار شعورها وإدراكها، وإن كانت متحقّقةً وموجودةً، وسوف تظهر في عالم الآخرة وتشهد.

وبصريح القرآن الكريم فإنّ من بين الشهود على الناس يوم القيامة: جلودهم، وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم. فلو لم يكن لمثل هذه الأمور إدراكٌ لكانت شهادتها بلا معنًى. ويذكر القرآن بشأن شهادة أعضاء بدن الإنسان قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٢].

ولو لم يكن للجلود إدراك أثناء قيام أصحابها بالمعصية، فكيف يمكن أن تشهد على هذه المعصية يوم القيامة؟ فالشهادة إنّما تكون ذات معنًى، إذا كان الشاهد مدركًا ومطّلعًا على ساحة المعصية والجريمة، وإلّا لبقيت الشهادة بغير معنًى. فلو قيل إنّ أعضاء البدن لا تدرك معصية الإنسان وإنّما يجعلها الله تعالى يوم القيامة ناطقةً لكان ينبغي أن نقول إنّه لا معنًى للشهادة ولبقي هذا التعبير بلا معنًى في مثل هذا المورد. بناءً عليه، فإنّ شهادة الأعضاء تتحقّق بعد حصول الإدراك والإحساس والعلم، وإلّا لما كانت تسمّى شهادةً. فكلّ من النظريّة الثانية والثالثة تتّفقان على أصل وجود الشعور والإحساس ووجود حالة من الإدراك والعلم في نظام المخلوقات. وإنّما الاختلاف في كيفيّته: فهل أنّ هذا العلم مقارنٌ للروح الملكوتيّة للأشياء أو أنّها في الواقع مدركة وشاعرة. وأمّا أصحاب النظريّة الأولى، فإنّهم يقولون بأنّ لأعضاء وجوارح الإنسان يوم القيامة ظهورًا وحين تظهر نرى فيها آثار سلوك الإنسان التي تعدّ بمنزلة الشهادة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحتان ١٠٨ و١٠٩.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ٢١.

شعور وإدراك المخلوقات وتأثّرها

لعلّنا نجد النظريّة الثالثة هي الأفضل بين النظريّات المطروحة. وعلى أيّ حال، يُستفاد من الروايات والآيات أنّ الأشياء والموجودات الماديّة تدرك وتشعر. ولا يقتصر ذلك على الشعور التكويني الثابت، بل إنّها تتأثّر من الحوادث المحيطة بها، والتي تترك فيها آثارها، ولهذا ينشأ فيها إدراكٌ جديد: فإذا أقيمت عبادةٌ مّا فوق أرضٍ مّا، فإنّها ستترك أثرًا طيّبًا فيها. ولهذا، فهي تُسرّ وتعتدّ بنفسها. وبالعكس، إذا عصي الله عليها، فإنّها تتأثّر سلبًا وتضطرب وتلعن العاصي. ولا شكّ بأنّنا عاجزون عن إدراك مثل هذه المفاهيم، ولا ندّعي الإحاطة بمضمون هذه الآيات والروايات بشكل كامل. ولكن، ينبغي أن نؤمن بأنّ هذا العالم يحتوي على الكثير من الحقائق المجهولة التي تقبع وراء أفق إدراكنا وفهمنا.. وأنّ معرفتنا عنها محدودة جدًّا كما يقول تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

ففي هذا العالم حقائق كثيرة ليس لدينا أيّ اطّلاعٍ عليها، والبعض منها قد تعرّفنا عليه عن طريق الوحي، وقد بيّنها الأنبياء العظام صلوات الله عليهم والأئمّة الأطهار عَلَيهِمُ السَّلَامُ، ونحن تبعًا لهم وإيمانًا بصدقهم نصدّق بها. ولهذا، ينبغي أن نكون لهم شاكرين. فلولاهم لما أدركت عقولنا القاصرة شيئًا منها: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وبالالتفات إلى ما ذكر، يتّضح لنا نقطتان: الأولى أنّه لو اكتسبنا آلاف المعارف والمعلومات وأحطنا بجميع معلومات البشر لكانت نسبة علومنا إلى مجهولاتنا تساوي صفرًا. لهذا لا ينبغي أن يعترينا الغرور بأنفسنا. هذا مع أنّه من غير الممكن أن يحيط شخصٌ واحد بجميع معارف البشر. ففي كلّ يوم هناك حقائق جديدة تُكتشف، فيكون حاله كالقطرة من البحر المحيط.

النقطة الثانية هي أنّه لا ينبغي أن نتخيّل أنّنا نعيش في عالم بحيث أنّنا إذا قمنا بعملٍ مّا فإنّه لا يطّلع عليه أحد! فإذا لم تكن الأرض تدركُ وتفهم، فهناك

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٨٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٥١.

الملائكة التي تشهد على أعمالنا وتسجّلها في ذلك الكتاب. وهناك أيضًا من الأشخاص من له الإحاطة بهذا العالم ولا يخفى عليه شيءٌ منه.

سعة حضور نور الأئمّة الأطهار

على أساس عقيدتنا نحن الشيعة، فإنّ نور الأئمّة الأطهار له حضورٌ في كلّ مكان، وإن كنّا لا نقدر على إدراك هذا الحضور كما هو. فللوجود المقدّس لذخيرة الله وليّ العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف حضورٌ في كلّ مكان، وخصوصًا في مجالس الشيعة بحيث أنّه لو قام أحد بتحيّته والسلام عليه لأجابه، وإن كانت آذاننا عاجزةً عن سماع جوابه. ولو استغاث به أحدٌ لأدركه، ولو كان تائهًا في الصحراء لأسرع إليه ودلّه، ولو كان مريضًا لشفاه. فالعارف يدرك أنّه حاضر وناظر ويسمع.. ولو لم يكن كذلك، فكيف ينجي الغريق في قعر البحر أو التائه في الصحاري المقفرة، ويسرع إلى نجدته؟!

وينقل المرحوم العلّامة المجلسي (قدس سره) عن والده أنّ أحد صالحي زمانه من أهل التقوى والمعرفة وكثرة الذهاب إلى الحجّ ممّن كان مشهورًا بطيّ الأرض، التقى به في أصفهان وسأله عن مسألة طيّ الأرض كيف تحقّقت له. فأجابه قائلًا: «في إحدى السنوات كنت مع الحجيج في طريقي إلى بيت الله ووصلت إلى أحد الأمكنة التي تبعد عن مكّة المعظّمة تسعة منازل. وحدث أنّي انفصلت عن القافلة قليلًا، ولمّا رجعت لم أجد أحدًا وعلمت أنّهم ابتعدوا كثيرًا. ولمّا حاولت اللحاق بهم أضعت الطريق، وصرت متحيّرًا تائهًا لا أدري ما أفعل، حتّى غلب علي العطش ويئست من الحياة. وهناك صرخت قائلًا: يا أبا صالح! دلّني على الطريق! وفجأةً، رأيت راكبًا من بعيد، وحين اقترب وجدته شابًا حسن الملامح يرتدي لباسًا جميلًا في سيماء العظماء، وهو يركب ناقةً ويحمل بيده وعاء ماء.

فسلّمت عليه وردّ عليّ السلام، وسألني: هل أنت عطشان؟ قلت: بلى، فقدّم لي الماء فشربت وارتويت. ثمّ قال لي: هل تريد أن أوصلك إلى القافلة؟ قلت: بلى، قال: فاركب معي على ناقتي.. فلمّا ركبت تحرّكنا نحو مكّة. وكانت عادتي أن أقرأ كلّ يوم الحرز اليماني فبدأت بقراءته وأثناء قراءتي كان هذا الشاب العربيّ يصحّح لي بعض الألفاظ ويقول لي اقرأ هكذا ولا تقرأ هكذا! وبعد مدّة زمنيّة قال لي: أتعرف هذا المكان؟، فنظرت لأرى أنّنا أصبحنا في الأبطح قرب مكّة.

فقال: انزل. ولمّا نزلت ونظرت خلفي وجدته قد توارى عن الأنظار. فعلمت حينها أنّ هذا الشاب الجميل كان إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف(١).

فنور الإمام حاضرٌ في كلّ مكان وهو مشرف علينا! غاية الأمر، أنّ إدراك أكثر الناس لهذه الحقائق صعبٌ وثقيل. ولو بُيّنت لهم بدون حجابٍ لابتلوا بالغلوّ، فلهذا ينبغي أن تُذكر لهم من تلك الحقائق مراتبها النازلة، ومن جملتها أنّ صحيفة أعمالنا تُعرض على الإمام عَلَيهِالسَّلَامُ. وفي بعض الروايات، جاء ذكر ما يتعلّق بعرض الأعمال على النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ وعلى الله تعالى وفي روايةٍ حين ذُكرت أيّام الأسبوع ومنها يوم الخميس قال الإمام الرضا عَلَيهِالسَّلَامُ: «هو يومٌ تُعرض فيه الأعمال على الله وعلى رسوله وعلى الأئمّة»(٢).

أو ما ورد في بعض الروايات أنّ الملائكة بعد أن تكتب أعمال الإنسان، تعرج ليلًا إلى العرش وتعرضها في محضر الله عزّ وجلّ. ومن الممكن أن يُطرح هذا السؤال فيُقال: أليس الله حاضرًا في كلّ مكان فلماذا يحتاج إلى تقريرٍ بالأعمال يُقدّم إلى عرشه؟!

ولكن ينبغي أن نعلم أنّ لكلّ مرتبةٍ من الوجود لوازمها الخاصّة بها. وهكذا، فإنّ لعرض الأعمال نظامًا خاصًّا يتناسب مع نظام عالم الربوبيّة الإلهيّة. هذا، والله تعالى حاضرٌ في كلّ مكان أيضًا، فلا تنافي بين هذَين.

عدم خفاء الأعمال عن رؤية الشهود

وبالالتفات إلى ما ذكر ينبغي أن نكون ملتفتين إلى أنّنا لا نعيش في عالم فاقدٍ للشعور والإدراك؛ ففيه أبصارٌ ترى وآذانٌ تسمع وتشهد على أعمالنا وأقوالنا. وطبقًا لظاهر بعض الآيات والروايات فإنّ الأرض والجبال والطيور ذات شعورٍ وفهمٍ ونحن عنها غافلون! ولو لم نؤمن بذلك فهناك على الأقلّ تلك الملائكة الموكّلة بأعمالنا، وأعلى منها وجود إمام الزمان المقدّس عجّل الله تعالى فرجه الشريف والأعلى من الكلّ شهادة الله تعالى علينا جميعًا: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾(٣).

---

(١) الطبرسي، **كفاية الموحّدين**، الجزء ٢، الصفحة ١٨٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٣، الصفحة ٣٤٦.

(٣) سورة **النساء**، الآية ٣٣.

والله تعالى يخبرنا في كتابه عن اطّلاعه على أعمالنا الظاهرة والباطنة، وعن اطّلاع الملائكة أيضًا، فيقول جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١].

وفي آيةٍ أخرى، تُذكر شهادة النبيّ يوم القيامة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا﴾[٢].

ومن هذه الآيات التي تبيّن شهادة رسول الله وغيره يوم القيامة، يتّضح أنّ أولئك الشهود في الدنيا هم شهود أعمال العباد. ولولا ذلك، لما كانت لهم هذه الشهادة يوم القيامة. فهل يمكن أن يشهد أحدٌ دون أن يكون مطّلعًا على الحادثة التي يشهد فيها!

فلو التفتنا إلى هذه النقطة، وهي أنّ العالم الذي نعيش فيه ليس فاقدًا للشعور والإدراك، بل هناك من يطّلع علينا ويطّلع على أعمالنا، وربما نحن لا نراه لأخذنا حذرنا وأعدنا التفكير في سلوكنا ولأضحى حياؤنا مانعًا من أن تصدر منّا الأعمال السيّئة، حين ندرك أن أعمالنا تُسجّل وتكتب، وسوف تظهر يوم القيامة فإنّ الحياء يمنعنا من ارتكاب المعاصي. فإذا همّ الإنسان بفعل معصية ثمّ التفت إلى أنّ الأرض والسماء هي بمنزلة الألواح تُسجّل عليها صور أعمال الإنسان، وسوف تُعلن يومًا مّا: لكفّ عن هذه المعصية حتّى لو كان وحيدًا في خلوته، كما قال الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ: «اتّقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم»[٣].

إذا كنتم في مكان ووضع لا تريدون أن يراكم أحد فيه ثمّ التقطت لكم صورة في هذه الحالة فإنّكم ستسعون بأيّة وسيلةٍ ممكنة إلى إتلاف هذه الصورة، لكي لا يطّلع عليها أحدٌ في المستقبل. ومن المسلّم أنّ الإنسان لا يحبّ أن تُلتقط له صورةٌ تؤدّي إلى فضيحته وخجله. لهذا، فإنّه قبل التصوير يرتّب هندامه ويمشّط شعره، ثمّ يبتسم لكي تكون صورته أفضل. فهو لا يرضى أبدًا أن تؤخذ له هذه الصورة التي تؤدّي إلى

(١) سورة **ق**، الآيات ١٦ إلى ١٨.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٤١.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الكلمات القصار ٣٢٤، الصفحة ٧٧.

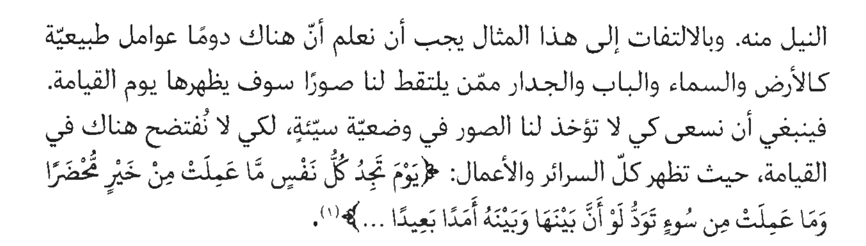
النيل منه. وبالالتفات إلى هذا المثال يجب أن نعلم أنّ هناك دومًا عوامل طبيعيّة كالأرض والسماء والباب والجدار ممّن يلتقط لنا صورًا سوف يظهرها يوم القيامة. فينبغي أن نسعى كي لا تؤخذ لنا الصور في وضعيّة سيّئةٍ، لكي لا نُفتضح هناك في القيامة، حيث تظهر كلّ السرائر والأعمال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ...﴾(١).

الإخلاص في العبودية أساس الفرح والمباهاة

«يا أبا ذر، ما من صباح ولا رواح إلّا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضًا: يا جار هل مرّ بك ذاكرٌ لله تعالى أو عبدٌ وضع جبهته عليك ساجدًا لله؟ فمِن قائلةٍ لا ومن قائلةٍ نعم، فإذا قالت نعم اهتزّت وانشرحت وترى أنّ لها الفضل على جارتها».

والأمر الآخر الذي أشير إليه في هذا الحديث الشريف هو أنّ تلك الأرض التي يُعبد الله فيها ويُسجد عليها تتباهى بنفسها. وينبغي أن نبحث عن سرّ هذه المباهاة؟

وسرّها هو أنّ قيمة أيّ شيء تكون في الأساس بما يمثّله في محضر الله والتوجّه إليه. والأعمال التي تكتسب القيمة إنّما تكون كذلك بفضل التوجّه بها إلى الله والتقرّب إليه. فالعمل الذي يكون لله هو ما يُذكر الله فيه. ومن كان غافلًا عن الله، لا يكون عمله قربةً إلى الله، بل لأجل إرضاء نفسه أو إرضاء الناس أو بسبب دوافع ماديّة لا قيمة لها عند الله.. فذكر الله والتوجّه إليه وما يربط الإنسان بالأبديّة هو الذي يمتلك الأصالة. وكلّ شيءٍ آخر إنّما يكتسب قيمته في ظلّ ذكر الله، وبدون ذكره تعالى سيكون فاقدًا للاعتبار والقيمة الواقعيّة. من هنا، فإنّ الكمال الحقيقيّ للإنسان يتحقّق في ظلّ التوجّه إلى الله ولو سرى هذا المعنى مثل سريان الروح في جميع أعمال الإنسان لاكتسبت هذه الأعمال قيمتها. وفي غير هذه الحال ومن دون مقارنة العمل والعبادة بالنيّة الإلهيّة الخالصة، فإنّ العمل يشبه الجسد الفاقد للروح الذي لا قيمة له. فينبغي دومًا أن تكون أعمالنا وعباداتنا لله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾(٢).

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٣٠.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ١١.

والتأكيد الإلهيّ على الإخلاص وخاصّةً الإخلاص في الدين لأجل أنّ الإنسان بالحقيقة هو عبد الله، وقد خلق للعبوديّة والعبادة. وينبغي أن يسلك طريق التكامل والسعادة في مسير حياته، في جميع مراحلها. وهذا الأمر المهمّ لا يحصل إلّا في ظلّ الإخلاص والتوجّه إلى الله. وعليه، فإنّ إخلاص العبادة لله يُعدّ أعظم التعاليم الإلهيّة، لأنّه العامل المهمّ لتقرّب الإنسان إلى الله ووصوله إلى الكمال المطلوب. ولهذا أيضًا، فإنّ الله تعالى يدعو المؤمنين في كتابه إلى الإخلاص. ينبغي أن نعلم بأنّ الإنسان قادر على الوصول إلى ذلك المقام الذي يستخلصه الله تعالى لنفسه! كما جاء في مدح المخلَصين في الذكر الحكيم وكما ذكر الحقّ تعالى بشأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[١].

والمخلِص (بكسر اللام) هو الذي يتمتّع بصفة الإخلاص ويؤدّي أعماله على أساس هذه الصفة. ولكنّ المخلَص (بفتح اللام) هو الذي صار خالصًا! ولا شكّ بأنّ الخالص يحتاج إلى من يجعله خالصًا، ومن المسلّم أنّ المخلَص لا يجعله خالصًا إلّا ربّ العالمين، الذي يستخلص عباده فلا يقدر الشيطان على إغوائهم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢].

وفي بيان هذه الآية الشريفة، ينبغي أن نذكر أنّ للمخلَصين قوًى نفسانيّةً وروحانيّةً ومعنويّةً تصونهم من الوقوع في فخّ إبليس. والشيطان لا يقدر على التأثير فيهم بشكل سيّء! ولا شكّ بأنّ ذلك قد تحقّق بفضل عناية الله ولطفه. كما ذكر الحقّ تعالى بشأن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

في هذه الآية، نجد التأكيد على أنّ يوسف لم يبتل بأيّة معصيةٍ أو سوء رغم أنّ جميع الظروف المحيطة به كانت تدفعه لذلك. بحيث أنّ أيّ إنسانٍ غيره إذا وقع في مثل هذا الأمر فسوف يسقط في فخّ الشيطان. ذلك لأنّ يوسف كان في أوج الاستعداد وتفتّح الغريزة الجنسيّة وكان الجوّ المهيمن على بيت عزيز مصر مناسبًا جدًّا، لما احتواه من رفاهية، وكذلك بسبب ما هيّأته زوجة العزيز من ظروفٍ لإغواء

---

(١) سورة **مريم**، الآية ٥١.

(٢) سورة **ص**، الآيتان ٨٢ و٨٣.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ٢٤.

يوسف الذي كان سيتورّط لولا رؤية برهان ربّه.

الإخلاص عامل علوّ العمل

عطفًا على ما ذكر فإنّ ما يعطي عمل الإنسان قيمته ويؤدّي إلى نجاته ممّا خفي من مكائد الشيطان أو ظهر منها: هو الإخلاص والتوجّه إلى الله تعالى. ولهذا، فإنّ أكثر الأعمال عظمةً وقداسةً إذا لم تؤدّ لله فهي تفقد قيمتها: وبتعبير الروايات والآيات الشريفة، فإنّ الجهاد عدّ من أفضل الأعمال عند الله حيث يقول تعالى: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

هذا، ومع كلّ عظمته ورفعته، لو كان الجهاد لغير الله وفقد الدوافع الإلهيّة لسقط من الاعتبار: وفيما نُقل أنّ أحد المحاربين في جيش رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان قد قاتل مستميتًا في إحدى المعارك حتّى قُتل. وقد أُعجب المسلمون بقتاله واندفاعه ومدحوه وقالوا للنبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إنّ هذا الإنسان لا بدّ أن يكون صاحب مقام رفيع عند الله. فأجابهم النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قائلًا: هذا الرجل لم يستشهد في سبيل الله بل كان شهيد حماره. (ذلك لأنّ حماره قد اندفع هاربًا من شدّة الخوف واتّجه نحو صفوف الأعداء فلحقه صاحبه وهو يقاتل بكلّ قوّة لكي يسترجع حماره).

أجل، فإنّ مجرد الجهاد والقتال بل والقتل، لا يوصل الإنسان إلى الكمال. فتلك الشهادة التي توصله إلى الكمال الواقعيّ هي التي تكون مقرونةً بذكر الله. كما هو حال شهدائنا الأعزّاء الذين كانوا يقدّمون النذور لكي ينالوا شرف الشهادة. وبعضهم كان يذهب لأربعين ليلة جمعة أو ليلة أربعاء إلى مسجد جمكران ويطلب من الله أن يحقّق له أمنية الشهادة. فتلك الشهادة المقرونة بذكر الله والتوجّه إليه هي التي تتمتّع بالقيمة الحقيقيّة.

إنّ قيمة وعظمة الأعمال والسلوكيّات أو انحطاطها ترتبط بنيّة الإنسان: فإذا كانت نيّته صافيةً وعمله لله فإنّه يصبح العمل قيّمًا. وإذا ازداد فيه ذكر الله، (وبمقدار هذه الزيادة) تزداد محبّته لله ومعرفته به وتزداد قيمة العمل أيضًا. وفي

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٩٥.

المقابل، إذا قام بالعمل بدون معرفة الله ومحبّته وبدون ذكره والتوجّه إليه فإنّه يكون كالجسد بلا روح.

إنّ بقاع الأرض حين تتحادث فيما بينها لا تقول من الذي جاهد فوقك أو أنفق فوقك بل تسأل عمّن ذكر الله عليها. فإذا أدّى الإنسان عمله بالتوجّه إلى الله عُدّ عمله حينئذٍ عبادةً، وصار جهاده وصلاته وإنفاقه كذلك. وهكذا يكون تحصيله للعلم والتدريس والمباحثة وحتّى الاستماع إلى الدروس. ولكنّ هذه الأعمال لو فقدت الإخلاص لفقدت روح العبادة وبقيت وسيلةً لجذب انتباه الآخرين! فالمهمّ والذي يستحقّ الاهتمام والذي تدرك أهميّته بقاع الأرض تلك هو التوجّه إلى الله والحضور في محضره تعالى.

حين نتصفّح القرآن المجيد لا نجد صفحةً واحدةً تخلو من ذكر الله وتسبيحه. ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[١].

وفي موضع آخر، يذكر الله تعالى بعد ذكر الأدلّة على خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، أنّ أولي الألباب هم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّ موسى بن عمران عليه السلام سأل ربّه قائلًا: «يا ربّ تمرّ بي حالاتٌ أستحي أن أذكرك فيها، فقال: يا موسى، ذكري على كلّ حال حسن»[٣].

ومن هنا، ورد العديد من الأدعية حتّى في موضع قضاء الحاجة والدخول إلى الحمّام، وذلك لكي لا يغفل الإنسان في أيّ حالٍ من الأحوال عن عبادة الله. ذلك لأنّ الله تعالى لا يرضى أن تمرّ لحظة من عمرنا بدون التوجّه إليه وعبادته، ولا يحصل الكمال الإنسانيّ إلّا في ظلّ عبادة الله تعالى. فعلينا أن نسعى لنكون دومًا بصدد تحصيل التوجّه إلى الله ولو كان توجّهًا ضعيفًا، فذكر الله والتوجّه إليه إكسيرٌ يعطي كلّ شيءٍ قيمته الرفيعة. بل هو سرّ القيمة الحقيقيّة. هذا الإكسير يضفي على حياتنا معناها الواقعيّ.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٤١.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٩١.

(٣) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣١٢.

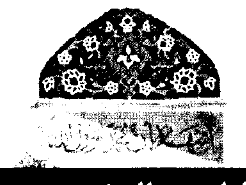

الدرس التاسع والعشرون

العبوديّة والعبادة ذخيرة الإنسان الكبرى

❖ العالَم عالة على الإنسان

❖ كرامة الإنسان الكامل ومنزلته

❖ الجنّة مقرّ المؤمنين ومحبّي أهل البيت

❖ أصحاب الجنّة

أ . مقام الأنبياء ومقام نبيّ الإسلام الأعظم

ب . مقام الصالحين

ج . مقام الصدّيقين

❖ مقام العصمة مختصّ بمن اصطفى الله

❖ أهميّة الصدق في الإيمان وطريق تحصيله

«يا أبا ذر ما من شابٍ يدع لله الدنيا ولهوها وأهرم شبابه في طاعة الله إلّا أعطاه الله أجر اثنَين وسبعين صدّيقًا».

العالَم عالة على الإنسان

في هذا القسم من الحديث، يبيّن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أهميّة سعي الإنسان لتحصيل الكمال، وعظمة السالكين في هذا الدرب. ذلك لأنّه يُستفاد من بعض الآيات والروايات أنّ هذا العالم مع كلّ سعته وعظمته قد خُلق لأجل وصول الإنسان إلى الكمال. وفي الواقع، إنّ الهدف الأساسيّ لخلق هذا العالم هو الإنسان، وسائر موجوداته هي عالةٌ على الإنسان. يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

يشير مضمون هذه الآية المباركة إلى أنّ الله تعالى قد خلق السموات والأرض وعالم الطبيعة لأجل إيجاد أرضيّة خلق الإنسان، ثمّ خلق الإنسان لكي يمتحنه؛ وهو معنًى رائع يكون لإدراكه تأثير كبير في تفكيرنا وسلوكنا. وهذه الحقيقة التي تبيّن كيف أنّ الله تعالى خلق العالم مع ما فيه من عظمة لأجل خلق هذا الإنسان، ولكي يستفيد من جميع الإمكانات المتاحة للوصول إلى كماله، تحكي عن مستوى قيمة الإنسان وعمق مسؤوليّته.

وذكر ما مرّ ضروريٌّ لأجل أن يدرك الإنسان قيمة وجوده من بين سائر موجودات هذا العالم، وليعلم أنّه ليس موجودًا بسيطًا كالدودة أو الضفدعة

---

(١) سورة **هود**، الآية ٧.

وأمثالها، بل هو موجودٌ عظيمٌ له شأن رفيع. وكل ما وُجد في هذا العالم إنّما كان لأجل تأمين الظروف المناسبة لحياته ومعيشته. هذا العالم مع عظمته قد خُلق ليكون أرضيّةً مناسبةً لخلق موجودٍ له شعور وإرادة واختيار. فأوّل تكليف يقع على عاتق الإنسان كموجود مفكّر وعاقل هو أن يدرك قيمة وجوده. بيد أنّ إدراك هذه المسألة مع أهميّتها، لا يكفي، بل عليه أن يدرك أيضًا خطورة مسؤوليّته في عالم الخلقة، ويعلم أنّه لم يُخلق عبثًا ومن دون غاية واقعيّة.

فللإنسان من بين سائر موجودات العالم خصوصيّة لا توجد في غيره، وهي: نعمة العقل. ومعنى علوّه وأفضليّته على سائر الموجودات هو أنّه بالإضافة إلى العقل، يتميّز بسائر الصفات والخصائص عن باقي الموجودات أيضًا. فكلّ كمالٍ موجودٍ في مخلوقات العالم موجودٌ فيه بحدّه الأعلى! ويظهر ذلك بمقارنته مع سائر الموجودات وكيف يدير شؤون حياته ويبتكر نشاطه في مجال توفير الطعام واللباس والمسكن وسائر الشؤون.

فإذا نظرنا إلى التطوير والإبداع الذي حقّقه الإنسان في نظام حياته وشؤون اجتماعه لوجدنا كلّ ذلك بصورة مميّزة لا توجد عند غيره. هذا بالإضافة إلى أنّ الإنسان يسخّر سائر الموجودات لأجل الوصول إلى أهدافه، بخلاف تلك الحيوانات والنباتات التي لها آثار وتصرّفات بسيطة وخاصّة بها. فمنذ اليوم الذي وُجدت فيه وإلى يومنا هذا لم تتقدّم خطوةً واحدةً ولم توجد أيّ تحوّل في حياتها. هذا في الوقت الذي تقدّم فيه الإنسان وعبر الكثير من المراحل نحو الكمال، ولا يزال مستمرًّا في هذا المضمار.

خلاصة الأمر أنّ الله تعالى قد اختصّ بني آدم من بين سائر موجودات العالم بخاصيّة العقل، وميّزهم عن كلّ من سواهم ليعرفوا ويميّزوا الحقّ من الباطل والخير من الشر والنافع من الضارّ.

كرامة الإنسان الكامل ومنزلته

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١].

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٠.

وفي هذا السياق، يقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: الآية مسوقة للامتنان مشوبة بالعتاب كأنّه تعالى لمّا ذكر وفور نعمه وتواتر فضله ورحمته على الإنسان وحمله في البرّ والبحر ابتغاء فضله ورزقه ورفاه حاله ثمّ نسيانه لربّه وإعراضه عن دعائه إذا نجّاه وكشف ضرّه كفرانًا. مع أنّه متقلّبٌ دائمًا بين نعمه التي لا تُحصى نبّه على جملة تكريمه وتفضيله ليُعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان وكفران الإنسان لنعمته على كثرتها وبلوغها[١].

لهذا، يجدر بالإنسان أن يتعرّف على جوهره ويميّزه عن صدفه، ولا يبيع ذلك بمتاع الدنيا الزائل.

فالإنسان يحتاج، لأجل الوصول إلى كمالاته، إلى ظروفٍ خاصّةٍ وتسهيلات معيّنة. وينبغي أن يستفيد من هذا العالم مع كلّ ما فيه من تحوّلاتٍ وتطوّرات ليكون في خدمته. فنحن نعلم إلى حدٍّ ما أنّ هذه التحوّلات لو لم تكن موجودةً في نظام عالم الطبيعة بشكل دائم، لما كان لحياة الإنسان الاختياريّة تحقّق، أو لكانت من هذه الناحية ناقصةً. فنعلم إجمالًا أنّ للعالم نظامًا منسجمًا ترتبط أجزاؤه وعناصره ببعضها ارتباطًا وثيقًا. ومن تلك العوامل والأجزاء عامل الجاذبيّة الموجودة بين الكواكب السيّارة بحيث لو حدث أدنى خلل في هذه الجاذبيّة وأدّى إلى خروج أحد الكواكب عن مسيره، لحصل دمارٌ هائل في هذا الكون.

وكما مرّت الإشارة، فإنّ عالمًا بهذه العظمة قد كان مقدّمةً لخلق الإنسان ووصوله إلى كماله. والكمالات التي يجب عليه تحصيلها هي من العظمة بحيث اقتضت خلق هذا العالم مع عظمته وسعته ليكون في خدمة الإنسان. هذا، وإن كان الواصلون إلى تلك الكمالات قلّةً قليلةً من بين جميع البشر. أمّا سائر الناس فإنّهم يتنعّمون ويستفيدون في ظلّ وجود تلك القلّة، لا بل صار وجودهم تابعًا لوجود المصطفين الأخيار.

ومن باب المثال، نجد أنّ منجمًا ضخمًا تبلغ مساحته ٥٠ كيلومترًا مربّعًا وبعمق عشرات الأمتار يحفر من أجل الحصول على بعض حبّات الألماس، مع ما يبذل فيه من جهود مضنية. فالهدف الأساسيّ هو الوصول إلى هذه القطع

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحة ١٥٥.

الألماسيّة. هذا، وإن كان يستخرج في نفس الوقت الكثير من الفحم الحجريّ، الذي ليس له قيمةٌ تُذكر. فإلى جانب الألماس الذي هو الهدف الأساسيّ لهذا المنجم تُستخرج موادّ أخرى تتمتّع بالدرجة الثانية من الأهميّة وهناك الكثير من الشوائب التي تُرمى جانبًا.

فهدف خلق هذا العالم هو تلك الأنوار الطاهرة التي كان أعظمها وأبرزها المعصومين الأربعة عشر صلوات الله عليهم أجمعين، ومن بعدهم سائر الأنبياء والذين أُلحقوا بهم بحسب درجة كمالهم. (هناك ١٢٤٠٠٠ نبيّ وهناك من الأولياء من وصل إلى درجة أعلى من بعض الأنبياء ونحن نجهل عددهم).

فأعظم الكمالات الإنسانيّة قد جُمعت في النبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأهل بيته، وأدنى هذه المراتب تكون في أولئك الذين يدخلون الجنّة بعد غيرهم. وما سواهم ممّن خلت قلوبهم من نور الإيمان يشبهون تلك الشوائب التي لا بدّ من إحراقها في قعر جهنّم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[١].

فأهل جهنّم هم شوائب هذا العالم، والهدف الأساسيّ لخلقه هو: النبيّ وفاطمة الزهراء والأئمّة المعصومون الذين لا مجال لمقارنة هذا العالم بكلّ عظمته وسعته بإحدى فضائلهم وكمالاتهم. بل إنّ يومًا واحدًا في حياتهم يساوي العالم وما فيه. فأهل هذا العالم الحقيقيّون هم أولئك الذين أدركوا مقام السعادة في قرب الحقّ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٢].

الجنّة مقرّ المؤمنين ومحبّي أهل البيت

نحن نعتقد أنّ أولئك الذين يموتون على الإيمان يدخلون الجنّة حتّى لو كان الإيمان فيهم بأدنى مراتبه، ولم يتبدّل أثناء الموت إلى الكفر (هؤلاء يدخلون الجنّة بعد عبور مراحل عالم البرزخ).

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

(٢) سورة **القمر**، الآيتان ٥٤ و٥٥.

ولا شكّ أنّ كمال الإيمان يكون في ظلّ الاعتقاد والمحبّة لأهل بيت العصمة والطهارة كما قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «... ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد بشّره ملك الموت بالجنّة...»(١).

من هنا، فإنّ الشيعيّ الذي يحبّ أهل البيت ويعمل بما أمر الله ويطيع أولياءه لا يخاف من الموت لأنّه بالنسبة إليه ليس سوى جسر يعبره للوصول إلى رضوان الحقّ تعالى.

وقد خاطب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أصحابه يوم عاشوراء قائلًا: «صبرًا بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر»(٢).

وعن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف شوق المتّقين للقاء الحقّ: «ولولا الأجل الذي كَتب الله عليهم لم تستقرَّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عينٍ شوقًا إلى الثواب وخوفًا من العقاب. عظُم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»(٣).

وسئل أبو ذر: ما لنا نكره الموت؟ فقال: «لأنّكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب ...»(٤).

إنّ الناس يدخلون الجنّة بحسب مراتب إيمانهم وأعمالهم؛ فمنهم من يدخل الجنّة البرزخية بعد الموت ثمّ يسلك طريقًا عند القيامة يصل به إلى الجنّة. وهناك من أهل المعاصي من لا يدخلها إلّا بعد الابتلاء بالعذاب الإلهيّ الذي قد يطول سنوات عدةً ليتطهّر من معاصيه بشرط وجود ذلك النور الضعيف من الإيمان في قلبه. هؤلاء كالذهب الذي يوضع في البوتقة لكي يُصفّى من الشوائب ويصبح ذهبًا خالصًا. ومن المسلَّم أنّ أهل هذه الفئة ليسوا أصحاب الجنّة، بل هم ضيوفٌ فيها، دخلوها بشفاعة أصحابها وبفضل عناية الله ولطفه.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٣، الصفحة ٢٣٣.

(٢) الشيخ الصدوق، **معاني الأخبار**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٣٧٩ - ١٣٣٨ ش)، الصفحة ٢٨٩.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٩٣، الصفحة ١٦١.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ١٣٧.

أصحاب الجنّة

ذكر الله تعالى أصحاب الجنّة في كتابه في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النبيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

ففي هذه الآية الشريفة، ذكر الله تعالى أربع فئاتٍ من أهل الجنّة الحقيقيّين والذين بفضل شفاعتهم يدخل من يدخل إلى الجنّة، فهم في الواقع أهلها وأصحابها وغيرهم ضيوفهم يحلّون عليهم فيها. وأصحاب الجنّة أي الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون هم أولئك الذين أتمّ الله نعمته عليهم ثمّ أمرنا أن ندعو كلّ يوم في صلاتنا أن يهدينا إلى صراطهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾.

والجدير بالقول إنّ المقصود من الشهداء في الآية المذكورة هم أولئك الشهود على أعمال العباد يوم القيامة ومقام هؤلاء أعلى بكثير من مقام غيرهم من الشهداء كما يقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله): والحاصل أنّ هذه الشهادة ليست هي كون الأمّة على دين جامع للكمال الجسماني والروحاني فإنّ ذلك على أنّه ليس معنى الشهادة خلاف ظاهر الآيات الشريفة. بل هي تحمّل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادة وشقاء، وردّ وقبول، وانقياد وتمرّد وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله من كلّ شيء حتّى من أعضاء الإنسان يوم يقول الرسول: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[2].

ومن المعلوم أنّ هذه الكرامة ليست تنالها جميع الأمّة، إذ ليست إلّا كرامةً خاصّةً للأولياء الطاهرين منهم... إنّ أقلّ ما يصف به الشهداء وهم شهداء الأعمال أنّهم تحت ولاية الله ونعمته وأصحاب الصراط المستقيم[3].

وقد خلصنا إلى نتيجةٍ وهي أنّ أفضل عباد الله أولئك الذين أتمّ الله

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٦٩.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٣٠.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٢١.

نعمته عليهم والذين جعلهم أصحاب الجنّة وهم الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون، ومن عداهم يسلك طريق الجنّة بفضل التبعيّة لهم. لا شكّ أنّ أولئك الذين يدخلون الجنّة فينالون شرف السعادة بفضل ارتباطهم بعباد الله المصطفين يتفاوتون أيضًا من حيث المراتب والدرجات كمثل الفئات الأربع من أصحاب الجنّة في تفاوتهم في علوّ الدرجات.

أ. مقام الأنبياء ومقام نبيّ الإسلام الأعظم

وبناءً على قوله تعالى، فإنّ الأنبياء مفضّلون على سائر الناس: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١].

ثمّ إنّ بعض الأنبياء وقد فُضّل على بعضٍ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾[٢].

فمن بين ١٢٤ ألف نبيّ بعثهم الله لهداية الناس، هناك ٣١٣ رسولًا. وهؤلاء ليسوا جميعًا أصحاب شرائع، بل خمسة منهم فقط، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله. وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل المفضّلون على غيرهم.. ونحن نعتقد أنّ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله أفضلهم كما جاء في الحديث عنه: «يا علي إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمّة من بعدك وإنّ الملائكة لَخُدّامنا وخدّام محبّينا...»[٣].

فقد ثبت أنّ الهدف الأساسيّ لخلق الإنسان هو عباد الله المصطفون. وكما أنّ عامّة الناس يختلفون من حيث الدرجات والكمالات الإنسانيّة، فهناك تفاوتٌ أيضًا بين الأنبياء والصالحين من جهة الكمالات الإنسانيّة الرفيعة. وإن كان هذا التفاوت بين درجاتهم غير ممكن الإدراك بالنسبة لنا، ونحن نقول إنّه لا يعرف حقيقته إلّا الله.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٣.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٨، الصفحة ٣٤٥.

فأنبياء الله وأولياؤه لا يقعون في الشرك والمعصية حتّى للحظة واحدة. وهذا الشرك بمعناه الواقعي الذي هو تعلّق الخاطر بغير الله. فما بالك بالشرك بمعنى عبادة الأصنام. فمطلوبهم ليس إلّا الله ولا يقصدون سواه. ولو حصل لهم توجّه إلى غيره تعالى، فذلك لأنّه أمرهم بذلك حينًا، ولهذا لا يغفلون بسبب ذلك عن عباد الله. ولأجل الوصول إلى هدفهم الأساسيّ فإنّهم يستفيدون من الوسائل الماديّة، فهدفهم ليس إلّا الله. ما نحمله في أذهاننا حول المقام الشامخ للأنبياء ومراتبهم ليس إلّا تصوّرًا ضعيفًا، ولا يمكننا أن نصل إلى عمق ذلك المقام المنيع. وربما إذا أردنا أن نفكّر في حقيقة مقامهم لحارت عقولنا، وارتدّت خائبةً. فلا يعلم عن ذلك المقام إلّا الله وأهله، ومن سواهم عاجز عن إدراك مرتبتهم الإنسانيّة ومعرفة حقيقة ما وصلوا إليه: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

ب: مقام الصالحين

ومن جملة المراتب السامية للإنسانية والتي أشير إليها: مرتبة الصالحين والتي يحكي عن عظمتها قوله تعالى حكايةً عن نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢].

وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[٣].

ج: مقام الصدّيقين

فالمرتبة الإنسانيّة الأخرى التي لها العلوّ والرفعة هي مرتبة الصدّيقين. وهذه الكلمة كما يدلّ لفظها تحكي عن المبالغة في الصدق. أي أولئك الذين هم صادقون جدًّا. وما نعرفه أنّ الصدق لا ينحصر باللسان: وأحد مصاديقه هو الصدق في الكلام ومصداقه الآخر هو العمل بحيث إذا طابق الكلام والادّعاء كان صادقًا. ولأنّ العمل

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ١٧.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ٨٣.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ٧٢.

يحكي عن الاعتقاد الباطنيّ وحين يكون الإنسان في حكايته هذه صادقًا يحكي بشكلٍ تامّ عمّا في ضميره ولا يخفي فيه ما يخالفه، فإنّ عمله هذا يعدّ صادقًا. في المقابل، إذا لم يحكِ عما في ضميره أو حكى عن ذلك بشكلٍ ناقص فإنّه يكون غير صادقٍ. فحديث الصدق هو الذي يطابق الواقع والفعل. ولأنّ الكلام هو فعلٌ أيضًا فإنّ الذي يكون صادقًا في فعله لن يتكلّم إلّا ما كان حقًّا، وهو يعلم متى يتلفّظ بكلامه وفي أيّ موقع يكون حقًّا.

لهذا، فإنّ مثل هذا الحديث يحكي عن صدق الخبر والكلام، وهو يخبر أيضًا عن صدق قائله. فالصدّيق هو الذي لا يكذب بأيّ شكل كان، ولا يفعل ما لا يعلم أنّه حق، وإن كان مطابقًا لهواه. كذلك لا يتفوّه بما لا يعلم أنّه حقّ، ولا يقوم بأيّ عملٍ لا ينطبق مع العبوديّة.

ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف نفسه: «وإنّي لمن قومٍ لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصدّيقين وكلامهم كلام الأبرار»[1].

فإنّ مقام الصدّيقين هو من الرفعة بحيث أنّ الله تعالى حين يريد أن يصف مقام بعض أنبيائه فهو يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2].

أو ما ورد بشأن مريم، أمّ عيسى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[3].

ولا شكّ بأنّنا لا نطمع بالوصول إلى مقام كمقام الصالحين والصدّيقين، ولكن لا ينبغي أن تكون هممنا متعلّقةً بالأمور السافلة. فيجب علينا أن نسعى بدرجة استعداداتنا وإمكانيّاتنا للوصول إلى المراتب الأعلى. أن نسعى إلى الوصول للمراحل التي يمكن لغير المعصومين الوصول إليها. فقد وُجد من بين علمائنا الكبار من وصل إلى مراتب الإنسانيّة العليا. وعايشنا بعض هؤلاء وتعرّفنا عليهم. وما أكثر أولئك الذين وصلوا إلى ذلك الكمال الذي يليق بالإنسان الكامل، ونحن لا نعرفهم. ومن المسلّم أنّ الوصول إلى تلك المراحل العليا لا يمكن إلّا بالهمّة العالية والسعي المتواصل.

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٩٢، الصفحة ١٦٠.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٤١.

(٣) سورة **المائدة**، الآية ٧٥.

مقام العصمة مختصّ بمن اصطفى الله

لم يجعل الله تعالى عائقًا على طريق تكامل الإنسان. فإذا كانت همّته عاليةً فهو يمكنه أن يدرك المقامات العليا مثل مقام الصالحين، وإن لم يكن معصومًا؛ فمقام الصدّيقين والصالحين أدنى من مقام المعصومين. لهذا، يمكن لأيّ إنسانٍ أن يصل إلى تلك المقامات. وكلّ واحدٍ منّا يقدر أن لا يعصي الله طوال عمره، وفي الواقع إنّ من يسعى لكي لا يتلوّث بالمعاصي، ويبذل جهده ليجتنب أهواءه، ولا يخضع إلّا لما يريده الله ويرضاه: هو إنسان معصومٌ في مقام العمل، وإن لم ينطبق عليه اصطلاح المعصوم. وفي توضيح هذا الأمر نقول: العصمة في اللغة تعني المانع.

وفي الاصطلاح، هي الملكة النفسانيّة التي من حصل عليها لا تصدر منه أيّة معصية، بل لا يرتكب أيّ خطأ أو اشتباه. أمّا أنّ هذه الملكة، هل هي المانع (ولهذا يُقال ملكة العصمة) أم أنّ الله تعالى يعصم الإنسان الذي لديه هذه الملكة من الوقوع في الذنوب والأخطاء؟ فنقول إنّ كلًّا من المعنيَين صحيح: فسواءٌ قلنا إنّ الشخص المعصوم هو الذي لديه ملكةٌ مانعةٌ وعاصمة تمنعه من الوقوع في الخطأ والمعصية، أم قلنا إنّ المعصوم هو الذي يمنعه الله من الوقوع في الذنوب والاشتباهات والأخطاء، فلا نكون قد أخطأنا، لأنّ الله تعالى يحفظ هؤلاء بواسطة هذه الملكة. فالمعصوم هو المصون من الخطأ والمعصية أو أنّه المصون من المعصية فقط.

أقسام العصمة

١. العصمة من الذنوب: فالمعصوم هو الذي لا يرتكب المعصية باختياره وتعمّده.

٢. العصمة من الخطأ والاشتباه: فالمعصوم هو الذي بالإضافة إلى ترك المعصية فإنّه لا يقع في الخطأ والاشتباه.

والعصمة الأولى هي العصمة في مقام العمل. وأمّا العصمة الثانية فهي تشمل العمل وغيره؛ أي تشمل الإدراك وتشخيص الموضوعات أيضًا. فإنّ المعصوم بالمعنى الثاني هو الذي لا يرتكب الخطأ في مقام العمل ولا يقع في الاشتباه والخطأ عند تشخيصه. فهو الذي يعرف ويفهم جيّدًا ويبيّن بشكلٍ صحيح ويعمل بما هو مطلوب.

ويقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله) بشأن عصمة الأنبياء والأئمّة المعصومين: وقد نصّ القرآن بأنّ الله اجتباهم أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته قال تعالى﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) وآتاهم الله سبحانه وتعالى من العلم ما هو ملكةٌ تعصمهم من اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي وتمتنع معه صدور شيءٍ منها عنهم صغيرةً أو كبيرةً. وبهذا، تمتاز العصمة من العدالة فإنّهما معًا تمنعان من صدور المعصية لكن العصمة يمتنع معها الصدور بخلاف العدالة، وملكة العصمة لا تغيّر الطبيعة الإنسانيّة المختارة في أفعالها الإرادية ولا تخرجها إلى ساحة الإجبار والاضطرار. كيف؟ والعلم من مبادئ الاختيار ومجرّد قوة العلم لا توجب إلّا قوة الإرادة كطالب السلامة إذا أيقن بكون مانعٍ ما سمًّا قاتلًا من حينه فإنّه يمتنع باختياره من شربه قطعًا وإنّما يضطرّ الفاعل ويُجبر إذا أخرج من يجبره أحد طرفَي الفعل والترك من الإمكان إلى الامتناع(٢).

وبناءً على ما قيل، فإنّ أشخاصًا كأبي الفضل وعليّ الأكبر عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ والكثير من أبناء الأئمّة ليس لهم النوع الثاني من العصمة والتي هي من خصائص بعض الأنبياء والأئمّة المعصومين وفاطمة الزهراء. هذا، في حين أنّهم لم يرتكبوا طوال حياتهم أيّة معصية. ولا شكّ بأنّ مقام هؤلاء العظماء أعلى بكثير من مراتب سائر الناس، ولهم نوع عصمةٍ، وإن لم تكن تلك التي اختصّ الله بها أنبياءه والأئمّة.

فالنتيجة أنّ الإنسان يمكنه أن ينال مقام العصمة عن الذنوب في العمل، ولا يمدّ يده إلى أيّة معصية. فلو كان صاحب همّة عالية وسلك طريق رياضة النفس ومحاربة الأهواء وأحكم علاقته بالله لاستطاع أن يصل إلى مقام الصدّيقين. لهذا، يجب أن نجاهد من أجل الوصول إلى الكمالات المعنويّة، ونلقِّن أنفسنا أنّنا نريد أن نكون من الصدّيقين والصالحين. ولا شكّ أنّ الإنسان إذا سعى واكتسب الاستعداد واللياقة اللازمة، فإنّ الله تعالى لن يبخل عليه بمثل هذه المقامات. بل إنّ الله تعالى يرغّب عباده للوصول إلى تلك المراتب السامية. وهذا الدين الحنيف نراه يدعو أتباعه ليكونوا من أصحاب الهمم العالية، والله تعالى يحبّ لعبده المؤمن أن يكون من الذين لا يقنعون بما هم عليه، بل يتأسّون بمقام الأنبياء ويسعون إليه.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٧.

(٢) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١١، الصفحتان ١٦٢ و١٦٣.

فإذا لم نكن قادرين على الوصول إلى مقام الأنبياء وعصمتهم، فإنّه يمكننا أن نكون من الصدّيقين والصالحين. لأنّ عصمة الأنبياء والأئمة المعصومين ليست شرطًا ليتحقّق الإنسان بمقام الصدّيقين والصالحين.

وكما مرّ سابقًا، فالصدّيق مبالغةً في الصدق، وهو الذي لا طريق للكذب إلى حياته: لا في أقواله ولا في أفعاله ولا حتّى في تفكيره أي إنّه لا يفكّر بطريقة خاطئة أيضًا.

أهمية الصدق في الإيمان وطريق تحصيله

يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بشأن قيمة الصدق: «عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتّى يكتب عند الله صدّيقًا»[1].

ولعلّنا لا نجد للوهلة الأولى أيّة صعوبةٍ في تحصيل الصدق في القول والفكر والعمل، ونتخيّل أنّنا نستطيع بسهولة أن لا نكذب، وأن نفكّر بشكلٍ صحيح، وأن لا ندع للأفكار الباطلة طريقًا إلى أذهاننا. ونظنّ أيضًا أنّنا نستطيع أن نكون مستقيمين في سلوكنا. ولكنّ الواقع يخالف هذا الادعاء والتصوّر، فإنّ هذا أمرٌ صعبٌ جدًّا، نحن جميعًا ندّعي أنّنا نؤمن بالله وأنّ الله حاضرٌ دائمًا وناظرٌ إلينا، ولكن هل أنّ سلوكنا وأقوالنا تنطبق مع هذا الادّعاء؟

إنّنا أحيانًا نعمل بعض الأعمال في خلواتنا بحيث نخجل أن يطّلع عليها ولدٌ صغير! فكيف نعتقد بأنّ الله حاضرٌ ومع ذلك يصدر منّا هذا الفعل السيّء! ألا يعني هذا أنّنا نرى الله أقلّ من ولدٍ صغير، وأنّ ما كنّا ندّعيه لم يكن عن صدق وإنّما كان كذبًا وزورًا؟!

نحن نعتقد أنّ الإنسان لو قضى عمره في طاعة الله فإنّ الله سيثيبه على كلّ لحظةٍ فيه بما يفوق كلّ متاع الدنيا ولذائذها، ولكن، هل نحن صادقون في هذا الاعتقاد؟ وهل أنّ تصرّفاتنا تنسجم معه؟ لو كان أحدنا يمتلك كميّةً من الذهب، فهل يرميها في البئر؟ هل يوجد إنسانٌ عاقلٌ يفعل ذلك؟ بل حتّى لو

---

(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٢، الصفحة ١٥٧٨.

كان لدينا قطعة ذهبيّة واحدة فهل نضعها في مكانٍ يمكن أن تتعرّض فيه للضياع والسرقة؟ فإذا كان هذا الإنسان لا يصرف ثروته الماديّة عبثًا لأنّه يرى ذلك مخالفًا لسيرة العقلاء. فإذا كنّا نعتقد أنّ كل لحظة من عمرنا أثمن من حجر الألماس!! فلماذا نستهتر بها ونضيّعها! هذا على فرض أنّنا لا نعصي.. ألا يُعدّ ذلك تضييعًا ولغوًا.

لو كنّا نعتقد حقًّا أنّ لكلّ لحظة من عمرنا ثوابًا أفضل من الدنيا وما فيها، لما كنّا مستعدّين أن نضيّعها، مثلما نحافظ على أموالنا فلا نهدرها عبثًا. فلو أضعنا عشرة دراهم لاضطربنا وتشتّت فكرنا، وشغلنا بها ذهننا حتّى لو كنّا في الصلاة. (هناك بعض الأشخاص في العادة يبحثون عن ما أضاعوه في صلاتهم، ويستحضرون كلّ ما أضاعوه فيها!).

نرى بعض الناس يجمع ثروةً طائلةً، ويحافظ عليها بكلّ وجوده ولا يكون مستعدًّا لأن يتخلّى عنها أبدًا، كلّ ذلك لأنّه يعرف قيمتها. وكان قد تعب كثيرًا في جمعها. ولكن نفس هذا الشخص قد يصرف عمره في طريق الباطل بدون أيّ إحساسٍ بالخسارة والتضييع! وبعبارةٍ أخرى، من الممكن أن يكون هذا الإنسان بخيلًا في صرف ماله ولكنه لا يكون بخيلًا في صرف عمره. هذا مع أنّ قيمة المال لا تساوي قيمة العمر. إذن، فنحن لسنا صادقين في ادّعائنا وإيماننا بالآخرة وثوابها، الذي أُعدّ لكلّ لحظةٍ من لحظات عمرنا. ولو كنّا صادقين لما أضعنا هذا العمر الثمين، فما بالك بقضائه بالمعصية! وفي الواقع، إنّ حياتنا ممتزجة بهذه الادعاءات الكاذبة، ولو لا سمح الله ابتلينا بالكذب في العمل والقول أيضًا، لكانت مصيبتنا أعظم.

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

ولعلّ الله تعالى يريد بهذه الآية أن يفهمنا أنّ كثيرًا من المؤمنين يمتزج إيمانهم بالشرك وليسوا خالصين. فلو كان الإنسان يعبد إلهًا واحدًا ولا يشرك به لما كان في أعماقه أيّ مكانٍ للهوى وعبادة المقام والمنصب. وبكلمةٍ واحدة، لما كان لحبّ الدنيا من وجودٍ في قلبه. فوجود مثل هذه الدوافع والتعلّقات الباطلة يشير إلى أنّ لهذا الإنسان أكثر من معبودٍ واحد: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.

عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

أجل، إنّ أولئك الذين يتّبعون أهواءهم قد صارت أهواؤهم معبودهم، وأصبحوا بذلك مشركين. فإذا امتزج الإيمان بهوى النفس لم يعد خالصًا وصار مشوبًا بالشرك. وبالطبع، فإنّ هذا الشرك ليس على نسق واحد في الجميع. فالبعض قد يكون لديهم ٩٥٪ من الإيمان و٥٪ من الشرك. وقد يصل الشرك عند البعض إلى حدٍّ بحيث يقضي على الإيمان بالله من جذوره.

ومن الواضح أنّنا تلوّثنا بالمعصية. ولكن بالنسبة لذلك الذي قضى سنوات من عمره في المعصية واللغو، هل يمكنه أن يقرّر ويعزم على تركها، ليكون صادقًا في إيمانه واعتقاده ويتحوّل إلى صدّيق أم أنّ الأمر يبدو مستحيلًا؟ من المؤكّد أنّ هذا أمرٌ ممكن حتّى لو كان ذلك بعد ٦٠ سنةً من عمره! فالإنسان يمتلك قابلية العزم على أن يكون صدّيقًا ما دام حيًّا، بشرط أن يتوب من الماضي ويقرّر أن يصرف باقي عمره في طاعة الله. فلا يتصرّف في جميع شؤونه إلّا كما يريد الله: في نومه ويقظته، في جلوسه وقيامه، في معاشرته وتصرّفاته، داخل البيت وخارجه. فهذا الأمر المهمّ ممكن التحقّق ولكنّه لا يحصل في مدّةٍ وجيزة. إنّ صيرورة الإنسان صدّيقًا لا يتحقّق في مدّةٍ قصيرة.

فالصدق ملكةٌ ينالها الإنسان بالسعي المستمرّ وعلى المدى البعيد. وذاك الذي قرّر أن يصبح صدّيقًا بعد قضائه ٦٠ سنة من عمره في المعاصي يجب أن يسعى للحصول على ملكة الصدق بالحدّ الذي أشرنا إليه. وهنا، من الممكن أن ينال تلك الملكة بعد سنتَين من التمرين والرياضة والاستمرار ليصبح بذلك صدّيقًا، وتكون مرتبته أعلى من ذلك الذي سلك هذا الطريق بسنةٍ واحدة من المجاهدة، ويكون أجره مضاعفًا أيضًا. وهكذا لو ازداد عدد السنوات التي يسعى فيها لذلك المقام فترتفع بذلك درجته، فكيف إذا كان هذا الإنسان قد عزم منذ البلوغ على أن يكون عبدًا خالصًا لله. ولم يسلك إلّا طريق الله ولم يفكّر بسواه ولم يحدّث نفسه بمعصية أيضًا.

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

لعلّ التصديق بهذه المسألة صعبٌ علينا. فكيف يمكن للإنسان أن يصل إلى مرحلةٍ لا يفكّر بها في المعصية. إلّا أنّنا قد سمعنا من علمائنا عن أفرادٍ وصلوا إلى هذا المقام. يُنقل أنّ المرحوم السيّد الرضي وأخاه السيّد المرتضى عليهم الرحمة أرادا أن يصلّيا جماعةً، فأراد السيّد المرتضى وهو الأخ الأكبر أن يلمّح إلى أنّه لا يوجد في عدالته أي شبهة. فقال لأخيه: أيّ واحدٍ منّا لم يرتكب أيّة معصية حتّى الآن فليتقدّم إلى إمامة صلاة الجماعة. وأراد بذلك أن يُفهم أخاه أنّه لم يرتكب أيّة معصيةٍ منذ بلوغه! فأجابه السيّد الرضيّ قائلًا: بل، فليتقدّم من لم يحدّث نفسه بأيّة معصية أيضًا!! وهو بذلك يقصد أنّه لم يفكّر بالمعصية منذ أن بلغ!

وينقل أحد الأعاظم أنّ رجلًا من الأسرة القاجاريّة عاش قبل ٦٠ سنةً في إيران. وقد شغل في بعض أيّام حياته منصب القنصل الإيرانيّ في العراق. وكان صاحب قامةٍ رشيقة وتعلوه هيبة. لهذا، حين كان يمشي بوقاره واحترامه فهو يوحي للآخرين بأنّه شخصٌ متكبّر. ويقول هذا العالم العظيم بأنّه كان يشعر من أعماق قلبه بأن لهذا الرجل شخصية أخرى مليئة بالتواضع. وقد عرفه عن قرب، حتّى إذا أدركه الموت، طلب أن يحضر إليه اثنان من المراجع ليجعلهما وصيّين له بعد موته. فقال في حال الاحتضار وهما حاضران: يا ربّ أنت شاهد على أنّني منذ أن بلغت سنّ التكليف لم أرتكب أيّة معصية عن علمٍ وعمد! فقد كان هذا الرجل في الوقت الذي يعترف فيه الناس عادةً بمعاصيهم وفي حضور مرجعَين، يقول إنّني لم أرتكب أيّة معصيةٍ منذ البلوغ. ثمّ يتابع ذلك العالم قائلًا وحين سمعت بهذا علمت أنّ كلام هذا الرجل وادعاءه كان صحيحًا. لعلّ ذلك العالم الكبير كان مطّلعًا على ما في باطنه، لأنّ لبعض أولياء الله مثل هذا الاطّلاع.

فمثل هذا الشخص الذي لم يرتكب معصيةً منذ مطلع شبابه ولم ينظر إلّا إلى الله وكان بصدد أداء تكاليفه الإلهيّة لن يكون بعيدًا عن مقام الصدّيقين.

الدرس الثلاثون

مقام الذكر، والعشرة المفيدة، ومعيار اتّخاذ الرفيق

- ❖ فوائد العزلة والانزواء
- ❖ فوائد العشرة والمخالطة
- ❖ الألفة والأخوّة موهبةٌ إلهيّة
- ❖ معيار اتّخاذ الصديق والرفيق
- ❖ عظمة ذكر الله في وسط الغافلين
- ❖ مسؤوليّة الإنسان تجاه الكلام
- ❖ حسن مؤاكلة المؤمن وضرورة اجتناب طعام الفاسق

«يا أبا ذر، الذاكر في الغافلين كالمقاتل في الفارّين. يا أبا ذر، الجليس الصالح خيرٌ من الوحدة والوحدة خيرٌ من جليس السوء وإملاء الخير خيرٌ من السكوت والسكوت خيرٌ من إملاء الشر.

يا أبا ذر، لا تصاحب إلّا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلّا تقيّ ولا تأكل طعام الفاسقين. يا أبا ذر، أطعم طعامك من تحبّه في الله وكل طعام من يحبّك في الله عزّ وجلّ».

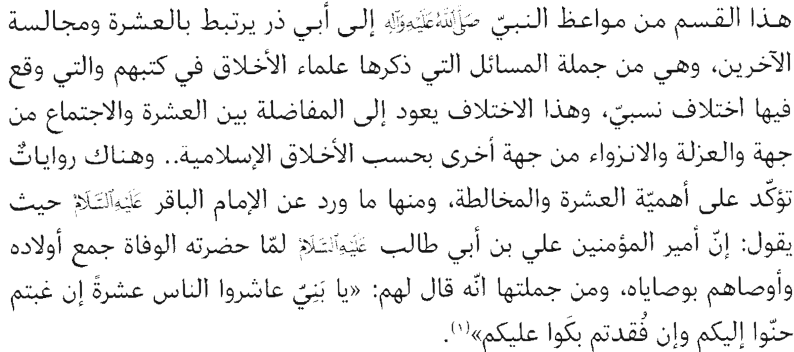

هذا القسم من مواعظ النبيّ صَلَّاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى أبي ذر يرتبط بالعشرة ومجالسة الآخرين، وهي من جملة المسائل التي ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم والتي وقع فيها اختلاف نسبيّ، وهذا الاختلاف يعود إلى المفاضلة بين العشرة والاجتماع من جهة والعزلة والانزواء من جهة أخرى بحسب الأخلاق الإسلامية.. وهناك رواياتٌ تؤكّد على أهميّة العشرة والمخالطة، ومنها ما ورد عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث يقول: إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا حضرته الوفاة جمع أولاده وأوصاهم بوصاياه، ومن جملتها انّه قال لهم: «يا بَنِيّ عاشروا الناس عشرةً إن غبتم حنّوا إليكم وإن فُقدتم بكَوا عليكم»[١].

وقد ذكر علماء الأخلاق مجموعةً من الفوائد للعزلة والانزواء تظهر أنّ المخالطة ومجالسة الناس أمرٌ غير مطلوب، وفي المقابل ذكروا أيضًا للمجالسة والمخالطة فوائد عديدةً، وتعرّضوا لمجموعة من المضارّ للانزواء.

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٢، الصفحة ٢٤٧.

فوائد العزلة والانزواء

من جملة الفوائد التي ذكروها للانزواء والعزلة:

أ. الانزواء عن المجتمع يحقّق الفراغ أو الشوق للعبادة والتفكّر بالأمور الدنيويّة والأخرويّة والأنس بمناجاة الله والاستعداد لإدراك الأسرار الإلهيّة والتفكّر بعجائب الخلقة. بينما تؤدّي المخالطة إلى الحرمان من هذه التوفيقات: يُقال إنّه بسبب الدور المهم والتربويّ للعزلة اختار رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ قُبيل بعثته التفرّد في غار حراء لمناجاة الله وابتعد عن المجتمع حتّى شعّ نور النبوّة في قلبه ولم يعد بعد ذلك للخلق القدرة على منعه من ذكر الله.

فهو وإن كان ببدنه بين الناس ولكنّ قلبه كان مع الله ويعيش بذكر الله. فبدون قوّة النبوّة والرسالة وبدون نيل مقام القرب الإلهيّ لا يمكن للإنسان أن يجمع بين المخالطة الظاهريّة للناس والتوجّه الباطنيّ إلى الله.

ب. بالاعتزال يخلص الإنسان من الكثير من المعاصي. تلك المعاصي التي تحدث غالبًا في أجواء المخالطة مثل ١. الغيبة و٢. الرياء. ففي العشرة، يُبتلى الإنسان بالرياء والنفاق، لأنّه إذا كان لا يريد مداراة الناس وأراد أن يمنعهم عن أفعال السوء وينهاهم عن قول السوء فإنّهم يؤذونه. وفي المقابل، إذا أراد أن يداريهم ويسكت عن أعمالهم السيّئة فإنّه سيُبتلى بالرياء.

٣. السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٤. عدم تصفية الطبيعة والخلق الإنسانيّ من الأخلاق الرذيلة والأعمال السيّئة التي تؤدّي إلى الحرص على الدنيا والتي تنبع من مخالطة الناس.

ومن الطبيعيّ إذا لم يكن الإنسان مهذّبًا ولم يصل إلى تلك المرحلة التي يمكنه أن يسيطر على نفسه فيمنعها من المزالق، فإنّه سوف يخطئ حين يكون بين الناس ذلك لأنّ محادثة الناس ومعاشرتهم تؤدّي إلى إيجاد أرضيّة التلوّث بالمعصية.

ج. الخلاص من النزاعات والاختلافات وحفظ الدين ومنع النفس عن المزالق الاجتماعيّة. ذلك لأنّ التجمّعات لا تخلو من العصبيّات والخصومات والعداوات. فإذا فرّ الإنسان، لهذا السبب، من المجتمع فإنّه يُصان من هذه الانحرافات.

د. النجاة من أذيّة الناس: فأحيانًا يؤذي الناس هذا الإنسان بالتورّط في الغيبة وأحيانًا بإساءة الظن به وتارةً باتّهامه وأخرى بالتعرض له والطمع فيه بشكل غير مبرّر. من هنا، حين يبتعد الإنسان عن الناس فهو يتخلّص من هذه الأشياء. بينما إذا أراد أن يخالطهم ويجالسهم ويشاركهم بأعمالهم فلن يأمن من شرّ حسدهم وعداواتهم. فكلّ لحظةٍ تحمل معها فتنةً، وتحمل معها إمكانيّة توجيه الضربة إليه حتّى تسقطه من مقامه ومنزلته.

ه. العزلة والانـزواء تجنّب الإنسان طمع الناس فيه وطمعه فيهم. فراحة الإنسان حين يقطع الناس طمعهم فيه. ذلك لأنّ الإنسان لا يمكنه أن يرضي الناس كلّهم وبشكل دائم. لأنّ توقّعاتهم ستبقى أكثر ممّا يقدر عليه. ولهذا، فإنّ القيام بإصلاح النفس أهمّ من الحصول على رضا الناس. فالذي ينهض لأداء حقوق الآخرين كالمشاركة في تشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم والمشاركة في مجالس أفراحهم وأتراحهم لو أراد أن يؤدّي جميع هذه الأمور لذهب وقته هدرًا ولمنعه ذلك عن القيام ببقيّة وظائفه.. وإذا رضخ للبعض وامتنع عن البعض الآخر، فإنّه مهما قدّم للآخرين من أعذار، فإنّهم لن يقبلوا عذره. لهذا، يصبح مدينًا لهم ممّا يؤدّي إلى المزيد من تكدّر النفوس ونشوء العداوات. أمّا بالنسبة لذلك الشخص الذي ابتعد كليًّا عن هذه الأمور فإنّه لن يزعج نفسه كثيرًا بمثل أوجاع الرأس هذه.

و. من يختار الانزواء يكون في راحةٍ من رؤية المغرورين والحمقى الذين يؤذون الإنسان بتصرّفاتهم. وقد قيل للأعمش لماذا ابتليت في عينَيك؟ فقال: لأنّني نظرت إلى المغرورين والمتكبّرين. لهذا، من الناحية الدنيويّة، إنّ مشاهدة الحمقى والمغرورين تترك أثرًا سيّئًا في روح الإنسان. ومن الجهة الأخرويّة، حين ينظر إليهم الإنسان وينزعج فإنّه لن يتوانى عن القيام بغيبتهم. هذا بالإضافة إلى أنّه إذا شعر بالأذى من غيبتهم واتّهامهم وحسدهم وافترائهم فإنّه لن يقصّر في الردّ عليهم، ممّا يؤدّي إلى فساد دينه. لهذا، سيكون بمأمن من كلّ هذه الآفات إذا اعتزلهم.

فوائد العشرة والمخالطة

إنّ الكثير من الأهـداف والحاجات الدينيّة والدنيويّة تحصل بمساعدة الآخرين، وبدون معاشرتهم ومخالطتهم لا مجال لتحقّقها. فما نناله من هذه العشرة نحرم منه

بالعزلة والانزواء. وطبيعيّ أنّ الحرمان من تلك المنافع يعدّ من جملة آفات العزلة ومضارّها. وبالتوجّه إلى ما ذكر يمكن الإشارة إلى بعض أهمّ فوائد العشرة:

أ. التعلّم والتعليم الذي يعرف الجميع أهميّته، وهو من أجلّ العبادات، وهو لا يتحقّق بدون العشرة. بينما الذي يختار العزلة والانزواء فإنّه يُحرم من أداء هذه الوظيفة المهمّة: التعلّم أو التعليم ونشر العلم. ومن المسلّم أنّ الإنسان إذا بقي بسبب العزلة بعيدًا عن تلقي العلوم الدينيّة والدنيويّة ولم يتعلّم أحكام دينه فسوف تلحق به أضرار وخسائر لا تُجبر.

ب. الاستفادة من الآخرين وإيصال النفع إليهم: وطبيعيّ أنّ الاستفادة من الناس إنّما تحصل بالتجارة والمعاملات معهم. وهذا الأمر المهمّ لا يتيسّر إلّا بالعشرة. والذي يريد أن يستفيد من الآخرين يجب أن يترك الانزواء ويسعى لإقامة العلاقات معهم. ولا شكّ بأنّ سعيه يجب أن يكون في ظلّ طاعة الله وإرادته.

وأمّا إيصال النفع لهم فذلك يتمّ من خلال ما لديه من مال وقوّة وفكرٍ، حيث يسعى لرفع احتياجاتهم وتأمينها. في الواقع، إنّ السعي في هذا المجال له ثواب عظيم وهو ممّا لا يتحقّق إلّا بالعشرة. فمن يقدر على حمل همّ الآخرين ويسعى لرفع مشاكلهم يكون قد أدرك فضيلةً كبرى: والإنسان المنزوي لا يقدر إلّا على أداء العبادات الفرديّة كالنوافل والمستحبّات وبعض الأعمال الخاصّة.

ج. التربية والتأديب والتأدّب: فالتأدّب واستقبال التربية، أي السعي لعلاج وتحمّل أخلاق الناس السيّئة وطبائعهم المنفّرة وأذاهم، له دور كبير في قمع النفس والشهوات. وهذا لا يتحقّق إلّا في ظلّ العشرة والمخالطة. فالذي لم ينهض لتهذيب نفسه وبنائها ولا يمكنه أن يسيطر على شهواته برعاية الحدود الشرعيّة، ستبقى العشرة البنّاءة بالنسبة له أفضل من العزلة.

يكون تأديب وتربية الآخرين في تحذيرهم ومنعهم من ارتكاب الأعمال السيّئة كما يفعل المعلِّم مع تلامذته.. فينبغي أن نقارن بين ثمار العزلة وثمار العشرة لنتبيّن حجم تأثير الروابط الاجتماعيّة في تهذيب أخلاق الإنسان، ثمّ نختار الأفضل.

د. الرفقة والأنس بالغير: وهذا الأمر المهمّ يحصل من خلال حضور المجالس والعشرة والاستئناس بالغير. ولا شكّ في وجوب اجتناب كلّ صداقةٍ تؤدّي إلى

ارتكاب الحرام. ينبغي أن تكون الصداقة على أساس إرادة الله وشرعه. فينبغي أن نكون بصدد مجالسة من يساعدنا على الرقيّ في درجات الكمال والمعرفة، ولا يهدر أوقاتنا واستعداداتنا الماديّة والمعنويّة. فللرفيق والصديق دور مهمّ في وصول الإنسان إلى السعادة والكمال أو الشقاء والخذلان. ولهذا، ينبغي مراعاة الدقّة الكاملة في اختياره ومصاحبته. وعن النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[١].

وللقمان الحكيم وصيّة لابنه في أهميّة مجالسة العلماء حيث يقول: «يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتَيك فإنّ الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يُحيي الأرض بوابل السماء»[٢].

هـ. الفائدة الأخرى للعشرة هي تحصيل الثواب وإيصاله للناس. فأمّا تحصيله فذلك من خلال الحضور في تشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم وزياراتهم وصلة أرحامه ومشاركتهم في همومهم وأفراحهم. لأنّ مثل هذه الأمور تؤدّي إلى تقوية عقد الأخوة وإدخال السرور إلى قلوب المسلمين ممّا له ثوابٌ عظيمٌ جدًّا. وأمّا إيصال الثواب لهم فذلك يتمّ من خلال فتح باب بيته أمامهم حتى إذا نزلت به مصيبةٌ أسرعوا إليه لتعزيته ومساندته وإذا ألمّت به الأفراح ونزلت عليه النعم باركوا له ذلك وهذا ممّا يستوجب لهم الأجر والثواب. مثلما أنّ العالم إذا فتح باب بيته للآخرين فإنّه يوصل إليهم الثواب الكبير بحضورهم في مجالسه.

و. التواضع: ومن مجالسة الآخرين ينال الإنسان مقام التواضع والذي يُعدّ من أعلى المقامات وأرفعها. وهو ممّا لا يحصل بالعزلة والخلوة. لأنّ التكبر أحيانًا يكون باعثًا على اختيار العزلة: ويُنقل أنّ حكيمًا ألّف ٣٦٠ رسالةً في الحكمة حتّى رأى لنفسه عند الله مقامًا رفيعًا. فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان أن قل لذلك الحكيم أنّك قد ملأت الأرض بالنفاق والاضطراب، وأنا لا أقبل أعمالك التي أوجدت الاضطراب بين الناس. فاختار ذلك الحكيم العزلة والوحدة وابتعد عن المجتمع واختار لنفسه مسكنًا تحت الأرض، وقال لنفسه: «الآن سوف يرضى الله عنّي».

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢٠٤.

فأوحى الله إلى ذلك النبيّ مجدّدًا أن قل له أنّي لن أرضى عنه إلّا إذا خالط الناس وصبر على أذاهم. فالتحق هذا الحكيم بالناس وخالطهم في أسواقهم وأزقّتهم ومجالسهم وطعامهم. حتّى أوحى الله إلى نبيّه أنّه قد رضي عنه.

فما أكثر ما يُبتلى الإنسان المعتزل للمجتمع بالتكبّر ثمّ يمنعه ذلك التكبّر مرّةً أخرى من فرصة الاجتماع بالآخرين، لما يراه في نفسه من الفضل على الناس.

ز. اكتساب التجارب: وتحدث التجارب بالمعاشرة والمجالسة وذلك حين يطّلع الإنسان على أحوال الناس وأفكارهم وأعمالهم، وبعد ذلك يدرك ما يجري عليهم من تحوّلات وتبدّلات فيستفيد من ذلك خير زاد لنفسه لاختيار مسيره الصحيح في الحياة. فمن المسلّم أنّ العقل الغريزي لا يكفي وحده لإفهامه مصالح الدين والدنيا. بل يحصل ذلك إذا ضمّ إليه التجربة والمعايشة. ولا نتوقّع من غير المجرّب الذي يختار العزلة أن ينال ذلك.

وممّا ذُكر يتّضح أنّه لا يمكن أن ننفي بشكلٍ كامل أهميّة العزلة والخلوة وكذلك لا يمكن أن نعدّ العشرة والمخالطة أمرًا مطلوبًا دائمًا. بل بالنظر إلى روحيّة كلّ فردٍ وحالته وأحوال وروحيّة الآخرين الذين يريد أن يجالسهم وينتخبهم أصدقاء له يختلف حكم المسألة. وباختصار، إنّ اجتناب الناس يؤدّي إلى تأجيج العداوة، والإفراط في مخالطتهم يؤدّي إلى انحرافات عمليّة. لهذا، يجب أن يراعي الإنسان مسلك الاعتدال بين الانزواء والعشرة.

الألفة والأخوّة موهبةٌ إلهيّة

ولا شكّ بأنّ الله تعالى قد جعل كلّ ما خلقه من الجبال والسهول والغابات والبحار والبشر والحيوانات نعمًا. وبتعبير أهل العلم، فإنّ لهذا العالم نظامًا منسجمًا ترتبط فيه جميع أجزائه ارتباطًا محكمًا. وهذا هو النظام الأحسن المسيطر على كلّ العالم.. وقد جُعل كلّ شيءٍ في مكانه. وهكذا يحصل لجميع المخلوقات بارتباطها الوثيق النفع والانتفاع. وحسب هذا الأصل، فإنّ الناس ينبغي أن يسيروا باتجاه الهدف الذي جعله الله تعالى لحياتهم، ممّا يعبَّر عنه بالكمال الإنسانيّ. وينبغي أن يكون كلّ واحدٍ منهم مفيدًا للآخر ويستفيد من غيره. ومن جانبٍ آخر، فإنّ الله تعالى وإن كان قد جعل من حيث المبدأ، كلّ إنسان نعمةً لغيره، يعينه في هذا النظام

الأحسن للوصول إلى كماله، ولكن بما أنّ الإنسان فاعلٌ مختار فهو يمكنه أن يبدّل هذه النعمة الإلهيّة إلى نقمة وشقاء، كما يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[١].

وبالالتفات إلى ما ذُكر، يمكن للإنسان أن يكون نعمةً لغيره، يستفيدون منه، كما يمكن أن يكون بالعكس سببًا لضررهم وشقائهم. فالعشرة والأخوّة من جملة النعم الإلهيّة الكبرى التي أولاها الحقّ تعالى عنايةً خاصّةً حتّى قال: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢].

فالألفة واستحكام الأخوّة بين الناس نعمة إلهية يجب معرفة قدرها. وينبغي السعي لتثبيتها. مثلما أنّ على كلّ مسلمٍ أن يكون لأخيه عونًا وظهرًا وسندًا يشاركه أحزانه وأفراحه ويبتعد عن ظلمه وإيذائه.

يقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه»[٣].

ولكن لا يصحّ القول إنّ عشرة جميع الناس ومخالطتهم مفيدةٌ. ولا العكس صحيح فيُقال إنّها مطلقًا مضرّة، وأنّ على الإنسان أن يجتنبها في كلّ الأحوال. بل ينبغي الالتفات إلى المعيار الذي يميّز بين العشرة البنّاءة والمفيدة وبين العشرة المضرّة. وهكذا يدرك الإنسان من تكون عشرته مفيدةً له وتعينه على الوصول إلى الأهداف الإلهيّة والمعنويّة، من خلال السير على طريق تكامله الروحيّ والمعنويّ وأداء تكليفه. ومن الذي يستفيد منه ويفيده. فإنّ التأثير الإيجابيّ على الآخرين عون كبير على تكامل الإنسان نفسه. لو رأى الإنسان نفسه مكلّفًا بخدمة الآخرين سواء الخدمة الماديّة أو المعنويّة والتي هي أعلى من الخدمة الماديّة حتمًا ثمّ قام بإرشادهم إلى طريق الخير والسعادة فإنّ ذلك يحقّق له التكامل أيضًا. لأنّه بذلك قد قام بتكليفه الذي يُعدّ عبادةً لله وهي التي تحقق له التكامل.

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٣٨.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٣.

(٣) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٦٦.

ففي هذا العالم، إنّ كلّ خدمةٍ نؤدّيها للآخرين، إذا اقترنت بالنيّة الصحيحة وعلى النحو المشروع، تعود علينا بالنفع. ذلك لأنّنا في الواقع نعبد الله، فنحصل بذلك على الثواب. فلو كانت العشرة سببًا لإيصال الخير إلى الآخرين أو تلقّي الخير المعنويّ منهم، وعاملًا على مضاعفة الالتفات إلى الهدف، وتزيد من العلم ومن المعرفة والتوجّهات القلبيّة وتدلّ على الطريق الأفضل في الحياة فمن المقطوع به أنّ مثل هذه العشرة مفيدةٌ.

وفي المقابل، إنّ عشرة أولئك الذين لا يذكّرون بالله، ولا يكتفون بذلك بل يسبّبون الغفلة لمن يعاشرهم، ويدعون بأقوالهم وأفعالهم إلى حركة نزوليّة وإلى السقوط في الانحراف، فإنّ هذه العشرة ليست مفيدةً ولا مطلوبةً. ولهذا، لا ينبغي أن نختار أيّ إنسانٍ نلقاه كصديق ورفيق. بل ينبغي أن تكون خصائصه المميّزة والفاضلة أساسًا للصداقة، حتّى تبعث تلك الخصائص الحميدة أثرًا طيّبًا عند مصاحبته ومجالسته. هذا وإن كان أحيانًا في الرفقة والصداقة مصالحُ دنيويّة كالاستفادة من المال أو المقام، ولكن الأهمّ هي الفوائد الدينيّة كالاستفادة من علمه وعمله. أمّا استغلال مقامه وموقعيته فمن أجل عدم التعرّض لأذيّة من يزاحمه ويقلقه، ويمنعه عن عبادة الله تعالى، أو نستفيد من ماله لكي لا نضيّع وقتنا وعمرنا في طلب القوت وحينئذٍ نقوم بوظائفنا على النحو الأحسن.

معيار اتّخاذ الصديق والرفيق

وبالتوجّه إلى صعوبة اختيار الصديق المناسب، ونظرًا للآثار السيّئة والحسنة للأصدقاء السيّئين والجيّدين، نجد أنّ المصادر الإسلاميّة قد خصّصت أبوابًا لبيان معايير الصداقة. وقد عدّد أولياء الدين صفات وخصائص الصديق المناسب. منها: حين سئل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن أفضل من نجالس فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من ذكّركم بالله رؤيته وزادكم في علمكم منطقه وذكّركم بالآخرة عمله»[١].

وورد عن النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سئل: من نجالس؟ فقال: «من يذكّركم الله رؤيته ويرغّبكم في الآخرة عمله ويزيد في منطقكم علمه. وقال لهم تقرّبوا إلى

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ١٨٦.

الله بالبعد من أهل المعاصي وتحبّبوا إليه ببغضهم والتمسوا رضاه بسخطهم»[١].

ويحدّثنا القرآن الكريم على لسان ذلك الذي انحرف عن مسير الحقّ ومسير الأنبياء وقد ظلم نفسه فحلّ عليه غضب الله وهو غارقٌ في الحسرة والندامة اللا متناهية ويعضّ على يديه فيقول: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي...﴾[٢].

مثل هذه الآيات، تدلّ على أنّ من عوامل الضّلالة صديق السوء ومرافقة الضالّين، لهذا أوصى المؤمن بالابتعاد عن أهل السوء والاجتماع بهم.

وهكذا، لا نجد الجميع متساوين في هذا الأمر. فالبعض قد ربّوا أنفسهم وحصلوا على الإرادة القويّة التي لا يتأثّرون معها بالآخرين، في أيّ ظرفٍ كانوا، بل يؤثّرون فيهم. ولكن هناك من يكون صاحب إرادة وإيمان ضعيفَين بحيث أنّه يتأثّر بسرعة بمن يعاشر وينصبغ بصبغته وسلوكه وأخلاقه. لهذا، ينبغي أن يكون الإنسان ملتفتًا دومًا إلى من يعاشر، وإلى الذي يمكن أن يؤثّر فيه.. وأصحاب الإرادة القويّة وإن لم يتأثّروا بالآخرين ولكن عليهم أن ينظروا إلى من يفيدهم أكثر وما هي الأولويّة في معاشرتهم.

ففي جميع الظروف، إذا كنّا بين أولئك الذين يذكّروننا بالله والآخرة أكثر، ويزيدون في علمنا ويشجّعوننا على أعمال الخير وخدمة الناس وبمساعدتهم نستطيع أن نخطو في المسير الصحيح للحياة بشكل أسهل: فإنّ مثل هذه العشرة مطلوبة وبنّاءة. أمّا في غير هذه الصورة فإنّ للعشرة نتائج عكسيّةً وسلبيّةً. فلا يمكن القول إنّ كلّ عشرة فهي مطلوبة مطلقًا وإنّ على الإنسان أن يسعى دائمًا لإقامة العلاقات بذريعة أنّه صاحب أخلاقٍ طيّبة ووجه بشوش. وفي الواقع، يكون الإنسان في مقام خداع نفسه بهذا الظنّ.

إنّ مرافقة أيّ إنسان كان لا تكون نافعةً: فلربّما يكون الإنسان في البداية صاحب نيّةٍ صافية في إقامة هذه العلاقة، ثمّ يلتفت بعد مدّة إلى أنّ هذه العلاقة

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٨٩، الحديث ١٨.

(٢) سورة **الفرقان**، الآيتان ٢٨ و٢٩.

مضرّة له بعد أن اطّلع على أنّهم لا يحذرون الكذب والغيبة واللغو، ويدعونه إلى زخارف الدنيا. أو أنّ سلوكهم يجرّه إلى الدنيا ويجعله غافلًا عن الآخرة. ففي هذه الحالة، لا ينبغي لهذا الإنسان أن يرتبط بهؤلاء بحجّة أنّه إنسانٌ ودود وبشوش، إلّا إذا كان يمتلك قوّةً روحيّةً يمكن أن تترك أثرًا طيّبًا فيهم. هذا مع علمه بمدى انحراف سلوكهم. ولكنّه مطمئنٌ بأنّه سوف يهديهم بالنصيحة والموعظة. فمثل هذه العشرة تكون مطلوبةً في شرعنا المقدّس ولها أهميّة خاصّة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الآخرين وفي حديثٍ عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «انظروا من تحادثون، فإنّه ليس من أحدٍ ينزل به الموت إلّا مُثّل له أصحابه إلى الله، إن كانوا خيارًا فخيارًا وإن كانوا شرارًا فشرارًا...»[١] .

فإذا سئلنا عن نظرة الأخلاق الإسلاميّة إلى الاجتماع والعشرة أهي مطلوبة أم المطلوب هو العزلة والانزواء؟ نقول في الجواب: ليس هناك قاعدة عامّة تقول إنّ العشرة مطلوبةٌ دائمًا وإنّ العزلة مرفوضةٌ.. وإنّما اعتزال أولئك الذين يحملوننا على ارتكاب المعاصي ويحرفوننا عن الصراط المستقيم ويضعّفون إيماننا ويوجدون في باطننا الشكّ والترديد أمرٌ مطلوب وضروريّ.

وفي المقابل، إن ترك العشرة والابتعاد عن القضايا الاجتماعيّة، وعدم استقبال النعم التي جعلها الله في ظلّ الحياة الاجتماعيّة، هو من عوامل الحرمان التي تمنع الإنسان من أداء ما كلّفه الله تعالى به من مسؤوليّةٍ تجاه الآخرين.

وفي الواقع، إنّ الأثر السلبيّ للعزلة هو أنّها تؤدّي إلى ترك الكثير من الواجبات والتكاليف: فإنّه يحرم الإنسان من العلم واكتساب الكمالات التي تحصل في ظلّ الحياة الاجتماعيّة ومن الآداب والسلوك الأخلاقيّ الحسن وكذلك من المساعدات الماديّة والمعنويّة التي تفيده لدنياه وآخرته. فلو بنينا على الانزواء والعزلة والعبادة وترك الآخرين لعُطّلت أحكام الإسلام الاجتماعيّة. من هنا، فإنّ للعزلة كما للعشرة أهميّةً فائقةً بشرط أن تكون في محلّها.

إنّ اختيار الوحدة لا يُعدّ بذاته أمرًا مطلوبًا إلّا إذا كان لأجل أداء العبادات (بعيدًا عن الرياء) ومن أجل المزيد من التركيز والابتعاد عن المشاغل اليوميّة.

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٣٨.

كما هو الحال مع صلاة الليل، حيث يكون الليل فرصةً مناسبة للعبادة الخاصّة والمناجاة مع الله والتفكّر في النفس وجلاء القلب في الذكر. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[١].

فلا ينبغي للإنسان أن يحمل مسبحته في النهار وينزوي بحجّة الاشتغال بذكر الله، بل عليه أن يدخل بين الناس ويقوم بوظائفه تجاههم. فبدون المشاركة في الاجتماعات والعشرة، واختيار العزلة والوحدة لن يتيسّر له أيّ تحصيلٍ أو تدريسٍ أو وعظٍ وإرشادٍ، ولن يوفّق للدعوة إلى الخير ومساعدة الفقراء والمحرومين والقيام بأعمال البرّ المختلفة والتي تندرج تحت عنوان المسؤوليّات الاجتماعيّة التي كلّف الله بها الفرد إزاء المجتمع. فما بالك بالأبعاد السياسيّة في المجالات الداخليّة والدوليّة ومساعدة سائر المسلمين المتواجدين في المناطق المختلفة من العالم.

ومن جانبٍ آخر، لا ينبغي للإنسان أن يظنّ بأنّ هذه البركات والخيرات الحاصلة في الاجتماع تعني أنّ كلّ تجمّع وعشرة فهي مطلوبة بأيّ حال. فإنّ هذا يؤدّي إلى انحراف الإنسان تلقائيًا. فكما بيّنا سابقًا، إنّ على الإنسان أن يسعى لرعاية المصالح الإلهيّة والجوانب الشرعيّة في العشرة حتّى لا يمنعه ذلك من الوصول إلى هدفه الأساسيّ وإلى سعادته. ويقول الإمام الباقر عَلَيهِ السَّلَامُ لأحد أصحابه المدعو بصالح: «اتّبع من يبكيك وهو لك ناصح ولا تتّبع من يضحكك وهو لك غاشّ وستردون على الله جميعًا فتعلمون»[٢].

عظمة ذكر الله في وسط الغافلين

لو قُدّر أن يتواجد الإنسان في جمعٍ من الغافلين عن ذكر الله والحياة الآخرة، فماذا يفعل لكي لا يُبتلى بالمعصية؟ فإذا أراد أن يتركهم، فقد يؤدّي فعله هذا إلى ردّة فعلٍ سلبيّة منهم، حيث يظنّون فيه سوءًا ويتّهمونه بالتكبّر والتعالي عليهم.

فمن جملة الآداب الإسلاميّة أن لا يرى الإنسان نفسه أفضل من الآخرين، وأن لا يظهر ذلك في عمله، كما ورد عن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ في مواعظه السابقة

---

(١) سورة **المزمل**، الآيتان ٦ و٧.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٣٨.

لأبي ذر قوله: «**يا أبا ذر؛ لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى الناس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعر ثمّ يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقر حاقرٍ لها**».

فالإنسان لا ينبغي أن يعدّ نفسه أفضل من أيّ فاسق مهما كان. فربما يتوب هذا الفاسق ويقبل الله توبته، في حين يكون هذا المؤمن قد رضي بعبادته وابتلي بالغرور الذي يؤدّي إلى هلاكه. لهذا، قد يكون هناك ظروفٌ توجب على الإنسان أن لا ينسحب من هذا الجمع لكي لا يواجهوه بشكل سلبيّ، ولا يسيئوا الظنّ به. هذا، بالإضافة إلى أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون واجبًا إذا كان هذا الجمع في حالة معصية الله، وعليه أن يحذّرهم من هذه المعصية فيكون حضوره بينهم وسيلةً للنهي عن المنكر. ولكنّ الأمر ليس على هذا المنوال دائمًا، فقد يكون هذا الجمع من غير أهل الخير والصلاح ولكنّهم من الغافلين المشتغلين باللغو وهم لا يرتكبون المحرمات والمعاصي لكي يكون إنذارهم واجبًا.. وبشأن هذا الجمع، يقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**يا أبا ذر الذاكر في الغافلين كالمقاتل في الفارين**».

حين يكون الإنسان في مثل هذا الجمع الذي لا يُستفاد منه، فإنّ عليه أن يسعى لتقوية ذكر الله في قلبه، لكي يكون كالذي يقاتل وحده في سبيل الله حين يفرّ أصحابه. وقد مرّ معنا أنّ مثل هذا الشخص هو ممّن يباهي الله تعالى به ملائكته. وهكذا يكون حال الذاكر لله في جماعاتٍ غافلةٍ منشغلةٍ بأمور الدنيا المنحطّة، أو بتلك الأمور التي لا يرضاها الله تعالى.

مسؤوليّة الإنسان تجاه الكلام

بعد ذلك يقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «**يا أبا ذر؛ الجليس الصالح خيرٌ من الوحدة والوحدة خير من جليس السوء وإملاء الخير خيرٌ من السكوت والسكوت خيرٌ من إملاء الشر**».

وبالطبع، حين يكون للإنسان علاقات وروابط مع الآخرين، فإنّ هذا يعني فتح المجال لمختلف أنواع الحديث.. فهل يكون السكوت ها هنا أفضل أم الكلام؟ ومثلما مرّ بشأن أصل المعاشرة أو الانزواء فإنّه لا يوجد هنا ملاكٌ واحد. فعليه أن يرى ما هو الدافع للكلام. فإنّ الكلام يكون مطلوبًا ومستحسنًا إذا كان منطلقًا من الدوافع الإلهيّة ولإيصال النفع للآخرين وإحياء ذكر الله في سلوكهم وتوجّههم إلى تعلّم الأحكام والمسائل الإلهيّة.

وعلى أيّ حال، فإنّ الحديث الحسن هو الحديث الذي يصدر في سبيل الهداية ونيل الكمال: سواءٌ كان مرتبطًا بشكلٍ مباشر بالتكامل المعنويّ والأخرويّ، أم كان مقدّمةً لهذا حتّى لو كان مرتبطًا بالدنيا. ولأنّ هدف القائل هو أنّه باطّلاع المخاطب على الأسباب الماديّة ييسّر له طريق الوصول إلى التعالي والكمال، (ذلك لأنّ طريق الإنسانيّة والكمال يتطلّب أن يستفيد الإنسان من الإمكانات الماديّة). أمّا حين لا يكون في كلامه فائدةٌ له ولا لغيره، فإنّ السكوت هو الأفضل.

والملفت أنّ التعبير الوارد في الرواية هو الإملاء لا التكلّم والحديث. حيث ينطوي على عنايةٍ خاصّة. فالإملاء يعني أن يقول الإنسان شيئًا ليكتبه الآخرون. ولا يكون أيّ حديثٍ للإنسان إملاءً، لأنّ الإنسان لا يتحدّث دائمًا من أجل أن يكتب الآخرون ويدوّنوا كلامه. فلماذا لم يقل النبيّ إنّ الكلام في الخير أفضل من السكوت والسكوت أفضل من قول الشرّ؟ هنا يوجد ملاحظتان منضويتان في الإملاء. النقطة الأولى: أنّ الإنسان حين يتحدّث، فإنّ حديثه يُسجّل في ذهن السامع ويصبح من ذخائره. لهذا، عليه أن ينظر أيّ حديثٍ يسجّله في ذهن السامع وأيّ أثرٍ يتركه فيه، وعليه أن يلتفت إلى أنّ الكلام ليس مجرّد إخراج الصوت من الفم، بل هو منشأ للآثار. فعلى الإنسان أن ينتبه إلى الأثر الذي سيتركه في روح الآخرين، والأمر الذي سينقشه في أذهانهم وألواح قلوبهم. فإذا كان هذا الحديث خيرًا يكون إملاؤه في محلّه وسوف يكون له أثرٌ طيّب، أمّا إذا كان شرًّا فلا ينبغي أن يتفوّه به لكي لا يترك الأثر السيّء! النقطة الثانية: أنّ كلّ ما يقوله الإنسان يسجّله ملكان ولهذا عبّر عن حديثه هنا بالإملاء كما يقول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١].

وفي موضع آخر، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].

حسن مؤاكلة المؤمن وضرورة اجتناب طعام الفاسق

وفي تتمّة حديثه، يقول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**يا أبا ذر؛ لا تصاحب إلّا مؤمنًا ولا يأكل**

---

(١) سورة **ق**، الآية ١٨.

(٢) سورة **الانفطار**، الآيتان ٩ و١١.

طعامك إلّا تقيّ ولا تأكل طعام الفاسقين».

وفي هذا القسم من الرواية، وجدنا كيف أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد طرح موضوع العشرة بدايةً، ثمّ شرع في الإشارة إلى بعض لوازمها، ومنها المحادثة. ونحن الآن نتعرّض للشطر المتعلّق بالمؤاكلة.

فالمعاشرة تتطلّب في بعض الأحيان ذلك، فيقول صلى الله عليه وآله: لا تُجالس إلّا مؤمنًا ولا تأكل طعام أيّ إنسان ولا توجّه الدعوة لكلّ أحد، بل عليك أن تجتمع في الطعام مع المؤمن. فإنّ أول نتائج مؤاكلة الفاسق هو أن يصبح الإنسان مدينًا له. وحين يكون الإنسان ضيفًا على الفاسق ويأكل من طعامه، فإنّ ذلك الفاسق سيطمع به، ويتوقّع منه أن يستجيب له إذا طلب منه أمرًا غير مشروع. ويُتوقّع منه مثلًا أن يؤيّده فيما يريد، وأن ينفّذ مطالبه. وقد يضطرّ صاحبنا عندئذ للخضوع له.

وفي المقابل، إذا ترك عشرة الفاسقين ولم يؤاكلهم، فلن يكون مدينًا لهم. ولهذا لن يتوقّعوا منه شيئًا. فإذا سألوه شيئًا مخالفًا للحقّ فيمكنه أن يردّهم بسهولة، لأنّه لا يرى نفسه مضطرًّا لذلك. ومن جانبٍ آخر، لا يُعلم إذا كان طعام الفاسق حلالًا: فالذي لا يتقيّد بأحكام الإسلام، لا يُعلم كيف كسب ماله، وهل يؤدّي خمسه وزكاته. وهل أنّ هذا المال قد جاء من طريق الرشوة! فالإنسان يستطيع أن يثق بالمؤمن وحليّة ماله، بخلاف الفاسق الذي قد يتناول من طعامه، ثمّ يكتشف بعد فترة أنّه لم يكن حلالًا.

وبالإضافة إلى ما ذُكر، وكما يُستفاد من بعض الروايات، فإنّ الطعام المشتبه يؤثّر في روح الإنسان تكوينيًّا وله آثار طبيعيّة، حتّى لو لم يكن مطّلعًا على ما فيه.. فهو يترك أثرًا طبيعيًّا ومعنويًّا.. ويُنقل في هذا المجال قصص عجيبة عن بعض الأعاظم: منها أنّ أحدهم قال لزوجته وهو يتناول الطعام إنّني أشعر بأنّنا نأكل لحمًا ميتًا! فتعجّبت زوجته ممّا يقول. ولكن بعد التحقيق والتدقيق وجدوا أنّ حيوانًا قد سقط في وعاء الماء ومات فيه، وقد أخذوا ماءً للطبخ من هذا الوعاء وها هما يتناولان طعامًا نجسًا دون قصد! وقد شعر هذا العالم الكبير بالأثر الطبيعيّ لذلك الماء النجس في روحه.

ويُشاهد في أحوال بعض هؤلاء أنّهم لا يقبلون دعوة أيّ إنسان، ولا يذهبون إلى أيّ مكان، ولا يتناولون أيّ طعام. هناك قصّة مشهورة عن ذلك الشخص

المعروف بكاظم الكربلائي (كربلائي كاظم)، الذي أضحى بشكلٍ إعجازيّ وفي ظلّ العناية الإلهيّة الخاصّة حافظًا للقرآن. وفي بداية دراستنا حين كنّا نقطن في المدرسة الحجّتيّة، كان يزورنا، وكان الطلبة يمتحنونه ليتحقّقوا ممّا سمعوه عن حفظه للقرآن. ولم يكن هذا الشخص يقبل دعوة أيّ شخصٍ وقد قال لنا مرّةً: حين أذهب أحيانًا إلى البعض أشعر بعدها بشيء من الكدورة والظلمانيّة في قلبي وتخفت تلك الأنوار التي كنت أشاهدها قبل الجلوس معهم (لا شكّ بأنّ هذا الحديث هو فوق إدراكنا وإن كان له واقعيّة).

وينقل آية الله المرحوم الحاج مرتضى الحائري (رحمه الله) ما مضمونه: «لقد وضعت ذات مرّة كتاب **جواهر الكلام** مقابل هذا الشخص ولأنّه كان أميًّا لا يميّز بين الألف والباء، فمع ذلك كان يضع إصبعه على آيات القرآن الكريم ويقول هذه آياتٌ قرآنيّة. فسألته: كيف تعلم أنّ هذه آيةً قرآنيّةً وأنت أميّ؟ فقال لي: هذه الآية لها نور وأنا أميّزها من خلال النور المنبعث منها! فهذه وقائع لا ينبغي أن ننكرها إذا لم نقدر على إدراكها.

فعلينا أن نسعى لمعاشرة ومؤاكلة أهل الإيمان والتقوى وقبول هداياهم والاستفادة منهم. فحين يرزق الله تعالى أحدًا شيئًا من المال، فعليه أن يسعى للاستفادة من هذه النعمة بأفضل صورة. فإذا أعدّ طعامًا فليقدّمه لأهل الإيمان والتقوى، حتّى يكون عمله مورد رضا الله تعالى، وليكون بالإضافة إلى ذلك سببًا لتعميق الرابطة الإلهيّة بينه وبين ذلك الشخص، بعيدًا عن الأهواء والمآرب الدنيويّة.

«يا أبا ذر؛ أطعم طعامك من تحبّه في الله وكل طعام من يحبّك في الله عزّ وجلّ».

فعلى الإنسان أن يقدّم طعامه وأن يأكل طعام من تربطه به أواصر المودّة والمحبّة بشرط أن يكون لهذه الرابطة منشأ إلهيّ. فحين يقدّم طعامه للغير، فذلك يعني أنّه يحبّه. ولكن فلينظر هل أنّ ذلك الحبّ هو لله أم لشيءٍ آخر. ويوصي النبيّ صلّى الله عليه وآله بأن تكون ضيافتنا وزيارتنا لله حتّى تتمّ الاستفادة الصحيحة من مثل هذه العلاقات والنعم، وتقوى بذلك الروابط الإلهيّة. ذلك لأنّ للمؤاكلة أثرًا في تقوية رابطة المحبّة بين المؤمنين. ومن خلال هذه المحبّة الإلهيّة يتكامل المؤمن. أمّا في المقابل لو كانت المحبّة غير إلهيّة، وكانت شيطانيّةً لأدّى ازديادها إلى سقوط الإنسان.

فبالإضافة إلى التوصية برعاية الأحكام الإلهيّة للحلال والحرام التي هي من الأحكام الفقهيّة المؤكّدة كان أولياء الله يراعون مجموعةً من المسائل الدقيقة الأخرى ويوصون أصحابهم بذلك أيضًا. ذلك لأنّ مجرّد أداء الواجبات وترك المحرّمات لا يكفي لتكامل الإنسان، بل إنّ أداء هذه الوظائف يُعدّ خطوةً أولى في هذا المجال (بينما يتوقّف أكثرنا في هذه المرحلة). يجب أن تكون همّة المؤمن عاليةً ولا يتصوّرنّ أنّه بمجرّد رعاية الواجبات والمحرّمات يصل إلى مقصده النهائيّ. بل يجب أن يعلم أنّ الخطوة الثانية تقتضي رعاية الآداب الشرعيّة والمستحبّات والتي أُشيرَ إلى جملةٍ منها في آداب المعاشرة والكلام والمؤاكلة والبشاشة. فرعاية المستحبّات الأخرى واجتناب المشتبهات تُعدّ من جملة الآداب الشرعيّة الأخرى.

فبعد عبور هذه المرحلة والتقدّم في الخطوة الثانية، يبقى أمام الإنسان مسير طويل على طريق تكامله: فعليه أن ينقّب في توجّهاته القلبيّة، ويتعرّف على ما في قلبه. وما هي دوافعه وراء هذا السلوك أو ذاك التصرّف؟ حتّى لو كان عملًا حسنًا أو مستحبًّا، فليتعرف على دوافعه فيه. وبالتالي، فإنّ للبحث والفحص في القلب والنفس أهميّةً بحيث تُعدّ من مراحل التكامل الإنسانيّ. ونحن الذين لم نُصلح أعمالنا الظاهرية، قد وقفنا قبل هذه المرحلة.

ففي المرحلة النهائيّة، يكون أولياء الله في سعي دائم لجعل توجّهاتهم ودوافعهم لله وحده دون سواه، وأن لا يشغل قلوبهم إلّا محبّة الله ولا يتعلّق رجاؤهم بغيره ولا يخافون سواه. فيعيشون عيشةً لا يشغلهم فيها من هذا العالم أحد عن الله. هذا في حين أنّهم أصحاب العشرة والمحادثة وحمل المسؤوليّات الاجتماعيّة. لكنّ قلوبهم ليس فيها إلّا الله تعالى. وفي حديث المعراج، يقول الله تعالى بشأن روح المؤمن الواصلة إلى جوار قرب الله: «ثمّ يُقال لها: كيف تركت الدنيا؟ فتقول: إلهي وعزّتك وجلالك لا علم لي بالدنيا. أنا منذ خلقتني خائفةٌ منك»[(١)].

فهذا المؤمن لا علم له بالدنيا لأنّه لا يتوجّه إلى غير الله. ولهذا، فإنّه يكون غير مطّلعٍ على كلّ ما عداه. ولله تعالى عبادٌ بثّهم فينا لو جعلنا همّتنا قويّةً وإرادتنا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٢٧.

صلبةً وقمنا بتهذيب أنفسنا وبنائها لأدركنا مقامهم. لا ينبغي أن يسيطر علينا الغرور بما نقوم به ولا نقتصر على الظاهر بل نسعى للنظر إلى أعماق أرواحنا وقلوبنا.

الدرس الواحد والثلاثون

لسان المرء وسيلته للهداية أو الضلالة

- ❖ الاستفادة من اللسان وسائر الأعضاء على طريق التكامل
- ❖ أسلوب الاستفادة من اللسان واجتناب آفاته
- ❖ اجتناب الأحاديث الملهية والمزاح المفرط
- ❖ عدم تساوي طرق الهداية
- ❖ نظرة في انعكاس ونتائج الكلام وبقيّة التصرّفات
- ❖ ضرورة نقل الأحاديث المتقنة بعد التحقّق منها واجتناب الشائعات

«يا أبا ذرّ، إنّ الله عزّ وجلّ عند لسان كلّ قائل فليتّق الله امرئ وليعلم ما يقول. يا أبا ذرّ، اترك فضول الكلام وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك. يا أبا ذرّ، كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكلّ ما يسمع. يا أبا ذرّ، ما من شيء أحقّ بطول السجن من اللسان».

وهذا القسم من حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يرتبط باللسان والسيطرة عليه. وقد بحثنا في الدرس السابق بمقدارٍ معيّن حول ضرورة السيطرة على اللسان. وفي هذا الدرس يوجد المزيد من الإشارات التي ترتبط أيضًا بضرورة تدقيق الإنسان فيما يقول والاعتناء بهذا الأمر الخطير. فمن المهمّ أن ننظر في الكتب الروائيّة ونطّلع على تلك الأبواب المتعلّقة بأساليب الحديث وآدابه وآفاته، حيث بُيّن ما هو الحديث الضروريّ وأيّ حديث يُعدّ غير مفيد بحيث يجب اجتنابه.

وحيث وصلنا في شرح ودراسة مواعظ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى هذا القسم، فمن المناسب أن نقدّم بعض التوضيحات في هذا المجال. وبدايةً، نشير إلى أنّ اللسان نعمةٌ إلهيّة كبيرةٌ، ثمّ نستعرض بعض الآفات والمضارّ الناشئة من هذا اللسان.

الاستفادة من اللسان وسائر الأعضاء على طريق التكامل

إنّ جميع نعم الله تعالى التي وُضعت في وجود الإنسان سواء الأعضاء الظاهرة كالعين والأذن واليد أو الباطنة وحتّى غير الماديّة التي لها جهة نفسيّة وروحانيّة كقوّة التفكّر والتخيّل التي ترتبط بالدماغ وأيضًا العواطف والإحساسات المعنويّة وكلّ

ما يرتبط بروحه وبدنه هي جميعًا أدواتٌ ووسائل لأجل تكامله، ولا تُعدّ بحال من الأحوال هدفًا بذاتها، ولا تكون ثمارها ولا طلباتها هدفًا نهائيًّا له: فينبغي أن ننظر بأعيننا بحيث يوصلنا إلى الكمال المطلوب وإلى قرب الله تعالى. وكذلك ينبغي أن نستمع بآذاننا بحيث يؤدّي إلى كمالنا وتحصيل الثواب الأخرويّ. وهكذا فيما يتعلّق بسائر الأعضاء ومنها: اللسان حيث ينبغي أن يكون كلّ كلام ننطق به سببًا لتكاملنا وعاملًا مساعدًا في تحصيل رضا الله تعالى.

ويجب أن نستفيد من جميع هذه النعم الإلهيّة على طريق التقرّب من الله والوصول إلى الكمال. فلا نعدّها وسيلةً للعب، ولا نعتبر أنفسنا أحرارًا فيما نفعل بها. فالإنسان لا ينبغي أن يجعل حاجات هذه الأعضاء وما يصدر منها هدفًا أساسيًّا له. ولا يُستثنى اللسان من ذلك، لأنّ الهدف الأساسيّ هو أبعد منها، ولا ينبغي أن يكون الكلام بالنسبة للإنسان هو الأساس. من هنا، يجب استخدام اللسان على طريق الخير والكمال وفي حديث الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «زكاة اللسان النصح للمسلمين والتيقّظ للغافلين وكثرة التسبيح والذكر»[١].

فالكلام وسيلةٌ، ولأنّ الله تعالى قد جعل الهدف من خلق الإنسان هو الوصول إلى لقاء الله والكمال، فينبغي أن نستفيد من اللسان لأجل تحقيق ذلك الهدف السامي، ولا نستغلّه كوسيلةٍ للّغو واللعب. ينبغي أن يكون حديثنا مدروسًا، ونجتنب كلّ لغوٍ وحديثٍ يؤدّي إلى إسقاط المنزلة الاجتماعيّة والمعنويّة للإنسان. ذلك لأنّ الكلام يظهر شخصيّته وقيمته. فلو لم يكترث هذا الإنسان بنتائج كلامه، فإنّه يعبّر بذلك عن خواء شخصيّته، كما قال الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تكلّموا تُعرفوا فإنّ المرء مخبوءٌ تحت لسانه»[٢].

وفي حديثٍ آخر، عُدّ كلام اللغو الذي يصدر عن عدم تفكّر وعدم اكتراث في نتائج الكلام من صفات المنافقين: «وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه».

هذا بخلاف المؤمن: «إذا أراد أن يتكلّم بكلامٍ تدبّره في نفسه فإن كان خيرًا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٣، الصفحة ٧.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الكلمات القصار ٣٩٢، الصفحة ٩٣.

أبداه وإن كان شرًّا واراه»(١).

هذا، وإن كنّا نعلم إجمالًا أنّ علينا الاستفادة من اللسان لأجل التقرّب من الله تعالى، ولكنّ الكلام في بيان كيفيّة هذا التقرّب.

وفي بيان ذلك، نقول: إنّ كلامنا قد يكون من مقولة العبادة، وذلك إذا استخدم الإنسان تلك الألفاظ أثناء الدعاء والمناجاة والصلاة. فهذا الكلام يُعدّ من العبادات الواجبة أو المستحبّة. وفي سائر الموارد، فإنّ اللسان وسيلةٌ للتفاهم مع الآخرين يظهر صاحبه ما في ضميره، لإيصاله إلى غيره واطلاعهم على ما في ذهنه ونيّته. وفي إفهام الآخرين، يجب أن يكون للإنسان هدفٌ إلهيّ: لا بدّ أن يعلم أيّ كلامٍ أو إفهامٍ يريده الله ويؤدّي إلى قربه ويجلب ثوابه الأخرويّ، ليكون تحريك اللسان في مثل هذه الحالة من أجل الوصول إلى ما يريده الله تعالى.

في بعض الموارد، يجب معرفة ما هو مطلوبٌ في الكلام عن طريق الشرع ذلك لأنّ الإنسان لا يعلم دائمًا حدود وخصائص الكلام المطلوب.

وفي الكثير من الموارد، يميّز الإنسان، بالاستعانة بعقله، خير الكلام من شرّه، ويعلم إذا كان هذا الكلام المطلوب واجبًا أو مستحبًّا. ففي هذه الحالة، إذا قصد الإنسان القربة، يكون حديثه عبادةً، كمن يريد بكلامه أن يدفع ظلمًا عن مظلوم أو يُرجع حقًّا له. فهذه الموارد من المستقلّات العقليّة التي يدركها العقل وحده من دون الحاجة إلى الشرع: فلو لم يصلنا أيّ حكم شرعيّ في هذا المجال، لكنّا نعلم أنّ دفع الظلم عن المظلوم واجب، بحيث لو كنّا نستطيع أن نحقّق ذلك من خلال اللسان، فسيصبح الكلام واجبًا وسببًا لرضا الحقّ سبحانه وتعالى. وإن لم يصل الكلام إلى حدّ الوجوب فهو على الأقلّ حسن ومستحبّ. فكلّنا يعلم أنّ مواساة اليتيم وإدخال السرور إلى قلبه أو تسليته وكذلك كشف الغمّ عن الأخ المؤمن أمر مطلوب. وإذا قصد الإنسان في هذه الحالة القربى كان عمله عبادةً. وفي مقابل هذه الموارد، هناك ما لا يمكن لنا أن نعرف حدوده ودائرة جوازه، مثل الأحكام الشرعيّة التي لا بدّ لنا فيها من الرجوع إلى الشارع ليبيّنها لنا، وإن كان عقلنا يدرك كليّات تلك الأمور. ولكنّ الشارع المقدّس هو الذي يعيّن خصائصها وحدودها

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الخطبة ١٧٦، الصفحة ٩٤.

وشرائطها. وهو ما نحتاج فيه إلى اعتماد عمليّة الاستنباط من المصادر الفقهيّة. لهذا، يجب في مثل هذه الموارد انتظار أوامر الشرع.

وفي بعض الموارد، نعلم أنّ الكلام ليس مرضيًّا عند الله. ففي مثل هذه الحالة، لا ينبغي التكلّم. وإلّا كان الإنسان عاصيًا ويُعاقب على فعله. ومن المؤكّد أنّه لا يمكن تحقّق قصد القربة في الأمر المبغوض فكيف يكون عبادةً. وحكم هذه الموارد يشخّصه عقل الإنسان بصورة مستقلّة دون الاحتياج إلى أخذ الحكم من الشارع، مثل إيذاء الآخرين بواسطة اللسان والكذب والإهانة وإثارة العداوة بين المؤمنين بالفتنة.. فهذه من الأمور التي يستقبحها العقل السليم. ونستنتج من ذلك أنّنا ندرك بوضوح مطلوبيّة بعض الكلام وقبح البعض الآخر. وفي بعض الموارد، نحتاج إلى الشرع المقدّس ليُبيّن لنا الحدود والشروط.

أسلوب الاستفادة من اللسان واجتناب آفاته

ينبغي الالتفات إلى أنّ اللسان يعدّ أحد أكبر النعم الإلهيّة ومن أكثر مخلوقات الله لطافةً ودقّةً. فبالرغم من صغر حجمه إلّا أن طاعته يمكن أن تكون في غاية الضخامة والكبر وكذلك معصيته وجرمه. وذلك لأنّ الكفر والإيمان إنّما يظهران بواسطة اللسان. وهما أقصى حدود الطاعة والعصيان. من هنا، ينبغي أن نسيطر على اللسان، لأنّ تحرّره يؤدّي إلى خسائر عظمى. وإنّما يُصان الإنسان من شرّ اللسان حين يقيّده بأحكام الشرع ويحرّكه لنفع دنياه وآخرته، ولا يطلق له العنان، بل يجهد نفسه لحفظه في كلّ مورد يخشى فيه حصول الخطر الدنيويّ أو الأخرويّ. فاللسان أكبر وسيلةٍ للشيطان لخداع الإنسان واستغفاله. لهذا، مُدح السكوت في الروايات كما في حديث النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من صمت نجا»[١].

وفي حديثٍ آخر عنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه»[٢].

إذن ينبغي صيانة اللسان من آفات الكذب والإهانة والتجريح وغيرها، وتعويده

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٧٢، الصفحة ٢٦٢.

على الكلام الطيّب لكي لا يؤذي صاحبه وغيره. فمورد الكلام هو مجال الحاجة إليه. ربّ كلمة قد تورث صاحبها قصرًا في الجنّة، وكلمة قد تهوي به إلى قعر جهنّم فالذي يستطيع أن يجني كنوزًا بفضل لسانه، إذا أعرض عن ذلك وجمع قشورًا فإنّه يكون قد أُصيب بخسارة فادحة، كالذي أعرض عن ذكر الله ليشتغل بالأعمال المباحة التي لا تنفعه. وصحيح أنّه لم يرتكب ذنبًا ولكنّه فقدَ ربحًا عظيمًا كان من الممكن أن يعود عليه من خلال ذكر الله وقد وقع في خسارةٍ كبيرة. كما ينقل الإمام الصادق عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللّٰهُعَلَيْهِوَآلِهِ في وصف أولياء الله: «إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكرًا، ونظروا فكان نظرهم عبرةً، ونطقوا فكان نطقهم حكمةً، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركةً»[١].

وبالنظر إلى دور اللسان في سعادة الإنسان وشقائه، والأهمّ من ذلك، دوره في سلامة المجتمع أو تدمير قيمه، والتي ورد بشأنها الكثير من الوصايا من جانب الله تعالى وأولياء الدين، فهذه كلّها تؤكّد على ضرورة أن يقوم الإنسان بالسيطرة على لسانه.

وبالاطّلاع على الآداب والسلوك الاجتماعيّ السليم والإسلاميّ، والاقتداء بأولياء الدين في طريقة عيشهم وسلوكهم يستطيع الإنسان أن يتعرّف على كيفيّة استخدام لسانه من أجل نجاة نفسه وسلامة المجتمع. ولهذا، كان الطريق الأفضل للسيطرة على اللسان واستخدامه بالشكل الصحيح هو النظر إلى الآداب في مجال القول للأنبياء والأولياء.

نجد الأنبياء في معاشرتهم للناس يستعملون أفضل أسلوبٍ وأرقى أدبٍ في الكلام. ومن أبرز مصاديقه مناظراتهم واحتجاجاتهم مع الكفّار والتي نُقلت أيضًا في القرآن الكريم.

وكذلك كلامهم الموجّه إلى المؤمنين وسيرتهم الموجزة في هذا المجال. فلو بحثنا في كلماتهم المختلفة وأحاديثهم مع المشركين وأتباعهم لما وجدنا شيئًا يغضب الكفّار أو يتّجه إليهم بالإهانة والسوء والفحش في القول. ورغم كلّ هذا، نجد الكفار يقابلونهم بالفحش والطعن والاستهزاء والسخرية، ومع ذلك كان ردّهم

---

(١) **الكافي**، الجزء ٢، الصفحة ٢٣٧، الحديث ٢٥.

بطريقة الإصلاح والموعظة، وإذا أعرضوا عنهم أعرضوا بالسلام: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١]

قال العلامة الطباطبائي (رحمه الله): مع كل هذه الطعون والتهم والإهانات التي كان المشركون يصبّونها على الأنبياء كما حكي عنهم في القرآن، ولم ينقل عن الأنبياء أن يقابلوهم بخشونة أو بذاء بل بالقول الصواب والمنطق الحسن اللّين اتباعًا للتعليم الإلهي الّذي لقنهم خير القول وجميل الأدب قال تعالى خطابًا لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢].

ومن أدبهم في المحاورة والخطاب أنهم كانوا ينزلون أنفسهم منزلة الناس فيكلمون كل طبقة من طبقاتهم على قدر منزلته من الفهم وهذا ظاهر بالتدبر فيما حكي من محاوراتهم الناس على اختلافهم المنقولة عن نوح فمن بعده وقد روى الفريقان عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[٣][٤].

اجتناب الأحاديث الملهية والمزاح المفرط

وفي الحديث عن آفات وأضرار اللسان، هناك الروايات الكثيرة الواردة بهذا الشأن ونلاحظ أنّ فقهاءنا قد خصّصوا أبوابًا لهذا الموضوع في الفقه تتعرّض لمحرّمات القول كالكذب والنميمة والسخرية وإيذاء المؤمن واللغو واللهو المعبّر عنه بلهو الحديث والذي يبعد الإنسان من الله ويُفرغ الطبيعة الإنسانيّة من المعنويّات والنور الإلهيّ. (لقد فصّل البحث عن ذلك في الكتب الأخلاقيّة أيضًا). وما هو موجودٌ في بعض الموارد هو وضوح ذمّ وتحريم العمل، فلا يكون الإنسان من هذه الجهة شاكًّا في حكم هذا القول أو العمل. ولكن أحيانًا قد يظهر الكلام على أنّه مباح بل قد يتصوّر صاحبه أنّه مطلوب، لكنّه في الواقع يكون حرامًا ومرفوضًا. وفي مثل هذه الموارد، يقوم الشيطان بخداعنا ويجرّنا إلى ارتكاب هذا العمل المشتبه ليردينا

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٢) سورة **طه**، الآيتان ٤٣ و٤٤.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٨٥، الحديث ٧.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ٢٩٨.

بعدها في المعاصي بصورة واعية أو نصف واعية. وإن كان هذا الإنسان غير ملتفتٍ بشكل تامّ وهو يخدع نفسه.

لو فكّر الإنسان في موارد الشبهة جيّدًا ودقّق في الأمر لاطلّع على الواقع، ولكن بما أنّه يعمل وفق هواه فهو لا يدقّق ويسعى لاختلاق أيّ عذرٍ أو مبرّر لما يفعله، وحتّى أنّه قد يطلق عليه اسمًا حسنًا ويخترع له مبرّرًا. فذلك الإنسان الفكاهيّ مثلًا، حين يريد أن يصنع جوًّا في مجلسٍ ما ليضحك الحاضرون فهو يأتي بعذرٍ أنّ هذه الليلة مثلًا ليلة عيدٍ وأنا أريد أن أدخل السرور على نفوس الحاضرين. وتحت هذه الحجّة، يندفع لإلقاء الكلام اللهوي الذي ليس له أيّة فائدةٍ معنويّة أو حتّى دنيويّة. ولا ينطوي إلّا على إضاعة العمر وأحيانًا إيصال الأذى وأثر السوء للآخرين.

قال العلامة الطباطبائي: اللهو ما يشغلك عما يهمّك ولهو الحديث، الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية إلى الفساد والفجور أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي والمزامير والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث[1].

وذكر في **مجمع البيان** أنّ آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾[2] في النضر بن الحرث، كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشًا ويقول لهم إنّ محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن[3].

يجب الالتفات إلى أنّ الكلام المضحك واللهويّ ليس هو الكلام الوحيد الذي يدخل السرور إلى قلب المؤمن الحزين أو المغموم الكئيب. بل يمكن أن نختار له من الروايات والعبر ما يتناسب مع وضعيته المعنويّة الكئيبة بشأن رحمة الله المطلقة، فيحصل له الانبساط ويزول عنه الغم والحزن والكآبة دون أن نأتي بكلامٍ عابث لا طائل منه. فلا أحد ينكر أهميّة إدخال السرور إلى قلوب الآخرين

(١) المصدر نفسه، الجزء ١٦، الصفحة ٢٠٩.

(٢) سورة **لقمان**، الآية ٦.

(٣) الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان** (لبنان- بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة١، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م)، الجزء ٨، الصفحة ٧٦.

وإسعادهم، وهو ما أوصت به التعاليم الدينيّة كثيرًا، ولكنّ الكلام في أنّ نطق الإنسان ينبغي أن يكون له قيمة معنويّة إيجابيّة، لكي لا يهدر أوقات الآخرين، ولا يضيّع النعم الإلهيّة (ومنها اللسان) في طريق العبث واللغو.

وقد نقل الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «من سرّ مؤمنًا فقد سرّني ومن سرّني فقد سرّ الله»[1].

أو كما ينقل الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في روايةٍ أخرى: «إنّ أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ إدخال السرور على المؤمنين»[2].

قد يحزن المؤمن بسبب أمرٍ دنيويّ أو أخرويّ، وفي بعض الأحيان قد يشلّ هذا الحزن نشاطه ويعطّل قواه، فلا يقدر بعدها على القيام بأيّ عمل، ولا يشعر برغبةٍ بفعل أيّ شيء: فإذا أراد المطالعة وجد ذهنه جامدًا وإذا قام للصلاة لم يشعر بحضور القلب، فهو كمن فقد كلّ قواه من شدّة الحزن. ففي مثل هذه الحال، يجب العمل على انتشاله من همّه وحزنه، وإدخال السرور على قلبه حتّى يرجع إلى نشاطه المعهود. فإدخال السرور عليه من أجل الله في هذه الحال يُعدّ عبادةً.

وأحيانًا، يخدع الإنسان نفسه بزعم أنّه يريد إدخال السرور إلى قلوب المؤمنين، فيقصّ عليهم القصص العابثة، ويحدّثهم بأحاديث غير مفيدة، ويبحث عن أيّ شيء مضحك ليحدّثهم به، وكأنّه لا يرى وسيلةً أخرى غير هذه. وهو غافلٌ عن أنّه بالإمكان في مثل هذه الأحوال أن يأتي بكلام منطقيٍّ وقيّم، ويحقّق في نفس الوقت ما يريده من السرور. فيمكن على سبيل المثال إرشاد الأخ الحزين إلى أنّ هذه الغموم والهموم لا تحلّ مشكلةً، وإذا بقيت فلن تكون نتيجتها سوى إتلاف الأعصاب والمنع من التقدّم، والحرمان من الكثير من الفوائد.

فالإنسان الفكاهيّ إذا رأى صديقه منزعجًا أو حزينًا، فإنّه يبدأ بالفكاهة لإضحاكه، زعمًا منه أنّ ذلك يفرح قلبه. وهو غافل عن أنّ هذا المزاح مطلوب إذا كان قليلًا، وأمّا الإفراط فيه فهو أمر قبيح ومذموم. ذلك لأنّ الإفراط في المزاح

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٨٩.

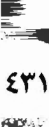

يحمل الإنسان على العبث بنفسه وبالآخرين. كما أنّ الإفراط فيه يؤدّي إلى كثرة الضحك الذي يميت القلب ويسلب الإنسان وقاره وبهاءه. لهذا، نجد أنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان قليل المزاح كما يقول: «إنّي لأمزح ولا أقول إلّا حقًّا»[١].

أو ما روي عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في ضرورة اجتناب الضحك الكثير: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[٢].

وممّا مرّ، يتبيّن لنا ضرورة عدم تجاوز المزاح للحدّ الطبيعيّ. لأنّ الإفراط فيه بحجّة إدخال السرور إلى قلوب المؤمنين ينجرّ إلى الأذى والسخرية والإهانة والغيبة. وتحت ذريعة هذا الأمر المستحبّ تمرّ عليه خدع الشيطان ويُبتلى بالمعاصي الكبيرة كالغيبة والنميمة. وبالإضافة إلى أنّه قد تلوّث بمثل هذه المعصية، فقد ارتكب خطأً فادحًا حيث حمل صديقه على المعصية أيضًا، بإسماعه لمثل تلك الغيبة أو النميمة.

وعلى أيّ حال، ففي الكثير من الموارد يخدع الشيطان الإنسان تحت شعار القيام بالأعمال الصالحة والمفيدة لإيقاعه في المعصية. فلو فكّر جيّدًا ودقّق في الأمر لأدرك مدى خطئه. أجل، هناك من يدقّق في الأمر ولا يطّلع على خطئه نتيجة فقدان البصيرة! مثل هؤلاء يحتاجون إلى الغير ليطلعهم على سوء أعمالهم، وكيفيّة إسعاد الآخرين بالشكل الصحيح والمطلوب.

عدم تساوي أساليب الهداية

ولأجل إطلاع الآخرين وتنبيههم على خطئهم، لا يوجد أسلوبٌ واحد: فأولئك الذين ليس لديهم الاطّلاع المناسب على الواجبات والمحرّمات وليس لهم تواصل مع المصادر الدينيّة في القرآن والأحاديث، ينبغي أن نبيّن لهم الأضرار الدنيويّة والأخرويّة للكذب والنميمة والغيبة: فالغيبة مثلًا هي بمنزلة أكل لحم الميّت!! وأمثال ذلك. أمّا بالنسبة لأولئك الذين لهم اشتغال وتردّد على الكتاب والسنّة وعلوم أهل البيت، فلا حاجة لأن نبيّن لهم أضرار هذه المعاصي وآثارها لأنّهم

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ١١٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٥٥، الصفحة ١٠٧.

يعلمون بذلك. ما يحتاج إليه أمثال هؤلاء هو التنبيه والإيقاظ من سبات الغفلة وإعلامهم بأنّ بعض كلامهم ولو كان بنيّة الخير لكنّه ليس صحيحًا ولا يرضي الله بل يؤدّي إلى الإضرار بالإنسان.

أجل، هناك بعض الموارد التي تكون فيها الأعمال متشابهةً ولها وجهان. وهناك يأتي دور النيّة والدافع الذي يعطي لهذه الأعمال هويّتها الصحيحة أو السيّئة. وفي بعض الأحيان، يكون العمل المؤدّى بنيّة حسنةٍ فعلًا حسنًا ولكن إذا تبدّلت النيّة فيه صار سيّئًا. وذلك لأنّ كلّ عملٍ بحسب الرؤية الإسلاميّة يرجع إلى النيّة: وقد يؤدّي الإنسان بسبب جهله وغفلته عملًا سيّئًا بنيّةٍ حسنة. وفي مثل هذا المورد، قد ينال ثوابًا وأجرًا إلهيًّا عليه، وإذا لم ينل ذلك فإنّه على الأقلّ يكون معذورًا. وأمّا إذا أدّى العمل الحسن بنيّةٍ سيّئة فلن ينال أيّ ثواب ولن يُعدّ عبادةً، بل قد يعاقب عليه أيضًا. لأنّ عمله لم يكن على أساس الحسن الأخلاقيّ. ويمكننا أن نقف عند كثير من مصاديق هذا الأمر في القول والكلام: فقد يأتي الحديث عن شخصٍ ويريد صاحبنا هذا أن يذكر حسناته، فينجرّ الأمر في بعض الأحيان إلى إغراق في مدحه ويتحوّل إلى تملّق ومبالغة في المدح. ولو قيل لهذا المادح: لماذا تتزلّف بهذه الطريقة؟ فسوف يقول: إنّني أريد بهذه الطريقة أن أتواضع!

ولا شكّ بأنّ من أهمّ الخصائص الممتازة للإنسان أن يذكر حسنات الغير ويسعى لإبرازها. وقد ذُكر ذلك في الوصايا المختلفة الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة. فبهذه الطريقة، نرفع المؤمن ونعلي من شأنه ونشجّع غيره أيضًا للاتّصاف بصفاته الحسنة.

ولكن ينبغي أن ننظر إلى نيّتنا في مثل هذا المدح. فهل نفعل ذلك لأجل إضفاء العزّة على المؤمن ونيل رضا الله ونشر المعروف والخير في المجتمع؟ أم أنّنا نمدحه في حضوره وغيبته لكي يرضى عنّا وننال في قلبه منزلةً؟ نفعل ذلك بهذه الطريقة لأجل أن ينظر إلينا نظرةً إيجابيّةً فيمدحنا في المقابل أو نستفيد منه في الوقت المناسب! وكأنّنا نقرضه شيئًا حتّى نطالبه به في الوقت الذي نريد: فأمدح صديقي في غيبته حتّى يمدحني في غيابي. هذه هي من الموارد التي يخدع فيها الشيطان أولئك المتعلمين.

إنّ الشيطان يدفع العوام والناس العاديّين غير العارفين بالأحكام الإلهيّة لارتكاب الكذب والغيبة وسائر المعاصي المعروفة. ولكنّه يخدع العلماء بطريقة

أخرى، فيظنّون أنّهم بمدحهم للآخرين في غيابهم وحصولهم على المدح في المقابل قد أدّوا عملًا حسنًا. وليس هذا في الواقع إلّا إحدى خدع النفس ومكرها.

لهذا، يجب أن ينتبه الإنسان عند القيام بأيّ عملٍ إلى قلبه ويبحث عن الدوافع الموجودة فيه لذلك العمل. فليتأمّل قبل القيام بأيّ عمل قليلًا. ولا يكوننّ كمن يطلق العنان للسانه ليتكلّم بما شاء دون أيّ تفكير. فهذا العمل من صفات الأحمق الذي يخرج لسانه عن سيطرته ويقول ما يشاء.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن اختلاف كلام العاقل مع الأحمق قوله: «لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه»[١].

قال السيّد الرضيّ: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة والمراد به أنّ العاقل لا يطلق لسانه إلّا بعد مشاورة الرويّة ومؤامرة الفكرة، والأحمق تسبق حذقات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه فكأنّ لسان العاقل تابعٌ لقلبه وكأنّ قلب الأحمق تابعٌ للسانه.

لهذا، ينبغي دومًا أن نفكّر قبل أن ننبس بأيّ حرف، لنعرف لماذا نحن نريد أن نتكلّم وما هي دوافعنا؟ فنحفظ بفضل عناية الله أنفسنا من آفات هذا اللسان وحيل النفس والشيطان. ولو لم نفكّر وندقّق فيما نفعل وإنّما ننطق بدون تأمّل ومحاسبة، فإنّنا سنسقط شيئًا فشيئًا في فخّ الشيطان ونقع بدون شعورٍ ضحايا مكره وحيله. ولا شكّ بأنّ مثل هذه الزلّات التي تنبع من الغفلة والعجلة وعدم التأمّل والتفكّر عند القيام بالأعمال وعدم وجود الدوافع الصحيحة لا تنحصر بالكلام والحديث: فإنّ هذا يجري أيضًا في سائر الأعضاء والقوى، وإنّما حديثنا الآن حول مشاكل الكلام وآفات اللسان والأضرار التي تنجم عنه. وهي انحرافاتٌ وآفاتٌ كثيرة. ولعلّ مخاطر اللسان على الإنسان أشدّ من سائر المخاطر. فعلينا أن نكون أثناء الكلام بصدد تحصيل رضا الله بعيدًا عن النيّات والأغراض المنحطّة.

فبالدرجة الأولى، ينبغي أن يكون كلامنا مطلوبًا ومرضيًّا عند الله. وفي الدرجة الثانية، يجب أن تكون نيّتنا من الكلام سليمةً. فنحقّق بذلك الحسن الفعليّ والحسن الفاعليّ. ويكون قالب الكلام وإطاره صحيحًا، ومحتواه وهدفه كذلك:

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الكمات القصار ٤٠، الصفحة ١١.

شكلًا ومضمونًا.

وغالبًا ما كان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره من الأعاظم يذكر بأنّ الشيطان لا يجرّ العالم إلى شرب الخمر مثلًا أو ارتكاب بعض الأعمال الفاحشة التي لا يمكن أن تتناسب مع شأنه، لأنّ مثل هذه الأمور لا تترك لهذا العالم أيّ ماء وجهٍ. ولهذا، فإنّه *لا يكون مستعدًّا للقيام بها والوقوع في أضرارها. ولكن هذا الشيطان يجرّ العلماء* وأهل العلم على بعض المزالق والمهالك التي هي في الباطن أسوء من شرب الخمر أيضًا. مثل تلك الأعمال التي لا تكون بظاهرها سيّئةً ولا يذمّه عليها أحد، ولكنّ ضررها يكون أشدّ. وما أكثر ما يكون الإنسان غافلًا عن أنّه يرتكب معصيةً كبيرةً وهو لا يعلم مدى سقوطه! لهذا يجب أن ندقّق أكثر ونسيطر على أهوائنا النفسانيّة ونروّض ألسنتنا لكي لا تنطق بما تشاء وفي أيّ وقتٍ تشاء. فما لم يكن هناك ضرورة للكلام فإنّه لا ينبغي أن نتكلّم.

نظرة في انعكاس ونتائج الكلام وبقيّة التصرّفات

ينبغي أن نلتفت إلى أنّنا حين ننغمس في الحديث تصبح السيطرة على اللسان صعبةً. لهذا، يجب أن نفكّر قبل أن نتكلّم ونفكّر فيما نريد أن نتكلّم لكي لا نتجاوز حدودنا. فإن لم نروّض ألسنتنا، فإنّنا إذا كنا حاضرين في مجلسٍ واختلطت الأحاديث وصار الآخرون يضحكون ممّا يُقال ويشجّعون على ذلك يصبح الأمر على الإنسان صعبًا وشاقًّا بحيث يختصر ويوجز. وهكذا يتسرّب المزاح إلى حديثه ويسعى بأيّ شكلٍ لكي يضحك الآخرين، حتّى لو كان بالغيبة. وفي الواقع، فإنّ اللسان الذي يخرج عن السيطرة يشبه ذلك الحصان الهائج الذي لم يُلجم، حيث تكون السيطرة عليه في غاية الصعوبة. لهذا، ينبغي للإنسان أن يسعى من البداية للسيطرة على لسانه والتفكير في كلّ جملة يريد أن ينطق بها هل هي في موقعها أم لا، وعليه أيضًا أن يجتنب الإفراط والإكثار من الكلام.

وكان النبيّ وأولياء الله ينبّهون الناس من أجل تربيتهم إلى ضرورة الالتفات إلى الحساب وإلى أن لكل قولٍ أو فعلٍ جزاء وهم مسؤولون عن ذلك ولا ينبغي أن نظنّ أنّه بمرور ساعةٍ على الحديث لا يبقى أيّ أثر منه. بل إنّ كلّ كلمةٍ تخرج من فم الإنسان تسجّل وسوف يُسأل عنها وعن سبب النطق بها والنيّة التي كانت وراءها. فالتوجّه إلى هذا الأمر يبعث في الإنسان الجدّ والاجتهاد من أجل السيطرة على

نفسه. وإلّا فهذه النفس قويّة، ولا تستسلم بسهولة.

ومن جملة الطرق التي يمكن استخدامها لتحقيق السيطرة على النفس هو إلفات المؤمن إلى أنّ الله حاضرٌ ويسمع حديثه وسوف يسأله عن كلّ ما قاله في يوم المحشر. فنجد النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول: «**يا أبا ذرّ؛ إنّ الله عزّ وجلّ عند لسان كلّ قائل فليتّق الله امرئ وليعلم ما يقول**».

فلو توجّه الإنسان إلى حضور الله عند كلامه، وعدم خفاء شيء ممّا يقوله عليه تعالى لخشي الله وامتنع عن التفوّه بكلّ ما يخطر على باله. هذا بالإضافة إلى أنّ تقوى الله تؤدّي إلى الخوف منه. وتكون نتيجتها السيطرة على سلوكنا والامتناع عن إطلاق اللسان بدون انتباه.

ومن الأساليب التربويّة لأولياء الله في مجال السيطرة على أهوائهم النفسانيّة هو تشجيعهم على اجتناب فضول الكلام والاكتفاء بمقدار الحاجة في الحديث. فالكلام ينبغي أن يكون قليلًا، فإذا استطعت أن توصل فكرتك بجملتَين فاجتنب الجملة الثالثة. حتّى لو كان الأمر متعلّقًا بتكليف شرعيّ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! فعلى المتكلّم أن يسعى لبيان مقصوده في الحدّ اللازم ويجتنب كلّ زيادةٍ. وفي هذا المجال، يوصي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قائلًا: «**يا أبا ذرّ؛ اترك فضول الكلام وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك**».

فأحيانًا ينهمك الإنسان بالكلام في جمعٍ من الناس، وينجرّ الأمر إلى الثرثرة وكثرة الكلام بدون أدنى التفات إلى ما هو نافعٌ للدنيا أو في الآخرة. وهكذا يهدر صاحبنا رأس مال العمر الذي لا يعوّض بدون فائدة! لهذا يجدر بالعاقل أن يضبط كلامه ويجتنب كلّ زيادةٍ فيه ويبتعد عن الأحاديث التي لا نفع فيها كما قال الرسول الأكرم: «طوبى لمن طاب خُلُقه وطهرت سجيّته وصلُحت سريرته وحسُنت علانيّته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله»[١].

يقول أحد العلماء: والمؤمن هو الذي إذا أراد أن يتكلّم فإنّه يفكّر، فإذا كان الكلام لصالحه نطق به وإلّا صمت. أمّا الفاسق والفاجر فإنّه يطلق العنان للسانه

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٢، الصفحة ٣٠.

لينطق كيفما كان.

أجـل، إنّ كثرة الكلام التي هي من آفات اللسان تـؤدّي إلى الانتقاص من شخصيّة الإنسان ومنزلته الاجتماعيّة وتعقبها الندامة في الآخرة. فمن لم يضبط كلامه، فإنّه شاء أم أبى، سوف ينجرّ إلى المعصية.. كلّ هذا، بالإضافة إلى أنه صرف وقته في الثرثرة هباءً. فيكون بذلك قد ضيّع رأس ماله الكبير وهو الوقت وحلّ به سخط الله وغضبه.

ضرورة نقل الأحاديث المتقنة بعد التحقّق منها واجتناب الشائعات

ثمّ يقول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: **«يا أبا ذر؛ كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكلّ ما يسمع»**.

وإحدى آفات اللسان وأضراره: هي أن يقوم صاحبه بنقل كلّ ما يسمعه بدون تحقيق وتأمّل في مدى صدقه وواقعيته. وقد لا يقصد الكذب، وربما ينقل كلّ ما سمع بدون زيادةٍ أو نقيصة، ومع ذلك يعدّ ذلك كذبًا، وذلك لأنّه غير واثقٍ بصحّة ما يقول. فلهذا، كما أنّ عليه اجتناب الكذب في القول (والذي يعدّ قبيحًا) فعليه أيضًا أن يجتنب نقل ما لا يتيقّن بصحته. فليحقّق في البداية وبعد اطمئنانه ينقل ما اطمأنّ بصحّته.

ها هنا يقول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إنّ الذي ينقل كلّ ما يسمع يُعدّ كاذبًا، ومع ذلك تجدنا في كثير من الأحيان لا ندقّق فيما نسمع.. وكم يحدث أن نضيف ما نحبّ إلى ما سمعناه أو نحذف منه ثمّ ننقله للآخرين. يجب أن ندقّق أثناء الكلام وندقّق فيما ننقل. فإن الإنسان لا ينبغي أن ينقل كلّ ما يسمع، فكيف إذا كان في نقله مبالغًا ومحشيًا ومضيفًا.

وبالتوجّه إلى مفهوم الكذب الذي يبيّنه النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، فإنّ من المسلّم أنّ بثّ الشائعات سيكون من المظاهر الواضحة للكذب. فالشائعات هي إحدى الحراب الأساسيّة التي يستخدمها الشيطان في وجه أولياء الله الذين نهضوا لهداية البشر وإقامة قواعد المجتمع الإلهيّ والعادل، حيث يقوم أعداء الدين وأعداء الله باستخدام الأكاذيب والتهم والشائعات لإبعاد الناس وتفريقهم عن المصلحين والقادة الإلهيّين لكي يحقّقوا بذلك أغراضهم الشيطانيّة ومصالحهم الدنيئة.

وحين ندرس التاريخ نطّلع على هذه الظاهرة التي حدثت في صدر الإسلام،

حيث قام أعداء الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من أجل منع المسلمين من إعانة النبيّ ومؤازرته وإخراجهم من حالة الثبات على الحقّ والاستقامة في طريق الدين بإيجاد الرعب في قلوبهم، وذلك من خلال استخدام الإشاعات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾[١].

هذه الآية الشريفة تحكي عن قصّة بدر الصغرى التي حدثت بعد معركة أحد التي هُزم فيها المسلمون بسبب تخلّفهم عن أوامر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ثمّ نصره الله تعالى في قليلٍ من العدد على المشركين ونصر دينه وأعزّه وأنجاه. ففي هذه الوقائع، كان المنافقون يثبّطون المسلمين من خلال إبراز قوّة المشركين وتمجيد انتصاراتهم في أُحد، من أجل إيجاد الشكّ في قلوب المسلمين وإضلال المؤمنين. كل ذلك كان ببثّ الإشاعات.

ويُستفاد من هذه الآية أنّ ما كان متعلّقًا بالخوف أو الأمن ممّا كان يصل إلى المنافقين ثمّ يذيعونه بين الناس هو تلك الأراجيف التي كانت تُختلق من قبل الكفّار وعملائهم من أجل إيجاد النفاق والاختلاف بين المؤمنين. وكان ضعفاء الإيمان ينشرون ذلك دون أنّ يلتفتوا إلى أنّ هذا الأمر سيؤدّي إلى تزلزل المسلمين وضعفهم.

فبعد أن رأى الأذى النفسيّ الذي لحق بالمسلمين في معركة أُحد، أراد النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يحثّ الناس على جهاد الكفّار. فقابله هؤلاء بالسعي لتثبيط المؤمنين من المشاركة في الجهاد ونصرة رسول الله. ولتحقيق أهدافهم هذه، كانوا يبثّون الإشاعات التي تقول إنّ المشركين قد جمعوا لكم. وفي المقابل، كان الله تعالى يذكّرهم بأنّ هذا التخويف وتلك الإشاعات كلّها من الشيطان الذي ينطق على ألسنتهم. ويوجب على المؤمنين الحذر من المرجفين وعدم الخوف منهم أو خشيتهم، بل معايشة حقيقة التوحيد في خشية الله تعالى[٢].

وفي عالم اليوم، نجد أنّ انتشار الشائعات، وخصوصًا في البلاد الثائرة وبالأخصّ في البلد الذي وقف وحده أمام جميع قوى الاستكبار لحفظ استقلاله

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٨٣.

(٢) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٢١.

وعزّته والدفاع عن قيمه الإسلاميّة والثوريّة، أمْر رائجٌ جدًّا. فنجد المنافقين وأعداء الثورة يسعون بكل جهدهم لإيجاد النزاع وتمزيق وحدة الصفّ ودفع الناس إلى إساءة الظنّ بأهداف الثورة ونتائجها من خلال بثّ الشائعات ونشرها.

وللأسف، فإنّ الجاهلين حين يسمعون مثل هذه الشائعات ينقلونها بألسنتهم لأسبابٍ عديدة. ولعلّ بعض هؤلاء لا يحملون أيّ دافعٍ سيّء فيما يقولون: فإذا جلس أحدهم إلى صديقه وأثناء حديثه معه ينقل له ما سمعه من شائعات.

فحتّى لو لم يكن الإنسان سيّئًا في نيّته ودوافعه ولا يريد التظاهر، فعليه أن يفكّر في أهميّة أو فائدة ما يتحدّث عنه، وهل أنّ ما ينقله مجرّد إشاعة أم لا. فلعلّ الذي نقل لي هذه الشائعة قد أخطأ أو أنّ شخصًا آخر أوصل إليه ذلك كذبًا وافتراءً. لهذا، ينبغي أن نحقّق قبل نقل أيّ خبرٍ، ونتصرّف في كلامنا بطريقة تجعل من يستمع إلينا يثق بنا، ولا يشكّ في نفسه بما نقول. ممّا يؤدّي إلى جعل كلامنا ذا مصداقيّة بعيدًا عن الجزاف.

فيجب على الإنسان إذا تكلّم أن يكون ملتفتًا إلى صحّة ما يقول لكي ينال ثقة الناس. وفي ظلّ اعتماد الناس عليه وثقتهم به ينال المنزلة الرفيعة في المجتمع.

وإذا كان الإنسان بصدد الوصول إلى موقعٍ اجتماعيّ رفيع فإنّه يجب أن يسعى لذلك من خلال تحقيق ثقة الناس به وبكلامه. حتّى يقال إنّ هذا الشخص لا يتحدّث دون أن يزن الأمور ويدقّق فيها. ولمثل هذه المنزلة منافع دنيويّة، وثوابٌ أخرويّ.. فإن منافع الصدق والتحقّق في الأقوال في الدنيا أمرٌ بديهيّ، وفي الآخرة تستوجب رضا الله وعلوّ الدرجات في جنّاته.

فلا ينبغي أن ننقل ما نشاء تحت أيّ مبرّر. وحتّى لو لم نكن ممّن يزيد أو ينقص من الكلام كما يحصل في كثير من الأحيان، فإنّ إظهار أيّ أمرٍ أو نقله ولو كان صحيحًا لا يكون أمرًا مطلوبًا دومًا. فقد تكون المصلحة في عدم الكلام، وربما أوقعنا شخصًا في خطر، أو تسبّبنا في إسقاطه وتدمير سمعته، فيحلّ غضب الله علينا. هذا بالإضافة إلى أنّ بعض الإشاعات قد تؤدّي إلى إساءة ظنّ ذوي النفوس والإرادات الضعيفة بالمسؤولين والقيّمين حتّى يصل سوء الظنّ إلى أصل النظام الإسلاميّ. فحين نتحدّث وننقل بعض الأخبار يجب أن ننظر إلى المصلحة في الكلام: فهل لنقل هذه المواضيع فائدةٌ أم لا؟ وهل أنّ السامع يمتلك القدرة

على تحمّلها وتقبّلها أم لا؟ وهل أنّه من النوع الذي إذا سمع ينقل ما يسمع بدقّة وبدون زيادةٍ أو نقيصة، أم أنّه يضيف عليه وينقله إلى أيّ شخصٍ كان، فيؤدّي ذلك إلى إضعاف النظام الإسلاميّ بمثل هذه الأخبار وضعف ثقة الناس بالمسؤولين والقيّمين.

ثمّ يتمّ النبيّ صلى الله عليه وآله كلامه قائلًا: «**يا أبا ذرّ؛ ما من شيءٍ أحقّ بطول السجن من اللسان**».

وهذا البيان إرشاد تربويّ آخر من النبيّ يحمل الإنسان على المزيد من التدقيق في كلامه، والسعي لوضع لسانه في سجنٍ محكم حتّى لا ينطلق كيفما يشاء.. وقد ذكر بعض علماء الأخلاق أنّ الله تعالى قد جعل أمام اللسان أسنانًا وأمام الأسنان شفاهًا، وذلك كلّه ليتيسّر لنا أن نجعل اللسان في سجنٍ منيع.

الدرس الثاني والثلاثون

مظاهر إجلال الله

- المقام المجهول للنبيّ والأئمة الأطهار
- ارتباط طاعة الله بطاعة النبيّ وأهل البيت
- ضرورة احترام المؤمنين
  - أ . احترام المسنّين المسلمين
  - ب . احترام حملة القرآن والعاملين به
  - ج . إكرام الحاكم العادل
- ضرورة الحكومة والقانون في المجتمع
- شروط الحاكم الصالح
- الوليّ الفقيه هو الأصلح

«يا أبا ذرّ، من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وإكرام حملة القرآن العاملين وإكرام السلطان المقسط. يا أبا ذرّ، لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما ساء خلقه».

في هذا القسم من حديث النبيّ صلى الله عليه وآله، يتمّ التذكير بأهميّة تعظيم واحترام بعض عباد الله كنوع من التعظيم والإجلالِ لله تعالى. فإنّا نجد العقلاء، بناءً على ذوقهم العقلائي، يحدّدون لأجل بعض الأهدافِ والمصالح أشياءً وينزلونها منزلة أشياء أخرى أو يجعلون بعض الأعمال بمثابة أعمالٍ أخرى. مثلما يُقال في المحاورات العرفيّة: إنّ هذا العمل بمنزلة ذاك العمل، وهذا الشخص بمنزلة ذلك الشخص. فهذا التنزيل والتشبيه قائم على أساس التشابه والوجه المشترك بين «المشبَّه» و«المشبّه به». وسبب هذا التنزيل والتشبيه يرجع إلى وجود ميزة أو خاصّة معيّنة في شخصٍ أو في عملٍ ما ولكنّها تكون مخفيّةً، ثمّ تكون نفس هذه الميزة ظاهرةً في الشخص أو العمل الآخر، ولأجل أن تُعرف هذه الخاصّة ويتمّ التوجّه إليها فإنها تُنزّل بمنزلة شيءٍ أو شخصٍ أو فعلٍ له هذه المرتبة العالية من تلك الميزة أو الخاصّة: ففي التشبيهات المتعارفة نجد أنّ هذا الإنسان الشجاع يُشبّه بالأسد، هذا في حين أنّ هذا الإنسان ليس له تلك المرتبة العالية لشجاعة الأسد. ولكن لأنّ الميزة المشهورة للأسد هي الشجاعة فإنّنا نشبّه ذلك الشخص به حتّى تتمّ معرفة شجاعته الخافية علينا، وتظهر للآخرين هذه الميزة ويتمّ التوجّه أو جلب الأنظار إليها، حيث يمكن أن يكون لجلب النظر هذا أهدافٌ وأغراضٌ محدّدة.

وفي آيات القرآن الكريم والروايات عباراتٌ كثيرة يُنزّل فيها الأشخاص بمنزلة الله

تعالى أو يتمّ تعريف ذلك العمل الذي ينبغي القيام به بالنسبة للبعض كأنّه عمل نؤدّيه لله، كما في الآيات الواردة بشأن إقراض المحتاج فإنّه يُذكر تحت عنوان إقراض الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[١].

وقد تمّ هذا التنزيل بينما نحن نعلم أن لله تعالى جميع الكمالات بما لا يتناهى، بل بحسب التعبير الدقيق لبعض العلماء الكبار: ما فوق اللا نهاية. فالذي يعرف الله ويؤمن به يدرك أنّ له جميع الكمالات سبحانه وتعالى وبأعلى وجهٍ يمكن تعقّله.

المقام المجهول للنبيّ والأئمّة الأطهار

وإذا انتقلنا إلى مخلوقات الله تعالى، فإنّنا نجد من بينهم من له من الكمالات ما يجهله من سواهم، ولا يعرف حدّه أحد غيرهم! ومن هؤلاء: أكمل وأعظم خلق الله، المعصومون الأربعة عشر الذين لا يدرك مقامهم وسعة كمالاتهم وعلوّ شأنهم أحد من الخلق. وفي المقابل، كان أكثر الناس يرونهم غير متميّزين عن أيّ إنسان عاديّ. وحتّى بعض الذين آمنوا بالنبيّ كانوا يتصوّرون أنّه مجرّد إنسانٍ يشبه الآخرين، مع اختلافٍ واحد هو أنّه يوحى إليه! ولكنّهم ما كانوا يعلمون وما كانوا يستطيعون أن يعرفوا علوّ مقامه ودرجة امتيازه عن غيره!

وبالنسبة للعارفين بعظمة مقام النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ومنزلته، لا يبقى لديهم أيّ شكٍّ بأنّه الأعظم والأكمل والأفضل من بين جميع الأنبياء، وأنّ شريعته أفضل الشرائع. وقد بعثه الله تعالى بالنبوّة وأرسله بالكتاب ليحكم بالقسط والعدل وينهض بأمر الله لهداية الناس إلى الصراط المستقيم. ويقوم باستعمال كلّ برهانٍ وبيانٍ على قدر عقول الناس من أجل تعريفهم بالله وبيان مصالحهم الدنيويّة والأخرويّة وتكميل دينهم. فكان يتكلّم مع كلّ واحدٍ منهم بحسب عقله ويأتيه بالبرهان الذي يتناسب مع مستواه. ومن أجل أن يوصل أمّته إلى الحقيقة فإنّه كان يقرن ادّعاءه بالدليل والبرهان: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ...﴾[٢].

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ١١.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤٢.

وفي كلام لأمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بشأن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ يقول: «اختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء وذؤابة العلياء وسرّة البطحاء ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة»[١].

وفي مكانٍ آخر، يقول: «مستقرّه خير مستقرّ ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة ومماهد السلامة، قد صُرفت نحوه أفئدة الأبرار وثُنيت إليه أزمّة الأبصار دفن الله به الضغائن وأطفأ به [النوائر] الثوائر ألّف به إخوانًا وفرّق به أقرانًا وأعزّ به الذلّة وأذلّ به العزّة كلامه بيان وصمته لسان»[٢].

وعلى أساس كلام الله وأقوال النبيّ والأئمّة الأطهار عَلَيهِمُ السَّلَامُ، ندرك بالإجمال أنّ لهؤلاء الأطهار الأربعة عشر من المقامات ما لو اجتمعت جميع عقول الناس على أن تحيط بها لما قدرت على ذلك، فما بالك بالوصول إلى تلك المقامات! وهذه المعرفة تكون نصيب من يوفّق بفضل عناية الله وببركة آيات القرآن الكريم والروايات الشريفة. وهكذا، فالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ مع علوّ مقامه وشأنه العظيم، كان أفضل هادٍ إلى الله وقد دعا الجميع إليه، وترك للأمّة ميراثًا عظيمًا هو كتاب الله وعترته وأوصى الناس بالتمسّك بهما لكي لا يضلّوا من بعده كما قال: «إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[٣].

(عدم افتراق هذَين الثقلَين يعني أنّ أهل البيت لا يمكن أن يخالفوا كتاب الله في فعلٍ أو قول، وهذا ما يستلزم عصمتهم).

ارتباط طاعة الله بطاعة النبيّ وأهل البيت

ومن الآيات التي تشير إلى مقام النبيّ العظيم صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ قوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾[٤].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١٠٨، الصفحة ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه، الخطبة ٩٦، الصفحة ١٨٧.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٣، الصفحة ١٣٤.

(٤) سورة **النساء**، الآية ٨٠.

لم تُقيّد طاعة النبيّ بأيّ حدّ أو قيد. ومنه يُعلم أنّ كلّ ما يأمر به النبيّ إذا امتثله المكلّف، فإنّه يكون قد أطاع الله. وهذه الآية تُعدّ أحد أدلّة عصمة النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لأنّ هذه الآية، وآياتٌ أخرى مثلها، تأمرنا بطاعة النبيّ بدون أيّ اعتراضٍ، بل بالتعبّد التامّ. وهذا يعني أنّه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لا يمكن أن يأمر بما يخالف إرادة الله تعالى، وإلّا لكان الله يأمر بطاعته من وجه، ومن وجه آخر، يأمر بطاعة شخص يأمر بما يخالف أوامره. وهذا هو التناقض. ونفس هذا العلو الثابت للنبيّ قد ثبت للأئمّة المعصومين من بعده. وبسبب مقامهم ومنزلتهم السامية فإنّ الله تعالى قد أطلق عليهم عنوان أولي الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[١].

ويقول جابر بن عبد الله الأنصاري: بعد نزول هذه الآية سألت النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: يا رسول الله نحن نعرف الله والرسول، فمن هم أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعته؟ فأجابه النبيّ: إنّهم خلفائي من بعدي وأئمّة المسلمين. ثمّ يعدّد النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الأئمّة واحدًا بعد واحد حتّى يصل إلى اسم الإمام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه الشريف فيقول: «ثم سَمِيّي وكَنِيّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي الذي يفتح الله على يده مشارق الأرض ومغاربها»[٢].

إن اقتران طاعة النبيّ بطاعة الله حاصلٌ أيضًا فيما يتعلّق بالأئمّة الأطهار والوجود المقدس لفاطمة الزهراء عَلَيْهَاالسَّلَامُ وذلك لأنّهم عَلَيْهِمُالسَّلَامُ كالنبيّ حازوا على كلّ كمالٍ يمكن للمخلوق أن يناله في حدّ الكمال والتمام. لأجل التعرّف على هذا التنزيل والمقارنة بين طاعة الله وطاعة أهل بيت العصمة والطهارة بصورةٍ أفضل من المناسب أن نتأمّل قليلًا في الزيارة الجامعة الكبيرة لنرى ماذا ذُكر بشأن مقامهم ومنزلتهم ولزوم محبتهم وطاعتهم. وفيها نقرأ: «من أطاعكم فقد أطاع الله ومن عصاكم فقد عصا الله ومن أحبّكم فقد أحبّ الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله».

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٣، الصفحة ٢٨٩.

وقد ورد هذا المعنى بنحوٍ أكمل في دعاء أيام شهر رجب: «اللّهمّ إنّي أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك...».

إلى أن يقول: «لا فرق بينك وبينهم إلّا أنّهم عبادك وخلقك».

فقد وُجد فيهم مظهر الكمالات الإلهيّة. والاختلاف والفارق هو أنّ جميع هذه الكمالات يفيضها الله تعالى عليهم. ولا شّك بأنّ هذا الفرق أعلى من اللا نهائية: فلئن كان أهل بيت العصمة والطهارة حائزين على جميع الكمالات والمقامات، ولكنّها جميعًا في الأساس هي محض التفضّل من الله، وهم بذواتهم لا يملكون منها شيئًا. فحين نقارنهم بباقي مخلوقات الله نجد أنها تصبح أمامهم محتاجةً إليهم. فليس لأحد ما لهم من المنزلة والمقام عند الله تعالى، بل إنّ الفارق والمسافة بينهم وبين الآخرين لا نهاية لها. وحين نريد أن نقارنهم بالله نعلم أيضًا أنّه لا يوجد أيّة نسبةٍ بينهم وبينه تعالى لأنّهم الفقر المحض، والله هو الغني المحض، ولأنّ وجود أيّ موجودٍ وكمالاته هي من الله.

على أيّ حال، فإنّ البيانات المتقدّمة تجوّز لنا صحّة تنزيل مقام النبيّ وأهل البيت مقام الله. أمّا نحن فعن إدراك مقامهم عاجزون. وإنّما نؤمن بأنّ طاعتهم من طاعة الله ومحبّتهم من محبة الله ومعاداتهم عداوة لله تعالى.

يقول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بشأن فاطمة الزهراء عَلَيْهَاالسَّلَامُ: «فاطمة بضعةٌ مني من سرّها فقد سرّني ومن ساءها فقد ساءني فاطمة أعزّ الناس عليّ»[1].

قلنا إنّ مقام النبيّ وأهل البيت قد نُزّل منزلة مقام الله تعالى، مثلما يعدّ إنجاز بعض الأعمال بمنزلة إنجاز أعمال أخرى كما في ذكر أهل بيت العصمة والطهارة حيث اعتبر بعنوان ذكر الله تعالى: يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] ولا شكّ بأنّ الله تعالى يذكر الجميع ولا يغفل عن أحد، ولكنّ المراد من الذكر في الآية الشريفة الذكر التشريفي والذكر المقرون بالعناية والإنعام. فإذا أراد أحدنا أن ينال ذكر الله ولا يُسلب نعمه، فإنّه ينبغي أن يذكره.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٤٣، الصفحة ٢٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٥٢.

عندها ننظر إلى ذكر أهل البيت المنزّل مقام ذكر الله في الرواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث يقول: «إنّ ذكرنا من ذكر الله وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان»[١].

فتنزيل ذكر أهل البيت منزلة ذكر الله تعالى يرجع إلى أنّهم خلفاؤه لا يعرفون لأنفسهم شأنًا ولا منزلةً سوى العبوديّة التامّة. فنحن حين نسمع باسم النبيّ أو الإمام المعصوم هل يتبادر إلى ذهننا غير أنّهم خلفاء الله تعالى؟ لهذا، فإنّ سماع أسمائهم يذكّرنا بالله، ولهذا كان ذكرهم ذكر الله. وفي مقام التنزيل والظهور لمقام وجبروت الحقّ تعالى يكون أهل البيت والنبيّ في المراتب العليا لهذا التنزيل، حيث إنّهم المظاهر الكاملة للحقّ وهم المرائي التامّة. فلا شكّ بأنّ المرآة الصافية لا تظهر أيّ شيء من نفسها، بل تكون مجرد وسيلة لإظهار الصور المرتسمة فيها. ولأنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيت العصمة والطهارة ليس لهم أيّ شيءٍ من أنفسهم، ويعلمون أنّ كل ما لديهم فهو من الله سبحانه، فإنّهم أفضل من يظهر الله وأفضل مظاهره تعالى.

وبالنظر إلى أنّ الأئمّة الأطهار هم مرائي الحقّ على النحو الأتمّ، وقد فنوا في جمال الربوبية، إلى الدرجة التي صاروا بكلّ أبعاد وجودهم مظاهر صفات الحقّ تعالى، لذا يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يشير إلى أهل بيته: «كلّ علمٍ لا يخرج من هذا البيت فهو باطلٌ وأشار إلى بيته وقال لبعض أصحابه: إذا أردتَ العلم الصحيح فخذ عن أهل البيت فإنّا رويناه وأوتينا شرح الحكمة وفصل الخطاب، إنّ الله اصطفانا وآتانا ما لم يؤت أحدًا من العالمين»[٢].

ضرورة احترام المؤمنين

إذا انتقلنا من مقام المعصومين ونظرنا لمن هم دونهم من الناس، فإنّ كلّ واحدٍ يكون أقرب إليهم وأشبه بهم، أيّ أشدّ رسوخًا في مقام العبودية لله، وأكثر بعدًا عن روحيّة العجب والأنانيّة، فانيًا وجوده في العبودية لله. وباختصار، بالمقدار الذي تجاوز ذاته وصار عبدًا لله وخرج من النظرة الاستقلاليّة إلى نفسه يصبح لائقًا ليُعرف

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٢، الصفحة ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢٦، الصفحة ١٥٨.

أو ينزّل منزلة الله. حيث يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «من زار أخاه في الله، قال الله عزّ وجلّ: إيّاي زرت وثوابك عليّ ولست أرضى لك ثوابًا دون الجنّة»[١].

وقد ورد في رواية أنّ المؤمن إذا زار أخاه المؤمن في الله وبدون غرضٍ دنيويٍّ، فإنّ الله تعالى يرسل ملكًا يسأله: لماذا أتيت لزيارة أخيك؟ فيقول ذلك المؤمن: أتيت إلى بيت عبدٍ من عباد الله وأخ لي في الإيمان لكي أزوره. فيُسأل: وهل لك عنده حاجة؟ فيقول لا. فعندها يسأله الملك: فلماذا أتيت إليه إذًا؟ فيقول: إنّي أحبّه في الله ولهذا جئت لزيارته فيقول له الملك عن الله تعالى: يا عبدي لقد أتيت للقائي وأصبحت ضيفي وعليّ ضيافتك.

أجل، حين يكون المؤمن شديد الاهتمام بالعبوديّة وإزالة الأنانيّة، فإنّه يصل إلى ذلك المقام الذي تُعدّ زيارته زيارة لله.. وبالنظر إلى الآيات والروايات، نجد مضامين كثيرةً ومتنوّعةً تبيّن أنّ زيارة المؤمن وتكريمه تُعدّ بمثابة إجلال الله وزيارته. ومنها هذه الرواية عن النبيّ صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ في مقام وصيّة أبي ذرّ حيث يعرّفه على ثلاث فئاتٍ من عباد الله الذين إذا أجلّهم يكون كمن يجلّ الله. ينبغي أن نلتفت إلى أنّ الإنسان لو كان من الممكن أن يرى الله (والعياذ بالله) ويجلّه: فأيّ مقام سيكون أعظم من هذا المقام. ولا شكّ بأنّنا في مقام العبوديّة والعبادة يجب أن نَنظر إلى الله بعين القلب ثمّ نعبده كما قال عليّ: «لم أكن بالذي أعبد ربًا لم أره»[٢].

وقد ينال الإنسان الذي يعبد الله مخلصًا مقامَ إجلال الله. وهنا، تتحقّق أيضًا درجةٌ من إجلال الله لمن يجلّ أحد ثلاثةٍ من عباد اله:

أ. احترام المسنّين المسلمين

الفئة الأولى: هم أولئك الذين قضوا عمرهم في التمسّك بالإسلام والالتزام بأحكامه السامية حتّى ابيضّ شعرهم على هذا الصراط. فاحترام وتقدير هذه الفئة هو من تعظيم وإجلال الله. وإذا شاهدنا شيخًا مسلمًا واحترمناه باعتباره مسلمًا قضى عمره على طريق الإسلام نكون مجلّين للحقّ تعالى.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٧١، الصفحة ٣٤٥.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، الصفحة ٢٧.

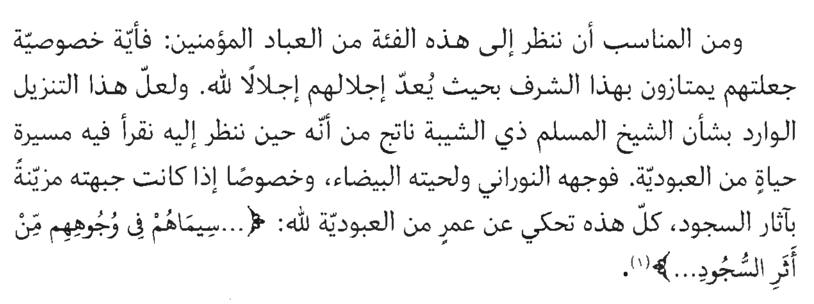

ومن المناسب أن ننظر إلى هذه الفئة من العباد المؤمنين: فأيّة خصوصيّة جعلتهم يمتازون بهذا الشرف بحيث يُعدّ إجلالهم إجلالًا لله. ولعلّ هذا التنزيل الوارد بشأن الشيخ المسلم ذي الشيبة ناتج من أنّه حين ننظر إليه نقرأ فيه مسيرة حياةٍ من العبوديّة. فوجهه النوراني ولحيته البيضاء، وخصوصًا إذا كانت جبهته مزيّنةً بآثار السجود، كلّ هذه تحكي عن عمرٍ من العبوديّة لله: ﴿...سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾[1].

فمشاهدة عمرٍ من العبوديّة هي مشاهدة عمرٍ من الربوبيّة. ذلك لأنّ بين العبوديّة والربوبيّة نسبة التضايف. فحين نرى مخلوقًا عابدًا قضى عمره في العبادة، نكون قد رأينا عمرًا من الربوبيّة والتدبير الحكيم والهداية والعناية الإلهيّة. ولهذا، قيل إنّ العبوديّة والربوبيّة مفهومان متضايفان مثل سائر المفاهيم المتضايفة، من قبيل الأبوّة والبنوّة، التي إذا تصوّر الإنسان أحدهما انصرف ذهنه إلى الآخر. فإذا تصوّر الابن بما هو ابن استلزم ذلك تصوّر الأب.

حين يشاهد أحدنا حياةً مليئةً بالعبوديّة ينصرف ذهنه إلى هذه الحياة التي انطبعت بحضور الله. وهذه هي النسبة والرابطة بين الربوبيّة الإلهيّة والعبوديّة الإلهيّة. لذا كان هذا التنزيل في محله.. حتّى قيل حين تجلّه فإنّك تجلّ الله. وكأنّ وجهه يدلّ على ربوبيّة الله، بالطبع بحسب استعداده. فملاك التنزيل والمقارنة يرجع إلى وجود وجهٍ مشتركٍ بين الطرفَين. فأيّ وجهٍ مشتركٍ أفضل من أن يكون الواحد مظهرًا للآخر. كالصورة التي إذا نظرت إليها فإنّها تذكّرك بصاحبها. فهذا العجوز المسلم الذي جسّد في حياته العبوديّة حتّى ظهرت على وجهه، إذا نظرنا إلى آثار عبوديّته فنحن نشاهد ربوبيّة الحقّ تعالى أيضًا.

وممّا مرّ نعلم عظمة وأهميّة احترام المسنّين في الإسلام. ولا شكّ أنّ هذا الاحترام لا يقتصر على الذكور وإن كانت العادة أنّ اللقاءات والتواصل يكون فيما بين الرجال والشيوخ، وفيما بين النساء والعجائز. لكنّ أصل المطلب لا يختلف بينهما. فالاحترام ينبغي أن يكون للجميع نساءً ورجالًا وهو يُعدّ بمنزلة إجلال الله.

من الجدير أن نشير إلى أنّ بعض القيم المعتبرة في المجتمعات الإسلاميّة

---

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

لها نفس منزلة الاحترام في المجتمعات الأخرى، ولكنّ الملاكات تتفاوت من هنا إلى هناك. فاحترام الكبير يُعدّ من القيم الرائجة في جميع المجتمعات الإنسانيّة مع تفاوتٍ يسير. ولكنّ هذه القيمة تعدّ في المجتمعات التي لا تنطلق من القيم الإسلاميّة والإلهيّة من جملة الآداب والعادات، دون أن نجد لها ملاكًا ثابتًا وصحيحًا. أمّا في نظام القيم الإسلاميّة، فإنّ هذا النوع من القيم التي لها احترام واعتبار عند غير المسلمين، معتبر ومحترم، ولكن بمقتضى ملاكٍ معقول وأساسٍ ثابتٍ ومحكم.

فإنّ احترام المسنّين أمرٌ سائدٌ في كلّ المجتمعات ولكن له في النظام الإسلاميّ خاصيّةٌ مميّزةٌ. وذلك لأنّه ينطلق من جهة مظهريّته للعبوديّة الحقّة لله، وهو ما ليس معروفًا في غيره من المجتمعات. لهذا، ينبغي الالتفات إلى أنّ الآيات والروايات حين تتحدّث عن القيم التي يكون لها نوعٌ من القداسة والعظمة في المنظومات القيميّة الأخرى، لا يعني ذلك أنّ هذه القيمة المعروفة والمعتبرة في الإسلام هي بنفس الاعتبار وعلى أساس نفس الملاك في غيره. بل يمكن أن يكون ملاكها مختلفًا جدًّا، فيكون هذا الملاك في الإسلام أعلى وألطف. وبالتوجّه إلى ما بيّناه، يجب احترام المسنّين (بل احترام كلّ صغيرٍ لكلّ كبير)؛ وهذا الاحترام يرجع إلى أنّه عبدٌ لله وقد قضى عمرًا في ذلك. وهذا الفعل يتمتّع بخاصيّةٍ أخرى فيعدّ بمنزلة إجلال الله تعالى.

وقد أشار النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى الأثر الأخرويّ لاحترام المسنّين بقوله: «من وقّر ذا شيبةٍ في الإسلام آمنه الله من فزع يوم القيامة»[١].

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِالسَّلَامُ بشأن التعامل اللائق بين المسلمين بحسب تفاوت الأعمار: «أوصيك أن تتّخذ صغير المسلمين ولدًا وأوسطهم أخًا وكبيرهم أبًا، فارحم ولدك وصل أخاك وبرّ أباك»[٢].

ولأنّ الإسلام دين المودّة والمحبّة، ودين يدعو أتباعه للأخوّة والألفة، فإنّه يأمر بالتخلّص من كلّ أنواع العوائق والمفرّقات، من أجل تثبيت حالة المودّة والوحدة.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٣٠٢.

(٢) الحاج حسين الشاكري، **موسوعة المصطفى والعترة** عَلَيْهِمُالسَّلَامُ (قم: نشر الهادي، الطبعة ١، ١٤١٧هـ)، الجزء ٨، الصفحة ١٤٦.

ويأمر المسلمين أن يسعوا للحفاظ على كلّ مظاهر رحمة الله بينهم من خلال الكلام المحبّب. قال النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «من أكرم أخاه المسلم بكلمةٍ يلطّفه بها وفرّج عنه كربته، لم يزل في ظلّ الله الممدود عليه الرحمة ما كان في ذلك»[١].

لهذا، ينبغي احترام الكبير الذي قضى عمرًا في الإسلام حتّى شاب عليه، وإن لم يكن بمعلوماته ومعارفه مثلنا. فنحن لا نعلم أنّنا سوف نصل إلى هذا العمر أو إذا وصلنا إلى عمره هل سنبقى محافظين على ديننا. فما أكثر أولئك الشباب الذين حُرموا من نعمة الهداية ثمّ غادروا هذه الدنيا مكبّلين بالكفر ومعاندة الله. فإذا كنّا نرى هؤلاء المسنّين وقد وصلوا إلى هذه المرحلة من العمر وهم حافظون لدينهم وإسلامهم، فما أجدر أن نحترمهم، رغم أنّهم قد يجهلون تلك المفاهيم العلميّة التي نعرفها أو لا يكون لهم تلك المنزلة العلميّة التي حصلنا عليها! فمثل هذه الفئة قد نالت هذا الشرف والعظمة بسبب هذا العمر والسنوات الطوال التي قضتها على طريق الإسلام.

ب. احترام حملة القرآن والعاملين به

والفئة الثانية: هي حملة القرآن والعاملين به. وبالدرجة الأولى يُعدّ احترام وإجلال حفظة القرآن والعاملين به إجلالًا لله تعالى. ثمّ يأتي بالدرجة الثانية من لم يحفظ القرآن ولكنّه عالمٌ بعلومه وعاملٌ بها. كذلك لا يُستثنى من لا يعمل بالقرآن، ولكنّه يحمل علومه، وإن كانت درجة احترامه أقلّ، ففي روايةٍ واردة عن النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «أشراف أمّتي حملة القرآن وأصحاب الليل»[٢].

في هذه الرواية، أثبت النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ شرفًا خاصًّا لحملة القرآن. ولكن في هذا المقطع من كلامه لأبي ذرّ قد بيّن ما يفوق هذا الشرف، وهو أنّ احترامهم يعدّ إجلالًا لله تعالى. ولكن بشرط أن يكونوا عاملين به أيضًا. وخصوصيّته أنّ حملة القرآن العاملين به إنّما يظهرون بباطنهم وظاهرهم، بأفعالهم وأقوالهم، إرادةَ الله وكلامه: فقد حفظوا ألفاظ القرآن واستوعبوا علومه وحوت أذهانهم مفاهيمه، وكما يُقال:

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٨٤، الصفحة ١٣٨.

أضحت قوّتهم المتخيّلة مدركةً لصورة هذه الألفاظ المقدّسة وأدركت قوّتهم العاقلة مفاهيمه ونفّذت قواهم العاملة حقائقه في الأعضاء والجوارح. فأضحى كلّ وجودهم إلهيًّا وقرآنيًّا. فحين تنظر إلى محفوظاتهم تجد أنّهم من حفظة القرآن، وحين تنظر إلى علومهم تجد أنّهم يحملون علوم القرآن وقد أدركوا مفاهيمه. وحين تنظر إلى أعمالهم تجد أنّهم يعملون بحسب القرآن. فمن هذه الجهة، صار وجودهم آيةً للقرآن: ومرآةً تعكس كمال الله، حيث تجلّى الله فيهم بكلماته. لهذا كان إجلالهم إجلالًا لله. وحول المقام المنيع والمنزلة الرفيعة للقرآن الكريم يقول النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «القرآن هدًى من الضلال وتبيانٌ من العمى واستقالةٌ من العثرة ونورٌ من الظلمة وضياءٌ من الأحداث وعصمةٌ من الهلكة ورشدٌ من الغواية وبيانٌ من الفتن وبلاغٌ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم وما عدل أحدٌ عن القرآن إلّا إلى النار»[١].

أو ما جاء في الحديث الشريف بشأن ضرورة الاعتناء بالقرآن ومعرفته والنظر إليه باعتبار أنّه كتاب السعادة والنجاة: «من أخذ دينه من كتاب الله وسنّة نبيّه (صلوات الله عليه وآله) زالت الجبال قبل أن يزول ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال»[٢].

وفي حديثٍ آخر عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بشأن ارتباط القرآن وأهل البيت: «أنا أوّل وافدٍ على العزيز الجبّار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي، ثمّ أمّتي ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي»[٣].

فما ذُكر هو لكي نعلم أنّ للقرآن بركات لا توصف، سواءٌ باللحاظ المادّي أو باللحاظ المعنويّ. وكلّما اقترب الإنسان من هذا الكتاب وزاد أنسه به وتدبّر فيه حصل له المزيد من الفائدة من بركاته وفضائله. وقد بلغت فضيلة القرآن وعظمته درجةً رفيعةً بحيث رُوي بشأنه أنّ شخصًا سأل الإمام المعصوم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عن علّة أفضليّة الأئمّة على سائر الخلق فقال له الإمام عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «ذلك لأنّ علم القرآن عندهم».

فمن اللازم أن نكون دومًا في حالة تكريمٍ وتقديسٍ للقرآن، ولا نعامله كما

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحتان ٦٠٠ و٦٠١.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٧.

(٣) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٦٠٠.

نعامل باقي الكتب، ولا نكتفي بتعظيمه على سائر الكتب والمصنّفات بقلوبنا، بل ليكن سلوكنا مع القرآن متميّزًا عن أيّ كتابٍ آخر. وبالإضافة إلى الاحترام القلبيّ للقرآن، يجب أن نعظّمه بظاهرنا بحيث يحكي سلوكنا الظاهريّ احترامنا القلبيّ للقرآن. ولا شكّ بأنّ هذا التعظيم والتقديس سوف يزيدنا إيمانًا.

ويُنقل عن بعض الأعاظم أنّه ما كان لينام في غرفةٍ يوجد فيها القرآن ولا يمدّ قدمَيه في هذه الغرفة. هناك قصّة يرويها العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله) وكذلك الشهيد مطهّري (رحمه الله) عن المرحوم الشيخ محمّد تقي الآملي (رضوان الله تعالى عليه) وهي أنّ المرحوم الآملي كان ذات ليلةٍ متّكئًا على وسادته أثناء قراءة القرآن من فرط تعبه. وفي اليوم التالي حين تشرّف لخدمة أستاذه المرحوم الميرزا علي القاضي (رضوان الله تعالى عليه)، حيث كان العلّامة الطباطبائي جالسًا في محضره أيضًا بادره أستاذه بدون أيّة مقدّمة قائلًا: حين يقرأ الإنسان القرآن فليس من المستحسن أن يتّكئ على وسادةٍ! فلأجل تعظيم القرآن وإيجاد الأرضيّة الواسعة لانتشار ثقافة القرآن في المجتمع يجب احترام حملة علوم القرآن، وإذا كنّا نحن من جملة هؤلاء فعلى الآخرين أن يحترمونا. ولا ينبغي أن نظنّ بما أنّنا من حملة القرآن فإنّه لا يلزمنا أن نحترم هؤلاء الحملة، لأنّه لا تنافي بين أن يكون الشخص حاملًا للقرآن وهو في الوقت نفسه يحترم من هم أمثاله. مثلما أن احترام السادات من ذرّية رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أمرٌ واجبٌ على الجميع ومنهم السادة أنفسهم. فحين ينظر الإنسان إلى سيّد ما، فإنّه يتذكر الرسول الأكرم فيحترمه حتّى لو كان هو نفسه سيّدًا.

ويُنقل بشأن أحد العلماء الكبار السادة أنّه حين كان ذات يوم خارجًا من مجلسه جاء ابنه ليقدّم له حذاءه فانزعج هذا السيّد أشدّ الانزعاج وقال: «لا ينبغي لذريّة فاطمة الزهراء أن يقدّموا لي حذائي!» فإذا كان الإنسان من السادة فإنّه يجب أن يحترم غيره من السادات، وإذا كان عالمًا يجب أن يحترم العلماء. فمن كان عالمًا وعاملًا أضحى جديرًا بالاحترام ولا يمنع ذلك أن يحترم من هم أمثاله. فعليه أن يحترم عالم الدين من حيث أنّه حاملٌ للقرآن وعلومه، ولا يعدّ ذلك في الواقع إلّا احترامًا للقرآن.

ج. إكرام الحاكم العادل

الفئة الثالثة: ممّن يُعدّ احترامهم إجلالًا لله هم الحكّام العادلون. وقبل أن نتعرّض لضرورة احترام الحاكم العادل نبيّن ما يتعلّق بضرورة الحكومة والقانون في المجتمع والشروط والخصائص من يتصدّى لحكومة المسلمين:

ضرورة الحكومة والقانون في المجتمع

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائيّ: وأمّا المُلك وهو السلطنة على الأفراد فهو أيضًا من الاعتبارات الضروريّة التي لا غنًى للإنسان عنها، لكنّ الذي يحتاج إليه ابتداءً هو الاجتماع من حيث تألّفه من أجزاء كثيرة مختلفة المقاصد متبائنة الإرادات دون الفرد من حيث أنّه فرد، فإنّ الأفراد المجتمعين لتبائن إرادتهم واختلاف مقاصدهم لا يلبثون دون أن يقع الاختلاف بينهم، فيتغلّب كلّ على الآخرين في أخذ ما بأيديهم، والتعدّي على حومة حدودهم وهضم حقوقهم فيقع الهرج والمرج، ويصير الاجتماع الذي اتّخذوه وسيلةً إلى سعادة الحياة ذريعةً إلى الشقاء والهلاك، ويعود الدواء داءً، ولا سبيل إلى رفع هذه الغائلة الطارئة، إلّا بجعل قوًى قاهرة على سائر القوى مسيطرةً على جميع الأفراد المجتمعين حتّى تعيد القوى الطاغية المستعلية إلى حاق الوسط، وترفع الدانية المستهلكة إليه أيضًا فتتّحد جميع القوى من حيث المستوى ثم تضع كلّ واحدة منها في محلّها الخاصّ وتعطي كلّ ذي حقّ حقّه[١].

اتّضح أنّ حياة الإنسان هي حياة اجتماعيّة. أمّا لماذا كانت حياته اجتماعيّةً، وهل فرض عليه هذا البعد الاجتماعيّ بالجبر والإكراه، أو أنّ طبيعة الإنسان بذاته تقتضي مثل هذه الحياة، وهل هناك دخل لأيّ عاملٍ عقلائيّ أو اختياريّ في اختيارها أم لا؟ فهذه أبحاثٌ يدور حولها الكثير من الكلام، ونحن نرى أنّ للعامل العقلائيّ دخلًا في اختيار الحياة الاجتماعيّة: فلأنّ الإنسان يرى المنافع والفوائد في الحياة الاجتماعيّة، ويدرك أنّه لا يقدر على تأمين حاجاته الماديّة والمعنويّة بدونها، أو إذا قدر فإنّه لا يستطيع أن يحقق ذلك بصورةٍ تامّة: فإنّه يخضع لهذه الحياة الجماعيّة ويقبل بشروطها.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ١٤٥.

والنقطة الأخرى هي أنّ من لوازم الحياة الاجتماعيّة حصول التزاحم والتضادّ بين مصالح أفراد المجتمع ومنافعهم. فحين يدخل الناس في الحياة الاجتماعيّة ويتعايشون فيما بينهم ويتعاونون على الأعمال يقومون بتقسيم وتوزيع حاصل هذا التعاون. وهناك يحصل نوعٌ من التضارب بين منافعهم وحاجاتهم. فأولئك الذين يريدون المزيد من الموارد ويسعون للحصول على الناتج بصورةٍ غير محدودة، أو يريدون أن يفرضوا إرادتهم على غيرهم لينفّذوا لهم ما يريدون، وبالتالي يحصل الرفض والاعتراض في المقابل. فينجرّ الأمر لا محالة إلى نزاعات داخل المجتمع والتي تتطلّب ها هنا تحديدًا دقيقًا للحدود والقوانين المنظّمة. فهذا الأمر بديهيّ ووضوحه بيّن لكلّ من تأمّل قليلًا في حاجات الإنسان سواء الماديّة أو المعنويّة (وبالطبع فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعيّة). وهناك سوف يرى أن تأمين جميع حاجات الأفراد بصورةٍ غير محدودة أمرٌ غير ميسور، فلو أراد الناس أن يتعايشوا ضمن حياةٍ اجتماعيّة، فإنّه يجب أن يعيّنوا لحاجاتهم حدًّا ولا يعملوا وفق أهوائهم.

ولهذا، فإنّنا نحتاج إلى الحدود والقوانين لأجل القضاء على النزاعات والتقليل من التزاحم. فلو لم نضع مثل هذه الحدود لاستغلال الأفراد في الحياة الاجتماعيّة، أو لم يراعِ الأفراد هذه الحدود فلن يتحقّق الهدف من الحياة الجماعيّة، والذي هو عبارة عن الاستفادة مهما أمكن من الموارد الطبيعيّة لأجل التكامل الماديّ والمعنويّ. لهذا، ينبغي إدارة الحياة الاجتماعيّة من أجل تأمين أرضيّة التكامل الدائم لجميع أفراد المجتمع. وبهذه الطريقة فقط يتحقّق الغرض من مثل هذه الحياة الاجتماعيّة بشكلٍ صحيح.

وفي النظام الإسلاميّ القائم على المبادئ والأصول الإسلاميّة، يجب أن يكون القانون إلهيًّا والمشرّع هو الله تعالى. والدليل على ذلك هو أنّ الإسلام يُعدّ دينًا شاملًا يتناول جميع الأبعاد المتعلّقة بشؤون الحياة الاجتماعيّة. ولأنّنا أتباع هذا الدين ونؤمن بأنّ تطبيقه يضمن سعادة الناس كافّةً، ينبغي أن نمتلك القدرة للدفاع عنه في مقابل جميع المذاهب المختلفة، وفي مواجهة التيّارات العديدة التي جرفت أكثر دول العالم وأضحت شائعةً في كلّ مكان من أجل الدفاع عن عقائدنا وأهدافنا بسلاح الاستدلال والفكر.

شروط الحاكم الصالح

وإلى هنا، نكون قد بيّنّا ضرورة الحكومة في المجتمع وضرورة القانون. ولأنّ إقامة الحكومة وتطبيق القانون لا يتيسّر بدون وجود الحاكم، فإنّنا نشير إلى بعض شروط التصدّي للأمور الحكوميّة:

١. معرفة القانون: فالذي ينبغي أن يسهر على تطبيق القانون، سواء ذلك الذي يتعلّق بالأمن القوميّ أو المتعلّق بالدفاع أو العلاقات الدوليّة أو غيره، يجب أن يمتلك المعرفة الكافية للقانون والأصول والقيم التي يبتني عليها هذا القانون.

٢. التقوى: وهي شرطٌ عامّ في الثقافة الإسلاميّة، وهي المعروفة في الثقافة العامّة تحت عنوان تحمّل المسؤوليّة. فالذي يتصدّى لأمور المجتمع ويصبح مسؤولًا عن مصالح الناس يجب أن يكون دومًا بصدد تأمين منافعهم وحماية مصالحهم. ويبتعد عن شهوة السلطة وتأمين منافعه الشخصيّة وتلبية غرائزه الدنيويّة. وإلّا لكان فاقدًا لصلاحيّة صيانة أموال الناس ونفوسهم وأعراضهم، غير قادر على تطبيق القانون. ففي مورد هذا الحاكم، سيقوم بتفسير القانون بما يتناسب مع مصالحه ومنافعه ويفعل أيّ شيء لتأويله أو نسخه وإلغائه من أجل تحقيق مشتهياته. حتّى يتجرّأ بعد ذلك على مخالفته بشكلٍ علنيّ. فالشرط الثاني للتصدّي لأمور الحكم هو التمتّع بالصلاحيّة الأخلاقيّة وهي المعروفة بلسان القرآن والثقافة الإسلاميّة بالتقوى.

٣. الخبرة: إنّ كلّ من يتولّى عملًا معيّنًا، ينبغي أن يكون قادرًا على أدائه، لأنّ مجرّد المعرفة بالقانون وامتلاك ملكة التقوى الفرديّة لا يكفي للقيام بالأعمال بالشكل الصحيح. فيجب تحقّق الخبرة التي بها يتمكّن من تحمّل أعباء المشاكل الكبيرة والصغيرة التي تُلقى على عاتق المسؤولين.

ولا شكّ أنّ المجتمعات البشريّة بحاجةٍ إلى القانون من أجل حلّ النزاعات والخصومات ووضع الحدود وتعيينها فيما يتعلّق بالمصالح الشخصيّة والاجتماعيّة، ومن أجل تحقيق التوازن في الحياة الاجتماعيّة، كما أنّها تحتاج إلى الوالي والحاكم من أجل تطبيقها بشكلٍ صحيح والوقوف أمام الطغاة والمتمرّدين. ولكنّ الكلام في أنّ هذه الولاية والزعامة هلْ هي لله وحده بحيث لا يحقّ لأحد أن يتولّى أمور المجتمع وإدارته إلّا بإذنه تعالى؟ أم أنّ هناك من يمتلك صلاحيّة التولّي والزعامة بالأصالة؟

وفي الجواب، يُقال إنّه لا ولاية لأحدٍ على أحدٍ في الأصل. ذلك لأنّ الإنسان إنّما يطيع من كانت نعمة وجوده منه، ولأنّه لا يوجد أيّ إنسانٍ يفيض هذه النعمة على أحد، لا في أصلها ولا في استمرارها، فلا يجب طاعة أو اتّباع أحدٍ على هذا الأساس. وهذا أصلٌ أوّلي يبيّن عدم جواز طاعة أحدٍ من قبل أيّ انسان. ولأنّ الإنسان قد نال جميع شؤون وجوده من الله تعالى، فهو مكلّف طاعته وحده والتسليم له دون غيره.. أمّا اتّباع من سواه وطاعته فهو مشروط بأن يكون هذا الغير منصوبًا من قبل الله تعالى.

وبالتوجّه إلى ما ذكر حين نتأمّل في القرآن الكريم، نجد أنّ الله تعالى لم يقبل بولاية الباطل، وهي كلّ ولاية لم يُعيّنها الله تعالى. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

(وقوله تعالى «إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» يدلّ على أنّ هؤلاء ظالمون وأنّ الظالمين لا يهديهم الله أبدًا ولا يمكن أن يحقّقوا أيّ هدفٍ صحيح، فهم يراوحون في وسط الطريق دائمًا. فلو اتّبعتموهم لأمسيتم مثلهم وبعدتم عن الغاية).

وفي آيةٍ أخرى، يصف الحاكم بالحقّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2].

ومن خلال الشواهد المذكورة في الإسلام والتي تؤكّد على ضرورة الحكومة في المجتمع وشروط الحاكم الإسلاميّ، يتّضح أنّ الذي يجب أن يكون حاكمًا في زمن حضور المعصوم كالرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو نفس المعصوم. ومن الطبيعيّ أنّ مثل هذه الحكومة هي أمنية كلّ إنسان، وهي النموذج والمثل الأعلى. ولكنّ هذا الأمر لم يكن ميسورًا دائمًا، بل إنّ المعصوم نفسه إذا كان حاكمًا فإنّ دائرة حكومته الفعلية التي يتولّاها بنفسه ستكون محصورةً في المحلّ أو البلد الذي يسكنه ولهذا فإنّه يعيّن عمّاله على باقي المناطق والبلدان ويتولّى بنفسه عمليّة الإشراف عليهم. وفي عصر الغيبة حيث لا حكومة للإمام المعصوم،

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥١.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.

فإنّ الذي ينبغي أن يتولّى هذا المنصب ويقود المجتمع على أساس شريعة الله وأصول الإسلام يجب أن يكون حائزًا على هذه الشروط:

١. المعرفة الكافية بالإسلام: ولأنّ القيادة والحكومة تتحمّل مسؤوليّة حفظ القوانين والقيم الإسلاميّة وتقع على كاهلها مسؤوليّة حفظ وتطبيق الدين والقيم والأحكام الإلهيّة، فينبغي أن تكون هذه القيادة واجدةً للشروط الثلاثة: معرفة القانون، والتقوى والصلاحيّة الأخلاقية، والكفاءة والمهارة اللازمة لإدارة الأمور بصورة أفضل من الآخرين. وقد نقل في إحدى الروايات أنّه لو تولّى شخصٌ أمور المسلمين وفيهم من هو أعلم وأولى منه فإنّ أوضاع ذلك المجتمع ستسير في حالة من التدهور الدائم: «من أمّ قومًا وفيهم من هو أعلم منه أو أفقه لم يزل أمرهم إلى سفالٍ إلى يوم القيامة»[١].

٢. التقوى: وفي حديثٍ عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ذُكر شرط التقوى والورع ضمن خصائص القائد: «ورعٌ يحجزه عن معاصي الله»[٢].

وفي روايةٍ أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كتب إلى أهل الكوفة بشأن قيادة المجتمع قائلًا: «ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفسه على ذلك لله»[٣].

ومن كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يخاطب فيه عثمان بن عفّان يقول: «فاعلم أنّ أفضل عبادَ الله عند الله، إمامٌ عادل هُدي وهدى فأقام سنّةً معلومةً وأمات بدعةً مجهولةً... وإنّ شرّ الناس عند الله إمامٌ جائر ضَلّ وضُلّ به فأمات سُنّةً مأخوذةً وأحيا بدعةً متروكةً»[٤].

٣. التدبير والإدارة: الشرط الثالث هو المهارة في إدارة الأمور وحسن التدبير وإدارة أعمال المجتمع.

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٨٥، الصفحة ٨٨.

(٢) **الكافي**، الجزء ١، الصفحة ٤٠٧.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٤، الصفحة ٣٣٤.

(٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٦٤، الصفحة ٦٩.

فإنّ القدرة الإداريّـة والقياديّة لتولّي شؤون المجتمع على طريق الإسلام شرطٌ أساسيّ للحاكم الإسلاميّ. وهذه الخاصيّة تتطلّب مجموعةً من المقدّمات والخبرات والمعارف والشؤون الأخرى، بحيث إذا وصل أحدٌ إلى هذا المستوى من الكفاءة السياسيّة والدراية للأمور فإنّه يمكن أن يُعهد إليه تولّي شؤون المسلمين.

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه»[١].

الوليّ الفقيه هو الأصلح

وببيان تلك المعايير والخصائص للحاكم الإسلاميّ، نجد أن حكومة الأصلح أضحت مهيّأةً في زماننا: ففي السابق حين كانت إمكانيّة وصول هؤلاء الأشخاص إلى الحكم ضعيفةً جدًّا وأحيانًا تبدو أنّها مستحيلة، لم تُطرح مثل هذه الأبحاث وإنّما اكتفي بطرح قضيّة مرجعيّة التقليد. ومن هنا، كان الحريصون على الإسلام يسعون لاكتشاف من يكون مرجعًا للتقليد ويعدّون ذلك أفضل خدمةٍ للمجتمع الإسلاميّ. أمّا اليوم وبحمد الله فإنّ الأرضيّة والوسائل التي تمكّن الصالحين من الإمساك بالحكومة والتصدّي للأمور متوفّرة وببركة هذه الثورة الإسلاميّة العظيمة ودماء شهدائها الأطهار توفّرت الظروف ليقف على رأس السلطة من هو الأصلح من الآخرين. وهذه نعمةٌ إلهيّة عظيمة ينبغي شكرها. إنّنا نشكر الله تعالى على أن منّ علينا في هذا النظام الإسلاميّ ببركة وجود قيادة الوليّ الفقيه. وإنّ شكر هذه النعمة لا يتمّ إلّا بطاعة ولاية الفقيه التي هي ضمانة عزّة المسلمين ووحدة الأمّة الإسلاميّة.

ففي حياة الإمام الخميني، تنعّمنا بهذه الموهبة الإلهيّة وها نحن اليوم رغم آلاف الحسرات على حرماننا من تلك النعمة العظيمة، قد أدام الله تعالى علينا نعمته وأظلّنا بظلّ الوليّ الفقيه. فإنّنا نشكر الله تعالى على أنّ خبراء هذا الشعب قد عيّنوا الأفضل والأصلح من أنصار الإمام العظيم وهو آية الله الخامنئي مدّ ظلّه العالي كخليفةٍ للإمام الراحل وقد بايعه جميع الناس بطيب خاطر واستمرّ أتباع

---

(١) المصدر نفسه، الجزء٢، الخطبة ١٧٣، الصفحة ٨٦.

الإمام بالسير على خطّه بعزم راسخ، لم يتزلزلوا ولم يضعفوا. وإنّنا نسأل الله تعالى أن يحفظ لنا هذه الوحدة والانسجام بين المسؤولين وأن يجعل ذلك أكثر استحكامًا يومًا بعد يوم حتّى تصل سفينة هذه الثورة العظيمة إلى شاطئ الأمان وتحقّق الهدف المطلوب بقيادة قائدها العظيم.

وهذا النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يوصي أبا ذرّ الغفاري بأنّ إجلال الحاكم العادل العامل بشريعة الله والحاكم على أساس العدل هو إجلالٌ لله تعالى. فاحترام الحاكم العادل تعظيمٌ لله، الذي له الصفات الحسنى، ومنها الحاكميّة! فمن أسمائه تعالى الحاكم والولي. وولاية الله وحكومته إنّما تظهر بالعمل بأحكامه العادلة، وهو ما يقع تحت مسؤوليّة الحاكم الإسلاميّ.

وإنّ قيادة المسلم العادل ووليّ أمر المسلمين الذي يحكم على أساس شرع الله ويسعى لتطبيق أحكامه تعالى في المجتمع الإسلاميّ تُعدّ مرتبةً من مراتب ولاية النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأهل بيته عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ. ذلك لأنّ الولاية الإلهيّة قد أوكلت في الأصل للنبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والأئمة الأطهار عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ لقوله تعالى في سورة **المائدة**: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ...﴾[١] وقد جُعلت المرتبة النازلة منها للسلطان العادل ووليّ أمر المسلمين. ولهذا، فإنّ إجلاله يُعدّ إجلالًا لله. وخلافًا لتصوّر من يظنّون أنّ احترام الحاكم الإسلاميّ ليس له أيّة قيمة تُذكر، فإنّ احترام وتعظيم من يقود المجتمع ويتولّى أموره يعدّ إجلالًا لله تعالى وينطلق من تعظيم الإسلام والنظام الإسلاميّ. هذا بشرط أن لا يكون له أيّ غرض أو طمع. بل لأنّه وليّ أمر المسلمين ويسعى لتطبيق الإسلام وهو مروّج القرآن. وبهذا ينال المعظم شرفًا عظيمًا. ولمثل هذا الفعل قيمةٌ عالية في الإسلام.

وأرى نفسي مكلّفًا أن أذكر هذا الأمر وهو أنّ من أفضل السنن التي سنّها الوليّ الفقيه بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في بلدنا هي إحياء سنّة قراءة القرآن وحفظه. فما أكثر ما نشاهد في التلفزيون أطفالًا لم يبلغوا الحلم وقد حفظوا القرآن كلّه.. أحيانًا نشاهد طفلةً قد حفظت ثلث القرآن وباللهجة العربيّة الفصحى في حين أنّ بنات جيلها لا يقدرن على التكلّم الصحيح! وإذا كنتم تذكرون أحوالنا

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.

قبل الثورة، فكم كنّا نتعب في تعليم الناس سورة الفاتحة فقط، وتمكين الناس من التفريق بين السين والصاد، وكان هذا الأمر صعبًا جدًّا حتّى على المتعلمين. والآن نشاهد فتاةً لا يزيد عمرها على سبع سنوات تقرأ ثلث القرآن مع رعاية أحكام التجويد كاملةً وبقراءةٍ أفضل من قراءتنا! ألا يُعدّ ذلك سببًا لفخرنا؟ ألا ينبغي أن نعظّم من أرسى دعائم هذه السنّة؟

فمن المسلّم أنّ تعظيم هذا الشخص هو إجلالٌ لله وللقرآن. فلنحذر من التقصير بحقّه. ولو لم نكن ممّن يراعي هذا الإجلال لزالت هذه الشعائر. فبقاء الدين في المجتمع ببقاء الشعائر الإسلاميّة. وبدون شيوع هذه الثقافة بين الناس، تصبح هذه القيم في طيّ النسيان. وليس هذا إلّا الكفران.

فبالنسبة لنا نحن الذين أدركنا هذه النعمة الكبرى التي منّ الله بها علينا يجب أن نكون مقدّرين ولقيادة النظام الإسلامي مجلّين ولا شكّ أنّ ذلك ينبغي أن يكون بعيدًا عن الطمع، بل من أجل تحمّل المسؤوليّة ورضا الله تعالى. وذلك لأنّ إجلال القائد هو تعظيمٌ للنظام الإسلاميّ وللإسلام ولله تعالى.

الدرس الثالث والثلاثون

ضرورة حفظ اللسان وذمّ آفاته

- ❖ التأثير المتبادل للأعمال أو الإحباط والتكفير
- ❖ ذمّ طلب عيوب الآخرين
- ❖ ذمّ التملّق والمدح الكاذب
- ❖ ذمّ الطعن والتجريح باللسان
- ❖ ذمّ المراء والإصرار على الموقف السابق

«يا أبا ذرّ، ما عمل من لم يحفظ لسانه. يا أبا ذرّ، لا تكن عيّابًا ولا مدّاحًا ولا طعّانًا ولا مماريًا. يا أبا ذرّ، لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما ساء خلقه».

وهذا القسم من مواعظ النبيّ صلى الله عليه وآله، يقع في إطار اللسان (ويُلاحظ أنّ هذا المقطع لا يرتبط بالمقطع السابق ولا بالمقطع اللاحق. وكأنّ شيئًا من التقديم والتأخير قد حصل في نقل هذا الحديث، حيث كان ينبغي أن يكون هذا المقطع بعد القسم المتعلّق باللسان. وربما كان من المفترض أن يكون قوله صلى الله عليه وآله في المقطع السابق إنّ من إجلال الله يأتي بعد هذا المقطع الحالي).

التأثير المتبادل للأعمال أو الإحباط والتكفير

وفي كلماته الشريفة يبيّن صلى الله عليه وآله أهميّة الحفاظ على اللسان والكلام، وذلك ببيانٍ آخر. كلّ ذلك من أجل أن يحفظ الإنسان لسانه ولا يطلقه بحيث يقول ما يشتهي، بل يضع عليه قفلًا ويفكّر قبل أن ينطق. وبما أنّ التكلّم أسهل شيء على الإنسان، حيث قد يبعثه على الكلام بعض الدوافع البسيطة، ربما تؤدّي إلى الإساءة إلى الآخرين أو الثرثرة، ولهذا سعى أئمّة الدين لتوصيتنا بمختلف الأساليب بالحفاظ على ألسنتنا وعدم إطلاقها.

ومن جملة هذه الوصايا كلام النبيّ صلى الله عليه وآله وأمره بضرورة حفظ اللسان بحيث عدّ من لم يحفظ لسانه كمن لم يؤدِّ أيّ عمل صالح. ولعلّ الملاحظة في هذا الكلام هو ما يتركه اللسان من آفاتٍ في روح الإنسان وما يجلبه له من مفاسد تؤدّي إلى القضاء على أعماله الأخرى. فممّا تواتر في الآيات القرآنيّة والروايات أنّ أعمال

الإنسان يؤثّر بعضها في بعض. فقد يؤدّي الإنسان عملًا ثمّ يؤدّي عملًا آخر فيما بعد فيسبب ذلك تغيير آثار العمل الأوّل بحيث قد يقضي عليها بالكامل سواءٌ كان ذلك الأثر طيّبًا أم لا.

وفي الكتب الكلاميّة، يُطرح بحثٌ تحت عنوان الإحباط والتكفير. والحبط يعني زوال آثار الأعمال الحسنة وذلك بما تفعله الأعمال السيّئة من تضييع لتلك الأعمال الحسنة لتتركها فاقدةً للفائدة والثمرة. والتكفير يعين جبران الذنوب من خلال الأعمال الحسنة أو تكميل ما نقص من الأعمال. وبما أنّ جذور جميع أعمالنا ترجع إلى الإيمان والكفر، فإنّ أبرز مصاديق الإحباط والتكفير هما الإيمان والكفر.

إنّ الإيمان والأعمال الصالحة التي يوفّق لها الإنسان بعد ارتكاب الذنوب والسيّئات تزيل الكفر السابق وتجبر الأعمال السيّئة كمثل نورٍ يسطع على الظلمات فيضيء جوانبها. وبالعكس أيضًا، فإنّ الكفر المتعاقب والأعمال السيّئة اللاحقة تمحو آثار الإيمان السابق والأعمال الحسنة الماضية وتؤدّي إلى تسويد صحيفة أعمال الإنسان وضياع مصيره مثلما تحرق النار كومة القش.

وبعبارةٍ أخرى، يشبه الإيمان ذلك المصباح المضيء الذي ينوّر بيت القلب والنفس ويزيل كدورات الظلمات. أمّا الكفر فإنّه عبارة عن انطفاء ذلك المصباح وزوال ذلك النور وحلول الظلمات. وما دامت روح الإنسان متعلّقةً بهذا العالم المادّي ولوازمه من التغيّرات والتحوّلات، فإنّه سيبقى في معرض النور والظلمة والزيادة والنقصان فيهما، إلى أن يطوي سجّل هذه الحياة وينسدّ أمامه طريق الاختيار بين الكفر والإيمان، بحيث لن يتمكّن من الرجوع إلى هذا العالم مهما تمنّى تحت ذريعة إصلاح ما فسد منه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وهذا التأثير والتأثّر المتقابل بين الإيمان والكفر أمر مقطوع به في القرآن الكريم، والآيات التي تدلّ عليه كثيرة جدًّا، منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾[2].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٩٩ و١٠٠.

(٢) سورة **التغابن**، الآية ٩.

وفي موضع آخر، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

ويوجد نظيرٌ لهذه العلاقة بين الإيمان والكفر فيما بين الأعمال الصالحة والسيّئة على نحو الإجمال، وليس دائمًا. فليس في كلّ مورد إذا سُجّلت في صحيفة أعمال الإنسان أعمال صالحة فإنّها تقوم بمحو الأعمال السيّئة السابقة، ولا في كلّ مورد إذا سُجّلت في صحيفته أعمال سيّئة فإنّها تمحو أعماله الصالحة السابقة، وإنّما الصحيح هو أن نقول بالتفصيل، بمعنى أنّ بعض الأعمال الصالحة إذا أُدّيت بشكل حسن ومقبول فهي تمحو آثار الأعمال السيّئة السابقة، مثل التوبة التي إذا تمّت بالشكل المطلوب فإنّها تؤدّي إلى غفران الذنوب السابقة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

فالتوبة تشبه شعاع النور من جهة أنّها تسطع على النقاط المظلمة في وجود الإنسان وتضيئها. وهكذا، فلا يمكن القول بأنّ كلّ عملٍ صالحٍ يزيل أثر أيّ عمل سيّءٍ. فمن الممكن أن يُبتلى هذا المؤمن بالعقوبة على معاصيه لمدّة من الزمن، ثم تكون عاقبته الجنّة الخالدة.

وكأنّ لروح الإنسان أبعادًا مختلفةً، ولكلّ من الأعمال الصالحة والسيّئة ارتباطًا بأحد الأبعاد أو الزوايا. فمثلًا قد يكون هذا العمل الصالح المرتبط بالبعد «أ» غير قادر على إزالة أثر المعصية المرتبطة بالبعد «ب»، إلّا إذا كان ذلك العمل الصالح في درجةٍ من النورانيّة بحيث يسري إلى جميع جوانب وأبعاد الروح، أو بالعكس فتكون إحدى المعاصي بدرجة من الظلمة بحيث أنّها تكدّر سائر أبعاد الروح. والمثال على ذلك ما ورد بشأن الصلاة في القرآن الكريم: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٧.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١١٠.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٥.

وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[١].

أو في المقابل، تلك المعاصي (كعقوق الوالدَين أو شرب الخمر) التي تكون مانعةً من قبول العبادة مدّةً من الزمن. ويحدّثنا النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن العواقب الوخيمة لشرب الخمر بقوله: «أقسم ربّي جلّ جلاله فقال لا يشرب عبدٌ لي خمرًا في الدنيا إلّا سقيته يوم القيامة مثل ما شرب منها من الحميم»[٢].

ومن المناسب أن نشير إلى أنّ لبعض الأعمال الحسنة والسيّئة آثارًا في إحداث السرور أو الغمّ أو التوفيق أو سلب التوفيق في هذا العالم. وكذا الإحسان إلى الغير، وخاصّةً الوالدَين والأقربين، فهو يؤدّي إلى إطالة عمر الإنسان أو دفع البلاء عنه.. أو سوء الأدب مع الآخرين (وخصوصًا المعلّم) الذي يؤدّي إلى سلب التوفيق منه.

أجل، فإنّ للأعمال الحسنة دورًا مهمًّا أحيانًا في جبران الأعمال السيّئة. وأحيانًا تؤدّي الأعمال السيّئة إلى القضاء على الأعمال الحسنة السابقة. وما دام الإنسان في هذه الدنيا فسيبقى في دائرة هذا التأثّر والتأثير بين أعماله. ومن باب التشبيه، نقول إنّ قلب الإنسان وروحه تشبه تلك الغرفة التي تكون مظلمةً في بعض الأحيان، فيشعّ عليها ذلك النور ليزيل ظلمتها، وبالعكس قد تكون هذه الغرفة منوّرة فتهبّ ريح تطفئ مصباحها.

فما دام الإنسان في هذا العالم فهو في معرض هذه التغيّرات والتحوّلات، ولا يعني ذلك أنّه إذا قام بعملٍ حسن فسيبقى أثره إلى الأبد، بل من الممكن أن يضيع ويزول أثره بعملٍ سيّء يرتكبه. فهذا التأثير بين الأعمال أصلٌ عام، على أساسه يكون لبعض المعاصي القدرة على إزالة آثار الأعمال الحسنة، أو ربما المنع من قبول الأعمال التي سوف تتمّ في المستقبل، كما ورد في الروايات أنّ لبعض المعاصي أثرًا في عدم قبول العمل الصالح أو الصلاة لمدّة أربعين يومًا: «من اغتاب مسلمًا أو مسلمةً لم يقبل الله تعالى صلاته ولا صيامه أربعين يومًا وليلةً إلّا أن يغفر له صاحبه»[٣].

---

(١) سورة **هود**، الآية ١١٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٦، الصفحة ١٢٦.

(٣) الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (لبنان- بيروت: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، الجزء ٧، الصفحة ٣٢٢.

وكما ورد في حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أطب كسبك تُستجب دعوتك فإنّ الرجل يرفع اللقمة إلى فيه حرامًا فما تُستجاب له دعوة أربعين يومًا»[١].

وكذلك ما ورد بشأن شارب الخمر: «من شربها لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»[٢].

والمعنى الذي نفهمه من حديث النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا القسم من الرواية هو أنّ الإنسان إذا لم يحفظ لسانه وأطلق له العنان فإنّه لن يبقى له عمل صالح. ممّا يعني أن للّسان تأثيرًا إلى الدرجة التي يمحو فيها الأعمال السابقة. وهذا تحذيرٌ لكلّ واحدٍ منّا لكي لا يقلّل من شأن اللسان هذا العضو الصغير، فيفكّر قبل أن ينبس ببنت كلمة. ولينظر إلى آثار كلامه فهل سيرضى الله تعالى عنه؟ وهل أنّه سيترك أثرًا طيّبًا في روحه أم العكس حيث سيكون له أثر مدمّر؟

وبعد هذه الموعظة والوصية العامّة، يُعدد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بعض معاصي اللسان. ولا شكّ بأنّ ذكر هذه المعاصي اللسانيّة يرجع إلى الدور الكبير الذي تلعبه في تغيير هويّة الإنسان وسقوطه. وأيضًا لأنّ الإنسان سيبقى دومًا في معرض التلوّث بهذه المعاصي.

ذمّ طلب عيوب الآخرين

وإحدى الصفات الذميمة التي يذكرها النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هي طلب عيوب الآخرين. ولا يشكّ أحدٌ في قبح هذه الصفة التي ترجع إلى العداوة والحسد. وهذا الشخص يبقى دومًا باحثًا عن عيوب وزلّات الناس، لإبرازها وتكبيرها، والالتذاذ بذلك. وفي الآيات والروايات الكثير من ذمّ هذه الصفة القبيحة. وبدراستها، ندرك أنّ الذي يكون طالبًا لعيوب الآخرين ساعيًا لفضح المسلمين، يُعدّ من أخبث الناس وأسوئهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٣].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحة ٢١٧.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٣، الصفحة ٣٣٠.

(٣) سورة **النور**، الآية ١٩.

ويقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من أذاع فاحشةً كان كمبتدئها ومن عيّر مؤمنًا بشيءٍ لم يمت حتّى يركبه»[1].

ومن جملة الدوافع التي تحمل البعض على طلب عيوب الآخرين ثمّ نشرها هو إحساسهم بالحقارة الذاتيّة. حين يكون الإنسان ناقصًا وله شخصيّة حقيرة وسافلة، ولا يملك أيّ ذخيرة معنويّة، فإنّه لا يقدر على رؤية كمالات الآخرين. ولهذا، فإنّه يسعى للطعن فيهم والتقليل من شأن كمالاتهم. ويسعى لاكتشاف نقاط ضعفهم لإظهارها وتضخيمها. وكلّما ذُكر أحدٌ أمامه، فإنّه يسارع إلى ذكر عيوبه بدلًا من إظهار أبعاد شخصيّته الحسنة والمميّزة.

حين يُذكر أحد المؤمنين في مجلس المؤمنين يسعى البعض على أساس الآداب الإسلاميّة والتقوى إلى ذكر صفاته الحسنة. وفي المقابل، فإنّ البعض، بسبب ضعف إيمانهم وحسدهم وإحساسهم بالضعة، يسارعون إلى إظهار نقاط ضعفه وسلبيّاته وذكر زلّاته وعثراته. ويتجاوزون ذلك في بعض الأحيان إلى عرض تلك الموارد المشكوكة التي تُنسب إليه فيطرحونها بصورة يقينيّة وحتميّة. وفي بعض الأحيان، يختلقون أشياء من هذا القبيل ويلصقونها به.

فهذا خلقٌ رذيلٌ يحمل صاحبه على بذل الجهد في ذكر نقائص الآخرين. وللأسف، فإنّ هناك الكثير من الأشخاص المبتلين بهذه الآفة. وكلّ واحدٍ منّا يمكنه أن يمتحن نفسه إذا ذكر أخوه المؤمن عنده، وخصوصًا إذا كان هناك بعض التنافس بينهما: فهل سيمدحه أو يودّ أن يذكر نقاط ضعفه، ويستخدم الأساليب الملتوية لإفهام الحاضرين أنّه مبتلًى بالعيوب الفلانية!

فيجب أن ينظر الإنسان إلى نفسه حين يُذكر أحد الأشخاص عنده: هل يحبّ أن يذكر صفاته الحسنة، ويمدحه عند الآخرين، ويظهره محترمًا في عيونهم؟ أم أنّه يندفع إلى إظهار صفاته السيّئة وتحقيره وتصغيره في الأعين؟ وهذه صفةٌ سيّئة أصلها الحسد والشعور بالحقارة الذي يؤدّي إلى التألّم من رؤية ما عند الآخرين من كمالات. ولا يتحمّل صاحبها ما لهم من امتيازات قد حُرم منها.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٢، الصفحة ٢٦٠.

يجب الانتباه جيّدًا إلى أنّه من المستحسن جدًّا أن نكون ممّن إذا ذُكر عندنا أحد المؤمنين أن نعدّد حسناته، وإن كانت الظروف والدوافع توجب علينا أحيانًا ذكر عيوبه (كما في حال المشورة التي يلزم فيها أحيانًا الإشارة إلى العيوب). ولكنّ مثل هذه الموارد استثنائيّة.

كيف نتألّم ممّا عند الآخرين ونحن نعلم أن الثروة الحقيقية للمؤمن تكمن في ارتباطه بالله. والمؤمن الحقيقيّ لا يرى رأسمال له غير هذا! ولو كان أحدنا يمتلكه لشعر بعظمة خاصّة في روحه، تجعل كلّ ما سواه ممّا حصل عليه الناس حقيرًا. كيف لا، وقد أدرك ذلك المقام الذي يغرق فيه بالعظمة اللا متناهية والبهجات واللذّات التي لا توصف، حتّى يكون عنده مدح الآخرين وثناؤهم أو ذمّهم سواء.. فمن المسلّم أنّ هذا المؤمن الذي سطع نور الإيمان في قلبه يفكّر دومًا في تعظيم واحترام المؤمنين، لأنّه يرى فيه رضا الله والقرب منه.

أما أولئك الذين يعيشون عقدة النقص ولا يرون للإيمان أهميّةً تذكر، فإنّهم يعدّون عظمة الشخصيّة وأساس الموقعيّة وفق ميزان التقدير الاجتماعيّ، وهو ما يُعبّر عنه بالشخصيّة الاجتماعيّة، حيث يُحكم على الشخصيّة بحسب موقعها الاجتماعيّ ونظرة الناس إليها. فإذا مدحه الآخرون قيل إنّه صاحب شخصيّة ومنزلة، وإذا ذمّه الناس أو نظروا إليه نظرة احتقار، فهذا يعني أنّه شخص مفلسٌ. فهذا الإنسان إذا أعرض الناس عنه فسيرى نفسه منتهيًا.

والذين يعانون من النقائص الماديّة والمعنويّة كالنقص في العلم والكمالات والثروة والإمكانات الدنيويّة لا يمكنهم أن يدركوا أفضليّة الآخرين. لهذا، فإنّهم لا ينفكّون عن حالة التشكيك بكمالات الغير والطعن بها. فهذه ميزة العيّاب الذي يكون دومًا باحثًا عن عيوب الآخرين. وهذا الشخص قد جعل سعادته الدنيويّة والأخرويّة في مهب الريح، وسوف يحلّ عليه غضب الله، حين يفشي عيوب المؤمنين ويذيعها.

ومن كلام لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ينهى فيه عن التعييب وتناول الآخرين بالسوء والغفلةً عن الذات: «يا عبد الله لا تعجل في عيب أحدٍ بذنبه فلعلّه مغفورٌ له ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلّك معذّب عليها، فليكفف من علم

منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه»[١].

وفيما يتعلّق بالانشغال بعيوب النفس عن عيوب الغير يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره»[٢].

وبالتوجّه إلى ما ذُكر، ينبغي أن نجتنب تعييب الآخرين والطعن بشخصيّتهم وأن نلتفت إلى أنّ رواج آفة التعييب في المجتمع تقضي على روحيّة الوحدة والأخوّة والانسجام وتنشر الفرقة والعداوة، ممّا يؤدّي إلى تزلزل أسس المجتمع وضياعه. فالتعييب ينشر سوء الظن والحقد ويؤدّي إلى سحق شخصيّة الناس تحت أهواء السفلة الذين يرون تعظيم أنفسهم في النيل من الآخرين. هذا، وإذا انتشرت هذه الآفة في المجتمع تهدّمت حصون القيم الأخلاقيّة. ولهذه الآفة المهلكة أثرٌ في تقوية روحيّة العصيان والتظاهر بالإثم عند أولئك الذين كان من الممكن أن يجتنبوا المعاصي بسبب مجموع الاعتبارات الاجتماعيّة.

ذم التملُّق والمدح الكاذب

ومن الصفات الذميمة التي أشار إليها النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ المدح والثناء على الآخرين!! فروحيّة التملّق والتزلّف حالها كحال التعييب ناشئة من ضعف الشخصيّة وعقدة الحقارة. وفي الواقع، إنّ هذه صفة أولئك الذين يسعون لجبران عيوبهم ونقائصهم من خلال جذب الآخرين إليهم بمدحهم والثناء عليهم، لعلّهم بذلك يكسبون عندهم موقعيّةً ومنزلةً. وهذه خصيصة من أضاعوا أنفسهم وفقدوا أيّ أساسٍ للكمال ولم يعرفوا حقّ قدرة الله وملكه الدائم. ولهذا، فإنّهم يطمعون بما عند الآخرين ويطلبون العزّة والسؤدد من المحتاجين أمثالهم، ومن الفقراء إلى الله تعالى. فمن أقبل على الغنيّ المطلق وطلب العون منه من أعماق قلبه فإنّه لن يسعى للتملّق للآخرين والثناء عليهم على أساس الطمع.

ومن كلامٍ لأمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكر فيه حقّ الله تعالى بالمدح وحده فيقول: «اللّهمّ أنتَ أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير. إن تؤمَّل فخير مأمول

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٤٠، الصفحة ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، الكلمات القصار ٣٤٩، الصفحة ٨١.

وإن تُرجَ فخير مرجوٍّ، اللّهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ولا أثني به على أحدٍ سواك... وعدلت بلساني عن مدائح الآدميّين والثناء على المربوبين المخلوقين...»[1].

قد يمدح الإنسان أخاه المؤمن لأجل نيل رضا الله تعالى ومن باب تعظيم المؤمنين.. ولكن قد يكون المدح على أساس الطمع والأهواء النفسانيّة ولأجل نيل رضا الناس لعلّهم يسارعون إلى مساعدته في الوقت المناسب. وهذا الشخص في الواقع كمن يقرض الآخرين ليستعيد ماله في الوقت المناسب.

إنّ روحيّة التملّق من الصفات الرذيلة التي لا تنسجم مع الإيمان بالله تعالى. فالمتملّق هو الذي يرى مصيره بيد غيره، ويرجو وصول نفعهم إليه. هذا في الوقت الذي يجب أن يؤمن بأنّ مصيره بيد الله.

وكما ذكرنا، فإنّ المنشأ النفسيّ لهذه الصفة هو عقدة الحقارة والشعور بالفراغ حيث يسعى صاحب هذه الخصلة إلى ربط نفسه بالآخرين من خلال مدحهم والثناء عليهم وتملّقهم لعلّه ينال منهم نفعًا أو حظًّا.

ومن الجدير بنا أن ننظر إلى انعكاس رواج هذه الروحيّة في المجتمع ونطّلع على تأثير التملّق والإفراط في المدح على الممدوحين. فممّا لا شكّ فيه أنّ الإغراق في مدح الآخرين يؤدّي إلى نشوء حالات الغرور والتكبّر فيهم ويشيع فيهم الرضا عن النفس والعجب، ويكون ذلك بالنسبة للظالمين نوعًا من الدعم والتشجيع على الاستمرار بالظلم.

هذا التملّق والإفراط في المدح يجعلهم يرون مدح الآخرين حقًّا طبيعيًّا لهم وجزءًا من صفاتهم الحسنة وينسون بذلك نقاط ضعفهم. ومن جانبٍ آخر، تظهر تلك الأعمال الرذيلة التي يرتكبونها بمظهرٍ حسنٍ في نظرهم.

وبالإضافة إلى أنّ التملّق يقف حائلًا أمام عمليّة الإصلاح الأخلاقيّ، فإنّه يغيّر مسير أولئك الأشخاص الذين تخلو حياتهم من المعنى ويعيشون عقدة الأنا، فيجرّئهم على التباهي بنقاط ضعفهم الأخلاقيّة وتصرّفاتهم الظالمة والمخالفة للعقل

---

(١) المصدر نفسه، الخطبة ٩١، الصفحتان ١٣٥ و١٣٦.

والشرع. ولهذا، كان أئمّة الدين ينفّرون عمليًّا من هذه الخصلة المذمومة، ومن جانبٍ آخر يحثّون أتباعهم على مواجهتها، كما قال النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «احثوا في وجوه المدّاحين التراب»[١].

يشير هذا الحديث إلى تملّق المسلم، أمّا تملّق الكافر فحكمه أشدّ. وهذا الكلام صدر من أجل الحدّ من رواج روحيّة التملّق في المجتمع حتّى بتنا نرى شخصًا كعليّ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الذي هو جامع جميع الفضائل والكمالات الإنسانيّة وما فوق الإنسانيّة العاديّة وهو مظهر جلال الله وجماله لا يسمح لأحد بأن يمدحه في حضوره. فنجده عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إذا مُدح قال: «أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم بي مني بنفسي اللّهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل ممّا يظنّون واغفر لي ما لا يعلمون»[٢].

لقد أراد أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أن يفهم هؤلاء أنّه ليس بحاجة إلى مدحهم، وهو لم يسمح لهم بذلك، لكي لا تنتشر هذه الخصلة الذميمة (خصلة التملّق) في المجتمع الإسلاميّ. لأنّهم إذا مدحوا عليًّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ اليوم، فسوف يمدحون الحاكم الذي سيأتي غدًا مهما كان هذا الحاكم. وليس كلّ واحد معصومًا حتّى لا ينخدع بالمدح والثناء. فإنّ البعض يتأثّرون بالمدح وتتسرّب إلى نفوسهم آثاره السلبيّة شيئًا فشيئًا، حتّى يتصوروا بعدها أنّ ما يُقال بحقّهم حقّ وصدقٌ. وهذه آفةٌ كبرى حيث يغري المتملّق غيره بالجهل، ويؤدّي إلى تصوّر نفسه بأنّه أفضل من غيره من شدّة ما يصدّق ما يقال فيه. فهذا التصوّر الخاطئ يُخرج الإنسان عن الحدّ المعقول فيرى نفسه غير ما هو عليه، وليس ذلك إلّا الهلاك المبين. هذا، بالإضافة إلى أنّ المدح غير الواقعيّ يُعدّ تملّقًا والتملّق علامةٌ من علامات النفاق كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملقٌ»[٣].

وفي موضعٍ آخر، يقول عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «من مدحك بما ليس فيك فهو خليقٌ أن يذمّك بما ليس فيك»[٤].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٠، الصفحة ٢٩٤.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٩٣، الصفحة ١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، الخطبة ٣٤٧، الصفحة ٨١.

(٤) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٨٦٣.

وفي هذا الكلام، يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ المتملّق لا يهمّه الحقّ والواقع وإنّما يهمّه مصالحه الشخصيّة التي تبعثه على مدح الآخرين. فإذا دارت الأيام ورأى أنّ مصلحته تقتضي ذمّ من كان يمدحه من قبل بما ليس فيه فلن يتورّع عن ذمّه ونسبة ما ليس فيه من الصفات السيّئة له أيضًا. كلّ ذلك من أجل أن ينال منفعةً أو حظًّا.

لهذا، فإنّ الإسلام لا يجيز للإنسان أن يكون متملّقًا. وإنّ لروحية التملّق والمدح آثارًا سيّئةً على روح المتملّق، وفي روح من تملّق له، وكذلك في المجتمع. وفي الواقع، إنّ المدّاح ينبغي أن يرى نفسه حقيرًا وسافلًا حتّى يتمكّن من القيام بهذا التملّق، والله تعالى لا يرضى للمؤمن أن يضيّع عزّته ومقامه ويحقّر نفسه ليتملّق للآخرين. وأثر التملّق على روح المتملَّق له هو أن ينسى نفسه ويتصوّر أنّه على مقام وعظمةٍ تستوجب احترام الآخرين ومدحهم له، ويؤدّي ذلك إلى إغفاله لنقائصه ونقاط ضعفه، ويتصوّر أنّ حياته وسلوكه لا نقص فيها، بل هو على درجة عالية من الكمال. ويقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إذا مدحت أخاك في وجهه أمررت على حلقه الموسى»[١].

وبمعزلٍ عمّا ذُكر، فإنّ مدح الأشرار والفاسدين يؤدّي إلى جُرأتهم وحثّهم على المزيد من التعدّي على حقوق الآخرين. وهذا المتملّق بغضّ النظر عن ارتكابه للنفاق والكذب فإنّه يساهم بهذا التمجيد الفارغ في تهيّؤ الأرضيّة المناسبة للمزيد من التهتّك والجرأة والاعتداء من قبل الفاسدين وخصوصًا حكّام الجور. وفي الواقع، يكون أحد عوامل الفساد وشريك الجور، ومسؤولًا عن الخسائر التي تحدث بسبب اعتداء الظالمين، ولهذا قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إذا مُدِح الفاجر اهتزّ العرش وغضب الرب»[٢].

وهكذا، ينهى النبيّ عن التعييب الذي يقوم فيه الشخص باكتشاف عثرات الناس وذكرها وهتك حرماتهم فإنّ الله تعالى لا يرضى بفضح الناس حتّى بتلك العيوب الموجودة فيهم وقد ستر عليهم بنفسه. إنّ الله تعالى يستر عيوب الناس لكي يعيشوا فيما بينهم بألفة ومحبّة وكذلك لا يجيز للمؤمنين أن يُظهروا عيوب

---

(١) محمّد مهدي النراقي، **جامع السعادات**، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر (النجف الأشرف: دار النعمان، الطبعة ٤، لا تاريخ)، الجزء ٢، الصفحة ٢٤٥.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ١٥٠.

بعضهم البعض، بل إنّه تعالى لا يجيز للمؤمن أن يذكر عيوب نفسه أمام الآخرين، ذلك لأنه غير مفوّض بأن يفضح نفسه. وكذلك يقول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لنا لا تذكروا من الصفات الحميدة ما ليس في الآخرين تملّقًا لهم. وفي الواقع، فإنّ كلًّا من الإفراط والتفريط في ذكر صفات الآخرين يؤدّي إلى الإضرار بالمؤمن ولا ينبغي للإنسان أن يخرج عن حدّ الاعتدال. فإذا أراد أن يذكر صفات الآخرين الحسنة فليذكر ما هو واقعٌ وليكن ذلك أيضًا في سبيل الخير والمصلحة ولا ينبغي أن يتصدّى لذكر تلك الصفات من أجل مصالحه الخاصّة ولا أن يخرج عن حدّ الاعتدال.

ذمّ الطعن والتجريح باللسان

ومن جملة الصفات السيّئة التي يذكرها النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطعن بالآخرين والنيل منهم باللسان. فإيذاء المؤمن بالكلام الجارح هو المسمّى بالطعن حيث يسعى الطاعن فيه إلى مواجهة أخيه بنقاط ضعفه وعثراته وذلك من أجل تعذيب قلبه. هذا في الوقت الذي يجدر به أن يكون ممّن يواسي أخاه، وإذا وقع أخوه في بعض العثرات أو المشاكل فليسع لأن يحوّل لسانه إلى مرهم يعالج فيه جروحه، لا أن يعتبره مستحقًّا لما جرى عليه وما وقع فيه فيبدأ بالطعن فيه وأذيته ويقول عليّ: «حدّ اللسان أمضى من حدّ السنان»[١].

وينشأ هذا النمط من الطعن من العداوة والحقد وأحيانًا من الحسد، حيث يدفعه ذلك إلى التجريح بمن يتكلّم معه. ومن الممكن أن يكون ظاهر الكلام ومحتواه حقًّا، ولكنّه يظهره بطريقةٍ جارحةٍ وطاعنة تؤدّي إلى تألّم الطرف الآخر وانزعاجه. وحين يحاور غيره، فإذا اشتبه هذا الآخر فهو يمكنه أن يفهّمه بلسانٍ عذبٍ أنّك لم تقرأ تلك العبارة بشكلٍ صحيح أو أنّك لم تبيّن هذا المطلب بطريقةٍ مناسبة. ولكنّه بدلًا من ذلك يبدأ بالنيل منه والطعن فيه. ولو كان الإنسان بصدد بيان أو لفت نظر غيره لخطئه أو عيبه فإنّه ينبغي أن يذكر ذلك بطريقةٍ تؤثّر فيه وتفهّمه المطلب لكي يتقبّله ولا يقع في اللجاجة ويبدأ بالدفاع عن نفسه والإصرار على خطئه فيقع في خطإٍ آخر على أثر اللجاجة التي حصلت نتيجة الأسلوب الخاطئ في بيان الأخطاء والنقائص بحيث يصبح الإصلاح صعبًا. والبعض يتصرّفون

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٧٧٩.

أثناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطريقةٍ لا تؤدّي الغرض المطلوب من الإصلاح أو العمل بالمعروف ليس هذا فحسب بل يكون ذلك الأسلوب السيّء الممتزج بالعتاب والملامة سببًا لدفع ذلك المخطئ إلى المزيد من المنكر ولذلك قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وإيّاك أن تعاتب فيعظم الذنب ويهون العتب»(١).

أو كقوله بشأن تكرار الملامة والعتاب: «الإفراط في الملامة يشبّ نيران اللّجاجة»(٢).

وأيضًا قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وإيّاك أن تكرّر العتب فإنّ ذلك يغري بالذنب ويهوّن العتب»(٣).

فحين تريدون أن تنبّهوا أحدًا إلى نقصه ينبغي أن تواجهوه بالبشاشة والإشفاق والرقّة، ولا يكوننّ لسانكم كالعقرب اللاسع. فتحدّثوا معه بطريقةٍ تدفعه إلى إصلاح نفسه وجبران ضعفه. فلو قلتم له إنّك مخطئ قليل الفهم وأمثال ذلك من الكلام الشديد فمن الطبيعيّ أن ينزعج ولا يعجبه ذلك.. وربما لو كنّا نحن مكانه وتحدّث أحدٌ معنا بهذه الطريقة لانزعجنا منه أشدّ الانزعاج! فكلّ إنسانٍ إذا تكلّمنا معه بطريقةٍ غير موزونة أو قمنا بإهانته أو استخدمنا معه الألفاظ النابية، فإنّه سوف ينزعج وقد يواجهنا بالمثل، إلّا إذا كان يتمتّع بدرجةٍ من التقوى تجعله يصمت ولا يردّ.

فحين نرفض مثل هذا التصرّف، كيف نتوقّع أن نصلح الآخرين بهذا الأسلوب الحادّ. علينا أن نلتفت دومًا إلى السلوك الحسن مع الآخرين ليكون حديثنا وتصرّفنا مظهرًا للأخلاق الرفيعة الإنسانيّة التي نتّصف بها.

ذمّ المراء والإصرار على الموقف السابق

والخصيصة الرابعة المذمومة التي يذكرها النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هي المراء واللجاجة والإصرار على الخطأ: المراء هو ردّ كلام الآخر لإثبات أفضليّة النفس، حتّى لو كان

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٢١٤.

(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٧٧٠.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، الصفحة ٢٨١٣.

ردًّا خاطئًا، فالمماري لن يكون مستعدًّا للاعتراف بخطئه. بل سيقوم بتوجيه كلامه بكلامٍ خاطئ آخر لأجل ترميم الكلام السابق، ويصرّ على ذلك، ويعيد الكرّة. وحين يصّرٍ هذا الإنسان على خطئه فإنّ الطرف الآخر سيجد نفسه مضطرًّا للردّ على ما يراه خطأً وباطلًا، وهكذا..

إذا وُجدت روحيّة الجدال والمراء في الإنسان، فإنّه سيسعى دومًا لجعل كلامه آخر الكلام وختامه. وهذه الروحيّة إنّما تنشأ من العجب وحبّ الذات؛ فمثل هذا الإنسان لا يكون مستعدًّا أبدًا للاعتراف بخطئه لأنّه يرى ذلك سببًا للحطّ من شأنه ومرتبته. فعلى الرغم من علمه بخطئه، يخشى أن يكتشف الآخرون ذلك، لهذا حين يبيّن مطلبًا ما ويقوم الآخرون بإظهار خطئه فإنّه يصرّ عليه، ويسعى جهده لإظهار كلامه على أنّه الحقّ، وأنّ ما قاله صحيح!

ولا شكّ بأنّ هذا المراء لن يخلو من التعرّض للآخرين بالأذى، واشتعال نيران الغضب والردّ والاعتراض من الطرف المقابل. ممّا يؤدّي إلى إيجاد العداوة والنزاع بين الممارين: حينما يسعى كلّ واحد للدفاع بقوّة عن صحّة كلامه. ولهذا، قال النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «ذروا المراء فإنّه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته»[1]، (أي إنّه لا حكمة فيه).

إنّ المراء والإصرار على الباطل صفة رذيلة وللأسف فإنّها آفة تصيب الكثير من أهل العلم. فحين يحين وقت المباحثة ويطرح أحدهم فكرةً خاطئةً ويصرّ عليها فإنّه سيشعر، فيما لو سلّم لرفيقه بخطئه، بنوع من الانكسار. وخصوصًا إذا كان هناك شخصٌ ثالثٌ يشاهد ما يجري!! عندها تصبح القضيّة قضيّة ماء وجه ولا بدّ من الدفاع عنه بأيّ شكل، فكيف إذا كان الشخص الثالث من أتباعه وتلامذته؟! ممّا يزيد من قوّة الدافع لعدم التسليم للحقّ، وترجيح الباطل.

وبالتوجّه إلى الآفات التي تنتج عن اللجاجة والمراء، ينبغي أن يحذر الإنسان هذه الصفة البغيضة ويجاهد نفسه لاقتلاعها. ومن جملة الآفات التي تنتج عن المراء أن يتجرّأ الإنسان على طرح الأفكار والنظريّات غير الواقعيّة.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٣٨.

يقول الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ: «اللّجاج يفسد الرأي»[١].

ومن جملة آفات المراء المذكورة في كلام الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ هو مرض الروح: «اللّجاج يشين النفس»[٢].

وكذلك ما ذكره أمير المؤمنين بشأن زوال تفكير الإنسان ورأيه: «اللجوج لا رأي له»[٣].

أمّا طريق معالجة المراء واللجاجة ومواجهته فيكمن في اقتلاع الكبر الذي يحمل صاحبه على التظاهر بالأفضليّة، والعلم بأنّ المراء يؤدّي إلى إيجاد البغضاء والعداوة ويقضي على الألفة والأخوّة.

ومن الجدير بطلّاب الجامعات أن يسعوا للقضاء على المراء والجدال فيما بينهم، وأن يسلكوا مسلكًا مضادًّا لهذا الخلق ويسلّموا للحقّ دومًا ولا ينطقوا إلّا بما هو أحسن حتّى يصلوا في النتيجة إلى امتلاك روحيّة سامية وترسخ فيهم ملكة قبول الحقّ... ولأجل التخلّص من المراء والجدال، يجب أن يلقّن الإنسان نفسه بأنّ المرء شاء أم أبى معرّض للوقوع في الخطأ والزلل دومًا. وأنّه ليس من المفترض أن يكون جميع الناس مصونين من الخطأ. فالمعصوم فقط هو من لا يرتكب الأخطاء. ومن الممكن أن يقع الآخرون في الاشتباه والخطأ، سواء في بيان شيء أو نقله أو في فهمه واستيعابه. فمثل هذا الأمر ليس بعيدًا عن الواقع وقد يحصل لأيّ واحد منّا. لهذا، لا ينبغي اعتباره عيبًا. وبالطبع على الإنسان أن يسعى للتقليل من أخطائه وخاصّةً في الدرس والمباحثة حيث يجب عليه أن يزيد من مطالعاته ليقلّل من أخطائه، ولكنّه إذا أخطأ فإنّه لا ينبغي أن يُعدّ ذلك عيبًا كبيرًا بحدّ ذاته، ويظنّ أنّه بذلك قد أهرق ماء وجهه واختلّت شخصيّته.

وفي الخطوة الثانية، حين يلتفت إلى خطئه، فليعترف به مباشرةً، وليقل لمن يحاوره لقد أخطأت والحقّ معك. ولا شكّ بأنّ هذا العمل في البداية يُعتبر

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٧٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

أمرًا صعبًا، ولكنّه بعد مضيّ وقتٍ سوف يدرك حلاوة الاعتراف بالخطأ، ويعلم أنّ الخطأ في الرأي ليس عيبًا ويصبح الأمر بالنسبة له سهلًا. فليقل لنفسه أنّني إنسان، والإنسان ليس مصونًا من الخطأ وقد أقع في الخطأ ويكون غيري مصيبًا، والعكس متوقّع أيضًا.

وما أحسن أن يشكر في هذه الحال صديقه الذي التفت إلى خطئه وبيّن له ذلك، ولا يكتفي بالسكوت والصمت. فإذا أردنا أن ننجو من هذه الصفة الذميمة وآفاتها، فإنّه يجب أن نسلك الطريق المقابل. والشيء المقابل للمراء هو الاعتراف بالخطأ. فليقل لصديقه: أنتَ استوعبت الأمر بشكلٍ جيّد جدًّا، أمّا أنا فلم أكن ملتفتًا. وبالنتيجة، إنّ هذا التصرّف الطيّب واللائق لن يؤدّي إلى الإحساس بالحقارة والهزيمة والنقص، بل إنّه ممّا يقوّي جوّ الألفة والتفاهم والصداقة، ويجعل حياتنا حلوةً ويجعلنا أقرب إلى قلوب الآخرين وثقتهم.

لو سعى الإنسان لتبرير أخطائه في الكلام، وحاول التغطية عليها، فإنّه سيخسر ثقة الآخرين، حتّى إذا نطق بالحقّ والرأي الصائب، فإنّهم لن يعتنوا به ولن يتوجّهوا إليه. ولكنّه إذا اعترف بخطئه وسلّم للرأي الصائب فإنّهم سيعتمدون على كلامه، ذلك لأنّهم يعلمون أنّه ليس من الذين يتفوّهون بأيّ كلام. وفي النتيجة، فإنّ هذا التصرّف سيعزّز موقعيّته الاجتماعيّة بينهم. وبالطبع، لا ينبغي أن يكون المؤمن بصدد تحصيل الموقعيّة الاجتماعيّة الأفضل. ولكنّ لهذا التصرّف ولهذا التسليم للحقّ مثل هذه الآثار. فإنّه يعزّز ثقة الآخرين به ويجعله محبوبًا بينهم، ويرفع من منزلته عندهم. هذا، بالإضافة إلى أنّه يكون قد نجا من ذلك الخلق السيّء والرذيل. كلّ ذلك وهو لا يعتني بأيّ منها: بل يجعل قلبه متعلّقًا بالله ويعمل برضاه ويجعله تعالى الدافع لكلّ تحرّكٍ يقوم به. أمّا تلك الآثار فهي ما نعبّر عنها بالمنافع الهامشيّة لتصرّف المؤمن الصحيح.

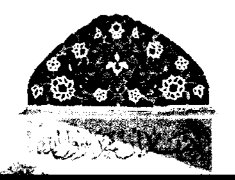

الدرس الرابع والثلاثون

تجلّي العبادة في الإسلام وموقع المساجد ودورها

- ❖ مفهوم العبادة وسعتها
  - أ . تقسيم للعبادة
  - ب . الصلاة ذروة العبوديّة والتقرّب إلى المعبود
  - ج . فلسفة تشريع المقدّمات والعوامل الموجّهة إلى الصلاة
- ❖ المسجد معراج عشّاق لقاء الله
- ❖ الحِكَم في توجيه الناس إلى المساجد
- ❖ ضرورة إدراك أهميّة المساجد وآداب الحضور فيها
- ❖ فضيلة الحضور في المسجد والعبادة فيه
- ❖ أحبّ العباد إلى الله

«يا أبا ذرّ، الكلمة الطيّبة صدقة وكلّ خطوةٍ تخطوها إلى الصلاة صدقة. يا أبا ذرّ، من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنّة فقلت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله كيف تُعمر مساجد الله؟ قال لا تُرفع فيها الأصوات ولا يُخاض فيها بالباطل ولا يُشترى فيها ولا يُباع واترك اللغو ما دمت فيها فإن لم تفعل فلا تلومَنّ يوم القيامة إلّا نفسك.

يا أبا ذرّ، إنّ الله تعالى يعطيك ما دمت جالسًا في المسجد بكلّ نفس تنفّست درجةً في الجنّة وتُصلّي عليك الملائكة وتُكتب لك بكلّ نَفَس فيه عشر حسنات وتُمحى عنك عشر سيّئات.

يا أبا ذرّ، أتعلم في أيّ شيء أُنزلت هذه الآية: ﴿ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] قلت: لا، فداك أبي وأمّي. قال: في انتظار الصلاة خلف الصلاة.

يا أبا ذرّ، إسباغ الوضوء في المكاره من الكفّارات وكثرة الاختلاف إلى المساجد فذلكم الرباط.

يا أبا ذرّ، يقول الله تبارك وتعالى: إنّ أحبّ العباد إليّ المتحابّون من أجلي، المتعلّقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك إذا أردْت بأهل الأرض عقوبةً ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم.

يا أبا ذرّ، كلّ جلوس في المسجد لغوٌ إلّا ثلاثة: قراءة مصلٍّ أو ذكر الله أو سائل عن علم».

بعد بحث ودراسة الأقسام السابقة لمواعظ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ، نقوم بدراسة القسم الآخر الذي يدور موضوعه حول المسجد وآداب الحضور فيه وأهميّة الصلاة.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٢٠٠.

مفهوم العبادة وسعتها

نقوم بداية ببيان مفهوم العبادة وسعة دائرتها: فكما ذكرنا سابقًا إنّ الكمال الحقيقيّ للإنسان يكمن في القرب من الله تعالى. والوسيلة لتحصيل هذا القرب أو الوسيلة للتكامل الحقيقيّ هي العبادة. فللعبادة مضمون غنيّ وعميق ولها من الجاذبيّة بحيث تأخذ بيد كلّ من عصفت به أمواج الحيرة إلى شاطئ الطمأنينة والسكينة، حتّى ينتهي به الأمر إلى مقام الفناء في الله. أجل، إنّ الأقلام تبقى عاجزةً عن وصف هذا المفهوم العظيم الإلهيّ، ووضعه في قالب الألفاظ والحروف! وليس سوى الإمام العاشق الذي فني في العبادة عليّ بن أبي طالب الذي يقدر أن يقول: «إلهي كفى بي عزًّا أن أكون لك عبدًا وكفى بي فخرًا أن تكون لي ربًّا»[١].

وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ القائل: «... ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز...»[٢].

أجل، فللعبادة نظام ثابت لا يمكن للروح البشريّة العطشى أن ترتوي إلّا بها، بحيث لن يبقى لكلّ المظاهر الدنيويّة البرّاقة أيّ أثر أو حضور، ولن يكون لكلّ المتع واللذائذ الماديّة القدرة على إرواء العطاشى أو سدّ الفراغ الناشئ من عدمها، ذلك لأنّ البشر مهما بلغوا في مراتب العلم والتكنولوجيا والحياة الماديّة فإنّهم لن يستغنوا عن الغنيّ المطلق بل سيزداد احتياجهم إليه كلّ يوم.

أ. تقسيمٌ للعبادة

وبنظرةٍ عامةٍ شاملةٍ يمكن أن نقسّم العبادة إلى قسمَين:

١. العبادة بالمعنى الخاصّ وهي عبارة عن تلك الأفعال العباديّة المعروفة من قبيل الصلاة والصوم والحجّ وغيرها.

٢. العبادة بالمعنى العامّ والتي هي عبارة عن كلّ عملٍ صالح يُقصد به طاعة الله تعالى. وبهذا التعريف، نستوعب الأكل والجلوس والقيام والتحدّث وسائر

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٤٠٠.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ٣، الصفحة ٣٧.

الأعمال التي عدّها الله تعالى حسنةً إذا قام بها الإنسان بقصد الطاعة. فلأجل أن يقضي الإنسان عمره على الطريق الصحيح ولا يضيّعه ولا يخسر رأس ماله الأصليّ، يجب أن يسعى لإنفاق جميع لحظات عمره في عبادة الله، سواء بمعناها الخاصّ أو بمعناها العامّ. فهو يؤدّي ما عدّه الشرع المقدّس تحت عنوان العبادة ويؤدّي أيضًا تلك التكاليف والأفعال التوصليّة بقصد القربة.

فلو قام الإنسان بفعلٍ صغيرٍ أو كبير ولم يندرج هذا الفعل ضمن العبادة بمعناها العامّ أو الخاصّ، لكان لغوًا وسوف يستتبع حسرة الإنسان يوم القيامة. فلو كان هذا الفعل والعياذ بالله ذنبًا لاستتبع خسران الدنيا والآخرة والعذاب الأبديّ. ولو لم يكن ذنبًا، بل اندرج ضمن المباح أو المكروه، فإنّ صاحبه على كلّ حال قد ضيّع رأس ماله وأنفقه فيما لا ينفعه. وقد حثّ الشرع الأنور على الكثير من الأعمال التي هي بذاتها مباحةٌ، وهذا الحثّ والتوصية يحرّك الإنسان نحو القيام بها. فإذا أدّاها الإنسان بقصد الطاعة لتحوّل ما قام به إلى عبادةٍ.

وبالتوجّه إلى تلك الرؤية الإسلاميّة والقرآنيّة فيما يتعلّق بحياة الإنسان والهدف من الحياة وطريق السعادة والسلوك والعمل، من الطبيعيّ أن تكون دعوة الإسلام للإنسان لأن يكثر بقدر الإمكان من العبادة ويحسّنها: فمن ناحية الكم والمقدار أن تكون كلّ الأعمال التي يؤدّيها عبادةً. وفي الواقع، فإنّ للعبادة من السعة والشمول ما يمكن أن يشمل كلّ حياة الإنسان. وأمّا من ناحية الكيفيّة (كيفيّة العبادة ترتبط بالنيّة والمعرفة) فإنّ معرفة الإنسان بالله تعالى كلّما ارتفعت، وكلّما ازدادت محبّته لله وأخلص في عبادته وتوجّه أكثر بقلبه، فإنّ عبادته ترتفع: فقد يقيم ركعتَين من الصلاة بشكلٍ مختصرٍ وبكيفيّةٍ جيّدة بحيث يكون ثوابها أكثر من آلاف الركعات. وليس هذا الأمر غريبًا علينا جميعًا، فقد أكّد عليه الإسلام ولفت أنظارنا إليه: فنحن كلّما سعينا لإضفاء الصبغة الإلهيّة على أعمالنا جعلنا حياتنا عابقةً بالعبوديّة لله لأنّ الكمال الإنسانيّ كامن في العبوديّة لله. يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسرٍ أم على يسر»[1].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٨٣.

وبالتوجّه إلى ما ذُكر، فمن الطبيعيّ أنّ من جعل للإنسان مثل هذا الهدف سوف يهيّىء له ميدانًا يصبغ فيه جميع أعماله بصبغة العبادة والربوبيّة. فقد هيّأ الله تعالى جميع الأسباب التي تساعد الناس وتمكّنهم من عبادة الله تعالى والتقرّب إليه. لأنّ رحمة الله تعالى وسعت كلّ شيء، ولأنّه تعالى يريد أكثر من غيره لعباده أن يتقرّبوا إليه. فكما أنّ وجوده وعلمه غير متناهٍ، فإنّ خيره الواصل إليهم لا حدّ له أيضًا.. إنّ جميع صفات الله غير متناهية، فإرادته لفعل الخير غير متناهية. والمحبّة التي يكنّها لعباده لا حدّ لها ولا حصر. فمن كانت له مثل هذه الرحمة اللا متناهية وهذا الخير الذي شمل به كل عباده، فإنّه سيشرّع لهم كلّ ما يمكّنهم للاستزادة من التقرّب إليه. لهذا، فإنّ تشريع الأحكام والعبادات، سواء الواجب منها أو المستحبّ، وكذلك تعيين كيفيّتها وآدابها، كلّ ذلك يُعدّ من ألطاف الله العميمة.. فالله تعالى يريد لنا الوصول إلى الكمال والسعادة الحقيقيّة وأن نسير دومًا على طريق التكامل. ولذلك فإنّه سبحانه وتعالى قد هيّأ لنا من الأسباب التكوينيّة والتشريعيّة ما نحتاج إليه.

ب. الصلاة ذروة العبوديّة والتقرّب إلى المعبود

وفي مقام التكوين، إنّ الله تعالى بمقدار ما يلطف بعباده فهو يوفّقهم أكثر لأداء التكاليف والعبادات. وكما نعلم، فإنّ أفعال الله لا تكون عبثًا بل تندرج ضمن القوانين الإلهيّة الخاصّة. وفي مقام التشريع، يحثّهم ويشرّع لهم من الأحكام ما يزيدهم قربًا منه بفضل العمل بها. ومنها تشريع الصلاة التي هي أفضل وسيلةٍ للتقرّب إلى الله كما يُروى عن المعصومين: «الصلاة قربان كلّ تقيّ»[١].

فلا بدّ من التوجّه إلى أنّ ظاهر الصلاة وصورتها ليست هي القربان أو القرب من الله تعالى، بل حقيقة الصلاة وباطنها هو الذي يحقّق مقام القرب. وحين ننظر إلى الآيات والروايات نشاهد بوضوح كيف أنّ المقصود الأساسيّ من الصلاة هو حقيقة الصلاة لا صورتها. يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[٢].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٠، الصفحة ٩٩.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.

(وفي قوله تعالى أقم ما يتناسب مع حقيقة الصلاة لا مع صورتها) ويقول عزّ وجلّ أيضًا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[١].

يقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله): وسياق الآية يشهد أنّ المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العليّة التامّة. فلطبيعة هذا التوجّه العباديّ إذا أتى به العبد وهو يكرّره كلّ يوم خمس مرات ويداوم عليه خاصّةً إذا زاول عليه في مجتمعٍ صالحٍ يُؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتمّ فيه بما اهتمّ به أن يردعه عن كلّ معصية كبيرةٍ يستشنعها الذوق الدينيّ كقتل النفس عدوانًا وأكل مال اليتيم ظلمًا والزنا واللواط، وعن كلّ ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعًا جامعًا بين التلقين والعمل.

وذلك أنّه يلقّنه أوّلًا بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيّته تعالى والرسالة والجزاء يوم الجزاء وأن يخاطب ربّه بإخلاص العبادة والاستعانة به وسؤال الهداية إلى صراطه المستقيم متعوّذًا من غضبه ومن الضّلال ويحمله ثانيًا على أن يتوجّه بروحه وبدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء ويذكر ربّه بحمده والثناء عليه وتسبيحه وتكبيره ثمّ السلام على نفسه وأترابه وجميع الصالحين من عباد الله.

مضافًا إلى حمله إيّاه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرّز عن الغصب في لباسه ومكانه واستقبال بيت ربّه. فالإنسان إذا داوم على صلاته مدّةً يسيرةً واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتّة. ولو أنّك وكّلت على نفسك من يربّيها تربيةً صالحةً تصلح بها لهذا الشأن وتتحلّى بأدب العبوديّة لن يأمرك بأزيد ما تأمرك به الصلاة ولا روّضك بأزيد ممّا تروّضك به[٢].

وأمّا في الروايات فقد نُقل عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الله تعالى لا ينظر إلى صلاة عبدٍ لا يقبل عليها بقلبه ولا يجعل ظاهره منسجمًا مع باطنه. ومن الواضح الجليّ أنّ هذه الرواية تشير إلى حقيقة الصلاة التي هي ذكر الله تعالى. ذلك لأنّ ذكر الله هو الهدف من العبادة، وهو الذي يجلي القلب ويصفّيه ويجعله مستعدًّا

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، الجزء ١٦، الصفحة ١٣٣.

لاستقبال التجلّيات الإلهيّة. ويتحدّث أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ عن ذكر الله الذي هو روح العبادة فيقول: «إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد العشوة وتنقاد به بعد المعاندة»[١].

ثم يقول عَلَيهِ السَّلَامُ: «وما برح لله - عزّت آلاؤه - في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم»[٢].

وبالتوجّه إلى حقيقة الصلاة وأهميّتها، نجد أنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ وفي خضمّ الجهاد والمعارك كما في حرب صفّين كان ينظر إلى الشمس ليعرف حلول وقت صلاة الظهر وهنا سأله ابن عبّاس: ماذا تفعل؟ فقال له: «انظر إلى الزوال حتى نصلّي».

فقال له ابن عبّاس: وهل هذا وقت الصلاة؟ (هذا وقت الحرب والقتال الذي لا يبقي لنا فرصةً للصلاة) فأجابه الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ: «على ما نقاتلهم؟ إنّما نقاتلهم على الصلاة»[٣]. أجل، إنّ الصلاة عند عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ لها من العظمة والأهميّة ما لا يجعل أيّ شيءٍ يمنعه منها. هذا بالإضافة إلى أنّ عالم العبادة عنده هو عالمٌ عابقٌ باللّذة، تلك اللّذة التي لا يمكن مقارنة جميع لذّات الدنيا بها. فبالنسبة إليه إنّ عالم العبادة هو عالمٌ مليء بالنورانيّة لا يختلط فيه أيّة كدورةٍ وظلمةٍ وغمٍّ. فالعبادة كلّها صفاء وخلوص. ولهذا فإنّه عَلَيهِ السَّلَامُ يرى السعيد من ورد إلى هذا العالم اللا متناهي وهو الذي يُسمع روحه تلك النغمات القدسيّة للعبادة. فالذي ورد إلى هذا المحضر اللا متناهي، لن يبقى لهذه الدنيا في نظره أيّة قيمة، بل إنّه لن يكون مستعدًّا لأن يترك الصلاة أثناء الجهاد ومقارعة الأعادي. فالصلاة هي الهدف من وراء كلّ شيء، والصلاة هي فرصة المناجاة مع الربّ المتعال.

وفي رسالةٍ كتبها أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ إلى عامله عثمان بن حنيف الأنصاريّ: «طوبى لنفس أدّت إلى ربها فرضها وعركت بجنبها بؤسها وهجرت في الليل غمضها حتّى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسّدت كفّها في معشر

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ٢٢٢، الصفحة ٢١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٠، الصفحة ٢٣.

أسهر عيونهم خوف معادهم وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم وتقشّعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿أُوْلَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»[١][٢].

ج. فلسفة تشريع المقدّمات والعوامل الموجّهة إلى الصلاة:

وبالتوجّه إلى أهميّة الصلاة ودورها في سلامة الفرد والمجتمع، فقد عيّن الله تعالى مجموعةً من المقدّمات والآداب من أجل أدائها بأفضل وجهٍ ممكن. وذلك كلّه من أجل أن يكثر العباد من ذكره تعالى ويدركوا أهميّة عبادته. فلكي يقوم الإنسان بفعل الخير، ينبغي أن يعلم في البداية أنّ هذا العمل هو خيرٌ ثمّ يتذكّر أيضًا. وها نحن ذا مطّلعون على حسن الكثير من الأعمال، ولكن حين يتطلّب الأمر القيام بها فإنّنا ننساها. ولهذا ولكي لا ننسى الصلاة، فإنّ الله أعدّ لنا مجموعةً من المقدّمات والممهّدات، ومنها تشريع الآذان: فحين أوجب الصلاة وأكّد على ضرورة أدائها واجتناب تركها فقد عيّن بالإضافة إلى ذلك، عبادةً أخرى باسم الآذان وهو بمنزلة المقدّمة للصلاة والتذكير بها، وأمرنا برفع الآذان، لكي يلتفت الناس إلى الصلاة، وإلى حلول وقتها فيندفعوا لإقامتها. هذا، وإن كان أصل تشريع الصلاة والآيات والروايات (الواردة بهذا الشأن) كلّ ذلك ممّا يعين الإنسان على إدراك مقام الصلاة. ولكن نشاهد كيف يكون لرفع الآذان في بعض الأحيان عند حلول وقت الصلاة من دور في توجيه الناس إلى وقتها وأهميّتها، وهو عاملٌ مؤثّرٌ جدًّا في توجّه الناس إلى الصلاة.

وحتّى بالنسبة للكثير من أولئك الذين صارت الصلاة في أوّل الوقت ملكةً راسخةً في قلوبهم، فإنّهم حين يغوصون في العمل قد يغفلون عن الصلاة ولا يلتفتون إلى حلول وقتها، حتّى إذا ارتفع الآذان فإنّهم حتمًا سيتوجّهون إليها. فحكمة تشريع الآذان والتأكيد على رفعه تكمن بالدرجة الأولى في التذكير والإلفات إلى الصلاة. وبالنتيجة، يُعدّ الآذان وسيلةً لدعوة الناس للقيام بالعبادة في أوّل الوقت.

ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن فضيلة الصلاة في أوّل وقتها: «إذا

---

(١) سورة **المجادلة**، الآية ٢٢.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الكتاب ٤٥، الصفحة ٧٥.

صلّيت صلاة فريضةٍ فصلّها لوقتها صلاة مودّعٍ يخاف أن لا يعود إليها أبدًا»[١].

وكذلك نُقل عن ابن مسعود: «سألت رسول الله: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ؟ قال: الصلاة لوقتها»[٢].

ولذلك عيّن الحقّ تعالى من أجل الحثّ على العبادة وإيجاد روحيّة العبادة والعبوديّة في النفس أزمنةً وأمكنةً خاصّةً ترغّب بالصلاة وبذكره سبحانه. على سبيل المثال: ليلة الجمعة ويومها التي تجعل من يتوجّه إلى هذا اليوم وخصوصيّته في العبادة يرغب بالمزيد من العبادة والابتعاد عن الأعمال اللغوية. وكذلك ما لشهر ذي القعدة من الفضيلة، مع العشر الأوائل من ذي الحجّة، وقد رغّب كثيرًا بعبادة الله في هذه الفترة، حيث كان ميعاد النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ربّه في هذه الأيّام الأربعين وتمّ ميقات ربّه بعبادته سبحانه وتعالى في جبل طور. كما قال تعالى بشأنه: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣].

وقد اشتُهرت هذه الأيّام الأربعون التي انقطع فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للعبادة في جبل طور بالأربعين الكليميّة والتي تُعدّ عند أهل السير والسلوك ذات أهميّة فائقة، وذكروا لها آدابًا وأعمالًا خاصّةً أكثرها يدور حول العبادة. هذا، وللأربعين في رواياتنا موقعٌ خاصّ ذُكر في بعض الروايات: «من أخلص لله أربعين يومًا فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤][٥].

وكذلك تلك الأيّام المباركة، والأعياد، وليالي الإحياء وشهر رمضان التي لها امتيازاتٌ خاصّة وفيها يتمّ حثّ الناس على المزيد من ذكر الله والعبادة والاستفادة منها وإدراك مواعيدها، وهي تذكّرهم بأنّ السعادة في العبوديّة لله وفي عبادته. وأنّه لا يليق بالإنسان أن يعرض عن ربّه وينصرف إلى غيره.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٠، الصفحة ١٠.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٣.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٢.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٤٩.

(٥) إمّا عبادة أربعين يومًا أو حفظ أربعين حديثًا وغيرها من هذه الثمرات الكثيرة المذكورة..

المسجد معراج عشّاق لقاء الله

مضافًا إلى الأزمنة الخاصّة، فقد عيّن الله تعالى للعبادة أمكنةً خاصّةً، حين يتوجّه الناس إليها ويدخلونها، فإنّهم سيقبلون على العبادة بصورة تلقائيّة. ولهذا، فإنّ لوجود تلك الأماكن دورًا في إيجاد المزيد من الدوافع نحو التوجّه إلى الله وعبادته. وهذا الأمر مشهود في المساجد بشكلٍ عامّ.

هذا، وإن كان يجوز للإنسان أن يصلّي في أيّ مكانٍ إلّا الأماكن المغصوبة أو الأماكن التي يحرم الصلاة فيها لدليلٍ خاصّ ولكنّ الإسلام قد أكّد كثيرًا على إقامة الفرائض في المسجد وحثّ على ملازمتها وخصوصًا لجيرانها كما نُقل عن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قوله: «لا صلاة لجار المسجد إلّا في مسجده»[١].

وبالتوجّه إلى التأكيد الوارد في الروايات، فقد أفتى الفقهاء بالاستحباب المؤكّد للصلاة في المسجد لجار المسجد وعدّوا تركه مكروهًا. فممّا أفتى به المرحوم آية الله السيد محمد كاظم اليزدي: «يُكره لجار المسجد أن يصلّي في غير هذا المسجد بدون عذرٍ»[٢]. ولهذا، ينبغي للإنسان أن يحضر دومًا في المسجد ويؤدّي صلاته فيه ويتفكّر في مقامه ورعاية آدابه وتعظيمه وقبح التخلّف عن الحضور فيه، وكذلك فليتفكّر، بالإضافة إلى ما أعدّه الله له من ثوابٍ على الحضور في المسجد والعبادة فيه، حيث إنّ الله تعالى قد جعل المساجد بيوته وأذن لعباده في الدخول إليها. وهي منّة عظيمة منّ الله بها على الناس لكي يدركوا حضوره، فالمسجد بيت الله تعالى.

ومن الطبيعيّ أنّ أطراف الأرض كلّها بالنسبة لله تعالى سواسية ولا يوجد مكانٌ أقرب إليه من مكان، فالمقصود من أنّ للكعبة إذن والمسجد بيت الله هو أنّ الله تعالى يتعامل مع هذه الأمكنة والبقاع كما يتعامل كلّ واحدٍ منّا مع بيته. أي إنّ الله تعالى قد جعل هذه الأماكن محلًا للقائه والأنس به وزيارته وهو يقبل عباده

---

(١) الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة** (قم: مؤسسة آل البيت عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ لإحياء التراث، الطبعة ٢، ١٤١٤هـ)، الجزء ٥، الصفحة ١٩٤.

(٢) السيد اليزدي، **العروة الوثقى** (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة١، ١٤١٩هـ)، الجزء ٢، الصفحة ٤٠٢.

وزائريه، ويخاطبهم ويحادثهم.

هذا، بالإضافة إلى أنّه تعالى يقبل منّا أن نوقف أيّ مكان بعنوان كونه مسجدًا وننسبه إليه ونزوره فيه ونحضر عنده. وهذا يعني أنّه عزّ وجلّ قد ترك لنا تعيين مجلس اللقاء والزيارة وهو أعظم كرامةٍ أُعطيت للإنسان.

فالدور الأكبر للمساجد هو تذكير الإنسان بالله وإيجاد حسّ العبادة والعبوديّة فيه، بالرغم من أنّ المساجد من ناحية الرتبة والمقام غير متساوية، فلبعضها أهميّة وعظمة أكثر من غيرها. يقول الإمام الخمينيّ (قدس سره): «وقد أوصى الشارع الإسلاميّ المقدّس بالصلاة في المسجد وأفضل المساجد هو المسجد الحرام ومن بعده مسجد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومن بعده مسجد الكوفة ومن بعده مسجد بيت المقدس وبعده المسجد الجامع لكلّ مدينة ومن بعده مسجد المحلّة ومن بعده مسجد السوق»[١]. ويقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أربعة من قصور الجنّة في الدنيا: المسجد الحرام ومسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومسجد بيت المقدس ومسجد الكوفة»[٢].

ولهذه المساجد الأربعة من العظمة والقداسة ما كان سببًا للتأكيد على التوجّه إليها وزيارتها ولو من أقاصي الأرض وأُعطي المعتكف فيها ثوابًا عظيمًا، كما ورد عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في فضيلة مسجد الكوفة: «لو يعلم الناس ما في مسجد الكوفة لأعدّوا له الزاد والرواحل من مكانٍ بعيد، إنّ صلاة فريضة فيه تعدِل حجّةً وصلاة نافلةٍ تعدِل عمرةً»[٣].

أو ما ورد بشأن المسجد الحرام وعظمته حيث جُعلت الكعبة قبلة المسلمين فيه ويجب عليهم أن يتوجّهوا عند كلّ صلاةٍ إليه. وقد أوجب الله الحجّ إليه على المستطيع ولكلّ ركعة صلاة فيه ثواب مليون ركعة في غيره من المساجد يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «صلاةٌ في مسجدي تعدِل ألف صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام تعدل ألف صلاةٍ في مسجدي»[٤].

---

(١) الشيخ محمّد فاضل اللنكراني، **رسالة توضيح المسائل**، (النسخة الفارسيّة)، المسألة ٨٩٣.

(٢) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحتان ٢٥٦ و٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٢٨٢.

وبالإضافة إلى ذلك ما بيّنه الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في فضيلة هذا المسجد المقدّس: «من صلّى في المسجد الحرام صلاةً مكتوبةً قبِل الله منه كلّ صلاةٍ صلّاها منذ يوم وجبت عليه الصلاة وكلّ صلاةٍ يصلّيها إلى أن يموت»[١].

وأمّا غير هذه المساجد فلها فضيلةٌ أيضًا ذُكرت في الحديث القدسيّ: «قال الله تبارك وتعالى ألا إنّ بيوتي في الأرض المساجد تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض. ألا طوبى لمن كانت المساجد بيوته. ألا طوبى لعبدٍ توضّأ في بيته ثمّ زارني في بيتي. ألا إنّ على المزور كرامة الزائر. ألا بشّر المشّائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة»[٢].

الحِكَم من توجيه الناس إلى المساجد

ولتوجيه الناس إلى المساجد حكَم كثيرة يمكننا أن نقسّمها بشكلٍ عامّ إلى قسمَين:

١. **الحِكَم الاجتماعيّة:** حين يصبح المسجد مركزًا ليتوجّه الناس إليه بشكلٍ يوميّ عدّة مرّات ويجتمعون فيه أيّام الجمعات بأعداد كبيرة، فإنّ ذلك يكون سببًا في الكثير من البركات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للمجتمع. وقد تمتّع المسلمون منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا بهذه المنافع والبركات الفائقة. فطوال التاريخ كان المسجد قاعدةً ومقرًّا لتأمين الحاجات الفكريّة والدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، وكان قاعدةً لنشر الثقافة الإسلاميّة الغنيّة واكتساب العلوم الضروريّة ومكانًا يتجمّع فيه المجاهدون قبل التوجّه إلى مواجهة الأعداء. ويمكن بشكلٍ عامّ أن نشير إلى أربعة أدوارٍ أساسيّة للمسجد:

أ. أنّه مقرّ عبادة الله وذكره.

ب. أنّه قاعدة الجهاد الفكريّ والتعليم واكتساب المعارف الإسلاميّة.

ج. أنّه مقرّ وحدة المسلمين ومظهر الألفة والانسجام مقابل المنافقين والأعداء العلنيّين والمخفيّين.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحتان ٣٨١ و٣٨٢.

د. أنّه مقرّ تجمّع المجاهدين قبل انطلاقهم لجبهات قتال الأعداء.

٢. **الحِكَم الفرديّة:** وبالإضافة إلى ما ذُكر، فإنّ للمسجد بركاتٍ تعمّ الفرد أيضًا. فحين يكون الإنسان من روّاد المسجد ويحضر فيه، فإنّه يجد في نفسه المزيد من الحضور والشوق للعبادة. فالمسجد يذكّر الإنسان بعبادة الله وذكره تعالى. وحتّى لو كان هذا الإنسان غافلاً عن ذكر الله، فإنّه إذا مرّ أمام المسجد أو شاهد منارته أو قبّته، فهو يلتفت إلى أنّ هذا هو بيت الله ويذكر الله تلقائيًّا. وبالنسبة لأولئك الذين يسلكون طريق العبوديّة تكون هذه العوامل موقظةً وسببًا للدوافع القويّة للعبادة فيهم. ومن هنا، تُعدّ تلك العوامل أفضل الطرق للتكامل.

ومن جملة العوامل والأدوات التي تؤدّي إلى المزيد من ذكر الله وعبادته وجود أماكن مخصّصة للعبادة. لهذا كانت التوصية بأن يكون للإنسان في بيته مكان خاصّ كمصلًّى يحافظ على نظافته: حتّى إذا نظر إليه تذكّر الله. ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كان عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جعل بيتًا في داره ليس بالصغير ولا بالكبير لصلاته وكان إذا كان الليل ذهب معه بصبيّ لا يبيت معه فيصلّي فيه»[١].

إذا تجاوزنا مصلّى البيت، فإنّ لمساجد البلدة والمحلّة دورًا بارزًا في تذكير الإنسان بالله، وهي من الوسائل التي جعلها الله تعالى ذات تأثير واضح في حركة الإنسان ومسيره نحو الكمال والسعادة. لهذا، حين يشاد المسجد في البلدة فإنّه يجب حثّ الناس للذهاب إليه وتذكيرهم بالثواب الذي أُعدّ لهم، وجعل مقابل كلّ خطوة يخطونها في مسيرهم إليه، لكي يزدادوا شوقًا إلى الحضور في المساجد. ويجب تنبيههم إلى أنّ لنفس الحضور في المسجد دورًا في زيادة الحسنات وإزالة السيّئات. يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال رسول الله: ومن مشى إلى مسجدٍ يطلب فيه الجماعة كان له بكلّ خطوة سبعون ألف حسنةٍ ويُرفع له من الدرجات مثل ذلك»[٢].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحة ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحة ٢٨٧.

ضرورة إدراك أهميّة المساجد وآداب الحضور فيها

إنّ قسمًا من مواعظ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المقام تتعلّق بحثّ المؤمنين على الحضور في المسجد والحصول على بركاته المعنويّة. والقسم الآخر يذكر آداب الحضور في المسجد وكيفيّة الاستفادة المُثلى منه، والأعمال والآداب التي إذا أدّيناها فإنّنا لا نُحرم من الثمرات القيّمة لهذه النعمة الإلهيّة الكبرى. وذلك لأنّ الإنسان قد يُبتلى بالغفلة ويسقط في وساوس الشيطان بحيث يبدّل وسائل الخير والسعادة التي أُعدّت له إلى وسائل للشرّ والضلالة. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا﴾[1].

فالإنسان دومًا في معرض الوقوع في هذا الخطر حيث يبدّل بيده النعم الإلهيّة إلى نقم، ويحوّل وسائل الخير إلى شرٍّ. لهذا، وبعد الحثّ على الذهاب إلى المساجد وذكر ثواب كلّ خطوةٍ نحوها، يتمّ تنبيه المؤمنين إلى كيفيّة الاستفادة الصحيحة من المسجد وضرورة التفاتهم إلى أسباب وجودهم في المساجد لكي لا ينشغلوا لا سمح الله باللغو والأحاديث الدنيويّة والبيع والشراء وأمثالها، فينسوا سبب مجيئهم إلى المسجد!

ولهذا، عُيّن للمسجد آدابٌ خاصّة، برعايتها لا يقع الإنسان في الغفلة ولا يُحرم من البركات.

وقبل الوقوف عند كلام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أرى لزامًا عليّ أن أُذكّر بهذه النقطة وهي: حينما يتوجّه الإنسان إلى المسجد يجب أن يتعرّف بقدر الواسع على آداب الحضور فيه. ذلك لأنّه حين تزداد المعرفة يصبح العمل أكثر قيمةً، ويكون لمراعاة ذلك الأدب دورٌ في تقرّب العبد إلى الله. هذا، بالإضافة إلى أنّ من يراعي آداب الحضور يعطي لعمله قوّة التقرّب إلى الله وقبول الأعمال.. يجب أن نلتفت إلى أنّنا حين ندخل إلى المسجد، فقد أصبحنا في محضر الله. ومن المناسب لكي نتعرّف على آداب هذا التشرّف في محضر الحقّ أن نجعل آداب الدخول على العظماء معيارًا، ونرى كيف أنّنا حين ندخل على عظيم من العظماء، نخشع ونتواضع ونشعر بالحقارة. هذا مع أنّ عظمة العظماء ليستْ بشيءٍ أمام عظمة الله تعالى! وإنّ

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٢٨.

الحقوق المتعلّقة بأدب الحضور في محضر الربّ العظيم لا يمكن مقارنتها بحقوق وآداب الحضور عند الكبار والعظماء.

وبالالتفات إلى ما ذُكر، ندرك أنّه ما من أحد بقادر على رعاية حقّ أدب الحضور عند الله. وحين نكون كذلك، فلننظر على الأقلّ في هذه الأثناء كيف يكون سلوكنا حين الإقبال على هذا الربّ العظيم، ونجعل تقصيرنا نصب أعيننا لعلّ الله يشملنا بفضله من باب كرمه وتلطّفه. وفي حديثٍ للإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكر فيه آداب الحضور في المسجد: «إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنّك قد قصدت باب ملك عظيم، لمّا يطأ بساطه إلّا المطهّرون، ولا يؤذن لمجالسته إلّا الصدّيقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فإنك على خطر عظيم إن غفلت، فاعلم أنه قادر على ما يشاء، من العدل والفضل معك وبك، فإن عطف عليك برحمته وفضله، قبِلَ منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثوابًا كثيرًا، وإن طالبك باستحقاق الصدق والإخلاص عدلًا بك، حجبك وردّ طاعتك وإن كَثرت، وهو فعّال لما يريد، واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك، وفقرك بين يدَيه، فإنك قد توجهت للعبادة له والمؤانسة به، واعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنه لا يخفى عليه أسرار الخلق أجمعين وعلانيتهم، وكن كأفقر عباده بين يدَيه، وأخلِ قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فإنه لا يقبل إلا الأطهر الأخلص، وانظر من أي ديوان يخرج اسمك، فإن ذقت حلاوة مناجاته، ولذيذ مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته، من حسن إقباله عليك وإجابته، فقد صلحت لخدمته، فادخل فلك الإذن والأمان، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل، فإن علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه، نظر إليك بعين الرأفة والرحمة واللطف، ووفقك لما يحب ويرضى فإنه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه، المحترقين على بابه لطلب مرضاته. قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾»[1][2]؛

وفي مقام الحثّ على الحضور في المسجد، يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

---

(١) سورة **النمل**، الآية ٦٢.

(٢) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٤٣٧.

«يا أبا ذرّ؛ الكلمة الطيّبة صدقةٌ وكلّ خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة».

والصدقة من العناوين التي استخدمت في الثقافة الإسلاميّة بكثرة، ورجحانها واضحٌ للجميع: فحين يُقال إنّ العمل الفلاني صدقة، فهذا يعني أنّ ثوابه فائقٌ وقيمته كبيرةٌ جدًّا. ومن هنا، إذا أريد تعريف أمر بأنّه عظيمٌ وذو قيمةٍ عالية، يُقال هذا العمل صدقةٌ. ومنه أن يُقال للكلام الحسن صدقة. وذلك لكي لا نقلّل من قيمة هذا الكلام، ونلتفت إلى أنّه حين نتكلم بلياقة ولطف مع الآخرين ويكون ذلك لنفعهم وللمزيد من توجّههم إلى الله وامتناعهم عن الفعل السيّء، أو يؤدّي كلامنا إلى إدخال السرور على قلب المؤمن المغموم ومنحه الأمل وتخليصه من اليأس والكرب، فإنّ ذلك الكلام سيكون مورد رضا الله تعالى. ولو قُصد به الطاعة لله سبحانه لعُدّ عبادةً.

ففي البداية، يقول النبيّ إنّ كلّ كلمةٍ حسنة هي صدقة، ثمّ يقول إنّ كلّ خطوةٍ إلى المسجد تُعدّ صدقةً أيضًا، فينتقل محور الحديث فيما بعد إلى المسجد. ومن الطبيعيّ حين يطّلع الإنسان على مفهوم هذا الكلام النبويّ ومعناه ويصدّق أنّ كلّ خطوة يخطوها المؤمن إلى المسجد تُعدّ صدقةً، وعليها ثوابٌ وأجر، فإنّ المسجد كلّما بعُد عن بيته فسيسارع إليه أكثر، ولن يستصعب هذا المشي، كما أنّه لن يتذرّع ببُعد المسجد، لأنّه يعلم أنّ المسجد كلّما ابتعد عن بيته أصبح ثواب المشي إليه أكثر.

ثمّ يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بشأن آداب الحضور في المسجد: «**يا أبا ذرّ؛ من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنّة**».

والظاهر أنّ المقصود من «داعي الله» هو المؤذّن لأنّه يدعو الناس إلى بيت الله. ودعوته هذه من جانب الله تعالى. وعليه أن يؤذّن بصوتٍ مرتفع ليعلن حلول وقت الصلاة لكي يتوجّه الناس إلى العبادة في المسجد. فمن أجاب دعوته بعد سماع صوت الآذان وتحرّك نحو المسجد، (بل سعى بالإضافة إلى ذلك إلى عمارة المسجد) فإنّ ثوابه الجنّة. وقد يتبادر من كلمة عمارة المسجد معنى البناء أو الصيانة والترميم حين يوشك المسجد على الخراب. ولكنّ هذا المعنى لا يتناسب كثيرًا مع الجمل السابقة. لهذا، لا بدّ أن يكون معنى عمارة المسجد أعمّ من البناء والصيانة وأمثالها. والتعبير بعمارة المسجد الذي ورد في القرآن الكريم والروايات

يشمل من الناحية اللغويّة البناء والتعمير والصيانة، وكذلك الزيارة والتردّد عليه. وفي الروايات التي وردت عن الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، تمّ التأكيد على هذه الأمور الثلاثة: بناء المسجد، وتجديده وترميمه، وكذلك التردّد عليه. وهو الذي حثّت عليه الروايات كثيرًا. وبالتوجّه إلى ما ذُكر، يبدو أنّ أبا ذرّ قد التفت إلى المعنى المقصود من عمارة المسجد وأنّه غير البناء الظاهريّ وغير الترميم، ولهذا سأل عن كيفيّته. فلو كان المقصود من العمارة هو البناء لما بقي عند أبي ذرّ أيّ إبهام لكي يسأل عنه. فيسأل أبو ذر عندئذٍ: يا رسول الله فداك أبي وأمّي كيف نعمر مساجد الله؟ فيجيبه النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لا تُرفع فيها الأصوات ولا يُخاض فيها بالباطل ولا يُشترى فيها ولا يُباع. واترك اللغو ما دمت فيها فإن لم تفعل فلا تلومنّ يوم القيامة إلّا نفسك».

وفي هذه الجمل، يوجه النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبا ذرّ إلى أربعة آدابٍ أخلاقيّة وتربويّة:

١. اجتناب رفع الأصوات في المسجد: لأنّ المسجد محلّ العبادة. وقد يؤدّي رفع الصوت فيه إلى تشتيت أفكار المصلّين فلا يقدرون على التركيز في صلاتهم وعبادتهم. هذا بالإضافة إلى أنّ رفع الأصوات بين الجماعة يُعدّ من ناحية العادات الاجتماعيّة من قلّة الأدب. ومن اللازم أن يكون الإنسان في المسجد صاحب سلوكٍ مناسبٍ وحسن. وأن يجتنب كلّ ما يُستقبَح ولا ينسجم مع الآداب الإنسانيّة. لهذا، فإنّ أحد مصاديق عمارة المسجد هو أن يتصرّف الإنسان فيها بأدبٍ ووقار ويراعي قدر الإمكان الصمت والسكوت. وإذا أراد أن يتحدّث فليكن ذلك بصوتٍ منخفض لكي لا يشوّش على المصلّين والحاضرين فيه. وعن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بهذا الصدد قوله: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلةً حلّ بها البلاء. قيل: يا رسول الله ما هنّ؟ قال: إذا ... وارتفعت الأصوات في المساجد...»[1].

٢. الابتعاد عن اللغو والكلام الباطل: إنّ المسجد بيت الله ومحلّ العبادة، فالتفوّه بالكلام الباطل واللغو فيه بل كلّ كلامٍ غير ضروريّ يُعدّ أمرًا مذمومًا. ذلك

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، **تحف العقول**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ هـ.ش)، الصفحة باب مواعظ النبيّ وحكمه، الصفحة ٥٣.

لأنّ هذه التصرّفات تعدّ من قلّة احترام المسجد وعدم رعاية شأنه. مثل الذي يكون ضيفًا عند صديقه، فيبدأ بمدح عدوّ مضيفه والتمجيد به أو يتحدّث بما يؤذيه أو يتصرّف بما يضرّه. ومن المسلّم أنّ مثل هذا السلوك مخالفٌ للأدب والإنسانيّة. فعلى الضيف أن يراعي حقّ المضيف ويتصرّف بما يُدخل السرور إلى قلبه؛ والله تعالى لا يحبّ من عباده أن يتحدّثوا بما يضرّهم ويهدّد سعادتهم. هذا بالإضافة إلى أنّ القيام بالأعمال العبثية والحديث الباطل في المسجد يؤدّي إلى نسيان حيثيّة وفلسفة وجود المسجد. فحين نكون في المسجد ونبدأ باللغو ننسى أنّ هذا مسجدٌ وننسى لماذا جئنا إليه.

٣. اجتناب البيع والشراء في المسجد: ويُمنع القيام بالبيع والشراء والأعمال التي هي من الأمور الدنيويّة كالحدادة والنجارة والحلاقة وغيرها. وفي الحديث عن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «جنِّبوا مساجدكم البيع والشراء»[1].

فالسوق قد جُعل للتجارة والبيع والشراء والقيام بالأشغال والحرف والمهن التي يحتاج إليها المجتمع، أمّا المسجد فهو محلّ العبادة، ولا ينبغي أن نسمح بتلك الأعمال فيه. ومن الطبيعيّ أنّ المسجد إذا تحوّل إلى محلّ للبيع والشراء والمعاملات المختلفة فإنّه سيفقد جهة التذكير التي لها بعدٌ أساسيّ فيه، ولن يكون الأمر منحصرًا في نسيان الله تعالى بل سيجعل هذا الإنسان أكثر إقبالًا على الدنيا ومتعلّقاتها ويصبح محلّا كالسوق والمصنع ومجالًا للكسب والربح، ويفقد دوره الذي أُعدّ له.

إنّ المسجد محلّ ذكر الله تعالى، والإسلام يؤكّد على أن يُحفظ هذا المكان المقدّس من كلّ عمل يبعث على توجّه الناس إلى غير الله حتّى يبقى محلًا تامًّا للذكر والعبادة. ومن هنا، مُنعت الأعمال التي تُعدّ من المهن والحرف الدنيويّة كالحدادة والنجارة في المسجد. وقد ورد في حديثٍ: «إنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ مرّ برجلٍ يبري مشاقِصَ له في المساجد فنهاه وقال: إنّها لغير هذا بُنِيَت»[2].

وعن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ قوله: «إنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ رأى قاصًّا في

---

(١) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢١٨.

المسجد فضربه بالدِّرّة وطرده»[١].

٤. اجتناب الأعمال اللغويّة في المسجد: ويوصي النبيّ بعدم اللغو في المسجد قولًا وفعلًا. فاسعوا أن يكون سلوككم في المسجد سليمًا لكي تنالوا رضا الله وتنالوا بذلك الثواب والكمال. وبالحدّ الأدنى لا تفعلوا في المسجد ما لا يكون مفيدًا لكم. هذا، بمعزلٍ عن أنّ الإنسان ينبغي أن يجتنب اللغو في فعله وقوله لأنّ من صفات المؤمنين الإعراض عن اللغو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٢].

فالمؤمن لا ينبغي أن يقوم بأيّ فعلٍ لغويّ عابث، وعليه أن يمتنع عن إفناء عمره بالعبث. وحيث إنّ معظم الناس يقومون بالأفعال العبثيّة أيضًا، أو على الأقلّ يفعلون المباحات التي لا فائدة منها فعليهم أن يجتنبوا مثل هذه الأمور في المسجد وأن يتعاملوا معه على أنّه مختصّ بالعبادة، لكي يحفظوا شأنه ولينالوا المزيد من الفوائد المعنويّة فيه، حتّى تحفظ لهم جهة مذكّريته وهدايته.

ويتمّم النبيّ كلامه بأنّنا إذا لم نراعِ آداب المسجد فلا نلومنّ يوم القيامة سوى أنفسنا. هناك حيث يتنبّه الإنسان إلى ما أضاع من فوائد وبركات المسجد. وكيف أنّه كان قادرًا على أن يستفيد من كلّ لحظةٍ من لحظات المسجد لآخرته، ومع ذلك لم يفعل، وبدلًا من ذلك قام بتلك الأمور التي تضيّع آخرته أيضًا. فهناك سيُبتلى بالحسرة التي لا يمكن وصفها.

فضيلة الحضور في المسجد والعبادة فيه

«**يا أبا ذرّ؛ إنّ الله تعالى يعطيك ما دمت جالسًا في المسجد بكلّ نفسٍ تنفّست درجةً في الجنّة**».

وبعد أن تحرّكنا من منزلنا إلى المسجد وراعينا آدابه وصلّينا فيه، يحثّنا أيضًا على أن لا نقوم مباشرةً من الصلاة ونخرج إلى دنيانا، بل نسعى للبقاء في المسجد أكثر. ذلك لأنّه ما دمنا في المسجد فإنّ الله تعالى يعطينا مقابل كلّ نفسٍ نتنفّسه

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٤٤.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ إلى ٣.

درجةً في الجنّة. فلو قرأنا القرآن وذكرنا الله وعبدناه وسجدنا له فإنّنا سننال، بالإضافة إلى ثواب هذه الأعمال، مقابل كلّ نفسٍ نتنفّسه أثناء ذلك درجةً في الجنّة. لأنّ تلك الأنفاس إنّما كانت بقصد طاعة الله وقد بقينا في بيته لأجل نيل رضاه. وكلّ عملٍ نقوم به لأجل نيل رضا الله وبقصد طاعته يُعدّ عبادةً. وكلّ عبادة تكون سببًا لنيل درجةٍ في الجنّة. ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هذا الثواب على كلّ نفسٍ إنّما يكون أثناء العبادة، لا أثناء الحديث في أمور الدنيا.

ويُقال إنّ البقاء في المسجد مستحبّ بحدّ ذاته وله ثوابٌ كبير، ولكن لا يعني ذلك أن ندع جميع أمورنا وأعمالنا الضروريّة جانبًا، ونعتكف في المسجد. فمن الممكن أن يحصل التزاحم بين عملَين مستحبَّين بحيث يكون الإنسان قادرًا على أداء أحدهما دون الآخر. ففي هذه الحالة، يجب أن يختار الإنسان ما كان استحبابه أكثر. وأحيانًا قد يقع التزاحم بين المستحب والواجب، وفي هذه الحالة يتعيّن القيام بالواجب وترك المستحب. لهذا، لو تمّ التأكيد على عملٍ مستحبّ بشكلٍ كبير، فهذا لا يعني أنّه إذا تزاحم مع أحد الواجبات يجوز لنا أن نترك الواجب ونقوم بالمستحبّ!! فينبغي الالتفات إلى هذا الأمر.

ففي مقام الحثّ على العمل الصالح وذكر ثوابه بما هو، إنّما يكون دون الإشارة إلى التزاحم مع عملٍ آخر. لهذا، من الممكن أن نلحظ في الحديث إطلاقًا ظاهريًّا، ولكنّه يكون متزاحمًا من ناحية الملاك مع عباداتٍ أخرى أو أعمالٍ واجبةٍ أخرى، وفي هذه الحالة يسقط ذلك العمل المستحبّ من رجحانه ولا ينبغي أداؤه. فإذا أوصينا بالسعي للحضور الدائم في المسجد أو الإكثار منه، فلا يعني ذلك أن نترك دروسنا وأعمالنا الواجبة ونبقى جالسين في المساجد. فلا ينبغي ترك الواجبات والجلوس في المسجد والقيام بتلك الأعمال العباديّة المستحبّة، فإن هذه الأمور المستحبّة لا ترقى إلى مستوى أن تكون بديلًا عن الواجبات وطلب العلم. ولا يمكن أن يحلّ المستحب مكان الواجب: فإنّ التكاليف الضروريّة والواجبة لها من الأهميّة ما لا يرقى إليه هذا الجلوس في المسجد والاشتغال بالأذكار.

«وتصلّي عليك الملائكة وتُكتب لك بكلّ نفسٍ فيه عشر حسنات وتمحى عنك عشر سيّئات».

ما ذُكر يدور حول فوائد الجلوس في المسجد، لأنّ المسجد محلّ العبادة ومحلّ ذكر الله تعالى. لهذا، ذُكر المسجد في الروايات بعنوان متجر الآخرة وتمّ

التأكيد على أن يسعى الإنسان لمسابقة الآخرين إليه فيكون أوّل من يدخل وآخر من يخرج: «قال رسول الله لجبرائيل: أيّ البقاع أحبّ إلى الله تعالى؟ قال: المساجد. وأحبّ أهلها إلى الله أوّلهم دخولًا إليها وآخرهم خروجًا منها»[١].

«يا أبا ذرّ؛ أتعلم في أيّ شيءٍ أُنزلت هذه الآية ﴿اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قلت لا فداك أبي وأمّي. قال: في انتظار الصلاة خلف الصلاة».

وقد ذُكر العديد من التفاسير حول معنى المرابطة الواردة في الآيات الشريفة، ومنها أنّ المرابطة مشتقّة من الربط بمعنى تعلّق شيئَين ببعضهما، كربط الفرس في مكانٍ ما. وجاءت بمعنى اصطفاف الخيول لمقابلة الأعداء. ولهذا ذكرت المرابطة بمعنى رصد الثغور والاستعداد لمواجهة الأعداء. ولكن بالتدقيق في هذه الآية والآيات السابقة يتّضح أنّ للمرابطة معنىً أوسع، يشمل، بالإضافة إلى الدفاع عن حريم ثغور الوطن الإسلاميّ، الدفاع عن ثغور الإيمان والعقيدة. فنجد في بعض الأحاديث ذكر العلماء بعنوان المرابطين: كما في الحديث المرويّ عن الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ حيث يقول: «علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي إبليس وعفاريته يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلّط عليهم إبليس»[٢].

هذا، بالإضافة إلى أنّ للعلماء مقامًا أعلى من مقام المتواجدين في الثغور والمحامين عن الحدود، فهؤلاء هم حفظة الحدود الجغرافيّة، والعلماء يحافظون على العقائد والثقافة والإسلام. ومن المسلّم أنّ الأمّة التي لا تقدر على الدفاع عن الهجمات التي تُشنّ على عقيدتها وثقافتها، فإنّها ستنهزم في مدّةٍ قصيرةٍ من الناحية العقائديّة والثقافيّة، وكذلك ستنهزم بعدها من الناحية السياسيّة والعسكريّة. ومن التفاسير التي ذُكرت للمرابطة أن يكون المصلي منتظرًا للصلاة الآتية بعد صلاته الماضية. وكذلك معنى المرابطة الذي يشير إلى التردّد على المسجد، لأنّ التردّد على المساجد يؤدّي إلى تقوية الروابط بين البشر والتأليف بين قلوب المؤمنين.

«يا أبا ذرّ؛ إسباغ الوضوء في المكاره من الكفّارات وكثرة الاختلاف إلى المساجد

---

(١) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ١٧، الصفحة ٤٦٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥.

فذلكم الرباط».

حين يكون الجوّ باردًا والوضوء صعبًا، فإنّ من يسعى في مثل هذه الحالة للوضوء بحماسٍ وسرور سوف يكون وضوؤه كفّارةً لذنوبه. وذلك لما للوضوء بالماء البارد في الجوّ البارد من فضيلةٍ، كما ورد في حديثٍ آخر عنه: «قال رسول الله: ألا أدلّكم على شيءٍ يكفّر الله به الخطايا ويزيد في الحسنات؟ قيل: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى هذه المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة»[١].

أحبّ العباد إلى الله

يقول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ: «**يا أبا ذرّ؛ يقول الله تبارك وتعالى إنّ أحبّ العباد إليّ المتحابّون من أجلي، المتعلّقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك إذا أردت بأهل الأرض عقوبةً ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم**».

أجل، فإنّ الله تعالى يدفع العذاب عن المجتمع بفضل وجود أحبّ العباد إليه: أولئك الذين تتعلّق قلوبهم بالمساجد وينتظرون أوقات الصلاة، ويقفون بين يدي الله في أنصاف الليالي لمناجاته. فبالإضافة إلى ما لهم من ثوابٍ ومقاماتٍ في الآخرة، يرفع الله بفضل وجودهم العذاب عن الناس. فالآثار الناشئة من وجود هؤلاء في المجتمع كثيرةٌ جدًّا. كلّ ذلك بفضل تردّدهم إلى المسجد وتوجّههم إلى الله تعالى:

ولا تنحصر الفائدة التي يجنيها الإنسان المؤمن من أنسه بالمسجد وتردّده إليه بالثواب الأخرويّ والألطاف الإلهيّة في العالم الآخر، بل إنّه ينال في هذا العالم الدنيويّ الكثير من الفوائد من الآثار الأخلاقيّة والعلميّة والتربويّة والاجتماعيّة والسياسيّة، بل حتّى المادية الوافرة.

ويذكر أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في هذا المقام بعض الآثار العظيمة للتردّد والاختلاف إلى المساجد: «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثّمان: أخًا مستفادًا في الله، أو علمًا مستطرفًا، أو آيةً محكمةً، أو رحمةً منتظرةً، أو كلمةً تردُّه

---

(١) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٨١.

عن ردًى، أو يسمع كلمةً تدلُّه على هدًى، أو يترك ذنبًا خشيةً أو حياءً»[١].

وفي النهاية، يقول النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ: «يا أبا ذرّ؛ كلّ جلوسٍ في المسجد لغوٌ إلّا ثلاثة: قراءة مصلٍّ أو ذكر الله أو سائلٌ عن علم»[٢].

وكلّ هذه التأكيدات والتوصيات بالذهاب إلى المساجد، وسرد الآثار والفوائد المعنويّة والماديّة، وكذلك ذكر ثواب الأنفاس التي تصدر من الإنسان أثناء وجوده فيها، كلّ ذلك لكي يرى الإنسان المسجد كمركز للارتباط بالله، وتحصيل المعنويّات.. فينال فيه ما يعينه على تكامله المعنويّ وسعادته. وعليه أن يجتنب كلّ عملٍ في المسجد لا يفيد آخرته. من هنا يقسّم النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ الأعمال المطلوبة واللائقة للمسجد إلى أعمالٍ ثلاثة ويعدّ ما سواها لغوًا.

أ. أن يكون الإنسان مشتغلًا بالصلاة ويقرأ القرآن في صلاته وما قبلها أو بعدها.

ب. ذكر الله تعالى بالقلب واللسان والتوجّه إليه.

ج. الاشتغال بتحصيل العلوم والمعارف أو نشرها بين الناس. ففي هذه الحالة، تضفى الأهميّة على أعمالكم، ويزيد من علوّ درجاتكم ويؤدّي إلى سعادتكم الأبديّة.

وبالتوجّه إلى ما ذكره النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ في هذا القسم فيما يتعلّق بأهميّة المساجد وضرورة الحضور فيها وفضيلة العبادة وقضاء الوقت بالشكل المطلوب فيها، وضرورة الاستفادة منها، فمن اللائق أن نولي المسجد المزيد من الاهتمام، لأنّه بيت الله سبحانه وتعالى. وأن نسعى لعمارة المساجد، ونحذر من أن تكون هذه البقاع ممّن يشكوننا إلى الله يوم القيامة، كما قال الإمام الصادق عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «شكت المساجد إلى الله تعالى الذين لا يشهدونها من جيرانها فأوحى الله إليها وعزّتي وجلالي لا قبِلْتُ لهم صلاةً واحدةً ولا أَظهرتُ لهم في الناس عدالةً ولا نالتْهم رحمتي ولا جاوروني في جنّتي»[٣].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٠، الصفحة ٣٥١.

(٢) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٣٧١.

(٣) **وسائل الشيعة**، الجزء ٥، الصفحة ١٩٦.

الدرس الخامس والثلاثون

منزلة ومقام التّقوى، والزهد والورع

- مفهوم التّقوى وعلاقتها بالخوف
- أهميّة التّقوى وطرق تحصيلها
- نظرة إلى مراتب التّقوى
- نظرة إلى آثار التقوى
- خاصيّة المحاسبة وبعض الخصائص الأخرى للمتّقين
- الورع والزهد في كلام النبيّ (ص)

«يا أبا ذرّ، كن بالتقوى أشدّ اهتمامًا منك بالعمل فإنّه لا يقلّ عمل بالتقوى وكيف يقلّ عمل يُتقبّل؟ يقول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

يا أبا ذرّ، لا يكون الرجل من المتقين حتّى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه. فيعلم مِن أين مطعمه ومِن أين مشرَبه ومِن أين ملبسه؟ أمِن حلّ ذلك أم مِن حرام. يا أبا ذرّ، من لم يبالِ من أين اكتسب المال لم يبالِ الله عزّ وجلّ من أين أدخله النّار.

يا أبا ذرّ، من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتّق الله عزّ وجلّ. يا أبا ذرّ، إنّ أحبّكم إلى الله جلّ ثناؤه أكثركم ذكرًا له وأكرمكم عند الله أتقاكم له وأنجاكم من عذاب الله أشدّكم له خوفًا. يا أبا ذرّ، إنّ المتقين الذين يتّقون من الشيء الذي لا يُتّقى منه خوفًا من الدخول في الشبهة.

يا أبا ذرّ من أطاع الله عزّ وجلّ فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن. يا أبا ذرّ، أصل الدين الورع ورأسه الطاعة. يا أبا ذرّ كن ورعًا تكن أعبد الناس وخير دينكم الورع.

يا أبا ذرّ، فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة واعلم أنّكم لو صلّيتم حتّى تكونوا كالحنايا وصمتم حتّى تكونوا كالأوتار ما ينفعكم إلّا بورع. يا أبا ذرّ أهل الورع والزهد في الدنيا هم أولياء الله حقًّا».

ومحور هذا القسم من حديث النبيّ صلى الله عليه وآله هو التقوى. ويوجد الكثير من البحوث حول التقوى في موارد مختلفة من الكتب الأخلاقيّة، ومن جملتها ما أشرنا إليه سابقًا. وفي هذا القسم، نقوم بشرح ودراسة هذا الحديث وبعض المواضيع الأساسيّة في مجال التقوى. وفي البداية، نبيّن مفهوم التقوى.

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣٠.

مفهوم التّقوى وعلاقتها بالخوف

كلمة التّقوى من مادّة الوقاية، وهي اسم مصدرٍ من الفعل «اتّقى يتّقي». وهي مشتقّة من مصدر «الاتّقاء» بمعنى صيانة النفس أو الغير من الخطر. للاتّقاء ثلاثة أسماء مصدريّة، استعمل اثنان منهما في القرآن الكريم، أحدهما «التّقوى» والآخر «تقاة»، واسم المصدر الآخر هو «التقيّة»، وهذه ثلاثة ألفاظ لمعنًى واحد في اللغة. (قد استعملت التقيّة في **نهج البلاغة** أحيانًا بمعنى التّقوى).

«الاتّقاء» مصدر على وزن الافتعال، ومأخوذٌ من مادّة «الوقاية». وكما ذكرنا فالتّقوى اسم مصدرٍ من الاتّقاء حيث كان في الأصل «وَقْوى» ثمّ تبدّلت فاء فعله إلى تاء كما في لفظة «التراث» التي هي في الأصل «وراث».

فالتّقوى في اللغة تعني تجنيب النفس من الخطر، ولا يختلف الأمر باختلاف الخطر. أمّا حين تُطرح التّقوى في البحوث الأخلاقيّة أو في القرآن، فيكون المقصود هو ذلك الخطر الذي لا بدّ أن يجنّب الإنسان نفسه منه، وليس أيّ خطر كان، أي تجنّب ذلك الخطر الذي يهدّد سعادة الإنسان وآخرته. وكأنّ الاتّقاء استُعمل في القرآن أيضًا بمعنى حفظ النفس من الخطر الذي يهدّد الإنسان من قبل الآخرين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[١].

أمّا حين يكون الحديث عن تقوى الله، أو يُشار إلى مطلق التّقوى والمتّقين (في الآيات والروايات) فالمقصود هو التّقوى الإلهيّة، والمتّقون هم أولئك الذين يشعرون بالخطر في مجال المسائل الدينيّة والمعنويّة. ولأنّهم يخافون من ذلك الخطر الذي يهدّد دينهم، فهم يسعون لحفظ أنفسهم منه. فمبدأ الاتّقاء هو الإحساس بالخوف من الخطر: والإنسان بعد إحساسه بالخطر والشعور بالخوف، يتحرّك لأجل تأمين نفسه منه أو بالحدّ الأدنى الابتعاد عنه.

وفي القرآن، قد يُذكر يوم القيامة كمتعلّق للتقوى حيث تظهر فيه تلك المخاطر والآثار الناجمة عن أعمال الإنسان السيّئة، كما يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٢٨.

يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾[١].

وقد يُذكر شخصٌ كمتعلّق للتّقوى حيث يجازى الإنسان على معاصيه، كقوله سبحانه «واتّقوا الله»[٢] وليس معناه أن تخافوا من الله وتبتعدوا عنه، بل أن تتّقوا ذلك الخطر الذي ينشأ من العذاب الإلهيّ والذي يحيط بكم من جانب الله تعالى. فالخوف من الله يعني الخوف من الجزاء على الأعمال السيّئة التي يرتكبها الإنسان.

على أيّ حال، فإنّ الخوف قد أُدغم في معنى التّقوى من جهة المبدأ الذي تنشأ منه، ولهذا يمكن أن نعني بالتقوى الخوف من الله. وقد تكون التّقوى ملكةً تتحقّق من تكرار اجتناب المعاصي. فحين يجتنب أحدنا المعصية مرّةً واحدةً لا يُقال له متّقٍ. ولكنّه إذا استمرّ على ذلك واستقام، تتحوّل التّقوى إلى ملكةٍ راسخةٍ فيه، فيُقال له متّقٍ. لهذا قد تُستعمل التّقوى بالإشارة إلى مبدأ الفعل الذي هو الخوف من الله، وأحيانًا يُشار بها إلى تلك الملكة النفسانيّة التي تتحقّق على أثر تكرار اجتناب المعاصي.

ويذكر الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ التّقوى بمعنى تلك الحالة الروحانيّة والمعنويّة التي تمنع الإنسان من الانحراف والعصيان وهي تلك الملكة النفسانيّة والخوف من الله كأحد الآثار المترتّبة عليها: «عباد الله إنّ تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته حتّى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم»[٣].

ويقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في موضعٍ آخر: «ذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم إنّ من صرّحَت له العِبَر عمّا بين يدَيه من المَثُلات حَجَزتْه التّقوى عن تَقَحُّم الشُّبُهات»[٤].

أجل، إنّ التّقوى هي أكبر ذخيرةٍ للعباد تصونهم من مخاطر الحياة في ذلك البحر المتلاطم للبلاءات والتحدّيات، وتعينهم على البحث عن طريق السعادة ثمّ سلوك طريق السعادة الذي لا يمكن سلوكه بغير التّقوى.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٢٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٩٤.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١١٤، الصفحة ٢٢٤.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ١، الخطبة ١٦، الصفحة ٤٧.

أهميّة التّقوى وطرق تحصيلها

وتُعلم أهميّة التّقوى وأسباب التأكيد عليها، إذا عرفنا أنّ نزول الدين وإرسال الأنبياء وإنزال الكتب إنّما كان لأجل أن يعرف الناس طريق سعادتهم ويسلكوه، فيصلوا بذلك إلى الهدف والغاية الأساسيّة التي خُلقوا لأجلها المتجلّية بالرحمة الإلهيّة المطلقة في العالم الآخر.

لهذا، فإنّ ما يكون له التأثير الأكبر في الوصول إلى هذا الهدف، سيتمتّع بالأهميّة الكبرى. وبعبارةٍ أخرى، لأنّ حقيقة النبوّة والشرائع الإلهيّة هي الهداية إلى طريق السعادة، ولأنّ الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة بأن يهدي الناس إليه، فقد كان التأكيد في الآيات الإلهيّة وفي ما وصلنا من أولياء الدين على تربية الناس للالتزام بهذه التعاليم. ولأنّ عمل الإنسان لا بدّ أن يصدر من أحد المبادئ النفسانية: بمعنى أنّ العمل الاختياري للإنسان إنّما ينشأ من الإرادة؛ وحيث إنّ أهمّ مبادئ الإرادة الإنسانيّة تُختصر في الخوف والرجاء، فإنّ الأنبياء وأوصياءهم كانوا يستفيدون من هذه الوسيلة لإحياء الخوف والرجاء في الناس وتوجيههم نحو الشيء الذي تكمن فيه غاية الحياة.

وبعد الاطلاع على مفهوم التّقوى وأهميّتها، يُطرح هذا السؤال حول طرق تحصيلها. ونحن نشير إلى ثلاثة طرقٍ أساسيّة باختصار:

١. التوجّه إلى المستقبل: التوجّه إلى أنّ التّقوى زاد الغد الآتي للإنسان. فمن استشرف المستقبل وأدرك ما هو آت، يحكم عقله عليه بأن يسعى لغده، وهنا يأتي دور حبّ الذات ليحرّكه ويوقظه، ويحمل الإنسان على السعي والعمل على تحصيل ما يكون مفيدًا لأيّام حياته اللا متناهية. لهذا، نجد القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

٢. التوجّه إلى علم الله وإحاطته بأعمال الإنسان: وهو ما أشير إليه في ذيل الآية السابقة: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي اتّقوا من يطّلع على أعمالكم، وتكون هذه المعرفة والإحاطة من جملة صفاته. وهذا أسلوبٌ تربويّ آخر

(١) سورة **الحشر**، الآية ١٨.

اختاره الله تعالى لأجل إعانة الإنسان على السعي لتحصيل التّقوى. ولأنّ الإنسان يتمتّع بخصائص نفسيّة معيّنة، ومنها أنّه إذا علم واطّلع على أنّ هناك من يراقبه في أعماله ويعلم ما يصدر منه، وهو مطّلع على حسنه وقبحه، فإنّه يجتنب القيام بالأعمال السيّئة. ففي الواقع، خلق الله تعالى هذا الإنسان وجعله يخجل ويستحيي من القيام بالأعمال السيّئة أمام من يعلم سوء ذلك العمل. لهذا لو فكّر الإنسان بأنّه تحت نظر الله دائمًا، وهو تعالى لا يشاهد ظواهر أعماله فحسب، بل يعلم ما يكنّه في قلبه أيضًا، فإنّه سيخجل حتّى من الأفكار والخيالات السيّئة التي تظهر في قلبه. فكلّما زاد احترام الإنسان وتعظيمه لكائن ما، فإنّ قلبه يحبّ أن يظهر مقابله بصورة أصفى وأطهر، أو كما يُقال لا يرغب بأن يهرق ماء وجهه أمامه. وقد قال الله تعالى بشأن ذلك: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١].

٣. إدراك أنّ التقوى مفيدةٌ في الدنيا أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[٢].

وعن الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَام قوله: «واعلموا أنّ من يتّقِ الله يجعلْ له مخرجًا من الفتن ونورًا من الظُّلَم»[٣].

ففي الوسيلة الأولى، قيل فكّروا فيما تقدّمون لغدكم، وفي هذا الطريق يُقال: انظروا إلى تلك الفوائد الدنيويّة التي تنشأ من التّقوى. فكلّ واحدٍ منّا شاء أم أبى سيقع في هذه الحياة بالابتلاءات والفتن والمصاعب والمضلّات والتعقيدات، فإذا كنتم تريدون العون من الله تعالى على دنياكم هذه وأردتم النجاة من هذه المصاعب والمهالك فاتّقوا الله.

ينال الإنسان التقيّ من الله ذلك النور الذي يضيء طريقه، حين يقع في المصاعب، ويكون لزامًا عليه أن يحدّد ما ينبغي أن يفعله. ومن هنا، نجد أحيانًا في المشكلات والمصاعب التي تواجه أولئك الذين لهم ذهنيّة قويّة وذكاءٌ تامّ وهم غير قادرين على معرفة طريق الخلاص من تلك المشاكل، ونجد في المقابل من

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٧.

(٢) سورة **الطلاق**، الآيتان ٢ و٣.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ١٨٣، الصفحة ٢١١.

لا يمتلك ذلك الذكاء الفائق ومع ذلك فإنّه يدرك طريق السلامة! وليس هذا في الواقع سوى العون الإلهيّ الذي يمدّ به بعض عباده بسبب التّقوى.

فمن جملة الطرق التي تحثّ على كسب التّقوى هو طريق ذكر الآثار المترتّبة عليها. ذلك لأنّ الإنسان إنّما يكون مستعدًّا للقيام بعملٍ أو ترك شيء يحبّه حين يعلم أنّه سيترتّب على ذلك نتيجةٌ حسنةٌ. فإنّه يكون مستعدًّا للقيام بعملٍ مجهد حين يطمئن لنتيجته المطلوبة. فإذا أردنا أن ندفع الناس نحو كسب القيم السامية واجتناب ما يضرّ بآخرتهم وأرواحهم، يجب أن نوجد فيهم الدوافع المناسبة. فلكي يغضّ الإنسان نظره عن لـذّة المعصية، يجب أن يمتلك الدافع المناسب ولكي ينهض من فراشه المريح للصلاة في منتصف الليل يحتاج إلى الدافع أيضًا. وكذلك إذا كان تكليفه الذهاب إلى الجهاد ومواجهة المخاطر والأهوال، وغيره من الوظائف والتكاليف الإلهيّة، فإنّه يحتاج إلى الدافع! وأفضل طريقٍ لتكوين هذا الدافع يكون فيما إذا تمكّنا من توجيه الإنسان إلى المنافع والآثار الطيّبة المترتّبة على العمل، ذلك لأنّ الإنسان بفطرته يطلب هذا النوع من الآثار.

فالإنسان، في أيّة مرتبةٍ من المعرفة والإيمان كان، فإنّه طالبٌ للخير وإن كان إيمانه ومعرفته ضعيفةً فإنّه على الأقلّ يطلب خير الدنيا: فالجميع يبتغي سعة الرزق وحلاله، وما أجمل أن يحصل بدون الكدح والسعي المتواصل أيضًا. لهذا، فإنّ أحد الطرق التي سلكها القرآن (ممّا نلاحظه بوضوح في الروايات) لأجل إيجاد الدافع نحو تحصيل التّقوى هو بيان منافعها الدنيويّة. فيُقال: إنّ الإنسان إذا اتّقى الله فإنّ الله تعالى سوف ينجيه من الصعاب والمشقّات ويأخذ بيده عند البلاءات والمصائب. فقد يصل الإنسان إلى طريقٍ مسدود بحيث لا يرى أمامه أيّ طريقٍ للنجاة أو لحلّ مشكلاته ويصبح مجبرًا على تحمّل تلك المصائب والمشاكل الكثيرة. والله يعده هنا بأنّك إذا اتّقيت الله فإنّ الله سوف يسهّل لك المسير في طريق الصعاب، ويهديك إلى طريق النجاة. فهذا وعدٌ كبير من الله للإنسان يحثّه به على سلوك الطريق الذي تكون ثمرته ونتيجته الخلاص من المشاكل والصعاب.

وفي أيّام ثورة الشعب الإيرانيّ المسلم ونضاله الإسلاميّ، كنّا نصل أحيانًا إلى ظروفٍ شديدة الصعوبة، بحيث لا يرى أحدنا أيّ طريقٍ للنجاة، ولكن لأنّ الثورة كانت على أساس التّقوى وفي سبيل إرساء دعائمها في المجتمع الإسلاميّ،

ومن أجل إيجاد روح العبوديّة وحاكميّة الله، فإنّ الله تعالى غالبًا ما أظهر عنايته ودلّ الناس عند كلّ مناسبةٍ على طريق النجاة، وأحد نماذج ذلك ما حصل في اليوم السابق على انتصار الثورة. فحين أعلن النظام الطاغوتيّ الحكم العسكريّ والأحكام العرفيّة وحذّر الناس من الخروج من بيوتهم من أجل إحكام قبضته على الناس وتنفيذ خططه الشيطانيّة، أمر الإمام الخمينيّ (قدس سره) الناس بالنزول إلى الشوارع مع ما لديه من بصيرةٍ ووعيٍ وإلهامٍ إلهيّ وطلب منهم أن لا يعتنوا ولا يخافوا من الحكم العسكريّ وكانت النتيجة إحباط مؤامرة العدوّ وانتصار الثورة الإسلاميّة.

وهكذا، فإنّ الله تعالى يرزق أهل التّقوى من حيث لا يحتسبون: إنّ كلّ واحدٍ منّا يسعى لأجل تحصيل رزقه وتأمين معاشه. وكلّ واحدٍ منّا يفكّر بنفسه فيما ينبغي أن يفعله من أجل أن يزيد دخله الماليّ. وهكذا، يختار بحسب رؤيته وطبق المجريات والسنن الطبيعيّة للحياة الوسيلة المناسبة لذلك: فإمّا عبر الزراعة أو في الصناعة أو في التجارة. وهكذا، فإنّه بناءً على القرائن العديدة، ووفق حساباته الخاصّة يتوقّع حجم دخله، ولكنّ الله تعالى قد ضمن لأهل التّقوى أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون. وبالنسبة للذين يعملون من أجل رضا الله وأداء التكليف الشرعيّ بتحصيل العلم كما جاء في بعض الروايات فإنّ الله تعالى وعد أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون. وفي هذا المجال، لدينا الكثير من النماذج والمصاديق. وكلّ واحدٍ منّا قد جرّب بعضًا منها في حياته. أمّا إذا رأى أحدنا أنّه لا ينال رزقه كما ينبغي، فعليه أن ينظر إلى أخطائه. لهذا حسب الوعد الإلهيّ، سيكون رزق أهل التّقوى خارج إطار الحسابات العاديّة والوسائل التي يتوقّعها الناس.

فإذا دعانا الله تعالى لتحصيل التّقوى فذلك من أجل أن نصل في الدنيا والآخرة إلى الغاية والفوز الأكبر. فننال الدرجات العليا في الجنّة والكمالات المعنويّة، ونطوي هذه الحياة الدنيا بسلامةٍ. وما سوى ذلك، فإن الله تعالى لا يستفيد من تقوانا: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

فالشيء الذي يربطنا بالله هو التّقوى، التي تؤدّي إلى تحصيل الكمال وعلوّ

---

(١) سورة **الحجّ**، الآية ٣٧.

الدرجات. وحيث إنّ الله يريد لنا الكمال، فإنّه تعالى يحثّنا عليها من خلال ذكر نتائجها في الدنيا، لكي ننال منافعها في الآخرة أيضًا. وفي الواقع، فإنّه يرغّبنا فيذكر لنا الآثار المحسوسة والعاجلة للتّقوى في الدنيا، وإن كانت المنافع الأخرويّة (بخلاف ما تتصوّر) غير مؤجّلةٍ، بل إنّ تحقّقها قريبٌ ويقينيّ، وإن لم نشعر بذلك.

نظرةٌ إلى مراتب التّقوى

وبالتوجّه إلى أنّ جميع الكمالات المعنويّة تكون على درجات ومراتب، وأنّ التقوى من أرفع الكمالات المعنويّة، فهي ذات مراتب أيضًا، فمن المناسب أن نشير إليها: فقد ذكر علماء الأخلاق للتّقوى مراتب ثلاثًا وذلك من إحدى الجهات:

١. صيانة النفس من عذاب جهنّم والخلود فيها، وهو ما يتحقّق بالعمل الصالح والعقيدة الصحيحة: ذلك لأنّ التّقوى إنّما تعني صيانة النفس ونهيها عن مخالفة الله ولا تنحصر باجتناب المعاصي. لهذا، فإنّ التّقوى لها حضورٌ في العقائد وفي غير العقائد. وهي في العقيدة تعني أن يفكّر الإنسان في أصول عقائده ويصونها من الانحراف والشبهات، ويوجّه تصرّفاته وأقواله وحتّى خيالاته على أساس تلك العقائد الصحيحة والثابتة. فيجب أن يكون الإنسان معتقدًا حقًّا بأنّ الله هو المعبود الأوحد، وأن يكون متيقّنًا بأنّ كلّ ما عداه من الآلهة باطل وزخرف. وأن يعتقد بعمق أنّ جميع الكائنات مخلوقات ذلك المعبود الحقيقيّ، وأنّ المخلوق يجب أن يكون مطيعًا ومنقادًا لمعبوده ويخضع له ويتذلّل له ولا يعرض عنه.

ثمّ عليه بعد رعاية التّقوى في علاقته بالله تعالى أن يكون تقيًّا في علاقته بالأنبياء والأوصياء فيعمل بأوامرهم ويخضع لهم.

٢. المرتبة الثانية للتّقوى هي أن يجتنب الشبهات والمكروهات أيضًا بعد ترك المعاصي.

٣. المرتبة الثالثة هي، بالإضافة إلى حفظ أعضائه وجوارحه عن الحرام والشبهة والمكروه، أن يحفظ قلبه أيضًا ممّا لا يرضي الله تعالى، ولا يسمح للمعاصي أن تطرق ذهنه وتدخل إلى قلبه، بل يسعى أن لا يفكّر إلّا بالله وبما يرضيه.

ومن الطبيعيّ أنّ الإنسان مهما عبد الله، إذا لم يغضّ نظره عن المعصية، فإنّه لن يجني ثمرة العبادة. ولهذا فإذا أردنا أن نستفيد من نتائج عباداتنا وأعمالنا

الصالحة، فيجب أن نحافظ في البداية على حدودها وحريمها بشكلٍ جيّد ولا نرتكب ما يخالف رضا الله. وقد ورد في الروايات: «ومن ورع عن محارم الله فهو من أورع الناس»[١].

نظرة إلى آثار التّقوى

والموضوع الآخر الذي يجدر الإشارة إليه هو بيان آثار التّقوى. ونحن هنا نذكر بعضًا منها:

١. أثر التّقوى ودورها في إدراك الحقائق: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٢].

إن قوّة التعقّل عند الإنسان والتي تثمر معرفة الحقائق، إنّما تعمل بشكلٍ صحيح حين لا يكون الإنسان في حالة من التحلّل والخروج عن رعاية الضوابط السلوكيّة. ذلك لأن التحلّل وعدم الالتزام يحول دون النشاط السليم للعقل. وبعبارةٍ أدقّ، إنّ تحلّل الإنسان سيكون مرتبطًا بالأبعاد الحيوانيّة فيه، سواء في الطعام أو في المسائل الجنسيّة أو ما يتعلّق بالقوّة الغضبيّة. فإذا لم يضع هذا الإنسان لنفسه حدًّا، فإنّ أبعاده الحيوانيّة تقوى وتشتدّ؛ فمن كان همّه الطعام، يصبح كالبهيمة همّها علفها. ومن المسلّم أنّ مثل هذا الإنسان لن ينصرف إلى تقوية أبعاده الإنسانيّة. والتعقّل يُعدّ من جملة القوى الإنسانيّة، التي تتعطّل عندئذٍ أو تضعف بشكل ملحوظ.

وهكذا، إذا غلبت على الإنسان الشهوة الجنسيّة، وشغلت باله الشهوات، فإنّه سيصبح كالخنزير الذي ينشغل من الصباح حتّى المساء بالشهوة. وهكذا، يتحوّل اهتمامه كلّه إلى متابعة ومطالعة ما يلبّي غريزته ويهيّجها، وملاحقة ما يفتح عليه أبواب الاهتمامات الجنسيّة. ومن المسلَّم أنّه لا يُتوقّع لمثل هذا الإنسان أن يفكّر بالمعارف الإلهيّة، أو أن يدرك هذا النوع من الحقائق، ويمتلك قدرة التمييز بين الحقّ والباطل. وكذلك حال الإنسان الذي يشبه السباع ويسعى دومًا لمضاعفة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٦٢.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٢٩.

قواه الغضبيّة فيهتمّ بالتسلّط والغلبة والتفوّق على الآخرين. فإنّ محور تفكيره الدائم سيكون غريزة الغلبة الحيوانيّة والافتراس الوحشيّ.

فمقتضى التّقوى أن يسيطر الإنسان على قواه الحيوانيّة. وعندها ستكون القوّة العاقلة هي الحاكم في وجوده. وإذا كان المقصود من الفرقان المذكور في الآية الشريفة: هو العقل لأنّ العقل يميّز بين الحقّ والباطل نستنتج أنّه مع الحدّ من غلبة القوى الحيوانيّة ومع حاكميّة العقل وسيطرته على سائر القوى نصل إلى الفرقان.

والتفسير الآخر الذي يمكن تقديمه حول الفرقان، هو أنّه عبارةٌ عن ذلك النور الذي يفوق العقل رتبةً، لأنّ العقل موجودٌ بشكل أو بآخر عند الجميع. فبمعرفة الله والخوف منه يمكن للإنسان أن يراعي في جميع شؤون حياته الحدود. وبالتقوى التي يمتلكها يصل للاستعداد المطلوب، لينال من الله نور الفرقان الذي يؤيّد القوّة العاقلة.

٢. دور التّقوى في البصيرة: ويدلّ على هذا الأمر الآيات والروايات الكثيرة. فإنّ من جملة الآثار القيّمة للتّقوى هي البصيرة وانفتاح أبواب المعرفة أمام الإنسان كما يقول الله تعالى: ﴿...وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهَ...﴾[١].

وتؤكّد هذه الآية على أن للتّقوى تأثيرًا كبيرًا في إفاضة العلم من جانب الله تعالى على الإنسان. وفي حديثٍ عن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من أخلص لله أربعين يومًا فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٢].

إنّ التّقوى في الحقيقة هي عامل إزالة الصدأ من قلب الإنسان ليكون لائقًا لمعرفة الحقّ. والتّقوى تؤدّي أيضًا إلى إزالة الحجب التي يسدلها الشيطان على روحه، وعندها سيرى تلك الحقائق بوضوح. وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات»[٣].

ويوجد الكثير من قبيل هذه المسائل في تراثنا الدينيّ، والتي تبيّن الأثر الواضح للتّقوى واجتناب المعصية في إيجاد البصيرة والوعي في روح الإنسان،

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٥٦، الصفحة ١٦٣.

وهي تنبّهنا بطريقةٍ غير مباشرة إلى أنّ اتّباع الهوى وانفراط زمام التقوى يؤدّي إلى ظلمة الروح وكدورة القلب وانطفاء شعلة البصيرة.

٣. ومن آثار التّقوى نيل محبّة الله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

ويعلم الجميع بأنّ الله تعالى لو أحبّ عبدًا من عبيده، فأيّة ثمارٍ ومنافع ستنزل عليه: فحين نحبّ، نسعى دومًا لنيل رضا المحبوب، ولا نريد أن نقصّر في ذلك. ونسعى لتنفيذ ما يريد منّا، ونفعل أيّ شيءٍ نقدر عليه من أجله. فإذا كان الله تعالى هو المحبّ، ونحن نعلم أنّ الله تعالى قادرٌ على كلّ شيء، وله الكمال كلّه، والقوّة المطلقة، فكيف سيكون حال المحبوب؟!! ما أكثر أن نحبّ شخصًا، ونريد أن نخدمه ولكنّنا لا نملك الإمكانات والوسائل الكافية، فنبقى عاجزين عن القيام بذلك العمل. أمّا الله تعالى فإنّه لا يعجزه شيء، لا في الأرض ولا في السماء، لا يعزب عن إحاطته وسيطرته شيء، يفعل ما يريد.

٤. الأمن من الخوف والحزن:

كما يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

٥. الحصول على المدد الغيبي:

وبشأن وصول الإمداد الغيبيّ إلى المتّقي، يقول الله تعالى:﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٣].

وقد جاء في حديث شريف: «إنّ الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه يحضُره في كلّ وقتٍ يُحسِنُ فيه ويتّقي، ويغيب عنه في كلّ وقت يُذنبُ فيه ويعتدي»[٤].

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٧٦.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٣٥.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٥.

(٤) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ١٥، الصفحة ٢٩٧.

٦. نيل الكرامة والقرب عند الله: وبشأن دور التّقوى في نيل الإنسان للكرامة والقرب عند الله يقول تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

٧. النجاة من المشاكل والصعاب:

وبشأن دور التّقوى في نجاة الإنسان من المشكلات والصعاب تحدّثنا سابقًا وأشرنا في ذلك الى الآية ١٢ من سورة **الطلاق**، ونشير ها هنا إلى آيةٍ أخرى ترتبط بالمجتمع التقيّ وهي الآية ٩٦ من سورة **الأعراف** حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾.

٨. قبول الأعمال: أمّا في ما يتعلّق بدور التقوى وتأثيرها في قبول أعمال الإنسان فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

ويوجّهنا الله تعالى في هذه الآية إلى أنّنا إذا أردنا لأعمالنا القبول عنده، فيجب أن نكون من المتّقين. ولا شكّ بأنّنا إذا أدينا وظائفنا وواجباتنا بحسب شروطها الظاهريّة وبشكلٍ صحيح فسيسقط التكليف عنّا. فعلى سبيل المثال، إذا استيقظنا قبل شروق الشمس بعدّة دقائق، وصلّينا صلاة الصبح بعجلةٍ يسقط عنّا التكليف، ولا يجب علينا القضاء. ولكن مرتبة سقوط التكليف تختلف عن مرتبة قبول العمل، فمرتبة القبول أعلى ولها شروطٌ خاصّة. ومن جملة تلك الشروط أن يكون العمل ملازمًا للتّقوى. فذلك الأثر الذي يؤدّي إلى رفع العمل إلى الله، ويتحقّق فيه القبول، يكون إذا تلازم العمل مع التّقوى واجتناب المعاصي.

«**يا أبا ذرّ؛ كن بالتّقوى أشدّ اهتمامًا منك بالعمل، فإنّه لا يقلّ عملٌ بالتّقوى. وكيف يقلّ عملٌ يُتقبّل؟ يقول الله عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾».

وهكذا، نجد الناس يتفاوتون من حيث الهمّة؛ سواء فيما يتعلّق بأمور الدنيا أو الآخرة، وهذا التفاوت كبيرٌ جدًّا في بعض الأحيان. وفيما يتعلّق بأمورِ المعاش، منهم من تكون هممهم ضعيفةً ويكدحون من الصباح حتّى المساء على أمل أن يؤمّنوا خبز يومهم، وهم بذلك قانعون. وليس ذلك بفضل زهدهم وإعراضهم عن

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٣.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٢٧.

الدنيا ولذّاتها، بل لأنّ ما يتوقّعونه قليلٌ ولأنّ هممهم قاصرة. والبعض تكون همّته أقوى، ولا يقنع بالقليل ويسعى للحصول على المنافع الكبيرة، فلا يرضى بما هو محدودٌ وقليل. وهناك من تعلو همّته على مستوى هذه الطائفة أيضًا فلا يعتني بتحصيل المنافع الماديّة والحسيّة والغذائيّة. والمهمّ عنده هو الوصول إلى المنزلة الاجتماعيّة والعزّة والشرف. فإذا اختار عملًا أو مهنةً ما، فهو لا يختاره لأجل ما فيه من مكاسب ماليّة، بل لأنّه يتناسب مع تلك المنزلة المرتبطة بعزّته وشرفه. ولو عُرض عليه الكثير من المال مع الانتقاص من شرفه وكرامته، فإنّه يرفضه. فهمّة هذه الطائفة عالية، ولعزّة النفس والشرف عندهم منزلةٌ رفيعة.

وهكذا المؤمنون فيما يتعلّق بآخرتهم فهم متفاوتون في درجات الهمّة ومراتبها: فمنهم من تقف همّته عند حدّ الخلاص من جهنّم وعذابها ويقنع به. والبعض لا يقنع بذلك بل يسعى لنيل مراتب الجنّة الرفيعة. وهناك من يعلو بهمّته على الطائفتَين السابقتَين فلا ينظر إلى الجنّة ولا إلى النّار بل يكون سعيه من أجل أن يكون عزيزًا عند الله ويصل إلى مقام قربه. أجل فإنّ من عرف الله واطّلع على قيمة العزّة عند جنابه حتى إذا لم يكن هناك نعيم في الجنّة فإنّه يكون سعيدًا بالكرامة عند الله، ويعتزّ بذلك كثيرًا. والمهمّ بالنسبة لهؤلاء هو أن يكون لهم عند الله منزلة ويكرمهم سبحانه، ولا اهتمام عندهم بنعيم الجنّة. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١].

إذ لا يقول الله تعالى لأحد كن الأتقى ليعطيه الجنّة ونعيمها أو ينجيه من عذاب النار، بل يقول إنّ الأتقى هو الذي يصل إلى كرامة الله وينال مقامه الأسمى. ومن المعلوم أنّ نيل الكرامة الإلهيّة والعزّة عند الله أعلى بكثير من التنعم بالجنّة وقصورها ونعيمها الأبديّ. فإذا كان هذا هو حال الإنسان من المعرفة، فكيف يتيسّر حثّه على كسب المزيد من التّقوى؟ فهل يُقال له: زد في تقواك حتّى تنال طيب العيش في الدنيا؟ فهو الذي أعرض عن كلّ متعلّقات الدنيا ووصل إلى أعلى المراتب كيف تغريه الدنيا! أو هل يُقال له: ارتفع بتقواك لتتنعّم بقصور الجنّة وحور العين وتنجو من عذاب الجحيم؟ فمن الطبيعيّ أنّ كلّ هذه الأمور لن تحرّكه ولن

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٣.

تؤثّر في تقوية دوافعه، ذلك لأنّه قد غضّ الطرف عنها وأسدل دونها كشحًا. فهو قد وصل إلى تلك المرتبة من الكمال والعلوّ وارتفع بهمّته إلى حيث لم يعد في قلبه سوى شوق لقاء الله ونيل مقام محبّته وكرامته. فالذي يرغّب مثل هذا الإنسان ويوجد فيه الدوافع القويّة هو الوعد بلقاء الله تعالى ورضوان المحبوب.

يجب أن نلتفت إلى أنّ القرآن الكريم لا يعتمد أسلوبًا موحّدًا للتربية، بل يختار لكلٍّ وبحسب مستواه: الأسلوب المناسب. ولهذا، نجد القرآن الكريم يعتمد على أساليب متعدّدة لا تنحصر بتربية الأولياء الواصلين إلى المقامات الرفيعة. ذلك لأنّ القرآن كتاب الهداية والدعوة المتوجّهة إلى كلّ البشر (للوصول إلى الكمال وبناء الذات). لذلك، فهو يحثّ أولئك الذين لا زالت هممهم عالقةً في المراتب الدنيّة، للسير على طريق التكامل من خلال ذكر النعم والفوائد، والوعد بالمزيد من نعم الدنيا والجنّة والنجاة من العذاب حتّى لا يبتلوا بالحرمان. أمّا الوعد بالكرامة الإلهيّة والوصول إلى رضوان الحقّ ونيل المحبّة عنده فهو مختصّ بأولئك الذين وصلوا إلى الدرجات العليا من المعرفة.

خصوصيّة المحاسبة وعدّة خصائص أخرى للمتّقين

والبحث الآخر الذي يمكن طرحه هو ما يتعلّق بصفات المتّقين. فبعد الاطّلاع على أهميّة التّقوى وقيمتها يجب أن نتعرّف على علامات المتّقين وشمائلهم، فنتعرّف بذلك على كيفيّة تحصيل هذه الفضيلة الرفيعة. وفي هذا المجال يقول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**يا أبا ذرّ؛ لا يكون الرجل من المتّقين حتّى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه. فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه؟ أمِن حلٍّ ذلك أم من حرام**».

ويعدّ النبيّ خاصيّة المحاسبة من جملة صفات المتّقين، ويقول إنّ التقيّ لا يكون غير مبالٍ بما يفعل، بل يحاسب نفسه دومًا. فإذا أراد أن يعدّ طعامه فإنّه ينظر هل أنّه من حلالٍ أم من حرام. وإذا أراد أن يهيّىء لباسه، فإنّه يفكّر في مصدره الماليّ. وهكذا في كلّ ما يتعلّق بحياته وبيته، ويفكّر في الدافع الذي يحرّكه لإعداد منزله، وهل أنّه يفعل ذلك للثبات على طريق العبوديّة وتأمين راحة عائلته، لكي يتفرّغ للعبادة وتربية أبنائه أكثر، أم أنّه يفعل ذلك تفاخرًا على الآخرين وتظاهرًا أمامهم. وحين يريد أن ينفق ماله في مجالٍ ما فإنّه يفكّر قبل ذلك: هل أنّ الله

يرضى بذلك أم أنّ هناك عملًا أهمّ ينبغي أن ينفق عليه؟ وفي كلّ مجالٍ، يحسب كلّ الأمور ولا يغضّ النظر عن كيفيّة تأمين ماله أو لا يبالي في طريقة إنفاقه. فإذا حصل على بعض الإمكانات يدقّق إذا كانت من طريق الحلال أم الحرام. وإذا اكتشف أنّها من حرام فإنّه يعيدها إلى أهلها لكي لا يُبتلى بالمعصية.

وأحيانًا يتلوّث الإنسان بالدنيا ويُبتلى بشؤونها بحيث لا يبقى لديه مجال لتخليص نفسه منها. فهو يقع في الديون الباهظة والأقساط الدائمة ويهرق ماء وجهه، حتّى يصل به الأمر إلى توريط الآخرين في مسائله. وهناك لن يبقى له مجال لتخليص نفسه. فلا يهتمّ بعد ذلك إلّا بتأمين المال؛ سواء كان ذلك عن طريق الحلال أم الحرام!

فإذا لم نصل إلى المراتب العالية للتّقوى بحيث نجتنب الشبهة والمكروه، فعلى الأقلّ فلنراعِ حدود الحرام. ولنحذر من أن نمدّ أيدينا إلى مال الغير بدون رضاه. إنّ كلّ مؤمنٍ ينبغي أن يراعي في حياته الحدود والضوابط ولا يتجاوزها: فالتاجر عليه أن يراعي الأحكام الشرعيّة المتعلّقة بتجارته والعامل يراقب ما يتعلّق بعمله، ويهتمّ بعمله الذي يتقاضى عليه أجرًا: هل أنّه يؤدّيه كما ينبغي أو يقصّر فيه؟ وهل أنّه يضيّع وقت العمل بالاستراحة والتدخين وتمضية الوقت في الحديث مع الآخرين أو أنّه يؤدّي ما عليه.. هناك من هو مؤمنٌ ومن أهل العبادة والنوافل ولكنّه إذا جلس وراء مكتبه، نسي كلّ تلك العبادات والطاعات، فيتصوّر أنّه بهذا الحضور يكون قد أدّى ما عليه!

إنّ ساعات عمل العامل في دوائر الدولة أو المؤسّسات الخاصّة ليست ملكًا له، بل هي ملك صاحب العمل. ولا يجوز له أن ينجز فيها الأعمال الشخصيّة، حتّى لو كان ذلك اتّصالًا هاتفيًّا. فقد يكون مجرّد الاتصال مانعًا أو سببًا في تأخير العمل. كلّ ذلك كان الإنسان عنه مسؤولًا. وكثيرًا ما لا نلتفت إلى هذه الأمور. وكذلك استفادته من بيت المال واستخدامه، فيجب أن يكون لمصلحة بيت المال. فلو كنّا ملتزمين بعقدٍ ما وحدّدنا على أساسه وقت العمل فإنّنا لا يجوز لنا أن نقضيه في أمرٍ آخر. فلو كنّا ملتزمين بالقيام بعملٍ معيّن فلا يحقّ لنا أن نصلّي فيه، إلّا إذا اشترطنا ذلك منذ البداية على ربّ العمل.

إن رعاية الحرام والحلال وحفظ الحدود والضوابط فيما يتعلّق ببيت المال أمرٌ

صعبٌ. ولحسن الحظ فإنّنا نحن طلّاب العلم لا نُبتلى بمثل هذه المسائل إلّا قليلًا، ولكنّنا نُبتلى بمسائل أخرى: فحين نذهب للتبليغ، يجب أن نسعى جهدنا لمعرفة ما هو مطلوبٌ منّا في هذا العمل. وعلينا أن نتشدّد في حركتنا لكي لا تؤدّي إلى إضعاف العلماء أو إهانتهم، ولكي لا نقع في فخّ التظاهر والتفاخر. فقد نذهب إلى بعض المناطق للتبليغ، ونكتشف هناك مبلّغًا آخر كان في العام السابق، وقد أحبّه الناس وهم يذكرونه بالخير أمامنا ويذكرون مجالسه المفيدة وأسلوبه الجذّاب وإقبال الناس عليه. وهنا، قد نقوم بمدح ذلك المبلِّغ، ولكنّنا من جانبٍ آخر نلمّح أو نشير بطريقةٍ ما إلى أنّه أقلّ منّا علمًا!! فلعلّهم بذلك يطلبون منّا المجيء في السنوات المقبلة للتبليغ! فنقول مثلًا إنّ هذا المبلّغ كان زميلنا في الدرس ولكنّه للأسف ترك الدراسة قبلنا أو أنّه قد انشغل بالأعمال التنفيذيّة ولم يقدر على الاستمرار بدراسته، نريد بذلك أن نقول إنّنا قد تقدّمنا عليه وهو قد توقّف!

فقد أعدّ الشيطان الرجيم من أجل تمكيننا من التكذيب والإضعاف والتقليل من شأن الآخرين أو من أجل الوصول إلى أغراضنا الشخصيّة والفئويّة من المكائد ما هو كثيرٌ، يتّصف البعض منها بدقّةٍ خاصّة، لا يقدر كلّ واحدٍ منّا على تشخيص قبحها.. وكم يحدث أن تظهر تلك الأمور بصورةٍ جميلةٍ ومبرّرة أمامنا.

ثمّ يكمل النبيّ صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ مواعظه لأبي ذرّ قائلًا: «**يا أبا ذرّ من لم يبالِ من أين اكتسب المال لم يبالِ الله عزّ وجلّ من أين أدخله النار**».

فيجب أن يدقّق كلّ واحدٍ منّا في ماله من أين اكتسبه. فهل حصلنا على ذلك المال من خلال التملّق والتحايل على الآخرين، وهل نبالي فعلًا في الطريق التي تصل الأموال عبره إلى جيوبنا، أهو من حلالٍ أم من حرام. وهل أنّه اكتُسب بوجهٍ شرعيٍّ أم لا.. فلو لم نبالِ فإنّ الله تعالى لن يبالي في توريطنا بعذابه وسطوته.

«**يا أبا ذرّ؛ من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتّق الله عزّ وجلّ**».

«**يا أبا ذرّ؛ إنّ أحبّكم إلى الله جلّ ثناؤه أكثركم ذكرًا، وأكرمكم عند الله أتقاكم، وأنجاكم من عذاب الله أشدّكم له خوفًا**».

(وكما مرّت الإشارة فإنّ الخوف من مبادئ التّقوى، وما لم يكن هناك خوفٌ فلن تتحقّق التّقوى).

«يا أبا ذرّ؛ إنّ المتّقين الذين يتّقون من الشيء الذي لا يُتّقى منه خوفًا من الدخول في الشبهة».

وقد ذكرنا أنّ للتّقوى مراتب، فالبعض يقف عند اجتناب الحرام القطعيّ، والبعض يتجاوز هذه المرتبة إلى مستوى اجتناب الشبهات أيضًا. ولكن هناك من وصل إلى حيث يجتنب المباح لكي لا يُبتلى بالشبهة. ثمّ يبيّن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الرتبة العالية للتّقوى والطاعة لله: «**يا أبا ذرّ؛ من أطاع الله عزّ وجلّ فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن**».

الورع والزهد في كلام النبيّ (ص)

ثمّ يحدّثنا عن الورع فيقول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**يا أبا ذرّ؛ أصل الدين الورع ورأسه الطاعة. يا أبا ذرّ، كن ورعًا تكن أعبد الناس وخير دينكم الورع**».

والورع في الأصل يعني منع النفس عن المحرّمات واجتنابها، ثمّ استعمل في مطلق منع النفس. ومفهوم الورع قريبٌ جدًّا من التّقوى، ولكنّه استعمل غالبًا في إعطاء معنى ملكة الاجتناب، وهي حالةٌ باطنيّة. بينما تُطلق التّقوى على مبادئ العمل وأيضًا على نفس العمل الصالح وكذلك على الملكة الباطنيّة.

وفيما يتعلّق بدور الورع في نهي الإنسان عن المعصية والانحراف يقول الإمام عليّ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «لا شرف أعلى من الإسلام ولا عزّ أعزّ من التّقوى ولا معقل أحسن من الورع»[١].

وعن الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قوله: «اتّقوا الله وصونوا دينكم بالورع»[٢].

فالنزاهة ومنع النفس عن الحرام هي أهمّ عاملٍ للوصول إلى السعادة والدرجات المعنويّة العليا والنجاة من السقوط والتسافل والانزلاق في مهاوي الهلاك. والواقع أنّ الورع ومنع النفس عن المعاصي والشبهات يُعدّ أصعب مراحل

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٣٧١، الصفحة ٨٧.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٩٧.

العبادة والعبوديّة، لهذا يقول الإمام الباقر عَلَيهِالسَّلَامُ: «إنّ أشدّ العبادة الورع»[١].

وبالالتفات إلى دور الورع في سلامة العبادة، يقول الإمام عليّ عَلَيهِالسَّلَامُ: «ولا خير في نُسُكٍ لا ورع فيه»[٢].

وهنا، يحدّثنا النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ عن ضرورة ملازمة ومقارنة العبادة للورع، فيقول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ: **«يا أبا ذرّ؛ فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة واعلموا أنّكم لو صلّيتم حتّى تكونوا كالحنايا وصمتم حتّى تكونوا كالأوتار ما ينفعكم إلّا بورع»**.

ويقول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ: **«يا أبا ذرّ أهل الورع والزهد في الدنيا هم أولياء الله حقًّا»**.

والزهد والزهادة في اللغة يأتي بمعنى عدم الرغبة والميل. وهو المقابل للتعلّق والرغبة بالدنيا. فمعه يقطع الإنسان رغبته وتعلّقه بالدنيا ويقنع بالحياة البسيطة.

ومن الضروريّ أن نذكر أنّ الزهد المطلوب في الإسلام يكمن في اختيار المسلك الذي يعين الإنسان على السلوك الأفضل من أجل تحمّل مسؤوليّاته باختيار البساطة والبعد عن الكماليّات وعدم الاعتناء بمظاهر هذه الدنيا وزخارفها ومباهجها. ومن البديهيّ أنّ هذا النمط من السلوك لا يكون من جهة اعتبار الدنيا ومظاهرها أمرًا دنيئًا، ولا من جهة التضادّ بين الدنيا والآخرة ولا من أجل الفرار من تحمّل المسؤوليّات الاجتماعيّة، بل إنّ الزهد في الإسلام إنّما يكون لأجل التمكّن من أداء المهامّ بصورة أفضل، والتغلّب على الميول والدوافع المفرطة ومن أجل السيطرة على الشغف والتعلّق بمظاهر الحياة بحيث يروّض الإنسان روحيّة الاستكثار والجمع والازدياد، وينتصر على حالة الخضوع لمظاهر الحياة الدنيا.

لهذا، لا يتنافى الزهد في الإسلام مع امتلاك المال والرئاسة. فالزاهد في الواقع هو الذي لا يقدّم مظاهر الحياة على الحقّ ولا على الله، ولا يضحّي بأهدافه الإلهيّة من أجل مآربه الدنيويّة، بل يجعل آخرته أصلًا ودنياه فرعًا ووسيلةً ومقدّمةً لها.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٧.

وبالالتفات إلى ما ذُكر، يتّضح اختلاف الزهد مع الرهبانيّة التي طُرحت في المسيحيّة والبوذيّة فالرهبانيّة تعني ترك الدنيا والتهرّب من المسؤوليّة والفرار من المجتمع. ومثل هذا التصوّر لا ينسجم مع روح الإسلام. وفي الرؤية الإسلاميّة، تُعدّ جميع مظاهر الحياة من المال والأولاد والرئاسة وغيرها أدواتًا للتكامل. وهي كلّها نعم الله. فتكون الاستفادة الصحيحة منها ورعاية التوازن في التمتّع بها، سببًا لعمارة الأرض، بالإضافة إلى صلاح الآخرة. فالاستفادة الصحيحة تكمن في أن لا يعدّ الإنسان هذه الدنيا ومظاهرها أصيلةً، بل يعتبرها بمثابة النعم التي جُعلت من أجل الوصول إلى الكمال والسعادة الأخرويّة كما جاء في الحديث الشريف: «الدنيا مزرعة الآخرة»(١) وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢).

وفي التعاليم الإسلاميّة، نجد أنّ كلّ ما نال صبغة الوجود في هذه الدنيا فهو أمر حسنٌ، والله تعالى لم يخلق شيئًا سيّئًا. ولهذا، فلا الدنيا ولا مظاهرها سيّئةٌ، ولا الارتباط بها (وهو الذي ينشأ من الميول الطبيعيّة المودعة في الإنسان). يقول النبيّ صَلَّىٰاللّٰهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدَيك أوثق منك بما في يد الله»(٣).

وعن عليّ عَلَيْهِالسَّلَامُ أنّه قال: «أيّها الناس الزهادة قصر الأمل والشكر عند النعم والتورّع عند المحارم»(٤).

وبالإضافة إلى ما ذُكر، فقد ذمّ القرآن المجيد هذه الرهبانيّة وعدّها بدعةً اختلقها الرهبان ودسّوها في المسيحيّة، بناءً على تصوّرهم الخاطئ عن التضادّ بين الدنيا والآخرة. فنجد في قوله تعالى، بعد ذكر إرسال عيسى عَلَيْهِالسَّلَامُ وإنزال الإنجيل وجعل الرحمة في قلوب الذين اتّبعوه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٦٧، الصفحة ٢٢٥.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧٧.

(٣) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١١٦٨.

(٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ٨١، الصفحة ١٣٠.

ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾[١].

وقد ذُكر أنّ زوجة عثمان بن مظعون جاءت يومًا إلى النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ تشكو زوجها الذي ترك الطعام وصام الأيّام ولم ينم الليل (فترك تدبير منزله وإدارة شؤون عائلته). فانزعج النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ من سماع هذا الخبر وذهب إلى عثمان ليجده في حالة الصلاة. وحين رأى عثمان النبيّ ترك الصلاة من فوره فقال له الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «يا عثمان لم يرسلني الله بالرهبانيّة ولكن بعثني بالحنيفيّة السهلة السمحة أصوم وأصلّي وألمس أهلي»[٢].

وقد ذُكر في حالات الشهيد العظيم المدرّس القمشئي: أنّ أحد مالكي الأراضي المعروفين في منطقة قمشه جاءه ذات يوم، وأراد أن يقدّم له قطعة أرضٍ. ومع أنّ المدرّس كان في غاية الفقر والعوز فقد أجابه قائلًا: أليس في أسرتك من هو فقيرٌ ومحتاج؟ فأجابه الرجل: نعم، ولكنّني أريد أن أهبك هذه الأرض. فقال له المدرّس: من الأفضل أن تهب هذه الأرض إلى أحد أقاربك الفقراء المحتاجين.

وكذلك نقل عنه أنّه لم يكن يرتدي في الصيف والشتاء إلّا لباسًا واحدًا عاديًّا ويقول: ليست اليد والرجل وباقي البدن بألطف من الوجه. فالبدن يعتاد على ما عوّدناه! ولم يكن يرتدي اللباس المتعارف بين المشايخ بل يقول: هذه الثياب تتطلّب المال والمال يذلّ صاحبه والمدرّس لا يريد أن يكون ذليلًا (وقد وجدوا عند شهادته أنّ جميع ما يملكه لم يتجاوز دراهم معدودةً).

وينقل المدرّس عن أبيه أنّه كان يقول له: تعلّم أن تكتفي في اليوم والليلة بوجبة غذاءٍ واحدة، وحافظ على ثيابك من الاتساخ حتّى لا تضطرّ لتبديلها. وأنّ أباه كان يوصيه باتّخاذ أجداده قدوةً ويقول: تعلّم الحلم من جدّك رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والشهادة والقناعة من جدّك عليٍّ عَلَيْهِالسَّلَامُ والعزّة وإباء الضيم ورفض الظلم من جدّك سيّد الشهداء عَلَيْهِالسَّلَامُ[٣].

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٧.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٢٢، الصفحة ٢٦٤.

(٣) سيد نعمة الله الحسيني، **رجال العلم في ميدان العمل**، وهو كتاب باللغة الفارسية، الصفحات ١٢٧ إلى ١٢٩.

الدرس السادس والثلاثون

الحلم والمداراة والتوكّل في كلام النبيّ (ص)

- ❖ المقام والمنزلة الرفيعة للحلم
- ❖ الحلم سجيّة وزينة أولياء الله
- ❖ الرفق والمداراة واختلافهما مع المداهنة والمساومة
- ❖ عدم تساهل النبيّ في مقابل المشركين
- ❖ مقام ومنزلة التوكّل
- ❖ التوكّل والاستفادة من الأسباب والعوامل الماديّة والمعنويّة
- ❖ علاقة التّقوى بالتوكّل

«يا أبا ذرّ، من لم يأت يوم القيامة بثلاثٍ فقد خسر. قلت: وما الثلاث؟ فداك أبي وأمي، قال: ورعٌ يحجزه عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه، وحِلْمٌ يردُّ به جهل السّفيه، وخُلْقٌ يداري به الناس.

يا أبا ذرّ، إن سرّك أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإن سرّك أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله، وإن سرّك أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منك بما في يدَيك.

يا أبا ذرّ، لو أنّ الناس كلّهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[1].

وقد مرّ في الدرس السابق الحديث عن التّقوى والورع، وفي هذا القسم من الرواية يعود النبيّ صلّى الله عليه وآله للتذكير بالورع واجتناب المعاصي، ثمّ ينتقل إلى الحديث عن الحلم ومقام التوكّل: «**يا أبا ذرّ؛ من لم يأت يوم القيامة بثلاثٍ فقد خسر. قلت: وما الثلاث؟ فداك أبي وأمّي، قال: ورعٌ يحجزه عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه، وحلمٌ يردُّ به جهل السّفيه، وخُلْقٌ يداري به الناس...**».

الصفة الأولى التي إذا لم يتّصف الإنسان بها يكون من الخاسرين يوم القيامة هي الورع. وقد ذكرنا في الدرس السابق أنّ الورع عادةً يُطلق على ملكة التّقوى ولا يُطلق على مجرّد اجتناب المعصية. والعبارة الواردة في هذا القسم من كلام

---

(١) سورة **الطلاق**، الآيتان ٢ و٣.

النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تؤيّد هذا التفسير، وتبيّن بوضوح أنّ الورع يطلق على الملكة النفسانيّة المانعة لليد من أن تمتدّ إلى المعاصي. وعليه، فإنّ خاصيّة الورع هي المنع والصدّ عن المعاصي. ومن الطبيعيّ أنّ من لم يكن له هذه الخاصيّة فسوف يتلوّث بالذنوب، وتكون نتيجته الخسران والسقوط في جهنّم.

المقام والمنزلة الرفيعة للحلم

والخاصيّة الثانية التي إذا اتّصف بها الإنسان، حُفظ من الخسران يوم القيامة: هي الحلم. وقد ورد في اللغة أنّ الحلم عبارةٌ عن السيطرة على النفس من تصاعد قوّة الغضب. ولا شكّ بأنّ الحلم من الصفات الحسنة والقيم الرفيعة. وهو يُعدّ من جنود العقل، وقد جُعل الغضب الذي هو مقابل الحلم من جنود الجهل. ومن المعروف أنّ الإنسان حين الغضب لا ينبغي أن يتّخذ قرارًا ولا ينبغي أن يعاقب ولا ينبغي أن يقدم على فعل، لأنّه سيندم على ذلك في ما بعد. لأنّ كلّ ما يفعله ويقدم عليه ويفكّر فيه حين الغضب، سيكون خارج سيطرة العقل. ذلك لأنّ العقل حين الغضب لا يعمل بشكلٍ صحيح. لقد ورد في حديثٍ أنّ قنبر مولى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تعرّض لإهانةٍ من قبل بعض الجاهلين، فانزعج وأراد أن يردّ، فقال له الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مهلًا يا قنبر دع شاتمك مُهانًا تُرضي الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقِب عدوّك، فوالّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما أرضى المؤمن ربّه بمثل الحلم ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه»[1].

وفي موضعٍ آخر، يقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا شرف كالعلم ولا عزّ كالحلم»[2].

وبالنظر إلى عظمة صفة الحلم ودوره المهمّ في حفظ العلاقات الاجتماعيّة السليمة وحفظ الاحترام المتبادل بين الناس، يجب أن يتّصف كلّ واحدٍ من أبناء المجتمع بهذه الصفة الحسنة، وخصوصًا علماء المجتمع الذين يلعبون دورًا إصلاحيًّا وتربويًّا: فالعالم الذي يقوم بدور الهداية والإصلاح، إذا أراد أن يقابل كلّ سلوكٍ سيّءٍ

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ٤٢٤.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ١١٣، الصفحة ٢٧.

وجاهلٍ بالمثل فلن تؤتي برامجه الإصلاحيّة أكلها، ولن تؤثّر الأثر المطلوب. من هنا، يجب أن يقرن علمه بالحلم لكي يعطي النتيجة المناسبة. فعلى الإنسان إذن أن يكون صبورًا في طريق بيان حقائق الدين وتبليغها. ومع الالتفات إلى أنّ فاعليّة كلّ من العلم والتربية لن تكون ميسّرةً بدون الحلم، يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «والذي نفسي بيده ما جُمع شيءٌ إلى شيءٍ أفضل من حلمٍ إلى علمٍ»[١].

أجل، إنّ الحلم يُعدّ من أرفع الكمالات النفسانيّة بعد العلم. وكما ذكرنا، فإنّ العلم بدونه لن يكون مفيدًا ولا نافعًا. ومن هنا، نجد في العديد من الموارد أنّ العلم حين يُمدح فإنّه يُذكر إلى جانبه الحلم. وفي الواقع، يُذكر العلم والحلم كعنصرَين أساسيَّين متقارنَين ومكمّلَين لبعضهما، لهذا يقول النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «اللّهم أغنني بالعلم وزيّني بالحلم»[٢].

ومن المسلّم أنّ من جعل الحلم زينته، فإنّه سيتّخذ أفضل القرارات في حالات الأزمات، وحين تشتعل العداوات وتنبعث الأحقاد من الباطن، سيتصرّف بصورة رحيمةٍ ورؤوفةٍ، ويمنعه حلمه من إشعال نيران الغضب والحقد وإطلاق عنان الأهواء النفسانيّة. كلّ ذلك سيكون عاملًا أساسيًّا في السيطرة على الأهواء وإطفاء نيران غضبه وغضب الآخرين. حين ننظر إلى التاريخ نطّلع على حجم الأذى الذي ألحقه المشركون بالنبيّ وأصحابه، ففي فتح مكّة نجد النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يظهر كمال الحلم والعفو والرحمة في مواقفه. في تلك الأثناء التي كان الأعداء يتوقّعون أن تحدث حمّامات الدماء في مكّة (بل إنّنا نجد أنّ بعض قادة الجيش الإسلاميّ كانوا يتصوّرون أنّهم سيثأرون في ذلك اليوم وقد أعلنوا أنّ اليوم هو يوم الملحمة)، ردّ النبيّ على الجميع وبدّل شعار الانتقام إلى شعار المحبّة قائلًا: «اليوم يوم الرحمة، اليوم أعزّ الله قريشًا»[٣].

ولا شكّ بأنّ الإنسان مضطرّ إلى إقامة العلاقات مع الآخرين في حياته. فقد خلقه الله تعالى مضطرًّا إلى قبول الحياة الاجتماعيّة، بحيث إذا أراد أن ينعزل ويعيش وحده فسيحرم من معظم بركات هذا العالم ولن يتمكّن من التكامل، بل

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٩٤، الصفحة ٣٦٨.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٢١، الصفحة ١٠٩.

لعلّه لن يقدر على الاستمرار في الحياة. ولهذا، إذا أراد الاستمرار والتكامل والرقيّ، فعليه أن يقبل الحياة الاجتماعيّة ويقيم العلاقات مع الآخرين. ومن جانبٍ آخر، فإنّنا نشاهد التفاوت الكبير في روحيّات وأخلاق وذهنيّات ومعارف الناس في ما بينهم. لذا، فإنّ هذا الإنسان شاء أم أبى سيتعامل مع أشخاصٍ لن يتصرّفوا بصورةٍ عاقلة وواعية. وفي بعض الأحيان، يتواصل مع أولئك الذين تصدر منهم مواقف الإهانة والتحقير له، بسبب عدم ضبطهم لتصرّفاتهم.

لا يمكن أن نقول إنّ جميع الناس قد وصلوا إلى الكمال في الصفات والمعارف وصاروا بالمستوى العقليّ المناسب لكي يتصرّفوا بصورةٍ لائقةٍ ومؤدّبة.

ومن هنا، قد يواجه الإنسان شخصًا أو يتعاون مع إنسانٍ أو مسؤولٍ لم يهذّب نفسه ولا يقدر على ضبط تصرّفاته؛ ربما بسبب جهله أو بسبب ضغوط الحياة، فيتصرّف بطريقةٍ استفزازيّة ولا يقدر على مراعاة الأدب واحترام الآخرين. ومن الطبيعيّ أنّه لو أراد أن يواجهه بالمثل ويغضب بسرعة ويحتدّ، فإنّ حالة الاختلاف والمواجهة تشتدّ، لينجم عنها عواقب وخيمة. وسوف يضيع وقته ويُسلب الهدوء والنشاط، فلا يقدر على الوصول إلى أهدافه في الحياة. ولهذا، إذا أراد الإنسان أن يستفيد بشكلٍ صحيحٍ من المجتمع ويجتنب آفاته فإنّه يجب أن يوجد في نفسه روحيّة الحلم التي توفّر له السيطرة على نفسه عند مقابلة أمثال أولئك الأفراد.

وبالإضافة إلى الورع الذي يحجزه عن المعاصي، يجب أن يكون الإنسان حليمًا لكي يستفيد من حياته الاجتماعيّة ولا يقع في الخسران. فمن اعتزل المجتمع سيُحرم من منافعه. أمّا إذا أراد أن يستفيد من المصالح الاجتماعيّة لأجل تأمين حياته الأخرويّة فيجب أن يبقى بمنأًى عن مواجهة السفهاء وضعاف العقول ولا يصطدم معهم. وهذا ما يتطلّب ضبط النفس، وعليه أن يتمرّن على هذه الصفة حتّى لا ينزل إلى مستوى تحقيرهم وإهاناتهم، ويغضّ سمعه وبصره عمّا يسمعه ويراه منهم لكي يستمرّ في أداء تكليفه، ويستفيد من المجتمع بالشكل المطلوب، ولا يمنعه ذلك عن التكامل. وبحسب تعبير الرواية: أن يكون له حلمٌ يردّ به جهل السفيه.

وخلافًا لما نتصوّره عن الجهل بأنّه عدم العلم فقط؛ فإنّ الجهل هو عدم العقل أيضًا. وقد استُعمل كالسفاهة والحماقة في مقابل العقل. وإنّ الجهل بمعنى ظهور التصرّف الجاهل غير المتعقّل. وقد استُعمل في معظم الآيات القرآنيّة بهذا

المعنى، كما في قوله تعالى حكايةً عن النبيّ يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١].

والمقصود بذلك أنّه لو لم يصرف عنه حيل النساء فهو سيتصرّف تصرّفًا سفيهًا. وفي مثل هذه الآيات، لا يصحّ حمل الجهل على عدم العلم. وعلاوةً على ذلك فعدم العلم في معظم الموارد هو عذرٌ، وهذه العبارة استُخدمت في أكثر الحالات في مقام الذمّ وعدم العذر. كما ذمّ الله تعالى إخوة يوسف على فعلتهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[٢].

ومن المسلّم أنّ إخوة يوسف لم يكونوا «غير عارفين» بما فعلوا، فقد كانوا يعرفون يوسف ويعرفون قبح عملهم، ومع ذلك فهم جهلاء وعملهم موصوف بالجهل، والمقصود به ما يخالف العقل والحقّ.

وكذلك حين أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه أن يذبحوا بقرةً فأجابوه هل تسخر منّا؛ فقال لهم: ﴿...أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

وفي هذه الآية، استُعمل الجهل بمعنى السفاهة لا عدم العلم. ولم يكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يستعيذ بالله من عدم العلم، بل من عدم العقل ومن التصرّف الجاهل والمخالف للعقل والحقّ. وفي **أصول الكافي** باب خصّص لـ«العلم» وبابٌ آخر حول «العقل والجهل». وهذا يدلّ على أنّ الجهل هنا في مقابل العقل لا في مقابل العلم. وكما قلنا، يُستعمل الجهل والجهالة غالبًا بما يخالف العقل ويقابله لا في ما يقابل العلم.

الحلم سجيّة وزينة أولياء الله

وينبّه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في مواعظه إلى هذه الملاحظة وهي أنّ الإنسان لا بدّ أن يصادف في حياته ضعاف العقول وفاقدي النباهة الذين يتصرّفون بسفاهةٍ وجهالة. وأفضل ما يقابلهم به هو تحمّل سوء أدبهم وإظهار الحلم تجاههم. وفي هذه الحالة،

(١) سورة **يوسف**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **يوسف**، الآية ٨٩.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٦٧.

سوف ينال المنافع المتوقّعة من المجتمع والعلاقات، ولن يُبتلى بتضييع وقته مع أمثال هؤلاء السفهاء والجهلاء، وسوف يبقى بمنأًى عن أذاهم وعداواتهم، وليكون بذلك محبوبًا عند الله تعالى.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفّف»[1].

ويبيّن الله تعالى في كتابه الكريم طريق التعامل مع الأعداء الجهلة: ﴿وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

ويُعدّ هذا الأسلوب القرآنيّ في مواجهة المعاندين والسفهاء من أدقّ الأساليب التربويّة وأنفعها. ذلك لأنّ كلّ من يسيىء لغيره، فإنّه يتوقّع على أساس قانون الردّ بالمثل أن يردّ عليه الطرف الآخر بالسوء أيضًا. ولكن إذا شاهد خلاف ما توقّعه من الطرف الآخر وواجه تصرّفًا سليمًا وبنّاءً، فإنّه ينقلب، وتحدث في باطنه عاصفةٌ قويّة توقظ ضميره وتشعره بالحقارة، فيغيّر أسلوبه الاستفزازيّ. ولهذا، وجدنا كيف كانت قلوب الناس تهوي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كلّ ذلك بفضل ما وصفه الله تعالى به من الرحمة والحلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾[3].

وهو منطق سلوك العباد الصالحين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[4].

هناك قصّة عن أحد الحكماء: أنّ صديقًا له زاره فقدّم له الحكيم طعامًا، وهنا جاءت زوجة الحكيم السليطة وانتزعت الطعام من مقابل الضيف ونالت من زوجها بكلماتٍ لاذعة. فشعر ذلك الضيف بانزعاجٍ شديد وخرج من البيت. فأسرع الحكيم

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١١٢.

(٢) سورة **فصّلت**، الآيات ٣٤ إلى ٣٧.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.

(٤) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

وراءه وقال له هل تذكر ذلك اليوم الذي كنت ضيفًا عندك، وأثناء تناول الطعام جاءت دجاجةٌ وعبثت بالطعام وخرّبت المائدة ولم ينزعج أحدٌ منّا. فعليك الآن أن تتصوّر أنّ زوجتي السليطة تشبه تلك الدجاجة! ومجرّد أن سمع ذلك الصديق هذا الكلام خمد غضبه وقال: «حقًّا قلت أيّها الحكيم. إنّ الحلم شفاء كلّ داء».

وفي ذكر حالات الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رُوي أنّ رجلًا من أهل الشام وقد كان متأثّرًا بإعلام بني أميّة المضادّ لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كان يمشي في أزقّة المدينة فرأى الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وبدون رويّة بدأ في سبّه وشتمه. فتوقّف الإمام قليلًا ثمّ قال: أظنّ أنّك رجلٌ غريبٌ وقد ضللت الطريق، فإن لم يكن لديك منزلٌ آويناك عندنا، وإذا كنت محتاجًا أعطيناك، وإذا كنت جائعًا أشبعناك، وكان هذا التصرّف الحسنيّ مثل صاعقة نزلت على رأس هذا الرجل فقلبته وجعلته شديد التعلّق بالإمام حتّى قال: يا ابن رسول الله لقد كنت أنت وأبوك أبغض الناس عندي والآن أصبحت أنت وأبوك أحبّ الناس إليّ!

أجل، لا يُتوقّع من الإنسان الكامل الذي وصل إلى أعلى درجات العبوديّة لله إلّا مثل هذا الموقف. ولو لم يواجه الصالحون أمثال هؤلاء الجهلة بهذا الخلق الرفيع، لما كانوا أهلًا لخلافة الله على الأرض ولما كانوا خير عباد الله.

وذُكر عن العلّامة نصير الدين الطوسي أنّ شخصًا أرسل له رسالةً نعته فيها بأقذع الصفات وسمّاه بالكلب بن الكلب! فأجابه العلّامة بلهجةٍ محبّبةٍ: إنّ قولك بأنّني كلبٌ ليس صحيحًا لأنّ الكلب من ذوات الأربع وهو ينبح، ويعلو جلده فراء وله أظفارٌ طويلة، وجميع هذه الخصوصيّات غير موجودة فيّ: فأنا أمشي على اثنتَين وليس على جلدي فروٌ وأظافري غير بارزةٍ وأنا ناطقٌ وضاحك وفيّ من الخصوصيّات ما ليس موجودًا في الكلب ولا تنطبق عليّ صفات من ذكرت في رسالتك.

ويبيّن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إحدى الفوائد الاجتماعيّة للحلم بقوله: «أول عِوَضِ الحليم من حلمه أنّ الناس أنصاره على الجاهل»[1].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٢٠٦، الصفحة ٤٧.

الرفق والمداراة واختلافهما مع المداهنة والمساومة

والخاصيّة الثالثة التي تجنّب مراعاتها الإنسان من الخسران يوم القيامة هي الرفق بالناس ومداراتهم. فالمداراة من حيث المعنى قريبةٌ للرفق، لأنّ المداراة تعني اللين والاعتدال في السلوك وحسن معاشرة الناس وتحمّل أذاهم. وهناك الكثير من الروايات التي تمدح المداراة وفوائدها الدنيويّة والأخرويّة. منها ما ورد عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «المداراة نصف الإيمان».

وأيضًا قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «ثلاث من لم يكنّ فيه لم يتمَّ له عملٌ: ورعٌ يحجزه عن معاصي الله وخُلُقٌ يداري به الناس وحلمٌ يردُّ به جهل الجاهل»[١].

ويعدّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مداراة الناس مع أداء الفرائض والتكاليف فيقول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إنّا أُمرنا معاشر الأنبياء بمداراة الناس كما أُمرنا بأداء الفرائض»[٢].

فالإنسان يواجه دائمًا أولئك الذين يتصرّفون بطرقٍ غير لائقة انطلاقًا من أغراضهم ودوافعهم الشخصيّة. وقد يدفعهم الحسد والصفات الرذيلة الأخرى إلى إيذاء الآخرين في سلوكهم وعلاقاتهم. فالكلام هنا يرتبط بهؤلاء وكيفيّة التعامل معهم. فإذا أردنا أن نواجه عداوتهم وسوء أدبهم بالمثل، فإنّ الأمر سينجرّ إلى النزاع والمخاصمة ويؤدّي إلى المزيد من المشاكل والعقبات في وجه الإنسان.

ففي مثل هذه الأحوال، يجب أن نغضّ النظر كلّيًا عن التعامل معهم بالمثل؛ وأن نعتمد حسن الخلق والمداراة. ويجب أن نسعى من خلال رياضة النفس على التسامح والتغافل للوصول إلى القدرة على مداراتهم، وعدم الردّ عليهم بعد استفزازاتهم. ولهذا، ينبغي أن نشغل أنفسنا حين إساءاتهم بالتغافل عنهم، وكأنّهم لم يفعلوا ولم يقولوا شيئًا. وفي بعض الحالات، على الإنسان أن يتصرّف وكأنّه لم يشاهد ذلك التصرّف السيّء من الآخرين وإن كانوا يظهرون له العداوة والبغضاء، بل يقابلهم بتقديم الخدمة والعناية بهم. فلو تمتّع الإنسان في حياته بمثل هذا الخلق الذي يداري فيه من يؤذيه ويسيىء إليه، لتمكّن من الوصول إلى مقصده. أمّا إذا أراد أن يواجه كلّ من يقصّر بحقّه أو يعاديه، ويصرف طاقته في

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١١٦.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٢، الصفحة ٥٣.

النزاع والمخاصمة، فإنّه سوف يصيب أعصابه بالتوتّر والاضطراب ويشتّت ذهنه ويضيّع وقته وفرصه. هذا بالإضافة إلى أنّ هذا الأمر سيزيد من الكدورة والعداوات. فأفضل طريقٍ للتعامل مع هؤلاء هو المداراة. لأنّ المداراة والرفق بالآخرين هي سجيّة العقلاء وأولي الألباب ومفتاح الثواب والنجاح: «عليك بالرفق فإنّه مفتاح الصواب وسجيّة أولي الألباب»[١].

ومن المناسب أن نشير إلى هذا الموضوع وهو أنّ البعض قد يشتبه عليهم الأمر بين المداراة والمداهنة. فالمداهنة هي المصالحة مع المنحرفين والمخالفين للحقّ. والمداهن هو الذي يضعف أثناء بيان الحقائق وتبليغ دين الله بحيث أنّه إذا شاهد من الآخرين أيّ انحراف فهو يغضّ النظر عنه ولا يعترض. وعن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ من إدهانٍ ولا إيهان»[٢].

وفي موضع آخر يشكو من المتقاعسين عن قول الحقّ والذين اختاروا طريق السلامة بقوله: «واعلموا رحمكم الله أنّكم في زمانٍ القائل فيه بالحقّ قليلٌ واللسان عن الصّدق كليلٌ واللازم للحقّ ذليل. أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الإدهان»[٣].

وهكذا، نلاحظ أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ يذمّ أولئك الذين يصالحون من خالفوا الحقّ وقاموا ضدّه، ويعدّ المداهنة صفةً سيّئةً ومذمومةً وسببًا لانحطاط المجتمع وتهديم أركان عزّته وهيبته. لهذا، لا ينبغي أن نخلط هذه الصفة المذمومة مع المداراة والليونة مع الأعداء التي تعني غضّ الطرف عن الحقوق الشخصيّة من أجل حفظ المصالح الاجتماعيّة وإحياء الدين، فهذه صفة حسنة وبنّاءة. هناك في المجتمع من لا يبالي بما يجري حوله ولا يهتمّ بالأحداث والمشاكل التي تعترض الناس في دينهم وثقافتهم أو غيرها. فهؤلاء الفاقدون للشعور والذين يعيشون روحيّة الكسل والضعف والذلّة وحبّ الراحة ليس لهم همّ سوى الراحة والرفاهية وعدم الاكتراث بمن سواهم. وحين يأتي وقت الجهاد والتضحية يتنحّون جانبًا طلبًا للسلامة. ولا

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١١٠٢.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ٢٤، الصفحة ٦٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٢، الخطبة ٢٣٣، الصفحة ٢٢٧.

شكّ بأنّ هذه الفئة تبرّر فعلها هذا، لأنّ الإنسان لا يحبّ أن يعترف بأنّه شخص سيّء أو أنّه ذو عمل سيّء فيأتي بألف عذرٍ لما يقوم به. وعادةً هؤلاء يبرّرون مثل هذا القعود والتقاعس بالتأكيد على أهميّة مداراة الأعداء ونبذ العنف الذي لا يؤدّي إلى نتيجة. وأحيانًا يتمسكّون بأحاديث تدلّ على أنّ طريق السعادة بالمداراة. ولو انتشرت هذه الروحيّة في المجتمع وانعدم الجهاد، فلن يتحقّق أيّ تطوير أو إصلاحٍ. وكما قلنا، إنّ الليونة والضعف مقابل الحقّ هي المداهنة. ومن أجل الفرار من تحمّل المسؤوليّة يختلق هؤلاء مثل هذه الأمور طلبًا للراحة، وبعض الأحيان يضفون عليها الشرعيّة لكي يبرّروا قعودهم عن تحمّل المسؤوليّات والجهاد ومواجهة الأعداء. ومثل هذا النهج سيّء جدًّا ويعقبه آثارٌ هدّامة، وقد ذمّه الله تعالى في كتابه الكريم بصريح العبارة.

عدم تساهل النبيّ في مقابل المشركين

وفي الصدر الأوّل للإسلام، كان الكفّار والمشركون يطلبون من النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دومًا أن يظهر في دينه بعض الليونة ويعدونه بأن يقابلوه بنفس الليونة. فهم في الواقع كانوا يريدون بتقديم مثل هذه الامتيازات أن يحصلوا بالمقابل على بعض الامتيازات التي تحمل النبيّ على التنازل لهم. فكانوا يطلبون منه أن يكون مثل القادة الدنيويّين وأن يتراجع عن تحقيق أهدافه ويتخلّى عن معارضتهم من خلال إظهار بعض الليونة. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[١].

ومن المسلّم أنّ المساومة وإظهار الليونة مقابل الأعداء والتنازل عن إجراء أحكام الله وتبليغ القيم الإلهيّة ومواجهة الفساد ليس بالأمر الصائب والصحيح، بل هي مداهنة، ومن هذه الجهة نهى الله تعالى عن ذلك بشدّة، وأمر نبيّه الأكرم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يتشدّد في إجراء أحكام الله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[٢].

---

(١) سورة **القلم**، الآية ٩.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٤٩.

فليست كلّ مصالحةٍ أو ليونة هي مداراة. فالمداراة إنّما تصحّ حين يكون هناك غرض عقلائيّ سليم، يتحمّل فيه الإنسان بعض الصعاب التي يختلقها له الآخرون من أجل الوصول إلى ذلك الهدف والغايات الكبرى. ولا يعني ذلك أن يكون الإنسان غير مبالٍ مقابل أيّ تصرّف أو فعلٍ يصدر من الآخرين، باعتباره من المداراة المطلوبة! فيجب أن نفرّق بين المداراة والمداهنة، وأن نعلم أنّه لا يجوز التساهل بشأن الأهداف الإسلاميّة والقضايا الدينيّة. وأنّ التقصير والتنازل في مجال الأصول الفكريّة والمبادئ القيميّة أمرٌ غير صحيحٍ إطلاقًا. فحين يكون الإنسان مكلّفًا بالوظيفة الشرعيّة وتتوفّر شروطها، فإنّه يجب أن يقوم بها بكلّ حزمٍ ويثبت على طريقها ولا يظهر أيّ نوعٍ من التسامح والتساهل.

فليس صحيحًا أن يعيش الإنسان روحيّة الليونة مع كلّ شيء ويتساهل مقابل أيّ فعلٍ ويتنازل عن الأهداف الإلهيّة. فعلى الإنسان أن يثبت حتّى النفس الأخير على طريق تحقيق الأهداف الإلهيّة، وأن يقاوم ولا يظهر أيّ تنازلٍ.

حين ننظر إلى الحملات الإعلاميّة التي تنطلق من منابر الأعداء، يلفت نظرنا مصطلح الأصوليّة الذي يستعملونه في وصفنا. ولا شكّ أنّهم يريدون بهذا الأمر إضعاف شعبنا وإظهارنا بمظهر العنف والتشدّد، ولكنّنا حين نقف عند هذا العنوان ندرك أنّه لقبٌ مناسبٌ جدًّا ويجب أن نفرح به. أجل نحن أصوليّون ونحافظ على أصولنا دومًا ونعتقد أنّه لا ينبغي أن نتنازل عن أهدافنا وأن لا نستسلم لأعدائنا. نعم تستلزم بعض الظروف المقطعيّة والتكتيكيّة إظهار شيء من التنازل حين لا تكون المسائل ذات بعد حيويّ وأساسيّ، ولكنّ ذلك لا يعني أبدًا أن نتنازل عن الأهداف الكبرى والمبادئ الأساسيّة.

وفي مراحل الدعوة الأولى، كان النبيّ صلى الله عليه وآله ومن معه في مكّة يعانون من أشدّ الظروف من المشركين وعبدة الأصنام، الذين امتهنوا تعذيبهم والتضييق عليهم ومنعهم من تبليغ الإسلام. وكان النبيّ يودّع بين حينٍ وآخر أحد أصحابه المخلصين ممّن يقدّم نفسه على مذبح العشق الإلهيّ وفداءً للأهداف الكبرى. ومن الطبيعيّ في مثل هذه الصعاب الشديدة أن يتطلّع المسلمون المظلومون المعذّبون إلى طريقٍ للخلاص من تلك المعاناة الشديدة ويتمسّكوا بمن يقدّم لهم حمايةً أو دعمًا مقابل قريش. ويذكر المؤرخون أنّ أهل الطائف عرضوا على النبيّ صلى الله عليه وآله في تلك الظروف الدعمَ والحماية في مواجهته لقريش، وأن يدافعوا عنه

بأموالهم وأنفسهم، بشرط أن لا يفرض عليهم الصلاة. وكأنّ أهل الطائف ما كانوا يحبّون أن يعفّروا جباههم بالتراب خضوعًا لله. فهذه هي الثقافة التي كانت سائدةً بينهم.

وقد قدّم أهل الطائف هذا العرض إلى النبيّ في الوقت الذي كان المسلمون يعيشون أصعب الظروف وفي أشدّ حالات القمع. ولا شكّ بأنّ النبيّ لو كان كسائر القادة الاجتماعيّين لقبل بهذا العرض وعدّه فرصةً ينبغي اغتنامها بحجّة أنّه سوف يستفيد منه لتحقيق أهدافه ثمّ يعرّف أهل الطائف شيئًا فشيئًا على الصلاة والعبادة ويرسل إليهم من يعرّفهم بأمور دينهم. وبناءً على قول بعض المفسّرين فإنّ الآية[1] التالية نزلت في هذه الحادثة: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[2].

ويحذّر الله المسلمين من الميل إلى المشركين والتنازل عن دينهم، ذلك لأنّ كلّ التحرّكات والمعارك والمجاهدات والتضحيات كانت لأجل الدين ولأجل أن يتحوّل الناس إلى عبادة الله وحده ويرتبطوا به. فكيف يجوز أن نتنازل لهم بحيث يتمّ التضحية بذلك الهدف النهائيّ! وقد أجاب النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أهل الطائف قائلًا: «لا خير في دينٍ لا ركوع فيه ولا سجود»[3].

فقد كان هؤلاء يتمنّون أن يلين الرسول شيئًا ما ويغضّ النظر عن أصوله، حتّى يكونوا معه. ولكنّ الله تعالى أبى له ذلك، وثبّته على نهجه وطريقه. ولهذا، ردّ عرضهم قائلًا بأنّه غير مستعدٍّ للتنازل وتقديم الدين خاليًا من الصلاة. فالدين قائمٌ بالصلاة والارتباط بالله، والهدف الأساسيّ له هو تثبيت أصل عبادة الله تعالى.

وقد ثبتت ضرورة الدفاع عن الأصول والأهداف الأساسيّة في جميع الحالات، ومنها ما يتعلّق في قيادة المجتمع وإدارته العامّة: فعلى القائد أن يكون دائمًا بصدد

---

(١) بناءً على رواية ابن عباس فإنّ هذه الآية والآية ٧٣ من سورة **الإسراء** إنّما نزلت عندما قدم أميّة بن خلف وأبو جهل وعدّة من قريش إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم لكي يعبدوا إلهه. وكان ابتعاد قريش وكفرهم شديدًا جدًّا على النبيّ الذي كان يعمل جاهدًا على إسلامهم (**الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٥، الصفحة ١٧٧).

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٧٤.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحة ١٥٣.

حفظ الأصول والأهداف الأساسيّة. ولا يجوز له أن يتنازل، ولكنّه قد يغمض العين عن بعض الفروع إذا رأى أنّ الضرورة تقتضي ذلك. ذلك لأنّ حفظ وصيانة الأصول قد يتطلّب من الإنسان أن يلين في مجال الأمور الفرعيّة لكي لا تتعرّض الأصول لضربةٍ قاصمة. فعلى قادة المجتمع أحيانًا أن يظهروا الحزم، وفي بعض الأحيان الليونة والإغماض. وكما ذكرنا، فإنّ المحور الذي يجب التأكيد عليه والدفاع عنه بكلّ حزمٍ هو الأصول والمحاور الأساسيّة للدين والأهداف الإلهيّة السامية التي لا تقبل التنازل والإغماض. أمّا في باب المسائل الجزئيّة فمن الممكن أحيانًا أن يتنازل الإنسان أو يتجاوز. هكذا القائد يتصرّف بحسب ما يراه من مصلحةٍ.

وما بيّناه إنّما كان لأجل الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن نهتمّ بعدم الخلط ما بين المداراة والمداهنة وأن نميّز حدودهما. ولا شكّ بأنّ تشخيص الحدّ بين المداراة المطلوبة والمداهنة المذمومة أمرٌ صعبٌ جدًّا: فعلى الإنسان أن يدقّق كثيرًا ليعلم متى يجب عليه أن يداري ومتى لا يجوز! وهل إنّ إغماضه يعدّ من المداهنة أم لا.

ومن الطرق التي نتمكّن بها من تمييز المداهنة عن المداراة: هو فيما إذا كان التنازل والإغماض موجبًا لإقصاء المسائل الأساسيّة والمهمّة عن ميدان الحياة، فحينئذ يُعدّ مثل هذا التنازل من المداهنة. أمّا إذا كانت المصالح الشخصيّة مهدّدةً ثمّ تغاضى الإنسان عنها من أجل هدفٍ أعلى، وتصرّف بمنتهى العزّة فهذا من المداراة. وينبغي الالتفات إلى أنّ هناك بعض الموارد المتشابهة التي تتطلّب دقّةً عاليةً في تمييز المداراة عن المداهنة.

«يا أبا ذرّ؛ إن سرّك أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله وإن سرّك أن تكون أكرم الناس فاتّق الله وإن سرّك أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منك بما في يدَيك».

ونجد أنّ موضوع التّقوى قد تكرّر ها هنا أيضًا ولم ينقطع ارتباطه مع المواضيع السابقة، وإن كان هناك مواضيع أخرى قد ذُكرت أيضًا فيما يتعلّق بالتّقوى. ويذكّر النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في حديثه هنا بثلاث نقاطٍ: الأولى أنّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس ممّن يقدر على الوصول إلى أهدافه ومقاصده، ولا ينكسر أو يُهزم بسرعة فتوكّل على الله. والثانية أنّك إذا أردت أن تكون أعزّ الناس عند الله تعالى فاتّقه كما

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[1].

والثالثة أنّك إذا أردت أن تكون أغنى الناس فثق بما في يد الله أكثر من ثقتك بما في يدك. إنّ كلّ واحدٍ منّا له حظٌّ من النعم الإلهيّة، ويتمتّع ببعض الثروة. وفي بعض الأحيان، قد يتنعّم بالمال الكافي بحيث يستغني عن غيره ولا يحتاج لمن يؤمّن له ما يريد. أو أنّه يملك من القوت ما لا يضطرّه لمدّ يده للآخرين، فهذا نوعٌ من الغنى. ولكن يجب أن نلتفت إلى الحدّ الذي يمكننا فيه الاعتماد على ما في أيدينا من المال والثروة: فمن الممكن أن يضيع مالنا أو أن يُسرق. وكلّ نعمةٍ من هذه النعم قابلةٌ للزوال وبزوالها لن يقدر الإنسان على الاستفادة منها. وحين تمسّ الحاجة، من الممكن أن يخرج المال من يد الإنسان دون أن يتمكّن من الاستفادة منه. أمّا ما عند الله فإنّه لا يضيع أبدًا، ولا يمكن أن تخرج النعم عن يد الله تعالى مطلقًا.

من الممكن أن يضيع ما بأيدينا، ولكن ما بيد الله لا يمكن أن يضيع إطلاقًا. ولهذا، فإذا توجّهنا إلى قدرة الله ومالكيّته لكلّ الأشياء والموجودات، وعدم تخلّف شيءٍ عن إرادته تعالى، ولو كان شيئًا في كوكب المرّيخ وأراد الله تعالى أن يصل إلينا فإنّه يصل. فيجب أن يكون اعتقادنا وثقتنا بما في يد الله أكثر ممّا في أيدينا. فلو وصلنا إلى هذه المعرفة التي نرى فيها جميع الموجودات وكلّ القوى الظاهر منها والباطن في قبضة قدرة الله تعالى وآمنّا أنّه لا يعزب عن قدرته شيء، واطّلعنا على مالكيّته وإحاطته وتدبيره لكلّ العوالم، ومنها الإنسان، لازدادت ثقتنا بالله ووثقنا بقدرته المطلقة أكثر ممّا نثق بما في أيدينا. ومن الطبيعيّ أنّ من وثق بقدرة الله صار أغنى الناس، لأنّه ما من شيء يتخلّف عن إرادة الله أو يخرج عن قدرته، ولا ينبغي للإنسان أن يعتمد على ما في يده من مالٍ، لأنّ المال لا يكون دائمًا تحت تصرّفنا، وكم يحدث أنّه يخرج من يدنا قبل أن نتمكّن من الاستفادة منه.

مقام ومنزلة التوكّل

وكما لاحظنا، فإنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يعدّ التوكّل على الله أساس القوّة للمؤمن. وبالنظر إلى أهميّة مقام التوكّل ودوره في الحياة وفي مواجهة المخاطر

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٣.

والصعاب والتصوّرات الخاطئة الناشئة عنها، فمن الضروريّ أن نبحث عنه ولو بشكلٍ مختصر: «التوكّل» من باب «الوكالة». وفي الثقافة الإسلاميّة هو بمعنى أن يجعل الإنسان ربّه سندًا موثوقًا، ويكل جميع أموره إليه. وقد جاء في حديثٍ أن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سأل جبرائيل عن التوكّل على الله، فأجابه جبرائيل قائلًا: «العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق. فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحدٍ سوى الله ولم يرجُ ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحدٍ سوى الله فهذا هو التوكّل»[1].

وفي القرآن الكريم، آياتٌ كثيرة حول التوكّل منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2][3].

ومثلما يوكّل الإنسان في العادة شخصًا لأموره الدنيويّة ويفوّض إليه الكثير من أعماله، لكي ينال المزيد من الفائدة والنفع، فمن الجدير أن يعتمد عبد الله أيضًا في أُموره كلّها على الله ويجعله وكيلًا له، حتّى يؤمّن جميع حاجاته بدون قلقٍ واضطراب خاطر. وبعبارة أخرى، إنّ الذي يهتمّ بتأمين جميع احتياجاته، ليس أمامه سوى طرق ثلاثة: إمّا أن يعتمد على نفسه، وإمّا أن يعتمد على غيره ويطمع بمددهم، أو أن يجعل الله معتمده ويغضّ النظر عمّا سواه.

وهنا، فإنّ اعتماد وتوكّل الإنسان على الله إنّما ينشأ من معرفته بربوبيّة الله. ذلك لأنّ الإنسان لو عرف الله بما أنّه المالك وله المشيئة المطلقة، وأنّ كلّ الوجود تحت حيطته وفي يده، فإنّه لن يرى حاجةً للاعتماد على الآخرين والاستعانة بهم. وفي دعاءٍ للإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول فيه: «اللّهم إنّك آنس الآنسين لأوليائك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكّلين عليك، تشاهدهم في سرائرهم، وتطّلع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم».

ثمّ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة، إن

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٨، الصفحة ١٣٨.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٢.

(٣) وفي هذه الآية بيّن الحقّ تعالى التوكّل بما أنّه من لوازم الإيمان غير المنفكّة عنه.

أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك، وإن صُبّت عليهم المصائب لجؤوا إلى الاستجارة بك، علمًا بأنّ أزمة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك»[١].

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديثٍ حول ثمرة التوكّل قال: «من توكّل على الله لا يُغلب، ومن اعتصم بالله لا يُهزم»[٢].

وهكذا، نجد هذا الخطاب قد حُفر على رأس لائحة دعوة الأنبياء وهو: أن آمنوا بالله وتوكّلوا عليه. من هنا، فإنّ إحدى علامات الإيمان بالله هي التوكّل عليه. فلو اعتقد الإنسان بربوبيّة الله وآمن أنّ كلّ عالم الوجود خاضعٌ لسيطرته وربوبيّته ولا معبود يستحقّ العبادة غيره، فإنّه لن يجيز لنفسه أبدًا أن يتعلّق بغيره ويستعين بما سواه. بل إنّه سيعتمد على الله تعالى دومًا ولا يطلب العون إلّا منه.

التوكّل والاستفادة من الأسباب والعوامل الماديّة والمعنويّة

إنّ التوكّل أمرٌ قلبيّ وليس من قبيل السلوك الخارجيّ. لهذا، لا يعني التوكّل أن يعتكف الإنسان في المسجد ويكتفي بالعبادة والمناجاة والذكر، ويترك التكسّب والعمل بزعم أنّ الله تعالى سيؤمّن له رزقه. ولا شكّ بأنّ هذا التصوّر خطأٌ وكلّ من اختاره كمنهج حياةٍ قد ضلّ ولم يُدرك المعنى الحقيقيّ للتوكّل. كما جاء في روايةٍ: «رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قومًا لا يزرعون. قال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المتوكّلون. قال: لا، بل أنتم المتّكلون»[٣].

أجل، إنّ الذين ليس لهم حظّ من المعرفة الصحيحة بالتعاليم الإلهيّة يتصوّرون أنّ التوكّل هو أن لا يستفيد الإنسان من الوسائل والإمكانات الماديّة ويظنّون أنّ المستفيد المستعمل لها ليس من المتوكّلين. ولكن ليس كلّ من استفاد من الأسباب الماديّة قد فقد التوكّل، وليس كلّ من ترك تلك الأسباب هو من أهل التوكّل. فهناك من الناس من هو مبتلًى بالكسل والخنوع ويبقى طوال الوقت ينتظر من يسدّ رمقه وهو قانع بحاله من دون أن يهتمّ بالشغل والعمل. وحين يُسأل هؤلاء لماذا لا تعملون

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الخطبة ٢٢٧، الصفحة ٢٢١.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ١٥١.

(٣) **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق، الجزء ١١، الصفحة ٢١٧.

ولماذا لا تكدحون، فإنّهم يقولون: إنّنا نتوكّل على الله والرزق بيده وهو قد تكفّل به! في الواقع، إنّ هذا التبرير هو غطاءٌ يسترون به كسلهم وخنوعهم. وهم في الواقع كاذبون وليسوا متوكّلين على الله. ولا شكّ في وجود أهل التوكّل، لكن هذا التصوّر خاطئ في كلّ الأحوال، يتذرّع به الإنسان لأجل ترك العمل بالأسباب.

وكما قلنا فإنّ التوكّل أمرٌ قلبيّ، وهو يعني الاعتماد على الله ومعايشة ذلك بالقلب. لهذا، من الممكن أن يصل الإنسان إلى أعلى درجات التوكّل وفي نفس الوقت نراه يستخدم الأسباب والوسائل الماديّة من أجل أداء وظيفته والقيام بأعماله وفق التعاليم الإلهيّة. من الممكن أن يكون الإنسان كادحًا أكثر من الآخرين، ويهتمّ كثيرًا بعمله ويظهر الجدّ والحرص عليه، ولكنّه في نفس الوقت لا يعتمد على جهده، بل لا يعتمد إلّا على الله. لأنّ الله تعالى يكره البطّال الكسول وهو سبحانه الذي كلّفه بالعمل. ذلك لأنّ الحكمة الإلهيّة توجب أن يجري هذا العالم عن طريق الأسباب. وفي الأساس، فإنّ من عرف الله يعلم أنّ مقتضى الحكمة الإلهيّة أن تجري الأمور بواسطة الأسباب. فحكمة الله تعني أن تتحقّق كلّ ظاهرةٍ من خلال أسبابها. ولهذا، فإنّ معرفة الله وإدراك حكمته تعني معرفة مقتضى هذه الحكمة التي هي جعل نظام الأسباب والعلل وفي النهاية، يكون تكامل الإنسان مرتبطًا بهذا النظام وبواسطته جُعل الناس في معرض الامتحان والاختبار. وبدونه لن يتّجه الناس نحو التكامل؛ التكامل الذي يتحقّق ضمن تحمّل مسؤوليّة العبوديّة وهي بدورها تكون ضمن العلاقات الإنسانيّة، وهذه العلاقات تندرج ضمن نظام الأسباب والمسبّبات.

فإذا أراد الإنسان العافية واختار العزلة واشتغل بالعبادة الخاصّة ولم يقدم على أيّ عملٍ وسعي، فإنّه سيكون ممّن يعمل خلاف الحكمة الإلهيّة. وفي هذه الحالة، سيكون انتظاره لوصول الرزق من جانب الله بلا فائدة.

لهذا، فإنّ الحكمة الإلهيّة توجب أن يستفيد الإنسان من الأسباب على طريق تأمين احتياجاته ومتطلّباته. فلو كان الأساس أنّ الله تعالى يرزق الإنسان بمجرّد الطلب لما سعى أحدٌ نحو رزقه، ولخرج الناس من دائرة الامتحان. وحين يُقال إنّ على الإنسان أن يستفيد من الأسباب من أجل الوصول إلى الأهداف، فليس يعني ذلك أنّ الرازق هو تلك الأرض أو العمل الفلانيّ أو غيره من الأسباب. بل إنّها جميعًا من الله وتعمل وفق تدبيره، ويكون الرزق في الحقيقة منه تعالى. إنّك مكلّف

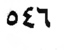

بالسعي واستخدام الأسباب حتّى تحقّق الأهداف الإلهيّة في نظام العالم. وهذه الأهداف تندرج ضمن تكامل البشر. فعلى المتوكّل أن لا يغفل العمل والسعي.

وللأسف، هناك من يغفل وليس هذا من التوكّل في شيء. غاية الأمر أنّ الفارق بين هاتَين الطائفتَين يكمن في العلاقة القلبيّة. إنّ المتوكّل إنّما يسعى بدافع طاعة أمر الله وبالتوكّل عليه وبرجائه. أمّا غير الموحّد وغير المتوكّل فإنّه يبحث عن الرزق في السعي والعمل أو في طلبه من أيدي الناس. والمؤمن لا يرجو سوى الله وهو يرى جميع الأسباب منه تعالى، ولو قصرت يده عن جميع الأسباب، فلن يخدش في رجائه بالله شيء. لأنّه يعلم أنّ كلّ ما يفعله الله في حقّ عبده إنّما يكون على أساس الحكمة ولأجل صلاحه. إنّه تعالى لا يحرم عبده أبدًا ممّا ينفعه ومما يكون لخيره وصلاحه.

وهكذا، فإنّ نظام العالم قد قام من هذه الجهة على أساس نظام الأسباب والمسبّبات. وفي سلسلة ذلك النظام، يجب على الإنسان أن يؤمّن حاجاته من خلال العمل والسعي. ومن جانبٍ آخر، فإنّ العمل والمعاش والتعامل مع الآخرين إنّما يكون من أجل تحقّق أرضيّة الامتحان والاختبار لكلّ إنسان. ذلك لأنّ الإنسان إذا لم يُختبر ولم يُجعل في دائرة الامتحان، فإنّه لن يتكامل. فيجب أن تتحقّق الأعمال والوظائف ورعاية العلاقات بين العامل وربّ العمل، لكي تتأمّن أرضيّة الرشد والتكامل الإنسانيّ في ظلّ رعاية حقوق الغير وفي ظلّ السعي والتحرّك. ولهذا، فإنّ الإنسان مكلّفٌ بالعمل والكدح، وفي نفس الوقت يجب أن يكون معتقدًا بأنّ رزقه من الله وتوكّله عليه دون سواه. ولا تعني حقيقة التوكّل أن يترك الإنسان العمل، بل هي في أن يكون قلب الإنسان مع الله وأن يرى رزقه منه لا من سعيه. وهنا يحصل له التوفيق والنجاة في أصعب مراحل حياته ويتغلّب على المشاكل التي تعترضه، لأنّه توكّل على ذات الحقّ الأقدس.

ويُنقل أنّ النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرض وجاءه قومه لعيادته وقالوا له: لو أنّك تستعمل النبتة الفلانيّة لتحسّن حالك. فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّني لن أداوي نفسي حتّى يشفيني الله! ومرّت أيّام وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مريضٌ ولم تظهر عليه علامات التحسّن، فأوحى الله تعالى إليه: وعزّتي وجلالي لن أشفيك حتّى تعالج نفسك بذلك الدواء الذي أخبرك عنه قومك. فلمّا عالج النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه تحسّن وشفي ولكنّه كان قد ندم على ما قاله لقومه فجاءه الخطاب: يا موسى هل تريد بتوكّلك أن

تبطل حكمتي؟ فمن الذي جعل في النباتات تلك الفوائد والآثار الشافية.

وكذلك جاء في حديثٍ أنّ أحد الزهّاد قد ترك العيش بين الناس واعتزلهم واختار السكنى في الجبال وقال لنفسه إنّني لن أسأل أحدًا، ليكون الله هو الذي يرزقني! فبقي على هذا المنوال سبعة أيّام بلياليها ولم يصله أيّ غذاء حتّى أشرف على الهلاك، وهناك قال يا ربّ ارزقني أو خذ نفسي وأرحني! فجاءه الخطاب: وعزّتي وجلالي لن أرزقك حتّى تنزل بين الناس وتعيش معهم. فنزل الزاهد من الجبال ودخل إلى المدينة وبمجرّد أن وصل بدأ الناس يقبلون عليه بالطعام والشراب. فعندها خاطبه الحقّ تعالى: أيّها الزاهد هل تريد بزهدك أن تبطل حكمتي، ألا تعلم أنّ تأمين رزق عبادي على يد عبادي أحبّ إليّ من أن أوصل إليهم رزقهم بدون الأسباب[١].

فالرزق لا ينحصر بالرزق الماديّ وإشباع المعدة، بل إنّ المنافع والمكتسبات المعنويّة كالعلم تُعدّ من الأرزاق أيضًا. لهذا، من الممكن أن يترك أحدنا تحصيل العلم والمطالعة بسبب كسله وعدم رغبته ولا يحضر الدروس ويقول إنّني أتوكّل على الله وهو الذي يفيض عليّ العلم، ويتّخذ هذا الحديث عن المعصومين مبرّرًا له: «ليس العلم بالتعلّم إنّما هو نورٌ يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه»[٢].

أجل، إنّ العلم من الله تعالى وهو الذي يختاره لمن يشاء من عباده. ولكن يقع على عاتقنا نحن أيضًا مسؤوليّة التحصيل والمطالعة وبذل الجهد في طريق تحصيل العلم والاستفادة من جميع الفرص المتاحة. ولا تتحقّق صيرورة الإنسان عالمًا بدون السعي وتحمّل المتاعب والصعاب على طريق تحصيل العلم. مثلما أنّ الإنسان لن يصل إلى حاجاته الدنيويّة بدون العمل والسعي وتحمّل المتاعب.

إنّ جميع النعم التي يسعى إليها الناس هي بيد الله وليست الأسباب والوسائل العلّة الأساسيّة فيها. بل هي أدواتٌ جعلها الله تعالى لأجل الوصول إلى تلك النعم، ولأنّ الله تعالى يريدنا أن نصل إلى رزقنا وإلى النعم التي أتاحها

---

(١) ملّا مهدي النراقي، **جامع السعادات**، الجزء ٣، الصفحتان ٢٢٨ و٢٢٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢٢٥.

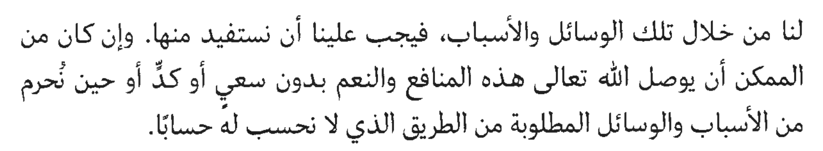
لنا من خلال تلك الوسائل والأسباب، فيجب علينا أن نستفيد منها. وإن كان من الممكن أن يوصل الله تعالى هذه المنافع والنعم بدون سعيٍ أو كدٍّ أو حين نُحرم من الأسباب والوسائل المطلوبة من الطريق الذي لا نحسب له حسابًا.

وفي المقابل، من الممكن أن لا نصل إلى مبتغياتنا بعد العمل والسعي واستخدام الأسباب والوسائل ونبقى عاجزين عن نيل المطلوب! ممّا يحكي عن هذه الحقيقة وهي أنّ على الإنسان أن لا يتعلّق بالأسباب وأن يقطع رجاءه وتوكّله على كلّ شيءٍ إلّا الله تعالى. فيستفيد من الأسباب في طريق التوكّل عليه آملًا بأنّ الله تعالى سيوصل إليه رزقه. وبالتوجّه إلى ما ذكرنا، يقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إنّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله وأحكم ارتباطك القلبيّ به، لكي تصل في ظلّ الاعتماد عليه والتعلّق به إلى مقام الطمأنينة وتجعل نفسك متّصلًا بالقدرة المطلقة التي أحاطت بكلّ شيء وهي خير معينٍ للإنسان في الصعاب والمحن.

فالذي يعطي الإنسان القدرة حين مواجهة الأعداء الأشدّاء، ويفرّق جموعهم كما تتناثر أوراق الأشجار في الخريف هو الله تعالى.

أجل، فبالالتفات إلى هذا الاعتماد والارتباط الوثيق كان مولى المتّقين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك الإنسان الكامل الذي كانت فرائصه ترتعد بين يدَي الله تعالى وفي محضر عبادته ويسقط أرضًا مغشيًّا عليه خوفًا من ربه، ولكنّه إذا واجه الأعداء كان كالطود العظيم يهرب منه الخوف كما تفرّ من بين يدَيه صفوف الأعداء كالحشرات ولا يجرؤ أحد على مواجهته، لأنّه كان يستمدّ من الله وقدرته المطلقة فيمدّه الله تعالى بما لا يسمح بالضعف أن يصل إليه فيدبّر له كلّ شيء بإرادته، هذا الإنسان الشجاع حين كان يسلّم الراية في حرب الجمل لابنه محمد ابن الحنفيّة فإنّه يقول له:

«تزول الجبال ولا تزل عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارمِ ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك واعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه»[١].

فلو لم يكن الإنسان متوكّلًا على الله، لملأه الاضطراب والقلق ولتحوّلت حياته

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١١، الصفحة ٤٤.

إلى حالةٍ مستمرّةٍ من التشتّت والضنك ولم يدرك فائدةً تذكر. لأنّه غفل عن العون الحقيقيّ واعتمد على الأمور الوهميّة المتزلزلة. فلأجل أن نحصل على القدرة يجب أن نتوكّل على الله.

علاقة التّقوى بالتوكّل

ثمّ يكمل النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حديثه قائلًا: «**يا أبا ذرّ؛ لو أنّ الناس كلّهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**».

(وقد ذُكرت التّقوى في هذه الآية الشريفة مع التوكّل. وهو ما يبيّن عمق الارتباط بين الأمرَين وعدم إمكان انفصالهما. ولعلّ تقديم التّقوى من جهة أنّها مقدّمة الوصول إلى التوكّل. وما لم يصبح الإنسان من المتّقين فلن يصل إلى حقيقة التوكّل على الله).

ولا شكّ أنّ جميع الأمور السماويّة والأرضيّة هي بيد الله تعالى. ولا يوجد أيّة قدرةٍ مقابل قدرة الله وهو الذي بإرادته يدبّر عالم الخلق، وكلّ شيءٍ يجري وفق تدبيره. لهذا، يجب الاعتماد عليه فقط وعدم مدّ يد الطلب إلى سواه وإحياء الشعور بالغنى عمّن سواه في أنفسنا. وحيث إنّ الله تعالى أمرنا أن نحترم الآخرين وأن نشكر جميلهم، فإنّنا نحترمهم ونشكرهم بناءً عليه. ولكن علينا أن نجتنب التملّق والمدح الفارغ الناشئ من الطمع وتصوّر حصول الفائدة من الآخرين.

يؤمن الذي يعتمد على الله ويتوكّل عليه بأنّ الله قد تكفّل برزقه، ولن يرى حاجةً للتملّق والخضوع الأعمى للناس أملًا بأن ينال معونتهم. فإنّ التملّق والتزلّف والخضوع للآخرين يتنافى مع عزّة النفس.

أجل، إنّ الله تعالى وأولياء دينه قد أمرونا بالخضوع لبعض الأفراد الذين لهم حقّ عظيمٌ علينا كالوالدَين والأساتذة. وكذلك أوصونا بالتواضع والخضوع للسادات وذريّة النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حيث يجب احترامهم لأجل نسبتهم للنبيّ وبدافع طاعة الله وتعظيم رسول الله، لا عن طمعٍ دنيويّ وماديّ.

ويذكر الله تعالى الإحسان إلى الوالدَين والتواضع لهما مباشرةً بعد مرحلة

عبادته سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[١].

ويقول الإمام زين العابدين عَلَيهِالسَّلَامُ بحقّ الأستاذ والمعلّم: «وحقّ سائسك بالعلم التّعظيم له والتّوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب أحدًا يسأله عن شيءٍ حتّى يكون هو الذي يجيب ولا تحدّث في مجلسه أحدًا ولا تغتاب عنده أحدًا...»[٢].

فلو خضع الإنسان لغيره طمعًا بالدنيا وشهواتها لكان متملّقًا وفي باطن عمله مشركًا. ولو لم يكن في الواقع ممّن يرى الله عاجزًا لما طمع بغيره. ومن عرف الله وصارت معرفته به كاملةً وتوكّل عليه وآمن بقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٣] كيف يمكن أن يخضع للناس ويطمع في نوالهم. إنّ هذا العارف لا يعتمد ولا يتوكّل على غير الله، ولكنّه في نفس الوقت يؤدّي تكليفه. فلو كان تكليفه السعي والعمل فهو يسعى ويعمل، ولو كان تكليفه الدرس فإنّه يدرس. وإذا كان تكليفه الجهاد في سبيل الله فإنّه يجاهد، ويوكل النتيجة إلى الله تعالى. وكثيرًا ما كان إمامنا الراحل الخمينيّ القائد (قدس سره) يقول: نحن مكلّفون بالجهاد، أمّا انتصارنا أو هزيمتنا فهي بيد الله. فكلّ ما يريده الله تعالى ويراه لمصلحتنا فإنّه سيتحقّق.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآيتان ٢٣ و٢٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤٢.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٣٦.

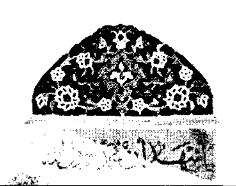

الدرس السابع والثلاثون

التدبيرات والتقادير الإلهيّة ودور الاعتقاد الراسخ

- ❖ التسليم للحقّ عامل للقضاء على الاضطرابات
- ❖ نظرةٌ إلى القضاء والقدر
- ❖ مقام اليقين ومراتبه
- ❖ أولياء الله والرضا بالتقادير الإلهيّة
- ❖ نظرة إلى مقام الصبر وأهميّته
- ❖ دور تقديم إرادة الله على إرادة الذات

«يا أبا ذرّ، يقول الله جلّ ثناؤه: وعزّتي وجلالي لا يؤثر عبدي هواي على هواه إلّا جعلت غناه في نفسه وهمومه في آخرته وضمّنت السموات والأرض رزقه وكففْت عليه ضيْعَتَه وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر. يا أبا ذرّ، لو أنّ ابن آدم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت».

كان المحور الأساسيّ للبحث في الجلسات السابقة هو التّقوى؛ وقد تبيّن لنا أنّ الإنسان إذا اتّقى ربّه فلا ينبغي أن يكون قلقًا على رزقه، لأنّ الله تعالى سيفتح له طرقًا لحلّ مشاكله، وحين يقع في المضائق، فإنّ الله تعالى سيجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب. وفي الواقع، فإنّ الأقسام السابقة لمواعظ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأبي ذرّ كانت تبيّن رابطة التّقوى بالرزق، فإذا كان الإنسان يريد سعة الرزق الحلال الطاهر، وعلم أنّ التّقوى تؤدّي إلى فتح أبواب الرزق، فسوف يندفع أكثر لتحصيل التّقوى هذه الملكة الفاضلة.

التسليم للحقّ عامل للقضاء على الاضطرابات

والسؤال الذي يُطرح هنا يدور حول مدى ما ينبغي للمؤمن أن يقلق حيال رزقه، وكم ينبغي أن يفكّر في توسعة معيشته؛ وكيف ينبغي أن يسعى للحصول على رزقه؟ وممّا لا شكّ فيه أنّ لكلّ إنسانٍ في حياته احتياجات، لا يمكنه بدون تأمينها وتلبيتها أن يستمرّ في الحياة. والرزق هو من جملة الأشياء التي تتوقّف الحياة عليها. وبالطبع، إنّ من يحبّ هذه الحياة سيكون قلقًا تجاه رزقه أيضًا. وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ الرزق لا يختصّ بالطعام، بل إنّ جميع النعم الماديّة والمعنويّة التي يعطيها الله تعالى في هذه الدنيا للإنسان هي من الرزق: كاللباس، والمنزل، والزوج، والأستاذ

والعلم.. فجميع هذه الأمور من الأرزاق الإلهيّة.

وبهذه النظرة الواسعة التي نرى فيها الرزق شاملًا لجميع النعم الماديّة والمعنويّة، ومع تسليمنا بأنّ كلّ إنسان يحتاج إلى الرزق، فمن الطبيعيّ أن يكون الإنسان قلقًا حيال رزقه. ولكن درجة قلق كلّ إنسان ترتبط بمستوى معرفته وإيمانه. فكما أنّ الأفراد لا يتساوون في الإيمان والمعرفة، فإنّ قلقهم لا يكون بنفس المستوى أيضًا. وكلّما ارتفع مستوى إيمانهم ومعرفتهم قلّت درجات قلقهم، إلى أن يصل البعض منهم إلى درجة الأولياء الذين يعبّر بعض الأعاظم عنهم بأنّهم يصلون الى درجةٍ من المعرفة بحيث لا يفكّرون بأنفسهم.. ومقام التسليم المذكور في الآيات الشريفة ناظرٌ إلى هذه المرتبة. يقول الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[١].

إنّ الإنسان يصل في مقام التسليم إلى مرحلةٍ يسلّم فيها بالكامل لربّه بحيث لا يطلب شيئًا لنفسه، بل إنّه ينسى طلباته ولا يتوجّه إلّا إلى ما يريده الله منه. وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة فإنّه ينجو من كلّ أنواع الاضطرابات ويصبح الأمر عليه سهلًا: «أوحى الله تعالى إلى داوود: تريد وأريد وإنّما يكون ما أريد فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثمّ لا يكون إلّا ما أريد»[٢].

ويعدّ البعض مقام التسليم أعلى من مقام الرضا، ذلك لأنّهم يعتقدون أنّ الإنسان في مقام الرضا سوف يجد كلّ ما يفعله الله تعالى موافقًا لما يريده هو، ولهذا فإنّه يكون ناظرًا إلى طبعه ومزاجه. أمّا في مقام التسليم، فإنّه يسلّم طبعه، بل كلّ ما يوافقه أو يخالفه إلى الله. وكذلك يعدّونه فوق مرتبة التوكّل، ذلك لأنّ التوكل عبارةٌ عن الاعتماد على الله في أمور الحياة. والمتوكّل هو الذي يجعل الله وكيلًا له، ممّا يدلّ على أنّه لا زال للعبد توجّه إلى نفسه. أمّا في مرتبة التسليم فإنّه يسحب يده من كلّ الأمور المتعلّقة به ويضعها عند الله تعالى[٣]. ويقول الله تعالى

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٦٥.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الصفحة ١٣٦.

(٣) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحتان ٢١١ و٢١٢.

في دعوته المؤمنين إلى مقام التسليم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

ويقول العلّامة الطباطبائيّ (رحمه الله) في ذيل هذه الآية: «السلم والإسلام والتسليم واحدة، وكافّةً كلمة تأكيد بمعنى جميعًا. ولمّا كان الخطاب للمؤمنين فقد أمروا الدخول في السلم كافّةً فهو أمرٌ متعلّق بالمجموع، وبكلّ واحدٍ من أجزائه. فيجب ذلك على كلّ مؤمن. ويجب على الجميع أيضًا أن لا يختلفوا في ذلك ويسلّموا الأمر لله ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ. وأيضًا الخطاب للمؤمنين خاصّةً فالسلم المدعوّ إليه والتسليم لله سبحانه بعد الإيمان به. فيجب على المؤمنين أن يسلّموا الأمر إليه ولا يذعنوا لأنفسهم صلاحًا باستبدادٍ من الرأي، ولا يضعوا لأنفسهم من عند أنفسهم طريقًا يسلكونه دون أن يبيّنه الله ورسوله. فما هلك قومٌ إلّا باتّباع الهوى والقول بغير العلم، ولم يُسلب حقّ الحياة وسعادة الجدّ عن قومٍ إلّا عن اختلاف»[2].

أجل، إنّ الذين وصلوا إلى مقام التسليم، لم يعد لأنفسهم مطلب، بل كلّ ما يريدونه هو ما يريده الله تعالى. فلا يفكّرون بعد ذلك كيف سيكون رزقهم، وكيف سيؤمّن. فما يشغل بالهم هو كيفيّة عبادة الله وتحقيق رضاه. ومن البديهيّ أنّ هذه الطائفة ستكون من أهل النجاة والسعادة، لأنّ الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يقول: «كلّ من تمسّك بالعروة الوثقى فهو ناجٍ، قُلْتُ: مَا هِيَ؟ قَالَ: التَّسْلِيمُ»[3]. ولا شكّ أنّ تصوّر مقام التسليم بالنسبة لنا أمرٌ صعبٌ. فنحن عاجزون عن إدراك هذا المعنى وعن كيفيّة استطاعة الإنسان أن يصل في المعرفة إلى تلك المرحلة التي ينسى فيها نفسه، ولا ينظر إلّا إلى إرادة الله تعالى. ولكنّنا لا نستطيع أن ننكر هذا المقام، فنحن على يقين بأنّ خاصّة عباد الله قد وصلوا إلى هذه المرحلة، التي يُعبّر عنها بمقام التسليم والتفويض.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٨.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٠٣.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٠٤.

وبغضّ النظر عن أولئك الذين وصلوا إلى مقام التسليم، فهناك طائفةٌ تحقّقت بمرتبة أدنى من التسليم، ومنهم من وصل إلى مرتبة علم اليقين حيث يعلم فيها أنّ جميع حوادث هذا العالم، صغيرها وكبيرها تابعةٌ لنظام محكم قدّره الله تعالى. وبغضّ النظر عن التقدير، فإنّ هذه الحوادث قد تحقّقتَ أيضًا في مرتبة القضاء الحتميّ. وما سوى هذه التقديرات الإلهيّة التي تقبل التغيير، فإنّ جميع الأمور قد وصلت إلى مرحلة القضاء الحتميّ الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر.

فالقضاء يعني الحكم والفصل، والقدر يعني التقدير وتعيين الحدّ. وجميع حوادث العالم قد انقضت بالقضاء الإلهيّ من جهة قطعية حصولها في العلم والمشيئة الإلهيّة. وأمّا من جهة حدودها وموقعيتها الزمانيّة والمكانيّة فهي مقدّرة بالتقدير الإلهيّ.

ومن المهمّ أن نذكر أنّ القضاء والقدر قد لا يُفسّر أحيانًا بشكلٍ واضحٍ وصحيح فيختلجه بعض الغموض والإبهام. ويتصوّر الكثيرون أنّ القضاء والقدر بمعنى الجبر. لهذا، ينبغي أن نذكر إجمالًا أنّ قضيّة الجبر لا علاقة لها بالقضاء والقدر. والاعتقاد بالقضاء والقدر لا يعني أن يتخلّى الإنسان عن مسؤوليّته بزعم أنّ كلّ شيءٍ قد عُيّن سلفًا وهو غير مسؤولٍ عنه.

ونحن نعتقد بأنّ أصل العلّية العامّة ونظام الأسباب والمسبّبات مسيطر على كلّ العالم وجميع الوقائع والحوادث. فإنّ كلّ حادثةٍ قد اكتسبت ضرورتها ووجوبها وقطعيّة وجودها وكذلك تشكّلها وخصوصيّاتها المكانيّة والزمانيّة وسائر الخصوصيّات الوجوديّة من عللها، ومن جملة الأسباب والعلل إرادة نفس الإنسان. فالقضاء والقدر إنّما يستلزم الجبر حين لا نرى للإنسان وإرادته أيّ دخل في الأمر، وحين نرى القضاء والقدر يحلّان محلّ قدرة الإنسان وإرادته. وفي الواقع، فإنّ القضاء والقدر الإلهيّ ليس شيئًا سوى صدور نظام الأسباب في العالم من علم الله وإرادته، ولا شكّ بأنّ إرادة الإنسان واختياره من ضمن الأسباب والعلل. لهذا، فإنّ الاعتقاد بالقضاء والقدر لا يتنافى مع مسؤوليّات الإنسان وواجباته.

وقد سُئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن الأحراز التي تُستخدم للاستشفاء، هل

أنّها تحول دون القدر الإلهيّ، فأجاب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إنّها من قدر الله»[١]، (أي إنّ تأثيرها في منع المرض يُعدّ من قضاء الله وقدره).

وكان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ذات يوم يهمّ بالجلوس إلى حائطٍ، فوجده يريد أن ينقضّ فقام من تحته وجلس في ظلّ حائطٍ آخر. فسُئل: يا أمير المؤمنين أتفرّ من قضاء الله؟ فقال: «أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله»[٢]. وهو بالطبع يريد أن يفرّ من أحد أنواع القضاء والقدر إلى نوعٍ آخر من القضاء والقدر: فإذا جلس وسقط الجدار على رأسه، لكان تحت حكم القضاء والقدر الإلهيّ، ذلك لأنّه في سلسلة العلل والأسباب، لو جلس الإنسان تحت جدارٍ آيلٍ للسقوط لسقط ذلك الجدار على رأسه وآذاه وهو من جملة القضاء والقدر الإلهيّ. وإذا قام عنه فإنّه سيصون نفسه من ذلك الخطر، وهذا أيضًا من القضاء والقدر الإلهيّ.

والموضوع المهمّ الذي ينبغي الالتفات إليه هو أنّ الأسباب والعلل لا تنحصر بهذه الأسباب الماديّة والعاديّة، فهناك أسبابٌ معنويّة غير عاديّة، منها الدعاء الذي يُعدّ من أسباب هذا العالم المؤثّرة في مصير الإنسان. وبعبارةٍ أخرى، إنّ الدعاء يُعدّ إحدى حلقات سلسلة القضاء والقدر بحيث يمكن أن يكون مؤثّرًا في ظهور الحوادث أو الحيلولة دون قضاءٍ وقدرٍ معيّن. فقد ورد في الحديث: «الدعاء يردّ القضاء وقد أُبرم إبرامًا»[٣].

مثل هذه الأحاديث، إنّما تكون ناظرةً إلى النظام العامّ للعالم وإلى مجموع العلل والأسباب التي تشمل العلل الماديّة والمعنويّة. فهي تشير إلى الموارد التي تحيط فيها العلل والأسباب المعنويّة بالعلل والأسباب الماديّة وتهيمن عليها. فالذي يقتصر نظره على العلل الماديّة والمحسوسة يتصوّر أنّ الأسباب تنحصر بهذه الأمور. ولا يعلم أنّ هناك آلاف العلل والأسباب الأخرى التي يمكن أن تكون دخيلةً في التأثير بحكم القضاء والقدر الإلهيّ. ولهذا، فإنّ تلك العلل والأسباب إذا تحقّقت

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحة ٨٧.

(٢) الشيخ الصدوق، **التوحيد**، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهران (قم: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة، لا تاريخ)، الصفحة ٣٦٩.

(٣) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٨٧٠.

فستجعل الأسباب والعلل الماديّة تحت ظلّها أو تفقدها التأثير المتعارف: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور﴾[١].

وكما ذكرنا، فهناك من وصل إلى تلك الدرجة من المعرفة واليقين بحيث يرى العالم دائرًا على أساس نظام دقيقٍ ومحكم من جانب الله تعالى، وأنّ كلّ حادثةٍ إنّما تتحقّق على أساس القضاء والقدر الإلهيّ. فهو يرى أنّ كلّ الأشياء ومنها الرزق قد قدِّر من جانب الله، وكلّ ما قدّره الله فلن يُحرم الإنسان منه بل سيصل إليه. وما لم يُكتب في القضاء الإلهيّ فلن يتحقّق ولن يصل للإنسان. وبالطبع، وكما أسلفنا القول، فإنّ الاعتقاد بوجود هذا النظام الدقيق والمحكم لا يتنافى مع الاعتقاد بوجود التكليف.

فمن الممكن أن يعتقد الإنسان بالقضاء والقدر الإلهيّ والتوحيد الأفعاليّ بدون أن يُبتلى بالجبر أو الكسل الذي يجعله جليس بيته فيقول: بما أنّ كلّ شيء قد قُدّر بواسطة الله، فلا معنًى لأن نسعى ونتحرّك!

فبناءً على المعارف الإلهيّة، فإنّ الاعتقاد بالقضاء والقدر الإلهيّ والتوحيد الأفعاليّ والمسائل المشابهة، لا يتنافى مع ضرورة السعي والنشاط وأداء التكاليف الفرديّة والاجتماعيّة على صعيد القضايا الماديّة والمعنويّة. وعلى كلّ حال، إذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من المعرفة واليقين، فلن يبقى في نفسه أيّ أثرٍ للقلق.

مقام اليقين ومراتبه

وحيث وصل الحديث بنا إلى مقام اليقين، فمن المناسب أن نشير بشكلٍ عابر إلى تعريفه ومراتبه:

فاليقين عبارةٌ عن الاعتقاد الثابت والمطابق للواقع بحيث لا يتزلزل، بل يكون منشأً لطمأنينة الإنسان وثباته. ولا شكّ بأنّ اليقين أرفع من المعرفة والاعتقاد العاديّ، وهو أشرف وأسمى فضيلةٍ إنسانيّة، وقلّ من نالها.. واليقين أعظم ذخيرة

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٤.

وكلّ من أدركه فقد نال السعادة الكبرى. فمن وصل إلى مقام اليقين لن يتوجّه إلى غير الله ولن يتوكّل إلّا على الله ولن يرى غيره منشأً للآثار. وفي الواقع، إنّ اليقين يتحقّق بعد مراحل الإسلام والإيمان والتّقوى، كما قال الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الإيمان فوق الإسلام بدرجةٍ والتّقوى فوق الإيمان بدرجةٍ واليقين فوق التّقوى بدرجةٍ وما قُسم في الناس شيءٌ أقلّ من اليقين»[١].

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرًّا لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله: «كيف أصبحت يا فلان؟»

قال: أصبحت يا رسول الله موقنًا، فعجب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من قوله وقال: «إنّ لكلّ يقين حقيقةً فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نُصب للحساب، وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأصحابه: «هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان» ثم قال له: «الزم ما أنت عليه»، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[٢].

ولليقين ثلاث مراتب تسمى بـ: ١. علم اليقين ٢. عين اليقين ٣. حقّ اليقين. وقد صرّح القرآن الكريم بهذه المراتب بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[٤].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥١.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٥٣.

(٣) سورة **التكاثر**، الآيات ٥ إلى ٧.

(٤) سورة **الواقعة**، الآية ٩٥.

١. علم اليقين، هو عبارة عن الاعتقاد الثابت واليقين المطابق للواقع الذي يحصل من خلال الاستدلال باللوازم والملزومات، كاليقين بوجود النار من خلال مشاهدة الدخان[١].

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

وفي هذه الآية، استُدلّ على وجود الله تعالى من خلال آيات الآفاق والأنفس.

٢. عين اليقين: وهو عبارة عن الاعتقاد الذي يحصل من خلال مشاهدة المطلوب بعين البصيرة. وهذا الشهود هو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة الحاصلة بالعين الخارجية[٣].

وفي الإشارة إلى هذه المرتبة، جاء في كتاب **التوحيد** للصدوق: «جاء حِبرٌ إلى أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال: ويلك، ما كنت أعبد ربًا لم أره. قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك، لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[٤].

٣. حقّ اليقين: هو الاعتقاد الجازم الذي يحصل من خلال الإحاطة بذات الشيء وحصول الارتباط الحقيقيّ به، بحيث أنّ صاحب اليقين يشاهد بعين البصيرة وفي باطنه انسكاب النور من جانبه. ونتيجة هذه المرتبة هو الفناء بالله والانمحاء في محبّته وعشقه بحيث لا يرى لنفسه بعد ذلك أيّ استقلالٍ أو تحقّق كمثل الذي يدخل النار ويحترق فيها[٥].

وقد جاء في الحديث القدسيّ: «وما يتقرّب إليّ عبدٌ من عبادي بشيءٍ أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت إذًا

---

(١) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٢٣.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ٥٣.

(٣) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٢٤.

(٤) **التوحيد**، مصدر سابق، الصفحة ١٠٩.

(٥) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٢٤.

سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها»[١].

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي يقول الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللّهم إنّي أسألك إيمانًا تباشر به قلبي ويقينًا صادقًا حتّى أعلم أنّه لن يصيبني إلّا ما كتبت ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين».

فهنا يطلب الإمام من الله تعالى الإيمان الواقعيّ الثابت الذي وصل إلى مرتبة اليقين وهو في الواقع آخر حدّ للإيمان لأنّه يقول بعد ذلك: «ويقينًا صادقًا». فاليقين الصادق الذي يطلبه الإمام من الله تعالى هو أعظم عنايةٍ وموهبةٍ إلهيّة. وفي ظلّ اليقين الصادق وحقّ اليقين، يحصل للإنسان اعتقادٌ قلبيّ لن يرى معه أيّة قدرةٍ إلّا قدرة الله المسيطرة على كلّ الوجود وسوف يرى كلّ شيءٍ متعلّقًا بذات الله ويرى نفسه في محضر الله دومًا فيراقب جميع أعماله لكي لا يصدر منه ما يخالف رضا الله تعالى.

وقد ذكرت الروايات درجة اليقين كإحدى أعظم النعم والمواهب الإلهيّة التي تُفاض على الإنسان. وكما نقلنا سابقًا عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: ما قُسِّم بين الناس شيءٌ أقلّ من اليقين، وهو يقصد بذلك أنّ الذين نالوا مرتبة اليقين هم قلّة قليلة.

ويقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يجد عبدٌ طعم الإيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأنّ الضّار النافع هو الله عزّ وجلّ»[٢].

فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من اليقين والمعرفة العالية بحيث يتيقّن أنّ كلّ مصيبةٍ أو خيرٍ قدّر له لا يمكن إلّا أن يصل إليه، وأنّ كلّ ما لم يصل إليه ما كان ليصله، فإنّه سيشعر في أعماقه بالطمأنينة والراحة الخاصّة، ويدرك الطعم اللذيذ للإيمان. فمن وصل إلى هذا المستوى من المعرفة، وإن كان طالبًا للذّات الماديّة والمعنويّة، ولكنّه يعلم أنّ لكلّ شيءٍ حسابًا وكتابًا، وإنّ ما يصل إليه مبنيّ

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٥٨.

على أساس النظام المحدّد. وهكذا فما كلّ ما يتمنّاه يدركه، وما كلّ ما لا يريده فلن يصل إليه. الكثير من الأشياء التي لا يريدها الإنسان تُقدّر له وفق المصلحة الإلهيّة. وعلى العكس، فإنّ الكثير من الأشياء التي نريدها لا تصل إلينا لأنّ المصلحة الإلهيّة توجب أن لا تصل إلينا، مهما سعينا إليها.

أولياء الله والرضا بالتقادير الإلهيّة

وبالوصول إلى اليقين يتجاوز الإنسان طلباته ويحصر نظره بإرادة الله. وعندها لن يصرف وقته في التفكير في أمانيه وآماله التي لا تُدرك، بل يركّز همّته على أداء التكاليف وتحمّل المسؤوليّات الإلهيّة. فتفكيره منحصرٌ فيما يريده الله وهو راضٍ بكلّ ما يقدّره له. فأهل اليقين، إضافةً إلى أنّهم يعلمون بأنّ كلّ ما قدّر لهم فسوف يصل إليهم، يعلمون أيضًا أنّ خيرهم وصلاحهم في هذه التقادير الإلهيّة. فهم مطّلعون على النظام الأحسن ويعلمون أنّ كلّ ما يقدّره الله فهو الأفضل. وأنّ ذلك التقدير الإلهيّ هو جزء من هذا النظام الكليّ للعالم الذي هو أفضل نظام. وأنّ ما يحدث فيه بالالتفات إلى الأسباب والشروط والظروف الخاصّة به لا يمكن أن يحدث بطريقةٍ أفضل من ذلك. أجل إنّ الذين أدركوا هذه المعرفة بالإضافة إلى يقينهم بوصول ما يريده الله إليهم، فهم راضون أيضًا ولا يحيط بهم القلق: فإذا حصلت لهم مصيبة رضوا واستقبلوها بوجهٍ بشوش، لأنّهم يعلمون أنّ خيرهم فيما يحدث لهم. فهذا هو مقام الرضا.

مقام الرضا متحقّق عند الذين يعتقدون أنّ جميع التقادير الإلهيّة هي لنفع العباد. وفي هذا المعنى ورد الكثير من الروايات، منها ما عن الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عزّ وجلّ له قضاءً إلّا كان خيرًا له وإن قرض بالمقاريض كان خيرًا له وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيرًا له»[١].

فالإمام عَلَيهِ السَّلَامُ يخبرنا بأنّ كلّ التقادير المعيّنة من الله هي لخير المؤمن، سواءٌ كانت بظاهرها مرضيّةً عنده أم لا. فالحادثة المرّة التي تقع له إمّا أن تكون لصلاح دنياه أو لصلاح آخرته. فالذي يحظى بمثل هذه المعرفة يرضى بكلّ

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٦٢.

ما يحدث له، ولأنّه لم يقصّر في مقام العبوديّة وقد أدّى وظيفته، فلا يصيبه الاضطراب، ولا يخشى أن ينقص رزقه أو يزيد ولا يخاف ممّا سيحدث وقد أوكل أموره إلى الله، واهتمّ بطاعته وعبادته وهو يعلم من أعماق قلبه أنّ كلّ ما يحدث، هو لخيره. وهذا هو ما يريده في الحقيقة.

وهو ينظر بتفاؤل إلى جميع الحوادث، وهو راضٍ بالمصائب والمشكلات: فلو أُدخل السجن لن يشكو أو ييأس. وبحسب ما ورد في الروايات، لو قرّض بدنه بالمقاريض فإنه سيكون مسرورًا لأنّه يرى خيره في ذلك. لقد شاهدنا في أيّام الثورة والحرب أشخاصًا كانوا يستقبلون كلّ ما يصيبهم بكلّ بشاشةٍ، وكان هناك خلف الجبهات آباءٌ وأمّهات وإخوان وأخوات وأزواج يستقبلون شهيدهم المقطّع إربًا إربًا بوجهٍ مبتسم، وهم يشكرون الله تعالى على هذا الشرف الذي أضحى نصيبهم!

وما أسهل أن ينطق الإنسان بألفاظ الرضا عن التقديرات الإلهيّة والمصائب التي تحدث، وما أصعب أن يكون متحقّقًا بذلك. فإدراك هذا المعنى صعبٌ جدًّا وكيف لنا أن نفهم حال بعض الخواصّ من عباد الله الذين وصلوا إلى ذلك المقام الذي لا يضطربون فيه أمام كلّ ما يحدث لهم! فلم يعد يهمّهم ما قد يحدث غدًا، أو ما سينالون من رزقٍ، أم يحرمون منه. فإذا ذهب أعزّاؤهم إلى الجبهات، لن يضطربوا ويقلقوا من فكرة استشهادهم، وإذا التحقوا بركب سالكي طريق الفداء والتضحية في الجبهات، فإنّهم لن يكونوا قلقين على عيالهم وبيوتهم، لأنّ الذي يضع روحه على كفّه ويستقبل الشهادة لا يمكن أن يكون بصدد التفكير ببيته وعياله. وما أروع هؤلاء الذين شاهدوا جمال المحبوب، ورجعوا إلى أهلهم وديارهم سالمين، أن يحافظوا على تلك الروحيّات والخصائص المعنويّة العالية ويفكّروا دومًا في نقل دروس الفداء والرضا بقضاء الله والتسليم له إلى غيرهم.

ويقول المرحوم الملّا مهدي النراقي: إنّ الرضا بقضاء الله أعلى مقامات الدين وأشرف منازل المقرّبين وباب الله الأعظم. فمن دخل من هذا الباب فإنّه يصل إلى الجنّة.

إنّ لمقام الرضا من الأهميّة حيث ذكر النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّ الله تعالى يهب لطائفةٍ من أمّته أجنحةً يطيرون بها من قبورهم إلى الجنّة ليتنعّموا كما يحبّون في ذلك المقام المنيع. فتسألهم الملائكة: هل شاهدتم مواقف الحساب، فيقولون

لم نُدْعَ للحساب. فيسألونهم: هل عبرتم الصراط؟ فيقولون: نحن لم نطّلع على الصراط. فيسألونهم: هل شاهدتم جهنّم؟ فيقولون: لم نر نارًا ولا عذابًا. فتسألهم الملائكة: أيّة أمّةٍ أنتم؟ فيقولون: نحن من أمّة محمّد صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ.

فتقسم الملائكة عليهم لتعرف ماذا فعلوا في الدنيا وماذا حوت قلوبهم؟ فيقولون: لقد أعطانا الله خصلتَين بفضلهما وبفضل رحمته وصلنا إلى هذه المرتبة: «كنّا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قُسم لنا»[١].

ويقول الله تعالى بشأن من وصل إلى مقام الرضا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٢].

تبيّن هذه الآية الشريفة مقام الرضا والطمأنينة التي تؤدّي إلى إزالة كلّ أنواع الاضطراب والقلق وتشويش الخاطر من وجود الإنسان. ومن خصائص هذا المقام هو أن يكون الإنسان راضيًا ومرضيًّا في نفس الوقت وهو ما بيّنته الآية التالية: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٣].

وفي قوله تعالى راضيةً ومرضيّةً، يقول العلّامة الطباطبائيّ في ذيل هذه الآية: «وحيث وصف الله تعالى النفس المطمئنّة بالراضية والمرضيّة وذلك لأنّها من هذه الجهة كانت تطلب الطمأنينة وسكينة القلب من الله تعالى وحيث يكون الإنسان راضيًا عن ربّه ولا يعترض أدنى اعتراض على القضاء والقدر الذي يحدث له، سواءٌ كان ذلك القضاء تكوينيًّا أو كان مكتوبًا بقلم التشريع. فما من حادثةٍ مستفزّةٍ تغضبه وما من معصيةٍ لتحرف قلبه. وحين يرضى العبد عن ربّه فإنّ الله تعالى حتمًا سيرضى عنه. لأنّه ما من عاملٍ يمكن أن يغضبه إلّا خلع العبد لثوب العبوديّة. وحين يخطو العبد على طريق العبوديّة لله، فإنّه يستوجب رضاه. لهذا، أورد الله تعالى كلمة الراضية والمرضيّة»[٤].

فالطمأنينة والسكينة الكاملة إنّما تحصل للإنسان حين يرضى عن الله. والرضا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٠٠، الصفحة ٢٦.

(٢) سورة **الفجر**، الآيتان ٢٧ و٢٨.

(٣) سورة **المائدة**، الآية ١١٩.

(٤) راجع: **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٢٠، الصفحة ٣٢٣.

عن الآخر هو بأن يكون الإنسان مستحسنًا لصفاته وأفعاله. والموحّد حين يدرك أنّ جميع شؤون هذا العالم واقعةٌ تحت تدبير الله، وحين يصل إلى مقام الرضا، فلن ينزعج من أيّة حادثةٍ، لأنّه يراها من الله ويدرك ارتباطها بذات الحقّ المقدّسة. إنّه يعلم أنّه ما من شيءٍ يحدث بدون إذنه وإرادته تعالى. وبالإضافة إلى عدم اضطرابه، فهو يشعر بالرضى من جهة أنّ تلك الحادثة قد وقعت على أساس إرادة الله ومشيئته.

وفي الواقع، إنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر، لأنّ الصبر قد يجتمع مع عدم الرضا: فقد يعضّ الإنسان على آلامه ويصبر وتكون تلك الحادثة بالنسبة له مرّةً. ولكنّ الذي وصل إلى مقام الرضا، فإنّه لن يرى الصعاب والمرارات لكي يصبر عليها. فكلّ شيءٍ بالنسبة له حلوٌ وكلّ ما يحدث له مرضيٌ، لا يقلقه ولا يزعجه شيءٌ.

ولا شكّ بأنّ تصوّر هذا المقام صعبٌ جدًّا بالنسبة لنا فكيف بالوصول إليه! كيف يمكن للإنسان أن يكون راضيًا على صحته، وإذا مرض فهو راضٍ أيضًا! وإذا كان غنيًّا يكون مسرورًا حتّى إذا افتقر لم ينزعج بل يرضى. وأعلى من ذلك أولئك الذين وصلوا إلى مقام الرضا وهم يجمعون بين تلك الحالة النفسانيّة المعنويّة والرضا الباطنيّ والأعمال التي بظاهرها لا تنسجم مع الرضا.

فمن المسلّم أنّ أئمّتنا الأطهار ومنهم الإمام الحسين عَلَيهِالسَّلَامُ قد كانوا في أعلى مراتب مقام الرضا؛ ونحن حين نطّلع على سيرتهم، نجد أنّهم كانوا راضين بكلّ ما يصل إليهم من الله. وفي نفس الوقت كانوا يحملون السيف ويجاهدون الأعداء حتّى النفس الأخير. وهو ما يدلّ على أنّهم لم يكونوا راضين عن حكومة بني أميّة. فكيف يمكن أن يكون الإنسان راضيًا بحادثة من جهة أنّها من الله وغير راضٍ في نفس الوقت؟ فالتمييز بين هذَين صعبٌ ويجب أن يكون الإنسان في المراحل العالية للتكامل لكي يقدر على التفكيك بين المراتب والحيثيات. وبعبارةٍ أخرى، لا بدّ أن يكون لنفس الإنسان بحسب المراتب الطوليّة درجاتٌ متعدّدة بحيث يقيس في إحدى المراتب تلك الحوادث مع فاعلها القريب لكي يخرج عن الرضا من تصرّف ذلك الفاعل. فهو غير راضٍ عن المعاصي التي يرتكبها بنو أميّة والظلم الذي يفعلونه والخيانات التي تصدر منهم، ولهذا فإنّه يحمل عليهم ويهاجمهم. هذا في

نفس الوقت الذي يكون فيه وبحسب المراتب الأخرى للنفس راضيًا مطمئنًّا.

لأجل تقريب الأمر إلى الذهن، نذكر مثالًا: افرضوا أنّ شخصًا أصيب بصداع فوصف له الطبيب دواءً مرًّا. وحيث إنّ هذا المصاب يبتغي السلامة، فإنّه سيتناول الدواء، ومن هذه الجهة سيكون راضيًا. ولكنّه ينزعج من مرارة الدواء من جهةٍ أخرى. ولو كان ممّن أصاب الالتهاب يده، بحيث أنّها إذا لم تُقطع سرى الالتهاب إلى سائر بدنه وهدّد حياته. فعندها سيرضى أيضًا بقطع يده أو رجله، لأنّه بذلك يحفظ نفسه. ولن يكون هذا العمل بالنسبة له غير مرضيٍّ. ولكنّه سينزعج ويسخط بسبب أنّ يده ستُقطع وخصوصًا بالتوجّه إلى الآلام والعوارض التي ستحدث بعد العمليّة الجراحيّة. وفي الواقع، إنّ وجود هاتَين الخاصيّتَين والحالتَين المختلفتَين في الإنسان الواحد أمرٌ عجيب: بحيث يكون في وقتٍ واحد بالنسبة لحادثةٍ واحدة بحالتَين مختلفتَين، ولا شكّ بأنّ وجود هاتَين الحالتَين إنّما يكون مختلفًا بالمقارنة مع العاملَين المختلفَين: فحين يلتفت إلى أنّ قطع يده سيؤدّي إلى نجاته فهو يرضى. وحين يلتفت إلى خسارة يده والآلام التي ستنجم عنها فهو ينزعج ويسخط.

وبالتوجّه إلى ذلك المثال، نقول: إنّ الذي وصلت معرفته إلى حدّ الكمال، يعلم أنّ جميع حوادث العالم لا تقع بدون إرادة الله. لهذا، يكون مسرورًا من جهة أنّ تلك الحوادث قد وقعت ضمن إرادة الله. أمّا من جهة أنّها حدثت بسبب ظالم، وهي تحكي عن طغيانه ونقصه الوجوديّ فيكون منزعجًا، فلماذا يكون الإنسان جاهلًا وعاصيًا إلى هذا الحد بحيث يتجرّأ على ارتكاب مثل هذا الظلم!

فمن الممكن إذن أن يكون للإنسان رؤيتان بالنسبة لحادثةٍ واحدة، ويكون له موقفٌ يتناسب مع كلّ رؤية.

فيجب أن يكون المؤمن راضيًا بالحوادث من جهة أنّها صادرةٌ وفق إرادة الله ومشيئته، ذلك لأنّه يعلم أنّ الله لا يفعل شيئًا بدون حكمة. والنظام الأحسن الذي أوجده تعالى يقتضي أن تقع الحوادث في موقعها وفي ظروفها المناسبة، بالشكل الذي يجب أن تتحقّق فيه. فحين يعلم أنّ الله حكيمٌ لا يفعل شيئًا عبثًا يدرك أنّ كلّ ما يحدث في هذا العالم إنّما يكون من جهة نظامه المنسجم والكامل الذي يعني فتح باب التكامل على موجوداته ومنهم البشر الذين ينبغي أن يقتربوا من الله في ظلّ تلك الحوادث المختلفة، ويصلوا إلى كمالاتهم التي لا تقارن بها تلك

اللذّات الدنيويّة. ففي المجموع، يجب أن يكون راضيًا عن كلّ ما يحدث. بل إنّه بناءً على هذه النظرة لن ينزعج من مقتل الأنبياء والأئمّة، لأنّه يعلم أنّهم بشهادتهم قد وصلوا إلى الكمال الأعلى، وبشهادتهم حفظوا الدين والرسالة.

لقد نال سيّد الشهداء عَلَيهِ‌السَّلَامُ بشهادته أعلى المقامات، وكانت شهادته سببًا لبقاء الإسلام وحياته، وأدّت كذلك إلى أن يصل الكثيرون في ظلّ معرفته وذكره إلى الكمالات المعنويّة ويتعرّفوا من جديد على مسير الحياة الصحيح ليدركوا سعادة الدنيا والآخرة. فلو لم يستشهد عَلَيهِ‌السَّلَامُ لما وصل إلى ذلك المقام المنيع ولما كان للإسلام هذا الرواج والانتشار ولما كنّا نعرف أئمّتنا الحقيقيّين ولما كنّا أهلًا لنيل شفاعتهم. فمن هذه الجهة، يجب أن نكون راضين ومسرورين من شهادتهم التي هي تقديرٌ إلهيّ وعاملٌ أساسيّ في سلسلة هذا النظام الأحسن والأصلح. أمّا الحزن والغمّ فمن جهة العاطفة التي تنبع من نفس الإنسان، لأنّ الإنسان موجودٌ عاطفيّ وعاطفته تقتضي أن يحزن لما يصيب محبوبه من آلام.

أجل، إنّ الضعفاء لا يقدرون على الفصل بين هذه الجهات والحيثيّات، فيجعلونها بعرض بعضها البعض ولهذا فإنّهم يعيشون التعارض بين جهاتهم العقلانيّة والعاطفيّة، ولا يمكنهم أن يجمعوا بين الأمرَين. أمّا أولئك الذين تكاملت نفوسهم، فإنّهم يفصلون بين الحيثيّات، وهذا الفصل يؤدّي إلى ظهور تلك الحالات المختلفة حتّى بالنسبة لحادثةٍ واحدةٍ في زمانٍ واحد. ولا شكّ بأنّ هذا الأمر يرتبط بالمراتب المختلفة للنفس، التي تكون مسرورةً بحسب إحدى مراتبها، وفي مرتبةٍ أخرى تكون حزينةً.

أجل، إنّ الذي نال مقام الرضا فهو يرحّب بكل الأحداث التي تواجهه سواء كانت مفرحةً أم محزنةً، فهو فرح بها لأنها قد تعلّق بها التقدير الإلهي.

نظرة إلى مقام الصبر وأهميّته

وعلى كلّ حال، فإنّ مقام الرضا والمعرفة واليقين هو من النعم الإلهيّة والمواهب العظيمة التي يكون فيها الإنسان راضيًا عن جميع التقديرات الإلهيّة، لأنّه يعلم أنّ الله يريد خيره وصلاحه. ولكن لا يصل أيّ إنسان إلى هذا المقام، ولا تحصل له هذه المعرفة بسهولة. فلأجل بلوغ المقام، يحتاج الأمر إلى الكثير من مجاهدة النفس

والسعي الحثيث. فإذا لم يصل إلى هذا المقام، ففي الجملة يجب أن يعلم أنّ جميع التقديرات الإلهيّة دائرةٌ مدار الخير. وتحمّل المرارات والشدائد وإن كان أمرًا مرًّا وصعبًا، ولكن يجب أن يسعى لكي يتصبّر ويزيّن نفسه بصفة الصبر. فالمؤمن الذي لم يصل إلى مقام الرضا، ولكنّه يصبر عند الشدائد، فهو وإن كان لا يحبّ وقوع تلك الحوادث المرّة ولكنّه يعمل بتكليفه ولا يقصّر في تحمّل مسؤوليّاته: فإذا كان الأمر يقتضي الجهاد ومواجهة الأعداء، فإنّه ينهض لأداء هذه الفريضة الإلهيّة، وإن لم يكن راضيًا عمّا يحدث فيها، ولكنّه يتحمل كلّ ذلك ويصبر على المكروه ويجبر نفسه على المضيّ قدمًا. فبالنسبة لمن لم يبلغ مقام الرضا، يأتي مقام الصبر بعد ذلك حيث يحقّق له مرتبةً من الكمال وإن كانت نازلةً.

إنّ الصبر من المفاهيم الأخلاقيّة التي تمّ التأكيد عليها كثيرًا في الأخلاق الإسلاميّة. وما يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمة هو أنّه حالة نفسانيّة تحدث لأفراد معيّنين عند بروز الشدائد والمصائب والصعاب: والناس متفاوتون في حالاتهم عند مواجهة الحوادث المرّة. فمنهم من يجزع ويفزع عند بداية الحادثة، وتترك حالة الاضطراب هذه أثرًا في حياته وتمنعه من النشاط والعمل، فهؤلاء فاقدون للصبر والتحمّل. وفي المقابل، يتمالك البعض أنفسهم عند الشدائد ويحفظون هدوءهم، فلا توجد تلك الحوادث المُرّة في روحيّتهم تغييرًا بارزًا، فهؤلاء صبورون. وهذه الطائفة وإن لم تكن راضيةً من أعماق قلبها عن تلك الحوادث المرّة والصعبة، ولكنّها تتحمّل وتظهر التجلّد. فهم لا يتقبّلون الحوادث المرّة ولا تريد قلوبهم الذهاب إلى الجبهة والاستشهاد، ولا يحبّون أن يمرّوا على الألغام، ولكن إذا كان التكليف يقتضي الذهاب إلى الجبهة وتحمّل المخاطر فإنّهم لا يتراجعون. فالآباء والأمّهات لا يحبّون أن يذهب أبناؤهم إلى الجبهة، ولكن حين يأتي التكليف فإنّهم لا يقفون مانعًا ويتصبّرون ويعضّون على نواجذهم، ويعلمون أنّ الإنسان إنّما يُصاغ بالصبر وتحمّل المشاق والمكاره. ومن الأفضل أن يوصل بنفسه الحمل الملقى على عاتقه إلى المقصد والغاية، وينظّم حياته على هذا الأساس ليؤمّن سعادته الأخرويّة.

وأحيانًا تطرح بعض التفاسير الخاطئة للصبر، فيُتوهّم أنّ الصبر على المكاره يعني قبول الذلّ وعدم الاكتراث لما يجري من حوادث ومظالم بحقّ الآخرين. إنّ هذا التفسير والتصوّر خطأٌ وغريب عن مفهوم الصبر. فالصبر في الثقافة الإسلاميّة

يعني تحمّل الصعاب ومقاومة تلك العوامل التي تجرّ الإنسان نحو الباطل، أو تجرّه نحو ما يحول بينه وبين الكمال. وقد يكون العامل داخليًّا وأحيانًا خارجيًّا. وسواءٌ كان ذلك العامل داعيًا الإنسان للتحرّك بحيث يكون التحرّك باطلًا، أم داعيًا إيّاه إلى السكون بحيث يكون السكون باطلًا. فحين يكون الإنسان جائعًا مثلًا، ويحتاج إلى الطعام ثمّ لا يجد بين يدَيه من الطعام إلّا الحرام أو الشبهة، فهنا تأتي الغريزة لتدعوه إلى تناول هذا الطعام، ولكنّ هذا التناول يكون باطلًا فالمقاومة لتلك الغريزة هنا هي الصبر.

وفي الجبهة، قد يهجم العدوّ، ويصبّ حممه في كلّ مكان، فتحدّثنا أنفسنا بالفرار من الميدان. ولكنّ الله تعالى يقول لنا قاوموا حتّى ينتصر الإسلام. فالمقاومة في مقابل هذا العامل النفسانيّ الذي يدعو الإنسان إلى الفرار هي الصبر.

وأحيانًا يكون العامل الذي يدعو الإنسان إلى الباطل خارجيًّا. وذلك العامل الخارجيّ قد يتمّ بواسطة الناس، وأحيانًا بواسطة غير الناس ممّا يندرج تحت التقديرات الإلهيّة: كوقوع الزلزال وتهاوي أسقف البيوت. فإذا حفظنا هدوءنا مقابل هذه الحادثة، وعملنا بتكليفنا، نكون قد صبرنا. فالقاسم المشترك بين أنواع الصبر المذكورة في الروايات (الصبر على المصيبة، الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية) هو ضبط النفس وعدم الإقدام على ما يخالف الحقّ ومقاومة العوامل التي تدعو الإنسان إلى الباطل.

وتتّضح أهميّة الصبر حين نتعرّف على آثاره في حياة الإنسان وفي تكامله. فإذا نظرنا إلى وسائل تحقّق الكمال الإنسانيّ لوجدناها مندرجةً تحت أعماله الاختياريّة، أي حين يواجه الدوافع المتضادّة ثمّ يختار منها ما يسوقه نحو الكمال. فهنا يتجلّى جوهر الإنسانيّة والكمال حيث يختار الصابر هنا ما يرضي الله تعالى. فالتكامل الإنسانيّ يتحقّق في ميادين مواجهة الدوافع والميول المتضادّة. ففي مثل هذه الميادين، يجب على الإنسان أن يتجاوز أهواءه ويختار ما يرضي الله تعالى. فإذا كانت الدوافع الإيمانيّة والفطريّة أقوى وأخذت بيده إلى الحقّ، فإنّه يصل إلى كماله اللائق له. أمّا إذا قويت عليه العوامل النفسانيّة والشيطانيّة فإنّه سيزلّ ويسقط في معركة الميول المتضادّة ويتّجه نحو الانحطاط. وليس هذا في الواقع إلّا المعنى الدقيق للامتحان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾[١].

أجل، إنّنا نواجه أثناء مسير تكاملنا تلك العوامل التي تدعونا إلى الجهات المختلفة (المتضادّة): العوامل العقلانيّة، والملكوتيّة والإلهيّة تدعونا إلى جهةٍ، والعوامل النفسانيّة والحيوانيّة والشيطانيّة تدعونا إلى اتّجاهٍ آخر. فالانتخاب الصحيح هو أن نقاوم تلك العوامل التي تدعونا إلى الباطل. وفي الواقع، إذا أردنا أن نجعل حياتنا سائرةً في تكاملٍ مستمرّ، يجب أن نقرنها بالصبر.

وفي حديثٍ أن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله سأل جبرائيل عن الصبر، فقال له جبرائيل: «تصبر في الضرّاء كما تصبر في السرّاء، وفي الفاقة كما تصبر في الغنى، وفي البلاء كما تصبر في العافية، فلا يشكو حاله عند الخلق بما يصيب من البلاء»[٢].

أجل، فإنّ الذين لم يصلوا إلى مقام اليقين الذي يدركون معه بوضوح أنّ كلّ ما يحدث هو خيرٌ ولا يستطيعون تقبّل المصاعب والمصائب بالبشاشة، يجب أن يتصبّروا ويدعوا ربّهم أن يحقّق لهم أمانيّهم ويكونوا ثابتين في مقابل الحوادث المؤلمة التي تنزل بهم. وكما قلنا فإنّ من وصل إلى مقام الرضا لا ينزعج ولا يضطرب من أيّة حادثةٍ أو مصيبة، بل يكون مسرورًا شاكرًا لربّه. فإذا استشهد ابنه، فهو يقول: الحمد لله، تمنّيت لو أنّ لي ولدًا آخر لأرسله إلى الجبهات ويستشهد. فالراضي لا ينزعج، بل يفتخر ويشكر. ولكن للأسف فإنّ أكثر الناس لم يصلوا إلى هذا المستوى، والله تعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٣].

فالذين لم يصلوا إلى مقام الرضا الذي يعني عدم صدور الاعتراض منهم عند وقوع المصائب وهم من أهل الشكر، إذا صبروا في الحوادث المريرة، فإنّ الله تعالى سيؤتيهم أجر الصابرين. يصبرون ولا يولولون ولا يجزعون، ويضبطون أنفسهم على أمل أن يثيبهم الله تعالى. هذا وإن كانت تلك البلاءات والمصائب مُرّةً في ذائقتهم، ولكنّهم يتحمّلونها كالذي يتناول الدواء المرّ ولا يلتذّ منه، ولكنّه يعلم أنّه سوف ينال

---

(١) سورة **الملك**، الآيتان ١ و٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٢٠.

(٣) سورة **سبأ**، الآية ١٣.

الشفاء بتناوله، أو كالذي يضطرّ إلى قطع أحد أعضائه ويرى الأمر صعبًا جدًّا، لكنّه يسلّم للقضاء ويستعدّ لهذه العمليّة الجراحيّة من أجل الحفاظ على حياته.

دور تقديم إرادة الله على إرادة الذات

وبالتوجّه إلى ما بيّنّاه، نجد أنّ بعض الآيات القرآنيّة والروايات تريد أن تربّي وتهذّب أولئك الذين ما زال في وجودهم بعض الرغبات والأماني، ولم يصلوا إلى مقام الرضا والتسليم فتعدهم أنّهم إذا اتّقوا ربّهم، فإنّه تعالى سيؤمّن لهم حاجاتهم الدنيويّة. وفي هذا المجال، يقول النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**يا أبا ذرّ؛ يقول الله جلّ ثناؤه: وعزّتي وجلالي لا يؤثر عبدي هواي على هواه إلّا جعلت غناه في نفسه وهمومه في آخرته**».

نجد أنّ الله تعالى يُقسم لأجل تأكيد الأمر، لأنّ تقبّل مثل هذا الوعد أمرٌ صعبٌ بالنسبة لعامّة الناس، فالقسم هنا لكي يؤمنوا ويصدّقوا. والله يقول إنّ من قدّم هواي وإرادتي على إرادته حين يتعارضان، فإنّني أضمن له عدّة أمور (أمّا إذا كانت إرادة العبد متّفقةً مع إرادة المولى فإنّ إرادته ستتحقّق ويكون بذلك محقّقًا لإرادة الله تعالى أيضًا، فالحديث هنا حول تعارض الإرادتَين) أوّلها: أن يُشعر قلبه الغنى عن الآخرين. ولا شكّ بأنّ الإنسان سيبقى محتاجًا دومًا إلى الله. وهذا الاحتياج كامنٌ في أصل وجوده، وأنّ منتهى عزّ الإنسان وشرفه أن يدرك فقره إلى الله، ويعلم مدى احتياجه إليه ولا يرى نفسه محتاجًا إلى من سواه.

فالإنسان الذي يعتقد بأنّ حاجاته تتحقّق بواسطة الآخرين سيرى نفسه محتاجًا إليهم. وهذا الشعور بالحاجة إلى الناس يذلّ الإنسان: فبمقدار ما يرى هذا الشخص نفسه محتاجًا إلى الآخرين ينبغي أن يخضع لهم! وأحيانًا يكون بصورة التملّق وتارةً بصورة الطلب والالتماس. وعندها سيحقّر نفسه ويصغّرها من أجل تأمين طلباته. أمّا إذا جعل ارتباطه بالله أقوى وقدّم رضاه وإرادته تعالى على كلّ شيء، فإنّ الله سيوجد فيه روحيّة الغنى عن الناس وسوف يؤمّن له الوسائل اللازمة من أجل الوصول إلى أهدافه، وهي بالطبع في مستوى الأدوات لبلوغ المقاصد والأهداف. وعلى الإنسان أن يستخدم هذه الوسائل ويشكر الله تعالى على ذلك. وإذا كان بعض الناس من جملة تلك الوسائل والأدوات الموصلة إلى مقاصده الدنيويّة، فيجب أن يشكرهم أيضًا.

فهو وإن استفاد من تلك الوسائل، لكنّه يرى نفسه محتاجًا إلى الله فقط ولا يحتاج إلى غيره.

إنّ الشعور بالغنى عن الغير نعمةٌ كبرى تجعل الإنسان صاحب شخصيّة عزيزة. ولا ينبغي أن يُتوهّم ممّا بيّنا أنّ الإنسان لا ينبغي أن يتواضع للآخرين. فعليه أن يتواضع لله ويتواضع لخلقه. وأولئك الذين لم يكن لهم نصيبٌ من المعارف الإسلاميّة يتصوّرون أنّ الإسلام لا يريدنا أن نشعر بالذلّة والحقارة حتّى أمام الله تعالى!

فهؤلاء لم يعرفوا الإسلام وإنّما حملوا عنه ذلك التصوّر الباطل. فأصل الإسلام هو العبوديّة، وغاية فخر الإنسان أن يتذلّل أمام الله وشعوره بالصَغار أمام الله وتعفير وجهه وخدّه في التراب بين يدَيه.

إنّ منتهى كمال الإنسان في أن يرى نفسه ذليلًا مقابل ذات الحقّ تعالى. وحيث إنّ الله تعالى يريد للإنسان العلوّ والكمال، فإنّه يطلب منه أن يشعر بالذلّة بين يدَيه وأن يرفع يد الطلب والاحتياج إليه، لأنّ تكامله الحقيقيّ كامن في ظلّ العبوديّة لله. وفي المقابل، أن لا يشعر بالصَّغار والذلّة في مقابل الآخرين ولا يرى نفسه محتاجًا إليهم. لأنّه إذا رأى نفسه محتاجًا إلى الآخرين، فإنّه شاء أم أبى سيشعر بالذلّة أمامهم بمقدار إحساسه بالحاجة إليهم.

فبالمقدار الذي يشعر الإنسان فيه أنّ أعماله وأموره تتحقّق على يد الغير، فإنّه سيرى نفسه صغيرًا في مقابلهم، وإن لم يعبّر عن ذلك باللسان، فإنّه يكون شاعرًا بذلك في قلبه. أمّا إذا أوكل المؤمن أموره ببركة الإيمان إلى الله ورأى نفسه محتاجًا إليه دون سواه، فإنّه لن يشعر بالحاجة إلى الآخرين. وإن كان من الممكن أن يرفع الله تعالى حاجة عبده بواسطة عبدٍ آخر. ويأمر الإنسان أن يشكره. ولكنّه في المقابل لن يرى نفسه محتاجًا إلى غير الله. وفيما جرى على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمر النمرود بإلقائه في النار التي لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها من شدّة حرّها لدرجة أن اضطرّوا إلى رمي إبراهيم من بعيد بالمنجنيق وفي تلك الحالة الصعبة الشديدة التي كان فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ داخل النار، جاء جبرائيل لإعانته وقال له: «هل لك حاجة؟»

فأجابه إبراهيم: «أمّا إليك فلا»(١).

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٢، الصفحة ٣٥.

إبراهيم عَلَيهِالسَّلَامُ قال إنّني محتاج وأريد العون ولكن ليس من غير الله. فالله تعالى وحده المطّلع على ما في نفسي وعلى حاجتي وسوف يفعل ما فيه صلاحي. وبعد أن نجح إبراهيم عَلَيهِالسَّلَامُ في هذا الامتحان الصعب الشديد أوصله الله إلى مقام الخلّة فاتّخذه خليله!

وبالطبع، فإنّ الوصول إلى مقام الغنى عن الناس ليس عملًا سهلًا وإنّما يحصل بفضل عناية الله ولطفه. ولكنّ الله تعالى قد جعل مقدّمات الوصول إليه في اختيار الإنسان وتحت تصرّفه. ومن تلك المقدّمات، كما مرّ، أن يقدّم الإنسان إرادة الله حين دوران الأمر بين إرادته وإرادة الله. وهناك في الرتبة الأولى سيشعر في قرارة نفسه بالاستغناء عن الناس.

الثاني: أن لا يكون همّه في أمور دنياه، فيكل أمور دنياه في خيرها وصلاحها إلى الله. فلا يهمّه إلّا آخرته. فيستغرق في التفكير في عاقبته وفي البحث عن وظيفته الأخرويّة. فالهمّ الدائم له هو العالم الآخر.

«وضمّنت السموات والأرض رزقه وكففت عليه ضيعته وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر».

الثالث: أنّ من قدّم إرادة الله على هواه، فعلى الله أن يؤمّن حاجاته ويضمن السموات والأرض رزقه ويأمرها أن توفّرها له.

الرابع: أن يؤمّن الله له تجارته وكسبه في مقابل الآفات والخسائر.

فإنّ كلّ إنسانٍ يختار عملًا من أجل استمرار حياته وتحصيل رزقه. ومن الطبيعيّ أنّ التجارة والزراعة وأمثالها ليست مضمونةً للبقاء والربح: فمن أين له أن يضمن بقاء بستانه وزراعته وماشيته؟ وكيف له أن يقف أمام الآفات والأضرار التي يمكن أن تحلّ به؟ فالذي يقدّم إرادة الله على إرادته يضمن الله له عمله وتجارته وصناعته وماشيته ويحفظها من الخسائر والآفات حتّى تعطي ثمرتها المتوقّعة.

الخامس: أن يعينه الله تعالى في كلّ تجارةٍ ومعاملة حتّى لا تحلّ به خسارة. أولئك الذين يفكّرون بشكلٍ دائم بالدنيا، يسعون للتعامل والتجارة مع من يضمن لهم المزيد من الربح. فيختارون التجارة التي فيها الربح الأوفر. وهم دومًا في حالةٍ من القلق خشية أن لا يربحوا في تجارتهم. والله يقول إنّ من قدّم إرادتي على هواه

فإنّني سأكون له من وراء تجارة كلّ تاجر لكي ينال المزيد من الربح. وسوف أعينه عند كلّ معاملةٍ: فبدل أن يدبّر أموره بنفسه ويخطّط لها ويفتّش عمّن يتعامل معه لكي يحصل على الربح، فإنّني سأحفظه وأعينه بكلّ تجارة وأضمن له الربح.

ثمّ يقول النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ في الإشارة إلى أنّ المؤمن ينبغي أن يكون على درجةٍ من اليقين بحيث يزيل كلّ أنواع القلق والهمّ من رزقه ويعلم بأنّ ما قُدّر له من الله سيصله: «**يا أبا ذرّ؛ لو أنّ ابن آدم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت**».

إنّ الإنسان لا يحبّ الموت بل يفرّ منه ولكنّ الموت سيدركه في النهاية. وكذلك أمر رزقه فإنّه حتّى لو فرّ منه فإنّه سيصل إليه. فكلّ ما قُدّر له لا مفرّ منه. ولو سعى الإنسان كثيرًا، فليس معلومًا أنّ رزقه سيزداد. فكم من الأشخاص الذين سعوا كثيرًا ولكنّهم ماتوا جوعًا. وفي هذا المجال، يُنقل الكثير من القصص العجيبة حول أولئك الأثرياء الذين صادفوا في حياتهم تلك الحوادث التي اضطرّتهم في النهاية إلى أن يمضغوا أحذيتهم من شدّة الجوع! ومن جانبٍ آخر، هناك من الأشخاص من كان تحرّكهم بسيطًا وأعمالهم يسيرةً، ولكنّ الله تعالى أفاض عليهم بالثروات الكبيرة وأوصلهم إلى ما قُدّر لهم.

فلا ينبغي للإنسان أن يقصّر في أداء وظيفته وسعيه في معاشه، ولا ينبغي أن يكسل بذريعة الاعتقاد بالقضاء والقدر. لأنّ الله تعالى يكره العبد الكسول. ولكنّه إذا خيّر بين تحصيل العلم وعملٍ آخر، وكان عليه أن يختار بينهما، فإذا كان يمتلك المعرفة الكافية فإنّ محدودية الدخل الماليّ لن تكون سببًا لعدم سعيه نحو العلم. فإنّ إيمانه بأنّ الله قد ضمن له رزقه سيحمله على تحصيل العلم براحة بال وبطمأنينة بأنّ رزقه سيصل إليه وأنّه لن يحرم ممّا قُدّر له.

الدرس الثامن والثلاثون
معرفة الله ونظامه الحكيم

- ❖ الإنسان والارتباط بالله
- ❖ ضرورة التوجّه إلى الله في السرّاء والضرّاء
- ❖ ضرورة الطلب والاستعانة بالله
- ❖ آثار المعرفة واليقين بتدبير الله الحكيم
- ❖ دور الشدائد في مسيرة الإنسان التكامليّة
- ❖ القناعة والغنى عن الخلق

«يا أبا ذرّ، ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله عزّ وجلّ بهنّ؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك. تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة وإذا سألت فاسأل الله عزّ وجلّ وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فلو أنّ الخلق كلّهم جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يُكتب لك ما قدروا عليه ولو جهدوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك ما قدروا عليه.

فإن استطعت أن تعمل لله عزّ وجلّ بالرّضا واليقين فافعل وإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا وإنّ النّصر مع الصّبر والفرج مع الكرب وإنّ مع العسر يسرًا.

يا أبا ذرّ، استغن بغنى الله يغنك الله. فقلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: غداءة يوم وعشاءة ليلة، فمن قنع بما رزقه الله فهو أغنى الناس».

الإنسان والارتباط بالله

يدور هذا القسم من مواعظ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حول الارتباط بالله والتوجّه إليه في الشدائد والاستعانة به أيضًا وعدم الاحتياج للناس.

وفيما يتعلّق بالمقام الأول، ينبغي القول: إنّ الإنسان قد خُلق لأجل الوصول إلى مقام قرب الله، لهذا فإنّ جميع أنشطته يجب أن تكون في مجال حفظ هذه العلاقة بالله سبحانه. فلو بذل طاقته في أمورٍ أخرى، لكان ذلك تضييعًا لها. فيجب أن يضع جميع قواه الباطنيّة والظاهريّة وكلّ النعم على طريق الارتباط بالله. مع أنّ هذا المسير واسعٌ جدًا وله أشكالٌ مختلفة كلّ واحدٍ منها يرتبط بجهةٍ من جهات

الروح. ذلك لأنّ الله تعالى قد جعل أرواحنا ذات أبعادٍ وشؤونٍ مختلفة، يتّجه كل بعدٍ منها نحو هدفٍ معيّن، وفي النهاية يجب أن نجعل الجميع متوجّهًا إلى الله تعالى. ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ بعض الأبعاد الوجوديّة في الإنسان تتعلّق بالله وبعضها ليس كذلك.

وهناك تقسيمات متعدّدة لأبعاد وجود الإنسان، فيُقال مثلًا إنّ أحد الأبعاد هو الارتباط بالله، وأحدها لأجل الارتباط بنفسه، والآخر لأجل ارتباطه بغيره من الناس، والرابع لأجل الارتباط بسائر المخلوقات. ويمكن أن نعتبر هذا التقسيم صحيحًا من ناحية الأحكام المتعلّقة بالإنسان: فمن جهة ارتباط الإنسان بنفسه يتبيّن لنا أنّ هناك أمورًا تنفع بدنه، وتوجد أمور تضرّه، وهناك أشياء حلال وأشياء حرام. وبعض الأحكام تحدّد ارتباط الإنسان بالله، كالصلاة والصوم. وبعضها يحدّد علاقة الإنسان بالناس: فكيف يتصرّف ويتعامل مع أبيه وأمّه وأقاربه وأصدقائه وأعدائه.

فمثل هذا التقسيم مقبولٌ، ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هذا التقسيم لشؤون الإنسان لا يعني أنّ لهذا الإنسان مسيرًا آخر أيضًا غير المسير والتحرّك الذي ينبغي أن يوصله إلى مقام قربه تعالى. بل يجب الإذعان بأنّ جميع أبعادنا الوجوديّة مع ما فيها من اختلافاتٍ عجيبة يجب أن تتّجه نحو هدف واحد ونقطةٍ واحدةٍ. أي إنّ نفس هذا الارتباط الموجود بين الإنسان وغيره من الناس يجب أن يكون في سبيل الله تعالى، وهكذا بالنسبة لسائر الروابط والعلاقات.

إنّ أعمالنا تتميّز من حيث الشكل: فهناك العمل الذي هو بصورة الصلاة وهناك التدريس أو الدرس أو القيام بالأعمال اليوميّة. ولكنّها جميعًا تصبح مفيدةً لنا إذا كانت النيّة فيها لله تعالى. لهذا، يجب على الإنسان أن يكون في جميع أعماله وحتّى في تفكيره لله تعالى، ولا يطلب سواه ولا يبحث عن غيره.

فللإنسان، بالإضافة إلى الميول المختلفة التي توجّهه نحو تأمين الأبعاد الماديّة لوجوده ولحياته الماديّة والمحدودة، أبعادٌ توجّهه نحو الحياة اللا متناهية والغاية اللا محدودة والجمال والكمال والقدرة المطلقة. ففي الواقع إنّ بنية الإنسان الوجوديّة قد جُعلت من أجل الوصول إلى هدفٍ غير متناه، وقد عُبّئ فيه من الغرائز ما يجعله متحرّكًا نحو ذلك العالم اللا محدود. وأمّا ما كان متعلّقًا بالدنيا المحدودة، فله دور المقدّميّة لأجل أن يبقى محرّك الإنسان فاعلًا وليستمرّ في مسيره نحو الله تعالى.

ويجب أن نلتفت إلى أنّ ما يجعل الإنسان إنسانًا هو ارتباطه بالله. ذلك لأنّ الكمال النهائيّ للإنسان إنّما يحصل في ظلّ ارتباطه بالله، ولا يحصل هذا الارتباط إلّا بالمعرفة والعمل. وفي غير هذه الصورة، سيكون الإنسان شبيهًا بالبهائم بل أضلّ وأحطّ منها: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[١].

وفي هذا المجال، نلاحظ أنّ وجود الأنبياء والأولياء والآثار العلميّة والسنّة والسيرة والقدرة التي ظهرت منهم، كلّ هذه كانت علامات ودلائل على ارتباطهم بالله تعالى. ومن الجدير أن نقول إنّ وجود كلّ موجودٍ من ناحية التحليل العقليّ هو عين الربط بخالقه، ولا يمكن لأيّ مخلوق أن لا يكون له ارتباط بخالقه. ولكنّ هذا الارتباط التكوينيّ يتحقّق في المجموع العامّ لنظام الوجود ولا مفرّ منه.. ولا يمكن أن لا يكون لأيّ موجودٍ ارتباطٌ تكوينيّ بالله. غاية الأمر أنّه بمعزلٍ عن هذا الارتباط التكوينيّ، للإنسان امتيازٌ آخر وقد أفاض الله عليه قدرةً، وهي أنّه يمكنه ببركة العقل والفهم والشعور أن يدرك هذا الارتباط. وإنما تكمن قيمة الإنسان بإدراك هذا الارتباط بشكلٍ أفضل وأعمق.

وفي العادة، فإنّ بداية معرفة الله والارتباط به إنّما تحصل عن طريق العلم الحصوليّ الذي يتحقّق من خلال إعمال الفكر والاستدلال العقلانيّ والفلسفيّ. ولكنّ هذه المعرفة ليست هي نهاية الطريق أو غاية الكمال الإنسانيّ، وهي بنفسها قاصرة عن إيصاله إلى المقصد، ولا يمكنها أن توجد فيه ذلك الاعتقاد الراسخ. نعم، إنّ المعرفة الكاملة هي المعرفة الحضوريّة، التي تتحقّق حينما يصل الإنسان إلى ذلك المقام الذي يدرك فيه بكلّ وجوده هذه الرابطة بالحقّ تعالى، بل حين يصبح عين الربط بالله، وليس مجرّد العلم بذلك فقط. فإنّ هدف الدين هو إيصال الإنسان إلى هذا المقام. وقد نُقل عن الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ أنّه قال: «ما رأيت شيئًا إلّا ورأيت الله قبله»[٢].

فلو لم يتحقّق لهذا الإنسان الذي يسعى للوصول إلى الكمال مثل هذه

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

(٢) مولى محمّد صالح المازندراني، **شرح أصول الكافي** (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، الجزء ٣، الصفحة ٨٣.

المعرفة في الحياة الدنيا بشكلٍ كامل، فعليه أن يهيّىء الأرضيّة لكي يتحقّق هذا الارتباط الكامل في العالم الآخر. ولهذا، نجد أنّ التعاليم الدينيّة وفي أخبار أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ تُعبّر عن الارتباط بالله بالرؤية، وقد قيل إنّ أعظم نعم الجنّة هي مقام مشاهدة الأنوار الإلهيّة بحسب الدرجة الكماليّة للمخلوق. فأولئك الذين وصلوا إلى أعلى المقامات، تكون مشاهدة الأنوار الإلهيّة ميسّرةً لهم بشكلٍ دائم. أمّا أولئك الذين لم يصلوا إلى هذه المقامات، فإنّ التجلّيات الإلهيّة قليلًا ما تحصل لهم.

ويُنقل عن أحد علماء طهران الصالحين الذي توفّي نتيجة مرض السرطان أنّ أحد أقاربه الذي كان شديد التعلّق به قد رآه في المنام، ثمّ نقل ما شاهد وفي الواقع كانت رؤيا صادقةً تمامًا لأحد علماء قم: «حين رأيت ذلك العالِم في المنام سألته هل تزور الأئمّة الأطهار والإمام الحسين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ؟ فأجاب: ماذا تقول! في هذا العالم يفصل بيننا وبين سيّد الشهداء ثلاثة آلاف سنة. وينبغي أن ننتظر ثلاثة آلاف سنة حتّى نوفّق لزيارتهم!

أجل، يجب أن نرى هذا الإنسان بمن تعلّق قلبه! فإنّ قيمة الإنسان تكمن في هذا الأمر: فمن تعلّق قلبه بالأرض والبيت، كانت قيمته بحسبهما. أمّا إذا كان قلبه متعلّقًا بالله ومرتبطًا به فإنّ قيمته لن تكون محدودةً بحدّ ولن يقع في قيد التعلّقات الدنيويّة المحدودة والزائلة، وهناك لن يكون في قلبه أحدٌ سوى الله. فالقيمة الواقعيّة للإنسان هي في ارتباطه بالله ووصوله إلى مقام قربه وليست في اللذّات والتعلّقات الماديّة. إنّ إنسانيّة الإنسان بإدراكاته وتوجّهاته القلبيّة، ويجب أن ينظر إلى قلبه بأيّ شيء قد تعلّق، فكلّما تعمّق ارتباطه بالله وأضحى أكثر إحكامًا، فإنّه حين ينتقل من هذا العالم الفاني ستتجلّى له الأنوار الربوبيّة أكثر، وسيتنعّم بالمزيد من المواهب والنعم الإلهيّة. ولذلك قال النبيّ صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ: «**يا أبا ذرّ؛ ألا أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله عزّ وجلّ بهنّ؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك**».

وجميع المواعظ التي ذُكرت لحدّ الآن كانت نافعةً ومفيدةً، إذن حين يوجّه النبيّ صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ أبا ذرّ إلى أنّه سيحدّثه بحديثٍ ينفعه الله عزّ وجلّ به فكأنّه يشير إلى أنّ هذا الحديث يمثّل باقةً منتخبةً من بستان المطالب السابقة، وله أهميّة خاصّة! لذا، يوجّه يوجّه النبيّ صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ اهتمام أبي ذرّ إليه. فينبّه صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ أبا ذرّ إلى أنّ الله تعالى قد جعل بينك وبينه ارتباطًا تكوينيًّا وأوجد هذا التعلّق بين

مقام الألوهيّة الأعظم وبينك أيّها العبد الفقير الفاني، فاسعَ أن تحفظ هذا الارتباط ولا تفصمه. فإذا سعيت إلى حفظ هذا الارتباط فإنّ الله تعالى سيحفظك.

وأيّة سعادةٍ أعلى من أن يكون لهذا العبد الذي لا يُحسب له حسابٌ في العالم ارتباطٌ مع ربّ العالمين! وأيّة موهبةٍ أعظم من هذه! لهذا يجب أن يسعى لحفظ ذلك حيث ينال في ظلّه العنايات الإلهيّة الدائمة. أمّا إذا لم يكن ساعيًا لحفظ ذلك الارتباط ولم يؤدّ حقّ العبوديّة، فلا ينبغي أن يتوقّع أن يكون مشمولًا بألطاف الحقّ تعالى وعناياته.

ولعلّه قد يكون الأمر مبهمًا على البعض فيتساءلون عن كيفيّة حفظ هذا الارتباط، فأيّ ارتباط يمكن أن يتحقّق بيننا وبين الله تعالى، نحن الذين نعيش في هذا العالم الترابيّ وبين الله تعالى وعرشه. ولأجل إزالة هذا الإبهام يقول النبيّ صلّى الله عليه وآله: «احفظ الله تجده أمامك»[1].

أي إنّه لا يوجد مسافة بينك وبين الله فإنّه تعالى حاضرٌ عندك دومًا وليس بعيدًا عنك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

لهذا، إذا أراد الإنسان أن تشمله العنايات الإلهيّة فيُحفظ من البلايا وشرور الشيطان ووساوس النفس (والحفظ المذكور في كلام النبيّ مطلقٌ ويشمل حفظ الإنسان من المخاطر الماديّة والمعنويّة) فيجب أن يحافظ على ارتباطه بالله ولا يسمح بأن يتسلّل إليه الضعف.

ضرورة التوجّه إلى الله في السرّاء والضرّاء

ثمّ يقول صلّى الله عليه وآله: «تعرّف إلى الله في الرخّاء يعرفك في الشدّة»[3].

وحيث إنّ الله تعالى صاحب القدرة المطلقة وكلّ شيءٍ في هذا العالم إنّما يتحقّق وفق إرادته ومشيئته ولا يعزب عن إرادته شيء، فيجب على الإنسان أن يتوجّه إليه في كلّ حالٍ. فإذا وقع في المصاعب والشدائد فليتوجّه إلى الله دون

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء٦٧، الصفحة ١٨٣.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٤.

(٣) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٤٣.

سواه وليطلب منه رفع العسر عنه. وإذا أحاطته السرّاء فليتوجّه إلى الله لأنّ الله تعالى قد أنعم بها عليه.

وطبيعيّ أنّ الإنسان حين يُبتلى بشيءٍ محزن، وتنزل به الحوادث المرّة، فإنّه سوف يتوجّه إلى الله، كما بيّن الله لنا ذلك بشأن المشركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

فالتوجّه إلى الله أثناء الشدائد والبلاءات وحينما تحيط بالإنسان أمواج الصعاب ليس بالأمر العجيب. نعم، هناك من ابتعد عن الله إلى الدرجة التي لم يعد قادرًا على أن يتوجّه إلى الله حتّى عند البلاءات الكبرى. ولكن من كان في قلبه ذرّة إيمان فإنّه على الأقلّ سوف يتوجّه إلى الله أثناء البلاء. وهنا، يقول النبيّ إنّك إذا أردت أن يستجيب الله لك كلّما أقبلت عليه وسألته، فينبغي أن تحفظ علاقتك به أثناء السرّاء والرخاء وعليك أن تحفظ معرفتك به. لأنّك إذا نسيته حين الرخاء، فلا تتوقّع أن يقبل عليك حين الضرّاء والشدّة. فإذا ذكرت الله حين اليسر والرخاء ثمّ دعوته حين الشدّة واللأواء فإنّه تعالى سيقول لك لبيك.

نحن جميعًا ابتلينا في حياتنا بالمصائب والشدائد ثمّ بعد مدّةٍ تخلّصنا منها، ولكنّنا عبرنا عنها، وكأنّ شيئًا لم يحدث. فلم نتفكّر في أطراف تلك النعم والرخاء الذي أنزله الله علينا بعد البلاء. هذا، في حين أنّ البلاءات والمصائب كلّها لأجل إيقاظ الإنسان وتوجيهه إلى الله لكي يدرك قدر النعم.

فحين يحيط بنا البلاء: كأن يُصاب أحد أفراد أسرتنا بمرضٍ شديد بحيث تُغلق أمامنا جميع أبواب الشفاء وتصبح حياته في خطر، ثمّ توفّر لنا الفرج في غمرة اليأس والقنوط وشدّة البلاء، كمجيء طبيب حاذق، واستطاع أن يعالج مريضنا وينجيه من الموت. وأمثال ذلك من مئات الحوادث التي نمرّ بها، ثمّ تُرفع عنا: فلو فكّرنا في أبواب الفرج التي فتحت أمامنا كلّ مرة، فهل نحملها جميعًا على مجرّد الصدفة؟

كلّا، فإنّها جميعًا ألطافٌ إلهيّة وعناياتٌ ربانيّة شملتنا وأنقذتنا ممّا نحن فيه.

وما يحدث في نظام الخلقة هو أنّ إرادة الله تشمل كلّ شيء، فلا يتحقّق شيء بدونها. فلو أعطينا نعمةً ما أو أُبعد عنّا بلاءٌ، فذلك بفضل إرادة الله تعالى..

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

فهو الذي أوجد أسبابها وظروفها؛ سواء كانت تلك الأسباب عاديّةً أم غير ذلك، وسواء علمنا بها أو لم نعلم (وإن كنّا نتأثّر أكثر حين نتوجّه إلى أنّ الأسباب غير عاديّة، والتي قد نعبّر عنها بالصدفة) فإنّ الله تعالى موجود دائمًا وراء رزقنا سواء حصل بالأسباب العاديّة كالعمل والتكسّب أم بواسطة أسباب غير عاديّة، كنزول مائدةٍ من السماء. إنّ رفع البلاءات عن الإنسان، كلّ ذلك من جانب الله تعالى، سواء تحقّق بالطرق العاديّة أم بطرق غير عاديّة.

ويمكن تقسيم الناس من حيث التوجّه إلى الله تعالى إلى ثلاث طوائف: الطائفة الأولى: أولئك الذين يتوجّهون إلى الله في جميع أحوالهم سواء في السرّاء أم الضرّاء. وكما يحدّثنا القرآن الكريم إنّهم يذكرون الله عند كلّ صباح ومساء ولا ينحصر ذكرهم له في حال الشدّة والبلاء: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[2].

وسرّ توجّههم الدائم إلى الله هو أنّهم رغم جميع النعم التي أفيضت عليهم من جانب الله، لا زالوا يرون أنفسهم في أمسّ الحاجة إليه تعالى، ويدركون حقيقة فقرهم الدائم إلى الله تعالى. وحيث إنّهم يدركون احتياجهم إلى الله بحسب اختلاف مراتبهم، فلا يتفاوت حالهم بين النعمة والبلاء. فهؤلاء هم عباد الله الصالحون الذين يرون الله دومًا ولا يغضّون النظر عنه، وهم مورد عناية الله سبحانه أيضًا.

الطائفة الثانية: وهي التي تتشكّل من أكثريّة المؤمنين. وهم الذين يُبتلون بالغفلة حين النعمة والرخاء، ولكن إذا حلّ بهم البلاء يستيقظون ويظهرون احتياجهم إلى الله. فهذه الطائفة هي من العباد الجيّدين نسبيًّا، ولكنّ الله تعالى يشكو منهم ويعاتبهم على نسيانهم له حين النعمة وذكرهم إيّاه حين تُسلب منهم: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾[3].

والطائفة الثالثة: هم أولئك الذين لا يتوجّهون إلى الله في أيّة حال حتّى في

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٥.

(٢) سورة **النور**، الآية ٣٦.

(٣) سورة **فصّلت**، الآية ٥١.

البلاءات. وقد يعلم بعض هؤلاء أنّ بعض البلاءات هي من الله، لهذا حين تنزل بهم تلك البلاءات يدعون ربّهم لأنّهم يرونها ناشئةً من تلك الأسباب غير الطبيعيّة وهي علامة غضب الله تعالى: كقوم يونس حين قُدِّر لهم العذاب واقترب منهم. فلمّا علموا أنّ ذلك العذاب علامة غضب الله رجعوا إلى أنفسهم واستغفروا الله فأنجاهم الله تعالى منه. ولكنّ هذه الطائفة لا تتوجّه إلى الله حينما لا تتصوّر أنّ البلاء من جانب الله تعالى. وقد ذمّ الله تعالى هذه الطائفة فقال: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وفي موضع آخر، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

ضرورة الطلب والاستعانة بالله

ثمّ يقول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بأنّ الإنسان ينبغي أن يسأل الله دون سواه: «**وإذا سألت فاسأل الله عزّ وجلّ وإذا استعنت فاستعن بالله فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وطبيعيّ أنّ للإنسان حاجاتٌ لا يقدر بنفسه على تأمينها. ولهذا، فإنّه سوف يضطرّ للاستعانة بمن يؤمّنها له. وفي هذا المورد، يقول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لأبي ذرّ إذا كنت تريد أن تسأل أحدًا فاسأل الله تعالى. حين تجد نفسك محتاجًا ولا تقدر على رفع احتياجك وأنت مضطرّ للاستعانة بغيرك، فلتكن استعانتك بالله. لأنّه ما من أحد أكثر اطلاعًا منه على حاجتك، ولا يقدر أحدٌ غيره على رفع احتياجك، لأنّ كلّ الوجود ملكه، وقدرته مهيمنةٌ على كلّ شيء. وإذا كان لا بدّ من تحقّق شيء فإنّه سيكون وفق إرادته ومشيئته. هذا بالإضافة إلى أنّ الله تعالى يحبّ مخلوقاته وعباده أكثر من أيّ أحد سواه، وهو يريد لهم الخير. ومن هنا، فإنّه يأمر عباده أن يدعوه وأن يسألوه ويطلبوا عونه. وفي دعاء الافتتاح نقرأ: «**اللّهم أذنت لي في دعائك ومسألتك**».

ومن الطبيعيّ أنّ الله تعالى إذا فتح على الإنسان باب الدعاء والمناجاة

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٤٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

فسوف يكون حاضرًا للاستجابة. وبالإضافة إلى هذا، فإنّ الإنسان سوف يكون مشمولًا بنعم الله دومًا. ولا شكّ بأنّ من جملة نعم الله هي نعمة رفع البلاءات ودفعها، وهذه النعمة إنّما تتحقّق من جانب الله تعالى. فحين ينزل البلاء بساحة الإنسان، فإنّ الله تعالى ينجيه. وأحيانًا يدفع عنه البلاء قبل نزوله. لذا، سيبقى الإنسان دائمًا رهينة لطف الله ومحبّته، وعليه أن يعلم أنّه وحده تعالى القادر على إعانته، وأنّه ما من شيءٍ يتحقّق في هذا الوجود إلّا بإذنه، فليكن طلبنا وسؤالنا منه دون سواه. وفي مقطعٍ آخر من دعاء الافتتاح نقرأ: «**فكم يا إلهي من كربةٍ قد فرّجتها وهمومٍ قد كشفتها وعثرةٍ قد أقلتها ورحمةٍ قد نشرتها وحلقة بلاءٍ قد فككتها**».

ويقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئًا إلّا أعطاه فلييأس من الناس كلّهم ولا يكون له رجاءٌ إلّا عند الله. فإذا علم الله عزّ وجلّ ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئًا إلّا أعطاه»[1].

إنّ كلّ واحدٍ منّا يقول في اليوم الواحد «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» عشر مرات على الأقلّ ولكنّ حاله في العمل لا يكون كذلك. وأحيانًا قد تظهر أعمالنا أنّنا لا نستعين بالله وحده، بل نستعين بمن سواه! ولا شكّ بأنّ هناك من يكون صادقًا في قوله هذا. وحين يقول «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فإنّه يطبّق ما يقول بالكامل. ولكنّنا نحن لم نتعوّد الصدق في هذا القول، ولهذا نلاحظ أنّ أيدينا دائمًا تمتدّ إلى عباد الله. وحين نقع في المصائب والمشاكل، فإنّ رجاءنا يتعلّق بأهلنا وإخواننا وأصدقائنا وأحيانًا نصرّح بمثل هذا الرجاء علنًا.

ويوصي النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أن يحصر الإنسان سؤاله بالله تعالى، ويوجّه أبا ذرّ فيما بعد إلى قضاء الله وقدره وهو الموضوع الذي تحدّثنا عنه سابقًا. وأحد فوائد الاعتقاد بالتقديرات الإلهيّة والقضاء والقدر هو أنّنا إذا ظفرنا بالرخاء والرفاهية وأُعطينا القدرة والغلبة، فلن نصاب بسكر الغفلة، وإذا ابتلينا بالمصائب والشدائد، فإنّنا لن ننزعج كثيرًا أو نسخط، لأنّنا نعلم أنّ ما حدث إنّما حدث وفق التقدير الإلهيّ الذي لا مفرّ منه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[2].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٤٨.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٢٢.

ولا يتوهّمن أحدٌ أنّه كيف يمكن لله تعالى أن يقدِّر لكلّ عبدٍ من عباده الذين لا يتناهى عددهم طوال التاريخ، كلّ ما يرتبط به!! لأنّ هذا العمل عليه سهلٌ يسير. وكلّ ما يريده وجميع الحقائق حاضرةٌ عنده وهي مدوّنةٌ أيضًا في اللوح المحفوظ. ثمّ يذكر في هذه الآية التالية سرّ هذا الأمر فيقول: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١].

وإنّ من فوائد الاعتقاد بالتقدير الإلهيّ هو أن يكون الإنسان دومًا ناظرًا إلى يد الله، لأنّه يعلم أنّ كلّ شيءٍ قد قدّره الله تعالى، وهو قادرٌ على تغييره، ولا حول ولا قوّة لغيره سبحانه. فكيف نعلّق قلوبنا بهم.

فإذا حدث أمرٌ مؤلم فإنّه يعلم أنّ الله تعالى قد قدّره بحكمته، وإذا فقد شيئًا، فإنّه يعلم أنّه قد كُتب في اللوح المحفوظ، وأنّه لا بدّ من جريان كلّ هذه الأمور على أساس التدبير الحكيم لله تعالى. لهذا، فإنّه لا ينزعج ولا يحزن وتبقى يده مرفوعةً إلى الله وهو يطلب منه أن يدفع البلاء والعسر عنه. فإذا أصابتنا نعمة فنحن لا نفرح أو نفخر أو نعتدّ بأنفسنا! ولا ننسى ربّنا، بل نزيد من حالة التوجّه إليه ونشكره على أفضاله ونعمه ونحفظ حال التواضع والفقر إليه، ولا نكون مثل قارون الذي كان يعدّ كلّ تلك النعم حصيلة جهده وفكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾[٢].

فاعلموا أنّ كلّ ما لديكم فهو قد وصلكم على أساس التقدير الإلهيّ وأنّ الله تعالى قد هيّأ أسبابه. فإذا كان لا بدّ من طلب العون والمدد من أحد فاطلبوا ذلك ممّن بيده جميع الأمور وتجري كلّ الأعمال وفق تقديره، ولو علم الصلاح في شيء آخر فإنّه قادرٌ على تغيير تقديراته. فعلى كلّ حال، يجب أن تمتدّ أيدي الطلب والطمع إلى رحمته وحين نُبتلى بالمصائب والبلاءات فإنّه لا ينبغي أن نضطرب كثيرًا لأنّ تلك البلاءات والمصائب إنّما تقع على أساس حساباتٍ دقيقة ووفق تدبير حكيم.

فلا تفزعوا ولا تجزعوا ولا تشقّوا جيوبكم على ما حدث، فإنّكم بآهاتكم وجزعكم لن تصرفوا الله عن حكمته وتدبيره.

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧٨.

فإذا نزلت بكم نعمة، فلا تتصوّروا أنّكم حصلتم عليها بفضل ذكائكم، بل إنّ تقدير الله وتدبيره المحكم هو الذي جعل تلك النعمة من نصيبكم. كلّ ذلك لأجل امتحانكم لكي يعلم ماذا تفعلون. فمن فوائد الاعتقاد بالقضاء والقدر إذن أن يعلم الإنسان أنّ كلّ ما يقع إنّما يكون وفق تدبيرٍ حكيم، وإذا شاهد فيه عيبًا أو نقصًا فلا ينبغي أن ينزعج أو يحزن لأنّه يعلم أنّ من دبّر هذا النظام وأجرى هذا التقدير أعلم منه بفعله وأخبر منه بصلاح عباده. وبالالتفات إلى ما ذُكر، يوجّه النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أبا ذرّ إلى التقديرات الإلهيّة بعد توصيته بالاستعانة بالله: «فقد جرى القلم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[١].

وقد ذكرنا سابقًا ونؤكّد الآن أنّه لا ينبغي استغلال مسألة القضاء والقدر والمعارف الإلهيّة بشكلٍ سيّء. ولا ينبغي أن نغفل عن الحكم المخفيّة في بيان هذه المعارف. فنظنّ بأنّ كلّ ما قُدّر وقوعه سيتحقّق، وليس لنا من الأمر شيء ولا دور لنا إطلاقًا. وعليه، يحقّ لنا أن ننزوي ونضع حمل المسؤوليّة عن عاتقنا!!

كلّا، بل يجب أنّ نعلم أن حركتنا وسعينا يُعدّ أيضًا من جملة التقديرات الإلهيّة، لهذا يجب أن نسعى أكثر وأن نرفع من مستوى تحمّلنا للمسؤوليّات، فلا نتصوّر أنّنا بالاتّكال على القضاء والقدر يحقّ لنا أن نسقط التكليف عن أنفسنا، ونجلس جانبًا: فهذا من وساوس الشيطان.

إنّ الاعتقاد بالقضاء والقدر يجب أن يؤدّي إلى المزيد من التوجّه إلى الله وقصر الاستعانة عليه والسعي إليه، فلا نمدّ يد الطلب إلى الآخرين أو تتملّقهم أو نترك مسؤوليّتنا من أجل الوصول إلى مصالحنا الشخصيّة. كذلك لا ينبغي أن ننخدع بالشيطان فنتخيّل أنّ كلّ شيء بما أنّه قد قدّر فلا حول لنا ولا قوّة وعليه فلنجلس جانبًا، وإذا كنّا من طلّاب العلم فنحن لا ندرس. ثمّ نقول لأنفسنا إذا كان من المقرّر أن يكون أحدنا عالمًا، فسواء درست أم لم أدرس فسأصبح عالمًا! فلو كان المقدّر أن يكون أحدنا عالمًا فذلك سيحدث من خلال الدرس، ولو لم ندرس فلن نكون من العلماء. أجل، من الممكن أن يُفاض العلم على الإنسان بدون السعي والتعب! وهو من التفضّل الإلهيّ الذي يناله البعض، ولكن يجب على كلّ حال أن نسعى لأداء تكليفنا ولا نهمل أيّ سعيٍ ممكن.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٧.

ويقول النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في تتمّة حديثه مؤكّدًا على ما مرّ: «**فلو أنّ الخلق كلّهم جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يُكتب لك ما قدروا عليه ولو جهدوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك ما قدروا عليه**».

إنّ إرادة الله تعالى إذا تعلّقت بشيءٍ فلن يقدر الناس ولو اجتمعوا على أن يحولوا دون تحقّقه: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

وفي آيةٍ أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾[(٢)].

وبناءً عليه، فإنّ القرار النهائي والإرادة الحتميّة والقطعيّة هي لله. فإذا أردت شيئًا فاطلبه ممّن لديه هذه الإرادة والقدرة، ولا تمدّ يد الاستعانة إلى من هو فقيرٌ وعاجزٌ مثلك، واعلم أنّ الله تعالى إذا لم يُرده، فلن يقدر أحد على إعانتك.

آثار المعرفة واليقين بتدبير الله الحكيم

وآخر ما ينبّه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبا ذرّ إليه والذي إذا اتّصف به فسيكون نافعًا له هو أن يوصل معرفته إلى درجة اليقين: حيث يتيقّن بأنّ كلّ ما قدّره الله فسيتحقّق، وأنّ ما لم يُقدّر منه تعالى فلن يجد طريقه إلى الواقع، وأنّ ما قدر لن يكون عبثًا وإنّما هو على أساس التدبير الحكيم. وبهذه المعرفة، يطمئنّ المؤمن بأنّ كلّ ما سيحدث سيكون لصلاحه، ذلك لأنّ الله تعالى لا يريد إلحاق الضّرر بعباده، وخصوصًا بالعبد الذي أوكل أموره لله. فهذا العبد يسعى لأداء تكليفه براحة بال وهو مطمئنّ إلى أنّ كلّ ما سيحدث موافق للحكمة الإلهيّة ولصلاحه ومنفعته، سواءٌ كان بظاهره مفرحًا أو محزنًا. إنّه يعلم أنّ كلّ ما يحدث على أساس القضاء والقدر الإلهيّ فهو خيرٌ، ولا مجال للشرّ في التقديرات الإلهيّة. ومن الطبيعيّ أنّ الإنسان إذا وصل إلى هذا اليقين والمعرفة بأنّ جميع حوادث العالم هي خيرٌ ومطابقٌ للتدبير الإلهيّ المحكم، فإنّه سيكون ممّن ينظر بتفاؤل إلى ما يحدث وهو مطمئنّ بأنّ ما يقع خيرٌ. والإنسان يحبّ الخير ولا يمكن أن يكرهه.

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٢١.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ١٧.

لا شكّ بأنّ مثل هذا اليقين والمعرفة والإيمان الرفيع لا يمكن أن يتحقّق بهذه البساطة، ولا يمكن للإنسان أن يوجد مثل هذا الإيمان بسهولة في قلبه. وليس كلّ إنسان يليق لمثل هذا المقام. فمن أراد بلوغ هذا المقام، فإنّه يجب أن يسعى كثيرًا في طريق تهذيب النفس وتحلية الباطن والوصول إلى تلك المرحلة التي يسيطر فيها بالكامل على نفسه، وهو يعمل وفق التعاليم الإلهيّة والاقتداء بسيرة أولياء الله لكي يصل إلى تلك الدرجات الإنسانيّة العالية التي يكون فيها طالبًا لرضا الله دومًا، ويقدِّمه على هواه.

ومن الطبيعيّ أنّ الوصول إلى هذا المقام لا يكون شأن أيّ إنسان، ولهذا يوصي النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه إذا لم تقدر على الوصول إلى اليقين والمعرفة التي ترى فيها جميع حوادث العالم لصلاحك وخيرك ولا تجزع عند المصائب، فعلى الأقلّ عليك التحلّي بالصبر والثبات في مقابل الحوادث المرّة.

واعلم أنّ الجزع وفقدان الصبر في مقابل ما هو مقدّر لن يجدي نفعًا، ومهما جزعت فإنّ الله تعالى سيفعل ما يريد، ونحن العبيد لن نقدر على الحيلولة دون حدوثه.

فإذا نزلت بالعبد نازلة، وابتلي بالفقر والمرض أو حدث في بلده زلزالٌ أو فيضانٌ أتى على ممتلكاته أو أيّة حادثةٍ أخرى فعليه أن يتحمّل ويتصبّر ليكون في هذه الحالة مورد عناية الله. ولا شكّ بأنّ الحوادث إذا كانت قابلةً للتنبّؤ بها وكان بالإمكان الحيلولة دون وقوعها فيجب على الإنسان أن يقوم بذلك. ولكن ما أكثر أن يحدث ما تكون أكثر الدول تطوّرًا وبجميع الإمكانيّات المتوفّرة لديهم، لكنّه يأتي البلاء بطريقة مفاجأة لهم ويأتيهم من حيث لا يحتسبون دون أن يكونوا قادرين على منع حدوثه: فالمعروف أنّ اليابان هي أكثر الدول تعرّضًا للزلازل، ولهذا فإنّهم قد بنوا عماراتهم ضدّ الزلازل وجهّزوا أنفسهم بكلّ ما يحتاجونه عند وقوع تلك الحوادث بما يمتلكونه من تجارب وتجهيزات متقدّمة وميزانيّات مناسبة. ولكنّنا مع ذلك رأينا أنّ إحدى أشدّ الزلازل كارثةً هي التي حدثت في اليابان وأدّت إلى وقوع خسائر عظيمة لا تحدث عادةً في أكثر الدول تخلّفًا.

فالحوادث إذن مقدّرةٌ وسوف تحدث والناس سوف يتفاجأون بها وأمر تلك الحوادث بيد مدبّر العالم الذي يعلم تلك المعادلات المسبّبة لحدوث الزلازل ووقوع الفيضانات في الأزمنة والأمكنة المختلفة في كلّ العالم. من الممكن لا سمح

الله أن تنزل بنا مصيبةٌ ويحلّ بنا البلاء، ولو كنّا على يقينٍ ومعرفةٍ بالتدبير الحكيم والنظام الأحسن الذي قدّره الله لهذا العالم لما أصابنا الغمّ. فإنّنا أحسنّا الظنّ بتدبير الله ورأينا كلّ شيءٍ خيرًا وصلاحًا لنا. حين نشاهد نقصًا أو ضعفًا في أمرٍ ما فنحن ننزعج، أمّا إذا كنّا نراه لصلاحنا وخيرنا التامّ، فلا مجال لأن نحزن ونتجرّع الغصص. من الممكن أن يعضّ الإنسان على نواجذه من شدّة الحزن والمرض، ولكنّه حين يرى ذلك المرض لخيره وصلاحه فهو يتقبّله، تمامًا كذلك الذي فسد ضرسه ولا بدّ من قلعه. فهو يتقبّل قلع ضرسه، بل ويدفع المال مقابل ذلك، لأنّه يعلم أنّ في هذا العمل صلاحه ولن يعترض على قلعه، فهو يعلم أن قلع الضرس الفاسد ضروريّ لسلامة بدنه.

قد يُصاب الإنسان بالمرض أحيانًا بحيث يضطرّ للسفر إلى دولة أجنبيّة من أجل العلاج، وينفق المبالغ الطائلة، أو يضطرّ إلى قطع عضوٍ من بدنه، من أجل سلامة سائر البدن ويبذل من أجل ذلك المال الكثير! وهو بذلك راضٍ. لكن هذا لا يعني أنّه قد وصل إلى مقام الرضا وهو راضٍ من أعماق قلبه عمّا يحدث، دون أن يكون في باطنه أيّ ملامة. فمن الممكن أن يشكو ما يحدث ولو تجرّأ لشكا من الله، كما يفعل بعض ضعفاء الإيمان حين تنزل بهم المصيبة ويفقدون توازنهم. وبالتوجّه إلى هذا الموضوع، يقول النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**فإن استطعت أن تعمل لله عزّ وجلّ بالرضا واليقين فافعل وإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا وإنّ النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وإنّ مع العسر يسرًا**».

إن استطعت أن تصل إلى مقام الرضا وهو الذي يُكتسب في ظلّ اليقين، فبين اليقين والرضا ارتباطٌ وثيق، وما لم يصل الإنسان إلى مقام اليقين فهو لا يمكنه أن يرضى بتقدير الله فهنيئًا لك، لأنّك وصلت إلى أفضل المقامات الإنسانيّة. فإنّ أعلى المقامات والخصائص الإنسانيّة هو أن يرضى الإنسان بما يقدّره الله دون أن يكون في قلبه أيّ اعتراض.

فاسع أن تجعل سلوكك مبنيًّا على أساس الرضا واليقين، وتقبّل ما يأتي عليك من الحوادث المرّة أو الحلوة دون أن تشكو أو تنزعج. أمّا إذا لم تصل إلى هذا المستوى ولم تقدر على تفسير ما يحدث من مصائب بحيث تسكّن نفسك فاسع أن تكون صبورًا أمام تلك الصعاب فلا تجزع ولا تفزع واحفظ هدوءك. إذا لم تكن

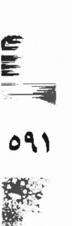

قادرًا على تحصيل الرضا من أعماق قلبك فاعلم أنّ ذلك بسبب نقصان معرفتك، وهنا إيّاك أن تفقد التجلّد، لأنّك لن تحصل على شيء، وعليك أن تحفظ عقلك وإيمانك. واعلم أنّك إذا صبرت عند البلاءات، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيفيض عليك بالخير الكثير.

دور الشدائد في مسيرة الإنسان التكامليّة

ثمّ لأجل تأكيد الموضوع يقول النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إنّ النجاح كامن في الصبر. ومع كلّ غمٍّ وحزنٍ وبلاءٍ هناك فرج، ومع كلّ عسرٍ يسر. كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١].

وقليلًا ما يُتكرّر في القرآن الكريم أمر، ولا سيّما مع التأكيد عليه بحرف «إنّ»، وهو ما يدلّ على مزيد عناية الله به. وفي الآية، يقول الله تعالى إنّ مع كلّ عسر يسرًا، لا بعد كلّ عسر يسر وكأنّ اليسر كامنٌ في باطن العسر. وفي سورة **الشرح**، يسلّي الله النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ الذي كان يتعرّض لأشدّ أنواع الأذى بأسلوبٍ ودودٍ ويبعث فيه الطمأنينة: يذكّره كيف أنّه تعالى قد رفع عن كاهله ثقل الأوزار وبدّل تلك الشدائد إلى يسرٍ. ثمّ يقول: إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، فإذا فرغت فقم مجدّدًا وألق نفسك في التعب واسع بكامل قوّتك. وفي الواقع، يريد الله تعالى أن يبيّن لنا أنّ العسر والشدّة مقدّمة للكمال الإنسانيّ وباعثان على تجدّد القوى. ولهذا، كانت المصائب والصعاب من الأمور الضروريّة لتكامل البشر: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ﴾[٢].

وتحكي هذه الآية عن الدور المهمّ للتعب والمشقّة في صناعة الإنسان وتكامله. فلو كان هناك طريقٌ آخر لما اختار الله تعالى الذي هو منبع الرأفة والرحمة، والذي يريد كلّ الخير لعباده أن يكون الإنسان قرين التعب والمشقّة.

وبالإضافة إلى ما ذُكر، فإنّ الله تعالى يمتحن عباده دومًا، لكي يتميّز الصالحون. وفي هذا المجال قد جعل لتربية الناس نوعَين من البرامج: البرامج

---

(١) سورة **الشرح**، الآيتان ٥ و٦.

(٢) سورة **البلد**، الآية ٤.

التشريعيّة كالعبادات، والبرامج التكوينيّة كالمصائب والمشكلات. وكلّ من استفاد من هذه التعاليم والبرامج بشكلٍ صحيح، وتحمّل الصعاب والمشاكل، فإنّه سيهتدي إلى رحمة الله ومعرفته: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[١].

ويقول الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الله عزّ وجلّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهديّة من الغيبة»[٢].

وذات يوم دُعي النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى بيت أحد المسلمين، وحين دخل منزله شاهد دجاجةً تبيض على أعلى الجدار دون أن تقع تلك البيضة! فتعجّب النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من ذلك. وهنا، قال له صاحب البيت: أتعجب يا رسول الله؟ أقسم بالذي بعثك نبيًّا إنّه ما أصابني ضررٌ أبدًا! وبمجرّد أن سمع الرسول هذه الجملة قام من مجلسه ولم يصب من طعامه وقال: إنّ الذي لا يُبتلى لا يكون مورد لطف الله!

لهذا، لو نظرنا بشكلٍ صحيحٍ إلى البلاء لأدركنا أنّ للبلاء دورًا تربويًّا وإيقاظيًّا. فالمصاعب توقظ أولئك الخامدين الجامدين وتبثّ فيهم الوعي وتبعث فيهم العزم والإرادة. وفي الواقع، إنّ المصاعب هي التي تصنع الإنسان وتهبه القدرة على المقاومة والاستقامة. إنّ هذه المسألة من مميّزات الحياة الدنيا. وفي هذا المجال، إنّ كلّ ما يزيد من مقاومة الإنسان فهو يزيد من تكامله، وشيئًا فشيئًا يتفتّح فيه النبوغ والاستعدادات الكامنة، وهو مظهر لطف الله وعنايته.

في آيةٍ أخرى، يقول الله تعالى: ﴿...سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٣].

وهذه الآية، إنّما هي لتوجيه أصحاب الاستعدادات المحدودة الذين إذا نزلت بهم المصائب وأحاطت بهم الصعاب أصابهم اليأس وتصوّروا أنّ كل شيء قد انتهى. حتّى إنّهم لا يتوجّهون إلى الدعاء والتوسّل بأولياء الله والطلب من الله

---

(١) سورة **البقرة**، الآيتان ١٥٥ و١٥٦.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٥٥.

(٣) سورة **الطلاق**، الآية ٧.

فيرون الأبواب كلّها مؤصدةً أمامهم. فلا ينبغي للمؤمن أن ينهار أمام الصعاب، بل عليه أن يحفظ هدوءه ويعلم أنّه بعد كلّ شدّة يوجد رخاء، وأنّ الله تعالى لم يقدّر لعبده أن يعيش في الشدّة دومًا. بل إنّ الله حين ينزل الضرّاء فإنّه يجعل من بعدها السرّاء والراحة؛ وعلى الإنسان أن ينتظر ذلك.

القناعة والغنى عن الخلق

وفي نهاية هذا القسم من حديث النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، يقول: «**يا أبا ذرّ؛ استغن بغنى الله يغنك الله**».

وكأنّ المقصود من هذا الحديث لم يتّضح جيّدًا لأبي ذرّ. لأنّ من المعروف أنّ كلّ من وصل إلى الغنى فسيجد نفسه مستغنيًا ولن يسعى وراء أحد. فلا معنًى أن يوصى بأن يُعدّ نفسه غير محتاج وأن لا يمدّ يده لأحد. فلا بدّ إذن من وجود سرٍّ مخفيٍّ أو أمر كامن في كلام النبيّ. لهذا، يسأله عن المقصود فيه، فيجيبه النبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**غداءة يوم وعشاءة ليلة فمن قنع بما رزقه الله فهو أغنى الناس**».

ويقول النبيّ: حين تملك قوت يومك، فلا تمدّ يدك لأحد ولا تفكّر فيما سيأتي غدًا من رزقك. فاقنع بما لديك اليوم واعتبر نفسك غير محتاجٍ ولا تسمح لقلبك بأن يشعر بالحاجة إلى الآخرين. فإذا شعرت بالحاجة وبدأت تفكّرُ في رفاهيّة غدك، فأنت قد جعلت نفسك محتاجًا للغير وأصبحت مضطرًّا أن تمدّ يدك لأجل تأمين وسائل رفاهك في اليومِ الآتي. وهكذا، تجعل نفسك ذليلًا. لأنّ كلّ من يمدّ يد الاحتياج إلى الغير يصبح ذليلًا!

إذا أردت أن تكون عزيزًا، فارضَ بما قدّر الله لك من قوت يومك. ولو ابتلي الإنسان بالحرص والطمع، فإنّه مع ما يكون لديه من وسائل الرفاهيّة والراحة، سيبقى يفكّر فيما ينبغي أن يحصل عليه لكي ينال المزيد من الإمكانات والوسائل. فبهذه التصوّرات، سيرى نفسه دومًا بحاجة إلى الآخرين ولن يبقى له مجالٌ ليفكّر في نفسه وفي تحصيل كمالاته الإنسانيّة: والتفكّر فيما خُلق لأجله وما ينبغي أن يقدّم لآخرته. فقد وقع في فخّ الطمع الذي لن يترك له مجالًا للتفرّغ والراحة. وهكذا، ينتقل إلى ذلك العالم دون الزاد المطلوب.

لو قنع الإنسان بقوت يومه ورأى نفسه مستغنيًا ولم يمدّ يده للآخرين، فإنّه يمكنه عندئذٍ أن يقضي وقته في طريق التكامل. إنّه يملك القناعة وهي رأسمال عظيم، وحينئذٍ سيجد المجال للعبادة وتحصيل العلم والجهاد وخدمة الناس. ثمّ إنّه في آخر الأمر سينهض للقيام بكلّ عملٍ يرضي الله وينفع آخرته.

وعن الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «أظهر اليأس من الناس فإنّ ذلك من الغنى»[١].

وعن عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «أشرف الغنى ترك المنى»[٢].

فعلى الإنسان أن يعلّق رجاءه بما في يد الله أكثر ممّا في أيدي الناس. وهذا هو غنى النفس. وإنّ الغنى عن الناس لا يحصل إلّا بالاطمئنان والثقة بما عند الله والتوكّل عليه وعدم إيكال الأمر إلى الغير والعلم بأنّ نفعه وضرره من الله، وأنّه تعالى يفعل كلّ ما يصلح عباده وهو يريد أن يجنّبهم ما يضرّهم. ففي مثل هذه الحالة، سيصبح المرء غنيًّا ومستغنيًا عن الآخرين. ولو لم يكن في يده شيءٌ من المال، فإنّه سيرى نفسه مقتدرًا كما قال النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «ليس الغنى في كثرة العَرَض وإنّما الغنى غَناء النفس»[٣].

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٨، الصفحة ١٨٥.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الحكمة ٣٤، الصفحة ١٠.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٠٠، الصفحة ٢٠.

الدرس التاسع والثلاثون
ملاك القيمة عند الله تعالى

❖ الإيمان والعمل الصالح ملاك علوّ الإنسان
❖ العمل المفيد والقيّم في الإسلام
❖ أهمّيّة الإخلاص في البرامج الثقافيّة والدينيّة
❖ موقع النيّة والميول الباطنيّة
❖ الطريق إلى سلامة الدوافع والنيّة

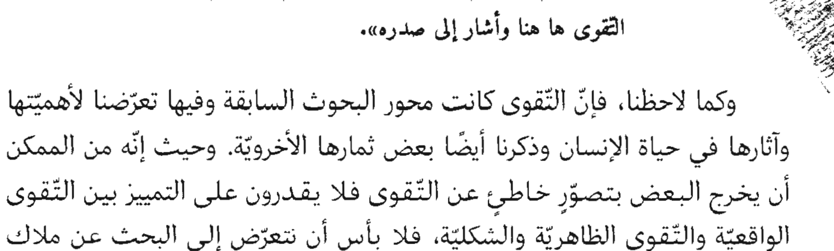

«يا أبا ذرّ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: إني لست كلام الحكيم أتقبّل، ولكن همّه وهواه. فإذا كان همّه وهواه فيما أحبّ وأرضى جعلت صمته حمدًا لي وذكرًا [ووقارًا] وإن لم يتكلّم. يا أبا ذرّ، إنّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم [أقوالكم] ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. يا أبا ذرّ، التقوى ها هنا التقوى ها هنا وأشار إلى صدره».

وكما لاحظنا، فإنّ التّقوى كانت محور البحوث السابقة وفيها تعرّضنا لأهميّتها وآثارها في حياة الإنسان وذكرنا أيضًا بعض ثمارها الأخرويّة. وحيث إنّه من الممكن أن يخرج البعض بتصوّرٍ خاطئٍ عن التّقوى فلا يقدرون على التمييز بين التّقوى الواقعيّة والتّقوى الظاهريّة والشكليّة، فلا بأس أن نتعرّض إلى البحث عن ملاك تقييم الأعمال والسلوك.

اعتاد أكثر الناس أن يحكموا على الأفراد على أساس الظاهر. فإذا شاهدوا شخصًا كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن والصلاة أوّل الوقت فإنّهم يعدّونه تقيًّا، أو إنّهم إذا رأوا من يولي مسائل الطهارة أهميّةً فائقةً، عدوّه من الأتقياء الصالحين. ولكن هذا تصوّر سطحيّ وغير صحيح. فلأجل معرفة الملاك الواقعيّ لفضيلة الإنسان وقيمته، ذكر علماء الأخلاق مجموعةً من البحوث النظريّة والأساسيّة الّتي تتعلّق بمعيار الحسن والقبح في الأعمال وفي قيمة الإنسان، ونحن نشير إليها ها هنا:

أ. الإيمان والعمل الصالح ملاك علوّ الإنسان

إنّ قيمة الإنسان بحسب الرؤية القرآنيّة تكمن في الإيمان والعمل الصالح. ولعلّنا لا نجد صفحةً واحدةً في الكتاب العزيز لم تتعرّض لهاتَين المسألتَين: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[١].

وفي موضعٍ آخر، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٢].

وللناس مقامان متقابلان: أحدهما يتعلّق بالأتقياء وأصحاب الفضيلة كالأنبياء والصلحاء والأولياء والصدّيقين والشهداء. ولهذا السبب، سجد الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أيضًا السرّ في أنّ الإنسان يصل إلى منزلة يصفها القرآن الكريم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٣].

والنقطة المقابلة لهذا المقام هي السقوط والانحطاط والبعد عن الله. فحين يمتنع الإنسان عن عبادة الله وأداء تكاليفه الفرديّة والاجتماعيّة، وبعبارةٍ موجزة لا يؤدّي دوره الإنسانيّ فهو يسلك مسير السقوط، ويصل إلى تلك الدرجة التي يصبح فيها أسوأ من الأنعام: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٤].

فقيمة الإنسان إذن في الالتفات إلى الجهة الملكوتيّة والإلهيّة من وجوده والتي تنبع من القلب وتسري منه إلى سائر الأعضاء والجوارح. فللسان حصّة من ذكر الله، وللعين حصّة في النظر إلى آيات القرآن الكريم، وللأذن حصّة في الاستماع إلى الكلام الحقّ، وهكذا بالنسبة لليد والرجل فيما يتعلّق بالتحرّك في سبيل الله. فإذا نظرنا وشاهدنا أنّ القرآن الكريم يحثّ على ذكر الله بهذه الصورة، أو يؤكّد على مسؤوليّة الإنسان في أن يصلّي خمس مرّات كلّ يوم فذلك لأنّ حياته بدون ذكر الله والتوجّه إليه ستكون فاقدةً للقيمة، وأنّ ذلك الطريق هو الطريق الوحيد للوصول إلى قرب الله سبحانه.

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٨٨.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٦٠.

(٣) سورة **القمر**، الآية ٥٥.

(٤) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

ويشترك الإسلام مع جميع الأديان الإلهيّة في اعتبار الإنسان صاحب قيمتَين متضادّتَين (في الإيجاب والسلب) بشكل غير متناه. وهذا الشيء لا يمكن إدراكه وفق المعايير البشريّة العاديّة، وإنّما يُبرّر ويُفهم وفق تلك المعايير الإلهيّة. أضف إلى ذلك أنّ الإسلام لم يحصر مثل هذه القيمة في مجموع عمر الإنسان، وإنّما هو يعمّمها لتشمل ساعات عمره أيضًا، وكأنّه يقول لنا: إنّ الإنسان قادر على أن يوصل نفسه في ساعة واحدة إلى تلك النقطة من القيمة الوجوديّة اللا متناهية، فبساعة قد يصل إلى تلك السعادة الأبديّة والمطلقة وإلى أعلى عليّين؛ وبساعة أيضًا يمكن أن ينزل إلى أسوأ درجات الشّقاء وإلى أسفل سافلين الذي لا حدّ له من حيث التسافل، كلّ ذلك في مدّة ساعةٍ واحدةٍ فقط!!

فملاك التقييم في الإسلام هو صلاح الفرد وصلاح نيّته. وليس مجرّد إيصال النفع للمجتمع ملاكًا للتقييم وفق الرؤية الإسلاميّة، وإن كان المجتمع سيعطي الفرد قيمته بالمقدار الذي ينتفع منه. وما أكثر ما يكون بعض الأفراد الذين حصلوا على المكانة الرفيعة في المجتمع فاقدين لأيّة قيمة في الإسلام. لا بل إنّ مقامهم يكون في أسفل السلّم، وذلك لأنّهم في الباطن فاسدون وفي الخفاء مخادعون، يخفون في باطنهم السوء والانحراف.

لهذا، من الممكن أن يكون أحد الأفراد ممّن يقدم للمجتمع الخدمات الجليلة، ولكنّه بذاته شخص شقيّ، كالعالم الدينيّ الذي يعلّم الناس المعارف الدينيّة ويستفيد منه الناس ويصلون بعلمه إلى السعادة، ولكنّه هو يشقى بذلك لأنّه لا يعمل بما يقول ويسلك طريق جهنّم. أو ذلك الغنيّ الذي ينفق أمواله على الناس وفي الأعمال الخيريّة، ولكنّ هدفه نيل الجاه والشهرة. ومن المسلّم أنّ عمله هذا سيكون فاقدًا للاعتبار وفق النظرة الإسلاميّة. فما يضفي على وجود الإنسان وأعماله القيمة الواقعيّة هو ارتباطه بالأبديّة والعالم اللا متناهي. وهذا الارتباط أمرٌ قلبيّ يحصل بواسطة النيّة والتوجّه القلبيّ إلى الله.

فالعمل إذا كان لله صارت قيمته غير متناهية، سواء أكان بظاهره صغيرًا أم كبيرًا. من الطبيعيّ أنّ معرفة الإنسان بالله كلّما ازدادت وصار عمله أكثر إخلاصًا، علت منزلته وارتفعت قيمته. وفي المقابل، كلّما نقص من خلوصه وازداد توجّهه إلى الناس لجذب قلوبهم ونيل الشهرة والجاه بينهم، قلّت قيمة عمله وإن كان

حجمه الظاهريّ عظيمًا جدًّا. وهكذا، نستنتج أنّ ما يضفي على حياة الإنسان قيمتها، يكمن في الواقع في التوجّه إلى الله. فإذا كان الإنسان ذاكرًا لله، فهو يستطيع أن يؤدّي أعماله له. وفي غير هذه الحالة، لا يمكن أن يعمل لله، وعندها سيفقد عمله قيمته الإيجابيّة.

ب. العمل المفيد والقيّم في الإسلام

أكثر الناس يتصوّرون أنّ العمل كلّما كان أكثر فائدةً للمجتمع، فإنّ قيمته المعنويّة سترتفع، وسيؤثّر أكثر في تكامل فاعله معنويًّا وروحيًّا. يتصوّر هؤلاء أن هذا العمل هو لله أو في سبيل الله إذا كان قد أدّاه صاحبه لمنفعة الناس، ولهذا فإنّهم يتوجّهون إلى حجمه ومقداره. فيقولون: انظروا إلى فلان كم أنفق من ماله، وكم بنى من مستشفيات أو مساجد، فهذا التصوّر ساذج. وصحيح أنّ أحد معايير جودة العمل هو أن يكون مفيدًا للناس والمجتمع، ولكنّ ذلك لا يعني أنّ كلّ عملٍ حسنٍ يتمتّع بالحسن الفعليّ، يكون سببًا لكمال فاعله. فإنّ العمل الذي يتكامل به صاحبه، يجب بالإضافة إلى كونه يتمتّع بالحسن الفعليّ الذي هو صفة لنفس العمل أن يكون متمتّعًا بالحسن الفاعليّ أيضًا، أي أن تكون دوافع فاعله ونيّته سليمةً وبنّاءةً وتوجّهه إلى الله تعالى. ففي الإسلام، يُعدّ المعيار الحقيقيّ للعمل الإلهيّ الذي يكون لله وفي سبيل الله ومؤثّرًا في تكامل الإنسان وعلوّه ليس هو أن يكون نافعًا للناس فحسب، وإنّما المعيار للعمل الإلهيّ هو أن يؤدّيه الإنسان من أجل كسب رضى الله تعالى، وأن يكون الدافع الإلهيّ هو الذي حمله على القيام بذلك الفعل.

فقولنا «في سبيل الله» يعني أن يكون العمل متّجهًا نحو الله وأن تكون غايته هي الله، وإلّا ما كان عملًا إلهيًّا. فإذا كان الهدف هو جذب قلوب الناس، صارت الوسيلة أيضًا جذب قلوب الناس. فالعمل الذي يكون لله وعلى طريقه إنّما يكون في حال كون فاعله متّجهًا إلى الله. ولا يكون هذا الأمر ميسّرًا لأحد إلّا إذا عرف الله وأدرك قيمة التقرّب إليه.

وصحيح أنّ أحد معايير حسن الفعل هو: كون الفعل مفيدًا ونافعًا للناس. فكلّ من يكون عمله أكثر فائدةً للمجتمع يصبح عمله أحسن.

وبالتأمّل في آيات القرآن الكريم، ندرك أنّ الكثير من الأعمال التي تبدو لنا حسنةً قد تكون فاقدةً لأي تحسينٍ، بل تُعدّ سيّئةً ومذمومةً من وجهة نظر القرآن الكريم. ومن جملتها الإنفاق على الآخرين الذي نعدّه من الأعمال الصالحة بحيث إذا وجدنا شخصًا ينفق الكثير من ماله على الأمور الخيريّة فنحن نمدحه، هذا في حين أنّ بعض هؤلاء لا يكون مخلصًا في نيّته. ولهذا، يذمّه القرآن ويعده بالندامة والحسرة يوم القيامة. لأنّ من يصرف ماله لأجل مراءاة الناس لن يكون مصيره إلّا الخسران. فكم من الناس أضحوا في أعين المجتمع عظماء، وزيّنت الشوارع صورهم وصُنعت لهم التماثيل، لكي يعرفهم الجميع تحت عنوان أهل الخير، ولكنّ القرآن الكريم يحدّثنا عنهم قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ...﴾[١].

فإذا كان الإنفاق بهدف الرياء والتظاهر، وكان فاقدًا للإيمان بالله وباليوم الآخر فإنّه سيكون فاقدًا لأيّة قيمة. ومثَل هذا المرائي كمثل من يضع الحبوب والبذور في أرضٍ غير خصبة، أو على صخرةٍ ملساء وهو يتوقّع أن تتفتّح وتثمر! وهو غافلٌ عن أنّ ريحًا قويّةً ستعصف بها أو أنّ مطرًا غزيرًا سيسقط عليها ويزيلها من فوق تلك الصخرة فتصبح هباءً منثورًا. لهذا، فإنّ هؤلاء المنفقين لن ينالوا شيئًا مقابل تلك الأموال التي أنفقوها والجهود التي بذلوها، لأنّ أعمالهم لم تكن على أساس الإيمان بالله وبالآخرة.

فهذه الفئة تنفق لأجل التظاهر والتنافس والجاه والشهرة بين الناس بذريعة خدمة المجتمع، وإذا كان لأحدهم منصب كالنيابة في البرلمان، فإنه يخدم الناس لأجل أن يُعاد انتخابه في المرّة الثانية. وإذا كان يشغل منصبًا تنفيذيًّا فإنّه يفعل ذلك لأجل أن ينال منصبًا أعلى. فإنفاقهم لا قيمة له عند الله أبدًا، ولا دور له في سعادتهم الأخرويّة. إنّ معيار صلاح العمل الذي يوصل الإنسان إلى السعادة الأخرويّة هو أن يكون مقرونًا بالإيمان ونابعًا منه. ولهذا، نجد أن الله تعالى قد ذكر الإيمان مع العمل الصالح في كتابه العزيز: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾[٢]؛ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

وفي آية أخرى، يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

لهذا، يجب حفظ الرابطة بين الإيمان والعمل، لأنّ العمل الوحيد الذي يمكن أن يكون في سبيل الله، هو الذي ينبع من الإيمان والاعتقاد به سبحانه: ﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾[٣].

فهذا المنفق الذي يتزكّى، ولكنّه لا يقصد التظاهر وجذب القلوب والحصول على التقدير والشكر، فإنّه لا يتوقّف عن مثل هذا العمل حتّى لو قابله الناس بالإساءة والطعن. ذلك لأنّه ينفق كما أمره الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٤].

ثمّ يعقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾.

فإذا انطلقت أعمالنا من الإيمان وصارت لوجه الله فإنّها تكون صالحةً. أمّا إذا فقدت قصد التقرّب والنيّة الإلهيّة فإنّها تكون كالجسم بلا روح، ميتةً ليس لها إلّا الشكل الظاهريّ. وهذه الأعمال الظاهريّة الفاقدة للروح لا توجد أيّ تحوّل وتزكية، بل تتّجه نحو الفساد والزوال. فالعمل الذي يفقد روحه لا يخسر عنصر التكامل فحسب، بل يتسبّب بالمفاسد أيضًا. وعليه، ليس صحيحًا أن نقول إنّ كلّ ما ينفع الناس ويخدم المجتمع عمل صالح وحسن، بل علينا أن نلاحظ فيه الدافع والنيّة.

وما ذكرناه لا ينحصر بالأشخاص العاديّين، فهناك بعض أهل العلم ممّن يعدّ المِلاك لحسن العمل في العدالة الظاهرية والنفع الذي يحقّقه للناس والمجتمع. هذا في حين أنّ ملاك حسن العمل وتأثيره على سعادة الإنسان أمرٌ آخر.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨٢.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٩٧.

(٣) سورة **الليل**، الآيات ١٨ - ٢٠.

(٤) سورة **الإنسان**، الآية ٨.

فمن السذاجة أن نجعل حجم العمل وتأثيره الاجتماعيّ مِلاكًا للحكم، لأنّ هذا المعيار ليس معيارًا إلهيًّا، والله تعالى لا ينظر إلى حجم العمل.. إن الله تعالى لا ينظر إلى كميّة المال المنفقة ومدى الجهد المبذول، بل ينظر إلى ما كان في هذا العمل لوجهه تعالى، وعلى هذا الأساس يكون العمل مؤثّرًا في سعادة الإنسان. أمّا في العبادات المشروطة بقصد القربة، فإنّ العابد لو أشرك في نيّته أحدًا غير الله ولو بمقدار رأس إبرة فإنّ ذلك سيؤدّي إلى بطلان عمله وفساده. فالواجبات والمستحبّات التعبديّة والأعمال التي يُشترط فيها قصد التقرّب يجب أن تكون خالصةً لله. وإذا تظاهر العابد ها هنا وأراد أن يرضي الناس برعاية الآداب وصلّى الصلاة بكلّ تفاصيلها من أجل جذب القلوب فإنّ عمله لن يكون فاسدًا فحسب، بل يُعدّ قد ارتكب محرّمًا ويعاقب عليه أيضًا.

بل حتّى ذلك الجزء من العمل الذي كان لله فهو لن يقبل منه، لأنّ الله تعالى يقول: «**أنا خير شريكٍ، من أشرك معي غيري في عملٍ عمله لم أقبله إلّا ما كان لي خالصًا**»[١].

لو أشرك المرء في عمله التعبّدي وجعل في نيّته مع الله غيره، فإنّ الله سبحانه وتعالى يمنح حصّته إلى الشريك! ولأنّ عمله لم يكن خالصًا، فإنّه يذهب جُفاء. فمن الممكن أن تكون عاقبة الإنسان بعد عمرٍ من السعي والعمل المتواصل هي الشقاء والخسران. ذلك لأنّه قد قضى عمره في تحصيل العلم وهو يتصوّر أنّه يتعلّم لله، ولكن إذا فتّش في زوايا نيّته، لرأى أنّ هدفه لم يكن سوى الوصول إلى المنصب والجاه والموقعيّة الاجتماعيّة. فجميع مساعيه كانت من أجل أن يُذكر بين الناس بالخير وأن يُعرف بينهم بالشهرة الحسنة، أو ينال مقامًا ومنصبًا.

فلو قال مثل هذا الشخص إنّني أخدم الناس، وقد خلّصت الكثير من الفقراء من الجوع وأمّنت الكثير من الوسائل الطبّية لمعالجة المرضى وعمّرت المدارس والمستشفيات، فإنّ الله تعالى سيقول له: إنّ كل ما فعلته لن ينفعك، فإنّ أجرك وثوابك هو ثناء الناس عليك، ووضع صورك على الجدران وطباعتها في المجلّات والجرائد، واشتهارك بأنّك من أهل الخير!

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٩٥.

فمِلاك صلاح العمل أو فساده يرتبط بالقلب: يجب أن ننظر إلى منشأ التحرّك لذلك العمل ماذا كان لنتعرّف عليه، فهل هو حبّ الدنيا أو حبّ الله؟ فلو كان العمل خالصًا لله، فإنّه يؤدّي إلى تكامل الإنسان ورفعته. وفي غير هذه الحالة، فإنه لن يكون بعيدًا عن الكمال الروحيّ فحسب، بل من الممكن أن يؤدّي أيضًا إلى سقوطه وتسافله. وإذا كان ذلك العمل من جملة العبادات فإنّه يبطل بالرياء. وإذا كان من الأعمال التوصليّة التي لا يُشترط فيها قصد القربة، فإنّه يفقد قيمته ولن ينال الثواب المترتّب على قصد القربة فيه. فقيمة كلّ عملٍ لا تنحصر بالنفع الذي يوصله إلى الناس والمجتمع (سواءٌ كان المجتمع إسلاميًّا أم غير إسلاميّ). حتّى أنّ قيمة العمل لا تنحصر في أن يكون مفيدًا للدين والمتديّنين، فقد يؤدّي الإنسان عملًا يكون نافعًا للدين، ومع ذلك قد لا يوصل إليه نفعًا بل يكون سببًا لضرره وخسرانه، لأنّ عمله لم يكن خالصًا لله.

وما أكثر أولئك الذين مرّوا على طول التاريخ وقاموا بأعمالٍ أدّت إلى انتشار هذا الدين وقوّته، ولكنّهم لم يجنوا سوى الخسارة لأنّ أعمالهم تلك لم تكن نابعةً من قصد التقرّب إلى الله. فما طلبوه هو الفتوحات والشهرة والمنزلة بين الناس، وكلّ هذه لا دخل لها في الكمال الواقعيّ للإنسان. وقد جاء في إحدى الروايات: «إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[١].

ومن الممكن أن نجد بعض الحكّام الفسقة والفجرة الذين فتحوا الكثير من المناطق ونشروا الإسلام فيها ولكنّ دوافعهم كانت شخصيّةً محضةً يطلبون فيها الشهرة والمزيد من النفوذ والسلطة! هذا، وإن كانت أعمالهم قد أفادت الدين والإسلام، ولكنّها لن تعود عليهم بأيّ نفعٍ. فيجب أن ندرك معنى دور الدافع والنيّة الباطنيّة لنعلم أن ما يعطي العمل قيمته ورفعته هو الدافع الإلهيّ. ومن الممكن أن نعدّ بعض الأعمال حقيرةً أو قليلةً، ولكنّها قد ارتبطت بالدوافع الصحيحة والخالصة ولهذا فإنّها ستكون مقدّسةً وقيّمةً.

---

(١) الشهيد الثاني، **منية المريد**، تحقيق: رضا المختاري (مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة ١، ١٤٠٩ - ١٣٦٨ ش)، الصفحة ١٤٤.

ج. أهميّة الإخلاص في البرامج الثقافيّة والدينيّة

في هذا المجال، يجب أن يلتفت المبلّغون إلى ضرورة الإخلاص في نيّاتهم عند تبليغ هذا الدين وإقامة البرامج الدينيّة وتأسيس المراكز وحثّ الآخرين على مثل هذه الأمور. فمن الممكن أن يهتدي الكثير من الناس بفضل مواعظهم ودروسهم ويتعرّفوا على الصراط المستقيم، وينجذبوا إلى المسائل الثقافيّة والدينيّة. ومن خلال سعيهم في بناء المساجد وتأسيس المراكز الدينيّة، قد يتمكّن هؤلاء من إيجاد الأرضيّة المناسبة لانتشار الروح الثقافيّة والتكامل الكمّي والكيفيّ في الأبعاد الثقافيّة داخل المجتمع، ولكن لا ينبغي أن يظنّوا أنّ تلك الأنشطة ستكون دائمًا لنفعهم وأنّهم سيجنون من ورائها الثمرة الأخرويّة المتوقّعة. فتلك الأنشطة إنّما تكون مفيدةً لنا وسببًا لعلوّنا وكمالنا حين نجعل الغاية من ورائها هو الله سبحانه. فلتكن تحرّكاتنا ومساعينا لأجل نشر هذا الدين فقط بعيدًا عن الدوافع الشخصيّة، فعندها سننال السعادة الكبرى.

أمّا إذا كانت دوافعنا شخصيّةً وماديّةً ونتحرّك على أساسها، فلا ينبغي أن نتوقّع أن ننال الثواب من الله تعالى. لهذا، لا ينبغي أن نغفل عن هذه القضيّة فنتصوّر أنّ العمل إذا كان عظيم النتائج، فهذا يعني أنّه سيكون نافعًا لنا، وبعدها نقع في الغرور. بل علينا أن نتفحّص نيّاتنا، فبذلك نجنّب أنفسنا مثل هذا الغرور. وكم يحدث أنّه بمجرّد أن نلتفت إلى باطننا فنحن نعرف حقيقتها ونخجل من أنفسنا. ويبيّن رسول الله هذا الأمر بقوله: «**يا أبا ذرّ؛ إنّ الله عزّ وجلّ يقول: إني لست كلام الحكيم أتقبّل ولكن همّه وهواه. فإن كان همّه وهواه فيما أحبّ وأرضى جعلت صمته حمدًا لي وذكرًا [ووقارًا] وإن لم يتكلّم**».

أولئك الذين درسوا الحكمة ونقلوها للناس، سينالون الثناء والتقدير منهم. وسينظر الناس إليهم نظرةً حسنةً، يرونهم فيها من أهل المقام المنيع! ولا شكّ بأنّ تكليف الإنسان أن يحسن الظنّ بغيره، ولكن على المتكلّم أن ينظر إلى نفسه ليتحقّق من مستوى اطمئنانه بعمله. فهل إنّني حين أعظ وأدرّس سيتقبّل الله منّي ويقرّبني إليه أكثر أم لا؟ والله تعالى بنفسه يجيب عن هذا التساؤل ليقول لنا إنّه لا ينظر إلى كلام الحكيم، بل إلى دافعه ونيّته التي تقف وراء كلامه. فالله ينظر إلى ميول الناس ودوافعهم. ويريد أن يرى ما في قلوبهم: هل إنّهم يريدون جذب الناس إليهم

والحصول على تقديرهم ورضاهم، أم ينظرون إلى التكليف فقط ويكون أكبر همّهم هو تحمّل المسؤوليّة والقيام بها، بغضّ النظر عمّا يرضي الناس أو يسخطهم. وبذلك لن يقصّروا في واجباتهم، حتّى لو لم يكن في كلامهم ما يعجب الناس، طالما أنّهم يؤدّون ما عليهم.

فحين تصبح الميول والدوافع مرضيّةً عند الله، فإنّ الله سيثيب أمثال هؤلاء على سكوتهم مثل ما يثيبهم على ذكرهم وحمدهم لأنّ قلوبهم متوجّهة إليه: همّهم القيام بما يرضي الله تعالى. فإذا وجدوا رضا الله في السكوت سكتوا، وكان سكوتهم عندئذ عبادةً. وما أكثر أن يكون سكوت أمثال هؤلاء أفضل من عبادة الآخرين، وأكثر تأثيرًا في تكاملهم الروحيّ والمعنويّ. فالذي يدرس ويعمل للناس ويتوجّه بقلبه إليهم لن ينال أيّة فضيلةٍ أو ثواب، وسيكون جزاؤه ما حصل عليه من تقدير الناس واستحسانهم، لأنّه لم يعمل لله لكي ينال الأجر منه.

وبالتوجّه إلى ما ذُكر، وما عرفناه من التأثير المحوريّ للدوافع والميول الباطنيّة في هويّة العمل وماهيّته، فإذا شاهدنا شخصًا يقول ما يراه تكليفه، ولو لم يعجب الناس، فإنّه يجب أن نعلم أنّ دافعه إلهيّ. ولهذا، يتمتّع عمله وكلامه بالقيمة العظيمة. أمّا إذا كان في كلامه متوجّهًا إلى الناس يريد رضاهم، ثمّ علم أن الله سيكون راضيًا عن هذا الحديث، ولكنّه رأى أنّ الظروف الاجتماعيّة ليست مساعدةً: ولهذا فهو لم يتكلّم لأنّه يخاف أن ينزعج الناس من كلامه! فدافعه ليس لله وقلبه تابعٌ لرضا الناس. ولهذا، فإنّه حين يجد الفرصة مناسبةً للحديث ثمّ يتحدّث ويدرّس، فإنّه لن يترتب على كلامه أيّة فائدةٍ أو قيمة، لأنّه يتوجّه بفعله إلى الناس.

د. موقع النيّة والميول الباطنيّة

«يا أبا ذرّ؛ إنّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم [أقوالكم] ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(يبدو أنّ لفظ «أقوالكم» بعد صوركم أنسب وأصحّ، وإن كان استعمال كلمة أموالكم من الممكن أن يكون صحيحًا).

إنّ الله تعالى لا ينظر إلى ظاهر الناس وصورهم وإلى ما يقولون ويدّعون. إنّه تعالى لا ينظر إلى جباهنا إذا كانت تحمل أثر السجود، ولا إلى لباسنا كيف يبدو، بل

ينظر إلى قلوبنا وإلى أعمالنا هل تنسجم مع ادّعاءاتنا. إنّه ينظر إلى قلوبنا وهل هي أفضل من ظواهرنا، أم أنّها لا سمح الله متعفّنة وملوّثة لكن مع حسن الظاهر! ففي هذه الحالة، لن يكون بعيدًا عن الثواب الإلهيّ فحسب، بل سيجعله الله في زمرة المنافقين أيضًا.

فهذا القسم من الحديث يهزّ الإنسان من أعماقه ويحذّره، ويجب أن نأخذ هذا التحذير على محمل الجدّ، وعندها فإنّ الكثير من أحكامنا بشأن أنفسنا ستتبدّل [ولا شكّ بأنّ على الإنسان أن يحسن الظنّ بغيره] فلو فتّش الإنسان في نيّاته لاطّلع على أنّ الكثير منها ليس لله وليس خالصًا لوجهه. أو على الأقلّ إنّ قسمًا منها بعيد عن الدافع الإلهيّ. وقد جعل مع الله شريكًا، والله تعالى بنفسه يقول إنّ من يشرك معه غيره فهو سبحانه يمنح حصّته لذلك الغير.

علينا أن ننظر إلى كلامنا الذي يصدر منّا، وأعمالنا التي نؤدّيها، ودروسنا التي نتلقّاها، ومواعظنا التي نلقيها، وإلى صلاتنا التي نصلّيها جماعةً، ما هي النيّة والدافع المصاحب لها: أهي لأجل أنّ الله يحبّها أم لدوافع أخرى؟ فلو لم تكن أعمالنا العباديّة خالصةً وشابتها الدوافع غير الإلهيّة، فإنّ أعمالنا الأخرى ستخلو أيضًا من الإخلاص. هذا بالإضافة إلى أنّ الأعمال والتكاليف العباديّة غير الخالصة تكون باطلةً من الأساس.

إنّ تلك الآفات كالرياء والتظاهر ودخالة الدوافع النفسانيّة في العبادات توجد في الأشخاص الذين يعملون على هداية وإرشاد الناس أكثر من غيرهم: فذلك البقّال أو العامل الذي يرجع إلى بيته بعد نهار عملٍ طويل ويصلّي تلك الصلاة المختصرة، لا يرائي فيها. أمّا بالنسبة لذلك الشخص الذي تقلّد إمامة الجماعة وهو يعظ الناس ويدرّسهم العلوم الدينيّة ويتحمّل مسؤوليّة إرشادهم، فإنّ قضيّة الرياء وتلوّث الدوافع بالصبغة غير الإلهيّة أمرٌ مطروحٌ بصورةٍ جدّية بالنسبة إليه. ففي مثل هذه الحالة، ما أكثر ما يؤدّي الرياء إلى الخسارة الدنيويّة والأخرويّة.

ثمّ نجد النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يشير إلى صدره لأجل بيان أنّ السلوك والأعمال الظاهريّة والادّعاءات لا تدلّ على التّقوى لأنّ التّقوى صفةٌ تقع في باطن الأفراد وفي قلوبهم وأنّ ملاك رفعة العمل بالنيّة والدافع الخالص، ويقول: «**يا أبا ذرّ: التّقوى ها هنا، التّقوى ها هنا**».

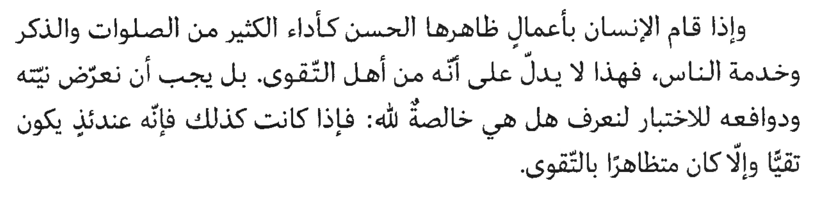

وإذا قام الإنسان بأعمالٍ ظاهرها الحسن كأداء الكثير من الصلوات والذكر وخدمة الناس، فهذا لا يدلّ على أنّه من أهل التّقوى. بل يجب أن نعرّض نيّته ودوافعه للاختبار لنعرف هل هي خالصةٌ لله: فإذا كانت كذلك فإنّه عندئذٍ يكون تقيًّا وإلّا كان متظاهرًا بالتّقوى.

وقد ذكرنا سابقًا أنّ الأعمال الصالحة أو اجتناب المحرّمات وأداء الواجبات قد يُطلق عليها كلمة التّقوى، وأحيانًا تطلق على تلك الملكة النفسانيّة التي هي منشأ الأعمال الصالحة كلمة التّقوى. وبالتوجه إلى هذا الأمر، فإنّ الأعمال والعبادات والحسنات إنّما تكون من مصاديق التّقوى إذا كان منشؤها ومبدؤها محبّة الله والدوافع الإلهيّة. لهذا، يجب أن ندقّق أكثر في مبادئ الأعمال، لأنّ الأعمال لا يمكن أن تخلو من الدوافع والمبادئ النفسانيّة: فأعمالالإنسان الاختياريّة إنّما تنبع من الدوافع والنيّات، وهذه الدوافع هي التي توجد في الإنسان الشوق للقيام بالعمل. وفي الواقع، يكون العمل والقول تبلورًا للإرادة والنيّة. ولا شكّ أنّه من الممكن أن ينوي الإنسان القيام بعملٍ ما ويعدّ نفسه لذلك، ولكنّ مقدّماته الخارجيّة تزول دفعةً واحدةً ويبقى عاجزًا عن القيام بما نوى. ففي هذه الحالة، يبقى الأثر المعنويّ للعمل في قلبه، وإن لم يكن ذا أثرٍ في الخارج. فذلك الأثر المعنويّ إنّما ينشأ من الميل والنيّة الباطنيّة التي عُبّر عنها في الرواية بالهمّ.

فالنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول: انظر إلى ما يدفعك للعمل من أين ينبع؛ وما هي ميولك الباطنيّة وإلى أين تتّجه؟ فهل أنت طالبٌ لله والخضوع لإرادته، أم تريد الناس والمصالح الدنيويّة؟ فإذا أدّيت ذلك العمل بدافعٍ غير إلهيٍّ، فإنّه وإن كان عملًا صالحًا وحسنًا، لكنّه لن يؤدّي إلى حصول الأثر المعنويّ والإلهيّ حتّى لو كان سببًا لنصرة الدين وانتشاره أيضًا، فإنّه لن يؤدّي إلى سعادة صاحبه. فالنيّة الإلهيّة لم تكن وراءه، فقد أفقدته جهة القرب من الحقّ تعالى. إنّ الله تعالى ينظر إلى باطن العمل وإلى الدوافع التي تقف وراء ذلك العمل: فإذا كانت الدوافع إلهيّةً فإنّه يقبل ذلك العمل، وإلّا فإنّه سيردّه. ذلك لأنّه لا يهتمّ بظاهره: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَـكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ...﴾[1].

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٣٧.

هـ . الطريق إلى سلامة الدوافع والنيّة

فشكل العمل لا ربط له بالله، بل إنّه يرتبط بالناس وبعالم الطبيعة، وما يرتبط بالله هو القلب والنيّة الإنسانيّة. وبالالتفات إلى كلام النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ينبغي أن ننظر حين القيام بأيّ عمل إلى الدوافع التي تحملنا على ذلك العمل. وإذا لم تكن دوافعنا خالصةً فعلينا أن نسعى لجعلها خالصةً، وليس هذا بالأمر السهل؛ وإنّما يحتاج إلى تأمين الأرضيّة والمقدّمات اللازمة. وفي هذا المجال، يجب أن نطلب العون والمدد في الدرجة الأولى من الله تعالى، ونسعى جهدنا لتهذيب أنفسنا وتصفيتها من الشوائب والدوافع غير الإلهيّة، وذلك من خلال الرياضة والتمرين وتهذيب النفس. فمن الممكن للإنسان إذا رأى أنّ نيّته ليست خالصةً وقد اعترتها الشوائب، أن يترك عمله بدلًا من أن يسعى لإصلاحه والإخلاص فيه. وليس هذا إلّا من مكائد الشيطان الذي يريد صدّ الإنسان عن الأعمال الصالحة. فمثلًا حين يأتي شهر محرّم فإنّ صاحبنا يصمّم على الذهاب إلى التبليغ ثمّ يجد أن نيّته ودوافعه غير خالصةٍ فيفكّر بالانصراف عن هذا الأمر وهو يقول في نفسه: حيث إنّ نيّتي غير خالصةٍ فلا ينبغي أن أذهب للتبليغ. وهذا ما يريده الشيطان تمامًا. لأنّ تكليف هذا العالم هو أن يهدي الناس من خلال التبليغ، وإذا ترك هذا التكليف تحت وقع الوساوس الشيطانيّة، فإنّه يكون قد هيّأ الفرصة المناسبة للشيطان للمزيد من إضلال الناس. لهذا إذا رأينا نيّاتنا غير خالصةٍ فلا ينبغي أن نترك وظائفنا وتكاليفنا، بل نسعى لتخليصها من الشوائب.

ومن جملة الأمور التي تساعد في هذا المجال: أنّنا إذا كنّا سنحصل على بعض المال في مقابل الأنشطة التبليغيّة فالأفضل أن لا نقبلها أو أن نأخذ القليل منها أو نقرّر أن نصرف ذلك المال في المكان المناسب. وإذا شاهدنا من هو أكثر احتياجًا منّا فلنقدّم له ذلك المال. إنّ مثل هذه الأعمال تؤدّي إلى الحدّ من الأغراض النفسانيّة والدوافع غير الإلهيّة وتجعل عمل الإنسان أشدّ خلوصًا.

نقل لي أحد الأصدقاء أنّه ذهب ذات يوم أثناء أيّام الدراسة للتبليغ في إحدى المدن المحيطة بطهران. وكان في المنطقة أحد العلماء المحترمين الذي كان الناس يعرفونه جيّدًا وهو يتمتّع بمنزلة رفيعة بينهم. فأرسلونا إلى إحدى القرى المجاورة لتلك المدينة. ولأنّنا كنّا قليلي الخبرة في التبليغ وكانت هذه هي المرّة الأولى التي

نخطب فيها، لذا لم يقع مِنبرنا في تلك الأيّام مورد قبول الناس وإعجابهم، ولهذا قدّموا لنا القليل من المال. وبعد انتهاء الموسم التبليغيّ، ذهبت مع باقي الخطباء لتوديع ذلك العالِم الجليل. فاستقبلنا بكلّ تواضع وضيّفنا عنده وبعد الحديث قال لنا بمزاحٍ: تعالوا أيّها الأخوة نغمض أعيننا ونضمّ كلّ ما حصلنا عليه في هذا الموسم التبليغيّ من مال ثمّ نقوم بتقسيم المجموع علينا بنحوٍ متساوٍ!

وكان واضحًا أنّ ذلك السيد، بما أنّه كان عالمًا مشهورًا يجذب إلى منبره الكثير من الناس، قد حصل على المال الوفير. ولأنّه كان يعلم أنّنا لم نحصل إلّا على القليل، ولم يُرد أن يمنّ علينا بطريقةٍ تنقص من شخصيّتنا أو تهرق ماء وجوهنا، فإنّه طلب ذلك بطريقة المزاح. وفرحنا من أعماقنا فإنّنا قبلنا ذلك بمرحٍ أيضًا ولم يؤذنا هذا الاقتراح. ففي النهاية، أغمضنا عيوننا ووضعنا أموالنا فوق بعضها، ثمّ بعد ذلك قمنا بتقسيمها لنجد ويا للمفاجأة أنّ نصيب كلّ واحدٍ منّا قد ازداد أضعافًا على ما كان عنده! أجل هناك دومًا من تكون الدوافع الماديّة فيه ضعيفةً، ويعمل دومًا من أجل إضعافها بمثل هذه الأعمال. خلاصة الأمر أنّ حياة الإنسان مليئة بالصعاب والحاجات وخاصّةً في ظلّ الغلاء وتضخّم الأسعار الذي قد يعزّز فينا الدوافع الماديّة. فإذا أردنا أن نقلّل من تلك الدوافع، فمن المناسب أن نضع نذرًا نبني فيه على أن نعطي قسمًا ممّا يُقدّم لنا لمن هو أكثر احتياجًا منّا. فمثلما أنّ اليد العليا كثيرة فإنّ اليد السفلى أيضًا كذلك. وهناك من هو أكثر احتياجًا منّا. فلنسع لتخصيص نسبة ممّا نحصل عليه لمن هو أشدّ احتياجًا منّا. ولنسع أن ننفق من الأشياء التي نتعلّق بها ونحبّها، فبهذه الطريقة يقلّ حبّنا للدّنيا ونتّصف بصفات الخير: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾[١].

حين تنفقون فاعملوا على الإنفاق من القطع النقديّة الجديدة لا تلك النقود القديمة والتالفة! فذلك يرفعكم في الدرجات المعنويّة، ويحدّ كذلك من تعلّقكم بالدنيا، ويجعل أعمالكم أكثر خلوصًا. وكما قلنا، فلنصمّم على أن ننفق قسمًا ممّا نحصل عليه، وما أنسب إذا لم نكن بحاجة إلى ذلك المال أن نقدّمه لمن نعلم أنّه مدين، ويطالبه الدائن بالإلحاح لتسديد قروضه، ويتعرّض لإهراق ماء وجهه، بسبب

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

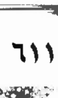

كثرة المطالبين له. فنحن لسنا مدينين، فما الذي يحول دون ذهابنا إلى التبليغ. فلنفترض لا سمح الله أن أحد أفراد أسرتنا قد مرض، ولأجل السهر عليه ومتابعة علاجه لم نقدر على الذهاب إلى التبليغ.

لو كان الإنسان مدينًا وهو يماطل في تسديد ديونه، حتّى صار ماء وجهه في معرض الإراقة، وهو يعلم أنّه إذا لم يذهب للتبليغ فإنه لن يتمكن من أداء دينه، فلا ينبغي أن يمتنع عن الذهاب إلى التبليغ. ذلك لأنّ أداء الدين تكليفٌ واجبٌ، وما المانع أن يقوم بمثل هذه الأعمال التبليغيّة ويراعي فيها شؤون العلماء ويقوم بالأنشطة التبليغيّة بكلّ احترام ولا يرتكب ما يؤدّي إلى إهانة نُظرائه، وإذا قُدِّم له بعض المال وكان قصده من الذهاب إلى التبليغ أن يسدّد دينه، فإنه بذلك لا يكون مخالفًا للشرع. هذا، وإن لم يكن ليصل إلى كمال النفس المفترض في مثل هذه الأعمال. ولا شكّ أنّه يستطيع أن يقصد الإخلاص في هذا الأمر أيضًا، لأنّ أداء الدين واجبٌ، وإذا كانت نيّته بذلك أن يمتثل هذا الأمر الذي فرضه الله على الإنسان وذهب للتبليغ في سبيل الله لكي يحصل على المال ويؤدّي به دينه، فإنّ عمله يكون عبادةً أيضًا.

وفي كلّ الأحوال، يجب أن نسعى للحدّ من الميل إلى الدنيا، وعدم الاكتراث بزخارفها؛ وننظر إلى أحوال مولانا ومقتدانا عليٍّ عَلَيهِ السَّلَامُ الذي كانت زخارف الدنيا عنده حقيرةً إلى الدرجة التي يقول فيها: «أما والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[1].

وفي موضعٍ آخر، يقول عَلَيهِ السَّلَامُ: «والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزيرٍ في يد مجذوم»[2].

فالمبتلى بالجذام سيكون وجهه بشعًا إلى الدرجة التي لا يرغب أحد بالاقتراب منه وخصوصًا إذا كان يُخشى من سراية المرض إليه. فإذا كان هذا

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الخطبة ١٢٣، الصفحة ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، الحكمة ٢٣٦، الصفحة ٥٢.

المجذوم الذي لا يتحمّل الإنسان النظر إليه، يحمل عظم خنزير فمن يرغب بأن يأخذه منه! إنّ الدنيا وزخارفها ومتاعها ومركوبها وأثاثها وباقي إمكاناتها هي أحقر عند أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من عظم خنزير يحمله مجذوم!

وفي موضعٍ آخر يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القَرَظِ وقُراضَةِ الجَلَم واتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمةً فإنّها قد رفضت من كان أشغفَ بها منكم»[١].

ولا شكّ بأنّ كسب المال المباح لا إشكال فيه، فيما لو كان لأجل أداء التكاليف وبالحدّ الذي يرضي الله، ومع رعاية الحدود الشرعيّة. فأدنى الهمم هي التي يكون صاحبها ساعيًا بالاحتيال والتملّق لهذا وذاك وبذل ماء الوجه وخيانة العلماء والإسلام من أجل تأمين دنياه وجمع المال.

وما أجمل أن نضع كلام أمير المؤمنين في آذاننا ونصب أعيننا لكي لا نتعلّق بهذه الدنيا. لأنّ محبّة هذه الدنيا الحقيرة إذا استقرّت في القلب فإنّها تخرج منه تقوى الله ومحبّته. إنّ ذلك القلب الذي استولى عليه حبّ الدنيا التي هي أحقر من عظم خنزيرٍ بيد مجذوم لن يصل إلى عشق الله تعالى وعليّ والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فيجب أن نصفّي القلبَ وننظّفه من القذارات والكدورات لكي تدخل إليه محبّة الله سبحانه ومحبّة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بحيث إذا نطق بتعاليم الدين والقيم الإلهيّة والأخلاق الإسلاميّة فإنّه يكون صادقًا وأكثر تأثيرًا في الآخرين.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الخطبة ٣٢، الصفحة ٧٩.